الكامل في التاريخ

للإمام العلامة عمدة المؤرخين أبي الحسن علي بن أبي الكرم
محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني
المعروف "بابن الأثير" الجزري الملقب بعز الدين
المتوفى سنة "٦٣٠" هـ

من سنة ٥٦٢ لغاية سنة ٦٢٨ للهجرة

راجعه وصححه
الدكتور محمد يوسف الدقاقة

المجلد العاشر

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الرابعة
٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban



ISBN 2-7451-0046-7

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة

ذكر عود أسد الدين شِيركوه

قد ذكرنا سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، مسير أسد الدين شيركوه إلى مصر، وما كان منه، وقفوله إلى الشام، ، فلما وصل إلى الشام، أقام على حاله في خدمة نور الدين إلى الآن، وكان بعد عوده منها لا يزال يتحدث بها، ويقصدها، وكان عنده من الحرص على ذلك كثير، فلما كان هذه السنة، تجهز، وسار في ربيع الآخر، في جيش قوي، وسير معه نور الدين جماعة من الأمراء، فبلغت عدتهم ألفي فارس، وكان كارهاً لذلك، ولكن لمّا رأى جد أسد الدين في المسير، لم يمكنه إلا أنْ يسير معه جمعاً، خوفاً من حادث يتجدد عليهم، فيضعف الإسلام، فلما اجتمع معه عسكره سار إلى مصر على البرِّ، وترك بلاد الفرنج على يمينه، فوصل الديار المصرية، فقصد إطفيح، وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي، ونزل بالجيزة، مقابل مصر، وتصرف في البلاد الغربية، وحكم عليها، وأقام نيفاً وخمسين يوماً.

وكان شاور، لما بلغه مجيء أسد الدين إليهم، قد أرسل إلى الفرنج يستنجدهم، فأتوه على الصعب، والذلول طمعاً في ملكها، وخوفاً أنْ يملكها أسد الدين، فلا يبقى لهم في بلادهم مقام معه، ومع نور الدين، فالرجاء يقودهم، والخوف يسوقهم، فلمّا وصلوا إلى مصر، عبروا إلى الجانب الغربي، وكان أسد الدين وعساكره قد ساروا إلى الصعيد، فبلغ مكاناً يعرف بالبابين، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءه، فأدركوه بها، في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة، وكان أرسل إلى المصريين والفرنج جواسيس، فعادوا إليه، وأخبروه بكثرة عَدَدهم وعُدَدَهم، وجدهم في طلبه، فعزم على قتالهم، إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعُف نفوسهم، عن القتال في هذا المقام الخطر، الذي عطبهم فيه، أقرب من سلامتهم، لقلة عددهم، وبعدهم عن أوطانهم

وبلادهم، وخطر الطريق، فاستشارهم، فكلهم أشاروا عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي، والعود إلى الشام، وقالوا له: إن نحن انهزمنا، وهو الذي يغلب على الظن، فإلى أين نلتجىء، وبمن نحتمي، وكل من في هذه الديار من جندي، وعامي وفلاح، عدو لنا، فقام أمير من مماليك نور الدين، يقال له شرف الدين برغش، صاحب شقيف، وكان شجاعاً، وقال: من يخاف القتال والأسر فلا يخدم الملوك، بل يكون في بيته مع امرأته، والله لئن عدنا إلى نور الدين من غير غلبة، ولا بلاء نعذر فيه، ليأخذن مالنا من أقطاع وجامكية، وليعودن علينا بجميع ما أخذناه، منذ خدمناه إلى يومنا هذا، ويقولون تأخذون أموال المسلمين، وتفرون عن عدوهم، وتسلمون مثل مصر إلى الكفار، والحق بيده. فقال أسد الدين: هذا الرأي، وبه أعمل، وقال ابن أخيه، صلاح الدين، مثله، وكثر الموافقون لهم، واجتمعت الكلمة على القتال، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج، وهو على تعبية، وجعل الأثقال في القلب يتكثر بها، ولأنّه لم يمكنه أنْ يتركها بمكان آخر، فينهبها أهل البلاد، وجعل صلاح الدين في القلب، وقال له، ولمن معه، إنّ المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب، ظنّاً منهم أني فيه، فإذا حملوا عليكم، فلا تصدقوهم القتال، ولا تهلكوا نفوسكم، واندفعوا قدامهم بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم، فارجعوا في أعقابهم، واختار هو من شجعان عسكره جمعاً يثق بهم، ويعرف صبرهم في الحرب، ووقف بهم في الميمنة، فلما تقاتل الطائفتان، فعل الفرنج ما ذكره، وحملوا على القلب، فقاتلهم من به قتالاً يسيراً، وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين، ومعهم الفرنج، فحمل حينئذ أسد الدين، فيمن معه، على من تخلف مِنَ الذين حملوا من المسلمين والفرنج الفارس، والراجل، فهزمهم، ووضع السيف، فيهم، فأثخن، وأكثر القتل، والأسر، فلما عاد الفرنج من أثر المسلمين، رأوا عسكرهم مهزوماً، والأرض منهم قفراً، فانهزموا أيضاً، وكان هذا من أعجب ما يؤرخ، أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل.

ذكر ملك أسد الدين الإسكندرية وعوده إلى الشام

لما انهزم المصريون والفرنج من أسد الدين بالبابين، سار إلى ثغر الإسكندرية، وجبى ما في القرى على طريقه من الأموال، ووصل إلى الإسكندرية، فتسلمها بمساعدة من أهلها، سلموها إليه، فاستناب بها صلاح الدين، ابن أخيه، وعاد إلى

الصعيد، فملكه وجبى أمواله، وأقام به حتى صام رمضان، وأما المصريين والفرنج، فإنهم عادوا واجتمعوا على القاهرة، وأصلحوا حال عساكرهم، وجمعوا، وساروا إلى الإسكندرية، فحضروا صلاح الدين بها، واشتد الحصار، وقل الطعام على من بها، فصبر أهلها على ذلك، وسار أسد الدين من الصعيد إليهم، وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، فوصل رسل الفرنج والمصريين، يطلبون الصلح، وبذلوا له خمسين ألف دينار، سوى ما أخذه من البلاد، فأجاب إلى ذلك، وشرط على الفرنج أن لا يقيموا بالبلاد، ولا يتملكوا منها قرية واحدة، فأجابوا إلى ذلك، واصطلحوا، وعادوا إلى الشام، وتسلم المصريون الإسكندرية في نصف شوال، ووصل شيركوه إلى دمشق ثامن عشر ذي القعدة، وأما الفرنج، فإنهم استقر بينهم وبين المصريين، أنْ يكون لهم بالقاهرة شحنة، وتكون أبوابها بيد فرسانهم، ليمتنع نور الدين من إنقاذ عسكر إليهم، ويكون لهم من دخل مصر كل سنة، مائة ألف دينار، هذا كله استقر مع شاور، فإنّ العاضد لم يكن له معه حكم، لأنه قد حجر عليه، وحجبه عن الأمور، كلها وعاد الفرنج إلى بلادهم بالساحل الشامي، وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم، وكان الكامل شجاع بن شاور، قد أرسل إلى نور الدين مع بعض الأمراء، ينهى محبته، وولاءه ويسأله الدخول في طاعته، وضمن على نفسه أنّه يفعل هذا، وبذل ما لا يحمله كل سنة، فأجابه إلى ذلك، وحمل إليه مالاً جزيلاً، فبقي الأمر على ذلك، إلى أن قصد الفرنج مصر سنة أربع وستين وخمسمائة فكان ما نذكره هناك، إن شاء الله تعالى.

ذكر ملك نور الدين صافيثا وعُرَيمة

في هذه السنة، جمع نور الدين العساكر، فسار إليه أخوه قطب الدين من الموصل وغيره، فاجتمعوا على حمص، فدخل نور الدين بالعساكر بلاد الفرنج، فاجتازوا على حصن الأكراد، فأغاروا، ونهبوا، وقصدوا عرقة، فنازلوها، وحصروها، وحصروا حِلبة، وأخذوها، وخربوها، وسارت عساكر المسلمين في بلادهم يميناً وشمالاً، تغير، وتخرب البلاد، وفتحوا العريمة، وصافيثا، وعادوا إلى حمص، فصاموا بها رمضان، ثم ساروا إلى بانياس، وقصدوا حصن هونين، هو للفرنج أيضاً، من أمنع حصونهم ومعاقلهم، فانهزم الفرنج عنه، وأحرقوه، فوصل نور الدين من الغد، فهدم سوره جميعه، وأراد الدخول إلى بيروت، فتجدد في العسكر خلف أوجب التفرق، فعاد

قطب الدين إلى الموصل، وأعطاه نور الدين مدينة الرقة على الفرات، وكانت له، فأخذها في طريقه، وعاد إلى الموصل.

ذكر قصد ابن شنكا البصرة

في هذه السنة، عاود ابن شنكا، فقصد البصرة، ونهب بلدها، وخربه من الجهة الشرقية، وسار إلى مطارا، فخرج إليه كمشتكين، صاحب البصرة، وواقعه، فاجتمع بشرف الدين أبي جعفر بن البلدي، الناظر فيها، ومعهما مقطعهما ارغش، واتصلت الأخبار، بأنّ ابن شنكا واصل إلى واسط، فخاف الناس منه خوفاً شديداً، فلم يصل إليها.

ذكر قصد شملة العراق

في هذه السنة، وصل شملة، صاحب خوزستان، إلى قلعة الماهكي، من أعمال بغداد، وأرسل إلى الخليفة المستنجد بالله يطلب شيئاً من البلاد، ويشتط في الطلب، فسير الخليفة أكثر عساكره إليه، ليمنعوه، وأرسل إليه يوسف الدمشقي يلومه، ويحذره عاقبة فعله، فاعتذر بأن ايلدكز والسلطان أرسلان نشاه، أقطعا الملك الذي عنده، وهو ولد ملكشاه البصرة، وواسط وعرض التوقيع بذلك، وقال: أنا أقنع بثلث ذلك، فعاد الدمشقي بذلك، فأمر الخليفة بلعنه، وأنه من الخوارج، وجُمعت العساكر، وسُيرت إلى أرغش المسترشدي، وكان بالنعمانية، هو وشرف الدين أبو جعفر بن البلدي، ناظر واسط، مقابل شملة ثم إنّ شملة أرسل قلج، ابن أخيه، في طائفة من العساكر لقتال طائفة من الأكراد، فركب أرغش في بعض العسكر الذي عنده، وسار إلى قلج، فحاربه، فأسر قلج، وبعض أصحابه، وسيرهم إلى بغداد، وبلغ شملة، وطلب الصلح، فلم تقع الإجابة إليه، ثم إنّ أرغش سقط عن فرسه بعد الوقعة فمات، وبقي شملة مقيماً مقابل عسكر الخليفة، فلما علم أنه لا قدرة له عليهم وحل، عاد إلى بلاده، وكانت مدة سفره أربعة أشهر.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، عصى غازي بن حسان المنبجي، على نور الدين محمود بن زنكي

صاحب الشام، وكان نور الدين قد أقطعه مدينة سنبج، فامتنع عليه فيها، فسير إليه عسكراً، فحصروه، وأخذوه منه، وأقطعها نور الدين أخاه قطب الدين ينال بن حسان، وكان عادلاً، خيراً محسناً إلى الرعية، جميل السيرة، فبقي فيها إلى أن أخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة.

وفيها، توفي فخر الدين أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق، صاحب حصن كيفا، وأكثر ديار بكر، ولما اشتد مرضه، أرسل إلى نور الدين محمود، صاحب الشام، يقول له: بيننا صحبة في جهاد الكفار، أريد أنْ ترعى بها ولدي، ثم توفي، وملك بعده ولده محمد، فقام نور الدين الشامي بنصرته، والذب عنه، بحيث إنّ أخاه قطب الدين مودودا، صاحب الموصل، أراد قصد بلاده، فأرسل إليه أخوه نور الدين يمنعه، ويقول له: إن قصدته، أو تعرضت إلى بلاده منعتك قهراً، فامتنع من قصده.

وفيها، توفي أبو المعالي محمد بن الحسين بن حمدون الكاتب، ببغداد، وكان على ديوان الزمام، فقبض عليه، فمات محبوساً.

وفيها توفي قماج المسترشدي، ولد الأمير يزدن، وهو من أكابر الأمراء ببغداد.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة

ذكر فراق زين الدين الموصل وتحكم قطب الدين في البلاد

في هذه السنة، فارق زين الدين علي بن بكتكين، النائب عن قطب الدين مودود ابن زنكي، صاحب الموصل، خدمة صاحبه بالموصل، وسار إلى إربل، وكان هو الحاكم في الدولة وأكثر البلاد بيده، منها إربل، وفيه بيته وأولاده وخزائنه، ومنها شهرزور وجميع القلاع التي معها، وجميع بلد الهكارية وقلاعه، منه العمادية وغيرها، وبلد الحميدية، وتكريت، وسنجار، وحران، وقلعة الموصل، هو بها، وكان قد أصابه طرش وعمى أيضاً، فلما عزم على مفارقة الموصل، إلى بيته بإربل، سلم جميع ما كان بيده من البلاد، إلى قطب الدين مودود، وبقي معه إربل حسب، وكان شجاعاً، عاقلاً، حسن السيرة، سليم القلب، ميمون النقيبة، لم ينهزم من حرب قط، وكان كريماً، كثير العطاء للجند وغيرهم، مدحه الحيص بيص بقصيدة، فلما أراد أن ينشد قال: أنا لا أعرف ما يقول، ولكني أعلم أنه يريد شيئاً، فأمر له بخمسمائة دينار، وفرس، وخلعة، مجموع ذلك ألف دينار، ولم يزل بإربل إلى أن مات بها بهذه السنة، ولما فارق زين الدين قلعة الموصل، سلمها قطب الدين إلى فخر الدين عبد المسيح، وحكمه في البلاد، فعمر القلعة، وكانت خراباً، لأن زين الدين كان قليل الالتفات إلى العمارة، وسار عبد المسيح سيرةً سديدةً، وسياسة عظيمة، وهو خصي أبيض، من مماليك زنكي أتابك عماد الدين.

ذكر الحرب بين البهلوان وصاحب مراغة

في هذه السنة، أرسل آقسنقر الأحمديلي، صاحب مراغة، إلى بغداد، يسأل أن يخطب للملك الذي هو عنده، وهو ولد السلطان محمد شاه، ويبذل أنّه لا يطأ أرض العراق، ولا يطلب شيئاً غير ذلك، وبذل ما لا يحمله إذا أجيب إلى ما التمسه، فأُجيب

بتطييب قلبه، وبلغ الخبر ايلدكز، صاحب البلاد، فساءه ذلك، وجهز عسكراً كثيفاً، وجعل المقدم عليهم ابنه البهلوان، وسيرهم إلى آقسنقر، فوقعت بينهم حرب، أجلت عن هزيمة آقسنقر، وتحصنه بمراغة، ونازله البهلوان، وحصره، وضيّق عليه، ثم ترددت الرسل بينهم، فاصطلحوا، وعاد البهلوان إلى أبيه بهمذان.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، استوزر الخليفة المستنجد بالله، شرف الدين أبا جعفر أحمد بن محمد بن سعيد، المعروف بابن البلدي، وكان ناظراً بواسط، أبان في ولايتها عن كفاية عظيمة، فأحضره الخليفة، واستوزره، وكان عضد الدين أبو الفرج، ابن رئيس الرؤساء، قد تحكم تحكماً عظيماً، فتقدم الخليفة إلى ابن البلدي بكف يده وأيدي أهله وأصحابه، ففعل ذلك، ووكل بتاج الدين، أخي استاذ الدار، وطالبه بحساب نهر الملك، لأنه كان يتولاه من أيام المقتفي، وكذلك فعل بغيره، فحصّل بذلك أموالاً جمّة، وخافه أستاذ الدار على نفسه، فحمل مالاً كثيراً.

وفي هذه السنة، توفي عبد الكريم بن محمد بن منصور أبو سعيد بن أبي المظفر السمعاني المروزي، الفقيه الشافعي، وكان مكثراً من سماع الحديث، سافر في طلبه، وسمع منه ما لم يسمعه غيره، ورحل إلى ما وراء النهر، وخراسان، دفعات، ودخل إلى بلد الجبل، وأصفهان والعراق، والموصل، والجزيرة، والشام، وغير ذلك من البلاد، وله التصانيف المشهورة، منها ذيل تاريخ بغداد، وتاريخ مدينة مرو، وكتاب النسب، وغير ذلك، أحسن فيها ما شاء، وقد جمع مشيخته، فزادت عدتهم على أربعة آلاف شيخ، وقد ذكره أبو الفرج بن الجوزي، فقطعه، فمن جملة قوله فيه: إنه كان يأخذ الشيخ ببغداد، ويعبر به إلى فوق نهر عيسى، فيقول: حدثني فلان بما وراء النهر، وهذا بارد جدا، فإن الرجل سافر إلى ما وراء النهر حقاً، وسمع في عامة بلاده من عامة شيوخه، فأي حاجة به إلى هذا التدليس البارد، وإنما ذنبه عند ابن الجوزي أنه شافعي، وله أسوة بغيره، فإن ابن الجوزي لم يبق على أحد، إلا مكسري الحنابلة.

وفيها، توفي قاضي القضاء، ابو البركات جعفر بن عبد الواحد الثقفي، في جمادى الآخرة.

وفيها، توفي يوسف الدمشقي، مدرس النظامية بخوزستان، وكان قد سار رسولاً إلى شملة.

وفيها توفي الشيخ أبو النجيب الشهرزوري، الصوفي، الفقيه، وكان من الصالحين المشهورين، ودُفِن ببغداد.

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

ذكر ملك نور الدين قلعة جَعْبَر

في هذه السنة، ملك نور الدين محمود بن زنكي، قلعة جعبر، أخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقلي، وكانت بيده، ويد آبائه من قبله، من أيام السلطان ملكشاه ـ وقد تقدم ذكر ذلك ـ وهي من أمنع القلاع، وأحصنها، مطلة على الفرات من الجانب الشرقي، وأما سبب ملكها، فإن صاحبها نزل منها يتصيد، فأخذه بنو كلاب، وحملوه إلى نور الدين، في رجب سنة ثلاث وستين، فاعتقله، وأحسن اليه ورغبه في الأقطاع والمال ليسلم إليه القلعة، فلم يفعل، فعدل الى الشدة، والعنف، وتهدده فلم يفعل، فسير إليها نور الدين، عسكراً، مقدمه الأمير فخر الدين مسعود بن علي الزعفراني، فحصرها مدة، فلم يظفر منها بشيء، فأمدهم بعسكر آخر، وجعل على الجميع الأمير مجد الدين أبا بكر، المعروف بابن الداية، وهو رضيع نور الدين، وأكبر أمرائه، فحصرها أيضا، فلم ير له فيها مطمعاً، فسلك مع صاحبها طريق اللين، وأشار عليه أن يأخذ من نور الدين العوض، ولا يخاطر في حفظها بنفسه، فقبل قوله، وسلمها، فأخذ عوضاً عنها سروج وأعمالها، والملاحة التي بين بلد حلب وباب بزاعة، وعشرين ألف دينار معجلة، وهذا إقطاع عظيم جدا، إلا أنه لا حصن فيه، وهذا آخر أمر بني مالك بالقلعة، ولكل أمر أمد، ولكل ولاية نهاية، بلغني أنه قيل لصاحبها: أيما أحب إليك، وأحسن مقاماً سروج والشام، أم القلعة؟ فقال: هذه أكثرُ مالاً، وأما العز، ففارقناه بالقلعة.

ذكر ملك أسد الدين مصر وقتل شاور

في هذه السنة، في ربيع الأول، سار أسد الدين شيركوه بن شاذي، إلى ديار مصر،

فملكها، ومعه العساكر النورية، وسبب ذلك، ما ذكرناه من تمكن الفرنج من البلاد المصرية، وأنهم جعلوا لهم في القاهرة، شحنة، وتسلموا أبوابها، وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم، وحكموا على المسلمين حكماً جائراً، وركبوهم بالأذى العظيم، فلما رأوا ذلك، وأنّ البلاد ليس فيها من يردهم، أرسلوا إلى ملك الفرنج بالشام، وهو مري، ولم يكن للفرنج مذ ظهر بالشام مثله، شجاعةً، ومكراً، ودهاءً، يستدعونه ليملكها، وأعلموه خلوها من موانع، وهوّنوا عليه، فلم يجبهم، فاجتمع إليه فرسان الفرنج، وذو الرأي منهم، وأشاروا عليه بقصدها، وتملكها، فقال لهم: الرأي عندي، أننا لا نقصدها، ولا طمعة لنا فيها، وأموالها تساق الينا نتقوى بها على نور الدين، وإنْ نحن قصدناها لنملكها، فإنّ صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها، لا يسلمونها إلينا، ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين، ولئن صار له فيها مثل أسد الدين، فهو هلاك الفرنج، وإجلاؤهم مِنْ أرض الشام، فلم يقبلوا قوله، وقالوا له: إنها لا مانع فيها، ولا حامي، وإلى أن يتجهز عسكر نور الدين، ويسير إليها، نكون نحن قد ملكناها، وفرغنا من أمرها، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة، فسار معهم على كره، وشرعوا يتجهزون، ويظهرون أنهم يريدون قصد مدينة حمص، فلما سمع نور الدين شرع أيضاً يجمع عساكره، وأمرهم بالقدوم عليه، وجد الفرنج في السير إلى مصر، فقدموها، ونازلوا مدينة بلبيس، وملكوها قهراً، مستهل صفر ونهبوها، وقتلوا فيها وأسروا، وكان جماعة من أعيان المصريين قد كاتبوا الفرنج، ووعدوهم النصرة، عداوةً منهم لشاور بن الخياط وابن فرجلة، فقوي جنان الفرنج، وساروا من بلبيس إلى مصر، فنزلوا على القاهرة عاشر صفر، وحصروها، فخاف الناس منهم أنْ يفعلوا بهم كما فعلوا بأهل بلبيس، فحملهم الخوف منهم على الامتناع، فحفظوا البلد وقاتلوا دونه، وبذلوا جهدهم في حفظه، فلو أن الفرنج احسنوا السيرة في بلبيس، ملكوا مصر والقاهرة، ولكن الله تعالى حسّن لهم ذلك، أي ما فعلوا ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾[1] وأمر شاور بإحراق مدينة مصر، تاسع صفر، وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة، وأن ينهب البلد، فانتقلوا، وبقوْا على الطرق، ونُهبت المدينة، وافتقر أهلها، وذهبت أموالهم ونعمتهم قبل نزول الفرنج عليهم بيوم، خوفاً أن

---

(١) سورة الأنفال ٤٤ .

يملكها الفرنج، فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً، وأرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين يستغيث به، ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء، وقال: هذه شعور نسائي، من قصري، يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج، فشرع في تسيير الجيوش.

وأما الفرنج فإنهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيّقوا على أهلها، وشاور هو المتولي للأمر والعساكر والقتال، فضاق به الأمر، وضعُف عن ردهم، فأخلد إلى إعمال الحيلة، فأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له مودة ومحبة له قديماً، وأنّ هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد، وإنما المسلمون لا يوافقونه على التسليم إليه، ويشير بالصلح، وأخذ مال لئلا يتسلم البلاد نور الدين، فأجابه إلى ذلك على أن يعطوه ألف ألف دينار مصرية، يعجل البعض، ويمهل البعض، فاستقرت القاعدة على ذلك، ورأى الفرنج أنّ البلاد قد امتنعت عليه، وربما سُلِّمت إلى نور الدين، فأجابوا كارهين، وقالوا نأخذ المال فنتقوى به، ونعاود البلاد بقوة، لا نبالي معها بنور الدين ﴿ومكروا ومكرَ اللهُ خيرُ الماكرين﴾[1] فجعل لهم شاور مائة ألف دينار، وسألهم الرحيل عنه، ليَجمع لهم المال، فرحلوا قريباً، وجعل شاور يجمع لهم المال من أهل القاهرة ومصر، فلم يتحصل له إلا قدر لا يبلغ خمسة آلاف دينار، وسببه أنّ أهل مصر كانوا قد احترقت دورهم، وما فيها وما سلم نُهِب، وهم لا يقدرون على الأقوات، فضلاً عن الأقساط. وأما أهل القاهرة، فالأغلب على أهلها الجند وغلمانهم، فلهذا تعذرت عليهم الأموال، وهم في خلال هذا يراسلون نور الدين بما الناس فيه، وبذلوا له ثلث بلاد مصر، وأنْ يكون أسد الدين مقيماً عندهم في عسكر، وإقطاعهم من البلاد المصرية أيضاً خارجاً عن الثلث الذي لهم، وكان نور الدين لمّا وصله كتب العاضد بحلب، أرسل إلى أسد الدين يستدعيه، إليه، فخرج القاصد في طلبه، فلقيه على باب حلب وقد قدمها من حمص، وكانت أقطاعه. وكان سبب وصوله أنّ كتب المصريين وصلته أيضاً في المعنى، فسار أيضاً إلى نور الدين، واجتمع به، وعجب نور الدين من حضوره في الحال، وسره ذلك، وتفاءل به، وأمر بالتجهيز إلى مصر، وأعطاه مائتي ألف دينار، سوى الثياب، والدواب والأسلحة، وغير ذلك، وحكمه في العسكر والخزائن، واختار

---

(١) سورة آل عمران ٥٤.

من العسكر ألفي فارس، وأخذ المال، وجمع ستة آلاف فارس، وسار هو ونور الدين إلى باب دمشق، فوصلها سلخ صفر، ورحل إلى رأس الماء، وأعطى نور الدين، كل فارس ممن مع أسد الدين عشرين ديناراً، معونة غير محسوبة من جامكيته، وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الأمراء، منهم مملوكه عز الدين جرديك، وغرس الدين قلج، وشرف الدين برغش، وعين الدولة الياروقي، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وصلاح الدين يوسف بن أيوب، أخي شيركوه، على كره منه ﴿وعسى أنْ تكرهوا شيئاً وهوَ خيرٌ لّكُم وعسى أنْ تحبوا شيئاً وهو شرٌ لّكُم﴾(١) أحب نور الدين، مسير صلاح الدين، وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير، وفيه سعادته وملكه، وسيردّ ذلك عند موت شيركوه إن شاء الله تعالى.

وسار أسد الدين شيركوه من رأس الماء مجداً، منتصف ربيع الأول، فلما قارب مصر، رحل الفرنج إلى بلادهم، بخفي حنين خائبين مما أملوا، وسمع نور الدين بعودهم، فسره ذلك، وأمر بضرب البشائر في البلاد، وبث رسله في الآفاق مبشرين بذلك، فإنه كان فتحاً جديداً لمصر، وحفظاً لبلاد الشام وغيرها، فأما أسد الدين، فإنه وصل إلى القاهرة سابع جمادى الآخرة، ودخل إليها، واجتمع بالعاضد لدين الله، وخلع عليه، وعاد إلى خيامه بالخلعة العاضدية، وفرح به أهل مصر، وأجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة، والإقامات الوافرة، ولم يمكن شاور المنع عن ذلك، لأنّه رأى العساكر كثيرة مع شيركوه، وهوى العاضد معهم، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه، وشرع يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل لنور الدين من المال، وإقطاع الجند، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين، ويسير معه، ويعده، ويمنيه ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾(٢) ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة يدعو إليها أسد الدين والأمراء الذين معه، ويقبض عليهم، يستخدم من معهم من الجند، فيمنع بهم البلاد من الفرنج، فنهاه ابنه الكامل، وقال له: والله لئن عزمت على هذا الأمر، لأعرفن شيركوه، فقال له أبوه: والله لئن لم نفعل هذا، لنقتلنّ جميعاً، فقال: صدقت، ولأن نُقْتَل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية، خيرٌ من أنْ نقتل، وقد

---

(١) سورة البقرة ٢١٦.
(٢) سورة النساء ١٢٠.

ملكها الفرنج، فإنّه ليس بينك وبين عوّد الفرنج، إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشي العاضد إلى نور الدين، لم يرسل معه فارساً واحداً، ويملكون البلاد، فترك ما كان عزم عليه، ولما رأى العسكر النوري مطل شاور، خافوا شره، فاتفق صلاح الدين يوسف بن أيوب، وعز الدين جرديك، وغيرهم، على قتل شاور، فنهاهم أسد الدين، فسكنوا، وهم على ذلك العزم مِنْ قتله، فاتفق أنّ شاور قصد عسكر أسد الدين، على عادته، فلم يجده في الخيام، كان قد مضى يزور قبر الشافعي رضي الله تعالى عنه، فلقيه صلاح الدين يوسف، وجرديك في جمع من العسكر، وخدموه، وأعلموه، بأنّ شيركوه في زيارة قبر الإمام الشافعي، فقال: نمضي إليه، فساروا جميعاً فسايره صلاح الدين وجرديك، وألقوه إلى الأرض، عن فرسه، فهرب أصحابه عنه، فأُخذ أسيراً، فلم يمكنهم قتله بغير أمر أسدالدين، فتوكلو بحفظه، وسيروا، أعلموا أسد الدين، فحضر ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه، وسمع الخليفة العاضد صاحب مصر الخبر، فأرسل إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور، وتابع الرسل بذلك، فقُتِل وأرسل رأسه إلى العاضد، في السابع عشر من ربيع الآخرة، ودخل أسد الدين القاهرة، فرأى من اجتماع الخلق، ما خافهم على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين، يعني العاضد - يأمركم بنهب دار شاور، فتفرق الناس عنه إليها، فنهبوها، وقصد هو قصر العاضد، فخلع عليه خلع الوزارة، ولقب الملك المنصور أمير الجيوش، وسار بالخلع إلى دار الوزارة، وهي التي كان فيها شاور، فلم ير فيها ما يقعد عليه، واستقر في الأمر، وغلب عليه، ولم يبق له مانع، ولا منازع، واستعمل على الأعمال من يثق إليه من أصحابه، وأقطع البلاد لعساكره، وأما الكامل بن شاور، فإنه لما قتل أبوه دخل القصر هو وإخوته معتصمين به، فكان آخر العهد بهم، فكان شيركوه يتأسف عليه كيف عُدِم لأنه بلغه ما كان منه مع أبيه في منعه من قتل شيركوه، وكان يقول وددت أنه بقي، لأحسن إليه جزاء الصنيعة.

ذكر وفاة أسد الدين شيركوه

لما ثبت قدم أسد الدين، وظن أنه لم يبق له منازع، أتاه أجله ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة﴾[1] فتوفي يوم السبت، الثاني من جمادى الآخرة، سنة أربع وستين،

---

(١) الأنعام ٤٤.

وخمسمائة، وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام، وأما ابتداء أمره، وسبب اتصاله بنور الدين، فإنه كان هو، وأخوه نجم الدين أيوب، ابنا شاذي، من بلودين، من أذربيجان، وأصلهما من الأكراد، الزوادية، وهذا القبيل هم أشرف الأكراد، فقدما العراق، وخدما مجاهد الدين بهروز، شحنة بغداد، فرأى من نجم الدين عقلاً وافراً، وحسن سيرة، وكان أكبر من شيركوه، فجعله مستحفظاً لقلعة تكريت، وهي له، فسار إليها، ومعه أخوه شيركوه، فلما انهزم أتابك الشهيد زنكي بن آقسنقر بالعراق، من قراجا الساقي ـ على ما ذكرناه ـ سنة ست وعشرين وخمسمائة ـ وصل منهزماً إلى تكريت، فخدمه نجم الدين، وأقام له السفن، فعبر دجلة هناك، وتبعه أصحابه، فأحسن أيوب صحبتهم، وسيرهم، ثم إنّ شيركوه قتل إنساناً بتكريت، لملاحاة جرت بينهما، فأخرجهما بهروز من القلعة، فسار إلى الشهيد زنكي، فأحسن إليهما، وعرف لهما خدمتهما، وأقطعهما أقطاعاً حسناً، فلما ملك قلعة بعلبك، جعل أيوب مستحفظاً بها، فلما قُتِل الشهيد، حصر عسكر دمشق بعلبك، وهو بها، فضاق عليه الأمر، وكان سيف الدين غازي بن زنكي، مشغولاً عنه بإصلاح البلاد، فاضطر إلى تسليمها إليهم، فسلمها على أقطاع ذكره، فأجيب إلى ذلك، وصار من أكبر الأمراء بدمشق! واتصل أخوه، أسد الدين شيركوه، بنور الدين محمود، بعد قتل زنكي، وكان يخدمه في أيام والده، فقربه، وقدمه ورأى منه شجاعة يعجز غيره عنها، فزاده، حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما، وجعله مقدم عسكره، فلما أراد نور الدين ملك دمشق، أمره فراسل أخاه أيوب، وهو بها، وطلب منه المساعدة على فتحها، فأجاب إلى ذلك، على ما يراد منه على أقطاع ذكره له ولأخيه، وقرى يتملكانها، فأعطاهما ما طلبا، وفتح دمشق ـ على ما ذكرناه ـ ووفى لهما وصارا أعظم أمراء دولته، فلما أراد أن يرسل العساكر إلى مصر، لم ير لهذا الأمر العظيم، والمقام الخطر غيره، فأرسله، ففعل ما ذكرناه أولاً وآخراً، والله أعلم.

ذكر ملك صلاح الدين مصر

لما توفي أسد الدين شيركوه، كان معه صلاح الدين يوسف، ابن أخيه أيوب ابن شاذي، قد سار معه على كره منه للسير. حكى لي عنه بعض أصدقائنا، ممن كان قريباً إليه، خصيصاً به، قال: لما وردت كتب العاضد على نور الدين، يستغيث به من الفرنج، ويطلب إرسال العساكر، أحضرني، وأعلمني الحال، وقال تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه، ليحضر، وتحثه أنت على الإسراع، فما يحتمل

الأمر التأخير، ففعلت، وخرجنا من حلب، فما كنا على ميل من حلب، حتى لقيناه قادماً في هذا المعنى، فأمره نور الدين بالمسير، فلما قال له نور الدين ذلك، التفت عمي إليّ، فقال لي: تجهز يا يوسف، فقلت والله لو أعطيت ملك مصر، ما سرت إليها، فلقد قاسيت بالإسكندرية وغيرها، ما لا أنساه أبداً، فقال لنور الدين، لا بد من مسيره معي، فتأمر به، فأمرني نور الدين، وأنا استقيل، وانقضى المجلس، وتجهز أسد الدين، ولم يبق غير المسير، قال لي نور الدين: لا بد من مسيرك مع عمك، فشكوت إليه الضائقة، وعدم البرك، فأعطاني ما تجهزت به، فكأنما أساق إلى الموت، فسرت معه، وملكها، ثم توفي فملكني الله تعالى، ما لا كنت أطمع في بعضه.

وأما كيفية ولايته، فإن جماعة من الأمراء النورية، الذين كانوا بمصر، طلبوا التقدم على العساكر، وولاية الوزارة العاضدية بعده، منهم، عين الدولة الباروقي، وقطب الدين ينال، وسيف الدين المشطوب الهكاري، وشهاب الدين محمد الحارمي، وهو خال صلاح الدين، وكل واحد من هؤلاء يخطبها، وقد جمع أصحابه ليغالب عليها، فأرسل العاضد إلى صلاح الدين، أحضره عنده، وخلع عليه، وولاه الوزارة بعد عمه، وكان الذي حمله على ذلك، أنّ أصحابه قالوا له: ليس في الجماعة، أضعف ولا أصغر سناً من يوسف، والرأي أن يُوَلّى، فإنه لا يخرج من تحت حكمنا، ثم نضع على العساكر من يستميلهم إلينا، فيصير عندنا من الجنود، من نمنع بهم البلاد، ثم نأخذ يوسف، أو نخرجه، فلما خُلع عليه لقب الملك الناصر، ولم يعطه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم، ولا خدموه، وكان الفقيه عيسى الهكاري معه، فسعى مع المشطوب، حتى أماله إليه، وقال له: إنّ هذا الأمر لا يصل إليك مع عين الدولة والحارمي وغيرهما، ثم قصد الحارمي، وقال: هذا صلاح الدين، هو ابن اختك، وعزه، وملكه لك، وقد استقام له الأمر، فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه، ولا يصل اليك، فمال إليه أيضاً ثم فعل مثل هذا بالباقين، وكلهم أطاع، غير عين الدولة الباروقي، فإنه قال: أنا لا أخدم يوسف، وعاد إلى نور الدين بالشام، ومعه غيره من الأمراء، وثبت قدم صلاح الدين، ومع هذا فهو نائب عن نور الدين، وكان نور الدين يكاتبه بالأمير الأسفهسلار، ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً عن أنْ يكتب اسمه، وكان لا يفرده بكتاب، بل يكتب الأمير الأسفهسلار صلاح الدين، وكافة الأمراء

بالديار المصرية يفعلون كذا، واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وبذل الأموال، فمالوا إليه، وأحبوه وضعف أمر العاضد، ثم أرسل صلاح الدين بطلب من نور الدين، أنْ يرسل إليه إخوته وأهله، فأرسلهم إليه، وشرط عليهم طاعته، والقيام بأمره، ومساعدته، وكلهم فعل ذلك، وأخذ إقطاعات الأمراء المصريين، فأعطاها أهله والأمراء الذين معه، وزادهم، فازدادوا له حباً وطاعة.

قد اعتبرت التواريخ، فرأيت كثيراً من التواريخ الإسلامية التي يمكن ضبطها، ورأيت كثيراً ممن يبتدى الملك، تنتقل الدولة عن صلبه إلى بعض أهله وأقاربه، منهم أول الإسلام معاوية بن أبي سفيان، أول من ملك من أهل بيته، فتنقل الملك من أعقابه بني مروان من بني عمه، ثم من بعده السفاح، أول من ملك من بني العباس، انتقل الملك من أعقابه إلى أخيه المنصور، ثم السامانية أول مَنِ استبد منهم نصر بن أحمد، فانتقل الملك عنه إلى أخيه اسماعيل بن أحمد وأعقابه، ثم يعقوب الصفار، وهو أول من ملك من أهل بيته، فانتقل الملك إلى أخيه عمرو وأعقابه، ثم عماد الدولة بن بويه، أول من ملك من أهله، انتقل الملك عنه إلى أخويه ركن الدولة وعز الدولة، ثم خلص في أعقاب ركن الدولة ومعز الدولة، ثم خلص في أعقاب ركن الدولة، ثم الدولة السلجوقية، أول من ملك منهم طغرلبك، انتقل الملك إلى أولاد أخيه داود، ثم هذا شيركوه ـ كما ذكرناه ـ انتقل الملك إلى أعقاب أخيه أيوب، ثم إنّ صلاح الدين، لما أنشأ الدولة، وعظمها، وصار كأنه أول لها، نقل الملك إلى أعقاب أخيه العادل، ولم يبق بيد أعقابه غير حلب، وهذه أعظم الدول الإسلامية، ولولا خوف التطويل، لذكرنا أكثر من هذا، والذي أظنه السبب في ذلك، أنّ الذي يكون أول دولة يكثر، ويأخذ الملك، وقلوب من كان فيه متعلقة به، فلهذا يحرمه الله أعقابه، ومن يفعل ذلك من أجلهم، عقوبة له.

ذكر وقعة السودان بمصر

في هذه السنة، في اوائل ذي القعدة، قُتِل مؤتمن الخلافة، وهو خصي كان بقصر العاضد، إليه الحكم فيه، والتقدم على جميع من يحويه، فاتفق هو، وجماعة من المصريين، على مكاتبة الفرنج، واستدعائهم إلى البلاد، والتقوّي بهم على صلاح

الدين ومن معه، وسيروا الكتب مع إنسان يثقون إليه، وأقاموا ينتظرون جوابه، وسار ذلك إلى القاصد إلى البئر البيضاء، فلقيه إنسان تركماني، فرأى معه نعلين جديدين، فأخذهما منه، وقال في نفسه: لو كان مما يلبسه هذا الرجل، لكانا خلقين، فإنه رث الهيئة، وارتاب به وبهما، فأتى به صلاح الدين، ففتقهما فرأى الكتاب فيهما، فقرأه، وسكت عليه، وكان مقصود، مؤتمن الخلافة، أن يتحرك الفرنج إلى الديار المصرية، فإذا وصلوا إليها، خرج صلاح الدين في العساكر إلى قتالهم، فيثور مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على متخلفيهم، فيقتلونهم، ثم يخرجون، بأجمعهم يتبعون صلاح الدين، فيأتونه من وراء ظهره، والفرنج من بين يديه، فلا يبقى لهم باقية، فلما قرأ الكتاب، سأل عن كاتبه، فقيل رجل يهودي، فأُحضر فأمر بضربه، وتقريره، فابتدأ، وأسلم، وأخبره الخبر، وأخفى صلاح الدين الحال، وأنّ مؤتمن الخلافة استشعر، فلازم القصر، ولم يخرج منه خوفاً، وإذا خرج لم يبعد من صلاح الدين، وصلاح الدين لا يُظهر له شيئاً من الطلب، لئلا ينكر ذلك، فلما طال الأمر، خرج من القصر إلى قرية له، تعرف بالخرقانية للتنزه، فلما علم به صلاح الدين، أرسل إليه جماعة، فأخذوه وقتلوه، وأتوا برأسه، وعزل جميع الخدم الذين يتولون أمر قصر الخلافة، واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش، وهو خصي أبيض، وكان لا يجري في القصر صغيرٌ ولا كبيرٌ، إلا بأمره، فغضب السودان لقتل مؤتمن الخلافة للجنسية، ولأنه كان يتعصب لهم، فحشدوا وجمعوا فزادت عدتهم على خمسين ألفاً، وقصدوا حرب الأجناد الصلاحية، فاجتمع العسكر أيضاً، وقاتلوهم بين القصرين، وكثر القتل في الفريقين، فأرسل صلاح الدين إلى محلتهم المعروفة بالمنصورة، فأحرقها على أموالهم وأولادهم، فلما أتاهم الخبر بذلك، ولّوا منهزمين، فركبهم السيف، وأُخذت عليهم أفواه السكك، فطلبوا الأمان، بعد أنْ كَثُر فيهم القتل، فأُجيبوا إلى ذلك، فأخرجوا من مصر، إلا الجيزة، فعبر اليهم شمس الدولة، أخو صلاح الدين الأكبر، في طائفة من العسكر، فأبادهم بالسيف، ولم يبق منهم إلا القليل الشريد، وكفى الله تعالى شرهم، والله أعلم.

ذكر ملك شملة فارس، واخراجه عنها

في هذه السنة، ملك شملة، صاحب خوزستان، بلاد فارس، وأُخرج عنها.

وسبب ذلك، أن زنكي بن دكلا، صاحبها اساء السيرة، مع عسكره، فأرسلوا إلى شملة بخوزستان، وحسّنوا له قصد فارس، فجمع عساكره، وتجهز، وسار إليها، فخرج إليه زنكي بن دكلا، ووقعت بينهم حرب، خامر فيها أصحاب زنكي عليه، فانهزم في شرذمة من عسكره، ونجا بنفسه، وقصد الأكراد الشوانكار، والتجأ إليهم، فأجاره صاحبها وأحسن ضيافته، ونزل شملة ببلاد فارس، فملكها، فأساء السيرة إلى أهلها، ونهب ابن أخيه، ابن شنكا، البلاد، فتغيرت بواطن أهلها عليه، واجتمع إلى زنكي بعض العسكر الذين خامروا عليه، لما رأوا من سوء سيرة شملة، واستعاد زنكي بلاده، ورجع إلى ملكه، وعاد شملة إلى بلاد خوزستان.

ذكر ملك ايلدكز الري

في هذه السنة، ملك ايلدكز مدينة الري، والبلاد التي كانت بيد اينانج، وسبب ذلك، أنّ ايلدكز كان، قد استقر الأمر بينه وبين إينانج على مال يؤديه إلى ايلدكز، فمنعه سنتين، فأرسل ايلدكز يطلب المال، فاعتذر بكثرة غلمانه وحاشيته، فتجهز ايلدكز، وقصد الري، فالتقاه اينانج، وحاربه حرباً عظيماً، فانهزم اينانج، ومضى منهزماً، فتحصن بقلعة طبرك، فحصره ايلدكز فيها، وراسل سراً، جماعة من مماليكه، فأطمعهم في الإقطاعات، والأموال، والإحسان العظيم، ليقتلوا اينانج، فقتلوه، وكانوا جماعة كثيرة، وسلموا البلد إلى ايلدكز، فرتب فيه عمر بن علي ياغ، وعاد إلى همذان، ولم يف للغلمان الذين قتلوا اينانج، وسلموا البلد إليه بما وعدهم وقال مثل هؤلاء ينبغي أن لا يستخدموا، وأبعدهم عنه، فتفرقوا في البلاد، فسار بعضهم، وهو الذي تولى قتله، إلى خوارزمشاه، فصلبه خوارزمشاه، نكالاً بما فعل بصاحبه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، رؤي في دار الخليفة، رجل غريب، في الطريق التي يركب فيه، وفي يده سكين صغيرة، وفي يده الأخرى سكين كبيرة، فأخذوه، وقرروه، فقال: أنا من حلب، فَحُبس، وعوقب البواب، ولم يُعلم من أين دخل.

وفيها قبض ابن البلدي، وزير الخليفة، على الحسين بن محمد، المعروف بابن السيني، وعلى أخيه الأصغر، وكانا ابني عمة عضد الدين، أستاذ الدار، وكان الأصغر

عامل البيمارستان، فقطعت يده ورجله، قيل كان عنده صنج، يقبض بها، ويحمل إلى الديوان بالصنج الصحيحة، وقيل غير ذلك، وحمل إلى البيمارستان، فمات به، وكان شاعراً، فمن شعره، وهو محبوس، هذه الأبيات:

سلامٌ على أهلي وصحبي وجُلاسي ... ومَنْ في فؤادي ذكرُهُمْ راسبٌ راسي

أعالجُ فيكُم كلّ همٍ، ولا أرى ... لداءِ همومي غير رؤيتِكم آسي

لقد أبدتِ الأيامُ لي كلّ شدةٍ ... تشيبُ لها الأكبادُ فضلاً عن الراسِ

فيا ابنة عبد اللهِ صبراً على الذي ... لقيتُ فهذا الحكمُ من مالكِ الناسِ

فلو أبصرتْ عيناكِ ذلي بكيتِ لي ... بدمعٍ سويّ بالمدامعِ رجاسِ

أقولُ لقلبي والهمومُ تنوشَهُ ... وقد حدثته النفسُ بالضرِ واليأسِ

فلوْ همَّ طيفٌ مِنْ خيالي يزوركُمْ ... لمانَعَهُ دونَ المغالقِ حراسي

وما حذري إلا على النّفسِ لا على ... سواها لأني حلفُ فقرٍ وإفلاسِ

وفيها توفي المعمر بن عبد الواحد بن رجار أبو أحمد الأصفهاني الحافظ، يروي عن أصحاب أبي نعيم، وكان موته بالبادية ذاهباً إلى الحج في ذي القعدة.

وفي رجب منها، توفي الشيخ أبو محمد الفارقي، المتكلم على الناس، وكان أحد الزهاد، له كرامات كثيرة، وكان يتكلم على الخاطر، وكلامه مجموع مشهور.

وفيها، مات جعيفر الرقاص، من ندماء دار الخلافة.

وفي شوال منها، توفي القاضي أبو الحسن علي بن يحيى القرشي الدمشقي.

وفي ذي الحجة، توفي نجم الدين بن محمد بن علي بن القاسم الشهرزوري، قاضي الموصل، وولي ابنه حجة الدين عبد القاهر القضاء.

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة

ذكر حصر الفرنج دمياط

في هذه السنة، في صفر، نزل الفرنج على مدينة دمياط، من الديار المصرية، وحصروها، وكان الفرنج بالشام، لما ملك أسد الدين شيركوه مصر، قد خافوه، وأيقنوا بالهلاك، وكاتبوا الفرنج الذين بصقلية، والأندلس، وغيرها، يستمدونهم، ويعرفونهم ما تجدد من ملك الأتراك مصر، وأنهم خائفون على البيت المقدس منهم، فأرسلوا جماعة من القسوس، والرهبان، يحرضونهم على الحركة، فأمدوهم بالأموال، والرجال والسلاح، واستعدوا للنزول على دمياط، ظناً منهم أنهم يملكونها، ويتخذونها ظهر يملكون به الديار المصرية، ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾[1] فإلى أنْ دخلوا، كان أسد الدين قد مات، وملك صلاح الدين، فاجتمعوا عليها، وحصروها، وضيقوا على من بها، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل، وحشر فيها كل من عنده، وأمدهم بالأموال، والسلاح، والذخائر، وأرسل إلى نور الدين، يشكو ما هم فيه من المخافة، ويقول: إني إن تأخرتُ عن دمياط، ملكها الفرنج، وإنْ سرت إليها، خلفني المصريون في أهلها بالشر، وخرجوا عن طاعتي، وساروا في أثري، والفرنج أمامي، فلا يبقى لنا باقية، فسير نور الدين العساكر إليه أرسالاً يتلو بعضها بعضاً، ثم سار هو بنفسه إلى بلاد الفرنج الشامية، فنهبها، وأغار عليها، واستباحها، فوصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه قبل لخلو البلاد من مانع، فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر ودخول نور الدين إلى بلادهم، ونهبها، وتخريبها رجعوا خائبين، لم يظفروا بشيء، ووجدوا بلادهم خراباً، وأهلها بين قتيل وأسير، فكانوا موضع المثل (خرجت النعامة تطلب قرنين رجعت بلا أذنين). وكانت مدة مقامهم على دمياط خمسين يوماً،

---

(١) سورة الأحزاب ٢٥.

أخرج فيها صلاح الدين أموالاً لاتحصى. حكي أنه قال: ما رأيت أكرمَ من العاضد، أرسل إليّ مرة، لمقام الفرنج على دمياط، ألف ألف دينار مصرية، سوى الثياب وغيرها.

ذكر حصر نور الدين الكرك

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، سار نور الدين إلى بلد الفرنج، فحصر الكرك، وهو من أمنع المعاقل، على طرف البر، وكان سبب ذلك، أن صلاح الدين، أرسل إلى نور الدين، يطلب أن يرسل إليه، والده نجم الدين أيوب، فجهزه نور الدين، وسيره، وسير معه عسكراً، واجتمع معه من التجار خلقٌ كثير، وانضاف إليهم من كان له مع صلاح الدين أنس وصحبة، فخاف نور الدين عليهم من الفرنج، فسار في عساكره إلى الكرك، فحصره وضيق عليه، ونصب عليه المنجنيقات، فأتاه الخبر أنّ الفرنج قد جمعوا له، وساروا إليه، وقد جعلوا في مقدمتهم إليه ابن هنفري، وقريب من الرقيق، وهما فارسا الفرنج في وقتهما، فرحل نور الدين نحو هذين المقدمين، ليلقاهما ومن معهما، قبْل أنْ يلتحق بهما باقي الفرنج، فلما قاربهما، رجعا القهقرى، واجتمعا بباقي الفرنج، وسلك نور الدين وسط بلادهم، ينهب، ويحرق ما على طريقه من القرى، إلى أن وصل إلى بلاد الإسلام، فنزل على عشترا، وأقام ينظر حركة الفرنج، ليلقاهم، فلم يبرحوا من مكانهم، فأقام هو حتى أتاهم خبر الزلزلة الحادثة، فرحل، أما نجم الدين أيوب، فإنه وصل إلى مصر سالماً، هو ومن معه، وخرج العاضد الخليفة، التقاه، إكراماً له.

ذكر غزوة لسرية نورية

كان شهاب الدين الياس بن ايلغازي بن أرتق، صاحب قلعة البيرة، قد سار في عسكره، وهو في مائتي فارس، إلى نور الدين، وهو بعشترا، فلما وصل إلى قرية اللبوة، وهي من عمل بعلبك، ركب متصيداً، فصادف ثلاثمائة فارس من الفرنج، قد ساروا للإغارة على بلاد الإسلام، سابع عشر شوال، فوقع بعضهم على بعض، واقتتلوا، واشتد القتال، وصبر الفريقان، لا سيما المسلمون، فإن ألف فارس، لا يصبرون لحملة ثلاثمائة فارس أفرنجية، وكثُر القتلى بين الطائفتين، فانهزم الفرنج، وعمهم القتل، والأسر، فلم يفلت منهم إلا من لا يعتد به، وسار شهاب الدين برؤوس

القتلى وبالأسرى إلى نور الدين، فركب نور الدين والعسكر، فلقوهم فرأى نور الدين في الرؤوس، رأس مقدم الاسبتار، صاحب حصن الأكراد، وكان من الشجاعة بمحل كبير، وكان شجاً في حلوق المسلمين.

ذكر الزلزلة وما فعلته بالشام

في هذه السنة أيضاً، ثاني عشر شوّال، كانت زلازل عظيمة متتابعة هائلة، لم ير الناس مثلها، وعمت أكثر البلاد من الشام، والجزيرة، والموصل، والعراق، وغيرها من البلاد، وأشدها كان بالشام، فخرجتْ كثيراً من دمشق، وبعلبك، وحمص، وحماة، وشيزر، وبعرين، وحلب، وغيرها، وتهدمت أسوارها، وقلاعها، وسقطت الدور على أهلها، وهلك منهم ما يخرج عن الحد، فلما أتاه الخبر سار إلى بعلبك، ليعمر ما انهدم من سورها وقلعتها، فلما وصلها أتاه خبر باقي البلاد، وخراب أسوارها وقلاعها، وخلوها من أهلها، فجعل ببعلبك من يعمرها، ويحفظها، وسار إلى حمص، ففعل مثل ذلك، ثم إلى حماه، ثم إلى بعرين، وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج، ثم أتى مدينة حلب، فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد، فإنها كانت قد أتت عليها، وبلغ الرعب ممن نجا كل مبلغ، وكانوا لا يقدرون يأوون مساكنهم خوفاً من الزلزلة، فأقام بظاهرها، وباشر عمارتها بنفسه، فلم يزل كذلك، حتى أحكم أسوار البلاد وجوامعها، وأما بلاد الفرنج فإنالزلازل ايضا عملت بها كذلك، فاشتغلوا بعمارة بلادهم خوفاً من نور الدين عليها، فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده خوفاً من الآخر.

ذكر وفاة قطب الدين مودود بن زنكي، وملك ابنه سيف الدين غازي

في هذه السنة في ذي الحجة، مات قطب الدين مودود بن زنكي بن آقسنقر، صاحب الموصل، بالموصل، وكان مرضه حمى حادة، ولما اشتد مرضه، وصّى بالملك بعده لابنه الأكبر عماد الدين زنكي، وعدل عنه إلى ابنه الآخر سيف الدين غازي، وإنما صرف الملك عن ابنه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود، لأن القيِّم بأمور دولته، والمقدم فيها، كان خادماً له، يقال له فخر الدين عبد المسيح وكان يكره عماد الدين لأنّه كان طوع عمه نور الدين لكثرة مقامه عنده، ولأنه زوج ابنته، وكان نور الدين يبغض عبد المسيح، فاتفق فخر الدين، وخاتون ابنة حسام الدين تمرتش بن ايلغازي،

وهي والدة سيف الدين، على صرف الملك عن عماد الدين إلى سيف الدين، فدخل عماد الدين إلى عمه نور الدين، مستنصراً به ليعينه على أخذ الملك لنفسه، وتوفي قطب الدين وعمره نحو أربعين سنة، وكان ملكه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاً، وكان فخر الدين هو المدبر للأمور والحاكم في الدولة، وكان قطب الدين من أحسن الملوك سيرة، وأعفهم عن أموال رعيته، محسناً إليهم، كثير الإنعام عليهم، محبوباً إلى كبيرهم، وصغيرهم، عطوفاً على شريفهم ووضيعهم، كريم الأخلاق، حسن الصحبة لهم، فكأن القائل أراده بقوله:

خُلُقٌ كماءِ المُزْنِ طيبُ مذاقةِ ... والروضةِ الغناءِ طيبُ نسيمِ
كالسيفِ لكن فيه حلمٌ واسعٌ ... عمن جَنَى والسيفُ غيرُ حليمِ
كالغيثِ إلا أنّ وابلَ جودِهِ ... أبداً وَجَوْدَ الغيثِ غيرُ مقيمِ
كالدّهرِ إلاّ أنّه ذُو رَحْمَةٍ ... والدّهر قاسي القلب غيرُ رحيمِ

وكان سريع الانفعال للخير، بطيئاً عن الشر، جم المناقب، قليل المعايب رحمه الله ورضي عنه وعن جميع المسلمين، بمنه، وكرمه، أنه جواد كريم.

ذكر حالة ينبغي للملوك أن يحترزوا من مثلها

حدثني والدي، رحمه الله، قال: كنت أتولى جزيرة ابن عمر، لقطب الدين ـ كما علمتم ـ، فلما كان قبل موته بيسير، أتانا كتاب من الديوان بالموصل، يأمرون بمساحة جميع بساتين العقيمة، وهذه العقيمة هي قرية تحاذي الجزيرة منها دجلة، ولها بساتين كثيرة، بعضها يمسح، فيؤخذ منه على كل جريب شيء معلوم، وبعضها عليه خراج، وبعضها مطلق عن الجميع، قال: وكان لي فيها ملك كثير، فكنت أقول: إنّ المصلحة أنْ لا يغير على الناس شيء، وما أقول هذا لأجل ملكي، فإنني أنا أمسح ملكي، وإنما أريد أن يدوم الدعاء من الناس للدولة، فجاءني كتاب النائب يقول: لا بد من المساحة، قال: فأظهرت الأمر، وكان بها قومٌ صالحون، لي بهم أنس، وبيننا مودة، فجاءني الناس كلهم، وأولئك معهم، يطلبون المراجعة، فأعلمتهم أني راجعت، وما أجبت إلى ذلك، فجاءني منهم رجلان، أعرف صلاحهما، وطلبا مني المعاودة، ومخاطبة ثانية، ففعلت، فأصرّوا على المماسحة، فعرفتهما الحال، قال: فما مضى إلا عدة أيام، وإذ قد جاءني الرجلان، فلما رأيتهما، ظننت أنهما جاءا يطلبان المعاودة، فعجبت

منهما، وأخذت أعتذر إليهما، فقالا: ما جئنا إليك في هذا وإنما جئنا نعرفك أنّ حاجتنا قُضيت، قال: فظننت أنهما قد أرسلا إلى الموصل إلى من يشفع لهما، فقلت: من الذي خاطب في هذا بالموصل؟ فقالا: إنّ حاجتنا قد قُضيت من السماء، ولكافة أهل العقيمة، قال: فظننت أن هذا مما قد حدثا به نفوسهما، ثم قاما عني فلم يمض غير عشرة أيام، وإذا قد جاءنا كتاب من الموصل، يأمرون بإطلاق المساجين، والمحبوسين، والمكوس، ويأمرون بالصدقة، ويقال إنّ السلطان، يعني قطب الدين، مريض، يعني على حالة شديدة، ثم بعد يومين أو ثلاثة، جاءنا الكتاب بوفاته، فعجبت من قولهما، واعتقدته كرامة لهما، فصار والدي، بعد ذلك، يكثر إكرامهما واحترامهما، ويزورهما.

ذكر الحرب بين عساكر ابن عبد المؤمن وابن مردنيش

كان محمد بن سعيد بن مردنيش، ملك شرق الأندلس، قد اتفق هو والفرنج، وامتنع على عبد المؤمن، وابنه بعده، فاستفحل أمره، لا سيما، بعد وفاة عبد المؤمن، فلما كان هذه السنة، جهز إليه يوسف بن عبد المؤمن، فجاسوا بلاده، وخربوها، وأخذوا مدينتين من بلاده، ، وأخافوا عساكره، وجنوده، وأقاموا ببلاده مدة ينتقلون فيها، ويجبون أموالها.

ذكر وفاة صاحب كرمان والخُلف بين أولاده

في هذه السنة، توفي الملك طغرل بن قاورت، صاحب كرمان، واختلف أولاده، بهرام شاه وأرسلان شاه، وهو الأكبر، وجرى بينهما قتالٌ انهزم فيه بهرام شاه إلى خراسان، فدخل على المؤيد صاحب نيسابور، واستنجده، فأنجده بعساكر سار بها إلى كرمان، فجرى بين الأخوين حرب، ظفر فيها بهرام شاه، وهرب أرسلان شاه، فقصد أصفهان مستجيراً بإيلدكز، فأنفذ معه عسكراً، واستنفذوا البلاد من بهرام شاه، وسلموها إلى أخيه أرسلان شاه، فعاد بهرام شاه إلى نيسابور مستجيراً بالمؤيد، صاحبها، فأقام عنده. فاتفق أنّ أخاه أرسلان شاه مات، فسار إلى كرمان، فملكها، وأقام بها بغير منازع.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، كثرت الأذية من عبد الملك بن عطاء، وتطرق الى بلاد حلوان، ونهب، وأفسد، وأخذ من الحجاج، فأنفذ إليه من بغداد عسكر، فنازلوه في قلاعه، وضايقوا، ونهبوا أمواله، وأموال أهله، حتى أذعن بالطاعة، ولا يعاود أذى الحجاج، ولا غيرهم، فعاد عنهم العسكر، وفيها توفي مجد الدين أبو بكر بن الداية، وهو رضيع نور الدين، وكان أعظم الأمراء منزلة، عنده، وله في اقطاعه، حلب، وحارم، وقلعة جعبر، فلما توفي، رد نور الدين، ما كان له، إلى أخيه شمس الدين علي بن الداية.

وفيها في شعبان، توفي أحمد بن صالح بن شافع أبو الفضل الجيلي، وهو من مشهوري المحدثين (الجبلي) بالجيم والياء تحتها نقطتان.

ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة

ذكر وفاة المستنجد بالله

في هذه السنة، تاسع ربيع الآخر، توفي المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، وقد تقدم باقي النسب في غير موضع، وأمه أم ولد اسمها طاوس، وقيل نرجس، رومية، ومولده مستهل ربيع الآخر، سنة عشر وخمسمائة، وكان أسمر، تام القامة، طويل اللحية، وكان سبب موته، أنّه مرض، واشتد مرضه، وكان قد خافه أستاذ الدار عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء، وقطب الدين قايماز المقتفوي، وهو حينئذٍ أكبر أمير ببغداد، فلما اشتد مرض الخليفة، اتفقا، ووضعا الطبيب على أن يصف له ما يؤذيه، فوصف له دخول الحمام، فامتنع لضعفه، ثم إنه دخل، وأغلق عليه بابه، فمات، وهكذا سمعت، من غير واحد ممن يعلم الحال، وقيل: إن الخليفة كتب إلى وزيره، مع طبيبه ابن صفية، يأمره بالقبض على أستاذ الدار، وقطب الدين، وصلبهما، فاجتمع ابن صفية بأستاذ الدار، وأعطاه خط الخليفة، فقال له: تعود، وتقول إنني أوصلت الخط إلى الوزير، ففعل ذلك، وحضر أستاذ الدار قطب الدين، ويزدن أخاه تنامش، وعرض الخط عليهم، فاتفقوا على قتل الخليفة، فدخل إليه يزدن وقايماز الحميدي، فحملاه إلى الحمام، وهو يستغيث، وألقياه، وأغلقا الباب عليه، وهو يصيح، إلى أن مات، رحمه الله، وكان وزيره أبا جعفر بن البلدي، وبينه وبين أستاذ الدار وبين قطب الدين عداوة مستحكمة، لأن المستنجد بالله كان يأمره بأشياء تتعلق بهما، فيفعلهما فكانا يظنان أنه هو الذي يسعى بهما، فلما مرض المستنجد، وأرجف بموته، ركب الوزير ومعه الأمراء والأجناد وغيرهما، بالعدد، فلم يتحقق عنده خبر موته فأرسل إليه عضد الدين، يقول: إنّ أمير المؤمنين قد خف ما به من المرض، وأقبلت العافية، فخاف الوزير أن يدخل دار

الخلافة بالجند، فربما أنكر عليه ذلك، فعاد إلى داره، وتفرق الناس عنه، وكان عضد الدين وقطب الدين قد استعد للهرب لما ركب الوزير، خوفاً منه إنْ دخل الدار أنْ يأخذهما، فلما عاد أغلق أستاذ الدار أبواب الدار، وأظهروا وفاة المستنجد، وأحضر هو وقطب الدين ابنه أبا محمد الحسن، وبايعاه بالخلافة، ولقباه المستضيء بأمر الله، وشرطا عليه شروطاً، أنْ يكون عضد الدين وزيراً، وابنه كمال الدين أستاذ الدار، وقطب الدين أمير العسكر، فأجابهم إلى ذلك، ولم يتول الخلافة من اسمه الحسن إلا الحسن ابن علي بن أبي طالب والمستضيء بأمر الله، واتفقا في الكنية والكرم، فبايعه أهل بيته البيعة الخاصة، يوم توفي أبوه، وبايعه الناس من الغد في التاج، بيعة عامة، وأظهر من العدل أضعاف ما عمل أبوه، وفرق أموالاً جليلة المقدار، وعلم الوزير ابن البلدي، فسقط في يده، وقرع سنه ندماً، على ما فرط في عوده، حيث لا ينفعه، وأتاه من يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضيء، فمضى إلى دار الخلافة، فلما دخلها صُرِف إلى موضع، وقُتِل، وقُطِع قطعاً، وألقي في دجلة، رحمه الله، وأخذا جميع ما في داره، فرأيا فيها خطوط المستنجد بالله، يأمره فيها بالقبض عليهما، وخط الوزير قد راجعه في ذلك، وصرفه عنه، فلما وقفا عليها، عرفا براءته مما كانا يظنا فيه، فندما، حيث فرطا في قتله، وكان المستنجد بالله منْ أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية، عادلاً فيهم، كثير الرفق بهم، وأطلق كثيراً من المكوس، ولم يترك بالعراق منها شيئاً، وكان شديداً على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس.

بلغني أنّه قبض على إنسان كان يسعى بالناس، فأطال حبسه، فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته، وبذل عنه عشرة آلاف دينار، فقال: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار، وتحضر لي إنسانا آخر مثله، لأكف شره عن الناس، ولم يطلقه وردَّ كثيراً من الأموال على أصحابها أيضاً، وقبض على القاضي ابن المرخم، وأخذ منه مالاً كثيراً، فأعاده على أصحابه أيضاً، وكان ابن المرخم ظالماً جائراً في أحكامه.

ذكر ملك نور الدين الموصل وإقرار سيف الدين عليها

لما بلغ نور الدين محموداً، وفاة أخيه قطب الدين مودود، صاحب الموصل، وملك ولده سيف الدين غازي الموصل، والبلاد التي كانت لأبيه، بعد وفاته، وقام فخر الدين عبد المسيح بالأمر معه، وتحكمه عليه، وكان يبغض فخر الدين لما يبلغه عنه من

خشونة سياسته، فقال: أنا أولى بتدبير أولاد أخي، وملكهم، وسار عند انقضاء العزاء جريدة في قلة من العسكر، وعبر الفرات عند قلعة جعبر، مستهل المحرم، من هذه السنة، وقصد الرقة فحصرها، وأخذها، ثم سار إلى الخابور، فملكه جميعه، وملك نصيبين، وأقام بها، فجمع العساكر، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود، صاحب حصن كيفا، وكثر جمعه، وكان قد ترك أكثر عساكره بالشام، لحفظ ثغوره، فلما اجتمعت العساكر، سار إلى سنجار، فحصرها، ونصب المنجنيقات، وملكها، وسلمها إلى عماد الدين، ابن أخيه قطب الدين، وكان قد جاءته كتب الأمراء الذين بالموصل سراً، يبذلون له الطاعة، ويحثونه على الوصول إليهم، فسار إلى الموصل، فأتى مدينة بلد، وعبر دجلة عندها، مخاضة إلى الجانب الشرقي، وسار، فنزل شرقي الموصل، على حصن نينوى، ودجلة، بينه وبين الموصل، ومن العجب، أنّ يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة، وكان سيف الدين غازي، قد سير عز الدين مسعود بن قطب الدين إلى أتابك شمس الدين أيلدكز، صاحب همذان، وبلد الجبل، وأذربيجان، وأصفهان، والري، وتلك الأعمال، يستنجده على عمه نور الدين، فأرسل أيلدكز رسولاً إلى نور الدين، ينهاه عن التعرض إلى الموصل، ويقول له: إنّ هذه البلاد للسلطان، فلا تقصدها، فلم يلتفت إليه، وقال للرسول: قل لصاحبك، أنا أصلح لأولاد أخي منك، فلم تدخل نفسك بيننا، وعند الفراغ من إصلاح بلادهم، يكون الحديث معك على باب همذان، فإنك قد ملكت هذه المملكة العظيمة، وأهملت الثغور، حتى غلب الكرج عليها، وقد بليت أنا، ولي مثل ربع بلادك، بالفرنج، وهم أشجع العالم، فأخذت معظم بلادهم، وأسرت ملوكهم، ولا يحل لي السكوت عنك، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت، وإزالة الظلم عن المسلمين، فأقام نور الدين على الموصل، فعزم من بها من الأمراء، على مجاهرة فخر الدين عبد المسيح وتسليم البلد إلى نور الدين، فعلم ذلك، فأرسل إلى نور الدين في تسليم البلد إليه، على أن يقره بيد سيف الدين، ويطلب لنفسه الأمان ولما له، فأجابه إلى ذلك، وشرط أنّ فخر الدين يأخذه معه إلى الشام، ويعطيه عنده إقطاعاً يرضيه، فتسلم البلد ثالث عشر جمادى الأولى من هذه السنة، ودخل القلعة من باب السر، لأنه لمّا بلغه عصيان عبد المسيح عليه، حلف أنْ لا يدخلها إلا من أحصن موضع فيها، ولما ملكها، أطلق ما بها من المكوس، وغيرها، من أبواب المظالم، وكذلك فعل بنصيبين وسنجار والخابور،

وهكذا كان جميع بلاده من الشام، ومصر، ووصله، وهو على الموصل يحاصرها، خلعة من الخليفة المستضيء بأمر الله، فلبسها، ولما ملك الموصل، خلعها على سيف الدين، ابن اخيه، وأمره، وهو بالموصل بعمارة الجامع النوري، وركب هو بنفسه إلى موضعه، فرآه، وصعد منارة مسجد أبي حاضر، فأشرف منها على موضع الجامع، فأمر أنْ يضاف إلى الأرض، التي شاهدها، ما يجاورها من الدور والحوانيت، وأنْ لا يؤخذ منها شيء، بغير اختيار أصحابه، وولي الشيخ محمد الملا عمارته، وكان من الصالحين الأخيار، فاشترى الأملاك من أصحابها بأوفر الأثمان، وعمّره، فخرج عليه أموال كثيرة، وفرغ من عمارته سنة ثمان وستين وخمسمائة. وأما نور الدين، فإنه عاد إلى الشام، واستناب في قلعة الموصل خصياً كان له، اسمه كمشتكين، ولقبه سعد الدين، وأمر سيف الدين، أن لا ينفرد عنه بقليل من الأمور ولا بكثير، وحكمه، وأقطع مدينة سنجار لعماد الدين، ابن اخيه قطب الدين، فلما فعل ذلك، قال كمال الدين بن الشهرزوري : هذا طريق الى أذى يحصل ببيت أتابك، لأن عماد الدين كبير، لا يرى طاعة سيف الدين، وسيف الدين، هو الملك، لا يرى الإغضاء لعماد الدين، فيحصل الخلف، ويطمع الأعداء، فكان كذلك ـ على ما نذكره ـ سنة سبعين وخمسمائة، وكان مقام نور الدين بالموصل أربعة وعشرين يوما، واستصحب معه فخر الدين عبد المسيح، وغير اسمه، فسماه عبد الله، وأقطعه إقطاعاً كبيراً.

ذكر غزو صلاح الدين بلاد الفرنج وفتح أيلة

وفي هذه السنة، سار صلاح الدين أيضاً، عن مصر إلى بلاد الفرنج، فأغار على أعمال عسقلان، والرمة، وهجم على ربض غزة، فنهبه، وأتاه ملك الفرنج في قلة من العسكر مسرعين، لرده عن البلاد، فقاتلهم، وهزمهم، وأفلت ملك الفرنج، بعد أنْ أشرف أنْ يؤخذ أسيراً، وعاد إلى مصر، وعمل مراكب مفصلة، وحملها قطعاً على الجمال في البر، وقصد أيلة، فجمع قطع المراكب، وألقاها في البحر، وحصر أيلة براً وبحراً، وفتحها في العشر الأول من ربيع الآخر، واستباح أهلها، وما فيها، وعاد الي مصر.

ذكر ما اعتمده صلاح الدين بمصر هذه السنة

كان بمصر دار للشحنة، تسمى دار المعونة، يحبس فيها منْ يريد حبسه، فهدمها

صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية، وأزال ما كان فيها من الظلم، وبنى دار العدل مدرسة للشافعية أيضاً، وعزل قضاة المصريين وكانوا شيعة، وأقام قاضياً شافعياً في مصر، فاستناب القضاة الشافعية في جميع البلاد في العشرين من جمادى الآخرة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، اشترى تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين، منازل العز بمصر، وبناها مدرسة للشافعية.

وفيها أغار شمس الدولة تورانشاه، أخو صلاح الدين، على الأعراب الذين بالصعيد، وكانوا قد أفسدوا في البلاد، ومدوا أيديهم، فكفوا عما كانوا يفعلونه.

وفيها مات القاضي ابن الخلال، من أعيان الكتاب المصريين، وفضلائهم، وكان صاحب ديوان الإنشاء بها.

وفيها، وقع حريق ببغداد، في درب المطبخ، وفي خرابة ابن جردة.

وفيها توفي الأمير نصر بن المستظهر بالله، عم المستنجد بالله، وحموه، وهو آخر من مات من أولاد المستظهر بالله، وكان موته في ذي القعدة، ودفن في الترب بالرصافة.

وفيها، جعل ظهير الدين أبو بكر نصر بن العطار، صاحب المخزن ببغداد، ولُقِّب ظهير الدين.

وفيها، حج بالناس، الأمير طاشتكين المستنجدي، وكان نعم الأمير، رحمه الله.

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

ذكر إقامة الخطبة العباسية بمصر، وانقراض الدولة العلوية

في هذه السنة، في ثاني جمعة من المحرم، قطعت خطبة العضد لدين الله أبي محمد الإمام عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد بن أبي القاسم محمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن علي بن الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور بن العزيز بالله أبي منصور بن نزار بن المعز لدين الله أبي تميم معد بن المنصور بالله أبي الظاهر إسماعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن المهدي بالله أبي محمد عبيد الله، وهو أول العلويين من هذا البيت الذين خطب لهم بالخلافة، وخوطبوا بأمرة المؤمنين، وكان سبب الخطبة العباسية بمصر، أنّ صلاح الدين يوسف بن أيوب، لما ثبت قدمه بمصر، وأزال المخالفين له، وضعف أمر الخليفة بها، العاضد، وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين، ونائبه قراقوش، وهو خصي كان من أعيان الأمراء الأسدية، كلهم يرجعون إليه، فكتب إليه نور الدين محمود بن زنكي، يأمره بقطع الخطبة العاضدية، وإقامة الخطبة المستضيئية، فامتنع صلاح الدين، واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليهم، لميلهم إلى العلويين، وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم، ويريد بقاءهم خوفاً من نور الدين، فإنه كان يخافه أن يدخل إلى الديار المصرية، يأخذها منه، فكان يريد يكون العاضد معه، حتى إنْ قصده نور الدين، امتنع به، وبأهل مصر، عليه، فلما اعتذر إلى نور الدين بذلك، لم يقبل عذره، وألح عليه بقطع خطبته، وألزمه إلزاماً، لا فسحة له في مخالفته، وكان على الحقيقة نائب نور الدين، واتفق أن العاضد مرض هذا الوقت، مرضاً شديداً، فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته، استشار أمراءه، فمنهم من أشار به، ولم يفكر في المصريين، ومنهم من خافه، إلا أنه ما يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين،

وكان قد دخل إلى مصر، إنسان أعجمي، يعرف بالأمير العالم، رأيته أنا بالموصل، فلما رأى ما هم فيه من الإحجام، وأنّ أحداً لا يتجاسر، يخطب للعباسي، قال: أنا ابتدىء بالخطبة له، فلما كان أول جمعة من المحرم، صعد المنبر قبل الخطيب، ودعا للمستضيء، ففعلوا ذلك، فلم يتنطح فيها عنزان، وكتب بذلك إلى سائر بلاد مصر، ففعلوا، وكان العاضد قد اشتد مرضه، فلم يعلمه أحد من أهله وأصحابه بقطع الخطبة، وقالوا إنْ عوفي فهو يعلم، وإنْ توفي فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته، فتوفي يوم عاشوراء، ولم يعلم بقطع الخطبة، ولما توفي، جلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على قصر الخلافة، وعلى جميع ما فيه، فحفظه بهاء الدين قراقوش، الذي كان قد رتبه قبل موت العاضد، فحمل الجميع إلى صلاح الدين، وكان من كثرته يخرج عن الإحصاء، وفيه من الأعلاق النفيسة الأشياء الغريبة، ما تخلو الدنيا عن مثله، ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم، فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهماً، أو سبعة عشر مثقالاً، أنا لا أشك فإنني رأيته، ووزنته، واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله، ومنه النصاب الزمرد، الذي طوله أربع أصابع في عرض عقد كبير، ووجد فيه طبل، كان بالقرب من موضع العاضد وقد احتاطوا بالحفظ، فلما رأوه ظنوه عُمل لأجل اللعب فيه، فسخروا من العاضد، فأخذ إنسان، فضرب به، فضرط، فتضاحكوا منه، ثم آخر كذلك، وكان كل من ضرب به، ضرط، فألقاه أحدهم، فكسره، فإذا الطبل لأجل قولنج، فندموا على كسره لما قيل لهم ذلك، وكان فيه من الكتب النفيسة، المعدومة المثل، ما لا يعد، فباع جميع ما فيه، ونقل أهل العاضد إلى موضع من القصر، ووكل بهم من يحفظهم، وأخرج جميع من فيه من أمة وعبد، فباع البعض، وأعتق البعض، ووهب البعض، وخلا القصر من سكانه، **كأن لم يُغْنَّ بالأمس** فسبحان الحي الدائم، الذي لا يزول ملكه، ولا تغيره الدهور، ولا يقرب النقص حماه، ولما اشتد مرض العاضد، أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه، فظن ذلك خديعة، فلم يمض إليه، فلما توفي علم صدقه، فندم على تخلفه عنه، وكان يصفه كثيراً بالكرم، ولين الجانب، وغلبة الخير على طبعه، وانقياده، وكان في نسبه تسع خطب لهم بالخلافة، وهم الحافظ، والمستنصر، والظاهر، والحاكم، والعزيز، والمعز، والمنصور، والقائم، والمهدي، ومنهم من لم يخطب له بالخلافة، أبوه يوسف بن الحافظ، وجد أبيه، وهو الأمير أبو القاسم محمد بن المستنصر، وبقي من خطب له بالخلافة، وليس من آبائه

المستعلي، والآمر، والظافر، والفائز، وجميع من خطب له منهم بالخلافة، أربعة عشر خليفة، منهم، بأفريقية المهدي، والقائم، والمنصور، والمعز، إلى أن سار إلى مصر، ومنهم بمصر، المعز، المذكور، وهو أول من خرج إليها من أفريقية، والعزيز، والحاكم والظاهر، والمستنصر، والمستعلي، والآمر، والحافظ، والظافر والفائز، والعاضد، وجميع مدة ملكهم، من حين ظهر المهدي بسجلماسة، في ذي الحجة من سنة تسع وتسعين ومائتين، إلى أن توفي العاضد، مائتان واثنتان وسبعون سنة وشهر تقريباً، وهذا دأب الدنيا، لم تعط إلا واستردت، ولم تحل، إلا وتمررت، ولم تصف، إلا وتكدرت، بل صفوها لا يخلو من الكدر، وكدرها قد يخلو من الصفو، نسأل الله تعالى أن يقبل قلوبنا إليه، ويرينا الدنيا حقيقة، ويزهدنا فيها، ويرغبنا في الآخرة، إنه سميع الدعاء، قريب من الإجابة.

ولما وصلت البشارة إلى بغداد، بذلك، ضُربت البشائر بها عدة أيام، وزُينت بغداد، وظهر من الفرح والجذل ما لا حد عليه، وسُيرت الخلع مع عماد الدين صندل، وهو من خواص الخدم المقتفوية، والمقدمين في الدولة، لنور الدين، وصلاح الدين، فسار صندل إلى نور الدين، وألبسه الخلعة وسير الخلعة التي لصلاح الدين، وللخطباء، بالديار المصرية، والأعلام السود، ثم إن هذا صندلا صار أستاذ دار الخليفة المستضيء بأمر الله ببغداد، وكان يدري الفقه على مذهب الشافعي، وسمع الحديث، ورواه، ويعرف أشياء حسنة، وفيه دين، وله معروف كثير، وهو من محاسن بغداد.

ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطنا

في هذه السنة، جرت أمور أوجبت أن تأثر نور الدين من صلاح الدين، ولم يظهر ذلك، وكان سببه، أنّ صلاح الدين يوسف بن أيوب، سار عن مصر في صفر من هذه السنة، إلى بلاد الفرنج، غازياً، ونازل حصن الشوبك، وبينه وبين الكرك يوم، وحصره، وضيق على من به من الفرنج، وأدام القتال، وطلبوا الأمان، واستمهلوه عشرة أيام، فأجابهم إلى ذلك، فلما سمع نور الدين، بما فعله صلاح الدين، سار عن دمشق، قاصداً بلاد الفرنج أيضاً، ليدخل إليه من جهة أخرى، فقيل لصلاح الدين: إن دخل نور الدين بلاد الفرنج، وهم على هذه الحال، أنت من جانب، ونور الدين من جانب، ملكها، ومتى زال الفرنج عن الطريق، وأخذ ملكهم، لم يبق بديار مصر مقام

مع نور الدين، وإن جاء نور الدين إليك وأنت ههنا، فلا بد لك من الاجتماع به، وحينئذ يكون هو المتحكم فيك، بما شاء إن شاء تركك أولاً، فقد لا تقدر على الامتناع عليه، والمصلحة الرجوع إلى مصر، فرحل عن الشوبك عائداً إلى مصر، ولم يأخذه من الفرنج، وكتب إلى نور الدين، يعتذر باختلال البلاد المصرية، لأمور بلغته، عن بعض شيعته العلويين، وإنهم عازمون على الوثوب بها، فإنه يخاف عليها من البعد عنها، أن يقوم أهلها على من تخلف بها، فيخرجوهم، وتعود ممتنعة وأطال الاعتذار، فلم يقبلها نور الدين منه، وتغير عليه، وعزم على قصد مصر، وإخراجه عنها، وظهر ذلك، فسمع صلاح الدين الخبر، فجمع أهله، وفيهم أبوه نجم الدين أيوب، وخاله شهاب الدين الحارمي، ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين، وحركته إليه واستشارهم، فلم يجبه أحد بكلمة واحدة، فقام تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين، فقال: إذا جاءنا قاتلناه، ومنعناه عن البلاد، ووافقه غيره من أهلهم، فشتمهم نجم الدين أيوب، وأنكر ذلك، واستعظمه، وشتم تقي الدين، وأقعده وقال لصلاح الدين: أنا أبوك، وهذا خالك شهاب الدين، ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى، والله لو رأيت، أنا وهذا خالك، نور الدين، لم نمكث إلا أن نقتل بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف، لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا، فما ظنك بغيرنا، وكل من تراه عندك من الأمراء، لو رأى نور الدين وحده، لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم، وهذه البلاد له، ونحن مماليكه، ونوابه فيها، فإن أراد سمعنا وأطعنا، والرأي أن تكتب كتاباً مع نجاب، تقول فيه، بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد، فأي حاجة إلى هذا، يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني إليك، وما ههنا من يمتنع، وقام الأمراء، وغيرهم، وتفرقوا على هذا، فلما خلى به أيوب، قال له: بأي عقل فعلت هذا، أما تعلم أنّ نور الدين، إذا سمع عزمنا على منعه، ومحاربته، جعلنا أهم الوجوه إليه، وحينئذ لا نقوى عليه، وأما الآن إذا بلغه ما جرى وطاعتنا له، تركنا، واشتغل بغيرنا، والأقدار تعمل عملها، ووالله لو أراد نور الدين قصبة، من قصب السكر، لقاتلته أنا عليها، حتى أمنعه أو أقتل، ففعل صلاح الدين ما أشار به، فترك نور الدين قصده، واشتغل بغيره، فكان الأمر كما ظنه أيوب، فتوفي نور الدين، ولم يقصده، وملك صلاح الدين البلاد، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها .

ذكر غزوة إلى الفرنج بالشام

وفي هذه السنة، خرج مركبان من مصر إلى الشام، فأرستا بمدينة لاذقية، فأخذهما الفرنج، وهمامملوءتان من الأمتعة والتجارة، وكان بينهم وبين نور الدين هدنة، فنكثوا، وغدروا، فأرسل نور الدين إليهم في المعنى، وإعادة ما أخذوه من أموال التجار، فغالطوه، واحتجوا بأمور منها، أنّ المركبين كانا قد انكسرا، ودخلهما الماء، وكان الشرط أن كل مركب ينكسر، ويدخله الماء، يأخذونه، فلم يقبل مغالطتهم، وجمع العساكر، وبث السرايا في بلادهم، بعضها نحو أنطاكية، وبعضها نحو طرابلس، وحصر هو حصن عرقة، وخرب ربضة، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصن صافيثا وعريمة، فأخذهما عنوة، ونهب وخرب وغنم المسلمون غنائم كثيرة، وعادوا إليه وهو بعرقة فسار في العساكر جميعها، إلى أن قارب طرابلس، ينهب، ويخرب، ويحرق، ويقتل، وأما الذين ساروا إلى أنطاكية، ففعلوا في ولايتها مثل ما فعل في ولاية طرابلس، فراجعه الفرنج، وبذلوا جميع ما أخذوه من المركبين، وتجديد الهدنة، معهم، فأجابهم إلى ذلك، وأعادوا ما أخذوا، وهم صاغرون، وقد خربت بلادهم، وغنمت أموالهم.

ذكر وفاة ابن مردنيش وملك يوسف بن عبد المؤمن بلاده

في هذه السنة، توفي الأمير محمد بن سعد بن مردنيش، صاحب البلاد، بشرق الأندلس، وهي مرسية وبلنسية وغيرهما، ووصى أولاده، أن يقصدوا، بعد موته، الأمير أبا يعقوب، وكان قد اجتاز إلى الأندلس، في مائة ألف مقاتل، قبل موت ابن مردنيش، فحين رآهم يوسف، فرح بهم، وسره قدومهم عليه، وتسلم بلادهم وتزوج أختهم، وأكرمهم، وعظم أمرهم، ووصلهم بالأموال الجزيلة، وأقاموا معه.

ذكر عبور الخطا جيحون والحرب بينهم وبين خوارزمشاه

في هذه السنة، عبر الخطا نهر جيحون، يريدون خوارزم، فسمع صاحبها، خوارزمشاه ايل أرسلان بن أتسز، فجمع عساكره، وسار إلى أمرية ليقاتلهم، ويصدهم، فمرض وأقام بها، وسير بعض جيشه مع أمير كبير إليهم، فلقيهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم الخوارزميون، وأسر مقدمهم، ورجع به الخطا إلى ما وراء النهر،

وعاد خوارزمشاه إلى خوارزم مريضاً.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، اتخذ نور الدين بالشأم، الحمام الهوادي، وهي التي يقال لها المناسيب، وهي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، وجعلها في جميع بلاده، وسبب ذلك، أنه لما اتسعت بلاده، وطالت مملكته، وعرضت أكنافها، وتباعدت أوائلها عن أواخرها، ثم إنها جاورت بلاد الفرنج، وكانوا، ربما، نازلوا حصناً من ثغوره، فالى أن يصل الخبر، ويصل إليهم، قد بلغوا غرضهم منه، أمر بالحمام ليصل الخبر اليه في يومه. وأجرى الجرايات على المرتبين لحفظها، وإقامتها، فحصل منها الراحة العظيمة، والنفع الكبير للمسلمين.

وفيها عزل الخليفة، المستضيء بأمر الله، وزيره، عضد الدين أبا الفرج ابن رئيس الرؤساء، لأن قطب الدين قايماز ألزمه بعزله، فلم يمكنه مخالفته.

وفيها، مات أبو محمد عبد الله بن أحمد الخشاب اللغوي، وكان قيماً بالعربية، وسمع الحديث.

وفيها مات البوري، الفقيه الشافعي، تفقه على محمد بن يحيى، وقدم بغداد، ووعظ، وكان يذم الحنابلة، وكثرت أتباعه، فأصابه إسهال، فمات هو وجماعة من أصحابه، فقيل إن الحنابلة أعدوا له حلوا، فأكل منها، فمات وكل من أكل منها.

وفيها، مات القرطبي أبو بكر يحيى بن سعدون، بن تمام الأزدي الأندلسي، وكان إماماً في القراءة والنحو، وغيره من العلوم، زاهداً، عابداً، انتفع به الناس في كثير من البلاد، ولا سيما أهل الموصل، فإنه أقام بها، وفيها توفي، رحمه الله.

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة

ذكر وفاة خوارزمشاه ايل أرسلان وملك ولده سلطانشاه وبعده ولده الآخر تُكش وقتل المؤيد وملك ابنه

في هذه السنة، توفي خوارزمشاه ايل أرسلان بن أتسز بن محمد بن أنوشتكين، قد عاد من قتال الخطا مريضا، فتوفي، وملك بعده سلطانشاه محمود، ودبرت والدته المملكة والعساكر، وكان ابنه الأكبر علاء الدين تكش مقيماً في الجند، قد أقطعه أبوه إياه، فلما بلغه موت أبيه، وتولية أخيه، الصغير، أنف من ذلك، وقصد ملك الخطا، واستمده على أخيه، وأطمعه في الأموال، وذخائر خوارزم، فسير معه جيشاً كثيفاً، مقدمهم قرماً، فساروا، حتى قاربوا خوارزم، فخرج سلطانشاه وأمه إلى المؤيد، وأهدى له هدية جليلة المقدار، ووعده أموال خوارزم وذخائرها، فاغتر بقوله، وجمع جيوشه، وسار معه، حتى بلغ سوبرلي بليدة، على عشرين فرسخا من خوارزم، وكان تكش قد عسكر بالقرب منها، فتقدم إليهم، فلما تراءى الجمعان، انهزم عسكر المؤيد، وكسر المؤيد، وأخذ أسيرا، وجيء به إلى خوارزمشاه، تكش، فأمر بقتله، فقُتل بين يديه صبراً، وهرب سلطانشاه، وأخذ إلى دهستان، فقصده خوارزمشاه،تكش، فافتتح المدينة عنوة، فهرب سلطانشاه، وأُخذت أمه، فقتلها تكش، وعاد إلى خوارزم، ولما عاد المنهزمون إلى نيسابور، ملكوا صفانشاه، أبا بكر بن المؤيد، واتصلّ به سلطانشاه، ثم سار من هناك إلى غياث الدين ملك الغورية، فأكرمه، وعظمه، وأحسن ضيافته، وأما علاء الدين تكش، فإنه لما ثبت قدمه بخوارزم، اتصلت به رسل الخطا، بالاقتراحات والتحكم كعادتهم، فأخذته حمية الملك والدين، وقتل أحد أقارب الملك، وكان قد ورد إليه، ومعه جماعة، أرسله ملكهم في مطالبة خوارزمشاه بالمال، فأمر خوارزمشاه أعيان خوارزم، اتصلت به رسل الخطا، بالاقتراحات والتحكم كعادتهم، فأخذته حمية الملك والدين، وقتل أحد أقارب الملك، وكان قد ورد إليه،

ومعه جماعة، أرسله ملكهم في مطالبة خوارزمشاه بالمال، فأمر خوارزمشاه أعيان خوارزم، فقتل كل واحد منهم رجلاً من الخطا، فلم يسلم منهم أحد، ونبذوا إلى ملك الخطا عهده، وبلغ ذلك سلطانشاه، فسار إلى ملك الخطا، واغتنم الفرصة بهذه الحال، واستنجده على أخيه علاء الدين تكش، وزعم له أنّ أهل خوارزم معه يريدونه ويختارون ملكه عليهم، ولو رأوه لسلموا البلد إليه، فسير معه جيشاً كثيراً من الخطا، مع قرماً أيضاً، فوصلوا إلى خوارزم، فحصروها، فأمر خوارزمشاه علاء الدين بإجراء ماء جيحون عليها، فكادوا يغرقون، فرحلوا، ولم يبلغوا منها غرضاً ولحقهم الندم حيث لم ينفعهم، ولاموا سلطانشاه، وعنفوه، فقال لقرما: لو أرسلت معي جيشاً إلى مرو، فاستخلصتها من يد دينار الغزي، وكان قد استولى عليها من حين كانت فتنة الغز إلى الآن، فسيّر معه جيشاً، فنزل على سرخس، على غرة من أهلها، وهجم على الغز، فقتل مقتلة عظيمة، فلم يتركوا بها أحداً منهم، وألقى دينارُ ملكهم نفسه في خندق القلعة، فأُخرج منه، ودخل القلعة، وتحصن بها، وسار سلطانشاه إلى مرو، فملكها وعاد الخطا إلى ما وراء النهر، وجعل سلطانشاه دأبه قتال الغز، والقتل فيهم، والنهب منهم، فلما عجز دينار عن مقاومته، أرسل إلى نيسابور إلى طغان شاه بن المؤيد، يقول له: ليرسل إليه من يسلم إليه قلعة سرخس، فأرسل إليه جيشاً مع أمير اسمه قراقوش، فسلم إليه دينار القلعة، ولحق بطغان شاه، فقصد سلطان شاه سرخس، وحصر قلعتها.

وبلغ ذلك طغان شاه، فجمع جيوشه، وقصد سرخس، فلما التقى هو وسلطان شاه قرطغان شاه إلى نيسابور، وذلك سنة ست وسبعين وخمسمائة، فأخلى قراقوش قلعة سرخس، ولحق بصاحبه، وملكها سلطان شاه، ثم أخذ طوس، والزام، وضيق الأمر على طغان شاه بعلو همته، وقلة قراره، وحرصه على طلب الملك، وكان طغان شاه يحب الدعة ومعاقرة الخمر، فلم يزل الحال كذلك إلى أن مات طغان شاه، سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، في المحرم، وملك ابنه سنجر شاه، فغلب عليه مملوك جده المؤيد، اسمه منكلي تكين، فتفرق الأمراء أنفة من تحكمه، واتصل أكثرهم بسلطان شاه، وسار الملك دينار إلى كرمان ومعه الغز، فملكها، وأما منكلي تكين، فإنه أساء السيرة في الرعية، وأخذ أموالهم، وقتل بعض الأمراء، فسمع خوارزمشاه، بذلك، فسار إليه، فحصره بنيسابور في ربيع الأول، سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، فحصرها شهرين،

فلم يظفر بها، وعاد إلى خوارزم، ثم رجع سنة ثلاث وثمانين إلى نيسابور، فحصرها، وطلبوا منه الأمان، فأمنهم فسلموا البلد إليه، فقتل منكلي تكين، وأخذ سنجر شاه، وأكرمه وأنزله بخوارزم، وأحسن إليه، فأرسل إلى نيسابور يستميل أهلها ليعود إليهم، فسمع به خوارزمشاه، فأخذ سنجر شاه، فسمله، وكان قد تزوج بأمه، وزوجه بابنته فماتت، فزوجه بأخته، وبقي عنده إلى أن مات سنة خمس وتسعين وخمسمائة، ذكر هذا أبو الحسن بن أبي القاسم البيهقي في كتاب، مسارب التجارب.

وقد ذكر غيره من العلماء بالتواريخ، هذه الحوادث مخالفة لهذا في بعض الأمور مع تقديم وتأخير ونحن نوردها: فقال: إنّ تكش خوارزمشاه بن أرسلان أخرج أخاه سلطان شاه من خوارزم، وكان قد ملكها بعد موت أبيه، فجاء إلى مرو فملكها، وأزاح الغز عنها، فخرجوا أياماً، ثم عادوا عليه، فأخرجوه منها، وانتهبوا خزانته، وقتلوا أكثر رجاله، فعبر إلى الخطا، فاستنجدهم، وضمن لهم مالا، وجاء بجيش عظيم، فأخرج الغز عن مرْو وسرخس ونسا وأبيورد، وملكها، ورد الخطا. فلما أبعدوا، كاتب غياث الدين الغوري يطلب منه أن ينزل عن هراة وبوشنج وبادغيس وما والاها ويتوعده إن هو لم ينزل عن ذلك، فأجابه غياث الدين، يطلب منه إقامة الخطبة له بمرو وسرخس وما ملكه من بلاد خراسان، فلما سمع الرسالة، سار عن مرْو، وشن الغارات على بادغيس وبيوار وما والاها، وحصر بوشنج، ونهب الرساتيق، وصادر الرعايا، فلما سمع غياث الدين ذلك، لم يرضَ لنفسه أن يسير هو، بل سيّر ملك سجستان، وكاتب ابن أخته بهاء الدين سام، صاحب باميان، باللحاق به، لأن أخاه شهاب الدين كان بالهند والزمان شتاء، فجاء بهاء الدين، ابن أخت غياث الدين، وملك سجستان ومن معهما من العساكر، ووافق ذلك وصول سلطان شاه إلى هراة، فلما علم بوصولهم، عاد إلى مرْو من غير أنْ يقاتلها، وأحرق كل ما مر به من البلاد، ونهب، وأقام بمرو إلى الربيع، وأعاد مراسلة غياث الدين في المعنى، فأرسل إلى أخيه شهاب الدين يعرفه الحال، فنادى في عساكره الرحيل لساعته.

وعاد إلى خراسان، واجتمع هو وأخوه غياث الدين وملك سجستان وغيرهم من العساكر، وقصدوا سلطان شاه، فلما علم ذلك، جمع عساكره، واجتمع عليه من الغزّ والمفسدين وقطاع الطريق، ومر عنده طمع خلق كثير، فنزل غياث الدين ومن معه في الطالقان، ونزل سلطان شاه بمرْو الروذ، وتقدم عسكر الغورية إليه، وتواعدوا

للمصاف، وبقوا كذلك شهرين والرسل تتردد بين غياث الدين، وبين سلطان شاه، وشهاب الدين يطلب من أخيه غياث الدين الإذن في الحرب فلا يتركه وتقرر الأمر على أن يسلم غياث الدين إلى سلطان شاه بوشنج وبادغيس وقلاع بيوار، وكره ذلك شهاب الدين وبهاء الدين، صاحب باميان، إلا أنهما لم يخالفان غياث الدين، وفي آخر الأمر، حضر رسول سلطان شاه عند غياث الدين، وحضر الأمراء ليكتب العهد، فقال الرسول: إنّ سلطان شاه يطلب أن يحضر شهاب الدين وبهاء الدين هذا الأمر، فأرسل غياث الدين إليهما، فأعادا الجواب: إننا مماليكك، ومهما تفعله لا يمكننا مخالفتك، فبينما الناس مجتمعون في تحرير الأمر، وإذ قد أقبل مجد الدين العلوي الهروي إليه، وكان خصيصاً بغياث الدين بحيث يفعل في ملكه ما يختار، فلا يخالف، فجاء العلوي ويده في يد ألب غازي، ابن أخت غياث الدين، وقد كتبوا الكتاب، وقد أحضر غياث الدين أخاه شهاب الدين وبهاء الدين سام، ملك الباميان، فجاء العلوي كأنه يسارر غياث الدين، ووقف في وسط الحلقة، وقال للرسول: يا فلان تقول لسلطان شاه قد تم لك الصلح من جانب السلطان الأعظم ومن شهاب الدين وبهاء الدين، ويقول لك العلوي خصمك أنا ومولانا ألب غازي، بيننا وبينك السيف، ثم صرخ صرخة ومزق ثيابه،وحثى التراب على رأسه، وأقبل على غياث الدين، وقال له: هذا واحد طرده أخوه، وأخرجه فريداً وحيداً، لم نترك له ما ملكناه بأسيافنا من الغز والأتراك والسنجرية، فإذا سمع هذا عنا يجيء أخوه يطلب منازعته والهند وجميع ما بيدك، فحرك غياث الدين رأسه، ولم يفه بكلمة، فقال ملك سجستان للعلوي: أترك الأمر ينصلح، فلما لم يتكلم غياث الدين يمنع العلوي، قال شهاب الدين لجاووشيته: نادوا في العسكر بالتجهز للحرب، والتقدم إلى مرْو الروذ وقام وأنشد العلوي بيتاً من الشعر عجمياً، معناه: إن الموت تحت السيوف، أسهل من الرضا بالدنية، فرجع الرسول إلى سلطان شاه، وأعلمه الحال، فرتب عساكره للمصاف، والتقى الفريقان، واقتتلوا، فصبروا للحرب، فانهزم سلطان شاه وعسكره، وأخذ أكثر أصحابه أسارى، فأطلقهم غياث الدين.

ودخل سلطان شاه مرو في عشرين فارساً، ولحق به من أصحابه، نحو ألف وخمسمائة فارس، ولما سمع خوارزمشاه تكش بما جرى لأخيه، سار من خوارزم في ألفي فارس، وأرسل إلى جيحون ثلاثة آلاف فارس، يقطعون الطريق على أخيه: إن أراد الخطا، وجد في السير ليقبض على أخيه قبل أن يقوى، فأتت الأخبار سلطان شاه

بذلك، فلم يقدر على عبور جيحون إلى الخطا، فسار إلى غياث الدين، وكتب إليه يعلمه قصده إليه، فكتب إلى هراة وغيرها من بلاده بإكرامه واحترامه، وحمل الإقامات إليه، ففعل به ذلك، وقدم على غياث الدين، والتقاه، وأكرمه، وأنزله معه في داره، وأنزل أصحاب سلطان شاه، كل إنسان منهم عند من هو في طبقته: فأنزل الوزير عند وزيره، والعارض عند عارضه، وكذلك غيره، وأقام عنده حتى انسلخ الشتاء، فأرسل علاء الدين بن خوارزمشاه إلى غياث الدين يذكره ما صنعه أخوه سلطان شاه من تخريب بلاده، وجمع العساكر عليه، ويشير بالقبض عليه، ورده إليه، فأنزل الرسول، وإذ قد أتى كتاب نائبه بهراة، يخبره: أن كتاب خوارزمشاه جاءه يتهدده، فأجابه أنه لا يظهر لخوارزمشاه أنه أعلمه بالحال، وأحضر الرسول، وقال له يقول لعلاء الدين: أما قولك إنّ السلطان شاه أخرب البلاد، وأراد ملكها، فلعمري أنه ملك وابن ملك، وله همة عالية، وإذا أراد الملك، فمثله أراده، وللأمور مدبر يوصلها إلى مستحقها، وقد التجأ إليّ، وينبغي أنْ تنزاح عن بلاده، وتعطيه نصيبه مما خلف أبوه، ومن الأملاك التي خلف، والأموال، وأحلف لكما يميناً على المودة والمصافاة، وتخطب لي بخوارزم، وتزوج أخي شهاب الدين بأختك، فلما سمع خوارزمشاه الرسالة، امتعض لذلك، وكتب إلى غياث الدين كتاباً يتهدده بقصد بلاده، فجهز غياث الدين العساكر، مع ابن أخت ألب غازي، وصاحب سجستان، وسيرهما مع سلطان شاه إلى خوارزم، وكتب إلى المؤيد، صاحب نيسابور، يستنجده، وكان قد صار بينهم مصاهرة، زوج المؤيد ابنه طغان شاه بابنة غياث الدين، فجمع المؤيد عساكره، وأقام بظاهر نيسابور، على طريق خوارزم.

وكان خوارزمشاه قد سار عن خوارزم إلى لقاء عسكر الغورية الذين مع أخيه سلطان شاه، وقد نزلوا بطرف الرمل، فبينما هو في مسيره، أتاه خبر المؤيد أنه قد جمع عساكره، وأنه على قصد خوارزم، إذا فارقها، فوقع في قلبه، وعاد إلى خوارزم، فأخذ أمواله وذخائره، وعبر جيحون إلى الخطا، وأخلى خوارزم، فوقع بها خبط عظيم، فحضر جماعة من أعيانها عند ألب غازي، وسألوه إرسال أمير معهم يضبط البلد، فخاف أن تكون مكيدة، فلم يفعل، فبينما هم على ذلك توفي سلطان شاه، سلخ رمضان، سنة تسع وثمانين وخمسمائة، فكتب ألب غازي إلى غياث الدين يعلمه الخبر، فكتب إليه يأمره بالعود إليه، فرجع ومعه أصحاب سلطان شاه، فأمر غياث الدين

بأن يستخدموا، وأقطع الأجناد الإقطاعات الجيدة، وكلهم قابل إحسانه بكفران، وسنذكر باقي أخبارهم، ولما سمع خوارزمشاه تكش بوفاة أخيه، عاد إلى خوارزم، وأرسل إلى سرخس ومرْو شحناء، فجهز إليهم أمير هراة، عمر المرغني، جيشاً، فأخرجوهم، وقال: حتى نستأذن السلطان غياث الدين، وأرسل خوارزمشاه رسولاً إلى غياث الدين يطلب الصلح والمصاهرة، وسير مع رسوله جماعة من فقهاء خراسان والعلويين، ومعهم وجيه الدين محمود بن محمود، وهو الذي جعل غياث الدين شافعياً، وكان له عنده منزلة كبيرة، فوعظوه، وخوفوه الله تعالى، وأعلموه أنّ خوارزمشاه يراسلهم يتهددهم بأنه يجيء بالأتراك والخطا، ويستبيح حريمهم وأموالهم، وقالوا له: إما أنْ تحضر أنت بنفسك، وتجعل مرو دار ملكك حتى ينقطع طمع الكافرين ويأمن أهلها، وإما أن تصالح خوارزمشاه، فأجاب إلى الصلح، وترك معارضة البلاد، فلما سمع من بخراسان، من الغز، بذلك، طمعوا في البلاد، فعاودوا النهب والإحراق والتخريب، فسمع خوارزمشاه، فجمع عساكره، وحضر بخراسان، ودخل مرو وسرخس ونسا وأَبيَورد، وغيرها، وأصلح البلاد، وتطرق إلى طوس، وهي للمؤيد صاحب نيسابور، فجمع المؤيد جيوشه، وسار إليه، فلما سمع خوارزمشاه بمسيره إليه، عاد إلى خوارزم، فلما وصل إلى الرمل، أقام بطرفه، فلما سمع المؤيد بعودة خوارزمشاه طمع فيه، وتبعه، فلما سمع خوارزمشاه، بذلك، أرسل إلى المناهل التي في البرية، فألقى فيها الجيف والتراب، بحيث لا يمكن الانتفاع بها، فلما توسط المؤيد البرية طلب الماء، فلم يجده، فجاء خوارزمشاه إليه وهو على تلك الحال، ومعه الماء على الجمال، فأحاط به، فأما عسكره فاستسلموا بأسرهم، وجيء بالمؤيد أسيراً إلى خوارزمشاه، فأمر بضرب عنقه، فقال له: يا مخنث، هذا فعال الناس، فلم يلتفت إليه، وقتله، وحمل رأسه إلى خوارزم. فلما قتل ملك نيسابور ملك ما كان له ابنه، طغان شاه، فلما كان من قابل، جمع خوارزمشاه عساكره، وسار إلى نيسابور، فحاصرها، وقاتلها، فتبعه طغان شاه، وأخذه وزوجه أخته، وحمله معه إلى خوارزم، وملك نيسابور وما كان لطغان شاه، وقوي أمره.

هذا الذي ذكره في هذه الرواية مخالف لما تقدم، ولو أمكن الجمع بين الروايتين لفعلت، فإن أحدهما قد قدم ما أخره الآخر، فلهذا أوردنا جميع ما قالاه، ولبعد البلاد

عنا، لم نعلم أي القولين أصح لنذكره ونترك الآخر، وإنما أوردتها في موضع واحد، لأن أيام سلطان شاه لم تطل له ولأعقابه، حتى تتفرق على السنين، فلهذا أوردتها متتابعة.

ذكر غارة الفرنج على بلد حوران وغارة المسلمين على بلد الفرنج

في هذه السنة في ربيع الأول، اجتمعت الفرنج، وساروا إلى بلد حوران، من أعمال دمشق، للغارة عليه، وبلغ الخبر إلى نور الدين، وكان قد برز ونزل هو وعسكره بالكسوة، فسار إليهم مجداً، وقدم بجموعه عليهم، فلما علموا بقربه منهم، دخلوا إلى السواد، وهو من أعمال دمشق أيضاً، ولحقهم المسلمون، فتحفظوا من ساقتهم، ونالوا منهم، وسار نور الدين، فنزل في عشترا، وسير منها سرية إلى أعمال طبرية، فشنوا الغارات عليها، فنهبوا، وسبوا وأحرقوا، وخربوا، فسمع الفرنج ذلك، فرحلوا إليهم ليمنعوا عن بلدهم، فلما وصلوا، كان قد فرغ المسلمون من نهبهم وغنيمتهم، وعادوا، وعبروا النهر، وأدركهم الفرنج، فوقف مقابلهم شجعان المسلمين وحماتهم، فقاتلوهم، فاشتد القتال، وصبر الفريقان: الفرنج يرومون أن يلحقوا الغنيمة فيردّوها، والمسلمون يريدون أن يمنعوهم عنها لينجو بها من قد سار معها، فلما طال القتال بينهم، وأبعدت الغنيمة، وسلمت مع المسلمين، عاد الفرنج، ولم يقدروا أن يستردوا منها شيئاً.

ذكر مسير شمس الدولة إلى بلد النوبة

في هذه السنة، في جمادى الأولى، سار شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، أخو صلاح الدين الأكبر، من مصر إلى بلد النوبة، فوصل إلى أول بلادهم ليتغلب عليه، ويملكه، وكان سبب ذلك: أن صلاح الدين وأهله كانوا يعلمون أنّ نور الدين كان على عزم الدخول إلى مصر، فاستقر الرأي بينهم أنهم يتملكون إما بلاد النوبةٌ، أو بلاد اليمن، حتى إذا وصل اليهم نور الدين، لقوه وصدوه عن البلاد، فإن قووا على منعه، أقاموا بمصر، وإنْ عجزوا عن منعه، ركبوا البحر، ولحقوا بالبلاد التي قد افتتحوها، فجهز شمس الدولة، وسار إلى أسوان، ومنها إلى بلد النوبة، فنازل قلعة اسمها ابزيم، فحصرها، وقاتله أهلها، فلم يكن لهم بقتال العسكر الإسلامي قوة، لأنهم ليس لهم

جنة تقيهم السهام وغيرها من آلة الحرب، فسلموها، فملكها، وأقام بها، ولم ير للبلاد دخلاً يرغب فيه وتحتمل المشقة لأجله، وقوتهم الذرة، فلما رأى عدم الحاصل، وقشف العيش مع مباشرة الحروب، ومعاناة التعب والمشقة، تركها وعاد إلى مصر بما غنم، وكان عامة غنيمتهم العبيد والجواري.

ذكر ظفر مليح بن ليون بالروم

في هذه السنة، في جمادى الأولى، هزم مليح بن ليون الأرمني، صاحب بلاد الدروب المجاورة لحلب، عسكر الروم من القسطنطينية، وسبب ذلك: أنّ نور الدين كان قد استخدم مليحاً المذكور، وأقطعه إقطاعاً سنياً، وكان مُلازماً الخدمة لنور الدين، ومشاهداً لحروبه مع الفرنج، ومباشراً لها، وكان هذا من جيد الرأي وصائبه، فإنّ نور الدين، لما قيل له في معنى استخدامه وإعطائه الأقطاع في بلاد الشام، قال: أستعين به على قتال أهل ملته، وأريح طائفة من عسكري تكون بإزائه، لنمنعه من الغارة على البلاد المجاورة له، وكان مليح أيضاً يتقوى بنور الدين على من يجاوره من الأرمن والروم، وكانت مدينة أذنة والمصيصة وطرسوس بيد ملك الروم صاحب القسطنطينية، فأخذها مليح منهم لأنها تجاور بلاده، فسير إليه ملك الروم جيشاً كثيفاً، وجعل عليهم بعض أعيان البطارقة من أقاربه، فلقيهم مليح، ومعه طائفة من عسكر نور الدين، فقاتلهم، وصدقهم القتال، وصابرهم، فانهزمت الروم، وكثر فيهم القتل والأسر، وقويت شوكة مليح، وانقطع أمل الروم من تلك البلاد، وأرسل مليح إلى نور الدين كثيراً من غنائمهم، ومن الأسرى ثلاثين رجلاً من مشهوريهم وأعيانهم، فسير نور الدين بعض ذلك إلى الخليفة، المستضيء بأمر الله، وكتب يعتد بهذا الفتح، لأن بعض جنده فعلوه.

ذكر وفاة ايلدكز

في هذه السنة، توفي أتابك شمس الدين ايلدكز بهمذان، وملك بعده ابنه محمد البهلوان، ولم يختلف عليه أحد، وكان ايلدكز هذا مملوكاً للكمال السميرمي، وزير السلطان محمود، فلما قتل الكمال ـ كما ذكرناه ـ سارا ايلدكز إلى السلطان محمود، فلما وُلي السلطان مسعود السلطنة، ولاه أرانية، فمضى إليها، ولم يعد يحضر عند السلطان مسعود ولا غيره، ثم ملك أكثر أذربيجان وبلاد الجبل وهمذان وغيرها وأصفهان والري

وما والاهما من البلاد، وخطب السلطنة لابن امرأته، ارسلان شاه بن طغرل، وكان عسكره خمسين ألف فارس سوى الأتباع، واتسع ملكه من باب تفليس إلى مكران، ولم يكن للسلطان أرسلان معه حكم، إنما كان له جراية تصل إليه، وبلغ من تحكمه عليه أنه شرب ليلة، فوهب ما في خزانته، وكان كثيراً، فلما سمع ايلدكز بذلك، استعاده جميعاً، وقال له: متى أخرجت المال في غير وجهة، أخذته أيضاً من غير وجهة، وظلمت الرعية، وكان ايلدكز عاقلاً، حسن السيرة، يجلس بنفسه للرعية ويسمع شكاويهم، وينصف بعضهم من بعض.

ذكر وصول الترك إلى إفريقية وملكهم طرابلس وغيرها

في هذه السنة، سار طائفة من الترك من ديار مصر مع قراقوش، مملوك تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين يوسف بن أيوب، إلى جبال نفوسة، واجتمع به مسعود بن زمام، المعروف بمسعود البلاط، وهو من أعيان الأمراء هناك، وكان خارجاً عن طاعة عبد المؤمن، فاتفقا، وكثر جمعهما، ونزلا على طرابلس الغرب، فحاصراها، وضيقا على أهلها، ثم فتحت، فاستولى عليها قراقوش، وأسكن أهله قصرها وملك كثيراً من بلاد إفريقية ما خلا المهدية وسفاقس وقفصة وتونس وما والاها من القرى والمواضع، وصار مع قراقوش عسكر كثير، فحكم على تلك البلاد، بمساعدة العرب، بما جبلت عليه من التخريب، والنهب، والإفساد بقطع الأشجار والثمار وغير ذلك، فجمع بها أموالاً عظيمة وجعلها بمدينة قابس، وقويت نفسه، وحدثته بالاستيلاء على جميع إفريقية لبعد أبي يعقوب بن عبد المؤمن صاحبها عنها، وكان ما سنذكره إن شاء الله.

ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالأندلس

في هذه السنة، جمع أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن عساكره، وسار من إشبيلية إلى الغزو، فقصد بلاد الفرنج، ونزل على مدينة رندي، وهي بالقرب من طليطلة شرقاً منها، وحصرها، واجتمعت الفرنج على ابن الفنش، ملك طليطلة في جمع كثير، فلم يقدموا على لقاء المسلمين، فاتفق أن الغلاء اشتد على المسلمين، وعدمت الأقوات عندهم، وهم في جمع كثير، فاضطروا إلى مفارقة بلاد الفرنج، فعادوا إلى أشبيلية وأقام يعقوب بها إلى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وهو على ذلك يجهز العساكر

ويسيرها إلى غزو بلاد الفرنج في كل وقت، فكان له فيها عدة وقائع وغزوات ظهر فيها للعرب من الشجاعة ما لا يوصف، وصار الفارس من العرب يبرز بين الصفين ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج، فلا يبرز إليه أحد، ثم عاد أبو يعقوب إلى مراكش.

ذكر نهب نهاوند

في هذه السنة، نهب عسكر شملة نهاوند، وسبب ذلك أنّ شملة كان أيام ايلدكز لا يزال يطلب منه نهاوند، لكونها مجاورة بلاده، ويبذل فيها الأموال، فلا يجيبه إلى ذلك، فلما مات أيلدكز وملك بعده ولده محمد البهلوان، وسار إلى أذربيجان لإصلاحها، نفذ شملة ابن أخيه ابن شنكا، لأخذ نهاوند، وبلغ أهل البلد الخبر فتحصنوا، وحصرهم وقاتلوه، وأفحشوا في سبه، فلما علم أنه لا طاقة له بهم، رجع إلى تستر، وهي قريبة منها، وأرسل أهل نهاوند إلى البهلوان يطلبون منه نجدة، فتأخرت عنهم، فلما اطمأنوا، خرج ابن شنكا من تستر في خمسمائة فارس، وسار يوماً وليلة فقطع أربعين فرسخاً حتى وصل إلى نهاوند، وضرب البوق، وأظهر أنه من أصحاب البهلوان، لأنه جاءهم من ناحيته، ففتح أهل البلد له الأبواب، فدخله، فلما توسط، قبض على القاضي والرؤساء، وصلبوهم، ونهب البلد، وقطع أنف الوالي، وأطلقه، وتوجه نحو ماسيزان قاصداً للعراق.

ذكر قصد نور الدين بلاد قلج أرسلان

في هذه السنة، سار نور الدين محمود بن زنكي إلى مملكة عز الدين قلج أرسلان ابن مسعود بن قلج أرسلان، وهي ملطية وسيواس، واقصرا وغيرها، ملازماً على حربه، وأخذ بلاده منه، وكان سبب ذلك: أن ذا النون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواسّ، قصده قلج أرسلان، وأخذ بلاده، وأخرجه عنها طريداً فريداً، فصار إلى نور الدين مستجيراً به وملتجئاً إليه، فأكرم نزله، وأحسن إليه، وحمل له ما يليق أن يحمل الى الملوك، ووعده النصرة والسعي في رد ملكه إليه، ثم إنّه أرسل إلى قلج أرسلان يتشفع في إعادة ملكه، فلم يجبه إلى ذلك، فسار نور الدين إليه، فابتدأ بكبسون وبهنسي ومرعش ومرزبان، فملكها وما بينها، وكان ملكه لمرعش أوائل ذي القعدة والباقي بعدها، فلما ملكها سير طائفة من عسكره إلى سيواس، فملكوها، وكان قلج أرسلان

لما سار نور الدين إلى بلاده، قد سار من طرقها التي تلي الشام إلى وسطها، وراسل نور الدين يستعطفه، ويسأله الصلح، فتوقف نور الدين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب، فأتاه عن الفرنج ما أزعجه، فأجابه إلى الصلح، وشرط عليه أنْ ينجده بعساكر إلى الغزاة وقال له: أنت مجاور الروم ولا تغزوهم، وبيدك قطعة كبيرة من بلاد الإسلام، ولا بد من الغزاة معي، فأجابه إلى ذلك، وتبقى سيواس على حالها بيد نواب نور الدين، وهي لذي النون، فبقي العسكر في خدمة ذي النون إلى أن مات نور الدين، فلما مات، رحل عسكره عنها، وعاد قلج أرسلان وملكها، وهي بيد أولاده إلى الآن، سنة نيف وعشرين وستمائة، ولما كان نور الدين في هذه السفرة جاءه رسول كمال الدين أبي الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري من بغداد، ومعه منشور من الخليفة بالموصل، والجزيرة وبإربل وخلاط والشام وبلاد قلج أرسلان وديار مصر.

ذكر رحيل صلاح الدين من مصر إلى الكرك، وعوده عنها

في هذه السنة، في شوال، رحل صلاح الدين يوسف بن أيوب من مصر بعساكرها جميعها إلى بلاد الفرنج يريد حصر الكرك، والاجتماع مع نور الدين عليه، والاتفاق على قصد بلاد الفرنج من جهتين، كل واحد منهما في جهة بعسكره، وسبب ذلك: أنّ نور الدين لما أنكر على صلاح الدين عوده من بلاد الفرنج في العام الماضي، وأراد نور الدين قصد مصر وأخذها منه، أرسل يعتذر، ويعد من نفسه بالحركة على ما يقرره نور الدين، فاستقرت القاعدة بينهما أنّ صلاح الدين يخرج من مصر، ويسير نور الدين من دمشق، فأيهما سبق صاحبه يقيم إلى أن يصل الآخر إليه، وتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما فيه، فسار صلاح الدين عن مصر لأن طريقه أبعد وأشق، ووصل إلى الكرك، وحصره، وأما نور الدين، فإنه لما وصل إليه كتاب صلاح الدين برحيله من مصر، فرق الأموال، وحصل الأزواد وما يحتاج إليه، وسار إلى الكرك، فوصل إلى الرقيم، وبينه وبين الكرك مرحلتان، فلما سمع صلاح الدين بقربه، خافه هو وجميع أهله، واتفق رأيهم على العود إلى مصر، وترك الاجتماع بنور الدين لأنهم علموا أنه إن اجتمعا، كان عزله على نور الدين سهلاً، فلما عاد، أرسل الفقيه عيسى إلى نور الدين يعتذر عن رحيله، بأنه قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على ديار مصر، وأنه مريض شديد المرض، ويخاف أن يحدث حادث الموت، فتخرج البلاد عن أيديهم، وأرسل معه من

التحف والهدايا ما يجل عن الوصف، فجاء الرسول إلى نور الدين، وأعلمه ذلك، فعظم عليه، وعلم المراد من العود، إلا أنه لم يظهر للرسول تأثراً، بل قال له: حفظ مصر أهم عندنا من غيرها، وسار صلاح الدين إلى مصر، فوجد أباه قد قضى نحبه، ولحق بربه، وكلمة تقول لقائلها دعني، وكان سبب موت نجم الدين أنه ركب يوماً فرساً بمصر، فنفر به الفرس نفرة كبيرة شديدة، فسقط عنه، فحمل إلى قصره وقيذا، وبقي أياماً، ومات في السابع والعشرين من ذي الحجة، وكان خيِّراً، عاقلاً، حسن السيرة، كريماً جواداً، كثير الإحسان إلى الفقراء والصوفية والمجالسة لهم، وقد تقدم من ذكره وابتداء أمره وأمر أخيه شيركوه، ما لا حاجة إلى إعادته.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، زادت دجلة زيادةً كثيرة أشرفت بها بغداد على الغرق في شعبان، وسدوا أبواب الدروب، ووصل الماء إلى قبة أحمد بن حنبل، ووصل إلى النظامية ورباط شيخ الشيوخ، واشتغل الناس بالعمل في القورج ثم القورج، ثم نقص وكفى الناس شره.

وفيها وقعت النار ببغداد، من درب بهروز إلى باب جامع القصر، ومن الجانب الآخر، من حجر النحاس إلى دار أم الخليفة.

وفيها، أغار بنو حزن من خفاجة، على سواد العراق، وسبب ذلك، أن الحماية كانت لهم لسواد العراق، فلما تمكن يزدن من البلاد، وتسلم الحلة، أخذها منهم، وجعلها لبني كعب من خفاجة، وأغار بنو حزن على السواد، فسار يزدن في عسكر، ومعه الغضبان الخفاجي، وهو من بني كعب، لقتال بني حزن، فبينما هم سائرون ليلاً، رمى بعض الجند، الغضبان بسهم فقتله لفساده، وكان في السواد، فلما قُتل عاد العسكر إلى بغداد، وأعيدت خفارة السواد إلى بني حزن.

وفيها، خرج ترجم الإيوائي في جمع من التركمان، في حياة أيلدكز، وتطرق أعمال همذان، ونهب الدينور، واستباح الحريم، وسمع أيلدكز الخبر، وهو بنقجوان، فسار مجدّاً، فيمن خف من عسكره، فقصده، فهرب ترجم إلى أن قارب بغداد، وتبعه أيلدكز، فظن الخليفة أنها حيلة ليصل إلى بغداد فجأة، فشرع في جمع العساكر وعمل السور، فأرسل إلى أيلدكز الخلع والألقاب الكبيرة، فاعتذر أنه لم يقصد إلا كف الأمير

يزدن، وهو من أكابر أمراء بغداد وكان يتشيع، فوقع بسببه فتنة بين السنية والشيعة، بواسط، لأن الشيعة جلسوا له للعزاء، وأظهر السنية الشماتة به، فآل الأمر إلى القتال، فقُتِل بينهم جماعة، ولما مات، أُقطع أخوه تنامش ما كان لأخيه، وهي مدينة واسط، ولقب علاء الدين.

وفيها، أرسل نور الدين محمود بن زنكي، رسولاً إلى الخليفة، وكان الرسول، القاضي كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري، قاضي بلاده جميعها مع الوقوف والديوان، وحمله رسالة مضمونها الخدمة للديوان، وما هو عليه من جهاد الكفار، وفتح بلادهم، ويطلب تقليداً بما بيده من البلاد مصر والشام والجزيرة والموصل، وبما في طاعته كديار بكر، وما يجاور ذلك، كخلاط وبلاد قلج أرسلان، وأنْ يعطى من الأقطاع بسواد العراق ما كان لأبيه زنكي، وهو صريفين ودرب هرون، والتمس أرضاً على شاطىء دجلة يبنيها مدرسة للشافعية، ويوقف عليها صريفين ودرب هرون، فأكرم كمال الدين إكراماً لم يكرمه رسول قبله، وأجيب إلى ما التمسه، فمات نور الدين قبل الشروع في بناء المدرسة رحمه الله.

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

ذكر ملك شمس الدولة زبيد وغيرها من بلاد اليمن

قد ذكرنا قبل، أنّ صلاح الدين يوسف بن أيوب ،صاحب مصر ـ وأهله كانوا يخافون من نور الدين محمود، أن يدخل إلى مصر، فيأخذها منهم، فشرعوا في تحصيل مملكة يقصدونها، ويتملكونها، تكون عدة لهم، إنْ أخرجهم نور الدين من مصر ساروا إليها، وأقاموا بها، فسيروا شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، وهو أخو صلاح الدين الأكبر، إلى بلد النوبة، فكان ما ذكرناه، فلما عاد إلى مصر، استأذنوا نور الدين في أن يسير إلى اليمن لقصد عبد النبي صاحب زبيد لأجل قطع الخطبة العباسية، فأذن في ذلك، وكان بمصر شاعرٌ اسمه عمارة، من أهل اليمن، فكان يحسن لشمس الدولة قصد اليمن، ويصف البلاد له، ويعظم ذلك في عينه، فزاده قوله رغبة فيها، فشرع يتجهز، ويعد الأزواد والروايا والسلاح وغيره من الآلات وجند الأجناد، فجمع وحشد، وسار عن مصر مستهل رجب، فوصل إلى مكة أعزها الله تعالى ومنها إلى زبيد، وفيها صاحبها المتغلب عليها المعروف بعبد النبي، فلما قرب منها، رآه أهلها فاستقل من معه، فقال لهم عبد النبي: كأنكم بهؤلاء وقد حمي عليهم الحر فهلكوا إلا أكلة رام، فخرج إليها بعسكره، فقاتلهم شمس الدولة ومن معه، فلم يثبت أهل زبيد، وانهزموا، ووصل المصريون إلى سور زبيد، فلم يجدوا عليه من يمنعهم، فنصبوا السلالم، وصعدوا السور، فملكوا البلد عنوة، ونهبوه، وأكثروا النهب، وأخذوا عبد النبي أسيراً وزوجته المدعوة بالحرة، وكانت امرأة صالحة، كثيرة الصدقة، لا سيما إذا حجت، فإنّ فقراء الحاج كانوا يجدون عندها صدقة دارة، وخيراً كثيراً، ومعروفاً عظيماً، فلما أسر شمس الدولة عبد النبي، وسلم شمس الدولة عبد النبي إلى بعض أمرائه، يقال له سيف الدولة مبارك بن كامل، من بني منقذ أصحاب شيزر، وأمره أنْ يستخرج منه الأموال فأعطاه منها

شيئاً كثيراً. ثم إنه دلهم على قبر، كان قد صنعه لوالده، وبنى عليه بنية عظيمة، وله هناك دفائن كثيرة، فأعلمهم بها، فاستُخرجت الأموال من هناك، وكانت جليلة المقدار. وأما الحرة فإنها أيضاً، كانت تدلهم على ودائع لها، فأخذ منها مالاً كثيراً، ولما ملكوا زبيد، واستقر الأمر لهم بها، ودانت أهلها، وأقيمت فيها الخطبة العباسية، أصلحوا حالها وساروا إلى عدن، وهي على البحر، ولها مرسى عظيم، وهي فرضة الهند والزنج والحبشة وعمان وكرمان وكيش وفارس وغير ذلك، وهي من جهة البر، من أمنع البلاد وأحصنها، وصاحبها إنسان اسمه ياسر، فلو أقام بها ولم يخرج عنها، لعادوا خائبين، وإنما حمله جهله، وانقضاء مدته، على الخروج إليهم، ومباشرة قتالهم، فسار إليهم، وقاتلهم، فانهزم ياسر ومن معه، وسبقهم بعض عسكر شمس الدولة فدخلوا البلد قبل أهله، فملكوه، وأخذوا صاحبها ياسراً أسيراً، وأرادوا نهب البلد، فمنعهم شمس الدولة، وقال: ما جئنا لنخرب البلاد، وإنما جئنا لنملكها ونعمرها وننتفع بدخلها، فلم ينهب أحد منها شيئاً، فبقيت على حالها، وثبت ملكه، واستقر أمره، ولمّا مضى إلى عدن، كان معه عبد النبي صاحب زبيد مأسوراً، فلما دخل إلى عدن، قال: سبحان الله، كنت قد علمت أني أدخل إلى عدن في موكب كبير، فأنا أنتظر ذلك، وأسر به، ولم أكن أعلم أنني أدخلها على هذا الحال، ولما فرغ شمس الدولة من أمر عدن، عاد إلى زبيد، وحصر ما في الجبل من الحصون، فملك قلعة تعز، وهي من أحصن القلاع، وبها تكون خزائن صاحب زبيد، وملك أيضاً قلعة النعكر والجند وغيرها من المعاقل والحصون، واستناب بعدن عز الدين عثمان بن الزنجبيلي، وبزبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ، وجعل في كل قلعة نائباً من أصحابه، وألقى ملكهم باليمن جرانه ودام، وأحسن شمس الدولة إلى أهل البلاد، واستصفى طاعتهم بالعدل والإحسان، وعادت زبيد إلى أحسن أحوالها من العمارة والأمن بعد خرابها.

ذكر قتل جماعة من المصريين أرادوا الوثوب بصلاح الدين

في هذه السنة، ثاني رمضان، صلب صلاح الدين يوسف بن أيوب جماعة ممن أراد الوثوب به بمصر من أصحاب الخلفاء العلويين، وسبب ذلك: أنّ جماعة من الشيعة، منهم عمارة بن أبي الحسن اليمني، الشاعر، وعبد الصمد الكاتب، والقاضي العويرس، وداعي الدعاة، وغيرهم من جند المصريين ورجالتهم السودان وحاشية

القصر، ووافقهم جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده، واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية ومن ساحل الشام إلى ديار مصر على شيء يبذلوه لهم من المال والبلاد، فإذا قصدوا البلاد، فإن خرج صلاح الدين بنفسه إليهم، ثاروا هم في القاهرة ومصر، وأعادوا الدولة العلوية، وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه، فلا يبقى له مقام مقابل للفرنج، وإن كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر إليهم، ثاروا به، وأخذوه أخذاً باليد لعدم الناصر له، وقال لهم عمارة: وأنا قد أبعدت أخاه إلى اليمن خوفاً أن يسد مسده، وتجتمع الكلمة عليه بعده. وأرسلوا إلى الفرنج وصقلية والساحل في ذلك، وتقررت القاعدة بينهم ولم يبق إلا رحيل الفرنج .

وكان من لطف الله بالمسلمين أنّ الجماعة المصريين أدخلوا معهم زين الدين علي ابن نجا، الواعظ والقاضي المعروف بابن نجية، ورتبوا الخليفة والوزير والحاجب والداعي والقضاة، إلا أن بني رزيك قالوا: يكون الوزير منا وبني شاور والقاضي قالوا: يكون الوزير منا، فلما علم ابن نجا الحال، حضر عنده صلاح الدين، وأعلمه حقيقة الأمر، فأمره بملازمتهم ومخالطتهم ومواطأتهم على ما يريدون يفعلونه، وتعريفه ما يتجدد أولاً بأول، ففعل ذلك، وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه، ثم وصل رسول من ملك الفرنج بالساحل بهدية ورسالة، وهو في الظاهر إليه والباطن إلى أولئك الجماعة، وكان يرسل إليهم بعض النصارى، وتأتيه رسلهم، فأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الحال، فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق إليه من النصارى، وداخله فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته، فقبض حينئذ على المقدمين في هذه الحادثة، منهم عمارة وعبد الصمد الكاتب والعويرس وغيرهم، وصلبهم، وقيل في كشف أمرهم، أن عبد الصمد المذكور كان إذا لقي القاضي الفاضل الصلاحي، يخدمه ويتقرب إليه بجهده وطاقته، فلقيه يوماً، فلم يلتفت إليه، فقال القاضي الفاضل: ما هذا إلا لسبب، وخاف أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين، فأحضر علي بن نجا الواعظ، وأخبره الحال وقال: أريد تكشف لي الأمر، فسعى في كشفه، فلم ير له من جانب صلاح الدين شيئاً فعدل إلى الجانب الآخر، فكشف الحال، وحضر عند القاضي الفاضل وأعلمه، فقال: تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهي الحال إليه، فحضر عند صلاح الدين، وهو في الجامع، فذكر له الحال فقام وأخذ الجماعة وقررهم، فأقروا،

فأمر بصلبهم، وكان عمارة بينه وبين الفاضل عداوة من أيام العاضد وقبلها، فلما أراد صلبه، قام القاضي الفاضل، وخاطب صلاح الدين في إطلاقه، وظن عمارة أنه يحرض على هلاكه، فقال لصلاح الدين: يا مولانا لا تسمع منه في حقي، فغضب الفاضل، وخرج، وقال صلاح الدين لعمارة إنه كان يشفع فيك، فندم، ثم أخرج عمارة ليصلب، فطلب أن يمر به على مجلس الفاضل، فاجتازوا به عليه، فأغلق بابه ولم يجتمع به، فقال عمارة:

عبدُ الرحيم قد احتجبَ ... إن الخلاص هو العجبُ

ثم صلب هو والجماعة، ونودي في أجناد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتها إلى أقاصي الصعيد، واحتيط على من بالقصر من سلالة العاضد وغيره من أهله، وأما الذين نافقوا على صلاح الدين من جنده، فلم يعرض لهم، ولا أعلمهم أنه علم بحالهم؛ وأما الفرنج، فإن فرنج صقلية قصدوا الإسكندرية على ما نذكره إنْ شاء الله تعالى لأنهم لم يتصل بهم ظهور الخبر عند صلاح الدين، وأمّا فرنج الساحل الشامي فإنهم لم يتحركوا لعلمهم بحقيقة الحال، وكان عمارة شاعراً مفلقاً، فمن شعره:

لو أنّ قلبي يومَ كاظمة معي ... لملكتُهُ وكظمتُ فيضَ الأدمع
قلب كفاكَ من الصبابة أنّهُ ... لبّى نداءَ الظاعنين وما دعي
ما القلبُ أولُ غادر فألومَهُ ... هي شيمةُ الأيامِ مذْ خُلِقتْ معي
ومن الظنون الفاسدات توهُّمي ... بعدَ اليقينِ بقاءه في أضلعي

وله أيضاً:

لي في هوى الرشا العذري إعذارُ ... لم يبقَ لي مذ أقرّ الدمعُ إنكارُ
لي في القدود وفي لثم الخدودِ وفي ... ضم النُهودِ لُباناتٌ وأوطارُ
هذا اختياري فوافقْ إنْ رضيتَ بِهِ ... أو لا فدعْني وما أهوى واختارُ

وله ديوان شعر مشهور في غاية الحسن والرقة والملاحة.

ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله

في هذه السنة، توفي نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر، صاحب الشام وديار

الجزيرة ومصر، يوم الاربعاء حادي عشر شوال، بعلة الخوانيق، ودُفِنَ بقلعة دمشق، ونقل منها إلى المدرسة التي أنشأها بدمشق عند سوق الخواصين. ومن عجيب الإتفاق، أنه ركب ثاني شوال، وإلى جانبه بعض الأمراء الأخيار، فقال له الأمير: سبحان من يعلم هل نجتمع هنا في العام المقبل أم لا؟ فقال نور الدين: لا تقل هكذا، بل سبحان من يعلم هل نجتمع بعد شهر أم لا. ؟ فمات نور الدين رحمه الله، بعد أحد عشر يوماً، ومات الأمير قبل الحول، فأخذ كل منهما بما قاله، وكان قد شرع يتجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين يوسف بن أيوب، فإنه رأى منه فتوراً في غزو الفرنج من ناحيته، وكان يعلم أنه إنما يمنع صلاح الدين من الغز والخوف منه ومن الاجتماع به، فإنه يؤثر كون الفرنج في الطريق ليمتنع بهم على نور الدين، فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر للغزاة، وكان عزمه أنْ يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازي، صاحب الموصل والشام، ويسير هو بعساكره إلى مصر، فبينما هو يتجهز لذلك، أتاه أمر الله الذي لا مردّ له.

حكى لي طبيب، كان يخدم نور الدين، وهو من حذاق الأطباء: قال: استدعاني نور الدين، في مرضه الذي توفي فيه، مع غيري من الأطباء، فدخلنا إليه وهو في بيت صغير بقلعة دمشق، وقد تمكنت الخوانيق منه، وقارب الهلاك، فلا يكاد يُسمع صوته، وكان يخلو فيه للتعبد، فابتدأ به المرض فلم ينتقل عنه، فلما دخلنا ورأينا ما به، قلت له: كان ينبغي أن لا تؤخر إحضارنا إلى أن يشتد بك المرض الآن، وينبغي أن تعجل الانتقال من هذا الموضع إلى مكان فسيح مضيء، فله أثر في هذا المرض، وشرعنا في علاجه وأشرنا بالقصد، فقال: ابن ستين لا يقتصد وامتنع منه، فعالجناه بغيره، فلم ينجع فيه الدواء، وعُظم الداء، ومات رحمه الله ورضي عنه، وكان أسمر، طويل القامة، ليس له لحية إلا في حنكه، وكان واسع الجبهة، حسن الصورة، حلو العينين، وكان قد اتسع ملكه جداً، وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن لما دخلها شمس الدولة بن أيوب وملكها، وكان مولده سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وطبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله، وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته، ولا أكثر تحرياً منه للعدل، وقد أتينا على كثير من ذلك في كتاب الباهر من أخبار دولتهم، ولنذكر ههنا نبذة، لعل يقف عليها من له حكم فيقتدي به؛ فمن ذلك زهده وعبادته وعلمه، فإنه كان لا يأكل ولا يلبس ولا

يتصرف، إلا في الذي يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة، فأعطاها ثلاث دكاكين في حمص كانت له، يُحصل له منها في السنة نحو العشرين دينار، فلما استقلتها قال: ليس لي إلا هذا وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين، لا أخونهم فيه، ولا أخوض نار جهنم لأجلك، وكان يصلي كثيراً بالليل، وله أوراد حسنة، وكان كما قيل:

جَمَعَ الشجاعةَ والخشوعَ لربهِ ... ما أحسنَ المحراب في المحرابِ

وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة، ليس عنده فيه تعصب، وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر، وأما عدله، فإنه لم يترك في بلاده على سعتها مكساً ولا عشراً، بل أطلقها جميعاً في مصر والشام والجزيرة والموصل، وكان يعظم الشريعة، ويقف عند أحكامها، وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم، فمضى معه إليه، وأرسل إلى القاضي كمال الدين بن الشهرزوري يقول: قد جئت محاكماً، فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم، وظهر الحق له، فوهبه الخصم الذي أحضره، وقال: أردت أن أترك له ما يدعيه، إنما خفت أن يكون الباعث لي على ذلك الكبر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة، فحضرت، ثم وهبته ما يدعيه، وبنى دار العدل في بلاده، وكان يجلس هو والقاضي فيها، ينصف المظلوم، ولو أنه يهودي، من الظالم، ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده، وأما شجاعته، فإليها النهاية، وكان في الحرب يأخذ قوسين وتركشين ليقاتل بها، فقال له القطب النساوي، الفقيه: بالله عليك، لا تخاطر بنفسك وبالإسلام، فإن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف، فقال نور الدين: ومن محمود حتى يقال له هذا، من قبلي من حفظ البلاد والإسلام، ذلك الله الذي لا إله إلا هوّ وأما ما فعله من المصالح: فإنه بنى أسوار مدن الشام جميعها، وقلاعها، فمنها دمشق وحمص وحماة وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها، وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية، وبنى الجامع النوري بالموصل، وبنى البيمارستانات والخانات في الطرق، وبنى الخانكاهات في جميع البلاد، وأوقف على الجميع الوقوف الكثيرة، سمعت أنّ حاصل وقفه كل شهر تسعة آلاف دينار صوري، وكان يكرم العلماء وأهل الدين، ويعظمهم، ويقوم إليهم، ويجلسهم معه، وينبسط معهم، ولا يرد لهم قولاً، ويكاتبهم

بخط يده، وكان وقوراً، مهيباً مع تواضعه، وبالجملة فحسناته كثيرة، ومناقبه غزيرة، لا يحتملها هذا الكتاب.

ذكر ملك ولده الملك الصالح

لما توفي نور الدين، قام ابنه الملك الصالح إسماعيل بالملك بعده، وكان عمره إحدى عشرة سنة، وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق، وأقام بها، وأطاعه الناس بالشام وصلاح الدين بمصر، وخطب له بها، وضرب السكة باسمه، وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك، المعروف بابن المقدم، وصار مدبر دولته، فقال له كمال الدين، صاحب مصر، هو من أصحاب نور الدين، والمصلحة أنْ نشاوره في الذي نفعله، ولا نخرجه من بيننا، فيخرج عن طاعتنا، ويجعل ذلك حجة علينا، وهو أقوى منا، لأنّه قد انفرد اليوم بملك مصر، فلم يوافق هذا القول أغراضهم، وخافوا أنْ يدخل صلاح الدين ويخرجهم، فلم يمض غير قليل حتى وردت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يعزيه ويهنئه بالملك، وأرسل دنانير مصرية عليها، اسمه، ويعرفه أنّ الخطبة والطاعة له كما كانت لأبيه، فلما سار سيف الدين غازي، صاحب الموصل، وملك البلاد الجزرية، على ما نذكره. فأرسل صلاح الدين أيضاً إلى الملك الصالح يعتبه، حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده، وأخذها ليحضر في خدمته، ويكشف سيف الدين، وكتب إلى كمال الدين والأمراء يقول: لو أنّ نور الدين يعلم أنّ فيكم من يقوم مقامي أو يثق إليه مثل ثقته إليّ لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يعجل عليه الموت، لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري، وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني، وسوف أصل إلى خدمته، وأجازي إنعام والده بخدمة يظهر أثرها، وأجازي كلا منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده، وتمسك ابن المقدم وجماعة الأمراء بالملك الصالح، ولم يرسلوه إلى حلب خوفاً أن يغلب عليهم شمس الدين علي بن الداية، فإنّه كان أكبر الأمراء النورية، وإنما منعه من الاتصال به، والقيام بخدمته مرض لحقه، وكان هو وإخوته بحلب وأمرها إليهم وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده، ولما عجز عن الحركة، أرسل إلى الملك الصالح يدعوه إلى حلب لتمتنع به البلاد الجزرية من سيف الدين، ابن عمه قطب الدين، فلم يمكنه الأمراء الذين معه من الانتقال إلى حلب لما ذكرنا.

ذكر ملك سيف الدين البلاد الجزرية

كان نور الدين، قبل أن يمرض، قد أرسل إلى البلاد الشرقية ـ الموصل وديار الجزيرة وغيرها يستدعي العساكر منها لحجة الغزاة، والمراد غيرها ـ وقد تقدم ذكره فسار سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن زنكي، صاحب الموصل، في عساكره، وعلى مقدمته الخادم سعد الدين كمشتكين الذي كان قد جعله نور الدين بقلعة الموصل مع سيف الدين، فلما كانوا ببعض الطريق وصلت الأخبار بوفاة نور الدين، فأما سعد الدين فإنه كان في المقدمة فهرب جريدة، وأما سيف الدين فأخذ كل ما كان له من برك وغيره، وعاد إلى نصيبين فملكها، وأرسل الشحن إلى الخابور، فاستولوا عليه وأقطعه، وسار هو إلى حران، فحصرها عدة أيام، وبها مملوك لنور الدين يقال له قايماز الحراني، فامتنع بها، وأطاع بعد ذلك على أن تكون حران له، ونزل إلى خدمة سيف الدين، فقبض عليه، وأخذ حران منه، وسار إلى الرها فحصرها، وملكها، وكان بها خادم خصي أسود لنور الدين، فسلمها، وطلب عوضها قلعة الزعفران من أعمال جزيرة ابن عمر، فأعطيها، ثم أخذت منه، ثم صار إلى أنْ يستعطي ما يقوم به وبقوته، وسير سيف الدين إلى الرقة، فملكها، وكذلك سروج، واستكمل جميع بلاد الجزيرة سوى قلعة جعبر، فإنها كانت منيعة، وسوى رأس عين، فإنها كانت لقطب الدين، صاحب ماردين، وهو ابن خال سيف الدين، فلم يتعرض إليها، وكان شمس الدين علي بن الداية، وهو أكبر الأمراء النورية بحلب، مع عساكرها، فلم يقدر على العبور إلى سيف الدين ليمنعه من أخذ البلاد لفالج كان به، فأرسل إلى دمشق يطلب الملك الصالح، فلم يرسل إليه لما ذكرناه، ولما ملك سيف الدين الجزيرة قال له فخر الدين عبد المسيح وكان قد وصل إليه من سيواس بعد موت نور الدين، وهو الذي أقر له الملك بعد أبيه فظن أن سيف الدين يرعى له ذلك فلم يجن ثمرة ما غرس وكان عنده كبعض الأمراء قال له: الرأي أنْ تعبر إلى الشام فليس به مانع، فقال له أكبر أمرائه، وهو أمير يقال له عز الدين محمود المعروف بزلفندار: قد ملكت أكثر ما كان لأبيك، والمصلحة أنْ تعود، فرجع إلى قوله وعاد إلى الموصل ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾[1].

---

(١) سورة الأنفال ٤٤.

ذكر حصر الفرنج بانياس وعودهم عنها

لما مات نور الدين محمود، صاحب الشام، اجتمعت الفرنج، وساروا إلى قلعة بانياس من أعمال دمشق، فحصروها، فجمع شمس الدين محمد بن عبد الملك ابن المقدم العسكر عنده بدمشق، فخرج عنها، فراسلهم ولاطفهم، ثم أغلظ لهم في القول، وقال لهم: إن أنتم صالحتمونا، وعدتم عن بانياس، فنحن على ما كنا عليه، وإلا فنرسل إلى سيف الدين، صاحب الموصل، ونعلمه، ونصالحه، ونستنجده، ونرسل إلى صلاح الدين بمصر، فنستنجده ونقصد بلادكم من جهاتها كلها، ولا تقومون لنا، وأنتم تعلمون أنّ صلاح الدين كان يخاف أن يجتمع بنور الدين، والآن فقد زال ذلك الخوف، وإذا طلبناه إلى بلادكم فلا يمتنع، فعلموا صدقه، فصالحوه على شيء من المال أخذوه وأسرى أطلقوا لهم كانوا عند المسلمين، وتقررت الهدنة، فلما سمع صلاح الدين بذلك، أنكره واستعظمه، وكتب إلى الملك الصالح والأمراء الذين معه، يقبح لهم ما فعلوه، ويبذل من نفسه، قصد بلاد الفرنج ومقارعتهم، وإزعاجهم عن قصد شيء من بلاد الملك الصالح، وكان قصده أنْ يصير له طريق إلى بلاد الشام ليتملك البلاد، والأمراء الشاميون إنما صالحوا الفرنج خوفاً منه ومن سيف الدين غازي صاحب الموصل، فإنه كان قد أخذ البلاد الجزرية، وخافوا منه أنْ يعبر إلى الشام، فرأوا صلح الفرنج أصلح من أنْ يجيء هذا من الغرب وهذا من الشرق وهم مشغولون عن ردهم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في المحرم، وقع الحريق ليلاً ببغداد، فاحترق أكثر الظفرية ومواضع غيرها، ودام الحريق إلى بكرة، وطفئت النار.

وفيها، في شعبان بنى ابن شنكا، وهو ابن أخي شملة صاحب خوزستان، قلعة بالقرب من الماهكي، ليتقوى بها على الاستيلاء على تلك الأعمال، فسير إليه الخليفة العساكر من بغداد لمنعه، فالتقوا، فحمل بنفسه على الميمنة، فهزمها، واقتتل الناس قتالاً عظيماً، وأسر ابن أخي شملة، وحمل رأسه إلى بغداد، فعلق بباب النوبي، وهدمت القلعة.

وفيها، في رمضان، وكان الزمان ربيعاً، توالت الأمطار في ديـار بكر والجـزيرة والموصل، فدامت أربعين يوماً ما رأينا الشمس فيها غير مرتين، كل مرة مقدار لحظة، وخربت المساكن وغيرها، وكثر الهدم، ومات تحته كثير من الناس، وزادت دجلة زيادة عظيمة وكان أكثرها ببغداد، فإنها زادت على كل زيادة تقدمت منذ بنيت بغداد بذراع، وكسر، وخاف الناس الغرق، وفارقوا البلد، وأقاموا على شاطىء دجلة خوفاً من انفتاح القورج وغيره، وكانوا كلما انفتح موضع بادروا بسده، ونبع الماء في البلاليع، وخرب كثيراً من الدور، ودخل الماء إلى البيمارستان العضدي، ودخلت السفن من الشبابيك التي له، فإنها كانت قد تقلعت فمنّ الله تعالى على الناس بنقص الماء بعد أنْ أشرفوا على الغرق.

وفيها ، في جمادى الأولى ، كانت الفتنة ببغداد بين قطب الدين قايماز والخليفة ، وسببها أنّ الخليفة أمر بإعادة عضد الدين ابن رئيس الرؤساء إلى الوزارة، فمنع منه قطب الدين، وأغلق باب النوبي وباب العامة، وبقيت دار الخليفة كالمحـاصرة، فـأجاب الخليفة إلى ترك وزارته، فقال قطب الدين: لا أقنع إلا بإخراج عضد الدين من بغداد، فأمر بالخروج منها، فالتجأ إلى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل، فأخذه إلى رباطه، وأجاره ونقله إلى دار الوزير بقطفتا، فأقام بها، ثم عاد إلى بيته في جمادى الآخرة.

وفيها ، سقط الأمير أبو العباس أحمد بن الخليفة، وهو الذي صار خليفة من قبة عالية إلى أرض التاج، ومعه غلام له اسمه نجاح، فألقى نفسه بعده، وسلم ابن الخليفة ونجا، فقيل لنجاح: لم ألقيت نفسك؟ فقال ما كنت أريد البـقاء بعد مولاي، فرعى له الأمير ابـو العباس ذلك، فلما صـار خليفة جعله شـرابياً، وصـارت الدولـة جميعها بحكمه، ولقبه الملك الرحيم عز الدين، وبالغ في الإحسان إليه، والتقديم له، وخدمه جميع الأمراء بالعراق والوزراء وغيرهم.

وفيها، في رمضان، وقع ببغداد برد كبار ما رأى الناس مثله، فهدم الدور، وقتل جماعة من الناس، وكثيراً من المواشي، فوزنت بردة منها، فكانت سبعة أرطال، وكان عامته كالنارنج يكسر الأغصان، هكذا ذكره أبو الفرج بن الجوزي في تاريخه، والعهدة عليه.

وفيها ، كانت وقعة عظيمة بين المؤيد، صاحب نيسابور، وبين شاه مازندران، قتل فيها كثير من الطائفتين، فانهزم شاه مازندران، ودخل المؤيد بلد الديلم، وخربها، وفتك بأهلها وعاد عنها.

وفيها ، وقعت وقعة كبيرة بين أهل باب البصرة وأهل باب الكرخ وسببها أن الماء لما زاد سكر أهل باب الكرخ سكرا رد الماء عنهم فغرق مسجد فيه شجرة فانقلعت فصاح أهل الكرخ انقلعت الشجرة لعن الله العشرة، فقامت الفتنة، فتقدم الخليفة إلى علاء الدين تنامش فمال على أهل باب البصرة لأنه كان شيعياً وأراد دخول المحلة فمنعه أهلها وأغلقوا الأبواب ووقفوا على السور، وأراد إحراق الأبواب، فبلغ ذلك الخليفة، فأنكره أشد إنكار، وأمر بإعادة تنامش، فعاد ودامت الفتنة أسبوعاً ثم انفصل الحال من غير توسط سلطان. وفيها عبر ملك الروم خليج القسطنطينية وقصد بلاد قلج أرسلان فجرى بينهما حرب استظهر فيها المسلمون، فلما رأى ملك الروم عجزه عاد إلى بلده وقد قتل من عسكره وأسر جماعة كثيرة. وفيها في جمادى الأولى مات أحمد بن علي بن المعمر بن محمد بن عبد الله أبو عبد الله العلوي الحسيني نقيب العلويين ببغداد وكان يلقب الظاهر وسمع الحديث الكثير ورواه وكان حسنة أهل بغداد. وفيها توفي الحافظ أبو العلاء الحسن بن أحمد بن محمد العطار الهمداني سافر الكثير في طلب الحديث وقراءة القرآن واللغة وكان من أعيان المحدثين وكان له قبول عظيم ببلد عند العامة والخاصة.

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة

ذكر وصول أسطول صقلية إلى مدينة الإسكندرية وانهزامهم منها

في هذه السنة ظفر أهل الإسكندرية وعسكر مصر بأسطول الفرنج من صقلية، وكان سبب ذلك ما ذكرناه من إرسال أهل مصر إلى ملك الفرنج بساحل الشام، وإلى صاحب صقلية ليقصدوا ديار مصر ليثوروا بصلاح الدين ويخرجوه من مصر، فجهز صاحب صقلية أسطولاً كثيراً عدته مائتي شيني تحمل الرجالة وستاً وثلاثين طريدة تحمل الخيل وست مراكب كباراً تحمل آلة الحرب، وأربعين مركباً تحمل الأزواد، وفيها من الراجل خمسون ألفاً ومن الفرسان ألف وخمسمائة منها خمسمائة تركبلي: وكان المقدم عليهم ابن عم صاحب صقلية، وسيره إلى الإسكندرية من ديار مصر فوصلوا إليها في السادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستين على حين غفلة من أهلها وطمأنينة فخرج أهل الإسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول، وأبعدوا عن البلد فمنعهم الوالي عليهم من ذلك وأمرهم بملازمة السور، ونزل الفرنج إلى البر مما يلي البحر والمنارة، وتقدموا إلى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات وقاتلوا أشد قتال وصبر لهم أهل البلد، ولم يكن عندهم من العسكر إلا القليل ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم.

وسيّرت الكتب بالحال إلى صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو عنهم ودام القتال أول يوم إلى آخر النهار، ثم عاود الفرنج القتال اليوم الثاني وجدّوا ولازموا الزحفَ حتى وصلت الدبابات إلى قريب السور، ووصل ذلك اليوم من العساكر الإسلامية كل من كان في أقطاعه وهو قريب من الإسكندرية، فقويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القتال والصبر.

فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل

جانب وهم غارون وكثر الصياح من كل الجهات فارتاع الفرنج، واشتد القتال فوصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها وصبروا للقتال، فأنزل الله نصره عليهم وظهرت أماراته ولم يزل القتال إلى آخر النهار. ودخل أهل البلد إليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تباشير الظفر وقوتهم وفشل الفرنج وفتور حربهم وكثرة القتل والجراح في رجالتهم.

وأما صلاح الدين فإنه لما وصله الخبر سار بعساكره وسير مملوكاً له ومعه ثلاثة جنائب لِيَجِدَّ السيرَ عليها إلى الإسكندرية يبشر بوصوله وسيّر طائفة من العسكر إلى دمياط خوفاً عليها واحتياطاً لها فسار ذلك المملوك فوصل الإسكندرية من يومه وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال، فنادى في البلد بمجيء صلاح الدين والعساكر مسرعين، فلما سمع الناس ذلك عاودوا إلى القتال وقد زال ما بهم من تعب وألم الجراح، وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه فهو يقاتل قتالَ من يريد أن يشاهد قتاله. وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين في عساكره فسقط في أيديهم وزادوا تعباً وفتوراً، فهاجم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا إلى خيامهم فغنموها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة وكثر القتل في رجالة الفرنج فهرب كثير منهم إلى البحر وقربوا شوانيهم إلى الساحل ليركبوا فيها، فسلم بعضهم وركب وغرق بعضهم. وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض شواني الفرنج فغرقت فخاف الباقون من ذلك فولوا هاربين واحتمى ثلاثمائة من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون إلى بكرة، ودام القتال إلى أن أضحى النهار فغلبهم أهل البلد وقهروهم فصاروا بين قتيل وأسير، وكفى الله المسلمين شرهم.

ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر

وفي أول هذه السنة خالف الكنز بصعيد مصر واجتمع إليه من رعية البلاد والسودان والعرب وغيرهم خلق كثير، وكان هناك أمير من الصلاحية في أقطاعه وهو أخو الأمير أبي الهيجاء السمين فقتله الكنز فعظم قتله على أخيه، وهو من أكبر الأمراء وأشجعهم، فسار إلى قتال الكنز وسيَّر معه صلاح الدين جماعة من الأمراء وكثيراً من العسكر، ووصلوا إلى مدينة طَود[1]، فاحتمت عليهم فقاتلوا من بها وظفروا بهم وقتلوا منهم كثيرا وذلوا بعد

---

(١) طود: بفتح أوله وسكون ثانية بليدة بالصعيد الأعلى فوق قوص ودون أسوان.

العزّ وقهروا واستكانوا. ثم سار العسكر بعد فراغهم من طود إلى الكنز وهو في طغيانه يَـعْمَهُ فقاتلوه فقتل هو ومن معه من الأعراب وغيرهم وأمنت بعده البلاد واطمأن أهلها.

ذكر ملك صلاح الدين دمشق

في هذه السنة سلخ ربيع الأول ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب مدينة دمشق. وسبب ذلك أن نور الدين لما مات وملك ابنه الملك الصالح بعده كان بدمشق، وكان سعد الدين كمشتكين قد هرب من سيف الدين غازي إلى حلب كما ذكرناه، فأقام بها عند شمس الدين عليّ بن الداية فلما استولى سيف الدين على البلاد الجزرية خاف ابن الداية أن يُغير إلى حلب فيملكها، فأرسل سعد الدين إلى دمشق ليحضر الملك الصالح ومعه العساكر إلى حلب، فلما قارب دمشق سيّر إليه شمس الدين محمد بن المقدم عسكراً فنهبوه وعاد منهزماً إلى حلب، فأخلف عليه ابن الداية عوض ما أخذ منه .ثم إن الأمراء الذين بدمشق نظروا في المصلحة فعلموا أن مسيره إلى حلب أصلح الدولة من مقامه بدمشق، فأرسلوا إلى ابن الداية يطلبون إرسال سعد الدين ليأخذ الملك الصالح فجهزه وسيّره. ـ وعلى نفسها براقش تجني ـ فسار إلى دمشق في المحرم من هذه السنة وأخذ الملك الصالح وعاد إلى حلب. فلما وصلوا إليها قبض سعد الدين على شمس الدين بن الداية وإخوته وعلى رئيس بن الخشاب رئيس حلب ومقدم الأحداث بها، ولولا مرض شمس الدين بن الداية لم يتمكن من ذلك، واستبد سعد الدين بتربية الملك الصالح فخاف ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق، وقالوا: إن استقر أمر حلب أخذ الملك الصالح وسار به إلينا وفعل مثل ما فعل بحلب.

وكاتبوا سيف الدين غازي صاحب الموصل ليعبر الفرات إليهم ليسلموا إليه دمشق فلم يفعل وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق فيمنع عنها ويقصده ابن عمه وعسكر حلب من وراء ظهره فيهلك، أشار عليه بهذا زلفندار عز الدين والجبان يقدّر البعيد من الشرّ قريباً يرى الجبن حزماً كما قال:

يَـرى الجبنـاءُ أن الجبنَ حـزمٌ   وتلك طبيعـة الـرجـل الـجبـان

فلما أشار عليه بهذا الرأي زلفندار قبله وامتنع من قصد دمشق، وراسل سعد الدين والملك الصالح وصالحهما على مأخذه من البلاد، فلما امتنع عن العبور إلى دمشق

عظم حزمهم وقالوا: حيث صالحهم سيف الدين لم يبق لهم مانع عن المسير إلينا فكاتبوا حينئذ صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر واستدعوه ليملكوه عليهم، وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين بن المقدم ومن أشبه أباه فما ظلم ـ وقد ذكرنا مخامرة أبيه في تسليم سنجار سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

فلما وصلت الرسل إلى صلاح الدين بذلك لم يلبث وسار جريدة في سبعمائة فارس والفرنج في طريقه فلم يبالِ بهم، فلما وطىء أرض الشام قصد بصرى وكان بها حينئذ صاحبها وهو من جملة من كاتبه، فخرج ولقيه، فلما رأى قلة من معه خاف على نفسه واجتمع بالقاضي الفاضل وقال: ما أرى معكم عسكراً وهذا بلد عظيم لا يقصد بمثل هذا العسكر، ولو منعكم من به ساعة من النهار أخذكم أهل السواد. قال: كان معكم مال سهل الأمر، فقالوا: هنا مال كثير يكون خمسين ألف دينار، فضرب صاحب بُصرى على رأسه وقال هلكتم وأهلكتمونا، وجميع ما كان معهم عشرة آلاف دينار، ثم سار صلاح الدين إلى دمشق، فخرج كل من بها من العسكر إليه فلقوه وخدموه ودخل البلد ونزل في دار والده المعروفة بدار العقيقي، وكانت القلعة بيد خادم اسمه ريحان. فأحضر صلاح الدين كمال الدين بن الشهرزوري، وهو قاضي البلد والحاكم في جميع أموره من الديوان والوقف وغير ذلك، وأرسله إلى ريحان ليسلم القلعة إليه. وقال: أنا مملوك الملك الصالح وما جئت إلا لأنصره وأخدمه وأعيد البلاد التي أخذت منه إليه، وكان يخطب له في بلاده كلها، فصعد كمال الدين إلى ريحان ولم يزل معه حتى سلم القلعة فصعد صلاح الدين إليها، وأخذ ما فيها من الأموال، وأخرجها، واتسع بها، وثبت قدمه، وقويت نفسه، وهو مع هذا يظهر طاعة الملك الصالح ويخاطبه بالمملوك والخطبة والسكة باسمه.

ذكر ملك صلاح الدين مدينتي حمص وحماة

لما استقر ملك صلاح الدين لدمشق، وقرر أمرها، استخلف بها أخاه سيف الإسلام طغدكين بن أيوب وسار إلى مدينة حمص مستهل جمادى الأولى، وكانت حمص وحماة وقلعة بعرين وسلمية وتل خالد والرّها من بلد الجزيرة في أقطاع الأمير فخر الدين مسعود الزعفراني، فلما مات نور الدين لم يمكنه المقام بها لسوء سيرته في أهلها، ولم

يكن له في قلاع هذه البلاد حكم إنما فيها ولاة لنور الدين، وكان بقلعة حمص والٍ يحفظها، فلما نزل صلاح الدين على حمص ـ حادي عشر الشهر المذكور، راسل من فيها بالتسليم، فامتنعوا، فقاتلهم من الغد، فملك البلد وأمن أهله، وامتنعت عليه القلعة وبقيت ممتنعة إلى أن عاد من حلب على ما نذكره إن شاء الله، وترك بمدينة حمص من يحفظها ويمنع من بالقلعة من التصرف وأن تصعد إليهم مسيرة.

وسار إلى مدينة حماة وهو في جميع أحواله لا يظهر إلا طاعة الملك الصالح بن نور الدين وأنه إنما خرج لحفظ بلاده عليه من الفرنج واستعادة ما أخذ سيف الدين غازي صاحب الموصل من البلاد الجزرية، فلما وصل إلى حماة ملك المدينة مستهل جمادى الآخرة وكان بقلعتها الأمير عز الدين جورديك، وهو من المماليك النورية، فامتنع من التسليم إلى صلاح الدين، فأرسل إليه صلاح الدين يعرفه ما هو عليه من طاعة الملك الصالح وإنما يريد حفظ بلاده عليه فاستحلفه جورديك على ذلك وسيَّره إلى حلب في اجتماع الكلمة على طاعة الملك الصالح وفي إطلاق شمس الدين علي وحسن وعثمان أولاد الداية من السجن، فسار جورديك إلى حلب واستخلف بقلعة حماة أخاه ليحفظها فلما وصل جورديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه، فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة إلى صلاح الدين فملكها.

ذكر حصر صلاح الدين حلب وعوده عنها وملك قلعة حمص وبعلبك

لما ملك صلاح الدين حماة سار إلى حلب فحصرها ثالث جمادى الآخرة فقاتله أهلها، وركب الملك الصالح وهو صبي وعمره اثنتا عشرة سنة وجمع أهل حلب وقال لهم: قد عرفتم إحسانَ أبي إليكم ومحبتَهُ لكم وسيرتَهُ فيكم وأنا يتيمُكُمْ. وقد جاء هذا الظالمِ الجاحد إحسان والذي إليه يأخذ بلدي ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق. وقال مِنْ هذا كثيراً وبكى فأبكى الناس فبذلوا له الأموال والأنفس واتفقوا على القتال دونه والمنع عن بلده وجدوا في القتال وفيهم شجاعة قد ألفوا الحرب واعتادوها، حيث كان الفرنج بالقرب منهم، فكانوا يخرجون ويقاتلون صلاح الدين عند جبل حوشن فلا يقدر على القرب من البلد، وأرسل سعد الدين إلى سِنان مقدم الإسماعيلية وبذل له أموالاً كثيرة ليقتلوا صلاح الدين فأرسلوا جماعة منهم إلى عسكره فلما وصلوا رآهم أمير اسمه خمارتكين صاحب قلعة بوقَيس فعرفهم لأنه جارهم في البلاد كثير الاجتماع بهم والقتال

لهم، فلما رآهم قال لهم: ما الذي أقدمكم وفي أي شيء جئتم فجرحوه جراحات مثخنة وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله فقتل دونه وقاتل الباقون من الإسماعيلية فقتلوا جماعة ثم قُتِلوا.

وبقي صلاح الدين محاصراً لحلب إلى سلخ جمادى الآخرة ورحل عنها مستهل رجب.

وسبب رحيله أن القومص الصنجيلي صاحب طرابلس كان قد أسره نور الدين علي حارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وبقي في الحبس إلى هذه السنة فأطلقه سعد الدين بمائة ألف وخمسين ألف دينار صورية وألف أسير، فلما وصل إلى بلده اجتمع الفرنج عليه يهنئونه بالسلامة، وكان عظيماً فيهم من أعيان شياطينهم، فاتفق أن مَرِي ملك الفرنج لعنه الله مات أول هذه السنة وكان أعظم ملوكهم شجاعة وأجودهم رأياً ومكراً ومكيدة فلما توفي خلف ابنا مجذوماً عاجزاً عن تدبير الملك فملكه الفرنج صورة لا معنى تحتها وتولى القُمص ريمُند تدبير الملك الحل والعقد عن أمره يصدرون، فأرسل إليه من حلب يطلبون منه أن يقصد بعض البلاد التي بيد صلاح الدين ليرحل عنهم،فسار إلى حمص ونازلها سابع رجب فلما تجهز لقصدها سمع صلاح الدين الخبر فرحل عن حلب فوصل إلى حماة ثامن رجب بعد نزول الفرنج على حمص بيوم، ثم رحل إلى الرَّستن فلما سمع الفرنج بقربه رحلوا عن حمص ووصل صلاح الدين إليها فحصر القلعة إلى أن ملكها في الحادي والعشرين من شعبان من السنة فصار أكثر الشام بيده ولما ملك حمص سار منها إلى بعلبك وبها خادم اسمه يُمن وهو والٍ عليها من أيام نور الدين فحصها صلاحُ الدين فأرسل يمن يطلب الأمان له ولمن عنده، فأمنهم صلاح الدين وتسلم القلعة رابع عشر رمضان من السنة المذكورة.

ذكر حصر سيف الدين أخاه عماد الدين بسنجار

لما ملك صلاح الدين دمشق وحمص وحماة كتب الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين إلى ابن عمه سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود يستنجده على صلاح الدين، ويطلب أن يعبر إليه ليقصدا صلاح الدين ويأخذا البلاد منه فجمع سيف الدين عساكره وكاتب أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار يأمره أن ينزل إليه بعساكره

ليجتمعوا على المسير إلى الشام فامتنع من ذلك، وكان صلاح الدين قد كاتب عماد الدين وأطمعه في الملك لأنه هو الكبير فحمله الطمع على الامتناع على أخيه، فلما رأى سيف الدين امتناعه جهز أخاه عز الدين مسعوداً في عسكر كثير هو معظم عسكره وسيّره إلى الشام وجعل المقدم على العسكر أكبرَ أميرٍ معه يقال له عز الدين محمود ويلقب أيضاً زلفندار وجعله المدبر للأمر. وسار سيف الدين إلى سنجار فحصرها في شهر رمضان وقاتلها وجد في القتال وامتنع عماد الدين بها وجد في حفظها والذب عنها فدام الحصار عليها، فبينما هو يحاصرها أتاه الخبر بانهزام عسكره الذي مع أخيه عز الدين مسعود من صلاح الدين فراسل حينئذ أخاه عماد الدين وصالحه على ما بيده ورحل إلى الموصل وثبت قدم صلاح الدين بعد هذه الهزيمة وخافه الناس وترددت الرسل بينه وبين سيف الدين غازي في الصلح فلم يستقر حال.

ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين وحصره مدينة حلب

في هذه السنة سار عسكر سيف الدين مع أخيه عز الدين زلفندار إلى حلب واجتمع معهما عساكر حلب وساروا كلهم إلى صلاح الدين ليحاربوه. فأرسل صلاح الدين إلى سيف الدين يبذل تسليم حمص وحماة وأن يقر بيده مدينة دمشق وهو فيها نائب الملك الصالح فلم يجب إلى ذلك وقال: لا بد من تسليم جميع ما أخذ من بلاد الشام والعود إلى مصر. وكان صلاح الدين يجمع عساكره ويتجهز للحرب، فلما امتنع سيف الدين من إجابته إلى ما بذل، سار في عساكره إلى عز الدين مسعود وزلفندار فالتقوا تاسع عشر رمضان بالقرب من مدينة حماة بموضع يقال له قرون حماة، وكان زلفندار جاهلاً بالحروب والقتال غيرَ عالمٍ بتدبيرها مع جبنٍ فيه إلا أنه قد رزق سعادة وقبولاً من سيف الدين، فلما التقى الجمعان لم يثبت العسكر السيفي وانهزموا لا يلوي أخ على أخيه وثبت عز الدين أخو سيف الدين بعد انهزام أصحابه فلما رأى صلاح الدين ثباته قال: إما أن هذا أشجع الناس أو أنه لا يعرف الحرب وأمر أصحابه بالحملة عليه فحملوا فأزالوه عن موقفه وتمت الهزيمة وتبعهم صلاح الدين وعسكره حتى جازوا معسكرهم وغنموا منهم غنائم كثيرة وآلة وسلاحاً عظيماً ودوابٍ فارهة وعادوا بعد طول البيكار مستريحين وعاد المنهزمون إلى حلب وتبعهم صلاح الدين فنازلهم بها محاصراً لها ومقاتلاً وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه عن السكة في بلاده ودام محاصراً

لهم فلما طال الأمر عليهم راسلوه في الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها فأجابهم إلى ذلك وانتظم الصلح ورحل عن حلب في العشر الأول من شوال ووصل إلى حماة ووصلت إليه بها خلع الخليفة مع رسوله.

ذكر ملك صلاح الدين قلعة بَعْرِين

في هذه السنة في العشر الآخر من شوال ملك صلاح الدين قلعة بعرين من الشام، وكان صاحبها فخر الدين مسعود بن الزعفراني وهو من أكابر الأمراء النورية، فلما رأى قوة صلاح الدين نزل منها واتصل بصلاح الدين وظن أن صلاح الدين يكرمه ويشاركه في ملكه ولا ينفرد عنه بأمر مثل ما كان مع نور الدين فلم يَرَ من ذلك شيئاً ففارقه ولم يكن بقي له من أقطاعه التي كانت له في الأيام النورية غير بَعرين ونائبه بها، فلما صالح صلاح الدين الملك الصالح بحلب عاد إلى حماة وسار منها إلى بعرين وهي قريبة منها فحصرها، ونصب عليها المنجنيقات، وأدام قتالها فسلمها، وإليها بالأمان، فلما ملكها عاد إلى حماة، فأقطعها خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي، وأقطع حمص، ناصر الدين ابن عمه شيركوه، وسار منها إلى دمشق، فدخلها أواخر شوال من السنة.

ذكر مُلكِ البهلوانِ مدينةَ تبريز

في هذه السنة، ملك البهلوان بن أيلدكز مدينة تبريز، وهي من جملة بلاد آقسنقر الأحمديلي.

وسببُ ذلك أنّ البهلوان سار إلى مراغة، وحصرها وكان ابن آقسنقر الأحمديلي قد مات، ووصى بالملك لابنه فلك الدين، فقصده البهلوان، ونزل على قلعة رويندز، وحصرها، فامتنعت عليه، فتركها، وحصر مراغة، وسير أخاه قزل أرسلان في جيش إلى مدينة تبريز فحصرها أيضاً، وكان البهلوانُ يقاتلُ أهل مراغة، فظفروا بطائفة من عسكره، فخلع عليهم صدر الدين قاضي مراغة وأطلقهم، فحسن ذلك عند البهلوان، وشرع القاضي في الصلح على أن يسلموا تبريزَ إلى البلهوان، فأجيب إلى ذلك، واستقرت القاعدة عليه، وحلف كلُّ واحدٍ منهما لصاحبه، وتسلم البهلوان تبريز، وأعطاها أخاهُ قزل أرسلان، ورحل عن مراغة بعسكره.

ذكر وفاة شملة

في هذه السنة. مات شملة التركماني، صاحب خوزستان، وكان قد كثرت ولايته، وعظم شأنه وبنى عدة حصون، وبقي كذلك زيادة على عشرين سنة، وكان سببُ موتِهِ أنَّه قصد بعض التركمان، فعلموا بذلك، فاستعانوا بشمس الـدين البهلوان بن أيلدكز، صاحب عراق العجم، فسيَّر إليهم جيشاً فاقتَتَلوا، فأصابَ شملةَ سهمٌ، ثمَّ أخذ أسيراً، وولده، وابن أخيه، وتوفي بعد يومين، وهو من التركمان الأقشرية. ولما مات ملك ابنه بعده.

ذكرُ هربِ قطب الدين قايماز من بغداد

في هذه السنة، في شوال، سير علاء الدين تنامش، وهو من أكابر الأمراء ببغداد، وكان قطب الدين قايماز، زوج أخته عسكراً إلى العراق، فنهبـوا أهله، وبالغـوا في أذاهم، فجاء منهم جماعة إلى بغداد واستغاثوا، فلم يغاثوا لضعف الخليفة مع قايماز، وتنامش، وتحكمها عليه، فقصدوا جامع القصر، واستغاثـوا فيه، ومنعـوا الخطيب، وفاتت الصلاة أكثر الناس، فأنكر الخليفة ما جرى، فلم يلتفت قطب الدين وتنامش إلى ما فعل، واحتقروه، فلا جرم لم يمهلهم الله تعالى لاحتقارهم الدعاء، وازدرائهم أهله، فلما كان خامس ذي القعدة، قصد قطب الدين قايماز أذى ظهير الدين بن العطار، وكان صاحب المخزن، وهو خاص الخليفة، وله بـه عنايـة تامـة، فلم يُراعِ الخليفـة في صاحبه، فأرسل إليه يستدعيه ليحضر عنده، فهرب فأحرق قطب الدين داره، وحالف الأمراء على المساعدة، والمظاهرة له، وجمعهم، وقصد دار الخليفة لعلمـه أن ابن العطّار فيها. فلما علم الخليفة ذلـك، ورأى الغلبة، صعـد إلى سطح داره، وظهـر للعامة، وأمر خادماً فصاح، واستغاث، وقال للعامة: مالُ قطب الدين لكم، ودمه لي، فقصد الخلق كلهم دار قطب الدين للنهب، فلم يمكنه المقام لضيق الشوارع، وغلبة العامة، فهرب من داره، من باب فتحه في ظهرها لكثرة الخلق على بابها، وخرج من بغداد، ونهبت داره، وأخذ منها من الأموال ما لا يعدُّ ولا يحصى، فَرُئِي فيها من التنعُّم ما ليس لأحد مثله، فمن جملة ذلك، أن بيت الطهارة الذي كان له، فيه سلسلة ذهب من السقف إلى محاذى وجه القاعدة على الخلا، وفي أسفلها كرة كبيرةٌ، ذهب مخرّمة، محشـوة، بالمسـك والعنبر، ليشمَّهـا إذا قعد فتشبث إنسـان وقطعهـا، ودخل بعض

الصعاليك، فأخذ عدة أكياس، مملوءة دنانير، وكان الأقوياء قد وقفوا على الباب يأخذون ما يخرج به الناس، فلما أخذ ذلك الصعلوك الأكياس، قصد المطبخ، فأخذ منه قدراً مملوءة طبيخاً، وألقى الأكياس، فيها، وحملها على رأسه، والناس يضحكون منه، فيقول أنا أريد شيئاً أطعمه عيالي اليوم، فنجا بما معه، فاستغنى بعد ذلك، فظهر المال، ولم يبق من نعمة قطب الدين في ساعة واحدة قليل، ولا كثير، ولمَّا خرج من البلد تبعه تنامش وجماعة من الأمراء، فنهبت دورهم أيضاً، وأخذت أموالهم، وأحرق أكثرها، وسار قطب الدين إلى الحلة، ومعه الأمراء فسيّر الخليفة إليه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ، فلم يزل به يخدعه، حتى سار عن الحلَّة إلى الموصل على البر، فلحقه ومن معه عطش عظيم، فهلك أكثرهم من شدة الحر والعطش، ومات قطب الدين قبل وصوله إلى الموصل، فحمل ودفن بظاهر باب العمادي، وقبره مشهور هناك.

وهذا عاقبة عصيان الخليفة وكفران الإحسان، والظلم، وسوء التدبير، فإنه ظلم أهل العراق، وكفر إحسان الخليفة، الذي كان قد غمره، ولو أقام بالحلة وجمع العساكر وعاود بغداد لاستولى على الأمور كلها كما كان، فإن عامة بغداد كانوا يريدونه، وكان قوياً بالإحسان على البلاد، فأطاعوه، ولما مات في ذي الحجة، وصل علاء الدين تنامش إلى الموصل، فأقام مديدة، ثم أمره الخليفة بالقدوم إلى بغداد، فعاد إليها، وبقي بها إلى أن مات بغير إقطاع، وكان هذا آخر أمرهم، ولما أقام قطب الدين بالحلّة امتنع الحاجُّ من السفر، فتأخروا إلى أن رحل عنها، فدخلوا من الكوفة في ثمانية عشر يوماً، وهذا ما لم يسمع بمثله، وفات كثيراً منهم الحج، ولما هرب قطب الدين خلع الخليفة على عضد الدين الوزير، وأعيد إلى الوزارة. قال بعض الشعراء في قطب الدين وتنامش هذه الأبيات:

إنْ كنتَ مُعتبراً بملكٍ زائلٍ	وحوادثَ عنقيةِ الإدلاجِ
فدعْ العجائبَ والتواريخَ الأولى	وانظر إلى قيماز وابن قمَّاجِ
عطفَ الزمانُ عليهما فَسقاهُما	من كأسه صرفاً بغير مِزاجِ
فتبدَّلوا بعد القصورِ وظلِّها	ونعيمها بمهامةٍ وفجاجِ
فليحذر الباقون من أمثالها	نكباتِ دهرٍ خائنٍ مِزْعاجِ

وكان قطب الدين كريماً، طلق الوجه محبّاً للعدل، والإحسان، كثير البذل للمال،

والذي كان جرى منه، وإنما كان يحمله عليه تنامش، ولم يكن بإرادته.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة مات زعيم الدين صاحب المخزن، واسمه يحيى بن عبد الله بن محمد بن المعمر بن جعفر، أبو الفضل، وحجَّ بالناس عدَّة سنين، وإليه الحكم في الطريق، وناب عن الوزارة، وتنقَّل في هذه الأعمال أكثر من عشرين سنة، وكان يحفظ القرآن.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة

ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين

في هذه السنة عاشر شوّال، كان المصاف بين سيف الدين، غازي بن مودود، وبين صلاح الدين، يوسف بن أيوب، بتلّ السلطان على مرحلة من حلب، على طريق حماه، وانهزم سيف الدين، وسبب ذلك، أنه لما انهزم أخوه عز الدين مسعود، من صلاح الدين في العام الماضي، وصالح سيفُ الدين أخاه عماد الدين، صاحب سنجار، عاد إلى الموصل، وجمع عساكره، وفرق فيهم الأموال، واستنجد صاحب حصنِ كيفا، وصاحب ماردين، وغيرهما، فاجتمعت معه عساكر كثيرة بلغت عدّتهم ستة آلاف فارس، فسار إلى نصيبين في ربيع الأول من هذه السنة، وأقام بها فأطال المقام، حتى انقضى الشتاء، وهو مقيم، فضجر العسكرُ ونفدت نفقاتهم، وصار العود إلى بيوتهم مع الهزيمة أحب إليهم من الظفر لما يتوقعونه إن ظفروا من طول المقام بالشام بعد هذه المدة، ثم سار إلى حلب، فنزل إليه سعدُ الدين كمشتكين الخادم، مدبر دولة الملك الصالح، ومعه عساكر حلب، وكان صلاح الدين في قلة من العساكر لأنّه كان صالح الفرنج في المحرم من هذه السنة، على ما نذكره إن شاء الله.

وقد سيَّر عساكره إلى مصر، فأرسل يستدعيها، فلو عالجوه لبلغوا غرضهم منه، لكنهم تريثوا، وتأخّروا عنه، فجاءته عساكره. فسار من دمشق إلى ناحية حلب ليلقى سيف الدين، فالتقى العسكران بتل السلطان، وكان سيف الدين قد سبقه، فلما وصل صلاح الدين كان وصوله العصر، وقد تعب هو وأصحابه، وعطشوا فألقوا نفوسهم إلى الأرض ليس فيهم حركة، فأشار على سيف الدين جماعة بقتالهم، وهم على هذا الحال، فقال زلفندار: ما بنا هذه الحاجة إلى قتال هذا الخارجي في هذه الساعة، غدا

بكرة نأخذهم كلهم، فترك القتال إلى الغد، فلما أصبحوا اصطفوا للقتال، فجعل زلفندار، وهو المدبر للعسكر السيفي، أعلامهم في وهْدةٍ من الأرض، لا يراها إلا من هو بالقرب منها، فلمّا لم يَرَها الناس ظنوا أن السلطان قد انهزم، فلم يثبتوا، وانهزم، ولم يلو أخٌ على أخيه، ولم يقتل بين الفريقين مع كثرتهم غير رجل واحد، ووصل سيف الدين إلى حلب وترك بها أخاه عز الدين مسعوداً في جمع من العسكر، ولم يقم هو، وعبر الفرات، وسار إلى الموصل، وهو لا يصدق أنه ينجو، وظن أن صلاح الدين يعبر الفرات، ويقصده بالموصل، فاستشار وزيره جلال الدين، ومجاهد الدين قايماز، في مفارقة الموصل، والاعتصام بقلعة عقرا الحميدية، فقال له مجاهد الدين: أرأيت إن مُلِكت الموصل عليك، أتقدر أن تمتنع ببعض أبراج الفصيل.؟ فقال: لا، فقال: برج في الفصيل خيرٌ من العقر، وما زال الملوك ينهزمون، ويعاودون الحرب، واتفق هو، والوزير على شد أزره، وتقوية قلبه، فثبت، ثمَّ أعرض عن زلفندار وعزله واستعمل مكانه على إمارة الجيوش مجاهد الدين قايماز، على ما نذكره إن شاء الله.

وقد ذكر العماد الكاتب في كتاب البرق الشاميّ في تاريخ الدولة الصلاحية، أنّ سيف الدين كان عسكره في هذه الوقعة عشرين ألف فارس، ولم يكن كذلك، وإنما كان على التحقيق يزيدون على ستة آلاف فارس، أقل من خمسمائة، فإنّني وقفت على جريدة العرض، وترتيب العسكر المصاف، ميمنة، وميسرة وقلباً، وجاليشية، وغير ذلك، وكان المتولى لذلك، والكاتب له، أخي مجد الدين، أبا السعادات، المبارك بن محمد بن عبد الكريم رحمه الله: إنما قصد العماد أن يعظم أمر صاحبه، بأنه هزم بستة آلاف، عشرين ألفاً والحق أحقّ أن يتبع، ثمَّ ياليت شعري كم هي الموصل، وأعمالها إلى الفرات حتى يكون لها، وفيها عشرون ألف فارس.

ذكر ما ملكه صلاح الدين بعد الكسرة من بلاد الصالح بن نور الدين

لما انهزم سيف الدين، وعسكره ووصلوا إلى حلب، عاد سيف الدين إلى الموصل، كما ذكرناه. وترك بحلب أخاه عز الدين مسعوداً في طائفة من العسكر، نجدة للملك الصالح، وأما صلاح الدين، فإنه لمّا استولى على أثقال العسكر الموصلي، هو، وعسكره، وغنموها، واتّسعوا بها، وفروا سار إلى بزاعة فحصرها،

وقـاتله من بالقلعـة، ثم تسلمها، وجعـل فيها من يحفـظها، وسـار إلى مدينـة منبج فحصرهـا، آخر شوال، وبها صاحب قطب الدين، ينال بن حسان المنبجي، وكان شديد العداوة لصلاح الدين، والتحريض عليه والاطماع فيه، والطعن فيـه، فصلاح الدين حنق عليه متهدد له فأمّا المدينة فملكها، ولم تمتنع عليه وبقي القلعة، وبها صاحبها قد جمع إليها الرجال، والسلاح، والذخائر، فحصره صلاح الدين. وضيق عليه وزحف الى القلعة فوصل النقّابون إلى السور فنقبوها، وملكوها عنوة، وغنم العسكر الصلاحـي كل ما فيها، وأخذ صاحبها أسيراً، فأخذ صلاح الدين كل ماله، وأصبح فقيراً لا يملك نقيراً، ثم أطلقه صلاح الدين فسار إلى الموصل، فأقطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة، ولما فرغ صلاح الدين من منبج سار إلى قلعة إعزاز، فنازلها ثالث ذي القعدة من السنة، وهي من أحصن القلاع وأمنعها، فنازلها،وحصرها وأحاط بها، وضيّق على من فيها، ونصب عليها المنجنيقات، وقُتل عليها كثير من العسكر.

فبينما صلاح الدين يوماً في خيمة لبعض أمرائه، يقال له جاولي، وهو مقدم الطائفة الأسدية، إذ وثبت عليه باطني فضر به بسكين في رأسه، فجرحه فلولا أن المغفر الزرد تحت القلنسوة لقتله، فأمسك صلاح الدين يد الباطني بيده، إلا أنه لا يقدر على منعه من الضرب بالكلية إنما يضرب ضرباً ضعيفاً، فبقي الباطني يضربه في رقبته بالسكين، وكان عليه كزاغند، فكانت الضربات تقع في زيق الكزاغند، فتقطعه، والزردية تمنعها من الوصول الى رقبته، لبعد أجله، فجاء أمـير من أمرائه، اسمه يازكش، فـأمسك السكين بكفه، فجرحه الباطني، ولم يطلقها من يده إلى أن قتل الباطني، وجاء آخر من الاسماعيلية فقتل أيضاً، وثالث فقتل وركب صلاحُ الدين إلى خيمته كالمذعور، لا يصدق بنجاته، ثم اعتبر جنده، فمن أنكره، أبعده، ومن عرفه، أقـره على خدمته، ولازم حصار إعزاز ثمانية وثلاثين يوماً، كلُّ يوم أشد قتالاً مما قبله، وكثـرت النقوب فيها، فأذعن من بها، وسلموا القلعة إليه فتسلمها حادي عشر ذي الحجة.

ذكر حصر صلاح الدين مدينة حلب والصلح عليها

لما ملك صلاح الدين قلعة إعزاز، رحل إلى حلب، فنازلها منتصف ذي الحجة، وحصرها، وبها الملك الصالح، ومن معه من العساكر، وقد قام العامة في حفظ البلد

القيام المرضي، بحيث إنَّهم منعوا صلاح الدين من القرب من البلد، لأنه كان إذا تقدم للقتال خسر هو، وأصحابه، وكثر الجراحُ فيهم، والقتل، وكانوا يخرجون، ويقاتلونه ظاهر البلد، فترك القتال، وأخلد للمطاولة، وانقضت سنة إحدى وسبعين، ودخلت سنة اثنتين وسبعين، وهو محاصر لها، ثم ترددت الرسل بينهم في الصلح في العشرين من المحرم، فوقعت الإجابة إليه من الجانبين لأن أهل حلب خافوا من طول الحصار، فإنَّهم ربما ضجروا، وضعفوا، وصلاح الدين، رأى أنه لا يقدر على الدنو من البلد، ولا على قتال من به، فأجاب أيضاً، وتقررت القاعدة في الصلح للجميع للملك الصالح، ولسيف الدين، صاحب الموصل، ولصاحب الحصن، ولصاحب ماردين، وتحالفوا، واستقرت القاعدة أن يكونوا كلهم عوناً على الناكث الغادر، فلما انفصل الأمر، رحل عن حلب بعد أن أعاد قلعة إعزاز إلى الملك الصالح فإنه أخرج صلاح الدين أختاً له، صغيرة طفلة، فأكرمها صلاحُ الدين وحمل لها شيئاً كثيراً وقال لها: ما تريدين قالت: أريد قلعة إعزاز، وكانوا قد علموها ذلك. فسلمها إليهم ورحل إلى بلد الإسماعيلية.

ذكر الفتنة بمكة وعزل أميرها وإقامة غيره

في هذه السنة في ذي الحجة، كان بمكة حرب شديدةٌ بين أمير الحاج طاشتكين، وبين الأمير مكثر بن عيسى، أمير مكة، وكان الخليفة قد أمر أمير الحاج بعزل مكثر وإقامة أخيه داود مقامه، وسبب ذلك أنه كان قد بنى قلعة على جبل أبي قبيس فلما سار الحاج عن عرفات، لم يبيتوا بالمزدلفة، وإنما اجتازوا بها، فلم يوموا الجمار، إنما بعضهم رمى بعضها، وهو سائر، ونزلوا الأبطح فخرج إليهم ناس من أهل مكة فحاربوهم وقتل من الفريقين جماعة، وصاح الناس الغزاة إلى مكة فهجموا عليها. فهرب أمير مكة مكثر، فصعد إلى القلعة التي بناها على جبل أبي قبيس، فحصروه بها. ففارقها. وسار عن مكة ووُلي أخوه داود الإمارة ونهب كثيراً من الحاج وأخذوا من أموال التجارة المقيمين بها شيئاً كثيراً، وأحرقوا دوراً كثيرة، ومن أعجب ما جرى فيها ان إنساناً زراقا ضرب داراً، بقارورة نفط، فأحرقها، وكانت لأيتام فأحرقت ما فيها. ثم أخذ قارورة أخرى ليضرب بها مكاناً آخر، فأتاه حجر، فأصاب القارورة فكسرها. فاحترق هو بها، فبقي ثلاثة أيام يعذب بالحريق، ثم مات.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في شهر رمضان، انكسفت الشمس جميعها، وأظلمت الأرض حتى بقي الوقت كأنه ليلٌ مظلم، وظهرت الكواكب، وكان ذلك ضحوة النهار، يوم الجمعة، التاسع والعشرين منه، وكنتُ حينئذ صبّياً بظاهر جزيرة ابن عمر، مع شيخ لنا من العلماء أقرأ عليه الحساب، فلما رأيت ذلك خفت خوفاً شديداً وتمسكت به فقوَّى قلبي، وكان عالماً بالنجوم أيضاً، وقال لي: الآن ترى هذا جميعه انصرف، فانصرف سريعاً.

وفيها ولّى الخليفة المستضيء بأمر الله حجبة الباب، أبا طالب نصر بن علي الناقد، وكان يلقب في صغره قنبراً، فصاروا يصيحون به ذلك إذا ركب فأمر الخليفة أن يركب معه جماعة من الأتراك، ويمنعون الناس من ذلك، فامتنعوا، فلما كان قبل العيد خلع عليه ليركب في الموكب، فاشترى جماعة من أهل بغداد من القنابر شيئاً كثيراً، وعزموا على إرسالها في الموكب، إذا رأوا ابن الناقد، فأنهي ذلك إلى الخليفة، وقيل له يصير الموكب ضحكة فعزله وولى ابن المعوج.

وفيها في ذي الحجة، يوم العيد، وقعت فتنة ببغداد بين العامة، وبين الأتراك، بسبب أخذ جمال النحر فقتل بينهم جماعة، ونهب شيء كثير من الأموال، ففرق الخليفة أموالاً جليلةً فيمن نهب ماله.

وفيها زلزلت بلاد العجم من جهة العراق إلى ما وراء الري، وهلك فيها خلق كثير وتهدمت دور كثيرة، وأكثر ذلك كان بالري وقزوين.

وفيها في ربيع الآخر، استوزر سيف الدين غازي صاحب الموصل، جلال الدين، أبا الحسن بن جمال الدين محمد بن علي، وكان جمال الدين وزير البيت الأتابكي، وقد تقدمت أخباره، وهو المشهور بالجود والإفضال، ولما ولى جلال الدين الوزارة ظهرت منه كفاية عظيمة ومعرفة تامة بقوانين الوزارة، وله مكاتبات، وعهود حسنة مدونة مشهورة، وكان جواداً فاضلاً خيِّراً وكان عمره لما ولى الوزارة خمساً وعشرين سنة.

وفيها في ذي الحجة استناب سيف الدين أيضاً عنه بقلعة الموصل مجاهد الدين قايماز وفوض إليه الأمور وكان قبل ذلك إليه الأمر بمدينة إربل، وأعمالها، وكان ـ رحمه الله ـ من صالحي الأمراء وأرباب المعروف، بنى كثيراً من الجوامع، والخانات في

الطرق، والقناطر على الأنهار، والربط، وغير ذلك من أبواب البرِّ، وكان دائم الصدقة، كثير الإحسان عادل السيرة ـ رحمه الله .

وفيها قَبَضَ الخليفةُ على سنجر المقتفوي ، أستاذ الدار، ورتب مكانه أبا الفضل، هبة الله بن علي بن هبة الله بن الصامت.

وفيها في رمضان، قدم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب الذي ملك اليمن إلى دمشق ولما سمع أن أخاه صلاح الدين ملكها حنَّ إلى الوطن، والأتراب، ففارق اليمن، وسار إلى الشام، وأرسل من الطريق إلى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله، وكتب في الكتاب شعراً من قول ابن المنجم المصري :

وإلى صلاح الدين أَشكـوا أنَّني ... من بعده مُضني الجَوانِحُ مُولعُ
جزعاً لبُعد الدَّار منه ولم أكن ... لولا هواه لبُعد دار أجزعُ
فلأركبنَّ إليه متنَ عزائمي ... ويخبُّ بي ركبُ الغرام ويُوضعُ
ولَأقطَعنَّ مِنَ النَّهارِ هواجراً ... قلب النهار بحرها يتقطَّعُ
ولَأسْرَينَّ اللَّيلَ لَا يسري به ... طيفُ الخيالِ ولا البروقُ اللمْعُ
وأُقْدمَنَّ إليه قلبي مخبراً ... أني بجسمي من قريبٍ أتبعُ
حتى أُشاهدَ منه أسعدَ طلعةٍ ... من أُفقها صبحُ السَّعادةِ يطلعُ

وفي هذه السنة في المحرم برز صلاحُ الدين من دمشق، وقد عظم شأنُه، بما ملكهُ من بلاد الشام، وبكسره عسكر الموصل فخافه الفرنج، وغيرهم، وعزم على دخول بلدهم ونهبه، والإغارة عليه، فأرسلوا إليه يطلبون الهدنة معه، فأجابهم إليها، وصالحهم، فأمرَ العساكر المصريَّة بالعودة إلى مصر والاستراحة إلى أن يُعاود طلبهم ، وشرط عليهم، أنه متى أرسل يستدعيهم لا يتأخرون فساروا إليها، وأقاموا بها، إلى أن استدعاهم للحرب مع سيف الدين على ما ذكرناه.

وفيها مات أبو الحسن علي بن عساكر البطائحي المقري، وكان قد سمع الحديث الكثير، ورواه، وكان نحوياً جيّداً.

وفي ذي الحجة منها توفي أبو سعد، محمد بن سعيد بن محمد بن الرّزاز سمع

الحديث ورواه، وله شعر جيد، فمن ذلك، أنه كتب إليه بعض أصدقائه مكاتبةً وضمنها شعراً فأجابه.

يـا من أَيـادِيـهِ تُغني من يُعـدِّدهـا — وليس يُحصِي مَداهَا مَن لها يَصِفُ
عَجِزْتُ عن شُكرَ ما أَوْلَيْتَ من كرم — وصِرتُ عبداً ولي في ذلك الشَّرفُ
أهـديت مَنـظومَ شِعْـرٍ كلُّه دُررٌ — فكـلُّ نـاظمِ عقـدٍ عنـدَه يقفُ
إذا أتيت ببيـتٍ منـه كـان لـنـا — قصراً ودرُّ المعاني فـوقَه شـرفُ
وإن أتيتُ أنـا بـيتـاً يُنـاقضُـه — أتيتُ لكن ببيـتٍ سقـفُـهُ يكـف
مـا كنتُ منه ولا مِنْ أهلِهِ أبـداً — وإنَّمـا حينَ أدنـو منـه أَقتـطِفُ

ثم دخلت سنة اثنين وسبعين وخمسمائة

ذكر نهب صلاح الدين بلد الإسماعيلية

لمَّا رحل صلاح الدين حلب، على ما ذكرناه، قبل قصد بلاد الإسماعيلية في المحرم، ليقاتلهم بما فعلوه من الوثوب عليه، وإرادةِ قتله، فنهب بلدهم، وخرَّبه وأحرقه، وحصر قلعة مصيات، وهي أعظمُ حصونهم، وأحصن قلاعهم، فنصب عليها المنجنيقات، وضيّق على من بها، ولم يزل كذلك، فأرسل سنان، مقدم الإسماعيلية إلى شهاب الدين الحارمي، صاحب حماة، وهو خال صلاح الدين، يسأله أن يدخل بينهم، ويصلح الحال، ويشفع فيهم، ويقول له: إنْ لم تفعل قتلناك، وجميعَ أهل صلاح الدين، فشفع فيهم، وسأل الصفح عنهم، فأجابه إلى ذلك، وصالحهم، ورحل عنهم، وكان عسكرُه قد ملّوا من طول البيكار وقد امتلأت أيديهم من غنائم عسكر الموصل، ونهب بلد الإسماعيليّة، فطلبوا العود إلى بلادهم للاستراحة، فأذن لهم، وسار هو إلى مصرَ مع عسكرها، لأنه كان قد طال عهده عنها، ولم يمكنه المضي إليها، فيما تقدّم خوفاً على بلاد الشام، فلما انهزم سيف الدين، وحصر هو حلب وملك بلادها، واصطلحوا، أمن على البلاد، فسار إلى مصر، وأمر ببناء سور على مصر، والقاهرة، التي على جبل المقطم دوره تسعة وعشرين ألف ذراع وثلثمائة ذراع بالذراع الهاشمي، ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين.

ذكر ظفر للمسلمين بالفرنج وللفرنج بالمسلمين

كان شمس الدين، محمد بن عبد الملك بن المقدّم صاحب بعلبكّ فأتاه خبر أنَّ جمعاً من الفرنج قد قصدوا البقاع، من أعمال بعلبكّ، وأغاروا عليها، فسار إليهم وكمن لهم في الشعراء، والغياض، وأوقع بهم، وقتل فيهم، وأكثر، وأسر نحو مائتي

رجل منهم وسيَّرهم إلى صلاح الدين وكان شمس الدولة تورانشاه، أخو صلاح الدين وهو الذي ملك اليمن، وقد وصل إلى دمشق، كما ذكرناه، وهو فيها فسمع أن طائفة من الفرنج قد خرجوا من بلادهم إلى أعمال دمشق، فسار إليهم، ولقيهم عند عين الجر في تلك المروج، فلم يثبت لهم، وانهزم عنهم، فظفروا بجمع من أصحابه فأسروهم، منهم سيف الدين وأبو بكر بن السلار، وهو من أعيان الجند الدمشقيين، واجترأ الفرنج بعدها، وانبسطوا في تلك الولاية، وجبروا الكسر الذي ناله منهم ابن المقدّم.

ذكر عصيان صاحب شهرزور على سيف الدين وعوده الى طاعته

في هذه السنة عصي شهاب الدين محمد بن يزان، صاحب شهرزور، على سيف الدين غازي، وكان في طاعته، وتحت حكمه، وكان سببُ ذلك، أنَّ مجاهد الدين قايماز، كان متولياً مدينة إربل، وكان بينه وبين ابن يزّان عداوة، محكمة، فلمّا استناب سيف الدين مجاهد الدين بالموصل، خاف ابن يزّان أن يناله منه أذى، فأظهر الامتناع من النزول إلى الخدمة، فأرسل إليه جلال الدين وزير سيف الدين كتاباً يأمره بمعاودة الطاعة، ويحذِّره عاقبة المخالفة وهو من أحسنِ الكتب، وأبلغها في هذا المعنى، ولولا خوف التطويل لذكرته، فيطلب من مكاتباته، فلما وصل إليه الكتاب، والرسول بادر الى حضور الخدمة بالموصل، وزال الخُلف.

ذكر فرج بعد شدة يتعلق بالتاريخ

بالقرب من جزيرة ابن عمر، حصنٌ منيعٌ من أمنع المعاقل، اسمه فنك، وهو على رأس جبل عال، وهو للأكراد البشنوية، له بأيديهم نحو ثلثمائة سنة، وكان صاحبه هذه السنة أميراً منهم، اسمه ابراهيم وله اخ اسمه عيسى قد أُخرج منه ، وهو لا يزال يسعى في أخذه من أخيه ابراهيم، فأطاعه بعض بطانة إبراهيم، وفتح باب السر ليلاً، وأصعدَ منه إلى رأس القلعة نيفاً وعشرين رجلا، فقبضوا على إبراهيم، ومن عنده، ولم يكن عنده إلا نفر من خواصه، وهذه قلّةٌ على صخرة كبيرة مرتفعة عن سائر القلعة، ارتفاعاً كثيراً، وبها يسكن الأمير، وأهله، وخواصه، وباقي الجند في القلعة، تحت القلة،فلما قبضوا إبراهيم جعلوه في خزانة، وضربه بعضهم بسيف في يده على عاتقه، فلم يصنع شيئاً، فلمَّا جعل في الخزانة وكَّل به رجلين، وصعد الباقون إلى سطح القلعة، ولا

يشكّون أنَ القلعة لهم، لا مانع عنها، ووصل من الغد بكرة الأميرُ عيسى ليتسلم القلعة، وبينهما دجلة، وكانت امرأة الأمير إبراهيم في خزانة أخرى، وفيها شبّاك حديد ثقيل يشرف إلى القلعة، فجذبته بيدها، فانقلع، وجند زوجها في القلعة لا يقدرون على شيء، فلما قلعت الشبّاك، أرادت أن تدلي حبلاً ترفع به الرجال إليها، فلم يكن عندها غير ثياب خام، فوصلت بعضها ببعض، ودلّتها إلى القلعة، وشدّت طرفيها عندها في عود فأصعدت إليها عشرة رجال، ولم يكن يراهم الذين على السطح، ورأى الأمير عيسى، وهو على جانب دجلة الرجال يصعدون، فصاح هو، ومن معه إلى أولئك الذين على السطح ليحذروا، وكان كلّما صاحوا صاح أهلُ القلعة لتختلف الأصوات، فلا يفهم الذين على السطح فينزلون، ويُمنعون من ذلك، فلمّا اجتمع عندها عشرة رجال، أرسلت مع خادم عندها إلى زوجها قدح شراب، وأمرته أن يقرب منه كأنّه يسقيه الشراب، ويعرفه الحال، ففعل ذلك، وجلس بين يديه ليسقيه، وعرّفه الحال، فقال: ازدادوا من الرجال فأصعدت عشرين رجلاً وخرجوا من عندها فمدَّ إبراهيم يده إلى الرجلين الموكلين به، فأخذ شعورهما، وأمر الخادم بقتلهما، وكان عنده فقتلهما بسلاحهما، فخرج، واجتمع بأصحابه، وأرادوا فتح القلعة، ليصعد إليه أصحابه من القلّة، فلم يجدِ المفاتيح، وكانت مع أولئك الرجال الذين على السطح فاضطّروا إلى الصعود إلى سطح القلعة ليأخذوا أصحاب عيسى، فعملوا الحال فجاؤوا ووقفوا على رأس الممرق، فلم يقدر أحد يفعل، فأخذ بعض أصحاب إبراهيم ترساً، وجعله على رأسه، وحصل في الدرجة، وصعد وقاتل القوم على رأس الممرق، حتى صعد أصحابه، فقتلوا الجماعة، وبقي منهم رجل القى نفسه من السطح، فنزل الى اسفل الجبل فتقطع.

فلما رأى عيسى ما حلَّ بأصحابه عاد خائباً مما أمله، واستقر الأمير ابراهيم في قلعته على حاله.

ذكر نهب البندنيجين

في هذه السنة، وصل الملك الذي بخوزستان عند شملة، وهو ابن ملكشاه، بن محمود الى البندنيجين، فخرَّبها ونهبها، وفتك في الناس، وسبى حريمهم، وفعل كل

قبيح، ووصل الخبر إلى بغداد فخرج الوزير، عضد الدين، وعرض العسكر، ووصل العسكر الحلَّة، وواسط، مع طاشتكين، أمير الحاجِّ وغرغلي، وساروا نحو العدو، فلما سمع بوصولهم، فارق مكانه، وعاد، وكان معه من التركمان جمع كثير، فنهبهم عسكر بغداد، ورجعوا من غير أمر بالعود، فأنكر عليهم ذلك، وأمروا بالعود إلى مواقفهم، فعادوا لأوائل شهر رمضان، وقد رجع الملك، فنهب من البندنيجين ما كان سلم في الأول، ووقعت بينهم وبين الملك وقعة ثمَّ افترقوا فمضى الملك، وفارق ولاية العراق.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في جمادى الأولى، أقيمت الصلاة في الجامع الذي بناه فخر الدولة، ابن المطلب، بقصر المأمون، غربي بغداد، وفيها أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التي على قبر الشافعي ـ رضي الله عنه ـ بمصر، وعمَّل بالقاهرة بيمارستان، ووقف عليهما الوقوف العظيمة الكبيرة.

وفيها رأيت بالموصل خروفين ببطن واحد، ورأسين، وركبتين، وظفرين، وثماني قوائم، كأنهما خروفان ببطن واحد، وجه أحدهما الى وجه الآخر، وهذا من العجائب.

وفيها انقضّ كوكبٌ أضاءت له الأرض إضاءة كثيرة، وسُمع له صوت عظيم، وبقي أثره في السماء مقدار ساعة وذهب.

وفيها تُوفّي تاج الدين، أبو علي، الحسن بن عبد الله، المظفر بن رئيس الرؤساء، أخو الوزير عضد الدين وزير الخليفة.

وفيها في المحرَّم توفّي القاضي كمال الدين، أبو الفضل، محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري، قاضي دمشق، وجميع الشام، وإليه الوقوف بها، والديوان وكان جواداً فاضلاً، رئيساً ذا عقل، ومعرفة، في تدبير الدول ـ رحمه الله ورضي عنه ـ.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

ذكرُ انهزامِ صلاح الدين بالرملة

في هذه السنة، في جمادى الأولى، سار صلاح الدين، يوسف بن أيوب من مصر، إلى ساحل الشام لقصد غزاة بلاد الفرنج، وجمع معه عساكره، وجنوده فلم يزالوا يجدون السير حتى وصلوا إلى عسقلان في الرابع والعشرين منه، فنهبوا، وأسروا، وقتلوا، وأحرقوا، وتفرَّقوا، في تلك الأعمال مغيرين، فلمّا رأوا أنَّ الفرنج لم يظهر لهم عسكر، ولا اجتمع لهم من يحمي البلاد من المسلمين، طمعوا وانبسطوا، وساحوا في الأرض آمنين.

وصل صلاح الدين إلى الرملة، عازماً على أن يقصد بعض حصونهم ليحصره فوصل إلى نهر، فازدحم الناس للعبور، فلم يرعهم إلا والفرنج قد أشرفت عليهم، بأطلابها، وأبطالها وكان مع صلاح الدين بعض العسكر، لأنّ أكثرهم تفرّقوا في طلب الغنيمة، فلمّا رآهم، وقف لهم فيمن معه، وتقدَّم بين يديه محمد ابن أخي صلاح الدين، فباشر القتال بنفسه بين يدي عمه، فقُتل من أصحابه جماعة، وكذلك من الفرنج، وكان لتقي الدين، ولد اسمه أحمد، وهو من أحسن الشباب، أوّل ما تكاملت لحيته، فأمره أبوه بالحملة عليهم، فحمل عليهم، وقاتلهم، وعاد سالماً قد أثَّر فيهم أثراً كثيراً، فأمره بالعودة إليهم ثانية، فحمل عليهم، فقتل شهيداً، ومضى حميداً، ـ رحمه الله ورضي عنه ـ وكان أشدَّ الناس قتالاً ذلك اليوم، الفقيه عيسى ـ رحمه الله ـ وتمّت الهزيمة على المسلمين، وحمل بعض الفرنج على صلاح الدين، فقاربه حتى كاد يصل إليه، فقتل الفرنجي بين يديه، وتكاثر الفرنج عليه، فمضى منهزماً، يسير قليلا، ويقف ليلحقه العسكر إلى أن دخل الليل، فسلك البريّة إلى أن مضى في نفر يسير إلى مصر،

ولقوا في طريقهم مشقَّة شديدة، وقلّ عليهم القـوت والماء، وهلك كثيـر من دواب العسكر جوعاً، وعطشاً، وسرعة سير.

وأما العسكر الذي كانوا دخلوا بلاد الفرنج في الغارة، فإن أكثرهم ذهب ما بين قتيل وأسير، وكان من جملة من أسر، الفقيه عيسى الهكاري، وهو من أعيان الأسدية، وكان جمع العلم، والدين، والشجاعة، وأسر ايضا أخوه الظهير، وكانا قد سارا منهزمين، فضلا الطريق فأُخذا، ومعهما جماعة من أصحابهما، وبقوا سنين في الأسر، فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى ـ بستين الف دينار ـ وجماعة كثيرة من الأسرى، ووصـل صلاح الدين إلى القاهرة نصف جمادى الآخرة، ورأيت كتاباً كتبه صلاح الدين بخط يده إلى أخيه شمس الدولة، تورانشاه، وهو بدمشق يذكر الوقعة وفي أوله:

ذكـرتُـك والخـطيّ يخـطرُ بيننـا وقـد نَهِلتْ منـا المثقفـة السمـر

ويقول فيه: لقد اشرفنا على الهلاك غير مرة، وما أنجانا الله سبحانه منه إلا لأمر يريد، سبحانه:

وما ثَبتتْ إلا وفي نفسِها أَمْرُ

ذكر حصر الفرنج مدينة حماة

في هذه السنة في جمادى الأولى حصر الفرنج أيضا مدينة حماة، وسبب ذلك، أنّه وصل من البحر إلى الساحل الشاميّ، كندٌ كبير من الفرنج، من أكبر طواغيتهم، فرأى صلاح الدين بمصر، وقد عاد منهزماً، فاغتنم خلوَّ البلاد، لأنّ شمس الدولة بن أيّوب كان بدمشق ينوب عن صلاح الدين، وليس عنده كثير من العسكر، وكان أيضاً كثير الانهماك في اللذات، مائلا الى الراحات، فجمع ذلك الكند الفرنجي من بالشام من الفرنج، وفرق فيهم الأموال، وسار الى مدينة حماة، فحصرها، وبها صاحبها شهاب الدين محمود الحارمي، خال صلاح الدين، وهو مريض، شديد المرض، وكان طائفة من العسكر الصلاحي بالقرب منها فدخلوا إليهاوأغاثوا من بها، وقاتل الفرنج على البلد قتالاً شديداً، وهجموا بعض الأيام على طرف منه، وكادوا يملكون البلد قهراً وقسراً؛ فاجتمع أهل البلد مع العسكر إلى تلك الناحية واشتدَّ القتال، وعظم الخطبَ، على الفريقين، واستقتل المسلمون، وحاموا عن الأنفس، والأهل والمال، فأخرجوا الفرنج

من البلد إلى ظاهرة، ودام القتال ظاهر البلد ليلاً، ونهاراً، وقويت نفوس المسلمين حين أخرجوهم من البلد، وطمعوا فيهم، وأكثروا فيهم القتل، فرحل الفرنج حينئذ خائبين، وكفى الله المسلمين شرَّهمْ فساروا إلى حارم فحصروها وكان مقامهم على حماة أربعة أيّام ولمّا رحل الفرنج عن حماة مات صاحبها شهاب الدين الحارمي، وكان له ابن من أحسن النّاس شباباً مات قبله بثلاثة أيام.

ذكر قتل كمشتكين وحصر الفرنج حارم

في هذه السنة قبض الملك الصّالح بن نور الدين، على سعد الدين كمشتكين وكان المتولّي لأمر دولته، والحاكم فيها، وسبب قبضه أنه كان بحلب إنسانٌ من أعيان أهلها، يقال له أبو صالح بن العجمي، وكان مقدَّماً عند نور الدين محمود، فلمّا مات نور الدين، تقدّم أيضاً في دولة ولده الملك الصالح، وصار بمنزلة الوزير الكبير المتمكِّن، لكثرة أتباعه بحلب، وصار كل من كان يحسد كمشتكين انضمّ إلى صالح، وقووا جنانه، وكثروا سواده، وكان عنده إقدام وجراءة، فصار واحد الدولة بحلب، ومن يصدر الجماعة عن رأيه، وأمره، فبينما هو في بعض الأيام في الجامع وثب به الباطنيّة فقتلوه، ومضى شهيداً، وتمكن بعده سعد الدين، وقوى حاله فلما قتل أحال الجماعة قتله على سعد الدين وقالوا هو وضع الباطنية عليه حتى قتلوه وذكروا ذلك للملك الصالح، ونسبوه إلى العجز، وأنه ليس له حكم، وأن سعد الدين قد تحكّم عليه، واحتقره، واستصغره، وقتل وزيره، ولم يزالوا به حتى قبض عليه، وكانت قلعة حارم لسعد الدين قد أقطعه اياها الملك الصالح، فامتنع من بها بعد قبضه وتحصنوا فيها، فسير سعد الدين إليها تحت الاستظهار ليأمر اصحابه بتسليمها إلى الملك الصالح فأمرهم بذلك فامتنعوا فعذب كمشتكين وأصحابه يرونه، ولا يرحمونه، فمات في العذاب، وأصرَّ أصحابه على الامتناع، والعصيان. فلمّا رأى الفرنج ذلك ساروا إلى حارم من حماة في جمادى الأولى ـ على ما نذكره ـ ظناً منهم أنّهم لا ناصر لهم، وان الملك الصالح صبيّ، قليل العسكر، وصلاح الدين بمصرَ، فاغتنموا هذه الفرصة، ونازلوها، وأطالوا المقام عليها مدّة أربعة أشهر، ونصبوا عليها المنجنيقات، والسلالم، فلم يزالوا كذلك إلى أن بذل لهم الملك الصالح مالاً، وقال لهم إنّ صلاح الدين واصل إلى الشام وربما يسلم القلعة من بها إليه، فأجابوه حينئذ إلى الرحيل عنها، فلما رحلوا عنها سيّر إليها الملك

الصالح جيشاً ،فحصروها وقد بلغ الجهد منهم بحصار الفرنج، وصاروا كأنَّهم طلائع، وكان قد قتل من أهلها وجرح كثير، فسلموا القلعة إلى الملك الصالح، فاستتاب بها مملوكاً كان لأبيه اسمه سرخك.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في المحرَّم، خطب للسلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد ابن ملكشاه، المقيم عند أيلدكز، بهمذان، وكان أبوه أرسلان قد توفي.

وفيها سابع شوال، هبَّت ببغداد ريح عظيمة، فزُلزلت الأرض، واشتدّ الأمر على الناس، حتى ظنوا أنَّ القيامة قد قامت، فبقي ذلك ساعة ثمَّ انجلت وقد وقع كثير من الدور ومات فيها جماعة كثيرة.

وفيها رابع ذي القعدة، قتل عضد الدين، أبو الفرج، محمَّد بن عبد الله بن هبة الله ابن المظفر ابن رئيس الرؤساء، أبي القاسم بن المسلمة، وزير الخليفة، وكان قد عزم على الحج، فَعَبَرَ دجلة ليسير، وعبر معه أرباب المناصب، وهو في موكب عظيم، وتقدّم إلى أصحابه أن لا يمنعوا عنه أحداً، فلمّا وصل إلى باب قطيبا لقيه كهل فقال: أنا مظلوم وتقدّم ليسمع الوزير كلامه، فضربه بسكين في خاصرته، فصاح الوزير قتلني، ووقع من الدابة،وسقطت عمامته، فغطّى رأسه بكمّه، وضرب الباطنيّ بسيف، وعاد إلى الوزير فضربه، وأقبل حاجب الباب، ابن المعوج لينصر الوزير، فضربه الباطني بسكين، وقيل بل ضربه رفيق كان للباطني، ثم قتل الباطني ورفيقه، وكان لهما رفيق ثالث ، فصاح وبيده سكّين فقتل، ولم يعمل شيئاً، وأحرقوا ثلاثتهم وحمل الوزير إلى دار له هناك، وحمل حاجب الباب مجروحا إلى بيته، فمات هووالوزير، وحمل الوزير، فدفن عند أبيه بمقبرة الرباط عند جامع المنصور، وكان الوزير قد رأى في المنام، أنه معانق عثمان بن عفان وحكى عنه والده أنه اغتسل قبل خروجه، وقال: هذا غسل الإسلام وأنا مقتول بلا شك، وكان مولده في جمادى الأولى، سنة أربع عشرة وخمسمائة، وكان أبوه استاذ دار المقتفي لأمر الله، فلما ماتَ، ولّي هو مكانه كذلك إلى أن مات المقتفي ، فأقره المستنجد على ذلك، ورفع قدره، فلمّا ولّي المستضيء استوزره، وكان حافظاً للقرآن سمع الحديث، وله معروف، كثير، وكانت داره مجمعاً

للعلماء، وختمت أعماله بالشهادة، وهو على قصد الحج.

وفيها كانت فتنة ببغداد، وسببها أنه حضر قوم من مسلمي المدائن إلى بغداد، فشكوا من يهودها، وقالوا لنا: مسجد نؤذن فيه ونصلّي وهو مجاور الكنيسة، فقال لنا اليهود: قد آذيتمونا بكثرة الأذان، فقال المؤذّن ما نبالي بذلك، فاختصموا، وكانت فتنة استظهر فيها اليهود، فجاء المسلمون يشكون منهم، فأمر ابن العطّار، وهو صاحب المخزن، بحبسهم، ثمّ أخرجوا فقصدوا جامع القصر، واستغاثوا قبل صلاة الجمعة، فخفّف الخطيب الخطبة، والصلاة، فعادوا يستغيثون فأتاهم جماعة من الجند، ومنعوهم، فلما رأى العامّة ما فعل بهم غضبوا نصرة للإسلام، فاستغاثوا، وقالوا أشياء قبيحة، وقلعوا طوابيق الجامع ورجموا الجندَ فهربوا ثمَّ قصد العامّة دكاكين المخلطين لأن أكثرهم يهود، فنهبوها واراد حاجب الباب منعهم، فرجموه فهرب منهم، وانقلب البلد، وخربوا الكنيسة التي عند دار البساسيري، وأحرقوا التوراة، وأمر الخليفة أن تنقض الكنيسة التي بالمدائن وتجعل مسجداً، وتصب بالرحبة أخشاب ليصلب عليها قوم من المفسدين، فظنها العامّة نصبت تخويفاً لهم، لأجل ما فعلوا، فعلقوا عليها في الليل جرذاناً ميتة، وأخرج جماعة من الحبس لصوص فصلبوا عليها.

وفيها في شعبان، قبض سيف الدين، غازي، صاحب الموصل، على وزيره، جلال الدين، علي بن جمال الدين، لغير جرم، ولا عجز، ولا لتقصير، بل لعجز سيف الدين، فإنَّ جلال الدين كان بينه وبين مجاهد الدين قايماز مشاحنة، فقال مجاهد الدين لسيف الدين: لا بد من قبض الوزير، فقبض عليه كارهاً لذلك، ثم شفع فيه ابن رئيس آمد لصهورة بينهما، فأخرج وسار إلى آمد فمرض بها، وعاد إلى دنيسر، فمات سنة خمس وسبعين، وعمره سبع وعشرين سنة، وحمل إلى مدينة النبيّ ﷺ، فدفن عند والده في الرباط الذي بناه بها، وكان رحمه الله، من محاسن الدنيا جمع كرماً، وعلماً، وديناً، وعفةً، وحسنَ سيرة، واستحلفه سيف الدين، أنه لا يمضي إلى صلاح الدين، لأنه خاف أن يمضي إليه للمودة التي كانت بين جمال الدين، وبين نجم الدين أيوب، وأسد الدين شيركوه، فبلغني أنَّ صلاح الدين طلبه فلم يقصده لليمين.

وفيها اجتمع الفرنج، طائفة منهم، وقصدوا اعمال حمص، فنهبوها، وغنموا وأسروا وسبوا، فسار ناصر الدين، محمد بن شيركوه، صاحب حمص، وسبقهم، ووقف على

طريقهم، وكمن لهم، فلمّا وصلوا إليه، خرج إليه هو والكمين، ووضعوا السيف فيهم فقتل أكثرهم، وأسر جماعة من مقدميـهم، ومن سلم منهم، لم يفلت إلا وهو مثخن بالجراح، واستردَّ منهم جميع ما غنموا، فرده على أصحابه.

وفيها في ربيع الآخر، توفي صدقة بن الحسين الحداد الذي ذيل تاريخ الزاغوني ببغداد.

وفيها في جمادى الأولى، توفّي محمد بن احمد بن عبد الجبار، الفقيه، الحنفي، المعروف بالمشطب ببغداد.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة

ذكر قصد الفرنج مدينة حماة أيضاً

في هذه السنة في ربيع الأول سار، جمع كثير من الفرنج بالشام إلى مدينة حماة، وكثر جمعهم من الفرسان، والرجالة طمعاً في النهب، والغارة، فشنّوا الغارة، ونهبوا، وخربوا القرى، وأحرقوا، وأسروا، وقتلوا، فلما سمع العسكر المقيم بحماة، ساروا إليهم، وهم قليل، متوكلين على الله تعالى، فالتقوا، واقتتلوا، وصدق المسلمون القتال، فنصرهم الله تعالى، وانهزم الفرنج، وكثر القتل، والأسر فيهم، واستردّوا ما غنموه من السواد، وكان صلاح الدين قد عاد من مصر إلى الشام، في شوال من السنة المتقدّمة، وهو نازل بظاهر حمص، فحملت الرؤوس والأسرى والأسلاب إليه، فأمر بقتل الأسرى، فقتلوا.

ذكر عصيان ابن المقدم على صلاح الدين وحصر بعلبك وأخذ البلد منه

في هذه السنة عصى شمس الدين، محمد بن عبد الملك المقدم على صلاح الدين ببعلبكّ، وكانت له قد سلمها إليه صلاح الدين لما فتحها جزاء له، حيث سلم إليه ابن المقدم دمشق، ـ على ما سبق ذكره ـ فلم تزل بيده إلى الآن، فطلب شمس الدولة، محمد بن أيوب، أخو صلاح الدين منه بعلبك وألح عليه في طلبها لأنّ تربيته ومنشأه كان بها، وكان يحبّها ويختارها على غيرها من البلاد، وكان الأكبر فلم يمكن صلاح الدين مخالفته، فأمر شمس الدين بتسليمها إلى أخيه ليعوضه عنها، فلم يجب إلى ذلك وذكرّه العهود التي له وما اعتمده معه من تسليم البلاد إليه، فلم يصغ إليه وألحَّ في أخذها، وسار ابن المقدَّم إليها واعتصم بها، فوجَّه إليه صلاح الدين عسكراً وحصره بها مدَّة ثم رحل عنها من غير أن يأخذها، وترك عليه عسكراً يحصره، فلما طال عليه

الحصار أرسل إلى صلاح الدين يطلبُ العوض عنها ليسلِّمها إليه، فعوضَّه عنها وسلّمها فأقطعها صلاحُ الدين أخاه شمسَ الدولة.

ذكر الغلاء والوباء العام

في هذه السنة انقطعت الأمطار بالكليَّة في سائر البلاد الشامية، والجزيرة، والعراقية والديار البكرية والموصل، وبلاد الجبل، وخلاط، وغير ذلك، واشتد الغلاء، وكان عامّاً في سائر البلاد، ، فبيعت الغرارة الحنطة بدمشق، وهي أربعة عشر مكوكا بالموصلي بعشرين ديناراً صوريَّة عتق، وكان الشعير بالموصل كل ثلاث مكاكي بدينار أميري، وفي سائر البلاد ما يناسب ذلك، واستسقى الناس في أقطار الأرض فلم يسقوا، وتعذّرت الأقوات، وأكلت الناس الميتة، وما ناسبها، ودام كذلك إلى آخر سنة خمس وسبعين، ثمَّ تبعه بعد ذلك وباءٌ، شديد عامٌّ أيضاً كثر فيه الموت، وكان مرض النَّاس شيئاً واحداً وهو السرسام، وكان الناس لا يلحقون يدفنون الموتى. إلا أنّ بعض البلاد كان أشدَّ من البعض، ثمّ إن الله تعالى رحم العباد والبلاد والدواب، وأرسل الأمطار، وأرخص الأسعار.

ومن عجيب ما رأيت أنَّني قصدت رجلًا ـ من العلماء الصالحين ـ الجزيرة لأسمع عليه شيئاً من حديث النبي ﷺ في شهر رمضان، سنة خمس وسبعين، والناس في أشدِّ ما كانوا غلاء وقنوطاً من الأمطار، وقد توسَّط الربيع ولم تجيء قطرةٌ واحدةٌ من المطر، فبينما أنا جالس ومعي جماعة تنتظر الشيخ، وإذ قد أقبل إنسان تركماني قد أثر عليه الجوع، وكأنَّه قد أخرج من قبر، فبكى وشكى الجوع، فأرسلت من يشتري له خبزاً، فتغيَّمت السماءُ وجاءت نقط من المطر متفرِّقة، فضجَّ الناس واستغاثوا ثم جاء الخبز، فأكل التركماني بعضه، وأخذ الباقي، ومشى، واشتد المطر، ودام المطر من تلك الليلة.

ذكر غارات الفرنج على بلاد المسلمين

في هذه السنة في ذي القعدة اجتمع الفرنج، وساروا إلى بلد دمشق مع ملكهم، فأغاروا على أعمالها، فنهبوها، وأسروا، وقتلوا، وسبوا، فأرسل صلاح الدين

فرخشاه ـ ولد أخيه ـ في جمع من العسكر إليهم، وأمر أنّه إذا قاربهم يرسل إليه يخبره على جناح طائر ليسير إليه، وتقدَّم إليه أن يأمر أهل البلاد بالانتزاح من بين يدي الفرنج، فسار فرخشاه في عسكره يطلبهم، فلم يشعر إلا والفرنج قد خالطوه، فاضطر إلى القتال، فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس وألقى فرخشاه نفسه عليهم وغشى الحرب ولم يكلها إلى سواه. فانهزم الفرنج، ونُصر المسلمون عليهم، وقتل من مقدِّميهم جماعة، ومنهم هنفري، وما أدراك ما هنفري، كان يُضرب به المثل في الشجاعة والرأي في الحرب، وكان بلاء صبه الله على المسلمين، فأراح الله من شره، وقتل غيره من أضرابه، ولم يبلغ عسكر فرخشاه ألف فارس.

وفيها ايضا أغار البرنس صاحب انطاكية واللاذقية على حشير المسلمين بشيزر وأخذه، وأغار صاحب طرابلس على جمع كثير من التركمان، فأجحف بأموالهم، وكان صلاحُ الدين على بانياس ـ على ما نذكره ـ إن شاء الله فسيّر ولد أخيه تقيِّ الدين عمر إلى حماة، وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه إلى حمص وأمرهما بحفظ البلاد وحياطة أطرافها من العدو، دمرهم الله تعالى.

ذكر عدة حوادث

ليلة النصف من ربيع الآخر انكسف القمر، نحو ثلث الليل الأخير، وغاب منكسفاً.

وفيها ايضا في التاسع والعشرين انكسفت الشمس وقت العصر فغربت منكسفة.

وفي هذه السنة في شعبان توفي الحيص بيص الشاعر، واسمه سعد بن محمد بن سعد أبو الفوارس، وكان قد سمع الحديث ومدح الخلفاء، والسلاطين، والأكابر، وشعره مشهور فمنه قوله:

كلما أوسعتُ حلمي جاهلاً ... أوسعَ الفحشَ له فحشُ المقالِ
وإذا شاردةٌ فُهتُ بها ... سَبَقَتْ مرَّ النُّعامى والشمالِ
لا تلمْني في شَقَائي بالعُلا ... رَغدُ العيشِ لربَّاتِ الحجالِ
سيفُ عِزٍّ زَانَهُ رونَقُهُ ... فهو بالطَّبْعِ غَنيٌّ عن صقالِ

وفي المحرم ماتت شهدة بنت أحمد بن عمر بن الإبري، وسمعت الحديث من السرّاج وطرّاد، وغيرهما وعمّرت هي قاربت مائة سنة، وسمع عليها خلق كثير الحديث لعلّو إسنادها.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة

ذكر تخريب الحصن الذي بناه الفرنج عند مخاضة الأحزان

كان الفرنج قد بنوا حصناً منيعاً يقارب بانياس عند بيت يعقوب ـ عليه السلام ـ بمكان يعرف بمخاضة الأحزان، فلمّا سمع صلاح الدين بذلك سار من دمشق إلى بانياس، وأقام بها، وبث الغارات على بلاد الفرنج، ثم سار إلى الحصن، وحصره ليخبره ثم يعود إليه عند اجتماع العساكر، فلمّا نازلَ الحصن قاتل من به من الفرنج، ثم عاد عنه، فلما دخلت سنة خمس وسبعين لم يفارق بانياس، بل أقام بها وخيلُه تُغِيرُ على بلاد العدو، وأرسل جماعة من عسكره، مع جالي الميرة، فلم تشعر إلاّ والفرنج مع ملكهم قد خرجوا عليهم، فأرسلوا إلى صلاح الدين يعرِّفونه الخبر، فسار في العساكر مجداً حتى وافاهم وهم في القتال، فقاتل الفرنج قتالاً شديداً، وحملوا على المسلمين عدة حملات كادوا يزيلونهم عن مواقفهم، ثمَّ أنزل الله نصره على المسلمين، وهزم المشركين، وقتلت منهم مقتلة كثيرة، ونجا ملكهم فريداً، وأسر منهم كثير، منهم ابن بيرزان صاحب الرملة، ونابلس، وهو أعظم الفرنج محلاً بعد الملك، وأسروا أيضا أخاه صاحب جبيل، وصاحب طبرية، ومقدم الداوية، ومقدم الاسبتارية، وصاحب جينين وغيرهم من مشاهير فرسانهم، وطواغيتهم.

فأما ابن بيرزان فإنَّه فدى نفسه بمائة ألف وخمسين ألف دينار صورية، وإطلاق ألف أسير من المسلمين، وكان أكثر العمل في هذا اليوم لعز الدين فرخشاه ابن أخي صلاح الدين، وحكى عنه، قال: ذكرت في تلك الحال بيتي المتنبي وهما:

فإن تكنِ الدولاتُ قسماً فإنها ... لمن يَرِدُ الموتَ الزؤامَ تؤولُ

ومن هوَّن الدنيا على النفسِ ساعةً ... وللبيض في هامِ الكماةِ صليلُ

فهان الموت في عيني فألقيت نفسي إليه، وكان ذلك سبب الظفر، ثمَّ عاد صلاح الدين الى بانياس من موضع المعركة، وتجهَّز للدخول الى ذلك الحصن، ومحاصرته، فسار اليه في ربيع الأول وأحاط به، وقوى طمعه بالهزيمة المذكورة في فتحه، وبثَّ العساكر في بلد الفرنج للإغارة، ففعلوا ذلك، وجمعوا من الأخشاب والزرحون شيئاً كثيراً ليجعله متارس للمنجنيقات، فقال له جاولي الأسدي ـ وهو مقدم الأسدية ومن أكابر الأمر ـ الرأي أننا نجرّبهم بالزحف أوَّل مرَّة، ونذوق قتال من به، وننظر الحال معهم، فإن استضعفناهم وإلا فنصب المنجنيقات ما يفوت، فقبل رأيه، وأمر فنودي بالزحف إليه والجدّ في قتاله، فزحفوا واشتدّ القتال، وعظم الأمر، فصعد إنسان من العامة بقميص خلق في باشورة الحصن وقاتل على السور لما علاه، وتبعه غيره من أضرابه، ولحق بهم الجند فملكوا الباشورة، فصعد الفرنج حينئذ منها إلى أسوار الحصن ليحموا نفوسهم، وحصنهم إلى أن يأتيهم المدد، وكان الفرنج قد جمعوا بطبريّة، فألح المسلمون في قتال الحصن خوفاً من وصول الفرنج إليهم، وإزاحتهم عنه وأدركهم الليل، فأمر صلاح الدين بالمبيت بالباشورة إلى الغد، ففعلوا، فلما كان الغدّ أصبحوا نقبوا الحصن وعمَّقوا النقب، وأشعلوا النيران فيه، وانتظروا سقوط السور فلم يسقط لعرضه، فإنه كان تسعة أذرع بالنجاري يكون الذراع ذراعا ونصفاً، فانتظروه يومين فلم يسقط فأمر صلاح الدين بإطفاء النار التي في النقب، فحمل الماء وألقى عليها فطفئت، وعاد النقابون فنقبوا، وخرقوا السور، وألقوا فيه النار، فسقط يوم الخميس لست بقين من ربيع الأول، ودخل المسلمون الحصن عنوة، وأسروا كل من فيه، وأطلقوا من كان به من أسارى المسلمين، وقتل صلاح الدين كثيرا من أسرى الفرنج، وأدخل الباقين إلى دمشق فسجنوا، وأقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن وعفى أثره، وألحقه بالأرض، وكان قد بذل للفرنج ستين ألف دينار مصرية ليهدموه بغير قتل فلم يفعلوا، ظنًّا منهم أنه إذا بقي بناؤه تمكنوا به من كثير من بلاد الإسلام، وأما الفرنج فاجتمعوا بطبرية ليحموا الحصن، فلمّا أتاهم الخبر بأخذه فت في أعضادهم، فتفرّقوا إلى بلادهم، وأكثر الشعراء فيه، فمن ذلك قول صديقنا النشو بن نفاذة رحمه الله:

هلاكُ الفرنج أتى عاجلاً ... وقد آن تكسيرُ صُلبانِها
ولَوْ لَمْ يكنْ قدْ دنا حتفُهَا ... لما عمرت بيتَ أحزانِها

وقول علي بن محمد الساعاتي الدمشقي:

أتسكن أوطانَ النَّبيينَ عصبةٌ تمينُ لدى أيمانِها وهي تحلفُ
نصحتكم والنصح للدين واجب ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

ذكر الحرب بين عسكر صلاح الدين وعسكر قلج أرسلان

في هذه السنة كان الحرب بين عسكر صلاح الدين، يوسف بن أيوب، ومقدمهم ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وبين عسكر الملك قلج ارسلان بن مسعود بن قلج أرسلان، صاحب بلاد قونية، واقصرا، وسببها أنَّ نورَ الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر رحمه الله كان قد أخذ قديماً من قلج ارسلان حصن رعبان، وكان بيد شمس الدين بن المقدم إلى الآن، فطمع فيه قلج أرسلان بسبب أنّ الملك الصالح بحلب بينه وبين صلاح الدين، فأرسل إليه من يحضره، فاجتمع عليه جمع كثير يقال كانوا عشرين ألف، فأرسل اليهم صلاح الدين تقي الدين في ألف فارس، فواقعهم، وقاتلهم، وهزمهم، وأصلح حال تلك الولاية وعاد إلى صلاح الدين ولم يحضر معه تخريب حصن الأحزان، فكان يفتخر ويقول: هزمت بألف مقاتل عشرين ألفا.

ذكر وفاة المستضيء بأمر الله وخلافة الناصر لدين الله

في هذه السنة في ثاني ذي القعدة توفي الإمام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد ـ رضي الله عنه، وأمه أم ولد أرمنية تدعى غضة وكانت خلافته نحو تسع سنين وسبعة أشهر، وكان مولده سنة ست وثلاثين وخمسمائة، وكان عادلاً حسن السيرة في الرعية كثير البذل للأموال، غير مبالغ في أخذ ما جرت العادة بأخذه، وكان النّاس معه في أمنٍ عامٍ، وإحسان شامل، وطمأنينة وسكون، لم يروا مثله، وكان حليماً قليل المعاقبة على الذنوب، محباً للعفو والصفح عن المذنبين، فعاش حميداً ومات سعيداً رضي الله عنه فلقد كانت أيامه كما قيل:

كأنَّ أيامَهُ من حُسْن سِيرتِه مواسمُ الحجِّ والأعيادِ والجُمعِ

ووزراؤه عضد الدين، أبو الفرج بن رئيس الرؤساء إلى أن قتل في ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة. ولما قتل حكم في الدولة ظهير الدين، أبو بكر منصور

ابن نصر المعروف، بابن العطّار، وكان خبيراً حسن السيرة كثير العطاء، وتمكن تمكنا كثيراً، فلما مات المستضيء قام ظهير الدين بن العطّار في أخذ البيعة لولده الناصرلدين الله أمير المؤمنين فلمّا تمّت البيعة صار الحاكم في الدولة، أستاذ الدار مجد الدين، أبا الفضل بن الصاحب.

وفي سابع ذي القعدة قبض على ابن العطار ظهير الدين، ووكّل عليه في داره ثمّ نقل إلى التاج وقيد، ووكّل به، وطلب ودائعه وأمواله، وفي ليلة الأربعاء ثامن عشر ذي القعدة أخرج ميتاً على رأس حمّال سرّاً، فغمز به بعض الناس، فصار به العامّة، فألقوه عن رأس الحمّال، وكشفوا سوأته، وشدّوا في ذكره حبلاً وسحبوه في البلد، وكانوا وضعوا بيده مغرفة يعني أنّها قلم، وقد غمسوها في العذرة، ويقولون وقّع لنا يا مولانا إلى غير هذا من الأفعال الشنيعة، ثم خلص من أيديهم ودفن هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم، وكفه عن أموالهم وأعراضهم، وسيرت الرسل إلى الآفاق لأخذ البيعة فسيّر صدر الدين شيخ الشيوخ إلى البهلوان، صاحب همذان، وأصفهان، والري، وغيرها فامتنع من البيعة فراجعه صدر الدين، وأغلظ له في القول حتى إنّه قال لعسكره في حضرته، ما لهذا عليكم طاعة ما لم يبايع أمير المؤمنين. بل يجب عليكم أن تخلعوه من الامارة، وتقاتلوه، فاضطر إلى البيعة والخطبة وأرسل رضي الدين القزويني مدرس النظامية إلى الموصل لأخذ البيعة، فبايع صاحبها وخطب للخليفة الناصر لدين الله.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة هبت ريح سوداء مظلمة بالديار الجزرية والعراق وغيرها، وعمّت أكثر البلاد من الظهر إلى أن مضى من الليل ربعه، وبقيت الدنيا مظلمة لا يكاد الإنسان يبصر صاحبه، وكنت حينئذ بالموصل، فصلينا العصر، والمغرب، والعشاء الآخرة على الظنّ والتخمين، وأقبل الناس على التضرّع، والتوبة والاستغفار، وظنّوا أن القيامة قد قامت، فلمّا مضى مقدار ثلث الليل زال ذلك الظلام، والعتمة التي غطت السماء، فنظرنا فرأينا النجوم، فعلمنا مقدار ما مضى من الليل لأن الظلام لم يزد بدخول الليل، وكان كل من يصل من جهة من الجهات يخبر بمثل ذلك.

وفيها في ذي القعدة، نزل شمس الدولة أخو صلاح الدين عن بعلبكّ، وطلب

عوضا عنها الإسكندرية، فأجابه صلاح الدين الى ذلك، وأقطع بعلبكّ لعز الدين فرخشاه ابن أخيه، فسار إليها وجمع أصحابه وأغار على بلاد الفرنج حتى وصل الى قلعة صفد وهي مطلة على طبرية فسبى وأسر وغنم، وخرج وفعل في الفرنج أفاعيل عظيمة، وأما شمس الدولة فإنه سار إلى مصر وأقام بالاسكندرية وإذا أراد الله أن يقبض رجلا بأرض جعل له إليها حاجة، فإنه أقام بها إلى أن مات بها.

وفيها قارب الجامع الذي بناه مجاهد الدين قايماز بظاهر الموصل من جهة باب الجسر الفراغ، وأقيمت فيه الصلوات الخمس والجمعة وهو من أحسن الجوامع.

وفيها توفّي أحمد بن عبدُ الرحمن الصوفي، شيخ رباط الزوزني، وسمع الحديث، وكان يصوم الدهر. وعبدُ الحق بن عبد الخالق بن يوسف سمع الحديث ورواه، وهو من بيت الحديث، والقاضي عمر بن علي بن الخضر أبو الحسن الدمشقي سمع الحديث ورواه، وولّى قضاء الحريم، وعلي بن أحمد اليزيدي سمع الحديث الكثير، وله وقف كتب كثيرة ببغداد، وكان زاهداً خيّراً صالحاً، ومحمدُ بن علي بن حمزة بن الاقساسي نقيب العلويين بالكوفة وكان ينشد كثيراً:

ربّ قوم في خلائقهم ... غرر قد صيروا غررا
ستر المال القبيح لهم ... سترى إن زال ما سترا

ومحمد بن محمد بن عبد الكريم، المعروف بابن سديد الدولة الأنباري، كاتب الإنشاء بعد أبيه، وأبو الفتوح نصر بن عبد الرحمن الدامغاني الفقيه، كان مناظراً حسن المناظرة كثير العبادة ودفن عند قبر أبي حنيفة.

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة

ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل وولاية أخيه عزالدين بعده

في هذه السنة ثالث صفر توفي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي، صاحب الموصل، وديار الجزيرة، وكان مرضه السل، وطال به ثمَّ أدركه في آخره برسام ومات.

ومن عجيب ما يحكى أنّ الناس خرجوا سنة خمس وسبعين يستسقون لانقطاع الغيث، وشدة الغلاء، وخرج سيف الدين في موكبه، فثار به الناس، وقصدوه بالإستغاثة، وطلبوا منه أن يأمر بالمنع من بيع الخمر، فأجابهم إلى ذلك، فدخلوا البلد، وقصدوا مساكن الخمارين، وخرّبوا أبوابها، ودخلوها ونهبوها، وأراقوا ما بها من خمور، وكسروا الظروف، وعملوا ما لا يحل، فاستغاث أصحاب الدور الى نواب السلطان، وخصوا بالشكوى رجلاً من الصالحين يقال له: أبو الفرج الدقّاق، ولم يكن في الذي فعله العامّة من النهب وما لا يجوز فعله، إنما هو أراق الخمور ونهى العامة عن الذي يفعلونه، فلم يسمعوا منه، فلما شكى الخمارون منه أحضر بالقلعة، وضرب على رأسه، فسقطت عمامته، فلما أطلق لينزل من القلعة نزل مكشوف الرأس، فأرادوا تغطيته بعمامته، فلم يفعل، وقال: والله لا غطَّيت رأسي حتى ينتقم الله لي ممَّن ظلمني، فلم يمضِ غير أيّام حتى توفي الزردار الذي تولى أذاه، ثمّ بعقبه مرض سيف الدين، واستمرَّ إلى أن مات، وعمره حينئذ نحو ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين وثلاثة أشهر، وكان حسنَ الصورة، مليح الشباب، تام القامة، أبيض اللون، وكان عاقلاً وقوراً قليل الالتفات إذا ركب وإذا جلس، عفيفاً لم يذكر عنه ما ينافي العفة، وكان غيوراً شديد الغيرة لا يدخل دوره غير الخدم الصغار، فإذا كبر أحدهم منعه، وكان لا يحب سفك الدماء، ولا أخذ الأموات على شحّ فيه وجبن، ولما اشتد مرضه أراد أن يعهد

بالملك لابنه معزِّ الدين سنجرشاه، وكان عمره حينئذ اثنتي عشر سنة فخاف على الدولة من ذلك لأن صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد تمكن بالشام وقوى أمرُه وامتنع اخوه عز الدين مسعود بن مودود من الإذعان لذلك، والإجابة إليه، فأشار الأمراء الاكابر، ومجاهد الدين قايماز بأن يجعل الملك بعده في عزِّ الدين أخيه لما هو عليه من كبر السن، والشجاعة والعقل وقوة النفس، وأن يعطي ابنيه بعض البلاد، ويكون مرجعهما إلى عزِّ الدين عمّهما والمتولِّي لأمرهما مجاهد الدين قايماز، ففعل ذلك، وجعل الملك في أخيه وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه، وقلعة عقر الحميدية لولده الصغير ناصر الدين كسك، فلما توفى سيف الدين ملك بعده الموصلَ والبلادَ أخوه عز الدين، وكان المدبر للدولة مجاهد الدين، وهو الحاكم في الجميع واستقرت الأمور، ولم يختلف اثنان.

ذكر مسير صلاح الدين لحرب قلج أرسلان

في هذه السنة سار صلاح الدين يوسف بن أيوب من الشام إلى بلاد قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان وهي ملطية وسنواس وما بينهما وقونية ليحاربه، وسبب ذلك أن نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا وغيره من ديار بكر، كان قد تزوّج ابنة قلج أرسلان المذكور، وبقيت عنده مدة، ثم إنه أحب مغنية فتزوجها، ومال إليها، وحكمت في بلاده وخزائنه، وأعرض عن ابنة قلج أرسلان، وتركها نسياً منسياً، فبلغ أباها الخبر، فعزم على نور الدين، وأخذ بلاده، فأرسل نور الدين إلى صلاح الدين يستجير به ويسأله كفَّ يد قلج أرسلان عنه، فأرسل صلاح الدين إلى قلج أرسلان في المعنى، فأعاد الجواب، إنني كنت قد سلمت إلى نور الدين عدَّة حصون تجاور بلاده لما تزوّج ابنتي، فحيث آل الأمر معه إلى ما يعلمه، فأنا أريد أن يعيدَ إليَّ ما أخذه مني، وتردّدت الرسل بينهما، فلم يستقر حال فيهما، فهادن صلاح الدين الفرنج، وسار في عساكره، وكان الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بها، فتركها ذات اليسار وسار على تلّ بَاشِر[1] إلى رَعْبَانَ[2] فأتاه بها نور الدين محمّد، وأقام عنده.

---

(١) تلّ باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب، بينها وبين حلب يومان.

(٢) رعبان: بفتح أوله وسكون ثانيه وباء موحدة وآخره نون: مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات معدودة في العواصم.

فلما سمع قلج أرسلان بقربه منه أرسل إليه أكبر أمير عنده ويقول له: إنَّ هذا الرجل فعل مع ابنتي كذا، ولا بدَّ من قصد بلاده وتعريفه محل نفسه، فلمّا وصل الرسول واجتمع بصلاح الدين وأدَّى الرسالة امتعض صلاح الدين لذلك واغتاظ، وقال للرسول: قل لصاحبك، والله الذي لا إله إلا هو لئن لم يرجع لأسيرن إلى ملطية، وبيني وبينها يومان ـ ولا أنزل عن فرسي إلا في البلد، ثم أقصد جميع بلاده وآخذها منه، فرأى الرسول أمراً شديداً، فقام من عنده، وكان قد رأى العسكر ـ وما هو عليه من القوة والتجمل وكثرةالسلاح والدواب. وغير ذلك ليس عنده ما يقاربه ـ فعلم أنّه إن قصدهم أخذ بلادهم، فأرسل إليه من الغد يطلب أن يجتمع به، فأحضره، فقال له: أريد أن أقولَ شيئاً من عندي ليس رسالةً عن صاحبي، وأحب أن تنصفني فقال له: قل. قال: يا مولانا ما هو قبيح بمثلك وأنت أعظم السلاطين، وأكبرهم شأناً أن تسمع الناس عنك إنك صالحت الفرنج، وتركت الغزو ومصالح المملكة، وأعرضت عن كل ما فيه صلاح لك ولرعيتك وللمسلمين عامة، وجمعت العساكر من أطراف البلاد البعيدة والقريبة، وسرت وخسرت أنت وعساكرك الأموال العظيمة لأجل قحبة مغنية ما يكون عذرك عند الله تعالى، ثمَّ عند الخليفة، وملوك الإسلام، وكافة العالم، وأحسب أن أحداً ما يواجهك بهذا، أمّا يعلمون أنّ الأمر هكذا، ثمَّ أحسب أنَّ قلج ارسلان مات، وهذه ابنته قد أرسلتني إليك تستجيرك وتسألك أن تنصفها من زوجها، فإن فعلت، فهو الظن بك أن لا تردها، فقال: والله الحق بيدك وإن الأمر لكما تقول، ولكن هذا الرجل دخل عليَّ واستجار بي، ويقبح بي تركه لكنك أنت اجتمع به، وأصلح الحال بينكم على ما تحبون وأنا أعينكم عليه وأقبّح فعله، ووعد من نفسه بكل جميل، فاجتمع الرسول بصاحب الحصن وتردّد القول بينهم، فاستقرَّ أنَّ صاحب الحصن يخرج المغنية عنه بعد سنة، وإن كان لا يفعل ينزل صلاح الدين عن نصرته، ويكون هو وقلج أرسلان علّيه، واصطلحوا على ذلك، وعاد صلاح الدين عنه إلى الشام، وعاد نور الدين إلى بلاده، فلمّا انقضت المدة أخرج نور الدين المغنية، عنه، فتوجهت إلى بغداد، وأقامت بها إلى أن ماتت.

ذكر قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الأرمني

وفيها قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الأرمني بعد فراغه من أمر قلج أرسلان،

وسبب ذلك أن ابن ليون الأرمني كان قد استمال قوماً من التركمان، وبذل لهم الأموال، فأمرهم أن يرعوا مواشيهم في بلاده، وهي بلاد حصينة كلُّها حصون منيعة، والدخول إليها صعب لأنها مضايق وجبال وعرة، ثم غدر بهم، وسبى حريمهم، وأخذ أموالهم، وأسر رجالهم. بعد أن قتل منهم من حان أجله، ونزل صلاح الدين على النهر الأسود، وبث الغارات على بلاده، فخاف ابن ليون على حصن له على رأس جبل أن يؤخذ، فخرَّبه وأحرقه، فسمع صلاح الدين بذلك، فأسرع السير إليه فأدركه قبل أن ينقل ما فيه من ذخائر وأقوات، فغنمها وانتفع المسلمون بما غنموه، فأرسل ابن ليون يبذل إطلاق من عنده من الأسرى والسبى، وإعادة أموالهم، على أن يعودوا عن بلاده، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك، واستقر الحال، وأطلق الأسرى، وأعيدت أموالهم، وعاد صلاح الدين عنه في جمادى الآخرة.

ذكر ملك يوسف بن عبد المؤمن مدينة قفصة بعد خلاف صاحبها عليه

في هذه السنة سار أبو يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن إلى أفريقية، وملك قفصة، وكان سببُ ذلك أنّ صاحبها علي بن المعزّ بن المعتز لمّا رأى دخول الترك إلى أفريقية، واستيلاءهم على بعضها، وانقياد العرب إليهم طمع أيضاً في الاستبداد والانفراد عن يوسف وكان في طاعته، فأظهر ما في نفسه وخالفه، وأظهر العصيان، ووافقه أهل قفصة، فقتلوا كلّ من كان عندهم من الموحّدين ـ أصحاب أبي يعقوب ـ، وكان ذلك في شوال سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، فأرسل والي بجاية إلى يوسف بن عبد المؤمن يخبره باضطراب أمور البلاد واجتماع كثير من العرب إلى قراقوش التركي الذي دخل الى افريقية ـ، وقد تقدَّم ذكر ذلك وما جرى في قفصة من قتل الموحدين ومساعدة أهل قفصة صاحبهم على ذلك ـ فشرع في سدّ الثغور التي يخافها بعد مسيرة، فلمّا فرغ من جميع ذلك تجهَّز العسكر، وسار إلى أفريقية سنة خمس وسبعين، ونزل على مدينة قفَّصة وحصرها ثلاثة أشهر، وهي بلدة حصينة، وأهلها أنجاد، وقطع شجرها فلمَّا اشتدَّ الأمر على صاحبها وأهلها، خرج منها مستخفياً لم يشعر به أحد من أهل قفَّصة، ولا من عسكره، وسار إلى خيمة يوسف وعرف حاجبه، أنّه قد حضر إلى أمير المؤمنين يوسف، فدخل الحاجب، وأعلم يوسف بوصول صاحب قفّصة إلى باب خيمته، فعجب منه كيف أقدم على الحضور عنده بغير عهد، وأمر بإدخاله عليه، فدخل وقبَّل يده، وقال:

قد حضرت أطلب عفو أمير المؤمنين عني ، وعن أهل بلدي ، وأن يفعل ما هو أهله ، واعتذر فرقَّ له يوسف فعفا عنه وعن أهل البلد ، وتسلَّم المدينة أوّل سنة ست وسبعين ، وسيّر علي بن المعزِّ صاحبها إلى بلاد المغرب ، فكان فيها مكرماً عزيزاً ، وأقطعه ولاية كبيرة ، ورتّب يوسف لقفصة طائفة من أصحابه الموحدين ، وحضر مسعود بن زمام أمير العرب عند يوسف أيضاً ، فعفا عنه وسيّره الى مراكش ، وسار يوسف إلى المهدية ، فأتاه بها رسول ملك الفرنج صاحب صقلية يلتمس منه الصلح ، فهادنه عشر سنين ، وكانت بلاد أفريقية مجدبة ، فتعذّر على العسكر القوت وعلف الدواب ، فسار الى المغرب مسرعاً والله أعلم .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفّي شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر بالاسكندرية ، وكان قد أخذها من أخيه إقطاعاً فأقام بها ، فتوفّى ، وكان له أكثر بلاد اليمن ، ونوابه هناك يحملون إليه الأموال من زبيد ، وعدن ، وما بينهما من البلاد ، والمعاقل ، وكان أجود النَّاس ، واسخاهم كفّاً يخرج كل ما يحمل إليه من أموال اليمن ودخل الإسكندريّة ، وحكمه في بلاد أخيه صلاح الدين وأمواله نافذ ومع هذا فلمّا مات كان عليه نحو مائتي ألف دينار مصريَّة دين ، فوفّاها أخوه صلاح الدين عنه لمّا دخل الى مصر ، فإنه لما بلغه خبر وفاته سار إلى مصر في شعبان من السنة ، واستخلف بالشام عزّ الدين فرخشاه ابن أخيه شاهنشاه ، وكان عاقلاً حازماً شجاعاً .

وفيها توفي أبو طاهر احمد بن محمد بن سلفة الأصفهاني بالاسكندرية ، وكان حافظ الحديث وعالماً به سافر في طلب الكثير ، وتوفى أيضاً في المحرّم علي بن عبد الرحيم المعروف بابن العصّار اللغوي ببغداد ، وسمع الحديث وكان من أصحاب ابن الجواليقي .

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة

ذكر غزاة إلى بلاد الكرك من الشام

في هذه السنة سار فرخشاه نائب صلاح الدين بدمشق إلى أعمال كرك ونهبها، وسببُ ذلك أنّ البرنس أرناط صاحب الكرك كان من شياطين الفرنج، ومردتهم، وأشدّهم عداوة للمسلمين، فتجهَّز، وجمع عسكره، ومن أمكنه الجمع، وعزم على المسير في البر إلى تيماء، ومنها إلى مدينة النبيّ ﷺ للاستيلاء على تلك النواحي الشريفة، فسمع عزّ الدين فرخشاه ذلك، فجمع العساكر الدمشقية، وسار إلى بلده ونهبه وخرَّبه، وعاد إلى طرف بلادهم، وأقام بها لمنع البرنس من المسلمين، فامتنع من مقصده، فلمّا طال مقام كل واحد منهما في مقابلة الآخر علم البرنس أنّ المسلمين لا يعودون حتى تفرَّق جمعه وانقطع طمعُه من الحركة، فعاد فرخشاه إلى دمشق، وكفى الله المؤمنين من الكفار.

ذكر تلبيس ينبغي أن يحتاط من مثله

كان سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ الكناني، ينوب عن شمس الدولة أخي صلاح الدين باليمن، وتحكَّم في الأموال والبلاد بعد أن فارقها شمسُ الدولة ـ كما ذكرنا ـ وكان هواه بالشام لأنّه وطنه، فأرسل إلى شمس الدولة يطلب الإذن في المجيء إليه، فأذن له في المجيء، فاستناب بزبيد أخاه حطان بن كامل بن منقذ الكناني، وعاد إلى شمس الدولة، وكان معه بمصر، فمات شمس الدولة، وبقي مع صلاح الدين، فقيل عنه إنّه أخذ أموال اليمن وادخرها، وسعى به أعداؤه، فلم يعارضه صلاح الدين، فلمَّا كان هذه السنة وصلاح الدين بمصر اصطنع سيف الدولة طعاماً، وعمل دعوة كبيرة، ودعا إليها أعيان الدولة الصلاحية بقرية تسمّى العدويّة، وأرسل أصحابه يتجهزون من البلد، ويشترون ما يحتاجون إليه من الأطعمة وغيرها، فقيل لصلاح الدين

إن ابن منقذ يريد الهرب، وأصحابه يتزودون له، ومتى دخل اليمن أخرجَه عن طاعتك، فأرسل صلاح الدين فأخذه والناس عنده وحبسه، فلمَّا سمع صلاح الدين جلية الحال علم أنَّ الحيلة تمّت لأعدائه في قبضه، فخفّف ما كان عنده وسهّل أمره، وصانعه على ثمانين ألف دينار مصرية سوّى ما لحقها من الحمل لإخوة صلاح الدين وأصحابه، وأطلقه، وأعاده إلى منزلته وكان أديباً شاعراً.

ذكر إرسال صلاح الدين العساكر إلى اليمن

في هذه السنة سيّر صلاح الدين جماعةً من أمرائه ـ منهم صارم الدين قتلغ أبه والي مصر ـ إلى اليمن للإختلاف الواقع بها بين نوّاب أخيه شمس الدولة ـ وهم عز الدين عثمان بن الزنجبيلي والي عدن، وحطّان بن منقذ والي زبيد، وغيرهما، فإنه لما بلغهم وفاة صاحبهم اختلفوا، وجرت بين عزِّ الدين عثمان، وبين حطّان حرب، وكل واحد منهما يروم أن يغلب الآخر على ما بيده، واشتدَّ الأمر، فخاف صلاح الدين أن يطمع أهل البلاد، فأرسل هؤلاء الأمراء اليها، واستولى قتلغ أبه على زبيد، وأزال حطان عنها، ثم مات قتلغ أبه، فعاد حطّان إلى إمارة زبيد، وأطاعه الناس لجوده وشجاعته.

ذكر وفاة الملك الصالح وملك ابن عمه عز الدين مسعود مدينة حلب

في هذه السنة في رجب توفّى الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب بها، وعمره نحو تسع عشرة سنة، ولمّا اشتدَّ مرضه وصف له الأطباء شربَ الخمر للتداوي، فقال: لا افعل حتى استفتى الفقهاء، فاستفتى، فأفتاه فقيه من مدرسي الحنفية بجواز ذلك، فقال له: أرأيت إن قدّر الله تعالى بقرب الأجل أيؤخره شرب الخمر، فقال له الفقيه: لا. فقال: والله لا لقيت الله سبحانه، وقد استعملت ما حرَّمه عليَّ، ولم يشربه، فلما أيس من نفسه أحضر الأمراء وسائر الأجناد، ووصَّاهم بتسليم البلد إلى ابن عمه عزِّ الدين مسعود بن مودود بن زنكي، واستحلفهم على ذلك فقال له بعضهم: إن عماد الدين بن عمك أيضاً، وهو زوج اختك، وكان والدك يحبّه ويؤثره، وهو تولّى تربيته، وليس له غير سنجار، فلو اعطيته البلد لكان أصلح وعز الدين له من البلاد من الفرات إلى همذان ولا حاجة به إلى بلدك، فقال له: إن هذا لم يغب عنّي ولكن قد علمتم أنّ صلاح الدين قد تغلب على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي،

ومتى سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها، وإن ملكها صلاح الدين لم يبق لأهلنا معه مقام، وإن سلمتها إلى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره، وبلاده، فاستحسنوا قوله، وعجبوا من جودة فطنته مع شدّة مرضه، وصغر سنِّه، ثم مات وكان حليماً، كريماً ، عفيف اليد والفرج واللّسان، ملازماً للدين لا يعرف له شيء مما يتعاطاه الملوك والشباب من شرب خمر، او غيره، حسن السيرة في رعيته، عادلاً فيهم ولما قضى نحبه أرسل الأمراء إلى أتابك عز الدين يستدعونه إلى حلب، فسار هو ومجاهد الدين قايماز إلى الفرات، وأرسل احضر الأمراء عندم من حلب، فحضروا، وساروا جميعا إلى حلب، ودخلها في العشرين من شعبان، وكان صلاح الدين حينئذ بمصر ولولا ذلك لزاحمهم عليها، وقاتلهم، فلمّا اجتاز في طريقه إليها من الفرات كان تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين بمدينة منبج، فسار عنها هارباً إلى حماة وثار أهل حماة، ونادوا بشعار عز الدين، فأشار عسكر حلب على عز الدين بقصد دمشق، وأطمعوه فيها وفي غيرها من بلاد الشام، وأعلموه محبّة اهلها له ولأهل بيته، فلم يفعل، وقال: بيننا يمين فلا نغدر به، وأقام بحلب عدة شهور ثم سار عنها إلى الرقة.

ذكر تسليم حلب إلى عماد الدين وأخذ سنجار عوضاً عنها

لما دخل عز الدين الى الرقّة، جاءته رسل اخيه عماد الدين صاحب سنجار يطلب أن يسلم إليه حلب، ويأخذ عوضاً عنها مدينة سنجار، فلم يجبه إلى ذلك ولجّ عماد الدين في ذلك، وقال: إن سلمتم إليّ حلب، وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين، فأشار حينئذ جماعة من الأمراء بتسليمها إليه، وكان أشدَّهم في ذلك مجاهد الدين قايماز، فلم يمكن عز الدين مخالفته لتمكنه من الدولة وكثرة عساكره وبلاده وإنما حمل مجاهد الدين على ذلك خوفه من عز الدين لأنه عظم في نفسه، وكثر معه العسكر، وكان الأمراء الحلبيون لا يلتفتون إلى مجاهدالدين،ويسلكون معه من الأدب ما يفعله عسكر الموصل، فاستقرَّ الأمر على تسليم حلب إلى عماد الدين، وأخذ سنجار عوضاً عنها، فسار عماد الدين فتسلمها وسلم سنجار إلى أخيه، وعاد إلى الموصل وكان صلاح الدين بمصر قد بلغه خبر ملك عز الدين حلب فعظم الأمر عليه وخاف أن يسير منها إلى دمشق، وغيرها ويملك الجميع وأيس من حلب، فلمّا بلغه ملك عماد الدين

لها برز من مصر من يومه، وسار إلى الشام، وكان من الوهن على دولة عز الدين ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر حصر صاحب ماردين قلعة البيرة ومسير صاحبها مع صلاح الدين

كانت قلعة البيرة - وهي مطلة على الفرات من أرض الجزيرة لشهاب الدين الأرتقي، وهو ابن عمّ قطب الدين ايلغازي بن ألبي بن تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين، وكان في طاعة نور الدين محمود بن زنكي، صاحب الشام، فمات شهاب الدين وملك القلعة بعده ولده، وصار في طاعة عز الدين مسعود، صاحب الموصل، فلمّا كان هذه السنة أرسل صاحب ماردين إلى عزّ الدين يطلب منه أن يأذن له في حصر البيرة وأخذها، فأذن له في ذلك، فسار في عسكره إلى قلعة سميساط - وهي له، ونزل بها، وسيّر العسكر إلى البيرة فحصرها، فلم يظفر منها بطائل إلا أنّهم لازموا الحصار، فأرسل صاحبها إلى صلاح الدين وقد خرج من ديار مصر على ما نذكره يطلب منه أن ينجده، ويرحل العسكر الماردانى عنه، ويكون هو في خدمته كما كان أبوه في خدمة نور الدين، فأجابه الى ذلك، وأرسل رسولا إلى صاحب ماردين يشفع فيه، ويطلب أن يرحل عسكره عنه، فلم يقبل شفاعته، واشتغل صلاح الدين بما نذكره من الفرنج، فلما رأى صاحب ماردين طول مقام عسكره على البيرة، ولم يبلغوا منها غرضاً أمرهم بالرحيل عنها، وعاد إلى ماردين، فسار صاحبها إلى صلاح الدين، وكان معه حتى عبر معه الفرات على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كثرت المنكرات ببغداد، فأقام حاجب الباب جماعة لإراقة الخمور، وأخذ المفسدات، فبينما امرأة منهن في موضع علمت بمجيء أصحاب حاجب الباب، فاضطجعت، وأظهرت أنّها مريضة، وارتفع أنينها فرأوها على تلك الحال، فتركوها، وانصرفوا، فاجتهدت بعدهم أن تقوم، فلم تقدر، وحملتْ تصيح الكربَ الكربَ إلى أن ماتت، وهذا من أعجب ما يحكى.

وفيها في عاشر ذي الحجة توفّى الامير همام الدين تتر صاحب قلعة تكريت بالمزدلفة، كان قد استخلف الأمير عيسى بن أخي مودود وحجّ، فتوفّى ودفن بالمعلى

مقبرة مكة.

وفيها في شعبان توفّي عبد الرحمن بن محمّد بن أبي سعيد أبو البركات النَحوِيُّ المعروف بابن الأنباري ببغداد، وله تصانيف حسنة في النحو، وكان فقيها صالحا.

وفيها توفّي إبراهيم بن محمد بن مهران الفقيه الشافعي بجزيرة ابن عمر، وكان فاضلاً كثير الورع.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

ذكر مسير صلاح الدين إلى الشام وإغارته على الفرنج

في هذه السنة خامس المحرَّم سار صلاح الدين عن مصر إلى الشام، ومن عجيب ما يحكى من التطيّر أنّه لمّا برز من القاهرة أقام بخيمته حتى تجتمع العساكر، والنّاس عنده، وأعيان دولته، والعلماء، وأرباب الآداب، فمن بين مودّع له، وسائر معه، وكلّ منهم يقول شيئاً في الوداع، والفراق، وما هم بصدده من السفر، وفي الحاضرين معلّم لبعض أولاده، فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد:

تمتَّع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشيّة من عرار

فانقبض صلاح الدين بعد انبساطه، وتطيّر وتنكد المجلس على الحاضرين، فلم يعد إليها إلى أن مات مع طول المدة، ثم سار عن مصر، وتبعه من التجار، وأهل البلاد، ومن كان قصد مصر من الشام بسبب الغلاء بالشام وغيره، عالم كثير، فلمّا سار جعل طريقه على أيلة، فسمع أنّ الفرنج قد جمعوا له ليحاربوه ويصدوه عن المسير، فلما قارب بلادهم سيّر الضعفاء والأثقال مع أخيه تاج الملوك بوري إلى دمشق، وبقي هو في العساكر المقاتلة لا غير فشنَّ الغارات بأطراف بلادهم، وأكثر ذلك ببلد الكرك والشوبك، فلم يخرج إليه منهم أحد، ولا أقدم على الدنوّ منه، ثم سار فأتى دمشق فوصلها حادي عشر صفر من السنة.

ذكر ملك المسلمين شقيفاً من الفرنج

في هذه السنة أيضاً في صفر فتح المسلمون بالشام شقيفاً من الفرنج يعرف بحبس جلدك، وهو من أعمال طبريّة مطل على السواد، وسببُ فتحه أنَّ الفرنج لما بلغهم مسير صلاح الدين من مصر إلى الشام، جمعوا له، وحشدوا الفارس والراجل، واجتمعوا

بالكرك بالقرب من الطريق لعلهم ينتهزون فرصة، أو يظفرون بنصرة، وربما عاقوا المسلمين عن المسير بأن يقفوا على بعض المضايق، فلما فعلوا ذلك خلت بلادهم من ناحية الشام، فسمع فرخشاه الخبر، فجمع من عنده من عساكر الشام، ثمّ قصد بلاد الفرنج، وأغار عليها، ونهب دبورية وما يجاورها من القرى، وأسر الرجال وقتل وأكثر، وسبى النساء، وغنم الأموال، وفتح منهم الشقيف، وكان على المسلمين منه أذى شديد، ففرح المسلمون بفتحه فرحاً عظيماً وأرسل إلى صلاح الدين بالبشارة، فلقيه في الطريق ففتّ ذلك في عضد الفرنج وانكسرت شوكتهم.

ذكر إرسال سيف الإسلام إلى اليمن وتغلبه عليه

في هذه السنة سيّر صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طغدكين إلى بلاد اليمن وأمره بتملكها، وقطع الفتن بها، وفوّض إليه أمرها، وكان بها حطّان بن منقذ، كما ذكرناه قبل، وكتب عزّ الدين عثمان الزنجبيلي متولي عدن إلى صلاح الدين يعرفه باختلال البلاد ويشير بإرسال بعض أهله إليها، لأن حطان كان قوي عليه، فخافه عثمان، فجهّز صلاح الدين أخاه سيف الإسلام، وسيّره إلى بلاد اليمن، فوصل إلى زبيد، فخافه حطّان بن منقذ، واستشعر منه، وتحصّن في بعض القلاع، فلم يزل به سيف الإسلام يؤمنه، ويهدي إليه، ويتلطفه حتى نزل إليه، فأحسن صحبته، وعمل معه ما لم يكن يتوقعه من الإحسان، فلم يثق حطان به وطلب منه دستوراً ليقصد الشام، فامتنع من إجابته إظهاراً للرغبة في كونه عنده، فلم يزل حطان يراجعه حتى أذن له فأخرج أثقاله، وأمواله، ودوابه، وأهله، وأصحابه، وكل ما لَهُ وسيّر الجميعَ بين يديه، فلما كان الغد دخل إلى سيف الإسلام ليودِّعه، فقبض عليه، واسترجع جميع ماله، فأخذه عن آخره لم يسلم منه قليل، ولا كثير، ثم سجنه في بعض القلاع، وكان آخر العهد به فقيل إنه قتله، وكان في جملة ما أخذ منه من الأموال الذهب العين في سبعين غلافاً زردية مملوءة ذهباً عيناً، وأمّا عزُّ الدين عثمان الزنجبيلي، فإنه لمّا سمع ما جرى على حطان خاف، فسار نحو الشام خائفاً يترقب وسيّر معظم أمواله في البحر، فصادفهم مراكب فيها أصحاب سيف الإسلام فأخذوا كل ما لعزّ الدين، ولم يبق له إلا ما صحبه في الطريق، وصفت زبيد وعدن، وما معهما من البلاد لسيف الإسلام.

ذكر إغارة صلاح الدين على الغور وغيره من بلاد الفرنج وأعمالها

لمّا وصل صلاح الدين إلى دمشق ـ كما ذكرناه ـ أقام أياماً يريح ويستريح هووجنده، ثمَّ سار إلى بلاد الفرنج في ربيع الأول، فقصد طبريّة، فنزل بالقرب منها، وخيّم في الأقحوانة من الأردن، وجاءت الفرنج بجموعها، فنزلت بطبريّة فسيّر صلاح الدين فرخشاه ابن أخيه إلى بيسان، فدخلها قهراً، وغنم ما فيها، وقتل وسبى، وجحف الغور غارة شعواء، فعم أهله قتلا، وأسرا، وجاءت العرب فأغارت على جينين، واللجون، وتلك الولاية حتى قاربوا مرج عكّا، وسار الفرنج من طبريّة، فنزلوا تحت جبل كوكب فتقدّم صلاح الدين إليهم، وأرسل العساكر عليهم يرمونهم بالنشاب، فلم يبرحوا، ولم يتحركوا لقتال فأمر ابني أخيه تقي الدين عمر وعز الدين فرخشاه فحملا على الفرنج فيمن معهما فقاتلوا قتالاً شديداً، ثم إنّ الفرنج انحازوا على حاميتهم، فنزلوا غفر بلا، فلمّا رأى صلاح الدين ما قد أثخن فيهم وفي بلادهم عاد عنهم إلى دمشق.

ذكر حصر بيروت

ثمّ إنّه سار عن دمشق إلى بيروت، فنهب بلدها، وكان قد أمر الأسطول المصري بالمجيء في البحر إليها، فساروا، ونازلوها، وأغاروا عليها، وعلى بلدها، وسار صلاح الدين فوافاهم، ونهب ما لم يصل الأسطول إليه، وحصرها عدة أيام، وكان عازماً على ملازمتها إلى أن يفتحها، فأتاه الخبر، وهو عليها أنّ البحر قد ألقى بسطة للفرنج فيها جمع عظيم منهم إلى دمياط كانوا قد خرجوا لزيارة البيت المقدس، فأسروا من بها بعد أن غرق منهم كثير، فكان عدّة الأسرى ألفاً وستمائة وستة وسبعين فضربت بذلك البشائر.

ذكر عبور صلاح الدين الفرات وملكه ديار الجزيرة

في هذه السنة عبر صلاح الدين الفرات إلى الديار الجزرية، وملكها، وسبب ذلك أنّ مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي بن بكتكين، وهو مقطع حران كان قد أقطعه إياها عز الدين أتابك المدينة، والقلعة تقوية، واعتمادا أرسل إلى صلاح الدين وهو يحاصر بيروت يعلمه أنه معه محبّ لدولته، ووعده النصرة له إذا عبر الفرات، ويطمعه في البلاد، ويحثّه على الوصول، فسار صلاح الدين عن بيروت وأرسل مظفَّر الدين

تترى إليه يحثّه على المجيء، فجدّ صلاح الدين في السير مظهراً أنّه يريد حصر حلب تستراً للحال، فلما قارب الفرات سار إليه مظفر الدين، فعبر الفرات، واجتمع به فقصد البيرة، وهي قلعة منيعة على الفرات من الجانب الجزري، وكان صاحبها قد سار مع صلاح الدين وفي طاعته وقد ذكرنا سببَ ذلك قبل، فعبر هو وعسكره الفرات على الجسر الذي عند البيرة، وكان عز الدين صاحب الموصل، ومجاهد الدين لما بلغهما وصول صلاح الدين إلى الشام قد جمعا العسكر، وسارا إلى نصيبين ليكونا على أهبة، واجتماع لئلا يتعرض صلاح الدين إلى حلب، ثم تقدما إلى دار، فنزلا عندها، فجاءهما أمر لم يكن في الحساب، فلما بلغهما عبور صلاح الدين الفرات عادا الى الموصل، وأرسلا إلى الرها عسكراً يحميها، ويمنعها، فلما سمع صلاح الدين ذلك قوي طمعه في البلاد، ولمّا عبر صلاح الدين الفرات كاتب الملوك أصحاب الأطراف، ووعدهم، وبذل لهم البذول على نصرته، فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحِصْن إلى ما طلب منه لقاعدة استقرّت بينهما لما كان نور الدين عنده بالشام، فإنه استقرّ الحال أنّ صلاح الدين يحصر آمد ويملكها، ويسلمها إليه. وسار صلاح الدين الى مدينة الرها، فحصرها في جمادى الأولى، وقاتلها أشدّ قتال، فحدثني بعض من كان بها من الجند أنّه عدّ في غلاف رمح أربعة عشر خرقاً، وقد خرقته السهام، ووالى الزحف عليها، وكان بها حينئذ مقطعها وهو الأمير فخر الدين مسعود الزعفراني، فحيث رأى شدّة القتال أذعن إلى التسليم، وطلب الأمان، وسلّم البلد، وصار في خدمة صلاح الدين، فلما ملك المدينة زحف الى القلعة، فسلمها اليه الدزدار الذي بها على مال أخذه، فلما ملكها سلمها الى مظفر الدين مع حرّان، ثمّ سار عنها على حرّان إلى الرقة، فلما وصل اليها كان بها مقطعها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي، فسار عنها الى عزّ الدين أتابك، وملكها صلاح الدين، وسار إلى الخابور قرقيسيا وماكسين وعرابان، فملك جميع ذلك، فلما استولى على الخابور جميعه سار الى نصيبين، فملك المدينة لوقتها، وبقيت القلعة، فحصرها عدّة أيام، فملكها أيضاً، وأقام بها ليصلح شأنها ثمَّ أقطعها أميراً كان معه يقال له: أبو الهيجاء السمين، وسار عنها ومعه نور الدين صاحب الحصن، وأتاه الخبر أن الفرنج قصدوا دمشق، ونهبوا القرى، ووصلوا إلى داريا وأرادوا تخريب جامعها، فأرسل النائب بدمشق اليهم جماعة من النصارى يقول لهم: إن اخربتم الجامع جددنا عمارته، وأخربنا كل بيعة لكم في بلادنا، ولا نُمكِّن أحداً من عمارتها،

فتركوه، ولما وصل الخبر إلى صلاح الدين بذلك أشار عليه من يتعصب لعز الـدين بالعود! فقال يخربون قرى ونملك عوضها بلاداً، ونعود ونعمرها، ونقوى على قصد بلادهم ولم يرجع فكان كما قال.

ذكر حصر صلاح الـدين الموصل

لما ملك صلاح الدين نصيبين جمع أمراءه وأرباب المشورة عنده واستشارهم بأيّ البلاد يبدأ، وأيّها يقصد بالموصل أم بسنجار أم بجزيرة ابن عمر، فاختلفت آراؤهم فقال له مظفر الدين كوكبري بن زين الدين: لا ينبغي أن يبدأ بغير الموصل، فإنها في أيدينا لا مانع لها، فإن عزّ الدين، ومجاهد الدين متى سمعا بمسيرنا اليها تركاها وساراعنها إلى بعض القلاع الجبلية، ووافقه ناصر الدين محمد ابن عمه شيركوه، وكان قد بذل لصلاح الدين مالاً كثيراً ليقطعه الموصل إذا ملكها، وقد أجابه صلاح الدين إلى ذلك، فأشار بهذا الرأي لهواه، فسار صلاح الدين إلى الموصل، وكان عز الدين صاحبهـا ومجاهد الدين نائبه قد جمعا بالموصل العساكر الكثيرة ما بين فارس وراجل، وأظهرا من السلاح، وآلات الحصار ما حارت له الأبصار، وبـذلا الأموال الكثيـرة، وأخرج مجاهد الدين من ماله كثيراً، واصطلى الأمور بنفسه، فأحسن تدبيرها، وشحنوا ما بقي بأيديهم من البلاد كالجزيرة، وسنجار، والموصل، وإربل، وغيرها من البلاد بالرجال والسلاح والأموال، وسار صلاح الدين حتى قارب الموصل، وترك عسكره، وانفرد هو ومظفر الدين، ابن عمه ناصر الدين بن شيركوه، ومعهم نفر من أعيان دولته، وقربوا من البلد، فلما قربوا ورآه وحققه رأى ما هاله، وملأ صدره وصدور أصحابه، فإنه رأى بلداً عظيماً كبيراً ورأى السور، والفصيل قد ملئا من الرجال، وليس فيها شرافة إلا وعليها رجل يقاتل سوى من عليه من عامة البلد المتفرجِّين فلما رأى ذلك علم أنّه لا يقدر على أخذه، وأنه يعود خائباً، فقال لناصر الدين ابن عمه: إذا رجعنا إلى المعسكر، فاحمل ما بذلت من المال، فنحن معك على القول. فقال: قد رجعت عما بذلت من المال، فإن هذا البلد لا يرام، فقال له ولمظفر الدين، غررتماني وأطمعتماني في غير مطمع! ولو قصدت غيره قبله لكان أسهل أخذاً بالاسم والهيبة التي حصلت لنا، ومتى نازلناه وعدنا منه ينكسر ناموسنا، ويفل حدنا وشوكتنا، ثم رجع إلى معسكره، وصبح البلد، وكان نزوله عليه في رجب، فنازله وضايقه، ونزل محاذي باب كندة، وأنزل صاحب الحصن بباب

الجسر، وأنزل أخاه تاج الملوك عند الباب العمادي وأنشب القتال، فلم يظفر وخرج إليه يوما بعض العامة فنالوا منه، ولم يمكّن عزّ الدين ومجاهد الدين أحداً من العسكر، بل ألزموا الأسوار، ثم إنَّ تقي الدين أشار على عمه صلاح الدين بنصب منجنيق، فقال: مثل هذا البلد لا ينصب عليه منجنيق ومتى نصبناه أخذوه: ولو خربنا برجا وبدنه، من يقدر على الدخول للبلد وفيه هذا الخلق الكثير، فألح تقي الدين، وقال: نجربهم به، فنصب منجنيقا فنصب عليه من البلد تسعة منجنيقات، وخرج جماعة من العامة فأخذوه، وجرى عنده قتال كثير، فأخذ بعض العامة لالكة من رجليه فيها المسامير الكثيرة ورمى بها أميراً يقال له جاولي الأسدي مقدم الاسدية وكبيرهم، فأصاب صدره، فوجد لذلك ألماً شديداً وأخذ اللالكة، وعاد عن القتال إلى صلاح الدين، وقال: قد قاتلنا أهل الموصل بحماقات ما رأينا بعد مثلها، وألقى اللالكة، وحلف أنه لا يعود يقاتل عليها أنفة حيث ضرب بهذه.

ثم إن صلاح الدين رحل من قرب البلد، ونزل متأخراً خوفاً من البيات، فإنه لقربه كان لا يأمن ذلك، وكان سببه أيضاً أنَّ مجاهد الدين أخرج في بعض الليالي جماعة من باب السر الذي للقلعة ومعهم المشاعل، فكان أحدهم يخرج من الباب وينزل إلى دجلة مما يلي عين الكبريت، ويطفىء المشعل، فرأى العسكر الناس يخرجون، فلم يشكوا في الكبسة، فحملهم ذلك على الرحيل والتأخر ليتعذر البيات على أهل الموصل، وكان صدر الدين شيخ الشيوخ رحمه الله قد وصل إليه قبل نزوله على الموصل، ومعه بشير الخادم وهو من خواص الخليفة الناصر لدين الله في الصلح، فأقاما معه على الموصل، وترددت الرسل الى عز الدين ومجاهد الدين في الصلح، فطلب عز الدين إعادة البلاد التي أخذت منهم، فأجاب صلاح الدين إلى ذلك بشرط أن تسلم إليه حلب، فامتنع عز الدين ومجاهد الدين، ثم نزل عن ذلك وأجاب الى تسليم البلاد بشرط أن يتركوا أنجاد صاحب حلب عليه، فلم يجيبوا إلى ذلك أيضا، وقال عز الدين هو أخي وله العهود والمواثيق، ولا يسعني أن أنكثها، ووصلت أيضا رسل قزل أرسلان صاحب أذربيجان، ورسل شاه أرمن صاحب خلاط في المعنى، فلم ينتظم أمر ولاتم صلح، فلما رأى صلاح الدين أنه لا ينال من الموصل غرضا، ولا يحصل على غير العناء والتعب، وأن من بسنجار من العساكر الموصلية يقطعون طريق من يقصدونه من عساكره وأصحابه سار من الموصل إليها.

ذكر ملكه مدينة سنجار

لما سار صلاح الدين عن الموصل إلى سنجار سيّر مجاهد الدين اليها عسكرا قوة لها، ونجدة، فسمع بهم صلاح الدين، فمنعهم من الوصول إليها، وأوقع بهم، وأخذ سلاحهم ودوابهم، وسار إليها، ونازلها وكان بها شرف الدين أمير أميران هندوا أخو عزّ الدين صاحب الموصل في عسكر معه، فحصر البلد وضايقه وألحّ في قتاله، فكاتبه بعض أمراء الأكراد الذين به من الزرزارية ، وخامر معه، وأشار بقصده من الناحية التي هو بها ليسلم إليه البلد، فطرقه صلاح الدين ليلا، فسلم إليه ناحيته فملك الباشورة لا غير، فلما سمع شرف الدين الخبر استكان، وخضع وطلب الأمان، فأمن ولو قاتل على تلك الناحية أخرج العسكر الصلاحي عنها، ولو امتنع بالقلعة لحفظها، ومنعها، ولكنه عجز فلما طلب الأمان أجابه صلاح الدين إليه، فأمنه وملك البلد، وسار شرف الدين ومن معه إلى الموصل واستقر جميع ما ملكه صلاح الدين بملك سنجار، فإنه كان قصد أن يسترده المواصلة إذا فارقه لأنه لم يكن فيه حصن غير الرها لا غير، فلما ملك سنجار صارت على الجميع كالسور، واستناب بها سعد الدين بن معين الدين أنز وكان من أكابر الأمراء وأحسنهم صورة ومعنى .

ذكر عود صلاح الدين إلى حران

لما ملك صلاح الدين سنجار، وقرر قواعداها سار إلى نصيبين، فلقيه أهلها شاكين من أبي الهيجاء السمين، باكين من ظلمه متأسفين على دولة عز الدين وعدله فيهم، فلما سمع ذلك انكر على أبي الهيجاء ظلمه، وعزله عنهم، وأخذه معه، وسار إلى حرَّان وفرّق عساكره ليستريحوا وبقي جريدة في خواصه، وثقات أصحابه، وكان وصوله إليها أوائل ذي القعدة من السنة .

ذكر اجتماع عز الدين وشاه أرمن

في هذه السنة في ذي الحجة اجتمع أتابك عز الدين صاحب الموصل وشاه ارمن صاحب خلاط على قتال صلاح الدين، وسببُ ذلك أنَّ رسل عز الدين تردّدت إلى شاه ارمن يستنجده ويستنصره على صلاح الدين، فأرسل شاه ارمن الى صلاح الدين عدة رسل في الشفاعة اليه بالكفِّ عن الموصل، وما يتعلق بعز الدين، فلم يجبه إلى ذلك،

وغالطه، فأرسل إليه اخيراً مملوكه سيف الدين بكتمر الذي ملك خلاط بعد شاه أرمن، فأتاه وهو يحاصر سنجار يطلب اليه ان يتركها ويرحل عنها، وقال له إن رحل عنها وإلا فتهدده بقصده ومحاربته، فأبلغه بكتمر الشفاعة، فسوفه في الجواب رجاء أن يفتحها، فلما رأى بكتمر ذلك أبلغه الرسالة بالتهديد، وفارقه غضبان، ولم يقبل منه خلعة ولا صلة، وأخبر صاحبه الخبر، وخوَّفه عاقبة الإهمال والتواني عن صلاح الدين، فسار شاه أرمن من خلاط، وكان مخيماً بظهرها؛ وسار إلى ماردين، وصاحبها حينئذ قطب الدين ابن نجم الدين ألبي وهو ابن اخت شاه ارمن، وابن خال عز الدين، وحموه لأن عز الدين قد زوّج ابنة قطب الدين، وحضر مع شاه أرمن دولة شاه صاحب بدليس، وأرزن، وسار أتابك عز الدين من الموصل في عسكره جريدة من الأثقال، وكان صلاح الدين قد ملك سنجار، وسار عنها إلى حرّان، وفرق عساكره، فلما سمع باجتماعهم، سيّر إلى تقي الدين ابن أخيه وهو بحماة يستدعيه، فوصل إليه مسرعا، واشار عليه بالرحيل، وحذره منه آخرون، وكان هوى صلاح الدين في الرحيل، فرحل إلى رأس عين، فلمّا سمعوا برحيله تفرقوا، فعاد شاه أرمن إلى خلاط، واعتذر بأنني أجمع العساكر وأعود، ورجع عز الدين إلى الموصل، وأقام قطب الدين بماردين وسار صلاح الدين، فنزل بجوزم تحت ماردين عدة أيام.

ذكر الظفر بالفرنج في بحر عيذاب

في هذه السنة عمل البرنس صاحب الكرك أسطولا، وفرغ منه بالكرك، ولم يبق إلا جمعُ قطعه بعضها إلى بعض وحملها إلى بحر أيلة، وجمعها في أسرع وقت، وفرغ منها وشحنها بالمقاتلة وسيّرها فساروا في البحر وافترقوا فرقتين فرقة قامت على حصن أيلة يحصرونه، ويمنعون أهله من ردود الماء! فنال أهله شدة شديدة، وضيق عليهم، وأمّا الفرقة الثانية، فإنهم ساروا نحو عيذب وأفسدوا في السواحل، ونهبوا، وأخذوا ما وجدوا من المراكب الإسلامية ومن فيها من التجار، وبغتوا الناس في بلادهم على حين غفلة منهم، فإنّهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجيًا لا تاجراً، ولا محارباً، وكان بمصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب ينوب عن أخيه صلاح الدين، فعمَّر أسطولاً وسيره، وفيه جمع كثير من المسلمين، ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب، وهو متولي الأسطول بديار مصر، وكان مظفَّراً فيه شجاعاً كريماً، فسار لؤلؤ مجدّا في طلبهم، فابتدأ بالذين على

أيلة فانقضَّ عليهم انقضاض العقاب على صيده، فقتل بعضهم، وأسر الباقي، وسار من وقته بعد الظهر بقص أثر الذين قصدوا عيذاب، فلم يَرَهم، وكانوا أغاروا على ما وجدوه بها، وقتلوا من لقوه عندها، وساروا إلى غير ذلك المرسى ليفعلوا كما فعلوا فيه، وكانوا عازمين على الدخول إلى الحجاز مكة والمدينة - حرسهما الله تعالى - وأخذ الحاج، ومنعهم عن البيت الحرام، والدخول بعد ذلك إلى اليمن، فلما وصل لؤلؤ الى عيذاب ولم يرهم سار يقفو أثرهم، فبلغ رابغ، وساحل الجوزاء، وغيرهما فأدركهم بساحل الجوزراء، فأوقع بهم هناك، فلما رأوا العطب، وشاهدوا الهلاك خرجوا إلى البر، واعتصموا ببعض تلك الشعاب، فنزل لؤلؤ من مراكبه إليهم وقاتلهم أشدَّ قتال وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هناك، فركبها وقاتلهم فرسانه ورجاله، فظفر بهم، وقتل أكثرهم، وأخذ الباقين أسرى، وأرسل بعضهم الى منى لينحروا بها عقوبة لمن رام إخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله ﷺ، وعاد بالباقين إلى مصر، فقتلوا جميعهم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في جمادى الأولى توفّي عز الدين فرخشاه ابن أخي صلاح الدين، وكان ينوب عنه بدمشق، وهو ثقته من أهله، وكان اعتماده عليه أكثر من جميع أهله وأمرائه، وكان شجاعا كريما فاضلا عالما بالأدب، وغيره، وله شعر جيد من بين أشعار الملوك، وكان ابتداء مرضه أنه خرج من دمشق إلى غزو الفرنج، فمرض وعاد مريضا، فمات، ووصل خبر موته إلى صلاح الدين وقد عبر الفرات إلى الديار الجزرية، فأعاد شمس الدين محمد بن المقدم إلى دمشق ليكون مقدَّماً على عسكرها.

وفيها مات فخر الدولة أبو المظفر بن الحسن بن هبة الله بن المطلب كان أبوه وزير الخليفة، وأخوه أستاذ الدار، فتصوّف هو من زمن الصبا، وبنى مدرسة ورباطا ببغداد عند عقد المصطنع وبنى جامعا بالجانب الغربي منها.

وفيها توفي الأمير أبو منصور هاشم ولد المستضيء بأمر الله ودفن عند أبيه.

وفيها توفي أبو العباس أحمد بن علي بن الرفاعي من سواد واسط، وكان صالحاً ذا قبول عظيم عند الناس، وله من التلامذة ما لا يحصى.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة

ذكر ملك صلاح الدين آمد وتسليمها إلى صاحب الحصن

قد ذكرنا نزول صلاح الدين بجوزم تحت ماردين، فلم يرَ لطمعه وجهاً، وسار عنها إلى آمدعلى طريق البارعيّة، وكان نور الدين محمد بن قرا أرسلان يطالبه في كل وقت بقصدها. وأخذها، وتسليمها إليه، على ما استقرَّت القاعدة بينهما، فوصل إلى آمد سابع عشر ذي الحجة من سنة ثمان وسبعين، ونازلها، وأقام يحاصرها، وكان المتولي لأمرها والحاكم فيها بهاء الدين بن نيسان، وكان صاحبها وليس له من الأمر شيء مع ابن نيسان، فلما نازلها صلاح الدين أساء ابن نيسان التدبير، ولم يعط الناس من الذخائر شيئاً، ولا فرّق فيهم دينارا واحدا، ولا قوتا، وقال لأهل البلد: قاتلوا عن نفوسكم. فقال له بعض أصحابه: ليس العدو بكافر حتى يقاتلوا عن نفوسهم، فلم يفعل شيئاً؟ وقاتلهم صلاح الدين، ونصب المنجنيقات وزحف إليها، وهي الغاية في الحصانة والمنعة، بها وبسورها يضرب المثل، وابن نيسان على حاله من الشحّ بالمال وتصرفه وتصرف من ولّت سعادتُه، وأدبرت دولته، فلما رأى الناس ذلك منه تهاونوا بالقتال، وجنحوا إلى السلامة،وكانت أيام ابن نيسان قد طالت، وثقلت على أهل البلد لسوء سيرته وصنيعه، وتضييقه عليهم في مكاسبهم، فالنّاس كارهون لها محبون لانقراضها، وأمر صلاح الدين أن يكتب على السهام إلى أهل البلد يعدهم الخير والإحسان إن أطاعوه، ويتهدَّدهم إن قاتلوه، فزادهم ذلك تقاعداً، وتخاذلا، واحبُّوا ملكه وتركوا القتال، فوصل النقَّابون إلى السور فنقبوه وعلقوه، فلما رأى الجند وأهل البلد ذلك طمعوا في ابن نيسان، واشتطوا في المطالب، فحين صارت الحال لذلك أخرج ابن نيسان نساءه إلى القاضي الفاضل وزير صلاح الدين، يسأله أن يأخذ له الأمان، ولأهله، وماله، وأن يؤخره ثلاثة أيام حتى ينقل ما لَه بالبلاد من الأموال والذخائر، فسعى له الفاضل في

ذلك، فأجابه صلاح الدين إليه، فسلَّم البلد في العشر الأول من المحرَّم هذه السنة، وأخرج خيمة إلى ظاهر البلد، ورام نقل ماله، فتعذر ذلك عليه لزوال حكمه عن اصحابه واطراحهم أمره ونهيه، فأرسل إلى صلاح الدين يعرفه الحال، ويسأله مساعدته على ذلك فأمر له بالدوابّ والرجال، فنقل البعض، وسرق البعض، وانقضت الأيام الثلاث قبل الفراغ، فمنع من الباقي، وكانت أبراج المدينة مملوءة من أنواع الذخائر، فتركها بحالها؛ ولو أخرج البعض منها لحفظ البلد، وسائر نعمه وأمواله لكن إذا أراد الله أمراً هيّأ أسبابه، فلمّا تسلّمها صلاح الدين سلّمها لصاحب الحصن نور الدين، فقيل له قبل تسليمها إنّ هذه المدينة فيها من الذخائر ما يزيد على ألف ألف دينار فلو أخذت ذلك وأعطيته جندك وسلَّمت البلد إليه فارغاً لكان راضياً فإنّه لا يطمع في غيره، فامتنع من ذلك، وقال: ما كنت لأعطيه الأصل وأبخلُ بالفرع فلما تسلم نور الدين البلد اصطنع دعوة عظيمة، ودعا إليها صلاح الدين وأمراءه، ولم يكن دخل البلد، وقدَّم له ولأصحابه من التحف والهدايا أشياء كثيرة.

ذكر ملك صلاح الدين تل خالد وعينتاب من أعمال الشام

لما فرغ صلاح الدين من أمر آمد سار إلى الشام، وقصد تلَّ خالد، وهو أعمال حلب فحصرها، ورماها بالمنجنيق، فنزل أهلها، وطلبوا الأمان، فأمَّنهم وتسلمها في المحرّم أيضاً، ثمّ سار منها إلى عينتاب فحصرها وبها ناصر الدين محمد، وهو أخو الشيخ اسماعيل الذي كان خازن نور الدين محمود بن زنكي وصاحبه، وكان قد سلمها إليه نور الدين، فبقيت معه إلى الآن، فلما نازله صلاح الدين أرسل اليه يطلب أن يقر الحصن، بيده، وينزل إلى خدمته، ويكون تحت حكمه وطاعته، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك، وحلف له عليه، فنزل إليه وصار في خدمته، وكان ايضاً في المحرّم من هذه السنة.

ذكر وقعتين مع الفرنج في البحر والشام

في هذه السنة في العاشر من المحرَّم سار اسطول المسلمين من مصر في البحر، فلقوا بطسة فيها نحو ثلاثمائة من الفرنج بالسلاح التام، ومعهم الأموال والسلاح إلى فرنج الساحل، فقاتلوهم وصبر الفريقان، وكان الظفر للمسلمين، وأخذوا الفرنج أسرى،

فقتلوا بعضهم، وأبقوا بعضهم أسرى، وغنموا ما معهم، وعادوا الى مصر سالمين.

وفيها ايضا سارت عصابة كبيرة من الفرنج من نواحي الداروم إلى نـواحي مصر ليغيروا وينهبوا، فسمع بهم المسلمون فخرجوا إليهم على طريق صدر وأيلة، فانتزح الفرنج من بين أيديهم، فنزلوا بماء يقال له العسيلة، وسبقوا المسلمين إليه، فأتاهم المسلمون وهم عطاش قد أشرفوا على الهلاك، فرأوا الفرنج قد ملكوا الماء، فأنشأ الله سبحانه وتعالى بلطفه سحابة عظيمة، فمطروا منها حتى رووا، وكان الزمان قيظا، والحر شديد في بر مهلك، فلمّا رأوا ذلك قويت نفـوسهم، ووثقوا بنصـر الله لهم، وقاتلوا الفـرنج فنصـرهم الله عليهم، فقتلوهم، ولم يسلم منهم إلا الشريـد الفريـد، وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب، وعادوا منصورين قاهرين بفضل الله تعالى.

ذكر ملك صلاح الدين حلب

وفي هذه السنة سار صلاح الدين من عينتاب إلى حلب، فنزل عليها في المحرّم أيضا في الميدان الأخضر، وأقام به عدّة أيام ثمّ انتقل إلى جبل جوشن، فنزل بأعلاه، وأظهر أنه يريد أن يبني مساكن له ولأصحابه وعساكره، وأقام عليها أيّاما، والقتال بين العسكرين كل يوم، وكان صاحب حلب عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي، ومعه العسكر النوري، وهم مجدون في القتال، فلما رأى كثرة الخرج كأنه شحَّ بـالمال، فحضر يوماً عنده بعض أجناده، وطلبوا منه شيئاً فاعتذر بقلة المال عنده، فقال له بعضهم من يريد أن يحفظ مثل حلب يخرج الأموال، ولو باع حلى نسائه، فمال حينئـذ إلى تسليم حلب، وأخذ العوض منها، وأرسل مع الأمير طمّان الياروقي وكـان يميل إلى صلاح الدين أنه يسلم حلب ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج وجرت اليمين على ذلك، وباعها بأوكس الأثمان اعطى حصنا مثل حلب، وأخذ عوضها قرى ومزارع، فنزل عنها ثامن عشر صفر، وتسلمها صلاح الدين فعجب الناس كلهم من ذلك، وقبحوا ما أتى حتى إن بعض عامّة حلب أحضر إجانة وماء، وناداه أنت لا يصلح لك الملك، وإنما يصلح لك ان تغسل الثياب، وأسمعوه المكروه، واستقر ملك صلاح الدين بملكها، وكان مزلزلا فثبّت قدمه بتسليمها، وكان على شفا جرف هار، وإذا أراد الله أمرا فلا مردّ له، وسار عماد الدين إلى البلاد التي اعطيها فتسلمها، وأخذ

صلاح الدين حلب واستقر الحال بينهما أن عماد الدين يحضر في خدمة صلاح الدين بنفسه وعسكره إذا استدعاه لا يحتجُّ بحجة ،ومن الاتفاقات العجيبة أن محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق مدح صلاح الدين بقصيدة منها :

وفتحُكُم حَلَباً بالسيفِ في صَفَر مبشرٌ بفتوحِ القُدسِ في رَجَبِ

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة على ما نذكره إن شاء الله تعالى ومما كتبه القاضي الفاضل في المعنى عن صلاح الدين، فأعطيناه عن حلب كذا وكذا، وهو صرف على الحقيقة أعطيناه الدراهم، ونزلنا عن القرى، واحرزنا العواصم، وكتب ايضا اعطيناه ما لم يخرج عن اليد يعني أنه متى شاء أخذه لعدم حصانته، وكان في جملة من قتل على حلب تاج الملوك بوري، أخو صلاح الدين الأصغر، وكان فارساً شجاعاً كريماً حليماً جامعاً لخصال الخير، ومحاسن الأخلاق، طعن في ركبته فانفكت، فمات منها بعد ان استقر الصلح بين عماد الدين وصلاح الدين على تسليم حلب قبل أن يدخلها صلاح الدين، فلمّا استقرّ منه الصلح حضر صلاح الدين عند أخيه يعوده وقال له: هذه حلب قد أخذناها وهي لك. فقال: ذلك لو كان وأنا حيّ ووالله لقد أخذتها غالية حيث تفقد مثلي، فبكى صلاح الدين وأبكى، ولما خرج عماد الدين إلى صلاح الدين، وقد عمل له دعوة احتفل فيها، فبينما هم في سرور إذ جاء إنسان فأسرَّ إلى صلاح الدين بموت أخيه، فلم يظهر هلعاً، ولا جزعاً، وأمر بتجهيزه سراً، ولم يعلم عماد الدين ومن معه في الدعوة، واحتمل الحزن وحده لئلا يتنكد ما هم فيه وكان هذا من الصبر الجميل.

ذكر فتح صلاح الدين حارم

لما ملك صلاح الدين حلب كان بقلعة حارم، وهي من اعمال حلب بعض المماليك النورية، واسمه سرخك، وولاه عليها الملك الصالح عماد الدين، فامتنع من تسليمها إلى صلاح الدين، فراسله صلاح الدين في التسليم، وقال له اطلب من الإقطاع ما أردت، ووعده الإحسان، فاشتط في الطلب وتردَّدت الرسل بينهم، فراسل الفرنج ليحتمي بهم، فسمع من معه من الأجناد أنّه يراسل الفرنج، فخافوا أن يسلمها إليهم، فوثبوا عليه، وقبضوه، وحبسوه، وراسلوا صلاح الدين يطلبون منه الأمان

والإنعام، فأجابهم إلى ما طلبوا وسلَّموا إليه الحصن فرتَّب به دزدارا بعض خواصه، وأما باقي قلاع حلب، فإن صلاح الدين أقرّ عينتاب بيد صاحبها ـ كما تقدَّم ـ وأقطع تلّ خالد لأمير يقال له داروم الياروقي وهو صاحب تل باشر، وأمّا قلعة إعزاز فإن عماد الدين اسماعيل كان قد خرَّبها، فأقطعها صلاح الدين لأمير يقال له سليمان بن جندر، فعمرها، وأقام صلاح الدين بحلب إلى أن فرغ من تقرير قواعدها، وأحوالها، وديوانها، وأقطع أعمالها وأرسل منها، فجمع العساكر من جميع بلاده.

ذكر القبض على مجاهد الدين وما حصل من الضرر بذلك

في هذه السنة في جمادى الأولى قبض عز الدين مسعود، صاحب الموصل على نائبه مجاهد الدين قايماز، وكان اليه الحكم في جميع البلاد، واتبع في ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه، ولم ينظر في مضرَّة صاحبه، وكان الذي أشار بذلك عز الدين محمود زلفندار وشرف الدين أحمد بن أبي الخير الذي كان أبوه صاحب الغراف، وهما من أكابر الأمراء، فلمّا أراد القبض عليه لم يقدم على ذلك لقوة مجاهد الدين، فأظهر أنّه مريض وانقطع عن الركوب عدّة أيام فدخل إليه مجاهد الدين وحده وكان خصيّاً لا يمتنع من الدخول على النساء، فلمَّا دخل عليه قبض عليه وركب لوقته إلى القلعة، فاحتوى على الأموال التي لمجاهد الدين وخزائنه، وولى زلفندار قلعة الموصل بعد مجاهد الدين، وجعل ابن صاحب الغراف أمير حاجب، وحكَّمهما في دولته وكان تحت حكم مجاهد الدين حينئذ إربل وأعمالها ومعه فيها زين الدين علي وهو صبيّ صغير ليس له من الحكم شيء، والحكم والعسكر إلى مجاهد الدين، وتحت حكمه أيضاً جزيرة ابن عمر، وهي لمعزِّ الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود، وهو أيضاً صبيٌّ والحكم والنُّواب والعسكر لمجاهد الدين، وبيده أيضاً شهرزور، واعمالها ونوابه فيها، ودقوقا ونائبه فيها، وقلعة عقر الحميدية ونائبه فيها ولم يبق لعزّ الدين مسعود بعد أن أخذ صلاح الدين البلاد الجزيرية سوى الموصل، وقلعتها بيد مجاهد الدين وهو على الحقيقة الملك، واسمه عز الدين، فلما قبض عليه امتنع صاحب اربل من طاعة عز الدين واستبدّ وكذلك ايضا صاحب جزيرة ابن عمر، وأرسل الخليفة إلى دقوقا فحضرها، وأخذها ولم يحصل لعز الدين مسعود غير شهرزور، والعقر، وصارت إربل

والجزيرة أضرَّ شيء على صاحب الموصل، وأرسل صاحبها إلى صلاح الدين بالطاعة، له، والكون في خدمته، وكان الخليفة الناصر لدين الله قد أرسل صدر الـدين شيخ الشيوخ، ومعه بشير الخادم الخاص إلى صلاح الدين في الصلح مع عزّ الدين صاحب الموصل، وسيّر عز الدين معه القـاضي محيي الدين أبـا حامـد بن الشهرزوري في المعنى، فأجاب صلاح الدين إلى ذلك، وقال: ليس لكم مع الجزيرة وإربل حديث، فامتنع محيي الدين عن ذلك، وقال: هما لنا فلم يجب صلاح الدين إلى الصلح إلا بأن تكون إربل والجزيرة معه، فلم يتم أمره، وقوي طمع صلاح الدين في الموصل بقبض مجاهد الدين، فلمَّا رأى صاحب الموصل الضرر بقبض مجاهد الدين قبض على شرف الدين أحمد بن صاحب الغراف وزلفندار عقوبةً لهما، ثمَّ أخرج مجاهد الدين على ما نذكره إن شاء الله.

ذكر غزو بيسان

لما فرغ صلاح الدين من أمر حلب جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي، وهو صبيّ، وجعل معه الأمير سيف الدين يازكج، وكان اكبر الأمراء الأسدية، وسار إلى دمشق، وتجهَّز للغزو ومعه عساكر الشام، والجزيرة، وديار بكر وسار إلى بلد الفرنج، فعبر نهر الأردن تاسع جمادى الآخرة من السنة، فرأى أهل تلك النواحي قد فارقوها خوفاً، فقصد بيسان، فأحرقهـا وخرَّبها، وأغار على ما هناك، فاجتمع الفرنج، وجاؤوا إلى قبالته، فحين رأوا كثرة عساكره، لم يقدموا عليه، فأقام عليهم وقد استندوا إلى جبل هناك، وخندقوا عليهم، فأحاط بهم، وعساكر الإسلام تـرميهم بالسهـام، وتناوشهم القتال، فلم يخرجوا، وأقاموا كذلك خمسة أيام، وعاد المسلمون عنهم سابـع عشر الشهر لعل الفرنج يطمعون ويخرجون فيستدرجهونهم ليبلغوا منهم غرضا، فلما رأى الفرنج ذلك لم يطمعوا أنفسهم في غير السلامة، وأغار المسلمون على تلك الأعمال يميناً وشمالاً ووصلوا فيها الى ما لم يكونوا يطمعون في الوصول اليه، والإقدام عليه، فلما كثرت الغنائم معهم رأوا العود إلى بلادهم بما غنموا مع الظفر أولى، فعادوا إلى بلادهم على عزم الغزو.

ذكر غزو الكرك وملك العادل حلب

لما عاد صلاح الدين والمسلمون من غزوة بيسان تجهزوا لغزو الكرك، فسار اليه

في العساكر، وكتب إلى أخيه العادل أبي بكر بن أيوب، وهو نائبه بمصر يأمره بالخروج بجميع العساكر إلى الكرك، وكان العادل قد أرسل إلى صلاح الدين يطلب منه مدينة حلب وقلعتها، فأجابه إلى ذلك وأمره أن يخرج معه بأهله وماله، فوصل صلاح الدين الى الكرك في رجب ووفاه أخوه العادل في العسكر المصري، وكثر جمعه، وتمكن من حصره وصعد معه المسلمون إلى ربضه وملكه، وحصر الحصن من الربض وتحكّم عليه في القتال، ونصب عليه سبع منجنيقات لا تزال ترمي بالحجارة ليلاً ونهاراً، وكان صلاح الدين يظن ان الفرنج لا يمكنونه من حصر الكرك، وانهم يبذلون جهدهم في رده عنه فلم يستصحب معه من آلات الحصار ما يكفي لمثل ذلك الحصن العظيم والمعقل المنيع، فرحل عنه منتصب شعبان وسيّر تقيّ الدين ابن أخيه إلى مصر نائباً عنه ليتولى ما كان اخوه العادل يتولاه، واستصحب أخاه العادل معه إلى دمشق، وأعطاه مدينة حلب وقلعتها، وأعمالها، ومدينة منبج وما يتعلق بها وسيّره إليها في شهر رمضان من السنة، وأحضر ولده الظاهر منها الى دمشق.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة فُتِحَ الرباط الذي بنته أم الخليفة بالمأمونية.

وفيها في ذي الحجة توفي مكرم بن بختيال ابو الخير الزاهد ببغداد، روى الحديث، وكان كثير البكاء، وفي جمادى الآخرة توفي محمد بن بختيار بن عبد الله أبو عبد المولد الشاعر، ويعرف بالأبلة فمن جملة شعره:

أراقَ دمعي لا بلْ أراقَ دمي ... ظلماً بظلم من رِيقُهُ الشيَمُ
ذو قامةٍ كالقضيبِ ناضرةً ... وناظر من سُقَامِهِ سقمي
حصلتُ من وعْدِه على أصدق ... الوعْد ومن وصلِهِ على التهمِ

ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة

ذكر إطلاق مجاهد الدين من الحبس وانهزام العجم

في هذه السنة في المحرّم أطلق أتابك عزّ الدين، صاحب الموصل مجاهد الدين قايماز من الحبس بشفاعة شمس الدين البلهوان صاحب همذان وبلاد الجبل، وسيّره إلى البهلوان، وأخيه قزل يستنجدهما على صلاح الدين، فسار إلى قزل أولا، وهو صاحب أذربيجان، فلم يمكنه من المضي إلى البهلوان، وقال مهما تختاره أنا أفعله، وجهّز معه عسكراً كثيراً نحو ثلاثة آلاف فارس، وساروا نحو إربل ليحصروها، فلمّا قاربوها أفسدوا في البلاد، وخربوها ونهبوا، وسبوا، وأخذوا النساء قهراً، ولم يقدر مجاهد الدين على منعهم، فسار اليهم زين الدين يوسف صاحب إربل في عسكره، فلقيهم وهم متفرقون، في القرى ينهبون ويحرقون، فانتهز الفرصة فيهم بتفرقهم، وألقى بنفسه وعسكره على أوّل من لقيه منهم، فهزمهم ،وتمت الهزيمة على الجميع ،وغنم الأربليون أموالهم، ودوابهم، وسلاحهم، وعاد العجم إلى بلادهم، منهزمين، وعاد صاحب إربل إلى بلده مظفراً غانماً، وعاد مجاهد الدين إلى الموصل، فكان يحكي أنني ما زلت انتظر العقوبة من الله تعالى على سوء أفعال العجم، فإنني رأيت منهم ما لا كنت أظنّه يفعله مسلم بمسلم، وكنت أنهاهم فلا يسمعون حتى كان من الهزيمة ما كان.

ذكر وفاة يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه يعقوب

في هذه السنة، سار أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن إلى بلاد الأندلس، وجاز البحر إليها في جمع عظيم من عساكر المغرب، فإنه جمع وحشد الفارس والراجل، فلما عبر الخليج قصد غربي البلاد، فحصر مدينة شنترين، وهي للفرنج شهراً، فأصابه بها مرض، فمات منه في ربيع الأول، وحمل في تابوت إلى مدينة اشبيلية من الأندلس،

وكانت مدَّة ملكه اثنتين وعشرين سنة وشهرا، ومات عن غير وصيَّة بالملك لأحد من أولاده، فاتفق رأي قواد الموحدين، وأولاد عبد المؤمن على تمليك ولده، أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، فملكوه من الوقت الذي مات فيه أبوه، لئلا يكونوا بغير ملك يجمع كلمتهم لقربهم من العدوّ فقام في ذلك أحسن قيام، وأقام راية الجهاد، وأحسن السيرة في الناس، وكان ديّناً مقيماً للحدود في الخاص والعام فاستقامت له الدولة، وانقادت إليه بأسرها مع سعة أقطارها ورتَّب ثغور الأندلس، وشحنها بالرجال، ورتَّب المقاتلة في سائر بلادها، وأصلح أحوالها، وعاد إلى مراكش، وكان أبوه يوسف حسن السيرة، وكان طريقه ألين من طريق أبيه مع الناس يحب العلماء، ويقربهم، ويشاورهم! وهم أهل خدمته، وخاصته وأحبه الناس، ومالوا إليه، وأطاعه من البلاد ما امتنع على أبيه وسلك في جباية الأموال ما كان أبوه يأخذه، ولم يتعده إلى غيره، واستقامت له البلاد بحسن فعله مع اهلها، ولم يزل كذلك إلى أن توفّي رحمه الله تعالى.

ذكر غزو صلاح الدين الكرك

في هذه السنة في ربيع الآخر سار صلاح الدين من دمشق يريد الغزو، وجمع عساكره، فأتته من كل ناحية، وممن أتاه نور الدين محمد بن فرا أرسلان، صاحب الحصن، وكتب الى مصر ليحضر عسكرها عنده على الكرك، فنازل الكرك، وحصره، وضيّق على من به، وأمر بنصب المنجنيقات على ربضه، واشتد القتال فملك المسلمون الربض، وبقي الحصن وهو والربض على سطح جبل واحد، إلا ان بينهما خندقاً عظيماً عمقه نحو ستين ذراعاً، فأمر صلاح الدين بإلقاء الأحجار والتراب فيه ليطمَّه، فلم يقدر أحد على الدنو منه لكثرة الرمي عليهم بالسهام من الجرخ، والقوس، والأحجار من المنجنيقات، فأمر أن يبنى بالأخشاب واللبن ما يمكن الرجال يمشون تحت السقائف، ويلقون في الخندق ما يطمه، ومنجنيقات المسلمين مع ذلك ترمي الحصن ليلاً ونهاراً وأرسل من فيه من الفرنج إلى ملكهم وفرسانهم يستعدونهم، ويعرفونهم عجزهم وضعفهم عن حفظ الحصن، فاجتمعت الفرنج عن آخرها، وساروا إلى نجدتهم عجلين، فلمّا بلغ الخبر بمسيرهم إلى صلاح الدين رحل عن الكرك إلى طريقهم ليلقاهم، ويصافقهم ويعود بعد أن يهزمهم إلى الكرك، فقرب منهم وخيم

ونزل، ولم يمكنه الدنو منهم لخشونة الأرض، وصعوبة المسلك اليهم، وضيقه، فأقام أيّاما ينتظر خروجهم من ذلك المكان ليتمكن منهم، فلم يبرحوا منه خوفاً على نفوسهم، فلما رأى ذلك رحل عنهم عدة فراسخ وجعل بإزائهم من يعلمه بمسيرهم، فساروا ليلاً إلى الكرك، فلما علم صلاح الدين ذلك علم أنه لا يتمكن حينئذ ولا يبلغ غرضه، فسار الى مدينة نابلس، ونهب كل ما على طريقه من البلاد، فلمّا وصل الى نابلس أحرقها، وخربها وقتل فيها، وأسر وسبى، فأكثر وسار عنها إلى سبسطية، وبها مشهد زكريا عليه السلام، وبها كنيسة وبها جماعة أسرى من المسلمين، فاستنقذهم ورحل إلى جينين، فنهبها وخربها، وعاد إلى دمشق، ونهب ما على طريقه، وخربه وبث السرايا في طريقه يميناً وشمالاً يغنمون ويخربون ووصل إلى دمشق.

ذكر ملك الملثمين بجاية وعودها إلى أولاد عبد المؤمن

في هذه السنة في شعبان خرج علي بن اسحق المعروف بابن غانية، وهو من أعيان الملثمين الذين كانوا في المغرب ـ وهو حينئذ صاحب جزيرة ميورقة إلى بجاية، فملكها، وسبب ذلك أنّه لمّا سمع بوفاة يوسف بن عبد المؤمن عمر اسطوله، فكان عشرين قطعة وسار في جموعه، فأرسى في ساحل بجاية، وخرجت خيله ورجاله من الشواني، فكانوا نحو مائتي فارس من الملثمين وأربعة آلاف راجل، فدخل مدينة بجاية بغير قتال لأنه اتفق أنّ واليها سار عنها قبل ذلك بأيام إلى مراكش، ولم يترك فيها جيشاً ولا ممانعاً لعدم عدوٍّ يحفظها منه، فجاء الملثم، ولم يكن في حسابهم أنه يحدث نفسه بذلك، فأرسى بها ووافقه جماعة من بقايا دولة بني حماد، وصاروا معه، فكثر جمعه بهم، وقويت نفسه، فسمع خبره والي بجاية، فعاد من طريقه ومعه من الموحدين ثلاثمائة فارس، فجمع من العرب والقبائل الذين في تلك الجهات نحو ألف فارس، فسمع بهم، وبقربهم منه فخرج اليهم، وقد صار معه قدر ألف فارس، وتوافقوا ساعة فانضاف جميع الجموع التي كانت مع والي بجاية الى الملثم، فانهزم حينئذ والي بجاية، ومن معه من الموحدين، وساروا إلى مراكش، وعاد الملثم، فجمع جيشه، وخرج إلى أعمال بجاية، فأطاعه جميعها إلا قسطنطينية الهوى، فحصرها إلى أن جاء جيش من الموحدين من مراكش ـ في صفر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ـ إلى بجاية من البر والبحر، وكان بها يحيى وعبد الله أخو علي بن اسحاق الملثم، فخرجا منها

هاربين، ولحقا بأخيهما فرحل عن القسطنطينية وسار الى افريقية، وكان سبب إرسال الجيش من مراكش أن والي بجاية وصل الى يعقوب بن يوسف صاحب المغرب، وعرَّفه ما جرى ببجاية واستيلاء الملثمين عليها، وخوفه عاقبة التواني، فجهز العساكر في البر عشرين ألف فارس وجهز الأسطول في البحر في خلق كثير واستعادوها.

ذكر وفاة صاحب ماردين وملك ولده

في هذه السنة مات قطب الدين أيلغازي بن نجم الدين بن ألبي بن تمرتاش بن أيلغازي بن أرتق صاحب ماردين، وملك بعده ابنه حسام الدين بولق أرسلان، وهو طفل ـ وقام بتربيته، وتدبير مملكته نظام الدين البقش مملوك أبيه، وكان شاه أرمن صاحب خلاط خال قطب الدين، فحكم في دولته، وهو رتب البقش مع ولده، وكان البقش دينا خيراً عادلاً حسن السيرة سليما، فأحسن تربية الولد وتزوَّج أمَّه، فلما كبر الولد لم يمكنه النظام من مملكته لخبط وهوج كان فيه، وكان لنظام الدين هذا مملوك اسمه لؤلؤ قد تحكم في دولته،وحكم فيها، فكان يحمل النظام على ما يفعله مع الولد، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن مات الولد وله أخ اصغر منه لقبه طب الدين فرتبه النظام في الملك، وليس له منه إلا الاسم، والحكم إلى النظام ولؤلؤ، فبقي كذلك إلى سنة إحدى وستمائة، فمرض النظام البقش، فأتاه قطب الدين يعوده، فلما خرج من عنده خرج معه لؤلؤ، وضربه قطر الدين بسكين معه فقتله، ثم دخل إلى النظام، وبيده السكين، فقتله ايضا، وخرج وحده. ومعه غلام له وألقى الرأسين إلى الأجناد، وكانوا كلهم قد أنشأهم النظام ولؤلؤ، فأذعنوا له بالطاعة، فلمّا تمكن أخرج من أراد، وترك من أراد واستولى على قلعة ماردين وأعمالها، وقلعة البارعيّة، وصور وهو إلى الآن حاكم فيها، حازم في أفعاله.

ذكر عدة حوادث

وفي هذه السنة توفي صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحمن بن شيخ الشيوخ اسماعيل بن شيخ الشيوخ أبي سعيد احمد في شعبان، وكان قد سار في ديوان الخلافة رسولاً إلى صلاح الدين معه شهاب الدين بشير الخادم في معنى الصلح بينه وبين عزّ الدين صاحب الموصل، فوصل دمشق، وصلاح الدين يحصر الكرك، فأقام إلى أن عادَ

فلم يستقر في الصلح أمر ومرضا، وطلبا العودة إلى العراق، فأشار عليهما صلاح الدين بالمقام إلى أن يصطلحا، فلم يفعلا، وسارا في الحر، فمات بشير بالسخنة، ومات صدر الدين بالرحبة، ودفن بمشهد البوق، وكان واحد زمانه قد جمع بين رياسة الدين، والدنيا، وكان ملجأ لكل خائف، صالحا، كريما، حليما، وله مناقب كثيرة، ولم يستعمل في مرضه هذا دواء توكلا على الله تعالى.

وفيها توفّي عبد اللطيف بن محمّد بن عبد اللطيف الخجندي الفقيه الشافعي رئيس اصفهان، وكان موته بباب همذان، وقد عاد من الحج وله شعر فمنه:

بالحمى دارٌ ساقها مدمعي ... يا سقَى اللهُ الحمى من مربعِ
ليتَ شِعري والأمانيُّ ضلّة ... هل إلى وادي الغضى من مرجعِ
أَذنَتْ علوة للواشي بنا ... ما على علوةٍ لو لم تسمعِ
أو تحرَّت رشداً فيما وشى ... أو عَفَتْ عني فما قَلبي معي

رحمه الله ورضي عنه وأرضاه.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وخمسمائة

ذكر حصر صلاح الدين الموصل
ورحيله عنها لوفاة شاه ارمن

في هذه السنة حصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الموصل مرة ثانية، وكان مسيره من دمشق في ذي القعدة من السنة الماضية، فوصل إلى حلب، وأقام بها إلى أن خرجت السنة، وسار منها، فعبر إلى أرض الجزيرة، فلمّا وصل حرّان قبض على مظفّر الدين كوكبري بن زين الدين الذي كان سبب ملكه الديار الجزرية، وسبب قبضه عليه أنّ مظفّر الدين كان يراسل صلاح الدين كل وقت، ويشير عليه بقصد الموصل، ويحسن له ذلك، ويقوي طمعه حتى انه بذل له إذا سار إليها خمسين ألف دينار، فلما وصل صلاح الدين إلى حرّان لم يفِ له بما بذل من المال، وأنكر ذلك، فقبض عليه، ووكّل به، ثمَّ أطلقه، وأعاد إليه مدينتي حرّان والرها، وكان قد أخذها منه، وإنما أطلقه لأنه خاف انحراف الناس عنه بالبلاد الجزرية لأنّهم كلهّم علموا بما اعتمده مظفّر الدين معه من تمليك البلاد، فأطلقه وسار صلاح الدين عن حرّان في ربيع الأول، فحضر عنده عساكر الحصن، ودارا ومعزّ الدين سنجرشاه صاحب الجزيرة وهو ابن أخي عزّ الدين صاحب الموصل، وكان قد فارق طاعة عمّه بعد قبض مجاهد الدين، وسار مع صلاح الدين إلى الموصل، فلما وصلوا إلى مدينة بلد سيّر أتابك عزّ الدين والدته إلى صلاح الدين، ومعها ابنة عمّه نور الدين محمود بن زنكي، وغيرهما من النّساء، وجماعة من أعيان الدولة يطلبون منه المصالحة، وبذلوا له الموافقة والأنجاد بالعساكر ليعود عنهم، وإنما أرسلهن لأنه وكلٌّ من عنده ظنّوا أنَّهنَّ إذا طلبن منه الشام أجابهن إلى ذلك لا سيما ومعهم ابنة مخدومه، وولي نعمته نور الدين، فلما وصلنَ إليه أنزلهنَّ وأحضر اصحابه، واستشارهم فيما يفعله ويقوله، فأشار أكثرهم بإجابتهنَ إلى ما طلبن منه.

وقال له الفقيه عيسى وعلي بن أحمد المشطوب؛ وهما من بلد الهكارية من أعمال

الموصل، مثل الموصل لا يترك لامرأة؛ فإنّ عز الدين ما أرسلهن إلا وقد عجز عن حفظ البلد، ووافق ذلك هواه، فأعادهنَّ خائبات واعتذر بأعذار غير مقبولة، ولم يكن إرسالهم عن ضعف ووهن إنما أرسلهن طلباً لدفع الشر بالتي هي أحسن، فلمّا عدن رحل صلاح الدين إلى الموصل، وهو كالمتيقن أنّه يملك البلد، وكان الأمر بخلاف ذلك، فلما قارب البلد نزل على فرسخين منه، وامتدّ عسكره في تلك الصحراء بنواحي الحلّة المراقيّة وكان يجري بين العسكر مناوشات بظاهر الباب العمادي، وكنت إذ ذاك بالموصل، وبذل العامّة نفوسهم غيظاً وحنقاً لردّه النساء، فرأى صلاح الدين ما لم يكن يحسبه، فندم على رده النساء ندامة الكسعي حيث فاته الذكر وملك البلد، وعاد على الذين أشاروا بردهن باللوم والتوبيخ، وجاءته كتب القاضي الفاضل وغيره ممن ليس له هوى في الموصل يقبحون فعله، وينكرونه، وأتاه وهو على الموصل زين الدين يوسف ابن زين الدين صاحب إربل، فأنزله ومعه أخوه مظفّر كوكبري، وغيرهما من الأمراء بالجانب الشرقي من الموصل، وسيّر من المنزلة علي بن أحمد المشطوب الهكّاري إلى قلعة الجزيرة من بلد الهكّاريّة، فحصرها، واجتمع عليه من الأكراد والهكارية كثير، وبقي هناك إلى أن رحل صلاح الدين عن الموصل، وكان عامّة الموصل يعبرون دجلة فيقاتلون من الجانب الشرقي من العسكر، ويعودون؛ ولما كان صلاح الدين يحاصر الموصل بلغ اتابك عز الدين صاحبها أن نائبه بالقلعة يكاتبه، فمنعه من الصعود إلى القلعة، وعاد يقتدي برأي مجاهد الدين، وكان قد أخرجه كما ذكرناه ، ويصدر عن رأيه وضبط الأمور، وأصلح ما كان فسد من الأحوال حتى آل الأمر إلى الصلح على ما نذكره إن شاء الله. وحضر عند صلاح الدين إنسان بغدادي أقام بالموصل ثم خرج إلى صلاح الدين ، فأشار عليه بقطع دجلة عن الموصل إلى ناحية نينوى، وقال: إن دجلة إذا نقلت عن الموصل عطش أهلُها، فملكناها بغير قتال ، فظن صلاح الدين ان قوله صدق، فعزم على ذلك حتى علم أنه لا يمكن قطعه بالكلّية، فإنّ المدّة تطول والتعب يكثر ولا فائدة وراءه، وقبحه عنده أصحابه فأعرض عنه، وأقام بمكانه من أول ربيع الآخرة إلى أن قارب آخره، ثم رحل عنها إلى ميافارقين.

وكان سبب ذلك أن شاه أرمن صاحب خلاط، توفي بها تاسع ربيع الآخر ، فوصل الخبر بوفاته في العشرين منه، فعزم على الرحيل إليها وتملكها حيث إنّ شاه أرمن لم يخلف ولداً ولا أحداً من أهل بيته يملك بلاده بعده، وإنما قد استولى عليها

مملوك اسمه بكتمر، ولقبه سيف الدين فاستشار صلاح الدين أمراءه ووزراءه، فاختلفوا، فأما من هواه بالموصل، فيشير بالمقام وملازمة الحصار لها، وأما من يكره أذى البيت الأتابكي، فإنه أشار بالرحيل، وقال: إن ولاية خلاّط أكبر، وأعظم، وهي سائبة لا حافظ لها، وهذه لها سلطان يحفظها، ويذب عنها، وإذا ملكنا تلك سهل أمر هذه وغيرها، فتردّد في أمره، فاتّفق أنه جاءه كتب جماعة من أعيان خلاط من أهلها، وأمرائها يستدعونه ليسلّموا اليه البلد، فسار عن الموصل، وكانت مكاتبة من كابه خديعة ومكراً، فإن شمس الدين البهلوان بن ايلدكز صاحب أذربيجان، وهمذان، وتلك المملكة قد قصدهم ليأخذ البلاد منهم(وكان قبل ذلك قد زوَّج شاه أرمن على كبر سنّه بنتاً له ليجعل ذلك طريقاً إلى ملك خلّاط وأعمالها، فلما بلغهم مسيره إليهم كاتبوا صلاح الدين يستدعونه اليهم ليسلموا البلد اليه ليدفعوا به البهلوان، ويدفعوه بالبهلوان، وتبقى البلد بأيديهم، فسار صلاح الدين، وسيّر في مقدّمته ابن عمه ناصر الدين محمد ابن شيركوه، ومظفّر الدين بن زين الدين وغيرهما، فساروا إلى خلاط، ونزلوا بطوانة بالقرب من خلاط، وسار صلاح الدين إلى ميافارقين، وأمّا البهلوان، فإنه سار إلى خلاط، ونزل قريباً منها، وتردّدت رسل أهل خلاط بينهم، وبينه وبين صلاح الدين، ثم انهم اصلحوا أمرهم مع البهلوان، وصاروا من حزبه وخطبوا له.

ذكر وفاة نور الدين صاحب الحصن

في هذه السنة توفي نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن وآمد لما كان صلاح الدين على الموصل، وخلّف ابنين، فملك الأكبر منهما، واسمه سقمان، ولقبه قطب الدين، وتولى تدبير الأمور وزيره القوّام بن سماقا الأسعردي، وكان عماد الدين بن قرا أرسلان قد سيَّره أخوه نور الدين في عساكره، إلى صلاح الدين، وهو يحاصر الموصل، وهو معه، فلمّا بلغه خبر وفاة أخيه سار ليملك البلاد بعده لصغر أولاده فتعذّر عليه ذلك، فسار إلى خرت برت، فلمكها وهي بيد أولاده إلى سنة عشرين وستمائة، ولمّا حضر صلاح الدين ميافارقين حضر عنده ولد نور الدين، فأقره على ملك أبيه، ومن جملته آمد، وكانوا خافوا أن يأخذها منهم، فلم يفعل وردهم إلى بلادهم، وشرط عليهم أن يراجعوه فيما يفعلونه، ويصدرون عن أمره ونهيه، ورتّب معه أميراً لقبه صلاح الدين من أصحاب أبيه.

ذكر ملك صلاح الدين ميافارقين

لما سار صلاح الدين إلى خَلاّط جعل طريقه على ميافارقين مطمع ملكها حيث كان صاحبه قطب الدين صاحب ماردين[١] قد توفي ـ كما ذكرنا ـ وملك بعده ابنه وهو طفل، وكان حكمها إلى شاه أرمن وعسكره فيها، فلمّا توفّي طمع في أخذها، فلما نازلها رآها مشحونة بالرجال، وبها زوجة قطب الدين المتوفّى، ومعها بنات لها منه، وهي أخت نور الدين محمد صاحب الحصن، فأقام صلاح الدين عليها يحصرها من أول جمادى الأولى، وكان المقدم على أجنادها أمير اسمه يرنقش ولقبه أسد الدين، وكان شجاعاً شهماً يحفظ البلد، فأحسن إليه واشتد القتال عليه، ونصب المنجنيقات والعرادات، فلم يصل صلاح الدين إلى ما يريد منها، فلمّا رأى ذلك عدل من القوّة والحرب إلى إعمال الحيلة، فراسل امرأة قطب الدين المقيمة بالبلد يقول لها: إنّ أسد الدين يرنقش قد مال إلينا في تسليم البلد، ونحن نرعى حقَّ أخيك نور الدين فيك بعد وفاته، ونريد أن يكون لك في هذا الأمر نصيب، وأنا أزوج بناتك لأولادي، وتكون ميافارقين وغيرها لك وبحكمك، ووضع من أرسل إلى الأسد يعرفه أنّ الخاتون قد مالت للمقاربة، والانقياد إلى السلطان، وأنّ من بخلاط قد كاتبوه ليسلّموا إليه، فخذ لنفسك، واتفق أن رسولاً وصله من خلاط يبذلون له الطاعة،وقالوا له من الاستدعاء إليهم ما كانوا يقولونه، فأمر صلاح الدين الرسول، فدخل إلى ميافارقين، وقال للأسد أنت عمّن تقاتل، وأنا قد جئت في تسليم خلاط إلى صلاح الدين، فسقط في يده، وضعفت قوته، وأرسل يقترح أقطاعاً، ومالاً، فأجيب إلى ذلك وسلم البلد جمادى الأولى، وعقد النكاح لبعض أولاده على بعض بنات خاتون، وأقرّ بيدها قلعة هناخ لتكون فيها هي وبناتها.

ذكر عود صلاح الدين إلى بلد الموصل والصلح بينه وبين أتابك عز الدين

لمّا فرغ صلاح الدين من أمر ميافارقين، وأحكم قواعدها، وقرَّر اقطاعاتها وولاياتها أجمع على العود إلى الموصل، فسار نحوها، وجعل طريقه على نصيبين، فوصل إلى كفر زمار، والزّمان شتاء، فنزلها في عساكره، وعزم على المقام بها، وإقطاع جميع بلاد الموصل، وأخذ غلاتها، ودخْلِهَا، وإضعاف الموصل بذلك إذ علم أنه لا يمكنه التغلُّب

---

(١) ماردين: بكسر الراء والدال، قلعة مشهورة على قمّة جبل الجزيرة دُنَيسر ودارا ونصيبين.

عليها، وكان نزوله في شعبان، وأقام بها شعبان ورمضان، وتردّدت الرسل بينه وبين عز الدين صاحب الموصل، وصار مجاهد الدين يراسل، ويتقرب، وكان قولُه مقبولاً عند سائر الملوك لما علموا من صحته، فبينما الرسل تتردّد في الصلح إذ مرض صلاح الدين، وسار مع كفر زمار، وعاد إلى حرّان، فلحقه الرسل بالاجابة الى ما طلب، فتقرّر الصلح، وحلف على ذلك، وكانت القاعدة أن يسلّم إليه عز الدين شهرزور وأعمالها، وولاية القرابلي، وجميع ما وراء الزاب من أعمال، وأن يخطب له على منابر بلاده، ويضرب اسمه على السكة، فلمّا حلف أرسل رسله، فحلف عز الدين له، وتسلّم البلاد التي استقرّت القاعدة على تسليمها، ووصل صلاح الدين إلى حرّان، فأقام بها مريضا وأمنت الدنيا، وسكنت الدهماء، وانحسمت مادة الفتن، وكان ذلك بتوصّل مجاهد الدين قايماز رحمه الله، وأمّا صلاح الدين، فإنه طال مرضه بحران، وكان عنده من أهله أخوه الملك العادل، وله حينئذ حلب،وولده الملك العزيز عثمان، واشتد مرضه حتى أيسوا من عافيته، فحلف الناس لأولاده، وجعل لكلٍّ منهم شيئاً من البلاد معلوماً، وجعل أخاه العادل وصيّاً على الجميع، ثم إنه عوفي، وعاد إلى دمشق في المحرّم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، ولمّا كان مريضاً بحران كان عنده ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه، وله من الأقطاع حمص والرحبة، فسار من عنده إلى حمص، فاجتاز بحلب، واحضر جماعة من الدمشقيين وواعدهم على تسليم البلد إليه إذا مات صلاح الدين، وأقام بحمص ينتظر موته ليسير إلى دمشق فيملكها فعوفي، وبلغه الخبر على جهته، فلم يمض غير قليل حتى مات ابن شيركوه ليلة عيد الأضى، فإنه شرب الخمر وأكثر منه، فأصبح ميتاً، فذكروا والعهدة عليهم أن صلاح الدين وضع إنساناً يقال له الناصح بن العميد وهو من دمشق، فحضر عنده ونادمه، وسقاه سماً فلما اصبحوا من الغد لم يروا الناصح، فسألوا عنه، فقيل إنه سار من ليلته إلى صلاح الدين، فكان هذا مما قوى الظنّ، فلما توفي أعطى أقطاعه لولده شيركوه، وعمره اثنتا عشرة سنة، وخلف ناصر الدين من الأموال والخيل والآلات شيئاً كثيراً، فحضر صلاح الدين في حمص، واستعرض تركته وأخذ أكثرها، ولم يترك إلا ما لا خير فيه، وبلغني أن شيركوه بن ناصر الدين حضر عند صلاح الدين بعد موت أبيه بسنة، فقال له: إلى أين بلغت من القرآن؟ فقال: إلى قوله تعالى ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾ فعجب صلاح الدين والحاضرون من ذكائه.

ذكر الفتنة بين التركمان والأكراد بديار الجزيرة والموصل

في هذه السنة ابتدأت الفتنة بين التركمان والأكراد بديار الجزيرة والموصل، وديار بكر وخلّاط والشام وشهرزور وأذربيجان، وقتل فيها من الخلق ما لا يحصى، ودامت عدّة سنين وتقطّعت الطرق ونهبت الأموال، وأريقت الدماء، وكان سببها أنَّ امرأة من التركمان تزوّجت بإنسان تركماني، واجتازوا في طريقهم بقلعة من الزوزان الأكراد، فجاد أهلها، وطلبوا من التركمان وليمة العرس، فامتنعوا من ذلك، وجرى بينهم كلام صاروا منه إلى القتال، فنزل صاحب تلك القلعة، فأخذ الزوج فقتله، فهاجت الفتنة، وقام التركمان على ساق، وقتلوا جمعاً كثيراً من الأكراد، وثار الأكراد فقتلوا من التركمان أيضاً كذلك، وتفاقم الشرّ ودام، ثم إنَّ مجاهد الدين قايماز رحمه الله جمع عنده جمعاً من رؤساء الأكراد والتركمان، وأصلح بينهم، وأعطاهم الخلع والثياب وغيرها، وأخرج عليهم مالاً جمّاً فانقطعت الفتنة، وكفى الله شرها وعادوا إلى ما كانوا عليه من الطمأنينة والأمان.

ذكر ملك الملثمين والعرب إفريقية وعودها إلى الموحدين

قد ذكرنا سنة ثمانين ملك علي بن اسحق الملثم بجاية، وإرسال يعقوب بن يوسف ابن عبد المؤمن العساكر واستعادتها، فسار إلى افريقية، فلمّا وصل إليها اجتمع سليم ورياح ومن هناك من العرب، وانضاف إليهم الترك الذين كانوا قد دخلوا من مصر مع شرف الدين قراقوش، وقد تقدَّم ذكر وصوله إليها، ودخل أيضاً من أتراك مصر مملوك لتقي الدين ابن أخي صلاح الدين اسمه بوزابه، فكثر جمعهم، وقويت شوكتهم، فلما اجتمعوا بلغت عدَّتهم مبلغاً كثيراً، وكلّهم كاره لدولة الموحدين، واتبعوا جميعهم علي ابن أسحق الملثم لأنه من بيت المملكة والرياسة القديمة، وانقادوا إليه ولقبوه بأمير المسلمين، وقصدوا بلاد إفريقية، فملكوها جميعها شرقاً وغرباً إلا مدينتين: تونس والمهدية، فإن الموحدين أقاموا بها، وحفظوها على خوف وضيق وشدّة، وانضاف إلى المفسد الملثّم كلُّ مفسد في تلك الأرض، ومن يريد الفتنة والنهب والفساد والشر، فخرّبوا البلاد والحصون والقرى، وهتكوا الحرم، وقطعوا الأشجار، وكان الوالي على إفريقية حينئذ عبد الواحد بن عبد الله الهنتاتي، وهو بمدينة تونس، فأرسل إلى ملك

المغرب يعقوب وهو بمراكش يعلمه الحال.

وقصد الملثم جزيرة باشرا وهي بقرب تونس تشتمل على قرى كثيرة، فنازلها وأحاط بها، فطلب اهلها منه الأمان فأمّنهم، فلما دخلها العسكر نهبوا جميع ما فيها من الأموال والدواب والغلات، وسلبوا الناس حتى ثيابهم، وامتدت الأيدي إلى النساء والصبيان، وتركوهم هلكي، فقصدوا مدينة تونس، فأمّا الأقوياء، فكانوا يخدمون ويعملون ما يقوم بقوتهم، وأمّا الضعفاء، فكانوا يستعطون ويسألون الناس، ودخل عليهم فصل الشتاء، فأهلكهم البرد، ووقع فيهم الوباء، فأحصي الموتى منهم، فكانوا اثني عشر ألفاً هذا من وضع واحد، فما الظنُّ بالباقي، ولمّا استولى الملثم على إفريقية قطع خطبة أولاد عبد المؤمن، وخطب للإمام الناصر لدين الله الخليفة العباسي، وأرسل إليه يطلب الخلع والأعلام السود، وقصد في سنة اثنتين وثمانين مدينة قفصة فحصرها، فأخرج أهلها الموحدين من عساكر ولد عبد المؤمن، وسلموها إلى الملثم، فرتّب فيها جندا من الملثمين والأتراك، وحصنها بالرجال مع حصانتها في البناء، وأمّا يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فإنّه لما وصله الخبر اختار من عساكره عشرين ألف فارس من الموحدين، وقصد قلة العسكر لقلّة القوت في البلاد، ولما جرى فيها من التخريب والأذى، وسار في صفر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، فوصل إلى مدينة تونس، وأرسل ستة آلاف فارس مع ابن أخيه، فساروا إلى علي بن اسحق الملثم ليقاتلوه، وكان بِقَفْصَة[1] فوافوه، وكان مع الموحدين جماعة من الترك، فخامروا عليهم، فانهزم الموحدون، وقتل جماعة من مقدميهم، وكان ذلك في ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين فلمّا بلغ يعقوب الخبر أقام بمدينة تونس إلى نصف رجب من السنة، ثم خرج فيمن معه من العساكر يطلب الملثّم والأتراك، فوصل إليهم، فالتقوا بالقرب من مدينة قابس، واقتتلوا، فانهزم الملثم ومن معه، فأكثر الموحدون القتل حتى كادوا يفنونهم، فلم ينج منهم إلا القليل، فقصدوا البر، ورجع يعقوب من يومه إلى قابس ففتحها، وأخذ منها أهل قراقوش وأولاده، وحملهم إلى مراكش، وتوجه إلى مدينة قفصة، فحصرها ثلاثة أشهر، وقطع أشجارها وخرب ما حولها، فأرسل إليه الترك الذين فيها يطلبون الأمان لأنفسهم، ولأهل البلد، فأجابهم إلى ذلك، وخرج الأتراك منها سالمين، وسيّر الأتراك

---

(١) قفصة: بلدة صغيرة في طرف افريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام.

إلى الثغور لما رأى من شجاعتهم ونكايتهم في العدو، وتسلم يعقوب البلد، وقتل من فيه من الملثمين، وهدم أسواره، وترك المدينة مثل قرية، وظهر ما أنذر به المهدي بن تومرت، فإنه قال إنّها تخرب أسوارها، وتقطع أشجارها، وقد تقدَّم ذكر ذلك، فلما فرغ يعقوب من أمر قفصة، واستقامت افريقية عاد إلى مراكش، وكان وصوله إليها سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة فارق الرضى أبو الخير اسماعيل القزويني الفقيه الشافعي بغداد، وكان مدرس النظامية بها وعاد إلى قزوين، ودرَّس فيها بعده الشيخ أبو طالب المبارك صاحب ابن الخل، وكان من العلماء الصالحين.

وفيها كان بين أهل الكرخ ببغداد، وبين أهل باب البصرة فتنة عظيمة جرح فيها كثير منهم، وقتل، ثم أصلح النقيب الظاهر بينهم.

وفيها توفّي الفقيه مهذب الدين عبد الله بن أسعد الموصلي، وكان عالما بمذهب الشافعي وله نظم ونثر أجاد فيه، وكان من محاسن الدنيا وكانت وفاته بحمص.

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة

ذكر نقل العادل من حلب والملك العزيز إلى مصر وإخراج الأفضل من مصر إلى دمشق وإقطاعه إياها

في هذه السنة أخرج صلاح الدين ولده الأفضل عليّ من مصر إلى دمشق، وأقطعها له، وأخذ حلب من أخيه العادل وسيّره مع ولده العزيز عثمان إلى مصر، وجعله نائباً عنه، واستدعى تقيَّ الدين منها، وسببُ ذلك أنّه كان قد استناب تقيّ الدين بمصر ـ كما ذكرناه ـ وجعل معه ولده الأكبر الأفضل علي، فأرسل تقيّ الدين يشكو من الأفضل، ويذكر أنّه قد عجز عن جباية الخراج معه لأنه كان حليماً كريماً إذا أراد تقيّ الدين معاقبة أحد منعه، فأحضر ولده الأفضل، وقال لتقي الدين لا تحتج في الخراج وغيره بحجة، وتغير عليه بذلك، وظنَّ أنَّه يريد إخراج ولده الأفضل ينفرد بمصر حتى يملكها إذا مات صلاح الدين، فلما قوي هذا الخاطر عنده أحضر أخاه العادل من حلب، سيّره إلى مصر ومعه ولده العزيز عثمان، واستدعى تقي الدين إلى الشام، فامتنع من الحضور، وجمع الأجناد والعساكر ليسير إلى المغرب إلى مملوكه قراقوش، وكان قد استولى على جبال نفوسة، وبرقة وغيرها، وقد كتب إليه برغبة في تلك البلاد، فتجهَّز للسفر إليه، واستحصب معه أنجاد العسكر، وأكثر منهم، فلمّا سمع ذلك صلاح الدين ساءه، وعلم أنه إن أرسل إليه يمنعه لم يجبه، فأرسل إليه يقول له: أريد أن تحضر عندي لأودِّعك وأوصيك بما تفعله، فلما حضر عنده منعه وزاد في أقطاعه، فصار إقطاعه حماة، ومنبج والمعرة وكفر طاب وميافارقين وجبل جور بجميع أعمالها، وكان تقي الدين قد سيَّر في مقدمته مملوكه بوزابة، فاتصل بقراقوش، وكان منهم ما ذكرناه سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وقد بلغني من خبير بأحوال صلاح الدين أنه إنما حمله على أخذ حلب من

العادل، وإعادة تقي الدين إلى الشام أن صلاح الدين لما مرض بحرّان ـ على ما ذكرناه ـ أرجف بمصر أنه قد مات، فجرى من تقي الدين حركات من يريد أن يستبدل بالملك، فلما عوفي صلاح الدين بلغهُ ذلك، فأرسل الفقيه عيسى الهكاري، وكان كبير القدر عنده مطاعا في الجند إلى مصر، وأمره بإخراج تقي الدين، والمقام بمصر، فسار مُجِدّاً فلم يشعر تقي الدين إلا وقد دخل الفقيه عيسى إلى داره بالقاهرة، وأرسل إليه يأمره الخروج منها، فطلب أن يمهل إلى أن يتجهز، فلم يفعل، وقال: تقيم خارج المدينة، وتتجهز فخرج، وأظهر أنه يريد الدخول إلى الغرب، فقال له: اذهب حيث شئت، فلما سمع صلاح الدين الخبر أرسل إليه يطلبه، فسار إلى الشام، فأحسن إليه ولم يظهر له شيئاً مما كان لأنه كان حليماً كريماً صبوراً رحمه الله.

وأمّا أخذ حلب من العادل، فإن السبب فيه أنه كان من جملة جندها أمير كبير اسمه سليمان بن جندر بينه وبين صلاح الدين صحبة قديمة قبل الملك، وكان صلاح الدين يعتمد عليه، وكان عاقلاً ذا مكر ودهاء، فاتفق أن الملك العادل لما كان بحلب لم يفعل معه ما كان يظنّه وقدَّم غيره عليه، فتأثر بذلك، فلما مرض صلاح الدين وعوفي سار إلى الشام، فسايره يوماً سليمان بن جندر، فجرى حديث مرضه، فقال له سليمان بأي رأي كنت تظن أنك تمضي إلى الصيد، فلا يخالفونك بالله ما تستحي يكون الطائر أهدى منك إلى المصلحة، قال: وكيف ذلك؟ وهو يضحك. قال: إذا أراد الطائر ان يعمل عشاً لفراخه قصد أعالي الشجرة ليحمي فراخه، وأنت سلَّمت الحصون إلى أهلك، وجعلت أولادك على الأرض، هذه حلب بيد أخيك، وحماة بيد تقي الدين، وحمص بيد ابن شيركوه، وابنك العزيز مع تقي الدين بمصر يخرجه أي وقت أراد، وهذا ابنك الآخر مع أخيك في خيمة يفعل به ما أراد، فقال له صدقت، واكتم هذا الأمر، ثم أخذ حلب من أخيه، وأخرج تقي الدين من مصر، ثم أعطى أخاه العادل حرّان والرها وميافارقين ليخرجه من الشام ومصر لتبقى لأولاده، فلم ينفعه ما فعل لما أراد الله تعالى نقل الملك عن أولاده على ما نذكره.

ذكر وفاة البهلوان وملك أخيه قزل

في هذه السنة في أولها توفّي البهلوان محمد بن ايدلكز صاحب بلد الجبل والريّ وأصفهان وأذربيجان وأرانية وغيرها من البلاد، وكان عادلاً حسن السيرة عاقلاً حليماً ذا

سياسة حسنة للملك، وكانت تلك البلاد في أيامه آمنة، والرعايا مطمئنة، فلما مات جرى بأصفهان بين الشافعيّة والحنفيّة من الحروب، والقتل، والإحراق، والنهب ما يجل عن الوصف، وكان قاضي البلد رأس الحنفية، وابن الخجندي رأس الشافعية، وكان بمدينة الري أيضا فتنة عظيمة بين السنية والشيعة، وتفرق أهلها، وقتل منهم، وخربت المدينة وغيرها من البلاد! ولما مات البهلوان ملك أخوه ارسلان، واسمه عثمان، وكان السلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه مع البهلوان، والخطبة له في البلاد بالسلطنة، وليس له من الأمر شيء، وإنما البلاد والأمراء والأموال بحكم البهلوان، فلما مات البهلوان خرج طغرل عن حكم قزل، ولحق به جماعة من الأمراء والجند، فاستولى على بعض البلاد، وجرت بينه وبين قزل حروب نذكرها إن شاء الله تعالى.

ذكر اختلاف الفرنج بالشام وانحياز القمص صاحب طرابلس إلى صلاح الدين

كان القمّص صاحب طرابلس، واسمه ريمند بن ريمند الصنجيلي قد تزوج بالقومصة صاحبة طبرية، وانتقل إليها، وأقام عندها بطبرية، ومات ملك الفرنج بالشام، وكان مجذوما، وأوصى بالملك إلى ابن اخت له، وكان صغيراً، فكفله القمص، وقام بسياسة الملك وتدبيره، لأنه لم يكن للفرنج ذلك الوقت أكبر منه شأناً، ولا أشجع، ولا أجود رأياً منه، فطمع في الملك بسبب هذا الصغير، فاتفق أن الصغير توفي فانتقل الملك إلى أمه، فبطل ما كان القمص يحدث نفسه به، ثم إن هذه الملكة هويت رجلاً من الفرنج الذين قدموا الشام اسمه كي، فتزوجته، ونقلت الملك اليه، وجعل التاج على رأسه، واحضرت البطرك والقسوس والرهبان والاسبتارية والدوابة والبارونية، واعلمتهم انها قد ردّت الملك إليه، وأشهدتهم عليها بذلك، فأطاعوه، ودانوا له فعظم ذلك على القمص، وسقط في يديه وطولب بحساب ما جُبِيَ من الأموال مدَّة ولاية الصبي، فادّعى أنَّه أنفقه عليه، وزاده ذلك نفوراً، وجاهر بالمشاققة والمباينة، وراسل صلاح الدين، وانتمى إليه، واعتضد به، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج، ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك، ووعده النصرة والسعي له في كل ما يريد، وضمن له أنه يجعله ملكاً مستقلاً للفرنج قاطبة، وكان عنده جماعة من فرسان

القمص، فأطلقهم، فحلَّ ذلك عنده أعظم محل، وأظهر طاعة صلاح الدين، ووافقه على ما فعل جماعة من الفرنج، فاختلفت كلمتهم، وتفرّق شملهم، وكان ذلك من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم، واستنقاذ البيت المقدس منهم على ما نذكره إن شاء الله، وسيَّر صلاح الدين السرايا من ناحية طبريَّة فشنت الغارات على بلاد الفرنج، وخرجت سالمة غانمة، فوهن الفرنج بذلك، وضعفوا وتجرأ المسلمون عليهم، وطمعوا فيهم.

ذكر غدر البرنس أرناط

كان البرنس أرناط صاحب الكرك من اعظم الفرنج، وأخبثهم، وأشدّهم عداوة للمسلمين، وأعظمهم ضرراً عليهم، فلما رأى صلاح الدين ذلك منه قصده بالحصر مرّة بعد مرّة، وبالغارة على بلاده كرّة بعد أخرى، فذلَّ وخضع، وطلب الصلح من صلاح الدين، فأجابه الى ذلك، وهادنه وتحالفا، وترددّت القوافل من الشام إلى مصر، ومن مصر إلى الشام، فلمّا كان هذه السنة اجتاز به قافلة عظيمة غزيرة الأموال كثيرة الرجال، ومعها جماعة صالحة من الجند، فغدر اللعين بهم، وأخذهم عن آخرهم، وغنم أموالهم، ودوابهم وسلاحهم وأودع السجون من أسر منهم، فأرسل إليه صلاح الدين يلومه، ويقبّح فعله وغدره، ويتوعده إن لم تطلق الأسرى والأموال، فلم يجب إلى ذلك، وأصر على الامتناع، فنذر صلاح الدين نذراً أن يقتله إن ظفر به، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عدة حوادث

كان المنجمون قديما وحديثا قد حكموا أن هذه السنة التاسع والعشرين من جمادى الآخرة تجتمع الكواكب الخمسة في برج الميزان، ويحدث باقترانها رياح شديدة، فلم يكن لذلك صحة، ولم يهب من الرياح شيء البتة حتى إن الغلال - الحنطة والشعير - تأخر نجازها لعدم الهواء الذي يذري به الفلاحون، فأكذب الله احدوثة المنجمين، وأخزاهم.

وفيها توفي عبد الله بن بري بن عبد الجبار بن بري النحوي المصري، وكان إماماً في النحو رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

اتّفق أوّل هذه السنة يوم السبت، وهو يوم النوروز السلطاني، ورابع عشر اذار سنة ألف وأربعمائة وثمان وتسعين اسكندرية، وكان القمر والشمس في الحمل، واتّفق أوّل سنة العرب، وأوّل سنة الفرس التي جددوها أخيراً، وأول سنة الروم والشمس والقمر في أول البروج، وهذا يبعد وقوع مثله.

ذكر حصر صلاح الدين الكرك

في هذه السنة كتب صلاح الدين إلى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد، وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة وإربل وغيرها من بلاد الشرق وإلى مصر وسائر بلاد الشام، يدعوهم إلى الجهاد، ويحثهم عليه، ويأمرهم بالتجهّز له بغاية الامكان، ثمَّ خرج من دمشق اواخر المحرّم في عسكرها وحلقتها الخاص، فسار إلى رأس الماء وتلاحقت به العساكر الشامية، فلمّا اجتمعوا جعل عليهم ولده الملك الأفضل عليّ ليجتمع اليه من يرد إليه منها، وسار هو إلى بُصرى جريدة، وكان سبب مسيره وقصد إليها أنه أتته الأخبار، أنّ البرنس أرناط صاحب الكرك يريد أن يقصد الحجاج ليأخذهم من طريقهم، وأظهر أنه إذا فرغ من أخذ الحجاج يرجع إلى طريق العسكر المصري يصدّهم عن الوصول إلى صلاح الدين، فسار الى بصرى ليمنع البرنس أرناط من طلب الحجاج، ويلزم بلده خوفاً عليه، وكان من الحجاج جماعة من أقاربه منهم محمد بن لاجين وهو ابن أخت صلاح الدين وغيره، فلمّا سمع أرناط بقرب صلاح الدين من بلده لم يفارقه، وانقطع عمّا طمع فيه، فوصل الحجاج سالمين، فلما وصلوا وفرغ سرّه من جهتهم سار إلى الكرك وبث سراياه من هناك على ولاية الكرك والشوبك وغيرها، فنهبوا وخربوا وأحرقوا، والبرنس محصور لا يقدر على المنع عن بلده، وسائر الفرنج قد لزموا

طرق بلادهم خوفا من العسكر الذي مع ولده الأفضـل، فتمكّن من الحصر والنهب والحريق والتخريب هذا فعل صلاح الدين.

ذكر الغارة على بلد عكا

أرسل صلاح الدين إلى ولده الأفضل يأمره أن يرسل قطعة صالحة من الجيش إلى بلد عكا، ينهبونه ويخربونه، فسيَّر مظفَّر الدين كوكبري بن زين الدين صاحب حرّان والرها، وأضاف اليه قايماز النجمي ودلدرم الياقوتي،وهما من أكابر الأمراء وغيرهما، فساروا ليلاً، وصبحوا صفوريّة أواخر صفر فخرج اليهم الفرنج في جمع من الداوية والاسبتارية وغيرهما، فالتقوا هناك، وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق السود ثمَّ أنزل الله تعالى نصره على المسلمين، فانهزم الفرنج، وقتل منهم جماعة وأسر البـاقون، وفيمن قتل مقدَّم الاسبتارية، وكان من فرسان الفرنـج المشهورين، ولـه النكايــات العظيمة في المسلمين، ونهب المسلمون ما جاورهم من البلاد، وغنموا وسبوا وعادوا سالمين، وكان عودهم على طبريـة وبها القمّص فلم ينكر ذلك، فكان فتحاً كثيراً، فإنَّ الداوية والاسبتارية هم جمرة الفرنج، وسيّرت البشائر إلى البلاد بذلك.

ذكر عود صلاح الدين إلى عسكره ودخوله إلى الفرنج

لما أتت صلاح الدين البشارة بهزيمة الاسبتارية والداوية، وقتل من قتل منهم وأسر من أسر منهم، عاد عن الكرك الى العسكر الذي مع ولده الملك الأفضل، وقد تلاحقت سائر الأمراء والعساكر، واجتمع بهم، وساروا جميعا، وعرض العسكر فبلغت عدَّتهم اثني عشر الف فارس ممن له الأقـطاع، والجامكية سوى المتطوعة فعبّى عسكره، قلباً وجناحين وميمنة وميسرة وجاليشية وساقة، وعرف كـل منهم موضعـه وموقفـه، وأمره بملازمته، وسار على تعبية، فنزل بالأقحوانة بقرب طبرية، وكان القمّص قد انتمى إلى صلاح الدين ـ كما ذكرناه ـ وكتبهمتصلةإليه يعده النصرة ويمنيه المعاضدة.

وما يعدهم الشيطان إلا غروراً

فلما رأى الفرنج العساكر الإسلامية، وتصميم العزم على قصد بلادهم أرسلوا إلى القمّص البطرك والقسوس والرهبان وكثيراً من الفرسان، فأنكروا عليه انتماءه إلى صلاح الدين، وقالوا له لا شك اسلمت، وإلا لم تصبر على فعل المسلمين أمس بالفرنج،

يقتلون الداوية والاسبتارية، ويأسرونهم ويجتازون بهم عليك، وأنت لا تنكر ذلك ولا تمتنع عنه، ووافقهم على ذلك من عنده من عسكر طبرية وطرابلس، وتهدده البطرك أنه يحرمه، ويفسخ عليه نكاح زوجته إلى غير ذلك من التهديد، فلما رأى القمّص شدة الأمر عليه خاف واعتذر وتنصل وتاب، فقبلوا عذره، وغفروا زلته، وطلبوا منه الموافقة على المسلمين والمؤازرة على حفظ بلادهم، فأجابهم إلى المصالحة والانضمام إليهم والاجتماع بهم وسار معهم إلى ملك الفرنج، واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم، ولم تغنِ عنهم من الله شيئاً، وجمعوا فارسهم وراجلهم، ثم ساروا من عكا إلى صفورية، وهم يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى قد ملئت قلوبهم رعباً.

ذكر فتح صلاح الدين طبرية

لما اجتمع الفرنج، وساروا إلى صفورية جمع صلاح الدين أمراءه واستشارهم، فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء، وان يضعف الفرنج بشنّ الغارات، وإخراب الولايات مرة بعد مرة، فقال له بعض امرائه: الرأي عندي أنّنا نجوس بلادهم وننهب ونخرب ونحرق ونسبي، فإن وقف أحد من عسكر الفرنج بين أيدينا لقيناه، فإنّ الناس بالمشرق يلعنوننا، ويقولون: ترك قتال الكفار وأقبل يريد قتال المسلمين، والرأي أن نفعل فعلا نعذر فيه ونكفّ الألسنة عنا، فقال صلاح الدين: الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار، فإن الأمور لا تجري بحكم الإنسان ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا، ولا ينبغي أن نفرِّق هذا الجمع إلا بعد الجدّ بالجهاد، ثم رحل من الأقحوانة اليوم الخامس من نزوله بها وهو يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر، فسار حتى خلف طبريّة وراء ظهره، وصعد جبلها وتقدم حتى قارب الفرنج، فلم يرمنهم احدا، ولا فارقوا خيامهم، فنزل وأمر العسكر بالنزول، فلمّا جنه الليل جعل في مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال، ونزل جريدة إلى طبرية وقاتلها ونقب بعض أبراجها وأخذ المدينة عنوة في ليلة ولجأ من بها إلى القلعة التي لها فامتنعوا بها، وفيها صاحبتها ومعها أولادها، فنهب المدينة وأحرقها، فلما سمع الفرنج بنزول صلاح الدين إلى طبريّة، وملكه المدينة وأخذ ما فيها وإحراقها وإحراق ما تخلف مما لا يحمل اجتمعوا للمشورة، فأشار بعضهم بالتقدّم إلى المسلمين وقتالهم ومنعهم عن طبريّة، فقال القمّص: إن طبريّة لي ولزوجتي، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل وبقي القلعة وفيها زوجتي وقد رضيت

أن يأخذ القلعة وزوجتي ومالنا بها ويعود، فوالله لقد رأيت عساكر الإسلام قديماً وحديثاً ما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة، وإذا أخذ طبريّة لا يمكنه المقام بها، فمتى فارقنا وعاد عنها أخذناها، وإن أقام بها لا يقدر على المقام بها إلا بجميع عساكره، ولا يقدرون على الصبر طول الزمان عن اوطانهم وأهليهم، فيضطر إلى تركها، ونفتك من أسر منا، فقال له برنس أرناط صاحب الكرك: قد أطلت في التخويف من المسلمين، ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم، وإلا ما كنت تقول هذا، وأمّا قولك إنهم كثيرون، فإن النار لا يضرّها كثرة الحطب، فقال: أنا واحد منكم إن تقدّمتم تقدّمت، وإن تأخّرتم تأخّرت، وسترون ما يكون، فقوي عزمهم على التقدّم الى المسلمين وقتالهم، فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه وقربوا من عساكر الإسلام.

فلمّا سمع صلاح الدين بذلك عاد عن طبريّة إلى عسكره، وكان قريباً منه، وإنما كان قصده بمحاصرة طبريّة أن يفارق الفرنج مكانهم ليتمكن من قتالهم، وكان المسلمون قد نزلوا على الماء، والزّمان قيظٌ شديدُ الحرِّ، فوجد الفرنج العطش ولم يتمكنوا من الوصول إلى ذلك الماء من المسلمين وكانوا قد أفنوا ما هناك من ماء الصهاريج، ولم يتمكنوا من الرجوع خوفاً من المسلمين، فبقوا على حالهم إلى الغد وهو يوم السبت، وقد أخذ العطش منهم، وأمّا المسلمون، فإنهم طمعوا فيهم، وكانوا من قبل يخافونهم، فباتوا يحرّض بعضهم بعضا، وقد وجدوا ريح النصر والظفر، وكلما رأوا حال الفرنج خلاف عادتهم ممّا ركبهم من الخذلان زاد طمعهم وجرأتهم، فأكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم، ورتب السلطان تلك الليلة الجاليشية، وفرّق فيهم النشاب.

ذكر انهزام الفرنج بحطين

اصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر، فركبوا، وتقدموا إلى الفرنج، فركب الفرنج، ودنا بعضهم من بعض إلا أن الفرنج قد اشتد بهم العطش، وانخذلوا، فاقتتلوا واشتد القتال، وصبر الفريقان، ورمى جاليشية المسلمين من النشاب ما كان كالجراد المنتشر، فقتلوا من خيول الفرنج كثيراً هذا القتال بينهم، والفرنج قد جمعوا نفوسهم براجلهم، وهو يقاتلون سائرين نحو طبريّة لعلهم يردون

الماء فلما علم صلاح الدين مقصدهم صدّهم عن مرادهم، ووقف بالعسكر في وجوههم، وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم، ويأمرهم بما يصلحهم، وينهاهم عما يضرهم، والناس يأتمرون لقوله ويقفون عند نهيه، فحمل مملوك من مماليكه الصبيان حملة منكرة على صف الفرنج فقاتل قتالا عجب منه الناس، ثم تكاثر الفرنج عليه فقتلوه ، فحين قتل حمل المسلمون حملة منكرة ضعضعوا الكفار، وقتلوا منهم كثيراً، فلما رأى القمّص شدّة الأمر علم أنهم لا طاقة لهم بالمسلمين، فاتفق هو وجماعة وحملوا على من يليهم وكان المقدم من المسلمين في تلك الناحية تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين، فلما رأى حملة الفرنج حملة مكروب علم أنه لا سبب إلا الوقوف في وجوههم، فأمر اصحابه ان يفتحوا لهم طريقاً يخرجون منه، وكان بعض المتطوعة قد القى في تلك الأرض ناراً، وكان الحشيش كثيراً، فاحترق وكانت الريح ، فحملت حرّ النار والدخان إليهم، فاجتمع عليهم العطش وحرّ الزمان وحرّ النار والدخان وحر القتال، فلمّا انهزم القمّص سقط في أيديهم، وكادوا يستسلمون ثم علموا أنهم لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه، فحملوا حملات متداركة كادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم عن مواقفهم لولا لطف الله بهم، إلا ان الفرنج لا يحملون حملة، فيرجعون إلا وقد قتل منهم، فوهنوا لذلك وهناً عظيماً، فأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها فارتفع من بقي من الفرنج إلى تلٍّ بناحية حطين، وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم به، فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات، ومنعهوهم عما ارادوا، ولم يتمكنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم لا غير، وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم الذي يسمونه صليب الصلبوت، ويذكرون أنَّ فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم، فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك، هذا والقتل والأسر يعملان في فرسانهم ورجالتهم، فبقي المّلك على التلِّ في مقدار مائة وخمسين فارساً من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين.

فحكي لي عن الملك الأفضل ولد صلاح الدين، قال: كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف وهو أول مصاف شاهدته، فلما صار ملك الفرنج على التلّ في تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى الحقوهم بوالدي.

قال: فنظرت إليه وقد علته كآبة واربدَّ لوْنه وأمسك بلحيته وتقدّم وهو يصيح: كذب الشيطان، قال: فعاد المسلمون على الفرنج، فرجعوا فصعدوا إلى التل، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي هزمناهم، فعاد الفرنج، فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ألحقوا المسلمين بوالدي، وفعل مثل ما فعل أولاً، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل، فصحت أنا أيضا هزمناهم، فالتفت والدي إليّ وقال: اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة، قال: فهو يقول لي وإذا الخيمة قد سقطت فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى، فبكى من فرحه.

وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشاً، وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقاً، فنزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض، فصعد المسلمون إليهم فألقوا خيمة الملك، وأسروهم عن بكرة أبيهم، وفيهم الملك وأخوه والبرنس أرباط صاحب الكرك، ولم يكن في الفرنج أشدّ منه عداوة للمسلمين، وأسروا أيضا صاحب جبيل وابن هنفري ومقدم الداوية، وكان من أعظم الفرنج شأناً، وأسروا أيضا جماعة من الداوية، وجماعة من الإسبتارية، وكثر القتل والأسر فيهم، فكان من يرى القتلى لا يظن انهم أسروا واحداً، ومن يرى الأسرى لا يظنّ أنهم قتلوا احداً، وما اصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل وهو سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن بمثل هذه الوقعة.

فلما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين في خيمته وأحضر ملك الفرنج عنده وبرنس صاحب الكرك، وأجلس الملك إلى جانبه وقد اهلكه العطش فسقاه ماء مثلوجا، فشرب وأعطى فضله برنس صاحب الكرك، فشرب، فقال صلاح الدين: إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أماني، ثم كلم البرنس وقرّعه بذنوبه وعدّد عليه عوراته، وقام إليه بنفسه فضرب رقبته، وقال: كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به، إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة، والثانية لما أخذ القفل غدراً، فلما قتله، وسُحب وأُخرج، ارتعدت فرائص الملك، فَسَكّن جأشه وأمنه، وأما القمص صاحب طرابلس، فإنه لما نجا من المعركة ـ كما ذكرناه ـ وصل الى صور، ثم قصد طرابلس ولم يلبث إلا أياما قلائل حتى مات غيظاً وحنقاً مما جرى على الفرنج خاصة وعلى دين النصرانية عامة.

ذكر عود صلاح الدين إلى طبرية وملك قلعتها مع المدينة

لما فرغ صلاح الدين من هزيمة الفرنج أقام بموضعه باقي يومه، وأصبح يوم الأحد عاد إلى طبريّة ونازلها، فأرسلت صاحبتها تطلب الأمان لها ولأولادها وأصحابها ومالها فأجابها إلى ذلك فخرجت بالجميع فوفّى لها فسارت آمنة ، ثمّ أمر بالملك وجماعة من أعيان الأسرى ، فأرسلوا إلى دمشق وأمر بمن أسر من الداوية والاسبتارية أن يجمعوا ليقتلهم ثم علم أن من عنده أسير لا يسمح به لما يرجو من فدائه ، فبذل في كل أسير من هذين الصنفين خمسين ديناراً مصريّة فأحضر عنده في الحال مائتا أسير ، فأمر بهم فضربت أعناقهم ، وإنما خصَّ هؤلاء بالقتل لأنهم أشدّ شوكة من جميع الفرنج ، فأراح الناس من شرّهم ، وكتب إلى نائبه بدمشق ليقتل من دخل البلد منهم سواء كان له أو لغيره ، ففعل ذلك ، ولقد اجتزت بموضع الوقعة بعدها بنحو سنة ، فرأيت الأرض ملأى من عظامهم تبين على البعد منها المجتمع بعضه على بعض ، ومنها المفترق هذا سوى ما جحفته السيول وأخذته السباع في تلك الآكام والوهاد .

ذكر فتح مدينة عكا

لمّا فرغ صلاح الدين من طبريّة سار عنها يوم الثلاثاء، ووصل إلى عكّا يوم الأربعاء، وقد صعد أهلها على سورها يظهرون الامتناع والحفظ، فعجب هو والناس من ذلك لأنَّهم علموا أنَّ عساكرهم من فارس وراجل بين قتيل وأسير، وأنهم لم يسلم منهم إلا القليل إلا انه نزل يومه وركب يوم الخميس، وقد صمّم على الزحف الى البلد وقتاله، فبينما هو ينظر من أين يزحف ويقاتل إذ خرج كثير من أهلها يضرعون ويطلبون الأمان، فأجابهم إلى ذلك، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وخيّرهم بين الإقامة والظعن، فاختاروا الرحيل خوفاً من المسلمين، وساروا عنها متفرقين، وحملوا ما امكنهم حمله من أموالهم، وتركوا الباقي على حاله، ودخل المسلمون اليها يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى، وصلّوا بها الجمعة في جامع كان للمسلمين قديماً، ثم جعله الفرنج بيعة ثمّ جعله صلاح الدين جامعاً. وهذه الجمعة أوّل جمعة أقيمت بالساحل الشامي بعد أن ملكه الفرنج وسلم البلد إلى ولده الأفضل، وأعطى جميع ما كان فيه للداوية من أقطاع وضياع وغير ذلك للفقيه عيسى، وغنم المسلمون ما بقي ممّا لم يطق الفرنج حمله، وكان من كثرته يعجز الإحصاء عنه، فرأوا فيها من الذهب والجوهر والسقلاط

والبندقي والشكر والسلاح وغير ذلك من أنواع الأمتعة كثيراً، فإنّها كانت مقصداً للتجار الفرنج والروم وغيرهم من اقصى البلاد وأدناها، وكان كثير منها قد خزنه التجار، وسافروا عنه لكساده، فلم يكن له من ينقله، ففرّق صلاح الدين وابنه الأفضل ذلك جميعه على اصحابهما، واكثر ذلك فعله الأفضل لأنه كان مقيماً بالبلد، وكان شيمته في الكرم معروفة، واقام صلاح الدين بعكا عدة أيام لإصلاح حالها وتقرير قواعدها.

ذكر فتح مجدل يابا

لما هزم صلاح الدين الفرنج أرسل إلى أخيه العادل بمصر يبشره بذلك ويأمره بالمسير إلى بلاد الفرنج من جهة مصر بمن بقي عنده من العسكر ومحاصرة ما يليه منها، فسارع إلى ذلك وسار عن مصر، فنازل حصن مجدل يابا وحصره وغنم ما فيه، وردّ كتابه بذلك إلى صلاح الدين، وكانت بشارة كبيرة.

ذكر فتح عدةحصون

في مدة مقام صلاح الدين بعكا تفرق عسكره إلى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا، فملكوها ونهبوها، وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها، وقدموا من ذلك بما سدّ الفضاء وسيّر تقي الدين، فنزل على تبنين ليقطع الميرة عنها وعن صور، وسيّر حسام الدين عمر بن لاجين في عسكر الى نابلس، فأتى سبصطية وبها قبر زكريا، فأخذه من أيدي النصارى، وسلمه إلى المسلمين ووصل إلى نابلس فدخلها وحصر قلعتها، واستنزل من فيها بالأمان وتسلم القلعة وأقام أهل البلد به وأقرهم على أملاكهم وأموالهم.

ذكر فتح يافا

لما خرج العادل من مصر وفتح مجدل يابا ـ كما ذكرنا ـ سار الى مدينة يافا وهي على الساحل فحصرها وملكها عنوة ونهبها وأسر الرجال وسبى الحريم، وجرى على اهلها ما لم يجر على احد من اهل تلك البلاد، وكان عندي جارية من اهلها وانا بحلب، ومعها طفل عمره نحو سنة فسقط من يدها، فانسلخ وجهه فبكت عليه كثيراً، فسكنتها واعلمتها انه ليس بولدها ما يوجب البكاء، فقالت ماله أبكي إنما أبكي لما جرى علينا،

كان لي ستة إخوة كلهم هلكوا جميعهم ، وزوج واختان لا اعلم ما كان منهم هذا من امرأة واحدة ، والباقي بالنسبة ورأيت بحلب امرأة فرنجية قد جاءت مع سيدها الى باب فطرقه سيدها ، فخرج صاحب البيت فكلمهم ، ثم اخرج امرأة فرنجية ، فحين رأتها الأخرى صاحتا واعتنقتا ، وهما يصرخان ويبكيان ، وسقطتا الى الأرض ، ثم قعدتا تتحدثان وإذا هما اختان ، وكان لهما عدة من الأهل ليس لهما علم بأحد منهم .

ذكر فتح تبنين وصيدا وجبيل وبيروت

فأما تبنين فقد ذكرنا انفاذ صلاح الدين تقي الدين ابن اخيه الى تبنين ، فلمّا وصلها نازلها وأقام عليها ، فرأى حصرها لا يتم إلا بوصول عمه صلاح الدين إليه ، فأرسل اليه يعلمه الحال ويحثه على الوصول إليه ، فرحل ثامن جمادى الأولى ، ونزل عليه حادي عشرة فحصرها وضايقها وقاتلها بالزحف ، وهي من القلاع المنيعة على جبل ، فلما ضاق عليهم الأمر واشتدّ الحصر أطلقوا مَنْ عندهم مِنْ أسرى المسلمين وهم يزيدون على مائة رجل ، فلما دخلوا العسكر أحضرهم صلاح الدين وكساهم وأعطاهم نفقة وسيَّرهم الى اهليهم ، وبقي الفرنج كذلك خمسة أيام ثمّ أرسلوا يطلبون الأمان ، فأمّنهم على أنفسهم ، فسلموها إليه ووفى لهم ، وسيّرهم إلى مأمنهم .

وأما صيدا فإنّ صلاح الدين لما فرغ من تبنين رحل عنها إلى صيدا ، فاجتاز في طريقه بصرفند فأخذها صفوا عفوا بغير قتال ، وسار عنها إلى صيدا وهي من مدن الساحل المعروفة ، فلما سمع صاحبها بمسيره نحوه سار عنها وتركها فارغة من مانع ومدافع ، فلما وصلها صلاح الدين تسلمها ساعة وصوله ، وكان ملكها لتسع بقين من جمادى الأولى .

وأما بيروت فهي من احصن مدن الساحل وأنزهها وأطيبها ، فلما فتح صلاح الدين صيدا سار عنها من يومه نحو بيروت ، ووصل إليها من الغد ، فرأى أهلها قد صعدوا على سورها ، وأظهروا القوّة والجلد والعدد وقاتلوا على سورها قتالاً شديداً ، واغتروا بحصانة البلد ، وظنوا أنهم قادرون على حفظه ، وزحف المسلمون إليهم مرة بعد مرة ، فبينما الفرنج يقاتلون إذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وغلبة زائدة ، فأتاهم من أخبرهم أن البلد قد دخله المسلمون من الناحية الأخرى قهراً وغلبة ، فأرسلوا ينظرون ما الخبر ،

وإذا ليس له صحة، فأرادوا تسكين من به فلم يمكنهم ذلك لكثرة ما اجتمع فيه من السواد، فلما خافوا على انفسهم من الاختلاف الواقع أرسلوا يطلبون الأمان ، فأمنهم على انفسهم وأموالهم، وتسلمها في التاسع والعشرين من جمادى الأولى من السنة، فكان مدة حصرها ثمانية أيام، وأما جبيل فإن صاحبها كان من جملة الأسرى الذين سيروا إلى دمشق مع ملكهم، فتحدث مع نائب صلاح الدين بدمشق في تسليم جديد على شرط إطلاقه فعرف صلاح الدين بذلك، فأحضره مقيّداً عنده تحت الاستظهار والاحتياط، وكان العسكر حينئذ على بيروت، فسلم حصنه وأطلق اسرى المسلمين الذين به، وأطلقه صلاح الدين كما شرط له، وكان هذا صاحب جبيل من أعيان الفرنج ، واصحاب الرأي والمكر والشر به يضرب المثل بينهم، وكان للمسلمين منه عدو أزرق، وكان إطلاقه من الأسباب الموهنة للمسلمين على ما يأتي بيانه.

ذكر خروج المركيش الى صور

لما انهزم القمص صاحب طرابلس من حطين الى مدينة صور، فأقام بها وهي أعظم بلاد الشا م حصانة وأشد امتناعا على من رامها، فلما رأى السلطان قد ملك تبنين وصيدا وبيروت خاف أن يقصد صلاح الدين صور وهي فارغة ممن يقاتل فيها ويحميها ويمنعها، فلا يقوى على حفظها، وتركها وسار الى مدينة طرابلس، فبقيت صور شاغرة لا مانع لها ولا عاصم من المسلمين، فلو بدأ بها صلاح الدين قبل تبنين وغيرها لأخذها بغير مشقة لكنه استعظمها لحصانتها فأراد أن يفرغ باله مما يجاورها من نواحيها ليسهل أخذها، فكان ذلك سبب حفظها ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾[١] واتفق أن إنساناً من الفرنج الذين داخل البحر يقال له المركيش لعنه الله خرج في البحر بمال كثير للزيارة والتجارة ولم يشعر بما كان من الفرنج فأرسى بعكا وقد رابه ما رأى من ترك عوائد الفرنج عند وصول المراكب من الفرح، وضرب الأجراس وغير ذلك وما رأى أيضا من زي أهل البلد، فوقف ولم يدر ما الخبر، وكانت الريح قد ركدت، فأرسل الملك الأفضل إليه بعض أصحابه في سفينة يبصر من هو ومن يريد، فأتاه القاصد، فسأله المركيش عن الأخبار لما أنكره فأخبره بكسرة الفرنج وأخذ عكا وغيرها، وأعلمه ان صور بيد الفرنج وعسقلان وغيرها، وحكى الأمر له على وجهه، فلم يمكنه الحركة لعدم الريح، فردّ

---

(١) سورة الأحزاب ٢٨.

الرسول يطلب الأمان ليدخل البلد بما معه من متاع ومال، فأجيب إلى ذلك، فردّده مرارا كل مرة يطلب شيئاً لم يطلبه في المرة الأولى وهو يفعل ذلك انتظارا لهبوب الهواء ليسير به، فبينما هو في مراجعاته اذهبت الريح ،فسار نحو صور،وسيَّر الملك الأفضل الشواني في طلبه، فلم يدركوه، فأتى صور وقد اجتمع بها من الفرنج خلق كثير لأن صلاح الدين كان كلما فتح مدينة من عكا وبيروت وغيرهما مما ذكرنا أعطى أهلها الأمان، فساروا كلهم إلى صور، وكثر الجمع بها، إلا انهم ليس لهم رأس يجمعهم ولا مقدّم يقاتل بهم، وليسوا أهل حرب، وهم عازمون على مراسلة صلاح الدين وتسليم البلد إليه، فأتاهم المركيش وهم على ذلك العزم، فردهم عنه وقوى نفوسهم وضمن لهم حفظ المدينة، وبذل ما معه من الأموال، وشرط عليهم أن تكون المدينة وأعمالها له دون غيره، فأجابوه إلى ذلك، فأخذ أيمانهم عليه وأقام عندهم ودبَّر أحـوالهم، وكان من شياطين الإنس حسن التدبير والحفظ له شجاعة عظيمة، وشرع في تحصينها ، فجدد حفر خنادقها وعمل أسوارها وزاد في حصانتها، واتفق من بها على الحفظ والقتال دونها.

ذكر فتح عسقلان وما يجاورها

لما ملك صلاح الدين بيروت وجبيل وغيرهما كان أمر عسقلان والقدس أهم عنده لأسباب منها: أنهما على طريق مصر يقطع بينهما وبين الشام، وكان يختار أن تتصل الولايات له ليسهل خروج العسكر منها ودخولهم إليها ولما في فتح القدس من الذكر الجميل والصيت العظيم إلى غير ذلك من الأغراض، فسار عن بيروت نحو عسقلان، واجتمع بأخيه العادل ومن معه من عساكر مصر، ونازلوها يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة، وكان صلاح الدين قد أحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية إليه من دمشق وقال لهما: إن سلمتما البلاد إليَّ فلكما الأمان فأرسلا إلى من بعقسلان من الفرنج يأمرانهم بتسليم البلد، فلم يسمعوا أمرهما، وردوا عليهما أقبح رد وجبهوهما بما يسوءهما فلما رأى السلطـان ذلك جد في قتال المدينة ونصب المنجنيقات عليها مرة أخرى وتقدَّم النقابون إلى الصور، فنالوا من باشورته شيئاً، هذا وملكهم يكـرر المراسلات إليهم بالتسليم، ويشير عليهم ويعدهم أنه اذا اطلق من الأسر أضرم البلاد على المسلمين ناراً، واستنجد بالفرنج من البحر، وأجلب الخيل والرجـل من أقاصي بـلاد الفرنـج وأدانيها، وهم لا يجيبون إلى ما يقول ولا يسمعون ما يشير به، ولما رأوا أنهم كل يوم

يزدادون ضعفاً ووهنا وإذا قتل منهم الرجل لا يجدون له عوضاً ولا لهم نجدة ينتظرونها، راسلوا صلاح الدين في تسليم البلد على شروط اقترحوها، فأجابهم صلاح الدين اليها، وكانوا قتلوا في الحصار أميراً كبيراً من المهرانيّة، فخافوا عند مفارقة البلد أن عشيرته يقتلون منهم بثأره، فاحتاطوا فيما اشترطوا لأنفسهم، فأجيبوا الى ذلك جميعه وسلَّموا المدينة سلخ جمادى الآخرة من السنة، وكانت مدة الحصار أربعة عشر يوما وسيَّرهم صلاح الدين ونساءهم وأموالهم وأولادهم إلى بيت المقدس ووفى لهم بالأمان.

ذكر فتح البلاد والحصون المجاورة لعسقلان

لما فتح صلاح الدين عسقلان أقام بظاهرها وبثّ السرايا في أطراف البلاد المجاورة لها ففتحوا الرملة والداروم وغزة ومشهد إبراهيم الخليل عليه السلام وتبنين وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وكل ما كان للداوية.

ذكر فتح البيت المقدس

لما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان وما يجاورها من البلاد على ما تقدم، وكان قد أرسل إلى مصر أخرج الأسطول الذي بها في جمع من المقاتلة ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو معروف بالشجاعة والشهامة ويمن النقيبة، فأقاموا في البحر يقطعون الطريق على الفرنج، كلما رأوا لهم مركبا غنموه وشانيا أخذوه، فحين وصل الأسطول وخلا سره من تلك الناحية سار عن عسقلان الى البيت المقدس، وكان به البطرك المعظم عندهم وهو أعظم شأنا من ملكهم وبه ايضا باليان بن بيرزان صاحب الرملة، وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك، وبه أيضاً من خلص أيضاً من فرسانهم من حطين، وقد جمعوا وحشدوا واجتمع أهل تلك النواحي عسقلان وغيرها، فاجتمع به كثير من الخلق كلهم يرى الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون البيت المقدس، ويأخذوه منهم ويرى أن بذل نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه من حفظه، وحصنوه تلك الأيام بما وجدوا إليه سبيلا وصعدوا على سوره بحدّهم وحديدهم مجتمعين على حفظه والذب عنه بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة دونه بحسب استطاعتهم، ونصبوا المنجنيقات ليمنعوا من يريد الدنو منه والنزول عليه، ولما قرب

صلاح الدين منه تقدّم أمير في جماعة عن أصحابه غير محتاط ولا حذر، فلقيه جمع من الفرنج قد خرجوا من القدس ليكونوا يَزكا، فقاتلوه وقاتلهم، فقتلوه وقتلوا جماعة ممن معه، فأهم المسلمين قتله، وفجعوا بفقده وساروا حتى نزلوا على القدس منتصف رجب، فلمّا نزلوا عليه رأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالهم، وسمعوا لأهله من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع.

وبقي صلاح الدين خمسة أيّام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتله لأنه في غاية الحصانة والامتناع، فلم يجد عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال نحو باب عمود أو كنيسة صهيون، فانتقل إلى هذه الناحية في العشرين من رجب ونزلها، ونصب تلك الليلة المنجنيقات، فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها، ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات ورموا بها وقوتلوا أشدَّ قتال رآه أحد من الناس كل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً وحتماً واجباً، فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون، ويزجرون ولا ينزجرون، وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون إلى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون، فيقتل من الفريقين، وممن استشهد من المسلمين الأمير عز الدين عيسى بن مالك، وهو من أكابر الأمراء، وكان أبوه صاحب قلعة جعبر، وكان يصطلي القتال بنفسه كل يوم فقتل الى رحمة الله تعالى، وكان محبوبا الى الخاص والعام، فلمّا رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك وأخذ من قلوبهم، فحملوا حملة رجل واحد، فأزالوا الفرنج عن مواقفهم، فأدخلوهم بلدهم، ووصل المسلمون الى الخندق، فجاوزوه والتصقوا الى السور، فنقبوه، وزحف الرماة يحمونهم، والمنجنيقات توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الأسوار ليتمكّن المسلمون من النقب، فلما نقبوه حشوه بما جرت به العادة، فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين، وتحكُّم المنجنيقات بالرمي المتدارك، وتمكُّن النقابين من النقب، وأنَّهم قد أشرفوا على الهلاك اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون، فاتفق رأيهم على طلب الأمان وتسليم البيت المقدس إلى صلاح الدين، فأرسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم في طلب الأمان، فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من إجابتهم، وقال: لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها، فلما رجع الرسل خائبين محرومين أرسل باليان بن بيرزان، وطلب الأمان لنفسه

ليحضر عند صلاح الدين في هذا الأمر وتحريره، فأجيب إلى ذلك وحضر عنده ورغب في الأمان ، وسأل فيه فلم يجبه إلى ذلك، واستعطفه فلم يعطف عليه واسترحمه فلم يرحمه، فلما أيس من ذلك، قال له: أيُّها السلطـان اعلم اننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم إلا الله تعالى وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظناً منهم أنك تجيبهم إليه كما اجبت غيرهم، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة، فإذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وامتنعتنا، ولا نترككم تغنمـون منها ديناراً واحداً ولا درهماً ولا تسبون وتأسرون رجلًا ولا امرأة، وإذا فرغنا من ذلك اخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيـرهما من المـوضع، ثم نقتـل من عندنـا من أسارى المسلمين، وهم خمسة آلاف اسير، ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا الا قتلناه، ثم خرجنا إليكم كلنا قاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه، وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء او نظفر كراما.

فاستشار صلاح الدين أصحابه، فاجمعواعلى اجابتهم الى الامان، وان لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدرى عاقبة الأمر فيه عن أي شيء تنجلي، ونحسب انهم اسارى بأيدينا فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الامان للفرنج، فاستقرَّ أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوي فيه الغني والفقير، ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين، وتزن المرأة خمسة دنانير، فمن أدّى ذلك إلى أربعين يوما فقد نجا ومن انقضت الأربعون يوما عنه ولم يؤد ما عليه، فقد صار مملوكا، فبذل باليان بن بيرزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار، فأجيب الى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وكان يوماً مشهوداً ورفعت الأعلام الإسلامية على أسواره، ورتب صلاح الدين على ابواب البلد في كل باب أمينا من الأمراء ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم، فـاستعملوا الخيانـة ولم يؤدوا فيه أمـانة، واقتسم الأمنـاء الأموال، وتفرقت أيدي سبا ولو أديت فيه الأمانة لملأ الخزائن وعمّ الناس فإنه كان فيه على الضبط ستون ألف رجل مـا بين فارس وراجـل، سـوى من يتبعهم من النسـاء والولدان، ولا يعجب السامع من ذلك، فإن البلد كبير، واجتمع اليه من تلك النواحي من عسقلان وغيرها والداروم والرملة وغزة وغيرها من القرى بحيث امتلأت الـطرق والكنائس، وكان الإنسان لا يقدر أن يمشي، ومن الدليل على كثرة الخلق أن اكثرهم

وزن ما استقر من القطيعة، واطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر الف رجل وزن عنهم ثلاثين ألف دينار، وبقي بعد هذا جميعه من لم يكن معه ما يعطي، وأخذ أسيرا ستة عشرة الف آدمي ما بين رجل وامرأة وصبي هذا بالضبط واليقين، ثم إن جماعة من الأمراء ادعى كل واحد منهم ان جماعة من رعية إقطاعه مقيمون بالبيت المقدس، فيطلقهم ويأخذ هو قطيعتهم.

وكان جماعة من الأمراء يلبسون الفرنج زي الجند المسلمين ويخرجونهم ويأخذون منهم قطيعة قرّروها، واستوهب جماعة من صلاح الدين عددا من الفرنج فوهبهم لهم، فأخذوا قطيعتهم، وبالجملة فلم يصل إلى خزائنه إلا القليل، وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم، وقد ترهبت وأقامت به ومعها من الحشم والعبيد والجواري خلق كثير، ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم، فطلبت الأمان لنفسها ومن معها فأمنها وسيّرها، وكذلك ايضا اطلق ملكة القدس التي كان زوجها الذي أسره صلاح الدين قد ملك الفرنج بسببها ونيابة عنها كان يقوم بالملك، وأطلق مالها وحشمها واستأذنته في المصير إلى زوجها، وكان حينئذ محبوسا بقلعة نابلس، فأذن لها، فأتته واقامت عنده وأتته ايضا امرأة للبرنس أرناط صاحب الكرك، وهو الذي قتله صلاح الدين بيده يوم المصاف بحطين، فشفعت في ولد لها مأسور، فقال لها صلاح الدين: إن سلمت الكرك أطلقته، فسارت الى الكرك فلم يسمع منها الفرنج ولم يسلموه، فلم يطلق ولدها، ولكنه أطلق ما لها ومن تبعها، وخرج البطرك الكبير الذي للفرنج ومعه من اموال البيع منها الصخرة والأقصى وقمامة وغيرها ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وكان له من المال مثل ذلك، فلم يعرض له صلاح الدين، فقيل له ليأخذ ما معه يقوي به المسلمين، فقال لا أغدر به، ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير، وسيَّر الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور وكان على رأس قبة الصخرةصليب كبير مذهب، فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم إلى اعلى القبة ليقلعوا الصليب فحين صعدوا صاح الناس كلهم صوتاً واحداً من البلد ومن ظاهره المسلمون والفرنج، أما المسلمون فكبروا فرحاً، وأما الفرنج فصاحوا تفجعاً وتوجعاً، فسمع الناس صيحة كادت الأرض أن تميد بهم لعظمها وشدتها.

فلما ملك البلد وفارقه الكفار أمر صلاح الدين إعادة الابنية الى حالها القديم، فإن

الداوية بنوا غربي الأقصى أبنية ليسكنوها، وعملوا فيها ما يحتاجون إليه من هري ومستراح وغير ذلك، وادخلوا بعض الأقصى في أبنيتهم، فأعيد إلى الأول، وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الاقذار، والأنجاس، ففعل ذلك اجمع، ولما كان الجمعة الأخرى رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة ومعهم صلاح الدين، وصلى في قبة الصخرة، وكان الخطيب والإمام محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق. ثم رتّب فيه صلاح الدين خطيباً وإماماً برسم الصلوات الخمس، وأمر أن يعمل له منبر، فقيل له إن نور الدين محموداً كان قد عمل بحلب منبراً أمر الصناع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه، وقال: هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس، فعمله النجارون في عدّة سنين لم يعمل في الإسلام مثله، فأمر بإحضاره، فحمل من حلب ونصب بالقدس، وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة، وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده رحمه الله. ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة تقدّم بعمارة المسجد الأقصى، واستنفاد الوسع في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه، فأحضروا من الرخام الذي لا يوجد، ومن الفص المذهب القسطنطيني وغير ذلك مما يحتاجون اليه قد ادخر على طول السنين، فشرعوا في عمارته، ومحوا ما كان في تلك الأبنية من الصورة، وكان الفرنج فرشوا الرخام فوق الصخرة، وغيبوها فأمر بكشفها، وكان سبب تغطيتها بالفرش أن القسيسين باعوا كثيراً منها للفرنج، الواردين اليهم من داخل البحر للزيارة، يشترونه بوزنه ذهبا رجاء بركتها، وكان احدهم إذا دخل إلى بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة، ويجعل في مذبحها، فخاف بعض ملوكهم أن تفنى فأمر بها ففرش فوقها حفظا لها، فلما كشفت نقل إليها صلاح الدين المصاحف الحسنة والربعات الجيدة، ورتّب القراء وأدر عليهم الوظائف الكثيرة! فعاد الإسلام هناك غضاً طرياً، وهذه المكرمة من فتح البيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه غير صلاح الدين رحمه الله وكفاه ذلك فخراً وشرفاً، وأما الفرنج من أهله فإنهم أقاموا وشرعوا في بيع مالا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وأموالهم، ومالا يطيقون حمله وباعوا ذلك بأرخص الثمن، فاشتراه التجار من أهل العسكر واشتراه النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الفرنج، فإنهم طلبوا من صلاح الدين ان يمكنهم من المقام في مساكنهم، ويأخذ منهم الجزية، فأجابهم الى ذلك فاستقروا! فاشتروا حينئذ من أموال الفرنج، وترك الفرنج ايضا اشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها من الأسرة والصناديق والبنيات وغير ذلك

وتركوا ايضا من الرخام الذي لا يوجد مثله من الأساطين والألواح، والفص وغيره شيئا كثيرا ثم ساروا.

ذكر رحيل صلاح الدين إلى صور ومحاصرتها

لما فتح صلاح الدين البيت المقدس أقام بظاهره الى الخامس والعشرين من شعبان يرتب أمور البلد وأحواله وتقدّم بعمل الربط والمدارس، فجعل دار الاسبتار مدرسة للشافعيّة، وهي في غاية ما يكون من الحسن، فلمّا فرغ من أمر البلد سار الى مدينة صور وكانت قد اجتمع فيها من الفرنج عالم كثير، وقد صار المركيش صاحبها، والحاكم فيها، وقد ساسهم أحسن سياسة،وبالغ فيتحصين البلد، ووصل صلاح الدين الى عكا، وأقام بها أياما، فلما سمع المركيش بوصوله اليها جدَّ في عمل سور صور، وخنادقها، وتعميقها ووصلها من البحر الى البحر من الجانب الاخر، فصارت المدينة كالجزيرة في وسط الماء لا يمكن الوصول اليها، ولا الدنو منها، ثم رَحل صلاح الدين من عكّا، فوصل الى صور تاسع شهر رمضان، فنزل على نهر قريب البلد بحيث يراه حتى اجتمع الناس وتلاحقوا وسار في الثاني والعشرين من رمضان، فنزل على تلّ يقارب سور البلد بحيث يرى القتال، وقسم القتال على العسكر كل جمع منهم له وقت معلوم يقاتلون منه، بحيث أن يتصل القتال على أهل البلد، على ان الموضع الذي يقاتلون منه قريب المسافة يكفيه الجماعة اليسيرة من اهل البلد لحفظه وعليه الخنادق التي قد وصلت من البحر الى البحر، فلا يكاد الطير يطير عليها، فإنَّ المدينة كالكف في البحر، والساعد متصل بالبر، والبحر من جانبيّ الساعد، والقتال إنّما هو في الساعد، فزحف المسلمون مرة بالمنجنيقات والعرادات والجروخ والدبابات.

وكان أهل صلاح الدين يتناوبون القتال مثل ولده الأفضل، وولده الظاهر غازي، وأخيه العادل بن أيوب، وابن اخيه تقي الدين وكذلك سائر الأمراء، وكان للفرنج شواني وحراقات يركبون فيها في البحر، ويقفون من جانبي الموضع الذي يقاتل المسلمون منه أهل البلد، فيرمون المسلمين من جانبهم بالخروج، ويقاتلونهم، وكان ذلك يعظم عليهم لأن أهل البلد يقاتلونهم من بين أيديهم، وأصحاب الشواني يقاتلونهم من جانبيهم،فكانت سهامهم تنفذ من احد الجانبي الى الجانب الاخر لضيق الموضع، فكثرت الجراحات في المسلمين والقتل، ولم يتمكنوا من الدنو الى البلد، فأرسل

صلاح الدين الى الشواني التي جاءته من مصر وهي عشر قطع، وكانت بعكّا فأحضرها برجالها ومقاتلتها وعدتها، وكانت في البحر تمنع شواني أهل صور من الخروج الى قتال المسلمين، فتمكّن المسلمون حينئذ من القرب من البلد ومن قتاله، فقاتلوه برّاً وبحراً، وضايقوا حتى كادوا يظفرون فجاءت الأقدار لما لم يكن في الحساب، وذلك ان خمس قطع من شواني المسلمين باتت في بعض تلك الليالي مقابل مينا صور ليمنعوا من الخروج منه والدخول اليه، فباتوا ليلتهم يحرسون، وكان مقدمهم عبد السلام المغربي الموصوف بالحذق في صناعته وشجاعته فلما كان وقت السحر أمنوا فناموا، فما شعروا إلا بشواني الفرنج قد نازلتهم وضايقتهم، فأوقعت بهم، فقتلوا من ارادوا قتله، وأخذوا الباقين بمراكبهم وأدخلوهم مينا صور، والمسلمون في البر ينظرون اليهم، ورمى جماعة من المسلمين انفسهم من الشواني في البحر فمنهم من سبح فنجا ومنهم من غرق.

وتقدم السلطان الى الشواني الباقية بالمسير الى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها، فسارت فتبعها شواني الفرنج، فحين رأى من في شواني المسلمين الفرنج مجدين في طلبهم ألقوا نفوسهم في شوانيهم إلى البر، فنجوا وتركوها فأخذها صلاح الدين ونقضها، وعاد الى مقاتلة صور في البر، وكان ذلك قليل الجدوى لضيق المجال، وفي بعض الايام خرج الفرنج، فقاتلوا المسلمين من وراء خنادقهم، فاشتدّ القتال بين الفريقين، ودام إلى آخر النّهار، وكان خروجهم قبل العصر، وأسر منهم فارس كبير مشهور بعد أن كثر القتال والقتل عليه من الفريقين لما سقط، فلما أسر قتل، وبقوا ذلك عدة أيام.

ذكر الرحيل عن صور إلى عكا وتفريق العساكر

لما رأى صلاح الدين أن امر صور يطول رحل عنها، وهذه كانت عادته متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه، ومن حصاره، فرحل عنه، وكان هذه السنة لم يطل مقامه على مدينة، بل فتح الجميع في الأيّام القريبة ـ كما ذكرناه ـ بغير تعب ولا مشقة، فلما رأى هو وأصحابه شدّة أمر صور ملوها وطلبوا الانتقال عنها ولم يكن لأحد ذنب في أمرها غير صلاح الدين، فإنه هو جهّز اليها جنود الفرنج، وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكّا وعسقلان والقدس وغير ذلك ـ كما سبق ذكره ـ كان يعطيهم الأمان ويرسلهم الى صور، فصار فيها فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم، فحفظوا المدينة،

وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم، فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم، ووعدوهم بالنصرة وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها ويلجؤون إليها فزادهم ذلك حرصا على حفظها والذب عنها، وسنذكر إن شاء الله ما صار إليه الأمر بعد ذلك ليعلم أن الملك لا ينبغي أن يترك الحزم، وان ساعدته الأقدار، فلأن يعجز حازما خير له من أن يظفر مفرطاً مضيعاً للحزم ، وأعذر له عند الناس.

ولما أراد الرحيل استشار امراءه، فاختلفوا فجماعة يقولون: الرأي أن يرحل، فقد جرح الرجال وقتلوا وملوا وفنيت النفقات، وهذا الشتاء قد حضر والشوط بطين، فنريح ونستريح في هذا البرد، فإذا جاء الربيع اجتمعنا وعاودناها وغيرها، وكان هذا قول الأغنياء منهم وكأنهم خافوا ان السلطان يقترض منهم ما ينفقه في العسكر، إذا أقام لخلو الخزائن وبيوت الأموال من الدرهم والدينار، فإنه كان يخرج كل ما حمل إليه منها، وقالت الطائفة الأخرى: الرأي ان نصابر البلد ونضايقه، فهو الذي يعتمدون عليه من حصونهم، ومتى أخذناه منهم انقطع طمع من داخل البحر من هذا الجانب، وأخذنا باقي البلاد صفوا، فبقي صلاح الدين متردّداً بين الرحيل والإقامة، فلما رأى من يرى الرحيل اقامته اخل بما ردّ إليه من المحاربة والرمي بالمنجنيق، واعتذروا بجراح رجالهم، وانهم قد أرسلوا بعضهم ليحضروا نفقاتهم والعلوفات لدوابهم والأقوات لهم الى ذلك من الأعذار، فصاروا مقيمين بغير قتال، فاضطر الى الرحيل، فرحل عنها آخر شوال، وكان أول كانون الأول الى عكا، فأذن العساكر جميعها بالعود الى اوطانهم، والاستراحة في الشتاء، والعود في الربيع، فعادت عساكر الشرق والموصل وغيرها وعساكر الشام وعساكر مصر، وبقي حلقته الخاص مقيما بعكا، فنزل بقلعتها ورد أمر البلد الى عز الدين جورديك وهو من اكابر المماليك النورية، جمع الديانة والشجاعة وحسن السيرة.

ذكر فتح هونين

لما فتح صلاح الدين تبنين[١] امتنع من بهونين[٢] من تسليمها، وهي من احصن القلاع وامنع، فلم ير التعريج عليها، ولا الاشتغال بمحاصرتها بل سيّر اليها جماعة من

(١) تبنين : بلدة في جبال بني عامر المطلّة على بلد بانياس بين دمشق وصور .

(٢) هونين : بلد في جبال عامل مطلّة على نواحي مصر .

العسكر والأمراء، فحصروها ومنعوا من حمل الميرة اليها، واشتغل ـ بما تقدم ذكره من فتح عسقلان والبيت المقدس وغير ذلك ـ فلما كان يحاصر مدينة صور أرسل من فيها يطلبون الأمان، فأمنهم، فسلموا ونزلوا منها، فوفى لهم بأمانهم.

ذكر حصر صفد وكوكب والكرك

لما سار صلاح الدين الى عسقلان جعل على قلعة كوكب، وهي مطلة على الأردن من يحصرها، ويحفظ الطريق للمجتازين، لئلا ينزل من به من الفرنج يقطعونه، وسيَّر طائفة اخرى من العسكر ايضا الى قلعة صفد، فحصروها وهي مطلّة على مدينة طبريّة، وكان حصن كوكب للاسبتار وحصن صفد للداوية، وهما قريبان من حطين موضع المصاف، فلجأ اليهما جمع ممن سلم من الداوية والاسبتار فحموهما، فلما حصرهما المسلمون استراح الناس من شرٍّ من فيهما، واتصلت الطرق حتى كان يسير فيها المنفرد فلا يخاف، وكان مقدّم الجماعة الذين يحصرون قلعة كوكب اميرا يقال له سيف الدين، وهو اخو جاولي الأسدي وكان شهما شجاعا يرجع الى دين وعبادة، فأقام عليه إلى آخر شوال، وكان اصحابه يحرسون نوبا مرتبة، فلما كان آخر ليلة من شوال غفل الذين كانت نوبتهم في الحراسة، وكان قد صلى ورده من الليل الى السحر، وكانت ليلة كثيرة الرعد والبرق والريح والمطر، فلم يشعر المسلمون وهم نازلون الا والفرنج قد خالطوهم بالسيوف، ووضعوا السلاح فيهم فقتلوهم أجمعين، وأخذوا ما كان عندهم من طعام وسلاح وغيره، وعادوا الى قلعتهم فقووا بذلك قوة عظيمة امكنهم ان يحفظوا قلعتهم الى ان اخذت اواخر سنة اربع وثمانين ـ على ما سنذكره إن شاء الله ـ وأتى الخبر الى صلاح الدين بذلك عند رحيله عن صور، فعظم ذلك عليه مضافا الى ما ناله من أخذ شوانيه ومن فيها، ورحيله عن صور، ثم رتَّب على حصن كوكب الأمير قايماز النجمي في جماعة أخرى من الأجناد، فحصروها.

ذكر الفتنة بعرفات وقتل ابن المقدم

في هذه السنة يوم عرفة قتل شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم بعرفات، وهو أكبر الأمراء الصلاحية، وقد تقدَّم من ذكره ما فيه كفاية، وسبب قتله أنّه لما فتح المسلمون البيت المقدس طلب إذناً من صلاح الدين ليحج ويحرم من

القدس، ويجمع في سنته بين الجهاد والحج، وزيارة الخليل عليه السلام، ومن بالشام من مشاهد الأنبياء، وبين زيارة رسول صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين، فأذن له، وكان قد اجتمع تلك السنة من الحجاج بالشام الخلق العظيم، من البلاد والعراق والموصل وديار الجزيرة وخلاط وبلاد الروم ومصر وغيرها، ليجمعوا بين زيارة بيت المقدس ومكّة، فجعل ابن المقدّم اميرا عليهم، فساروا حتى وصلوا الى عرفات سالمين، ووقفوا في تلك المشاعر، وأدوا الواجب والسنة، فلمّا كان عشية عرفة تجهّز هو واصحابه ليسيروا من عرفات، فأمر بضرب كؤساته التي هي امارة الرحيل، فضربها اصحابه، فأرسل اليه امير الحاج العراقي، وهو مجير الدين طاشتكين ينهاه عن الافاضة من عرفات قبله، ويأمر بكفّ اصحابه عن ضرب كؤساته، فأرسل اليه يقول: إني ليس لي معك تعلق أنت أمير الحاج العراقي، وأنا أمير الحاج الشامي وكل منا يفعل ما يراه ويختاره، وسار ولم يقف ولم يسمع قوله، فلما رأى طاشتكين إصراره على مخالفته ركب في اصحابه وأجناده، وتبعه من غوغاء الحاج العراقي وبطّاطيّهم وطمّاعتهم العالم الكثير، والجم الغفير، وقصدوا حاج الشام، مهولين عليهم، فلما قربوا منهم خرج الأمر من الضبط، وعجزوا عن تلافيه، فهجم طماعّة العراق على حاج الشام، وفتكوا فيهم، وقتلوا جماعة، ونهبت أمواله، وسبيت جماعة من نسائهم إلا أنهن رددن عليهم، وجرح ابن المقدم عدة جروح، وكان يكف أصحابه عن القتال، ولو أذن لهم لانتصف منهم وزاد ولكنه راقب الله تعالى وحرمة المكان واليوم، فلمّا اثخن بالجراحات أخذه طاشتكين إلى خميته، وأنزله عنده ليمرضه ويستدرك الفارط في حقه، وساروا تلك الليلة من عرفات، فلما كان الغد مات بمنى، ودفن بمقبرة المعلى، ورزق الشهادة بعد الجهاد وشهود فتح البيت المقدس رحمه الله تعالى.

ذكر قوة السلطان طغرل على قزل

في هذه السنة قوي أمر السلطان طغرل، وكثر جمعه وملك كثيراً من البلاد، فأرسل قزل إلى الخليفة يستنجده ويخوفه من طغرل ويبذل من نفسه الطاعة والتصرف على ما يختارونه، وأرسل طغرل رسولاً إلى بغداد يقول: أريد أن يتقدَّم الديوان بعمارة دار السلطنة لأسكنها إذا وصلت، فأكرم رسول قزل، ووعده بالنجدة، وورد رسول

السلطان طغرل بغير جواب، وأمر الخليفة بنقض دار السلطنة، فهدمت إلى الأرض وعُفي أثرها.

ذكر ملك شرستى من الهند وانهزام المسلمين بعدها

في آخر هذه السنة سار شهاب الدين الغوري ملك غزنة إلى بلاد الهند، وقصد بلاد أجمير، وتعرف بولاية السوالك، واسم ملكهم كولة، وكان شجاعا شهما، فلما دخل المسلمون بلاده ملكوا مدينة تبرندة، وهي حصن منيع عامر، وملكوا شرستى، وملكوا كوة رام، فلما سمع ملكهم جمع العساكر فأكثر، وسار إلى المسلمين، فالتقوا، وقامت الحرب على ساق، وكان مع الهند أربعة عشر فيلاً، فلما اشتدَّت الحرب انهزمت ميمنة المسلمين وميسرتهم، فقال لشهاب الدين بعض خواصه: قد انكسرت الميمنة والميسرة فانج بنفسك لا يهلك المسلمون، فأخذ شهاب الدين الرمح، وحمل على الهنود، فوصل إلى الفيلة، فطعن فيلا منها في كتفه، وجرح الفيل لايندمل، فلما وصل شهاب الدين إلى الفيلة، زرقه بعض الهنود بحربة، فوقعت الحربة في ساعده، فنفذت الحربة من الجانب الآخر، فوقع حينئذ إلى الارض، فقاتل فيه أصحابه ليخلصوه، وحرصت الهنود على أخذه، وكان عنده حرب لم يسمع بمثله، وأخذه أصحابه فركبوه فرسه، وعادوا به منهزمين، فلم يتبعهم الهنود، فلما أبعدوا عن موضع الوقعة بمقدار فرسخ أغمي على شهاب الدين من كثرة خروج الدم، فحمله الرجال على أكتافهم في محفة اليد أربعة وعشرين فرسخا، فلما وصل إلى لهاوور، أخذ الأمراء الغورية، وهم الذين انهزموا ولم يثبتوا، وعلق على كل واحد منهم عليق شعير، وقال: أنتم دواب ما أنتم أمراء، وسار إلى غزنة، وأمر بعضهم، فمشى إليها ماشياً، فلما وصل إلى غزنة أقام بها ليستريح الناس، ونذكر ما فعله بملك الهند الذي هزمه سنة ثمان وثمانين إن شاء الله تعالى.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في ربيع الأول قتل مجد الدين أبو الفضل بن الصاحب، وهو أستاذ دار الخليفة أمر الخليفة بقتله، وكان متحكماً في الدولة ليس للخليفة معه حكم، وكان هو القيم بالبيعة له، وظهر له أموال عظيمة أخذ جميعها، وكان حسن السيرة عفيفاً عن

الأموال، وكان الذي سعى به إنسان من أصحابه وصنائعه يقال له عبيد الله بن يونس، فسعى به إلى الخليفة، وقبح آثاره، فقبض عليه وقتله.

وفيها في ربيع الآخر وقع حريق في الحظائر ببغداد احترقت احطاب كثيرة، وسببه أن فقيهاً بالمدرسة النظامية كان يطبخ طعاماً يأكله فغفل عن النار والطبيخ، فعلقت النار، واتصلت ، فاحترقت جميعها ، واحترق درب السلسلة وغيره مما يجاوره .

وفيها في شوال استورز الخليفة الناصر لدين الله أبا المظفر عبيد الله بن يونس، ولقبه جلال الدين، ومشى أرباب الدولة في ركابه حتى قاضي القضاة، وكان ابن يونس من شهوده، وكان يمشي ويقول لعن الله طول العمر.

وفيها في المحرم توفّي عبد المغيث بن زهير الحري ببغداد، وكان من أعيان الحنابلة قد سمع الحديث الكثير، وصنف كتاباً في فضائل يزيد بن معاوية أتى فيه بالعجائب، وقد رد عليه أبو الفرج بن الجوزي، وكان بينهما عداوة.

وفيها توفى قاضي القضاة أبو الحسن بن الدامغاني، وولي القضاء للمقتفي بعد موت الزينبي، ثم للمستنجد بالله، ثم عزل ثم أعيد إلى المستضيء بأمر الله.

وفيها توفى علي بن خطاب بن ظفر الشيخ الصالح من جزيرة ابن عمر، وكان من الأولياء أرباب الكرامات ، وصحبته أنا مدَّة ، فلم أر مثله حسن خلق وسمت وكرم عبادة رحمه الله .

وفيها ولدت امرأة من سواد بغداد بنتا لها أسنان. وفيها توفي نصر بن فتيان بن مطر أبو الفتح بن المنى الفقيه الحنبلي لم يكن لهم مثله رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة

ذكر حصر صلاح الدين كوكب

في هذه السنة في المحرم انحسر الشتاء، فسار صلاح الدين من عكا فيمن تخلف عنده من العسكر إلى قلعة كوكب، فحصرها ونازلها ظنّاً منه أن مُلكها سهلاً، وأخذها عجلا، وهو في قلة من العسكر متيسر، فلما رآها عالية منيعة والوصول إليها متعذر، وكان عنده منها ومن صفد والكرك المقيم المقعد، لأن البلاد الساحلية من عكا إلى جهة الجنوب كانت قد ملك جميعها ما عدا هذه الحصون، وكان يختار أن لا يبقى في وسطها ما يشغل قلبه ويقسم همه ويحتاج إلى حفظه، ولئلا ينال الرعايا والمجتازين، منهم الضرر العظيم، فلمّا حصر كوكب ورآها منيعة يبطيء ملكها وأخذها، رحل عنها وجعل عليها قايماز النجمي مستديماً لحصاره، وكان رحيله عنها في ربيع الأول، وأتاه رسل الملك قلج أرسلان وقزل أرسلان وغيرهما يهنونه بالفتح والظفر ، وسار من كوكب إلى دمشق ففرح الناس بقدومه، وكتب إلى البلاد جميعا باجتماع العساكر بها، وأقام بها إلى أن سار إلى الساحل بالبلاد الشامية .

ذكر رحيل صلاح الدين إلى بلد الفرنج

لما أراد صلاح الدين المسير عن دمشق حضر عنده القاضي الفاضل مودّعا له ومستشيراً، وكان مريضاً وودّعه، وسار عن دمشق منتصف ربيع الأول إلى حمص، فنزل على بحيرة قدس غربي حمص، وجاءته العساكر: فأوّل من أتاه من أصحاب الأطراف عماد الدين زنكي بن مودود بن آقسنقر صاحب سنجار ونصيبين والخابور، وتلاحقتِ العساكر من الموصل وديار الجزيرة وغيرها، فاجتمعت عليه وكثرت عنده فسار حتى نزل تحت حصن الأكراد من الجانب الشرقي، وكنت معه حينئذ، فأقام يومين، وسار

جريدة، وترك أثقال العسكر موضعها تحت الحصن، ودخل إلى بلد الفرنج، فأغار على صافيثا والعريمة ويحمور وغيرها من البلاد والولايات، ووصل الى قريب طرابلس؛ وأبصر البلاد، وعرف من أين يأتيها وأين يسلك منها . ثم عاد إلى معسكره سالما، وقد غنم العسكر من الدواب على اختلاف أنواعها ما لا حدَّ له، وأقام تحت حصن الأكراد إلى آخر ربيع الآخر.

ذكر فتح جبلة

لما أقام صلاح الدين تحت حصن الأكراد أتاه قاضي جبلة، وهو منصور بن ثبيل يستدعيه إليه ليسلمها إليه، وكان هذا القاضي عند بيمند صاحب أنطاكية وجبلة مسموع الكلمة له الحرمة الوافرة والمنزلة العالية، وهو يحكم على جميع المسلمين بجبلة ونواحيها وعلى ما يتعلق بالبيمند، فحملته الغيرة للدين على قصد السلطان، وتكفل له بفتح جبلة ولاذقية والبلاد الشمالية، فسار صلاح الدين معه رابع جمادى الأولى، فنزل بانطرطوس سادسه، فرأى الفرنج قد أخلوا المدينة واحتموا في برجين حصينين كل واحد منها قلعة حصينة، ومعقل منيع، فخرّب المسلمون دورهم ومساكنهم وسور البلد، ونهبوا ما وجدوه من ذخائر، وكان الداوية بأحد البرجين فحصرها صلاح الدين، فنزل إليه من في أحد البرجين بأمان، وسلموه بأمنهم، وخرب البرج، وألقى حجارته في البحر، وبقي الذي فيه الداوية لم يسلموه، وكان معهم مقدمهم الذي أسره صلاح الدين يوم المصاف، وكان قد أطلقه لما ملك البيت المقدس، فهو الذي حفظ هذا الحصن، فخرب صلاح الدين ولاية انطرطوس، ورحل عنها، وأتى مرقية وقد أخلاها أهلها ورحلوا عنها، وساروا إلى المرقب، وهي من حصونهم التي لا ترام، ولا تحدث احدا نفسه بملكه لعلوه وامتناعه، وهو للاسبتار، والطريق تحته، فيكون الحصن على يمين المجتاز إلى جبلة والبحر عن يساره ، والطريق مضيق لا يسلكه إلا الواحد بعد الواحد، فاتفق أن صاحب صقلية من الفرنج قد سيَّر نجدة إلى فرنج الساحل في ستين قطعة من الشواني، وكانوا بطرابلس، فلمّا سمعوا بمسير صلاح الدين جاؤوا ووقفوا في البحر تحت المرقب في شوانيهم ليمنعوا من يجتاز بالسهام، فلما رأى صلاح الدين ذلك أمر بالطارقيات والجفتيات، فصفَّت على الطريق ممَّا يلي البحر من أول المضيق إلى آخره، وجعل وراءها الرماة، فمعنوا الفرنج من الدنو إليهم، فاجتاز المسلمون عن

آخرهم حتّى عبروا المضيق، ووصلوا إلى جبلة ثامن عشر جمادى الأولى، وتسلمها وقت وصوله، وكان قاضيها قد سبق إليها ودخل، فلما وصل صلاح الدين رفع أعلامه على سورها وسلمها إليه، وتحصن الفرنج الذين كانوا بها تحصناً، واحتموا بقلعتها، فما زال قاضي جبلة يخوفهم ويرغبهم حتى استنزلهم بشرط الامان. وأن يأخذ رهائنهم يكونون عنده إلى أن يطلق الفرنج رهائنهم من المسلمين من أهل جبلة، وكان بيمند صاحبها قد أخذ رهائن القاضي ومسلمي جبلة، وتركهم عنده بأنطاكية، فأخذ القاضي رهائن الفرنج، وجاء رؤساء أهل الجبل إلى صلاح الدين بطاعة أهله، وهو من أمنع الجبال، وأشقها مسلكا، وفيه حصن يعرف ببكسرايل بين جبلة ومدينة حماه، فملكه المسلمون، وصار الطريق في هذا الوقت عليه من بلاد الإسلام إلى العسكر، وكان الناس يلقون شدّة في سلوكه، وقرَّر صلاح الدين أحوال جبلة، وجعله فيها لحفظها الأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر وسار عنها.

ذكر فتح لاذقية

لما فرغ السلطان من أمر جبلة، سار عنها الى لاذقية، فوصل إليها في الرابع والعشرين من جمادى الأولى، فترك الفرنج المدينة لعجزهم عن حفظها، وصعدوا إلى حصنين لها على الجبل، فامتنعوا بهما، فدخل المسلمون المدينة، وحصروا القلعتين اللتين فيهما للفرنج، وزحفوا إليهما ونقبوا الأسوار ستين ذراعا وعلقوه، وعظم القتال واشتد الأمر عند الوصول إلى السور، فلما أيقن الفرنج بالعطب، ودخل إليهم قاضي جبلة، فخوّفهم من المسلمين فطلبوا الأمان، فأمّنهم صلاح الدين، ورفعوا الاعلام الإسلامية إلى الحصنين، وكان ذلك في اليوم الثالث من النزول عليها، وكانت عمارة اللاذقية من أحسن الأبنية وأكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه، فخرّب المسلمون كثيراً منها، ونقلوا رخامها، وشعثوا كثيراً من بيعها التي قد غرم على كل واحدة منها الأموال الجليلة المقدار، وسلمها إلى ابن أخيه تقي الدين عمر، فعمّرها، وحصّن قلعتها حتى إذا رآها اليوم من رآها ينكرها فلا يظنُّ أن هذه تلك وكان عظيم الهمّة في تحصين القلاع والغرامة الوافرة عليها كما فعل بقلعة حماه.

ذكر حال اسطول صقلية

لما نازل صلاح الدين لاذقية ووصل أسطول صقلية ـ الذي تقدم ذكره ـ فوقف بإزاء

مينا لاذقية، فلما سلّمها الفرنج الذين بها إلى صلاح الدين عزم أهل هذا الأسطول على أخذ من يخرج منها من أهلها غيظاً وحنفاً حيث سلموها سريعاً، فسمع بذلك أهل لاذقية، فأقاموا وبذلوا الجزية وكان سبب مقامهم، ثم إن مقدّم هذا الأسطول طلب من السلطان الأمان ليحضر عنده، فأمنه وحضر وقبّل الأرض بين يديه، وقال ما معناه: إنك سلطان رحيم كريم؛ وقد فعلت بالفرنج ما فعلت فذلوا فاتركهم يكونون مماليكك وجندك تفتح بهم البلاد والممالك، وترد عليهم بلادهم، وإلا جاءك من البحر ما لا طاقة لك به، فيعظم عليك الأمر، ويشتد الحال، فأجابهم صلاح الدين بنحو من كلامه من إظهار القوة والاستهانة بكل من يجيء من البحر، وأنهم إن خرجوا أذاقهم ما أذاق أصحابهم من القتل والأسر، فانقلب على وجهه ورجع إلى أصحابه.

ذكر فتح صهيون وعدة من الحصون

ثم رحل صلاح الدين عن لاذقية في السابع والعشرين من جمادى الأولى، وقصد قلعة صهيون، وهي قلعة منيعة شاهقة في الهواء، صعبة المرتقى على قرنة جبل، يطيف بها واد عميق فيه ضيق في بعض المواضع، بحيث أنّ حجر المنجنيق يصل منه إلى الحصن إلا أن الجبل متصل بها من جهة الشمال، وقد عملوا لها خندقاً عميقاً لا يرى قعره وخمسة أسوار منيعة، فنزل صلاح الدين على هذا الجبل الملتصق بها، ونصبت عليه المنجنيقات ورماها وتقدَّم إلى ولده الظاهر صاحب حلب، فنزل على المكان الضيِّق من الوادي، ونصب عليه المنجنيقات، فرمى الحصن منه، وكان معه من الرجالة الحلبيين كثير، وهم في الشجاعة بالمنزلة المشهورة، ودام رشق السهام من قسى اليد والجرخ والزنبوك والزيار، فجرح أكثر من بالحصن، وهم يظهرون التجلّد والامتناع، وزحف المسلمون اليهم ثاني جمادى الآخرة، فتعلَّقوا بقرنة من ذلك الجبل قد أغفل الفرنج إحكامها، فتسلّقوا منها بين الصخور حتى التحقوا بالسور الأول، فملكوا منها ثلاثة، وغنموا ما فيها من أبقار ودواب وذخائر وغير ذلك، واحتمى الفرنج بالقلّة التي للقلعة، فقاتلهم المسلمون عليها، فنادوا وطلبوا الأمان، فلم يجبهم صلاح الدين اليه، فقرروا على أنفسهم مثل قطيعة البيت المقدس، وتسلم الحصن، وسلمه إلى أمير يقال له ناصر الدين منكورس صاحب قلعة أبي قبيس، فحصنه وجعله من أحصن الحصون، ولما ملك المسلمون صهيون تفرقوا في تلك النواحي، فملكوا حصن بلاطنوس، وكان

من به من الفرنج قد هربوا منه وتركوه خوفاً ورعباً، وملك ايضا حصن العيد، وحصن الجماهرتين ، فاتسعت المملكة الإسلامية بتلك الناحية إلا أن الطريق إليها من البلاد الإسلامية على عقبة بكسرائيل شاق شديد لأن الطريق السهلة كانت غير مسلوكة لأن بعضها بيد الإسماعيلية وبعضها بيد الفرنج .

ذكر فتح حصن بَكَاس والشّغر

ثم سار صلاح الدين عن صهيون ثالث جمادى الآخرة، فوصل إلى قلعة بكاس، فرأى الفرنج قد اخلوها وتحصنوا بقلعة الشغر، فملك قلعة بكاس بغير قتال وتقدّم إلى قلعة الشغر، وهي وبكاس على الطريق السهل المسلوك إلى لاذقيّة وجبلة والبلاد التي افتتحها صلاح الدين من بلاد الشام الإسلاميّة، فلمّا نازلها رآها منيعة حصينة لا ترام ولا يوصل إليها بطريق من الطرق. إلاّ أنّه أمر بمزاحفتهم ونصب المنجنيق عليهم، ففعلوا ذلك ورمى بالمنجنيق، فلم يصل من أحجاره إلى القلعة شيء إلا القليل الذي لا يؤذي، فبقي المسلمون عليه أيّاماً لا يرون فيه طمعاً وأهله غير مهتمين بالقتال لامتناعهم عن ضرور يتطرق إليهم وبلاء بنزل عليهم، فبينما صلاح الدين جالس وعنده أصحابه، وهم في ذكر القلعة، وإعمال الحيلة في الوصول إليها، فقال بعضهم: هذا الحصن كما قال الله تعالى: ﴿فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً﴾[1] فقال صلاح الدين، أو يأتي الله بنصر من عنده، وفتح، فبينما هم في هذا الحديث إذ قد أشرف عليهم فرنجي ونادى بطلب الأمان لرسول يحضر عند صلاح الدين، فأجيب إلى ذلك، ونزل رسول، وسأل انتظارهم ثلاثة أيام، فإن جاءهم من يمنعهم، وإلا سلموا القلعة بما فيها من ذخائر ودواب وغير ذلك، فأجابهم إليه وأخذ رهائنهم على الوفاء به فلمّا كان اليوم الثالث سلّموها إليه، واتفق أنّه يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة، وكان سبب استمالهم أنّهم أرسلوا إلى البيمند صاحب أنطاكية - وكان هذا الحصن له - يعرّفونه أنّهم محصورون ويطلبون منه أن يرحّل عنهم المسلمين فإن فعل، وإلا سلموها، وإنّما فعلوا ذلك لرعب قذفه الله تعالى في قلوبهم، وإلا فلو أقاموا الدهر الطويل لم يصل إليهم احد ولا بلغ المسلمون منه غرضاً، فلما تسلّم صلاح الدين الحصن سلّمه إلى أمير، يقال له: قلج، وأمره بعمارته ورحل عنه.

---

(١) سورة الكهف ٩٧.

ذكر فتح سَرْمِينية

لما كان صلاح الدين مشغولاً بهذه القلاع والحصون سيّر ولده الظاهر غازي صاحب حلب، فحصر سرمينية، وضيّق على أهله، واستنزلهم على قطيعة قررها عليهم، فلما أنزلهم وأخذ منهم المقاطعة، هدم الحصن وعفى أثره وعالي بنيانه، وكان فيه وفي هذه الحصون من أسارى المسلمين الجمّ الغفير، فأطلقوا وأعطوا كسوة ونفقة، وكان فتحه في يوم الجمعة الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، واتّفق أنّ فتح هذه المدن والحصون جميعها من جبلة الى سرمينية مع كثرتها كان في ست جمع مع أنّها في أيدي أشجع الناس وأشدّهم عداوة للمسلمين ، فسبحان من إذا أراد أن يسهّل الصعب فعل، وهي جميعها من أعمال انطاكية، ولم يبق لها سوى القصير وبغراس ودرب ساك، وسيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى في مكانه.

ذكر فتح برزية

لما رحل صلاح الدين من قلعة الشغر سار إلى قلعة بَرْزَيّة، وكانت قد وصفت له وهي تقابل حصن افامية وتناصفها في أعمالها، وبينهما بحيرة تجتمع من ماء العاصي، وعيون تتفجر من جبل برزية وغيره ، وكان أهلها أضرَّ شيء على المسلمين يقطعون الطريق ويبالغون في الأذى، فلما وصل إليها نزل شرقيها في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة، ثمّ ركب من الغدّ وطاف عليها لينظر موضعاً يقاتلها منه، فلم يجده إلا من جهة الغرب فنصب له هناك خيمة صغيرة ونزل فيها ومعه بعض العسكر جريدة لضيق المواضع، وهذه القلعة لا يمكن أن تقاتل من جهة الشمال والجنوب البتّة، فإنّها لا يقدر أحد أن يصعد جبلها من هاتين الجهتين، وأمّا الجانب الشرقي فيمكن الصعود منه لكن لغير مقاتل لعلوه وصعوبته، وأمّا جهة الغرب فإنّ الوادي المطيف بجبلها قد ارتفع هناك ارتفاعاً كثيراً حتى قارب القلعة بحيث يصل منه حجر المنجنيق والسهام، فنزل له المسلمون ونصبوا عليه المنجنيقات، ونصب أهل القلعة عليها منجنيقا أبطلها ورأيت أنا من رأس جبل عال يشرف على القلعة لكنه لا يصل منه شيء إليها امرأة ترمي من القلعة عن المنجنيق، وهي التي أبطلت منجنيق المسلمين، فلما رأى صلاح الدين أنّ

---

(١) سرمينية: في معجم البلدان سرمين: بلدة مشهورة من أعمال حلب.

المنجنيق لا ينتفعون به عزم على الزحف ومكاثرة أهلها بجموعه فقسّم عسكره ثلاثة أقسام يزحف قسم، فإذا تعبوا وكلّوا عادوا، وزحف القسم الثاني، فإذا تعبوا وضجروا عادوا وزحف القسم الثالث، ثم يدور الدور مرة بعد أخرى حتى يتعب الفرنج وينصبوا، فإنه لم يكن عندهم من الكثرة ما يتقسّمون كذلك، فإذا تعبوا وأعيوا سلّموا القلعة، فلما كان الغدّ وهو السابع والعشرين من جمادى الآخرة، تقدّم أحد الأقسام، وكان المقدم عليهم عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار وزحفوا وخرج الفرنج من حصنهم، فقاتلهم على فصيلهم ورماهم المسلمون بالسهام من وراء الجفتيات والجنويات والطارقيات، ومشوا إليهم حتى قربوا إلى الجبل، فلما قاربوا الفرنج عجزوا عن الدنو منهم لخشونة المرتقى، وتسلّط الفرنج عليهم لعلو مكانهم بالنشاب والحجارة، فإنهم كانوا يلقون الحجارة الكبار فتتدحرج إلى اسفل الجبل فلا يقوم لها شيء، فلما تعب هذا القسم انحدروا، وصعد القسم الثاني، وكانوا جلوساً ينتظرونهم، وهم حلقة صلاح الدين الخاص، فقاتلوا قتالاً وكان الزمان حرّاً شديداً فاشتدَّ الكرب على الناس وصلاح الدين في سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم، وكان تقي الدين ابن أخيه كذلك، فقاتلوهم الى قريب الظهر، ثم تعبوا ورجعوا، فلمّا رآهم صلاح الدين قد عادوا تقدّم إليهم وبيده جماق يردهم، وصاح في القسم الثالث، وهم جلوس ينتظرون نوبتهم، فوثبوا ملبّين وساعدوا إخوانهم، وزحفوا معهم، فجاء الفرنج ما لا قبل لهم به، وكان أصحاب عماد الدين قد استراحوا، فقاموا أيضا معهم، فحينئذ اشتدَّ الأمر على الفرنج وبلغت القلوب الحناجر، وكانوا قد اشتد تعبهم ونصبهم، فظهر عجزهم عن القتال وضعفهم عن حمل السلاح لشدّة الحر والقتال، فخالطهم المسلمون، فعاد الفرنج يدخلون الحصن، فدخل المسلمون معهم، وكان طائفة قليلة في الخيام شرقي الحصن، فرأوا الفرنج قد أهملوا ذلك الجانب لأنهم لم يروا فيه مقاتلاً وليكثروا في الجهة التي فيها صلاح الدين، فصعدت تلك الطائفة من العسكر، فلم يمنعهم مانع، فصعدوا أيضا الحصن من الجهة الأخرى، فالتقوا مع المسلمين الداخلين مع الفرنج، فملكوا الحصن عنوة وقهراً. ودخل الفرنج القلّة التي للحصن، وأحاط بها المسلمون وأرادوا نقبها، وكان الفرنج قد رفعوا من عندهم من أسرى المسلمين إلى سطح القلة، وأرجلهم في القيود والخشب المثقوب، فلما سمعوا تكبير المسلمين في نواحي القلعة كبروا في سطح القلة، وظن الفرنج أنَّ المسلمين قد صعدواعلى السطح، فاستسلموا

وألقوا بأيديهم إلى الأسر، فملكها المسلمون عنوة، ونهبوا ما فيها وأسروا وسبوا من فيها، وأخذوا صاحبها، وأهله، وأمست خالية لا ديار بها، وألقى المسلمون النار في بعض بيوتهم فاحترقت.

ومن اعجب ما يحكى من السلامة أنّني رأيت رجلاً من المسلمين على هذا قد جاء من طائفة من المؤمنين شمالي القلعة إلى طائفة أخرى من المسلمين جنوبي القلعة وهو يعدو في الجبل عرضاً، فَأُلْقِيَتْ عليه الحجارة، وجاءه حجر كبير لو ناله لبعجه، فنزل عليه فناداه الناس يحذرونه، فالتفت ينظر ما الخبر فسقط على وجهه من عثرة، فاسترجع الناس وجاء الحجر إليه، فلمّا قاربه وهو منبطح على وجهه لقيه حجر آخر ثابت في الأرض فوق الرجل، فضربه المنحدر، فارتفع عن الأرض وجاز الرجل، ثمَّ عاد إلى الأرض من جانبه الآخر لم ينله منه أذى ولا ضرر، وقام يعدو حتى لحق بأصحابه، فكان سقوطه سبب نجاته، فتعست أم الجبان. وأما صاحب برزية، فإنه أسر هو وأصحابه وامرأته وأولاده ومنهم بنت له معها زوجها، فتفرقهم العسكر، فأرسل صلاح الدين في الوقت وبحث عنهم واشتراهم وجمع شمل بعضهم ببعض، فلما قارب أنطاكية أطلقهم وسيّرهم اليها، وكانت امرأة صاحب برزية أخت امرأة بيمند صاحب انطاكية، وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيراً من الأموال التي تؤثر فأطلق هؤلاء لأجلها.

ذكر فتح درب ساك

لما فتح صلاح الدين حصن برزية رحل عنه من الغد، فأتى جسر الحديد، وهو على العاصي بالقرب من انطاكية، فأقام عليه حتى وافاه من تخلّف عنه من عسكره، ثمّ سار عنه إلى قلعة درب ساك، فنزل عليها ثامن رجب، وهي من معاقل الداوية الحصينة، وقلاعهم التي يدخرونها لحماياتهم عند نزول الشدائد، فلمّا نزل عليها نصب المنجنيقات، وتابع الرمي بالحجارة فهدمت من سورها شيئاً يسيرا، فلم يبال من فيه بذلك فأمر بالزحف عليها ومهاجمتها، فبادرها العسكر بالزحف وقاتلوها، وكشفوا الرجال عن سورها، وتقدّم النقابون فنقبوا منها برجا وعلقوه فسقط، واتسع المكان الذي يريد المقاتلة يدخلون منه وعادوا يومهم ذلك، ثم باكروا الزحف من الغد، وكان من فيه قد أرسلوا إلى صاحب انطاكية يستنجدونه، فصبروا وأظهروا الجلد وهم ينتظرون جوابه، إما بإنجادهم وازاحة المسلمين عنهم، وإما بالتخلّي عنهم ليقوم عذرهم في

التسليم، فلما علموا عجزه عن نصرتهم، وخافوا هجوم المسلمين عليها، وأخذهم بالسيف وقتلهم وأسرهم ونهب أموالهم، طلبوا الأمان، فأمنهم على شرط أن لا يخرج أحد إلا بثيابه التي عليه، بغير مال، ولا سلاح ولا أثاث بيت ولا دابة ولا شيء مما بها، ثم أخرجهم منه وسيَّرهم إلى انطاكية، وكان فتحه تاسع عشر رجب.

ذكر فتح بغراس

ثم سار عن درب ساك إلى قلعة بَغْرَاس، فحصرها بعد ان اختلف أصحابه في حصرها، فمنهم من أشار به ومنهم من نهى عنه وقال: هو حصن حصين وقلعة منيعة، وهو بالقرب من انطاكية، ولا فرق بين حصره وحصرها، ويحتاج أن يكون أكثر العسكر في اليزك مقابل انطاكية، فإذا كان الأمر كذلك قلَّ المقاتلون عليه، ويتعذر الوصول إليها، فاستخار الله تعالى، وسار إليها وجعل اكثر عسكره يزكا مقابل أنطاكية يغيرون على أعمالها، وكانوا حذرين من الخوف من أهلها إن غفلوا لقربهم منها، وصلاح الدين في بعض أصحابه على القلعة يقاتلها، ونصب المنجنيقات، فلم يؤثر فيها شيئاً لعلوها وارتفاعها، فغلب على الظنون تعذُّر فتحها وتأخر ملكها، وشق على المسلمين قلَّة الماء عندهم، إلا أنَّ صلاح الدين نصب الحياض، وأمر بحمل الماء اليها، فخفَّف الأمر عليهم، فبينما هو على هذه الحال إذ قد فتح باب القلعة، وخرج منه إنسان يطلب الأمان فأجيب إلى ذلك، فأذن له في الحضور، فحضر وطلب الأمان لمن في الحصن حتى يسلموه إليه بما فيه على قاعدة درب ساك فأجابهم إلى ما طلبوا! فعاد الرسول ومعه الأعلام الإسلامية، فرفعت على رأس القلعة، ونزل من فيها، وتسلم المسلمون القلعة بما فيها من ذخائر وأموال وسلاح، وأمر صلاح الدين بتخريبه، فخرِّب، وكان ذلك مضرة عظيمة على المسلمين، فإنَّ ابن ليون صاحب الأرمن خرج إليه من ولايته، وهو مجاوره، فجدَّد عمارته وأتقنه، وجعل فيه جماعة من عسكره يغيرون منه على البلاد، فتأذَّى بهم السواد الذي لحلب وهو الى الآن بأيديهم.

ذكر الهدنة بين المسلمين وصاحب انطاكية

لما فتح صلاح الدين بغراس عزم على التوجه إلى أنطاكية وحصرها فخاف البيمند صاحبها من ذلك، وأشفق منه، فأرسل إلى صلاح الدين يطلب الهدنة، وبذل إطلاق كل أسير عنده من المسلمين، فاستشار من عنده من أصحاب الأطراف وغيرهم، فأشار

أكثرهم بإجابته إلى ذلك ليعود الناس ليستريحوا ويجدّدوا ما يحتاجون إليه، فأجاب إلى ذلك، واصطلحوا ثمانية أشهر أولها أول تشرين الأول وآخرها آخر أيار، وسيَّر رسوله إلى صاحب انطاكية يستحلفه ويطلق من عنده من الأسرى، وكان صاحب انطاكية في هذا الوقت أعظم الفرنج شأناً وأكثرهم ملكاً، فإنه كان الفرنج قد سلَّموا اليه طرابلس بعد موت القمص وجميع أعمالها مضافاً إلى ما كان له لأن القمّص لم يخلف ولداً، فلمّا سلّمت إليه طرابلس جعل ولده الأكبر فيها نائباً عنه، وأمّا صلاح الدين، فإنه عاد إلى حلب ثالث شعبان، فدخلها. وسار منها إلى دمشق، وفرق العساكر الشرقية كعماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار والخابور وعسكر الموصل وغيرها، ثمَّ رحل من حلب إلى دمشق وجعل طريقه على قبر عمر بن عبد العزيز، فزاره وزار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربي، وكان مقيماً هناك، وكان من عباد الله الصالحين، وله كرامات ظاهرة، وكان مع صلاح الدين الأمير عز الدين أبو الفليتة قاسم بن المهنا العلوي الحسيني، وهو أمير مدينة النبي ﷺ كان قد حضر عنده وشهد معه مشاهده وفتوحه، وكان صلاح الدين قد تبرَّك برؤيته، وتيمن بصحبته، وكان يكرمه كثيراً، وينبسط معه ويرجع إلى قوله في أعماله كلها، ودخل دمشق أول شهر رمضان، فأشير عليه بتفريق العساكر، فقال: ان العمر قصير، والأجل غير مأمون، وقد بقي بيد الفرنج هذه الحصون كوكب وصفد والكرك وغيرها، ولا بد من الفراغ منها فإنها في وسط بلاد الإسلام، ولا يؤمن شر أهلها، وإن أغفلناهم ندمنا فيما بعد والله أعلم.

ذكر فتح الكرك وما يجاوره

كان صلاح الدين قد جعل على الكرك عسكراً يحصره، فلازموا الحصار هذه المدة الطويلة حتى فنيت أزواد الفرنج وذخائرهم، وأكلوا دوابهم، وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال، فراسلوا الملك العادل أخا صلاح الدين، وكان جعله صلاح الدين على قلعة الكرك في جمع من العسكر يحصرها، ويكون مطلعا على هذه الناحية من البلاد لما أبعد هو الى درب ساك وبغراس، فوصلته رسل الفرنج من الكرك يبذلون تسليم القلعة إليه، ويطلبون الأمان، فأجابهم الى ذلك، وأرسل إلى مقدّم العسكر الذي يحصرها في المعنى، فتسلَّم القلعة منهم وأمّنهم، وتسلم أيضاً ما يقاربه من الحصون كالشوبك، وهزموا الوعيرة والسلع، وفرغ القلب من تلك الناحية، وألقى الإسلام هناك جرانه،

وأمنت قلوب من في ذلك الصقع من البلاد كالقدس وغيره، فإنهم كانوا ممّن بتلك الحصون وجلين، ومن شرهم مشفقين.

ذكر فتح قلعة صفد

لما وصل صلاح الدين إلى دمشق، وأشير عليه بتفريق العساكر ، وقال: لا بدَّ من الفرنج من صفد وكوكب وغيرها، أقام بدمشق إلى منتصف رمضان، وسار عن دمشق إلى قلعة صفد، فحصرها وقاتلها ونصب عليها المنجنيقات، وأدام الرمي اليها ليلاً ونهاراً بالحجارة، والسهام، وكان اهلها قد قارب ذخائرهم وأزوادهم أن تفنى في المدّة التي كانوا فيها محاصرين، فإنَّ عسكر صلاح الدين كان يحاصرهم ـ كما ذكرناه ـ فلما رأى أهله جدّ صلاح الدين في قتالهم، خافوا أن يقيم إلى أن يفنى ما بقي معهم من أقواتهم، وكانت قليلة، ويأخذهم عنوة ويهلكهم، أو أنهم يضعفون عن مقاومته قبل فناء ما عندهم من القوت فيأخذهم، فأرسلوا يطلبون الأمان، فأمنهم وتسلمها منهم، فخرجوا، عنها إلى مدينة صور، وكفى الله المؤمنين شرهم، فإنهم كانوا وسط البلاد الإسلامية.

ذكر فتح كوكب

لمّا كان صلاح الدين يحاصر صفد ، اجتمع من بصور من الفرنج وقالوا: إن فتح المسلمون قلعة صفد لم تبق كوكب ولو انها معلقة بالكوكب، وحينئذ ينقطع طمعنا من هذا الطرف من البلاد، فاتّفق رأيهم على إنفاذ نجدة لها سرّاً من رجال وسلاح وغير ذلك، فأخرجوا مائتي رجل من شجعان الفرنج وأجلادهم، فساروا الليل مستخفين، وأقاموا النهار مكمنين، فاتفق من قدر الله تعالى أن رجلاً من المسلمين الذين يحاصرون كوكب خرج متصيّداً فلقي رجلا من تلك النجدة، فاستغربه بتلك الأرض، فضربه ليعلمه بحاله وما الذي أقدمه إلى هناك، فأقرَّ بالحال ودله على أصحابه، فعاد الجنديُّ المسلم الى قايماز النجمي، وهو مقدم ذلك العسكر، فأعلمه الخبر والفرنجي معه، فركب في طائفة من العسكر الى الموضع الذي قد اختفى فيه الفرنج، فكبسهم، فأخذهم وتتبعهم في الشعاب والكهوف، فلم يفلت منهم أحد، فكان معهم مقدمان من فرسان الاسبتار ، فحملوا إلى صلاح الدين ـ وهو على صفد ـ فأحضرهما ليقتلهما، وكانت عادته قتل الداوية والاسبتارية لشدّة عدواتهم للمسلمين وشجاعتهم، فلما أمر

بقتلهماقال له أحدهما: ما أظنُّ ينالنا سوء وقد نظرنا إلى طلعتك المباركة ووجهك الصبيح، وكان رحمه الله كثير العفو يفعل الاعتذار والاستعطاف فيه فيعفو ويصفحَ فلما سمع كلامهما لم يقتلهما وأمر بهما فسجنا، ولما فتح صفد سار عنها إلى كوكب، ونازلها وحصرها، وأرسل إلى من بها من الفرنج يبذل لهم الأمان إن سلموا ويتهددهم بالقتل والسبي والنهب إن امتنعوا، فلم يسمعوا قوله وأصروا على الامتناع، فجدَّ في قتالهم، ونصب عليهم المنجنيقات، وتابع رمي الأحجار اليهم، وزحف مرّة بعد مرّة، وكانت الأمطار كثيرة لا تنقطع ليلا ولا نهاراً، فلم يتمكن المسلمون من القتال على الوجه الذي يريدونه، وطال مقامهم عليها، وفي آخر الأمر زحف اليها دفعات متناوبة في يوم واحد، ووصلوا إلى باشورة القلعة ومعهم النقَّابون، والرماة يحمونهم بالنشاب عن قوس اليد والجروخ، فلم يقدر أحد منهم أن يخرج رأسه من أعلى السور، فنقبوا الباشورة فسقطت، وتقدموا إلى السور الأعلى، فلما رأى الفرنج ذلك اذعنوا بالتسليم وطلبوا الأمان، فأمنهم وتسلم الحصن منهم منتصف ذي القعدة وسيّرهم إلى صور، فوصلوا إليها، واجتمع بها من شياطين الفرنج وشجعانهم كل صنديد، فاشتدت شوكتهم وحميت جمرتهم، وتابعوا الرسل إلى من بالأندلس وصقلية وغيرها من جزائر البحر يستغيثون ويستنجدون، والأمداد كل قليل تأتيهم، وكان ذلك كله بتفريط صلاح الدين في إطلاق كل من حصره حتى عض بنانه ندما وأسفا حيث لم ينفعه ذلك واجتمع للمسلمين بفتح كوكب وصفد من حدايلة إلى أقصى أعمال بيروت لا يفصل بينه غير مدينة صور، وجميع أعمال انطاكية سوى القصير، ولما ملك صلاح الدين صفد سار إلى البيت المقدس، فعيَّد فيه عيد الأضحى، ثم سار منه إلى عكا، فأقام بها حتى انسلخت السنة.

ذكر ظهور طائفة من الشيعة بمصر

في هذه السنة ثار بالقاهرة جماعة من الشيعة عدتهم اثنا عشر رجلا ليلا، ونادوا بشعار العلويين يالَ علي يالَ علي وسلكوا الدروب ينادون ظنًّا منهم أن رعيّة البلد يلبون دعوتهم ويخرجون معهم، فيعيدون الدولة العلويّة، ويخرجون بعض من بالقصر محبوساً منهم ويملكون البلد، فلم يلتفت أحد منهم إليهم ولا أعارهم سمعه، فلما رأوا ذلك تفرقوا خائفين، فأخذوا وكتب بذلك إلى صلاح الدين، فأهمّه أمرهم وأزعجه،

فدخل عليه القاضي الفاضل فأخبره الخبر. فقال القاضي الفاضل: ينبغي أن تفرح بذلك ولا تحزن ولا تهتم، حيث علمت من بواطن رعيتك المحبة لك والنصح، ولترك الميل إلى عدوك، ولو وضعت جماعة يفعلون مثل هذه الحالة لتعلم بواطن أصحابك ورعيتك، وخسرت الأموال الجليلة عليهم لكان قليلا فسرى عنه، وكان هذا القاضي الفاضل صاحب دولة صلاح الدين وأكبر من بها، وستأتي مناقبه عند وفاته ما تراه.

ذكر انهزام عسكر الخليفة من السلطان طغرل

في هذه السنة جهّز الخليفة الناصر لدين الله عسكراً كثيراً، وجعل المقدّم عليهم وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس، وسيّرهم الى مساعدة قزل ليكفّ الناس طغرل عن البلاد، فسار العسكر ثالث صفر إلى أن قارب همذان، فلم يصل قزل اليهم، وأقبل طغرل اليهم، فالتقوا ثامن ربيع الأول بداي مرج عند همذان، واقتتلوا، فلم يثبت عسكر بغداد بل انهزموا وتفرقوا، وثبت الوزير قائما ومعه مصحف وسيف فأتاه من عسكر طغرل من أسره، وأخذ مع معه من خزانة وسلاح ودواب وغير ذلك، وعاد العسكر الى بغداد متفرِّقين، وكنت حينئذ بالشام في عسكر صلاح الدين يريد الغزاة، فأتاه الخبر مع النجابين بمسير العسكر البغدادي، فقال: كأنكم وقد وصل الخبر بانهزامهم، فقال له بعض الحاضرين: وكيف ذلك؟ فقال: لا شكّ ان اصحابي واهلي أعرف بالحرب من الوزير وأطوع في العسكر منه، ومع هذا فما أرسل أحداً منهم في سريّة للحرب إلا وأخاف عليه، وهذا الوزير غير عارف بالحرب، وقريب العهد بالولاية، ولا يراه الأمراء أهلا أن يطاع، وفي مقابله سلطان شجاع قد باشر الحرب بنفسه ومن معه يطيعه، وكان الأمر كذلك ووصل الخبر إليه بانهزامهم فقال لأصحابه: كنت اخبرتكم بكذا وكذا، وقد وصل الخبر بذلك، ولما عادت عساكر بغداد منهزمة قال بعض الشعراء وهو احمد بن الواثق بالله:

اتركونا من جائحاتِ الجريمهْ ... طلعةٌ طلعةٌ تكونُ وخيمهْ
بركاتُ الوزيرِ قد شملتنَا ... فلهذَا أمورُنا مُسْتقيمهْ
خَرَجَتْ جندُنَا تريدُ خراسا ... نَ جميعاً بأبَّهاتٍ عَظيمهْ
بخيولٍ وعدَّةٍ وعديدٍ ... وسيوفٍ مجرَّباتٍ قَديمهْ
ووزيرٍ وطاق طنبٍ ونقشٍ ... وخيولٍ معدةٍ للهزيمهْ

هـمْ رأوا غـرَّة الـعـدوِّ وقـدْ	أقبل ولّوا وانحلَّ عقدُ العزيمهْ
وأتَـونَـا ولا يـخـفـى حـنـيـن	بـوجـوهٍ سـودٍ قبـاحٍ دَميمـهْ
لـو رأى صـاحبُ الـزمـانِ ولـو	عـاينَ أفعالهم وقبِّح الجـريمـهْ
قـابـلَ الـكـلَّ بـالـنَّـكـالِ	وناهيكَ بهـا سبةٍ عليهم مقيمـهْ

كان ينبغي أن تتقدم هذه الحادثة، وإنما أخرتها لتتبع الحوادث المتقدمة بعضها بعضاً لنعلق كل واحدة منها بالأخرى.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفي شيخنا أبو محمد عبـد الله بن علي بن عبد الله بن سـويدة التكريتي، كان عالماً بالحديث وله تصانيف حسنة.

وفيها توفيت سلجوقة خاتون بنت قلج أرسلان بن مسعود بن قلج ارسلان زوجة الخليفة، وكانت قبله زوجة نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن، فلما توفي عنها تزوجها الخليفة، ووجد الخليفة عليها وجداً عظيماً ظهر للنـاس كلّهم وبنى على قبرها تربة بالجانب الغربي وإلى جانب التربة رباطه المشهور بالرملة.

وفيها توفي علاء الدين تنامش، وحمل تابوته إلى مشهد الحسن عليه السلام.

وفيها توفي خادم الخليفة وكان أكبر أمير ببغداد. ومات أبو الفرج بن النقور العدل ببغداد، وسمع الحديث الكثير، وهو من بيت الحديث رحمه الله[1]

---

(١) وفيها توفى الأمير الكبير سلالة الملوك والسلاطين الشيزرى مؤيد الدولة أبو الحارث وأبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ أحد الشعراء المشهورين، المشكورين، بلغ من العمر ستاً وتسعين سنة، وكان عمره تاريخاً مستقلا وحده، وكانت داره بدمشق، مكان العزيزية، وكانت معقلاً للفضلاء، ومنزلا للعلماءوله أشعار رائقة، ومعان فائقة ولديه علم غزير، وعنده جود وفضل كثير، وكان من أولاد ملوك شيزر، ثم أقام بمصر مدة في أيام الفاطميين،ثم عاد إلى الشام فقدم على الملك صلاح الدين في سنة سبعين وأنشده:

حمـدتُ على طـول عمـري المشيبَـا	وإن كـنـتُ أكـثـرتُ فيـه الـذُّنُـوبَـا
لأنّـي حـيـيـت إلـى أن لَـقـيـت	بـعـد الـعـدوِّ صـديـقـاً حـبـيـبـاً

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة

ذكر فتح شقيف أرنوم

في هذه السنة في ربيع الأول سار صلاح الدين إلى شقيف أرنوم، وهو من أمنع الحصون ليحصره، فنزل بمرج عيون، فنزل صاحب الشقيف ـ وهو أرنـاط صاحب صيدا ـ وكان هذا أرناط من أعظم الناس دهاء ومكراً، فدخل اليه واجتمع به، واظهر له الطاعة والمودة وقال له: أنا محبٌ لك ومعترف بإحسناك وأخاف أن يعرف المركيس ما بيني وبينك، فينال أولادي وأهلي منه أذى، فإنهم عنده، فأشتهي أن تمهلني حتى أتوصل في تخليصهم من عنده، وحينئذ أحضر أنا وهم عندك ونسلم الحصن إليك، وأكون أنا وهم في خدمتك نقنع بما تعطينا من أقطاع، فظنَّ صلاح الدين صدقه، فأجابه إلى ما سأل، فاستقر الأمر بينهما أن يتسلم الشقيف في جمادى الآخرة، وأقام صلاح الدين بمرج عيون ينتظر الميعاد، وهو قلق مفكر لقرب انقضاء مدة الهدنة بينه وبين البيمند صاحب أنطاكية، فأمر تقيّ الدين ابن أخيه أن يسير فيمن معه من عساكره ومن يأتي من بلاد المشرق، ويكون مقابل أنطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الإسلام عند انقضاء الهدنة، وكان أيضاً منزعج الخاطر كثير الهمّ لما بلغه من اجتماع الفرنج بمدينة صور وما يتصل بهم من الأمداد في البحر، وأن ملك الفرنج الذي كان قد أسره صلاح الدين وأطلقه بعد فتح القدس قد اصطلح هو والمركيس بعد اختلاف كان بينهما، وأنّهم قد اجتمعوا في خلق لا تحصى، فإنهم قد خرجوا من مدينة صور إلى ظاهرها، فكان هذا وأشباهه ممّا يزعجه ويخاف من ترك الشقيف وراء ظهره والتقدم إلى صور وفيها الجموع المتوافرة فتنقطع الميرة عنه إلا أنه مع هذه الأشياء مقيم على العهد مع أرناط صاحب الشقيف وكان أرناط في مدّة الهدنة يشتري الأقوات من سوق العسكر والسلاح وغير ذلك ممّا يحصّن به شقيفه، وكان صلاح الدين يحسن الظنّ وإذا قيل له عنه ممّا هو فيه من المكر، وأن قصده المطاولة إلى أن يظهر الفرنج من صور، وحينئذ يبدي فضيحته

ويظهر مخالفته لا يقبل فيه فلمّا قارب انقضاء الهدنة تقدّم صلاح الدين من معسكره إلى القرب من شقيف أرنوم وأحضر عنده أرناط، وقد بقي من الأجل ثلاثة أيام فقال له: في معنى تسليم الشقيف، فاعتذر بأولاده وأهله وأن المركيس لم يمكنهم من المجيء إليه، وطلب التأخير مدة أخرى، فحينئذٍ علم السلطان مكره وخداعه، فأخذه وحبسه وأمره بتسليم الشقيف، فطلب قسّيساً ذكره ليحمل رسالة إلى من بالشقيف ليسلموه، فأحضروه عنده فساره بما لم يعلموا، فمضى ذلك القسيس إلى الشقيف، فأظهر أهله العصيان فسيَّر صلاح الدين ارناط إلى دمشق وسجنه وتقدم إلى الشقيف فحصره وضيق عليه وجعل عليه من يحفظه ويمنعه عن الذخيرة والرجال.

ذكر وقعة اليزك مع الفرنج

لما كان صلاح الدين بمرج عيون وعلى الشقيف جاءته كتب من أصحابه ـ الذين جعلهم يزكا في مقابل الفرنج على صور ـ يخبرونه فيها أنّ الفرنج قد أجمعوا على عبور الجسر الذي لصور، وعزموا على حصار صيدا، فسار صلاح الدين جريدة في شجعان أصحابه سوى من جعله على الشقيف، فوصل إليهم، وقد فات الأمر وذلك أن الفرنج قد فارقوا صور، وساروا عنها لمقصدهم، فلقيهم اليزك على مضيق هناك، وقاتلوهم ومنعوهم، وجرى لهم معهم حرب شديدة يشيب لها الوليد، وأسروا من الفرنج جماعة وقتلوا جماعة، وقتل من المسلمين أيضا جماعة منهم مملوك لصلاح الدين كان من أشجع الناس، فحمل وحده على صف الفرنج، فاختلط بهم وضربهم بسيفه يميناً وشمالاً، فتكاثروا عليه فقتلوه رحمه الله. ثم إنّ الفرنج عجزوا عن الوصول إلى صيدا فعادوا إلى مكانهم.

ذكر وقعة ثانية للغزاة المتطوّعة

لما وصل صلاح الدين إلى اليزك، وقد فاتته تلك الوقعة أقام عندهم في خيمة صغيرة ينتظر عودة الفرنج لينتقم منهم ويأخذ بثأر من قتلوه من المسلمين، فركب في بعض الأيام في عدّة يسيرة على أن ينظر إلى مخيّم الفرنج من الجبل ليعمل بمقتضى ما يشاهده، وظنّ من هناك من غزاة العجم والعرب المتطوعة أنه على قصد المصاف، والحرب، فساروا مجدّين، وأوغلوا في أرض العدوّ مبعدين، وفارقوا الحزم، وخلفوا

السلطان وراء ظهورهم وقاربوا الفرنج فأرسل صلاح الدين عدّة من الأمـراء يردونهم ويحمونهم إلى أن يخرجوا، فلم يسمعوا ولم يقبلوا، وكان الفرنج قد اعتقدوا أن وراءهم كميناً، فلم يقدموا عليهم، فأرسلوا من ينظر حقيقة الأمر، فأتاهم الخبر انهم منقطعون عن المسلمين وليس وراءهم ما يخاف، فحملت الفرنج عليهم حملة رجل واحد، فقاتلوهم، فلم يلبثوا أن أناموهم وقتل معهم جماعة من المعروفين، وشقّ على صلاح الدين والمسلمين ما جرى عليهم، وكان ذلك بتفريطهم في حقّ أنفسهم رحمهم الله ورضي عنهم، وكانت هذه الوقعة تاسع جمادى الأولى، فلما رأى صلاح الدين ذلك انحدر من الجبل اليهم في عسكره، فحملوا على الفرنج، فألقوهم إلى الجسر، وقد أخذوا طريقهم، فالقوا أنفسهم في الماء، فغرق منهم نحو مائة دارع سوى من قتل، وعزم السلطان على مصابرتهم ومحاصرتهم، فتسامع الناس، فقصدوه واجتمع معه خلق كثير، فلما رأى الفرنج ذلك عادوا إلى مدينة صور، فلما عادوا اليها عاد صلاح الدين إلى تبنين، ثم إلى عكا ينظر حالها، ثم عاد إلى العسكر والمخيم.

ذكر وقعة ثالثة

لما عاد صلاح الدين إلى العسكر أتاه الخبر أن الفرنج يخرجون من صور للاحتطاب والاحتشاش متبددين، فكتب إلى من بعكا من العسكر، وواعدهم يوم الاثنين ثامن جمادى الآخرة ليلاقوهم من الجانبين، ورتّب كمناء في موضع من تلك الأودية والشعاب، واختار جماعة من شجعان عسكره، وأمرهم أنهم إذا حمل عليهم الفرنج قاتلوهم شيئاً من قتال، ثم تطاردوا لهم وأروهم العجز عن مقاتلتهم، فإذا تبعهم الفرنج استجروهم إلى أن يجوزوا مواضع الكمين، ثم يعطفوا عليهم ويخرج الكمين من خلفهم، فخرجوا على هذه العزيمة، فلما تراءى الجمعان والتقت الفئتان أنف فرسان المسلمين أن يظهر عنهم اسم الهزيمة، وثبتوا، فقاتلوهم وصبر بعضهم لبعض، واشتدّ القتال، وعظم الأمر، ودامت الحرب، وطال على الكمناء الانتظار، فخافوا على أصحابهم، فخرجوا من مكانهم نحوهم مسرعين وإليهم قاصدين، فأتوهم وهم في شدّة الحرب، فازداد الأمر شدّة على شدّة، وكان فيهم أربعة أمراء من ربيعة طي، وكانوا يجهلون تلك الأرض، فلم يسلكوا مسلك أصحابهم، فسلكوا الوادي ظناً منهم أنه يخرج بهم إلى أصحابهم وتبعهم بعض مماليك صلاح الدين، فلما رآهم الفرنج

بالوادي علموا أنهم جاهلون، فأتوهم وقاتلوهم، وأما المملوك، فإنه نزل عن فرسه وجلس على صخرة واخذ قوسه بيده وحمى نفسه، وجعلوا يرمونه بسهام الزنبورك، وهو يرميهم، فجرح منهم جماعة وجرحوه جراحات كثيرة، فسقط فأتوه وهو بآخر رمق، فتركوه وانصرفوا، وهم يحسبونه ميتاً، ثم إن المسلمين جاؤوا من الغد إلى موضعهم، فرأوا القتلى ورأوا المملوك حيّاً فحملوه في كساء، وهو لا يكاد يعرف من الجراحات، فأيسوا من حياته وأعرضوا عليه الشهادة وبشروه بالشهادة، فتركوه ثمَّ عادوا إليه فرأوه وقد قويت نفسه، فأقبلوا عليه بمشروب، فعوفي ثم كان بعد ذلك لا يحضر مشهداً إلا كان له فيه الأثر العظيم.

ذكر مسير الفرنج إلى عكا ومحاصرتها

لما كثر جمع الفرنج بصور ـ على ما ذكرناه ـ من أن صلاح الدين كان كلما فتح مدينة أو قلعة أعطى أهلها الأمان، وسيرهم إليها بأموالهم ونسائهم وأولادهم، فاجتمع بها منهم عالم كثير لا يعدّ ولا يحصى، ومن الأموال ما لا يفنى على كثرة الإنفاق في السنين الكثيرة، ثم إن الرهبان والقسس وخلقاً كثيراً من مشهوريهم وفرسانهم لبسوا السواد وأظهروا الحزن على خروج البيت المقدس من أيديهم وأخذهم البطرك الذي كان بالقدس، ودخل بهم بلاد الفرنج يطوفها بهم جميعا ويستنجدون أهلها ويستجيرون بهم ويحثونهم على الأخذ بثار البيت المقدس وصور والمسيح عليه السلام، وجعلوا صورة رجل عربي والعربي يضربه، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام، وقالوا لهم هذا المسيح يضربه محمّد نبي المسلمين وقد جرحه وقتله، فعظم ذلك على الفرنج، فحشروا وحشدوا حتى النساء، فإنهم كان معهم على عكّا عدّة من النساء يبارزون الأقران ـ على ما نذكره إن شاء الله تعالى ـ ومن لم يستطع الخروج استأجر من يخرج عوضه أو يعطيهم مالا على قدر حالهم، فاجتمع لهم من الرجال والأموال ما لا يتطرق إليه الإحصاء.

ولقد حدثني بعض المسلمين المقيمين بحصن الأكراد، وهو من أجناد أصحابه الذين سلّموه إلى الفرنج قديماً، وكان هذا الرجل قد ندم على ما كان منه من موافقة الفرنج في الغارة على بلاد الإسلام والقتال معهم والسعي معهم، وكان سبب اجتماعي به ما أذكره سنة تسعين وخمسمائة إن شاء الله تعالى قال لي هذا الرجل: إنه دخل مع

جماعة من الفرنج من حصن الأكراد إلى البلاد البحرية التي للفرنج والروم في أربع شواني يستنجدون. قال: فانتهى بنا التطواف إلى رومية الكبرى، فخرجنا منها وقد ملأنا الشواني نقرة.

وحدثني بعض الأسرى منهم أن له والدة ليس لها ولد سواه، ولا يملكون من الدنيا غير بيت باعته وجهزته بثمنه، وسيرته لاستنقاذ البيت المقدس فأخذ أسيراً، وكان عند الفرنج من الباعث الديني والنفساني ما هذا حده، فخرجوا على الصعب والذلول براً وبحراً من كل فجّ عميق، ولولا الله تعالى لطف بالمسلمين، وأهلك ملك الألمان لما خرج ـ على ما نذكره ـ عند خروجه ـ إلى الشام وإلا كان يقال: إن الشام ومصر كانتا للمسلمين، فهذا كان سبب خروجهم، فلمّا اجتمعوا بصور يموج بعضهم في بعض ومعهم الأموال العظيمة، والبحر يمدهم بالأقوات والذخائر والعدد والرجال من بلادهم، فضاقت عليهم صور باطنها وظاهرها، فأرادوا قصد صيدا، وكان ما ذكرناه فعادوا واتفقوا على قصد عكّا ومحاصرتها ومصابرتها، فساروا إليها بفارسهم وراجلهم وقضهم وقضيضهم، ولزموا البحر في مسيرهم لا يفارقونه في السهل والوعر الضيق والسعة، ومراكبهم تسير مقابلهم في البحر فيها سلاحهم وذخائرهم، ولتكون عدَّة لهم إن جاءهم ما لا قبل لهم به ركبوا فيها وعادوا، وكان رحيلهم ثامن رجب ونزولهم على عكّا في منتصفه، ولما كانوا سائرين كان يزك المسلمين يتخطفونهم ويأخذون المنفرد منهم، ولما رحلوا جاء الخبر إلى صلاح الدين برحيلهم، فسار حتى قاربهم، ثمّ جمع امراءه واستشارهم هل يكون المسير محاداة الفرنج ومقاتلتهم وهم سائرون أو يكون في غير الطريق التي سلكوها، فقالوا: لا حاجة بنا إلى احتمال المشقة في مسايرتهم، فإن الطريق وعر وضيق ولا يتهيأ لنا ما نريده منهم، والرأي أننا نسير في الطريق المهيع ونجتمع عليهم عند عكا فنفرقهم ونمزقهم، فعلم ميلهم إلى الراحة المعجلة فوافقهم، وكان رأيه مسايرتهم ومقاتلتهم وهم سائرون، وقال: إن الفرنج إذا نزلوا لصقوا بالأرض، فلا يتهيأ لنا إزعاجهم ولا نيل الغرض منهم، والرأي قتالهم قبل الوصول إلى عكا فخالفوه، فتبعهم وساروا على طريق كفركنا، فسبقهم الفرنج، وكان صلاح الدين قد جعل في مقابل الفرنج جماعة من الأمراء يسايرونهم ويناوشونهم القتال ويتخطفونهم، ولم يقدم الفرنج عليهم مع قلتهم، فلو أن العساكر اتبعت رأي صلاح الدين في

مسايرتهم ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكّا لكان بلغ غرضه وصدهم عنها، ولكن إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه، ولما وصل صلاح الدين إلى عكا رأى الفرنج قد نزلوا عليها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر ولم يبق للمسلمين إليها طريق، فنزل صلاح الدين عليهم وضرب خيمته على تل كيسان، وامتدت ميمنته إلى تل الغياظية وميسرته إلى النهر الجاري، ونزلت الأثقال بصفورية، وسيّر الكتب إلى الأطراف باستدعاء العساكر، فأتاه عسكر الموصل وديار بكر وسنجار وغيرها من بلاد الجزيرة، وأتاه تقي الدين ابن أخيه، وأتاه مظفّر الدين بن زين الدين، وهو صاحب حرّان والرها وكانت الأمداد تأتي المسلمين في البر وتأتي الفرنج في البحر، وكان بين الفريقين مدّة مقامهم على عكا حروب كثيرة ما بين صغيرة وكبيرة، منها اليوم المشهور، ومنها ما هو دون ذلك، وما عداها كان قتالاً يسيراً من بعضهم مع بعض، فلا حاجة إلى ذكره، ولما نزل السلطان عليهم لم يقدر على الوصول اليهم ولا إلى عكا حتى انسلخ رجب، ثم قاتلهم مستهل شعبان فلم ينل منهم ما يريد وبات الناس على تعبية، فلما كان الغد باكرهم القتال بحدّه وحديده، واستدار عليهم من سائر جهاتهم من بكرة الى الظهر، وصبر الفريقان صبراً حار له من رآه، فلما كان وقت الظهر حمل عليهم تقي الدين حملة منكرة من الميمنة على من يليه منهم، فأزاحهم عن مواقفهم، فركب بعضهم بعضاً لا يلوي أخ على أخ ، والتجؤوا إلى من يليهم من أصحابهم واجتمعوا بهم وأخلوا نصف البلد، وملك تقي الدين مكانهم والتصق بالبلد وصار ما أخلوه بيده، ودخل المسلمون البلد وخرجوا منه، واتصلت الطرق وزال الحصر عمن فيه، وأدخل صلاح الدين إليه من أراد من الرجال، وما أراد من الذخائر والأموال والسلاح وغير ذلك، ولو أن المسلمين لزموا قتالهم إلى الليل لبلغوا ما أرادوه، فإن للصدمة الأولى روعة لكنهم لما نالوا منهم هذا القدر أخلدوا إلى الراحة وتركوا القتال وقالوا: نباكرهم غدا ونقطع دابرهم، وكان في جملة من أدخله صلاح الدين إلى عكا من جملة الأمراء حسام الدين أبو الهيجاء السمين، وهو من أكابر امراء عسكره، وهو من الأكراد الخطية من بلد إربل، وقتل من الفرنج هذا اليوم جماعة كبيرة.

ذكر وقعة أخرى ووقعة العرب

ثمّ ان المسلمين نهضوا إلى الفرنج من الغد، وهو سادس شعبان عازمين على بذل

جهدهم واستنفاد وسعهم في استئصالهم، فتقدّموا على تعبيتهم، فرأوا الفرنج حذرين محتاطين قد ندموا على ما فرطوا فيه بالامس، وهم قد حفظوا أطرافهم ونواحيهم وشرعوا في حفر خندق يمنع من الوصول إليهم، فألحَّ المسلمون عليهم في القتال، فلم يتقدَّم الفرنج اليهم ولا فارقوا مرابضهم، فلما رأى المسلمون ذلك عادوا عنهم، ثمَّ إن جماعة من العرب بلغهم أن الفرنج تخرج من الناحية الأخرى إلى الاحتطاب وغيره من اشغالهم، فكمنوا لهم في معاطف النهر ونواحيه سادس عشر شعبان، فلما خرج جمع من الفرنج على عادتهم حملت عليهم العرب، فقتلوهم عن آخرهم وغنموا ما كان معهم، وحملوا الرؤوس الى صلاح الدين، فأحسن إليهم وأعطاهم الخلع.

ذكر الوقعة الكبرى على عكا

لما كان بعد هذه الوقعة المذكورة بقي المسلمون الى العشرين من شعبان كل يوم يغادون القتال مع الفرنج ويراوحونه، والفرنج لا يظهرون من معسكرهم ولا يفارقونه، ثم إن الفرنج اجتمعوا للمشورة فقالوا: إن عسكر مصر لم يحضروا الحال مع صلاح الدين هكذا فكيف يكون إذا حضروا، والرأي اننا نلقى المسلمين غداً لعلنا نظفر بهم قبل اجتماع العساكر والأمداد إليهم، وكان كثير من عسكر صلاح الدين غائباً عنه، بعضهم مقابل أنطاكية ليردوا غائلة البيمند صاحبها عن أعمال حلب، وبعضهم في حمص مقابل طرابلس ليحفظ ذلك الثغر أيضاً وعسكر في مقابل صور لحماية ذلك البلد، وعسكر بمصر يكون بثغر دمياط والاسكندرية وغيرهما، والذي بقي من عسكر مصر كانوا لم يصلوا لطول بيكارهم ـ كما ذكرناه قبل ـ وكان هذا ممّا أطمع الفرنج في الظهور إلى قتال المسلمين، وأصبح المسلمون على عادتهم منهم من يتقدم إلى القتال ومنهم من هو في خيمته، ومنهم من قد توجه في حاجته في زيارة صديق وتحصيل ما يحتاج إليه هو وأصحابه ودوابه الى غير ذلك، فخرج الفرنج من معسكرهم كأنّهم الجراد المنتشر يدبون على وجه الأرض قد ملؤوها طولاً وعرضاً، وطلبوا ميمنة المسلمين وعليها تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين، فلما رأى أن الفرنج نحوه قاصدين حذر هو وأصحابه فتقدموا إليه، فلما قربوا منه تأخر عنهم، فلما رأى صلاح الدين الحال، وهو في القلب أمد تقي الدين برجال من عنده ليتقوى بهم، وكان عسكر ديار بكر وبعض الشرقيين في جناح القلب فلمّا رأى الفرنج قلة الرجال في القلب، وأن كثيراً منهم قد ساروا نحو

الميمنة مددا لهم عطفوا على القلب، فحملوا حملة رجل واحد، فاندفعت العساكر بين أيديهم منهزمين، وثبت بعضهم، فاستشهد جماعة منهم، كالأمير مجلى بن مروان والظهير أخي الفقيه عيسى، وكان والي البيت المقدس قد جمع بين الشجاعة والعلم والدين، وكالحاجب خليل الهكاري وغيرهم من الشجعان الصابرين في مواطن الحرب، ولم يبق بين أيديهم في القلب من يردهم فقصدوا التل الذي عليه خيمة صلاح الدين، فقتلوا من مروا به ونهبوا، وقتلوا عند خيمة صلاح الدين جماعة منهم شيخنا جمال الدين أبو علي بن رواحة الحموي، وهو من أهل العلم وله شعر حسن وما ورث الشهادة من بعيد، فإن جده عبد الله بن رواحة صاحب رسول الله ﷺ قتله الروم يوم مؤتة، وهذا قتله الفرنج يوم عكا، وقتلوا غيره وانحدروا الى الجانب الآخر من التل فوضعوا السيف فيمن لقوه، وكان من لطف الله تعالى بالمسلمين أن الفرنج لم يلقوا خيمة صلاح الدين ولو ألقوها لعلم الناس وصولهم إليها وانهزام العساكر بين أيديهم فكانوا انهزموا أجمعون، ثمّ إن الفرنج نظروا وراءهم فرأوا، أمدادهم قد انقطعت عنهم فرجعوا خوفا أن ينقطعوا عن أصحابهم، وكان سبب انقطاعهم أن الميمنة وقفت مقابلهم فاحتاج بعضهم يقف مقابلها، وحملت ميسرة المسلمين على الفرنج فاشتغل المدد بقتال من بها عن الاتصال بأصحابهم وعادوا إلى طرف خنادقهم، فحملت الميسرة على الفرنج الواصلين إلى خيمة صلاح الدين صادفوهم وهم راجعون فقاتلوهم، وثار بهم غلمان العسكر، وكان صلاح الدين لمّا انهزم القلب قد تبعهم يناديهم ويأمرهم بالكرة ومعاودة القتال، فاجتمع معه منهم جماعة صالحة، فحمل بهم على الفرنج من وراء ظهورهم وهم مشغولون بقتال الميسرة فأخذتهم سيوف الله من كل جانب، فلم يفلت منهم أحد بل قتل أكثرهم، وأخذ الباقون أسرى.

وفي جملة من أسر مقدّم الداوية الذي كان قد أسره صلاح الدين وأطلقه، فلما ظفر به الآن قتله، وكانت عدّة القتلى سوى من كان الى جانب البحر نحو عشرة آلاف قتيل فأمر بهم فألقوا في النهر الذي يشرب الفرنج منه، وكان عامّة القتلى من فرسان الفرنج، فإن الرجالة لم يلحقوهم، وكان في جملة الأسرى ثلاث نسوة فرنجيات كن يقاتلن على الخيل، فلما أسرن والقي عنهن السلاح عرفن أنهن نساء وأما المنهزمون من المسلمين فمنهم من رجع من طبريّة، ومنهم من جاوز الأردن وعاد، ومنهم من بلغ دمشق، ولولا

أن العساكر تفرقت في الهزيمة لكانوا بلغوا من الفرنج من الاستئصال والإهلاك مرادهم، على أن الباقين بذلوا جهدهم وجدوا في القتال وصمموا على الدخول مع الفرنج في معسكرهم لعلهم يفزعون منهم فجاءهم الصريخ بأن رحالهم وأموالهم قد نهبت، وكان سبب هذا النهب أن الناس لما رأوا الهزيمة حملوا أثقالهم على الدواب، فثار بهم أوباش العسكر وغلمانه فنهبوه وأتوا عليه، وكان في عزم صلاح الدين أن يباكرهم القتال والزحف، فرأى اشتغال الناس بما ذهب من أموالهم وهم يسعون في جمعها وتحصيلها، فأمر بالنداء بإحضار ما أخذ فأحضر منه ما ملأ الأرض من المفارش والعيب المملوءة والثياب والسلاح وغير ذلك فرد الجميع على أصحابه ففاته ذلك اليوم ما أراد فسكن روع الفرنج وأصلحوا شأن الباقين منهم.

ذكر رحيل صلاح الدين عن الفرنج وتمكنهم من حصر عكا

لما قتل من الفرنج ذلك العدد الكثير جافت الأرض من نتن ريحهم وفسد الهواء والجو ووجدت الأمزجة فسادا وانحرف مزاج صلاح الدين وحدث له قولنج مبرح، وكان يعتاده فحضر عنده الأمراء، وأشاروا عليه بالانتقال من ذلك الموضع وترك مضايقة الفرنج وحسنوه له، وقالوا: قد ضيقنا على الفرنج، ولو أرادوا الانفصال عن مكانهم لم يقدروا والرأي اننا نبعد عنهم بحيث يتمكنون من الرحيل والعود، فإن رحلوا فقد كفينا شرهم وكفوا شرنا وإن أقاموا عاودنا القتال ورجعنا معهم إلى ما نحن فيه، ثمّ إن مزاجك منحرف والألم شديد، ولو وقع إرجاف لهلك الناس والرأي على كل تقدير البعد عنهم ووافقهم الأطباء على ذلك فأجابهم إليه إلى ما يريد الله أن يفعله ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال﴾ فرحلوا إلى الخروبة رابع شهر رمضان وأمر من بعكا من المسلمين بحفظها وإغلاق أبوابها والاحتياط، وأعلمهم بسبب رحيله فلما رحل هو وعساكره أمن الفرنج وانبسطوا في تلك الأرض وعادوا وحصروا عكا وأحاطوا بها من البحر الى البحر ومراكبهم ايضا في البحر تحصرها، وشرعوا في حفر الخندق وعمل السور من التراب الذي يخرجونه من الخندق وجاؤوا بما لم يكن في الحساب وكان اليزك كل يوم يوافقهم، وهم لا يقاتلون ولا يتحركون إنما هم معتمدون بحفر الخندق والسور عليهم ليتحصنوا به من صلاح الدين إن عاد إلى قتالهم، فحينئذ ظهر رأي المشيرين بالرحيل وكان اليزك كل يوم يخبرون صلاح الدين بما يصنع الفرنج

ويعظّمون الأمر عليه وهو مشغول بالمرض لا يقدر على النهوض للحرب، واشار عليه بعضهم بأن يرسل العساكر جميعها إليها ليمنعهم من الخندق والسور ويقاتلوهم ويتخلّف هو عنهم، فقال: إذا لم احضر معهم لا يفعلون شيئاً وربما كان من الشر أضعاف ما نرجوه من الخير، فتأخّر الأمر إلى أن عوفي، فتمكّن الفرنج وعملوا ما أرادوا وأحكموا أمورهم، وحصنوا نفوسهم بما وجدوا إليه السبيل، وكان من بعكّا يخرجون إليهم كل يوم ويقاتلونهم وينالون منهم بظاهر البلد.

ذكر وصول عسكر مصر والأسطول المصري في البحر

في منتصف شوال وصلت العساكر المصرية ومقدمها الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، فلمّا وصل قويت نفوس الناس به وبمن معه واشتدت ظهورهم، واحضر معه من آلات الحصار من الدرق والطارقيات والنشاب والأقواس شيئاً كثيراً، ومعهم من الرجالة الجمّ الغفير، وجمع صلاح الدين من البلاد الشاميّة راجلاً كثيراً، وهو على عزم الزحف إليهم بالفارس والراجل، ووصل بعده الأسطول المصري ومقدمه الأمير لؤلؤ، وكان شهماً شجاعاً مقداماً خبيراً بالبحر والقتال فيه ميمون النقيبة، فوصل بغتة فوقع على بطسة كبيرة للفرنج فغنمها وأخذ منها أموالاً كثيرة وميرة عظيمة، فأدخلها إلى عكار، فسكنت نفوس من بها بوصول الأسطول وقوي جنانهم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في صفر خطب لوليّ العهد أبي نصر محمد بن الخليفة الناصر لدين الله ببغداد ونثرت الدنانير والدراهم وأرسل إلى البلاد في اقامة الخطبة ففعل ذلك.

وفيها في شوال ملك الخليفة تكريت، وسبب ذلك أن صاحبها وهو الأمير عيسى قتله إخوته وملكوا القلعة بعده، فسير الخليفة إليهم عسكراً، فحصروها وتسلموها، ودخل اصحابه إلى بغداد فأعطوا أقطاعا.

وفيها في صفر فتح الرباط الذي بناه الخليفة بالجانب الغربي من بغداد وحضر الخلق العظيم فكان يوما مشهوداً.

وفي هذه السنة في رمضان مات شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد بن هبة الله

ابن أبي عصرون الفقيه الشافعي بدمشق، وكان قاضيها وأضر وولي القضاء بعده ابنه، وكان الشيخ من أعيان الفقهاء الشافعية.

وفيها في ذي القعدة توفّي الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري بالخروبة مع صلاح الدين، وهو من أعيان أمراء عسكره ومن قدماء الأسدية وكان فقيهاً جندياً شجاعاً كريماً ذا عصبية ومروءة وهو من أصحاب الشيخ الإمام أبي القاسم بن البرزي تفقـه عليه بجزيرة ابن عمر، ثم اتصل بأسد الدين شيركوه، فصار إماماً له، فرأى من شجاعته ما جعل له أقطاعاً، وتقدّم عند صلاح الدين تقدماً عظيماً.

وفيها في صفر توفّي شيخنا أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن وهبان المعروف بابن أفضل الزمان بمكة، وكان رحمه الله عالماً متبحراً في علوم كثيرة خلاف فقه مذهبه والأصولَيْن والحساب والفرائض والنجوم والهيئة والمنطق وغيـر ذلك، وختم أعمـاله بالزهد ولبس الخشن، وأقام بمكة ـ حرسها الله تعالى ـ مجاوراً فتوفّي بهـا وكان من أحسن الناس صحبة وخلقاً.

وفيها في ذي القعدة مات أبو طالب المبارك بن المبارك الكرخي مدرس النظامية، وكان من أصحاب أبي الحسن بن الخل، وكان صالحاً خيرا له عند الخليفة والعامة حرمة عظيمة وجاه عريض، وكان حسن الخط يضرب به المثل.

ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة

ذكر وقعة الفرنج واليزك وعود صلاح الدين إلى منازلة الفرنج

قد ذكرنا رحيل صلاح الدين عن عكّا إلى الخروبة لمرضه، فلما برأ أقام بمكانه إلى أنْ ذهب الشتاء، وفي مدّة مقامه بالخروبة كان يزكه وطلائعه لا تنقطع عن الفرنج، فلمّا دخل صفر من سنة ست وثمانين وخمسمائة سمع الفرنج أنّ صلاح الدين قد سار للصيد ورأى العسكر الذي في اليزك عندهم قليلاً، وأنّ الوحل الذي في مرج عكّا كثير يمنع من سلوكه من أراد أن ينجد اليزك، فاغتنموا ذلك، وخرجوا من خندقهم على اليزك وقت العصر، فقاتلهم المسلمون وحموا أنفسهم بالنشاب، وأحجم الفرنج عنهم حتى فني نشابهم، فحملوا عليهم حينئذ حملة رجل واحد، فاشتد القتال وعظم الأمر، وعلم المسلمون أنه لا ينجيهم إلا الصبر وصدق القتال، فقاتلوا قتال مستقتل إلى أن جاء الليل، وقتل من الفريقين جماعة كثيرة، وعاد الفرنج إلى خندقهم، ولمّا عاد صلاح الدين إلى المعسكر سمع خبر الوقعة، فندب الناس إلى نصر إخوانهم، فأتاه الخبر أن الفرنج عادوا إلى خندقهم، فأقام، ثمّ إنه رأى الشتاء قد ذهب، وجاءته العساكر من البلاد القريبة منه دمشق وحمص وحماه وغيرها، فتقدم من الخروبة نحو عكّا، فنزل بتل كيسان وقاتل الفرنج كل يوم ليشغلهم عن قتال من بعكّا من المسلمين فكانوا يقاتلون الطائفتين ولا يسأمون.

ذكر إحراق الأبراج ووقعة الأسطول

كان الفرنج في مدّة مقامهم على عكّا قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جداً، طول كل برج منها خمس طبقات، كل طبقة مملوءة من المقاتلة وقد جمع أخشابها من الجزائر، فإنّ مثل هذه الأبراج العظيمة لا يصلح لها من الخشب الا القليل النادر، وغشّوها بالجلود والخل والطين والأدوية التي تمنع النار من إحراقها، وأصلحوا الطرق

لها، وقدّموها نحو مدينة عكّا من ثلاث جهات، وزحفوا بها من العشرين من ربيع الأول، فأشرفت على السور وقاتل من بها من عليه فانكشفوا وشرعوا في طم خندقها، فأشرف البلد على أن يملك عنوة وقهراً، فأرسل أهله إلى صلاح الدين إنساناً سبح في البحر، فأعلمه ما هم فيه من الضيق، وما قد أشرفوا عليه من أخذهم وقتلهم، فركب هو وعساكره وتقدموا إلى الفرنج، وقاتلهم من جميع جهاتهم قتالاً عظيماً دائماً يشغلهم عن مكاثرة البلد، فافترق الفرنج فرقتين فرقة تقاتل صلاح الدين وفرقة تقاتل أهل عكّا إلا أن الأمر قد خفّ عمن بالبلد، ودام القتال ثمانية أيام متتابعة آخرها الثامن والعشرون من الشهر، وسئم الفريقان القتال وملوا منه لملازمته ليلا ونهارا، والمسلمون قد تيقنوا استيلاء الفرنج على البلد لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الأبراج فإنهم لم يتركوا حيلة إلا عملوها، فلم يفِدْ ذلك ولم يغنِ عنهم شيئاً وتابعوا رمي النفط الطيار عليها فلم يؤثر فيها، فأيقنوا بالبوار والهلاك، فأتاهم الله بنصر من عنده، وأذن من إحراق الأبراج.

وكان سبب ذلك أن إنساناً من أهل دمشق كان مولعاً بجمع آلات النفاطين، وتحصيل عقاقير تقوي عمل النار، فكان من يعرفه يلومه على ذلك وينكره عليه، وهو يقول: هذه حالة لم أباشرها بنفسي إنما أشتهي معرفتها، وكان بعكّا لأمر يريده الله، فلما رأى الأبراج قد نصبت على عكّا شرع في عمل ما يعرفه من الأدوية المقوّية للنار بحيث لا يمنعها شيء من الطين والخل وغيرهما، فلمّا فرغ منها حضر عند الأمير قراقوش، وهو متولّي الأمور بعكّا، والحاكم فيها، وقال له: يأمر المنجنيقي أن يرمي في المنجنيق المحاذي لبرج من هذه الأبراج ما أعطيه حتى أحرقه، وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله، فازداد غيظاً بقوله، وحرد عليه فقال له: قد بالغ أهل هذه الصناعة في الرمي بالنفط وغيره فلم يفلحوا، فقال له من حضر: لعل الله تعالى قد جعل الفرج على يد هذا، ولا يضرنا أن نوافقه على قوله، فأجابه إلى ذلك، وأمر المنجنيقي بامتثال أمره، فرمى عدّة قدور نفطاً وأدوية ليس فيها نار، فكان الفرنج إذا رأوا القدر لا يحرق شيئاً يصيحون ويرقصون ويلعبون على سطح البرج، حتى علم أن الذي ألقاه قد تمكّن من البرج ألقى قدراً مملوءة وجعل فيها النار، فاشتعل البرج، وألقى قدراً ثانية وثالثة، فاضطرمت النار في نواحي البرج، وأعجلت من في طبقاته الخمس عن الهرب والخلاص، فاحترق هو ومن فيه، وكان فيه من الزرديات

والسلاح شيء كثير، وكان طمع الفرنج بما رأوا أن القدور الأولى لا تعمل يحملهم على الطمأنينة وترك السعي في الخلاص حتى عجل الله لهم النار في الدنيا قبل الآخرة، فلما احترق البرج الأول انتقل الى الثاني ـ وقد هرب من فيه لخوفهم ـ فأحرقه وكذلك الثالث، وكان يوماً مشهوداً لم يرَ الناس مثله والمسلمون ينظرون ويفرحون، وقد اسفرّت وجوههم بعد الكآبة فرحاً بالنصر، وخلاص المسلمين من القتل، لأنهم ليس فيهم أحد إلا وله في البلد إمّا نسيب وإما صديق.

وحمل ذلك الرجل إلى صلاح الدين فبذل له الأموال الجزيلة والأقطاع الكثيرة، فلم يقبل منه الحبة الفرد وقال: إنما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء إلا منه، وسيّرت الكتب إلى البلاد بالبشائر، وأرسل يطلب العساكر الشرقية، فأول من أتاه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي وهو صاحب سنجار وديار الجزيرة، ثم أتاه علاء الدين ولد عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي سيّره أبوه مقدماً على عسكره، وهو صاحب الموصل، ثم وصل زين الدين يوسف صاحب إربل، وكان كل منهم إذا وصل يتقدّم إلى الفرنج بعسكره، وينضم إليه غيرهم ويقاتلونهم، ثم ينزلون، ووصل الأسطول من مصر، فلما سمع الفرنج بقربه جهّزوا الى طريقه اسطولاً ليلقاه ويقاتله، فركب صلاح الدين في العساكر جميعها وقاتلهم من جهاتهم ليشتغلوا بقتاله عن قتال الاسطول ليتمكّن من دخول عكّا، فلم يشتغلوا عن قصده بشيء، فكان القتال بين الفريقين براً وبحراً، وكان يوماً مشهوداً لم يؤرّخ مثله، وأخذ المسلمون من الفرنج مركباً فيه من الرجال والسلاح، وأخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك إلا أن القتل في الفرنج كان أكثر منه في المسلمين، ووصل الأسطول الإسلامي سالماً.

ذكر وصول ملك الألمان إلى الشام وموته

في هذه السنة خرج ملك الألمان من بلاده، وهم نوع من الفرنج من أكثرهم عدداً وأشدهم بأساً وكان قد ازعجه ملك الإسلام البيت المقدس، فجمع عساكره وازاح علتهم، وسار عن بلاد وطريقه على القسطنطينية، فأرسل ملك الروم بهذا إلى صلاح الدين يعرفه الخبر ويعده أنه لا يمكنه من العبور في بلاده، فلما وصل ملك الألمان الى القسطنطينية عجز ملكه عن منعه من العبور لكثرة جموعه لكنه منع عنهم الميرة ولم يمكن أحداً من رعيته من حمل ما يريدونه إليهم، فضاقت بهم الأزواد والأقوات وساروا

حتى عبروا خليج القسطنطينية، وساروا على أرض بلاد الإسلام، وهي مملكة الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن قلمش بن سلجق، فلما وصلوا إلى أوائلها ثار بهم التركمان الأرج، فما زالوا يسايرونهم ويقتلون من انفرد ويسرقون ما قدروا عليه، وكان الزمان شتاء والبرد يكون في تلك البلاد شديداً والثلج متراكماً، فأهلكهم البرد والجوع والتركمان، فقلَّ عددهم، فلما قاربوا مدينة قونية خرج إليهم الملك قطب الدين ملك شاه بن قلج أرسلان ليمنعهم، فلم يكن له بهم قوة، فعاد إلى قونية، وبها أبوه قد حجر ولده المذكور عليه، وتفرق أولاده في بلاده وتغلب كلٌّ واحد منهم على ناحية منها، فلما عاد عنهم قطب الدين أسرعوا السير في أثره فنازلوا قونية وأرسلوا إلى قلج أرسلان هدية وقالوا له: ما قصدنا بلادك ولا أردناها، وإنما قصدنا البيت المقدس، وطلبوا منه أن يأذن لرعيته في إخراج ما يحتاجون إليه من قوت وغيره فأذن في ذلك، فأتاهم ما يريدون، فشبعوا وتزودوا وساروا، ثمّ طلبوا من قطب الدين أن يأمر رعيته بالكفِّ عنهم وأن يسلم إليهم جماعة من أمرائه رهائن وكان يخافهم، فسلم إليهم نيفاً وعشرين أميراً كان يكرههم، فساروا بهم معهم ولم يمتنع اللصوص وغيرهم من قصدهم والتعرّض إليهم، فقبض ملك الألمان على من منعه من الأمراء وقيّدَهم، فمنهم من هلك في أسره، ومنهم من فدى نفسه، وسار ملك الألمان حتى أتى بلاد الأرمن وصاحبها لافون بن اصطفانة بن ليون، فأمدهم بالأقوات والعلوفات وحكمهم في بلاده، وأظهر الطاعة لهم، ثمّ ساروا نحو أنطاكية، وكان في طريقهم نهر، فنزلوا عنده ودخل ملكهم إليه ليغتسل فغرق في مكان منه لا يبلغ الماء وسط الرجل وكفى الله شره.

وكان معه ولد له فصار ملكاً بعده وسار إلى أنطاكية، فاختلف أصحابه عليه، فأحبَّ بعضهم العود إلى بلاده فتخلف عنه وبعضهم مال إلى تمليك أخ له، فعاد أيضا وأسار فيمن صحّت نيته له، فعرضهم وكانوا نيفاً وأربعين ألفاً، ووقع فيهم الوباء والموت، فوصلوا إلى انطاكية وكأنهم قد نبشوا من القبور، فتبرم بهم صاحبها، وحسّن لهم المسير إلى الفرنج على عكا، فساروا على جبلة ولاذقية وغيرهما من البلاد التي ملكها المسلمون، وخرج أهل حلب وغيرها إليهم وأخذوا منهم خلقاً كثيراً ومات أكثر من أخذ فبلغوا طرابلس وأقاموا بها أياماً فكثر فيهم الموت، فلم يبق منهم إلا نحو ألف رجل، فركبوا في البحر إلى الفرنج الذين على عكا، ولما وصلوا ورأوا ما نالهم في طريقهم وما

هم فيه من الاختلاف عادوا إلى بلادهم، فغرقت بهم المراكب ولم ينجُ منهم أحد، وكان الملك قلج أرسلان يكاتب صلاح الدين بأخبارهم ويعده أنه يمنعهم من العبور في بلاده، فلما عبروا وخلفوها أرسل يتعذر بالعجز عنهم لأنّ أولاده حكموا عليه وحجروا عليه وتفرقوا عنه وخرجوا عن طاعته، وأما صلاح الدين عند وصول الخبر بعبور ملك الألمان، فإنه استشار أصحابه فأشار كثير منهم عليه بالمسير الى طريقهم ومحاربتهم قبل أن يتصلوا بمن على عكا، فقال: بل نقيم إلى أن يقربوا منا، وحينئذ نفعل ذلك لئلا يستسلم من بعكا من عساكرنا، لكنه سيّر من عنده من العساكر منها عسكر حلب وجبلة ولاذقية وشيزر وغير ذلك إلى أعمال حلب ليكونوا من أطراف البلاد يحفظونها من عاديتهم، وكان حال المسلمين كما قال الله عز وجل: ﴿إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً﴾ فكفى الله شرّهم ورد كيدهم في نحرهم، ومن شدة خوفهم أن بعض أمراء صلاح الدين كان له ببلد الموصل قرية، وكان أخي رحمه الله يتولاها، فحصل دخلها من حنطة وشعير وتبن، فأرسل إليه في بيع الغلة، فوصل كتابه يقول لا تبع الحبّة الفرد واستكثر لنا من التبن، ثمّ بعد ذلك وصل كتابه يقول تبيع الطعام فما بنا حاجة اليه، ثم إن ذلك الأمير قدم الموصل فسألناه عن المنع من بيع الغلة، ثم الإذن فيها بعد مدّة يسيرة، فقال لما وصلت الأخبار بوصول ملك الألمان أيقنا أننا ليس لنا بالشام مقام فكتبت بالمنع من بيع الغلة لتكون ذخيرة لنا إذا جئنا اليكم، فلما أهلكهم الله تعالى وأغنى عنها كتبت ببيعها والانتفاع بثمنها.

ذكر وقعة للمسلمين والفرنج على عكا

وفي هذه السنة في العشرين من جمادى الآخرة خرجت الفرنج فارسها وراجلها من وراء خنادقهم وتقدموا إلى المسلمين، وهم كثير لا يحصى عددهم، وقصدوا نحو عسكر مصر، ومقدمهم الملك العادل أبو بكر بن أيوب، وكان المصريون قد ركبوا واصطفوا للقاء الفرنج، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً فانحاز المصريون عنهم، ودخل الفرنج خيامهم ونهبوا أموالهم، فعطف المصريون عليهم، فقاتلوهم من وسط خيامهم فأخرجوهم عنها، وتوجّهت طائفة من المصريين نحو خنادق الفرنج، فقطعوا المدد عن أصحابهم الذين خرجوا، وكانوا متصلين كالنمل، فلما انقطعت امدادهم ألقوا

بأيديهم، وأخذتهم السيوف من كل ناحية، فلم ينجُ منهم إلا الشريد، وقتل منهم مقتلة عظيمة يزيد عدد القتلى على عشرة آلاف قتيل، وكانت عساكر الموصل قريبة من عسكر مصر، وكان مقدمهم علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود صاحب الموصل، فحملوا أيضاً على الفرنج وبالغوا في قتالهم ونالوا منهم نيلاً كثيراً، هذا جميعه ولم يباشر القتالَ أحدٌ من الحلقة الخاص التي مع صلاح الدين ولا أحد من الميسرة، وكان بها عماد الدين زنكي صاحب سنجار وعسكر إربل وغيرهم، ولما جرى على الفرنج هذه الحادثة خمدت جمرتهم ولانت عريكتهم واشار المسلمون على صلاح الدين بمباكرتهم القتال ومناجزتهم، وهم على هذه الحال من الهلع والجزع فاتّفق انه وصله من الغد كتاب من حلب يخبر فيه بموت ملك الألمان، وما أصاب أصحابه من الموت والقتل والأسر، وما صار أمرهم إليه من القلة والذلة، واشتغل المسلمون بهذه البشرى والفرح بها عن قتال من بإزائهم، وظنّوا أن الفرنج إذا بلغهم هذا الخبر ازدادوا وَهناً على وهنهم وخوفاً على خوفهم.

فلما كان بعد يومين أتت الفرنج أمداد في البحر مع كند من الكنود البحرية يقال له: الكندهري ابن أخي ملك إفرنسيس لأبيه وابنِ أخي ملك إنكلتار لأمه، ووصل معه من الأموال شيء كثير يفوق الإحصاء، فوصل إلى الفرنج فجند الأجناد وبذل الأموال، فعادت نفوسهم قوية واطمأنت، وأخبرهم أن الأمداد واصلة إليهم يتلو بعضها بعضاً، فتماسكوا وحفظوا مكانهم، ثمَّ أظهروا أنهم يريدون الخروج إلى لقاء المسلمين وقتالهم، فانتقل صلاح الدين من مكانه إلى الخروبة في السابع والعشرين من جمادى الآخرة ليتسع المجال، وكانت المنزلة قد أنتنت بريح القتلى، ثمّ إن الكند هرى نصب منجنيقاً ودبابات وعرادات، فخرج من بعكّا من المسلمين فأخذوها وقتلوا عندها كثيراً من الفرنج، ثم إن الكندهري بعد أخذ منجنيقاته أراد أن ينصب منجنيقاً، فلم يتمكّن من ذلك لأن المسلمين بعكّا كانوا يمنعون من عمل ستائر يستتر بها من يرمي من المنجنيق، فعملا تلا من تراب بالبعد من البلد، ثم إن الفرنج كانوا ينقلون التل إلى البلد بالتدريج، ويستترون به ويقربونه إلى البلد، فلمّا صار من البلد بحيث يصل من عنده حجر منجنيق نصبوا وراءه منجنيقين، وصار التل سترة لهما، وكانت الميرة قد قلت بعكا فأرسل صلاح الدين إلى الإسكندرية يأمرهم بإنفاذ الأقوات واللحوم وغير ذلك في

المراكب إلى عكا فتأخر إنفاذها فسير إلى نائبه بمدينة بيروت في ذلك، فسيّر بطسة عظيمة مملوءة من كل ما يريدونه وأمر من بها، فلبسوا ملبس الفرنج وتشبهوا بهم ورفعوا عليها الصلبان، فلما وصلوا إلى عكّا لم يشك الفرنج أنها لهم فلم يتعرضوا لها، فلما حازت ميناء عكّا ادخلها من بها ففرح بها المسلمون وانتعشوا وقويت نفوسهم، وتبلغوا بما فيها إلى أن أتتهم الميرة من الإسكندرية، وخرجت ملكة من الفرنج من داخل البحر في نحو ألف مقاتل، فأُخذت بنواحي الإسكندرية وأخذ من معها، ثمَّ إن الفرنج وصلهم كتاب من بابا وهو كبيرهم الذي يصدرون عن أمره وقوله عندهم كقول النبيين لا يخالف والمحروم عندهم من حرمه والمقرب من قربه وهو صاحب رومية الكبرى يأمرهم بملازمة ما هم بصدده ويعلمهم أنه قد ارسل إلى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير إلى نجدتهم براً وبحراً، ويعملهم بوصول الأمداد إليهم، فازدادوا قوة وطمعاً.

ذكر خروج الفرنج من خنادقهم

لما تتابعت الأمداد إلى الفرنج وجند لهم الكند هري جمعاً كثيراً بالأموال التي وصلت معه عزموا على الخروج من خنادقهم ومناجزة المسلمين، فتركوا على عكا من يحصرها ويقاتل أهلها وخرجوا حادي عشر شوال في عدد كالرمل كثرة وكالنّار جمرة، فلما رأى صلاح الدين ذلك نقل أثقال المسلمين إلى ميمون، وهو على ثلاثة فراسخ عن عكّا، وكان قد عاد إليه من فرق من عساكره لما هلك ملك الألمان، ولقي الفرنج على تعبية حسنة، وكان أولاده الأفضل علي والظاهر غازي والظافر مما يلي القلب، وأخوه العادل أبو بكر في الميمنة، ومعه عساكر مصر ومن انضم إليه، وكان في الميسرة عماد الدين صاحب سنجار وتقي الدين صاحب حماه ومعز الدين سنجرشاه صاحب جزيرة ابن عمر مع جماعة من أمرائه، واتفق أن صلاح الدين أخذه مغس كان يعتاده فنصب له خيمة صغيرة على تل مشرف على العسكر، ونزل فيها ينظر إليهم، فسار الفرنج شرقي نهر هناك حتى وصلوا إلى رأس النهر، فشاهدوا عساكر الإسلام وكثرتها فارتاعوا لذلك، ولقيهم الجالشية وأمطروا عليهم من السهام ما كاد يستر الشمس، فلما رأوا ذلك تحولوا إلى غربي النهر ولزمهم الجالشية يقاتلونهم والفرنج قد تجمعوا ولزم بعضهم بعضاً، وكان غرض الجالشية أن تحمل الفرنج عليهم فيلقاهم المسلمون ويلتحم القتال فيكون الفصل ويستريح الناس، وكان الفرنج قد ندموا على مفارقة

خنادقهم، فلزموا مكانهم وباتوا ليلتهم تلك، فلما كان الغد عادوا نحو عكّا ليعتصموا بخندقهم والجالشية في اكتافهم يقاتلونهم تارة بالسيوف وتارة بالرماح وتارة بالسهام، وكلما قتل من الفرنج قتيل أخذوه معهم لئلا يعلم المسلمون ما أصابهم، فلولا ذلك الألم الذي حدث بصلاح الدين لكانت هي الفصل، وإنما لله أمر هو بالغه، فلما بلغ الفرنج خندقهم، ولم يكن لهم بعدها ظهور منه عاد المسلمون إلى خيامهم وقد قتلوا من الفرنج خلقاً كثيراً، وفي الثالث والعشرين من شوال أيضاً كمن جماعة من المسلمين، وتعرض للفرنج جماعة أخرى، فخرج إليهم أربعمائة فارس، فقاتلهم المسلمون شيئاً من قتال، وتطاردوا لهم، وتبعهم الفرنج حتى جازوا الكمين، فخرجوا عليهم فلم يفلت منهم أحد، واشتد الغلاء على الفرنج حتى بلغت غرارة الحنطة اكثر من مائة دينار صوري، فصبروا على هذا، وكان المسلمون يحملون إليهم الطعام من البلدان منهم الأمير اسامة مستحفظ بيروت كان يحمل الطعام وغيره، ومنهم سيف الدين علي بن أحمد المعروف بالمشطوب كان يحمل من صيدا أيضاً إليهم، وكذلك من عسقلان وغيرها لولا ذلك لهلكوا جوعاً خصوصاً في الشتاء عند انقطاع مراكبهم عند تهيج البحر.

ذكي تسيير البدل إلى عكا والتفريط فيه حتى أخذت

لما هجم الشتاء وعصفت الرياح خاف الفرنج على مراكبهم التي عندهم لأنها لم تمكن من المينا، فسيّروها إلى بلادهم صور والجزائر، فانفتح الطريق إلى عكّا في البحر، فأرسل أهلها إلى صلاح الدين يشكون الضجر والملالة والسآمة، وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين مقدماً على جندها، فأمر صلاح الدين بإقامة البدل وإنفاذه إليها وإخراج من فيها، وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك، فانتقل إلى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشواني، وكلما جاءه جماعة من العسكر سيّرهم إليها وأخرج عوضهم، فدخل إليها عشرون أميراً وكان بها ستون أميراً فكان الذين دخلوا قليلاً بالنسبة إلى الذين خرجوا، وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وإنفاذهم، وكان على خزانة ماله قوم من النصارى، وكانوا إذا جاءهم جماعة قد جندوا تعنتوهم بأنواع شتّى تارة بإقامة معرفة وتارة بغير ذلك، فتفرق بهذا السبب خلق كثير، وانضاف إلى ذلك تواني صلاح الدين ووثوقه بنوابه وإهمال النواب، فانحسر الشتاء والأمر كذلك وعادت مراكب الفرنج إلى عكّا وانقطع الطريق إلا من سابح يأتي

بكتاب، وكان من جملة الأمـراء الذين دخلوا إلى عكّـا سيف الدين علي بن أحمـد المشطوب وعز الدين أرسل مقدم الأسدية بعد جاولي وغيرهم، وكان دخولهم عكّا أول سنة سبع وثمانين، وكان قد أشار جماعة على صلاح الدين بأن يرسل إلى من بعكا النفقات الواسعة والذخائر والأقـوات الكثيرة، ويـأمرهم بـالمقام، فـإنهم قد جـرّبوا وتدربوا، واطمأنت نفوسهم على ما هم فيه، فلم يفعل، وظن فيهم الضجر والملل وأن ذلك يحملهم على الضجر والفشل، فكان الأمر بالضد.

ذكر وفاة زين الدين يوسف صاحب إربل ومسير أخيه مظفر الدين إليها

كان زين الدين يوسف بن زين الدين علي صاحب إربل قد حضر عند صلاح الدين بعساكره فمرض ومات ثامن عشر شهر رمضان، وذكر العماد الكاتب في كتابه البرق الشامي، قال: جئنا إلى مظفر الدين نعزيه بأخيه، وظننّا به الحزن، وليس له أخ غيره ولا ولد يشغله عنه، فإذا هو في شغل شاغل عن العزاء مهتم بالاحتياط على ما خلفه، وهو جالس في خيام أخيه المتوفّى، وقد قبض على جماعة من أمرائه، واعتقلهم وعجل عليهم، وما أغفلهم منهم بلد أجي صاحب قلعة خفتيذكان، وأرسل إلى صلاح الدين يطلب منه إربل لينزل عن حران والرها، فأقطعه إياها، وأضاف إليها شهرزور وأعمالها ودربندقرابلي وبني قفجاق، ولما مات زين الدين كاتب من كان بإربل مجاهد الدين قايماز لهواهم فيه وحسن سيرته كانت فيهم وطلبوه إليهم ليملكوه، فلم يجسر هو ولا صاحبه عز الدين أتابك مسعود بن مودود على ذلك خوفاً من صلاح الدين، وكان أعظم الأسباب في تركها أن عز الدين كان قد قبض على مجاهد الدين، فتمكن زين الدين من إربل، ثمّ إنّ عز الدين أخرج مجاهد الدين من القبض وولاه نيابته وقد ذكرنا ذلـك أجمع، فلما ولاه النيابة عنه لم يمكنه، وجعل معه إنساناً كان من بعض غلمان مجاهد الدين، فكان يشاركه في الحكم، ويحل عليه ما يعقده، فلحق مجاهد الدين من ذلك غيظ شديد، فلما طلب إلى إربل قال لمن يثق إليه: لا أفعل لئلا يحكم فيها فلان ويكف يدي عنها، فجاء مظفر الدين إليهـا وملكها وبقي غصّـة في حلق البيت الأتابكي لا يقدرون على إساغتها وسنذكر ما اعتمده معهم مرّة بعد أخرى إن شاء الله تعالى.

ذكر ملك الفرنج مدينة شلب وعودها إلى المسلمين

في هذه السنة ملك ابن الرنك، وهو من ملوك الفرنج غرب بلاد الأندلس مدينة

شلب، وهي من كبار مدن المسلمين بالأندلس، واستولى عليها، فوصل الخبر بذلك إلى الأمير أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، صاحب الغرب والأندلس، فتجهَّز في العساكر الكثيرة، وسار إلى الأندلس، وعبر المجاز، وسيَّر طائفة كثيرة من عسكره في البحر ونازلها وحصرها وقاتل من بها قتالاً شديداً حتى ذلوا وسألوا الأمان فأمنهم، وسلموا البلد وعادوا إلى بلادهم، وسيَّر جيشاً من الموحدين ومعهم جمع كثير من العرب، ففتحوا أربع مدن كان الفرنج قد ملكوها قبل ذلك بأربعين سنة، وفتكوا في الفرنج، فخافهم ملك طليطلة من الفرنج وأرسل يطلب الصلح فصالحه خمس سنين، وعاد أبو يوسف إلى مراكش، وامتنع من هذه الهدنة طائفة من الفرنج لم يرضوها ولا امكنهم إظهار الخلاف، فبقوا متوقفين حتى دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، فتحركوا، وسنذكر خبرهم هناك إن شاء الله تعالى.

ذكر الحرب بين غياث الدين وسلطان شاه بخراسان

كان سلطان شاه أخو خوارزم شاه قد تعرّض إلى بلاد غياث الدين ومعز الدين ملكي الغورية من خراسان، فتجهّز غياث الدين، وخرج من فيروزكوه إلى خراسان سنة خمس وثمانين وخمسمائة، فبقي يتردّد بين بلاد الطالقان وينجده ومرو وغيرها يريد حرب سلطان شاه، فلم يزل كذلك إلى أن دخلت سنة ست وثمانين، فجمع سلطان شاه عساكره، وقصد غياث الدين، فتصافا، واقتتلا، فانهزم سلطان شاه، وأخذ غياث الدين بعض بلاده، وعاد إلى غزنة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في ربيع الأول تسلم الخليفة الناصر لدين الله حديثة عانة، وكان سيّر إليها جيشاً حصروها سنة خمس وثمانين، فقاتلوا عليها قتالاً شديداً، ودام الحصار وقتل من الفريقين خلق كثير، فلما ضاقت عليهم الأقوات سلَّموها على اقطاع عينوها، ووصل صاحبها وأهلها إلى بغداد وأعطوا أقطاعا، ثم تفرّقوا في البلاد، واشتدت الحاجة بهم حتى رأيت بعضهم وأنه يتعرض بالسؤال إلى بعض خدم الناس نعوذ بالله من زوال نعمته وتحول عافيته.

وفي هذه السنة توفي مسعود بن البادر، وكان مكثراً من الحديث حسن الخط خيراً

ثقة.

وفيها توفي أبو حامد محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري بالموصل، كان قاضياً وقبلها ولي قضاء حلب وجميع الأعمال، وكان رئيساً جواداً ذا مروءة عظيمة يرجع إلى دين وأخلاق.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة

ذكر حصر عز الدين صاحب الموصل الجزيرة

في هذه السنة في ربيع الأول سار أتابك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل إلى جزيرة ابن عمر فحصرها، وكان بها صاحبها سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود، وهو ابن اخي عز الدين، وكان سبب حصره أن سنجرشاه كان كثير الأذى لعمّه عز الدين، والشناعة عليه والمراسلة إلى صلاح الدين في حقه، تارة يقول: إنه يريد قصد بلادك، وتارة يقول: إنه يكاتب أعداءك ويحثهم على قصدك إلى غير ذلك من الأمور المؤذية، وعز الدين يصبر على ما يكره لأمور، تارة للرحم وتارة خوفاً من تسليمها إلى صلاح الدين، فلما كان في السنة الماضية سار صاحبها إلى صلاح الدين وهو على عكّا في جملة من سار من أصحاب الأطراف، وأقام عنده قليلاً وطلب دستوراً للعود إلى بلده فقال له صلاح الدين: عندنا من أصحاب الأطراف جماعة منهم عماد الدين صاحب سنجار وغيرها، وهو أكبر منك، ومنهم ابن عمك عز الدين وهو أصغر منك وغيرهم، ومتى فتحت هذا الباب اقتدى بك غيرك، فلم يلتفت إلى قوله وأصرّ على ذلك، وكان عند صلاح الدين جماعة من أهل الجزيرة يستغيثون على سنجر شاه لأنه ظلمهم وأخذ اموالهم وأملاكهم، فكان يخافه لهذا ولم يزل في طلب الإذن في العود إلى البلد إلى عيد الفطر من سنة ست وثمانين، فركب تلك الليلة سنجرشاه وجاء إلى خيمة صلاح الدين، وأذن لأصحابه في المسير فساروا بالأثقال، وبقي جريدة، فلمّا وصل إلى خيمة صلاح الدين أرسل يطلب الإذن، وكان صلاح الدين قد بات محموماً وقد عرق فلم يمكن أن يأذن له، فبقي كذلك متردّداً على باب خيمته إلى أن أذن له، فلما دخل عليه هنأه بالعيد وأكب عليه يودعه، فقال له: ما علمنا بصحّة عزمك على الحركة فتصبر علينا حتى نرسل ما جرت به العادة، فما يجوز أن تنصرف عنا بعد مقامك

عندنا على هذا الوجه، فلم يرجع وودّعه وانصرف، وكان تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين قد أقبل من بلده حماه في عسكره، فكتب إليه صلاح الدين يأمره بإعادة سنجرشاه طوعاً أو كرهاً، فحكى له عن تقي الدين أنه قال: ما رأيت مثل سنجر شاه لقيته بعقبة فيق، فسألته عن سبب انصرافه فغالطني فقلت له: سمعت بالحال ولا يليق أن تنصرف بغير تشريف السلطان وهديته فيضيع تعبك، وسألته العود فلم يصغ إلى قولي فكلمني كأنني بعض مماليكه، فلما رأيت ذلك منه قلت لـه: إن رجعت بالتي هي أحسن؛ وإلا اعدتك كارهاً، فنزل عن دابته وأخذ ذيلي وقال: قد استجرت بك، وجعل يبكي، فعجبت من حماقته أولاً وذلته ثانياً، فعاد معي، فلمّا عاد بقي عند صلاح الدين عشرة أيّام وكتب صلاح الدين إلى عز الدين أتابك يأمره بقصد الجزيرة ومحاصرتها، وأخذها، وأنه يرسل إلى طريق سنجرشاه ليقبض عليه إذا عاد فخاف عز الدين أن صلاح الدين قد فعل ذلك مكيدة ليشنع عليه بنكث العهد، فلم يفعل شيئاً من ذلك بل أرسل إليه يقول أريد خطّك بذلك ومنشوراً منك بالجزيرة، فترددت الرسل في ذلك إلى أن انقضت سنة ست وثمانين، فاستقرت القاعدة بينهمـا، فسار عـز الدين إلى الجـزيرة فحصرها أربعة أشهر وأياماً آخرها شعبان، ولم يملكها بل استقرت القاعدة بينه وبين سنجرشاه على يد رسول صلاح الدين، فإنه كان قد أرسـل بعد قصـدها يقـول: إن صاحب سنجار وصاحب إربل وغيرهما قد شفعا في سنجرشاه، فاستقر الصلح على أن لعز الدين نصف أعمال الجزيرة، ولسنجرشاه نصفها، وتكون الجزيرة بيد سنجرشاه من جملة النصف، وعاد عز الدين إلى الموصل، وكان صلاح الدين بعد ذلك يقول: ما قيل لي عن أحد شيء من الشر فرأيته إلا كان دون ما يقال فيه إلا سنجرشاه، فإنه كان يقال لي عنه أشياء استعظمتها، فلما رأيته صغر في عيني ما قيل.

ذكر عبور تقي الدين الفرات وملكه حران وغيرها من البلاد الجزرية ومسيره إلى خلاط وموته

في هذه السنة في صفر سار تقي الدين من الشام إلى البلاد الجزرية حران والرها، كان قد أقطعه أياها عمه صلاح الدين بعد أخذها من مظفر الدين مضافاً إلى ما كان له بالشام، وقرَّر معه أنه يقطع البلاد للجند ويعود وهم معه ليتقوى بهم على الفرنج، فلما عبر الفرات وأصلح حال البلاد سار إلى ميافارقين، وكانت له، فلما بلغها تجدّد له طمع

في غيرها من البلاد المجاورة لها، فقصد مدينة حانى من ديار بكر فحصرها وملكها، وكان في سبعمائة فارس، فلما سمع سيف الدين بكتمر صاحب خلاط بملكه حانى جمع عساكره وسار إليه، فاجتمعت عساكره أربعة آلاف فارس، فلما التقوا اقتتلوا، فلم يثبت عسكر خلاط لتقي الدين بل انهزموا وتبعهم تقي الدين ودخل بلادهم، وكان بكتمر قد قبض على مجد الدين بن رشيق وزير صاحبه شاه أرمن وسجنه في قلعة هناك، فلمّا انهزم كتب إلى مستحفظ القلعة يأمره بقتل ابن رشيق، فوصل القاصد وتقي الدين قد نازل القلعة، فأخذ الكتاب وملك القلعة وأطلق ابن رشيق وسار إلى خلاط فحصرها، ولم يكن في كثرة من العسكر فلم يبلغ منها غرضا، فعاد عنها وقصد ملازكرد وحصرها، وضيّق على من بها وطال مقامه عليها، فلما ضاق عليهم الأمر طلبوا منه المهلة أياما ذكروها، فأجابهم إليها ومرض تقي الدين، فمات قبل انقضاء الأجل بيومين وتفرّقت العساكر عنها، وحمله ابنه وأصحابه ميتاً إلى ميافارقين، وعاد بكتمر قوي أمره، وثبت ملكه بعد أن أشرف على الزوال، وهذه الحادثة من الفرج بعد الشدة فإن ابن رشيق نجا من القتل وبكتمر نجا من أن يؤخذ.

ذكر وصول الفرنج من الغرب في البحر إلى عكا

وفي هذه السنة وصلت أمداد الفرنج في البحر إلى الفرنج الذين على عكا، وكان أول من وصل منهم الملك فليب ملك أفرنسيس، وهو من أشرف ملوكهم نسباً وإن كان ملكه ليس بالكثير، وكان وصوله إليها ثاني عشر ربيع الأول، ولم يكن في الكثرة التي ظنوها، وإنما كان معه ست بطس كبار عظيمة، فقويت به نفوس من على عكا منهم، ولحوا في قتال المسلمين الذين فيها، وكان صلاح الدين بشفرعم، فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال عن مزاحفة البلد، وأرسل إلى الأمير أسامة مستحفظ بيروت، يأمره بتجهيز ما عنده من الشواني والمراكب، وتشحينها بالمقاتلة، وتسييرها في البحر ليمنع الفرنج من الخروج إلى عكا، ففعل ذلك وسير الشواني في البحر فصادفت خمسة مراكب مملوءة رجالاً من أصحاب ملك إنلكتار الفرنج، وكان قد سيرهم بين يديه وتأخر هو بجزيرة قبرس ليملكها، فاقتتلت شواني المسلمين مع مراكب الفرنج، فاستظهر المسلمون عليهم، وأخذوهم وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال، وأسروا الرجال.

وكتب أيضاً صلاح الدين إلى من بالقرب من النواب له يأمرهم بمثل ذلك ففعلوا، وأما الفرنج الذين على عكا، فإنهم لازموا قتال من بها ونصبوا عليها سبع منجنيقات رابع جمادى الأولى، فلما رأى صلاح الدين ذلك تحول من شفرعم ونزل عليهم لئلا يتعب العسكر كل يوم في المجيء إليهم والعود عنهم، فقرب منهم، وكانوا كلما تحركوا للقتال ركب وقاتلهم من وراء خندقهم، فكانوا يشتغلون بقتالهم فيخف القتال عمن بالبلد، ثم وصل ملك إنكلتار ثالث عشر جمادى الأولى، وكان قد استولى في طريقه على جزيرة قبرس وأخذها من الروم، فإنه لما وصل إليها غدر بصاحبها وملكها جميعاً، فكان ذلك زيادة في ملكه وقوة للفرنج، فلما فرغ منها سار عنها إلى من على عكا من الفرنج، فوصل إليهم في خمس وعشرين قطعة كباراً مملوءة رجالاً وأموالاً، فعظم به شر الفرنج، واشتدت نكايتهم في المسلمين، وكان رجل زمانه شجاعة ومكراً وجلداً وصبراً، وبلي المسلمون منه بالداهية التي لا مثل لها. ولما وردت الأخبار بوصوله أمر صلاح الدين بتجهيز بسطة كبيرة مملوءة من الرجال والعدد والأقوات فتجهزت وسيرت من بيروت، وفيها سبعمائة مقاتل: فلقيها ملك إنكلتار مصادفة: فقاتلها وصبر من فيها على قتالها فلما أيسوا من الخلاص ونزل مقدم من بها إلى أسفلها، وهو يعقوب الحلبي مقدم الجندارية يعرف بغلام ابن شقتين، فخرقها خرقاً واسعاً لئلا يظفر الفرنج بمن فيها وما معهم من الذخائر، فغرق جميع ما فيها، وكانت عكا محتاجة إلى رجال، لما ذكرناه من سبب نقصهم، ثم إن الفرنج عملوا دبابات وزحفوا بها، فخرج المسلمون وقاتلوهم بظاهر البلد وأخذوا تلك الكباش، فلما رأى الفرنج أن ذلك جميعه لا ينفعهم عملوا تلا كبيراً من التراب مستطيلاً، وما زالوا يقربونه إلى البلد، ويقاتلون من ورائه لا ينالهم من البلد أذى حتى صار على نصف علوه، فكانوا يستظلون به ويقاتلون من خلفه، فلم يكن للمسلمين فيه حيلة لا بالنار ولا بغيرها، فحينئذ عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين، فأرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه حالهم، فلم يقدر لهم على نفع.

ذكر ملك الفرنج عكا

في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة استولى الفرنج لعنهم الله على مدينة عكا، وكان أول وَهْنٍ دخل على من بالبلد، أن الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب كان فيها، ومعه عدة من الأمراء كان هو أمثلهم

وأكبرهم، فخرج إلى ملك أفرنسيس، وبذل تسليم البلد بما فيه على أن يطلق المسلمين الذين فيه ويمكنهم من اللحاق بسلطانهم، فلم يجبه إلى ذلك، فعاد علي بن أحمد إلى البلد، فوهن من فيه وضعفت نفوسهم وتخاذلوا وأهمتهم أنفسهم، ثم إن أميرين ممن كان بعكا لما رأوا ما فعلوا بالمشطوب والفرنج لم يجيبوا إلى الأمان اتخذوا الليل جملاً وركبوا في شيء صغير وخرجوا سراً من أصحابهم ولحقوا بعسكر المسلمين وهم عز الدين أرسل الأسدي وابن عز الدين جاولي وسنقر الوشاقي، ومعهم غيرهم، فلما أصبح الناس ورأوا ذلك ازدادوا وهناً إلى وهنهم وضعفاً إلى ضعفهم، وأيقنوا بالعطب، ثم إن الفرنج أرسلوا إلى صلاح الدين في معنى تسليم البلد، فأجابهم إلى ذلك والشرط بينهم أن يطلق من أسراهم بعدد من في البلد ليطلقوا هم من بعكا وأن يسلم إليهم صليب الصلبوت، فلم يقنعوا بما بذل، فأرسل إلى من بعكا من المسلمين يأمرهم أن يخرجوا من عكا يداً واحدة ويتركوا البلد بما فيه، ووعدهم أنه يتقدم إلى تلك الجهة التي يخرجون منها بعساكره، ويقاتل الفرنج فيها ليلحقوا به، فشرعوا في ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه، فما فرغوا من أشغالهم حتى أسفر الصبح، فبطل ما عزموا عليه لظهوره، ، فلما عجز الناس من حفظ البلد زحف إليهم الفرنج بحدهم وحديدهم، فظهر من بالبلد على سوره يحركون أعلامهم ليراها المسلمون، وكانت هي العلامة إذا اخترمهم أمر، فلما رأى المسلمون ذلك ضجوا بالبكاء والعويل، وحملوا على الفرنج من جميع جهاتهم طلباً منهم أن الفرنج يشتغلون عن الذين بعكا وصلاح الدين يحرضهم، وهو في أولهم، وكان الفرنج قد خفوا عن خنادقهم ومالوا إلى جهة البلد، فقرب المسلمون من خنادقهم حتى كادوا يدخلونها عليهم ويضعون السيف فيهم، فوقع الصوت، فعاد الفرنج ومنعوا المسلمين، وتركوا في مقابلة من بالبلد من يقاتلهم، فلما رأى المشطوب أن صلاح الدين لا يقدر على نفع ولا يدفع عنهم ضراً خرج إلى الفرنج، وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه بأموالهم وأنفسهم، وبذل لهم عن ذلك مائتي ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين، وإعادة صليب الصلبوت وأربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب صور، فأجابوه إلى ذلك وحلفوا له عليه، وأن يكون مدة تحصيل المال والأسرى إلى شهرين، فلما حلفوا له سلم البلد إليهم ودخلوه سلماً فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى أموالهم وحبسوهم، وأظهروا أنهم يفعلون ذلك ليصل إليهم ما بذل لهم، وراسلوا

صلاح الدين في إرسال المال والأسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم، فشرع في جمع المال، وكان هو الأمان له إنما يخرج ما يحصل إليه من دخل البلاد أولاً بأول، فلما اجتمع عنده من المال مائة ألف دينار جمع الأمراء واستشارهم، فأشاروا بأن لا يرسل شيئاً حتى يعاود يستحلفهم على إطلاق أصحابه، وأن يضمن الداوية ذلك لأنهم أهل دين يرون الوفاء، فراسلهم صلاح الدين في ذلك فقال الداوية: لا نحلف ولا نضمن لأننا نخاف غدر من عندنا، وقال ملوكهم: إذا سلمتم إلينا المال والأسرى والصليب، فلنا الخيار فيمن عندنا، فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر، فلم يرسل إليهم شيئاً، وأعاد الرسالة إليهم، وقال: نحن نسلم إليكم هذا المال والأسرى والصليب ونعطيكم رهناً على الباقي، وتطلقون أصحابنا، وتضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء لهم، فقالوا: لا نحلف إنما نرسل المائة ألف دينار التي حصلت والأسرى والصليب، ونحن نطلق من أصحابكم من نريد ونترك من نريد حتى يجيء باقي المال، فعلم الناس حينئذ غدرهم، وإنما يطلقون غلمان العسكر والفقراء والأكراد ومن لا يؤبه له ويمسكون عندهم الأمراء وأرباب الأموال ويطلبون منهم الفداء، فلم يجبهم السلطان إلى ذلك، فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب ركب الفرنج وخرجوا إلى ظاهر البلد بالفارس والراجل، وركب المسلمون إليهم وقصدوهم، وحملوا عليهم فانكشفوا عن مواقفهم، وإذ أكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف واستبقوا الأمراء والمقدمين ومن كان له مال وقتلوا من سواهم من سوادهم وأصحابهم ومن لا مال له، فلما رأى صلاح الدين ذلك تصرف في المال الذي كان جمعه وسير الأسرى والصليب إلى دمشق.

ذكر رحيل الفرنج إلى ناحية عسقلان وتخريبها

لما فرغ الفرنج ـ لعنهم الله ـ من إصلاح أمر عكا برزوا منها في الثامن والعشرين من رجب، وساروا مستهل شعبان نحو حيفا مع شاطىء البحر لا يفارقونه، فلما سمع صلاح الدين برحيلهم نادى في عسكره بالرحيل فساروا، وكان على اليزك ذلك اليوم الملك الأفضل ولد صلاح الدين، ومعه سيف الدين إيازكوش وعز الدين جورديك وعدة من شجعان الأمراء، فضايقوا الفرنج في مسيرهم وأرسلوا عليهم من السهام ما كان يحجب الشمس، ووقعوا على ساقة الفرنج، فقتلوا منها جماعة وأسروا جماعة، وأرسل الأفضل

إلى والده يستمده ويعرفه الحال، فأمر العساكر بالمسير إليه ،فاعتذروا بأنهم ما ركبوا باهبة الحرب وإنما كانوا على عزم المسير لا غير فبطل المدد وعاد ملك الإنكلتار إلى ساقة الفرنج، فحماها وجمعهم وساروا حتى أتوا حيفا، فنزلوا بها ونزل المسلمون بقيمون قرية بالقرب منهم، وأحضر الفرنج من عكا عوض من قتل منهم وأسر ذلك اليوم وعرض ما هلك من الخيل، ثم ساروا إلى قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويتحفظون منهم من قدروا عليه، فيقتلونه لأن صلاح الدين كان قد أقسم أنه لا يظفر بأحد منهم إلا قتله بمن قتلوا ممن كان بعكا، فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقاتلوهم أشد قتال فنالوا منهم نيلاً كثيراً ونزل الفرنج بها، وبات المسلمون قريباً منهم، فلما نزلوا خرج من الفرنج جماعة فأبعدوا عن جماعتهم، فأوقع بهم المسلمون الذين كانوا في اليزك فقتلوا منهم وأسروا منهم، ثم ساروا من قيساريّة[1] إلى أَرْسُوف[2]، وكان المسلمون قد سبقوهم إليها ولم يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق، فلما وصل الفرنج إليهم حمل المسلمون عليهم حملة منكرة ألحقوهم بالبحر ودخله بعضهم، فلما رأى الفرنج ذلك اجتمعوا، وحملت الخيالة على المسلمين حملة رجل واحد، فولوا منهزمين لا يلوي أحد على أحد وكان كثير من الخيالة والسوقة قد ألفوا القيام وقت الحرب قريباً من المعركة، فلما كان ذلك اليوم كانوا على حالهم، فلما انهزم المسلمون عنهم قتل منهم كثير والتجأ المنهزمون إلى القلب وفيه صلاح الدين، فلو علم الفرنج أنها هزيمة لتبعتهم واشتهرت الهزيمة وهلك المسلمون لكن كان بالقرب من المسلمين شعرة كثيرة الشجر فدخلوها وظنها الفرنج مكيدة، فعادوا وزال عنهم ما كانوا فيه من الضيق، وقتل من الفرنج كند كبير من طواغيتهم، وقتل من المسلمين مملوك لصلاح الدين اسمه أياز الطويل، وهو من الموصوفين بالشجاعة والشهامة لم يكن في زمانه مثله فلما نزل الفرنج نزل المسلمون وأعنة خيلهم بأيديهم، ثم سار الفرنج إلى يافا، فنزلوها ولم يكن بها أحد من المسلمين فملكوها، ولما كان من المسلمين بأرسوف من الهزيمة، ما ذكرناه، سار صلاح الدين عنهم إلى الرملة واجتمع بأثقاله بها وجمع الأمراء، واستشارهم فيما يفعل، فأشاروا عليه بتخريب عسقلان وقالوا له: قد رأيت ما كان منا بالأمس وإذا جاء

---

(١) قَيْساريّة: بلد على ساحل بحر الشام تعدّ في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام.

(٢) أرسوف: مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا.

الفرنج إلى عسقلان ووقفنا في وجوههم نصدهم عنها فهم لا شك يقاتلوننا لننزاح عنها وينزلون عليها، فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كنا عليه على عكا ويعظم الأمر علينا لأن العدو قد قوي بأخذ عكا وما فيها من الأسلحة وغيرها ونحن قد ضعفنا بما خرج عن أيدينا، ولم تطل المدة حتى نستجد غيرها، فلم تسمح نفسه بتخريبها وندب الناس إلى دخولها وحفظها، فلم يجبه أحد إلى ذلك وقالوا: إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار، وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا، فلما رأى الأمر كذلك سار إلى عسقلان وأمر بتخريبها تاسع عشر شعبان، وألقيت حجارتها في البحر، وهلك فيها من الأموال والذخائر التي للسلطان والرعية ما لا يمكن حصره، وعفى أثرها حتى لا يبقى للفرنج في قصدها مطمع، ولما سمع الفرنج بتخريبها أقاموا مكانهم ولم يسيروا إليها.

وكان المركيس ـ لعنه الله ـ لما أخذ الفرنج عكا قد أحس من ملك إنكلتار بالغدر به، فهرب من عنده إلى مدينة صور، وهي له وبيده، وكان رجل الفرنج رأيا وشجاعة وكل هذه الحروب هو أثارها، فلما خربت عسقلان أرسل إلى ملك إنكلتار يقول له: مثلك لا ينبغي أن يكون ملكاً، ويتقدم على الجيوش تسمع أن صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك يا جاهل لما بلغك أنه قد شرع في تخريبها كنت سرت إليه مُجداً، فرحلته وملكتها صفوا عفواً بغير قتال ولا حصار، فإنه ما خربها إلا وهو عاجز عن حفظها، وحق المسيح لو أنني معك كانت عسقلان اليوم بأيدينا لم يخرب منها غير برج واحد، فلما خربت عسقلان رحل صلاح الدين عنها ثاني شهر رمضان، ومضى إلى الرملة فخرب حصنها وخرب كنيسة لدّ، وفي مدة مقامه لتخريب عسقلان كانت العساكر مع الملك العادل أبي بكر بن أيوب تجاه الفرنج، ثم سار صلاح الدين إلى القدس بعد تخريب الرملة، فاعتبره وما فيه من سلاح وذخائر، وقرر قواعده وأسبابه وما يحتاج إليه وعاد إلى المخيم ثامن رمضان، وفي هذه الأيام خرج ملك إنكلتار من يافا، ومعه نفر من الفرنج من معسكرهم، فوقع به نفر من المسلمين فقاتلوهم قتالاً شديداً، وكاد ملك إنكلتار يؤسر ففداه بعض أصحابه بنفسه، فتخلص الملك وأسر ذلك الرجل، وفيها أيضاً كانت وقعة بين طائفة من المسلمين وطائفة من الفرنج انتصر فيها المسلمون.

ذكر رحيل الفرنج إلى نطرون

لما رأى صلاح الدين أن الفرنج قد لزموا يافا، ولم يفارقوها وشرعوا في عمارتها رحل من منزلته إلى النطرون ثالث عشر رمضان وخيم به، فراسله ملك إنكلتار يطلب المهادنة، فكانت الرسل تتردّد إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب أخي صلاح الدين، فاستقرت القاعدة أن ملك إنكلتار يزوج أخته من العادل، ويكون القدس وما بأيدي المسلمين من بلاد الساحل للعادل، ويكون عكا وما بيد الفرنج من البلاد لأخت إنكلتار، مضافاً إلى مملكة كانت لها داخل البحر قد ورثتها من زوجها، وأن يرضى الداوية بما يقع الاتفاق عليه، فعرض العادل ذلك على صلاح الدين فأجاب إليه، فلما ظهر الخبر اجتمع القسيسون والأساقفة والرهبان إلى أخت إنكلتار وأنكروا عليها، فامتنعت من الإجابة، وقيل كان المانع منه غير ذلك ـ والله أعلم ـ وكان العادل وملك إنكلتار يجتمعان بعد ذلك ويتجاريان حديث الصلح، وطلب من العادل أن يسمعه غناء المسلمين، فأحضر له مغنية تضرب بالجنك، فغنت له، فاستحسن ذلك ولم يتم بينهما صلح، وكان ملك إنكلتار يفعل ذلك خديعة ومكراً، ثم إن الفرنج أظهروا العزم على قصد بيت المقدس، فسار صلاح الدين إلى الرملة جريدة، وترك الأثقال بالنطرون وقرب من الفرنج، وبقي عشرين يوماً ينتظرهم، فلم يبرحوا، فكان بين الطائفتين مدة المقام عدة وقعات في كلها ينتصر المسلمون على الفرنج، وعاد صلاح الدين إلى النطرون، ورحل الفرنج من يافا إلى الرملة ثالث ذي القعدة على عزم قصد البيت المقدس، فقرب بعضهم من بعض، فعظم الخطب واشتد الحذر، فكان كل ساعة يقع الصوت في العسكرين باللقاء فلقوا من ذلك شدة شديدة، وأقبل الشتاء وحالت الأحوال والأمطار بينهما.

ذكر مسير صلاح الدين إلى القدس

لما رأى صلاح الدين أن الشتاء قد هجم، والأمطار متوالية متتابعة والناس منها في ضنك وحرج، ومن شدة البرد ولبس السلاح والسهر في تعب دائم، وكان كثير من العساكر قد طال ببكارها، فأذن لهم في العود إلى بلادهم للإستراحة والإراحة، وسار هو إلى البيت المقدس فيمن بقي معه، فنزلوا جميعاً داخل البلد فاستراحوا مما كانوا فيه، ونزل هو بدار الأقصى مجاور بيعة قمامة، وقدم إليه عسكر مصر مقدمهم الأمير أبو

الهيجاء السمين، فقويت نفوس المسلمين بالقدس، وسار الفرنج من الرملة إلى النطرون ثالث ذي الحجة على عزم قصد القدس، فكانت بينهم وبين يزك والمسلمين وقعات أسر المسلمين في وقعة منهانيفا وخمسين فارساً من مشهوري الفرنج وشجعانهم، وكان صلاح الدين لما دخل القدس أمر بعمارة سوره، وتجديد ما رث منه، فأحكم الموضع الذي ملك البلد منه وأتقنه وأمر بحفر خندق خارج الفصيل، وسلم كل برج إلى أمير يتولى عمله، فعمل ولده الأفضل من ناحية باب عمود إلى باب الرحمة وأرسل أتابك عز الدين مسعود صاحب الموصل جماعة من الجصاصين لهم في قطع الصخر اليد الطولى، فعملوا له هناك برجا وبدنة، وكذلك جميع الأمراء، ثم إن الحجارة قلّت عند العمالين، فكان صلاح الدين رحمه الله يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة، فيقتدي به العسكر، فكان يجمع عنده من العمالين في اليوم الواحد من يعملون قدر عدة أيام.

ذكر عود الفرنج إلى الرملة

في العشرين من ذي الحجة عاد الفرنج إلى الرملة، وكان سبب عودهم أنهم كانوا ينقلون ما يريدونه من الساحل، فلما أبعدوا عنه كان المسلمون يخرجون على من يجلب لهم الميرة، فيقطعون الطريق ويغنمون ما معهم، ثم إن ملك إنكلتار قال لمن معه من الفرنج الشاميين، صوّروا لي مدينة القدس فإني ما رأيتها، فصوروها له، فرأى الوادي يحيط بها ما عدا موضعاً يسيراً من جهة الشمال، فسأل عن الوادي وعن عمقه، فأخبر أنه عميق وعر المسالك، فقال: هذه مدينة لا يمكن حصرها مهما كان صلاح الدين حياً وكلمة المسلمين مجتمعة، لأننا إن نزلنا في الجانب الذي يلي المدينة بقيت سائر الجوانب غير محصورة، فيدخل إليهم منها الرجال، الذخائر وما يحتاجون إليه، وإن نحن افترقنا، فنزل بعضنا من جانب الوادي، وبعضنا من الجانب الآخر جمع صلاح الدين أصحابه وواقع إحدى الطائفتين، ولم يكن للطائفة الأخرى إنجاد أصحابهم، لأنهم إن فارقوا مكانهم خرج مَنْ بالبلد من المسلمين فغنموا ما فيه، وإن تركوا فيه من يحفظه وساروا نحو أصحابهم، فإلى أن يتخلصوا من الوادي ويلحقوا بهم قد فرغ صلاح الدين منهم، هذا سوى ما يتعذر علينا من إيصال ما يحتاج إليه من العلوفات والأقوات، فلما قال لهم ذلك علموا صدقه، ورأوا قلة الميرة عندهم، وما يجري

للجالبين لهما من المسلمين، فأشاروا عليه بالعود إلى الرملة، فعادوا خائبين خاسرين.

ذكر قتل قزل أرسلان

في شعبان من هذه السنة قتل قزل أرسلان واسمه عثمان بن أيلدكز، وقد ذكرنا أنه ملك البلد بعد وفاة أخيه البهلوان ملك أران وأذربيجان وهمذان وأصفهان والري وما بينهما، وأطاعه صاحب فارس وخوزستان، واستولى على السلطان طغرل، فاعتقله في بعض القلاع، ودانت له البلاد، وفي آخر أمره سار إلى أصفهان والفتن بها متصلة من لدن توفي البهلوان إلى ذلك الوقت، فتعصب على الشافعية، وأخذ جماعة من أعيانهم فصلبهم، وعاد إلى همذان وخطب لنفسه بالسلطنة، وضرب النوب الخمس، ثم إنه دخل ليلة قتل إلى منزله لينام، وتفرق أصحابه فدخل إليه من قتله على فراشه، ولم يعرف قاتله، فأخذ أصحابه صاحب بابه ظناً وتخميناً وكان كريماً حسن الأخلاق يحب العدل ويؤثره ويرجع إلى حلم وقلة عقوبة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قدم معزّ الدين قيصر شاه بن قلج أرسلان صاحب بلاد الروم على صلاح الدين في رمضان، وكان سبب قدومه أن والده عز الدين قلج أرسلان فرق مملكته على أولاده، وأعطى ولده هذا ملطية، وأعطى ولده قطب الدين ملكشاه سيواس، فاستولى قطب الدين على أبيه، وحجر عليه وأزال حكمه وألزمه أن يأخذ ملطية من أخيه وسلمها إليه، فخاف معز الدين فسار إلى صلاح الدين ملتجئاً إليه معتضداً به، فأكرمه صلاح الدين وزوجه بابنة أخيه الملك العادل، فامتنع قطب الدين من قصده، وعاد معز الدين إلى ملطية في ذي القعدة وحدثني من أثق به قال: رأيت صلاح الدين وقد ركب ليودع هذا معز الدين فترجل له معز الدين وترجل صلاح الدين وودعه راجلاً، فلما أراد الركوب عضده هذا معز الدين وركب، وسوى ثيابه علاء الدين خرمشاه بن عز الدين صاحب الموصل، قال فعجبت من ذلك، وقلت ما تبالي يا ابن أيوب أي موتة تموت يركبك ملك سلجوقي وابن أتابك زنكي.

وفيها توفي حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين وهو ابن أخت صلاح الدين وعلم الدين سليمان بن جندر، وهو من أكابر أمراء صلاح الدين أيضاً. وفي رجب توفي الصفي بن القابض، وكان متولي دمشق لصلاح الدين يحكم في جميع بلاده.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

ذكر عمارة الفرنج عسقلان

في هذه السنة في المحرم رحل الفرنج نحو عسقلان، وشرعوا في عمارتها، وكان صلاح الدين بالقدس، فسار ملك إنكلتار جريدة من عسقلان إلى يزك المسلمين، فواقعهم وجرى بين الطائفتين قتال شديد انتصف بعضهم من بعض، وفي مدة مقام صلاح الدين بالقدس ما برحت سراياه تقصد الفرنج، فتارة تواقع طائفة منهم وتارة تقطع الميرة عنهم ومن جملتها سرية كان مقدمها فارس الدين ميمون القصري، وهو من مقدمي المماليك الصلاحية خرج على قافلة كبيرة للفرنج فأخذها وغنم ما فيها.

ذكر قتل المركيس وملك الكندهري

في هذه السنة في ثالث عشر ربيع الآخر قتل المركيس الفرنجي لعنه الله صاحب صور، وهو أكبر شياطين الفرنج، وكان سبب قتله أن صلاح الدين راسل مقدم الاسماعيلية، وهو سنان أن أرسل من يقتل ملك إنكلتار، وإن قتل المركيس فله عشرة آلاف دينار، فلم يمكنهم قتل ملك إنكلتار، ولم يره سنان مصلحة لهم لئلا يخلو وجه صلاح الدين من الفرنج ويتفرغ لهم، وشره في أخذ المال، فعدل إلى قتل المركيس، فأرسل رجلين في زي الرهبان واتصلا بصاحب صيدا وابن بارزان، صاحب رملة، وكانا مع المركيس بصور، فأقاما معهما ستة أشهر يظهران العبادة، فانسر بهما المركيس ووثق إليهما، فلما كان بعد التاريخ عمل الأسقف بصور دعوة المركيس فحضرها وأكل طعامه وشرب مدامه وخرج من عنده، فوثب عليه الباطنيان المذكوران، فجرحاه جراحاً وثيقة، وهرب أحدهما ودخل كنيسة يختفي فيها، فاتفق أن المركيس حمل إليها ليشد جراحه، فوثب عليه ذلك الباطني فقتله، وقتل الباطنيان بعده، ونسب الفرنج قتله إلى

وضع من ملك إنكلتار لينفرد بملك الساحل الشامي، فلما قتل ولي بعده مدينة صور كند من الفرنج من داخل البحر يقال له الكندهري، وتزوَّج بالملكة في ليلته، ودخل بها وهي حامل، وليس الحمل عندهم مما يمنع النكاح، وهذا الكندهري هو ابن أخت ملك إفرنسيس من أبيه، وابن أخت ملك إنكلتار من أمه، وملك هذا كندهري بلاد الفرنج بالساحل بعد عود ملك إنكلتار، وعاش إلى سنة أربع وتسعين وخمسمائة، فسقط من سطح فمات، وكان عاقلاً كثير المداراة، والاحتمال، ولما رحل ملك إنكلتار إلى بلاده أرسل هذا كندهري إلى صلاح الدين يستعطفه ويستميله يطلب منه خلعة، وقال: أنت تعلم أن لبس القباء والشربوش عندنا عيب وأنا ألبسهما منك محبة لك، فأنفذ إليه خلعة سنية منها القباء والشربوش، فلبسهما بعكا.

ذكر نهب بني عامر البصرة

في هذه السنة في صفر اجتمع بنو عامر في خلق كثير وأميرهم عميرة وقصدوا البصرة، وكان الأمير بها اسمه محمد بن اسماعيل ينوب عن مقطعها الأمير طغرل مملوك الخليفة الناصر لدين الله، فوصلوا إليها يوم السبت سادس صفر، فخرج إليهم الأمير محمد فيمن معه من الجند، فوقعت الحرب بينهم بدرب الميدان بجانب الخريبة، ودام القتال إلى آخر النهار، فلما جاء الليل ثلم العرب في السور عدة ثلم، ودخلوا البلد من الغد، فقاتلهم أهل البلد فقتل بينهم قتلى كثيرة من الفريقين، ونهبت العرب الخانات بالشاطىء وبعض محال البصرة، وعبر أهلها إلى شاطىء الملاحين، وفارق العرب البلد في يومهم، وعاد أهله إليه، وكان سبب سرعة العرب في مفارقة البلد أنهم بلغهم أن خفاجة والمنتفق قد قاربوهم، فساروا إليهم وقاتلوهم أشد قتال، فظفرت عامر وغنمت أموال خفاجة والمنتفق وعادوا إلى البصرة بكرة الاثنين، وكان الأمير قد جمع من أهل البصرة والسواد جمعاً كثيراً، فلما عادت عامر قاتلهم أهل البصرة ومن اجتمع معهم، فلم يقوموا للعرب وانهزموا، ودخل العرب البصرة ونهبوها، وفارق البصرة أهلها ونهبت أموالهم، وجرت أمور عظيمة ونهبت القسامل وغيرها يومين، وفارقها العرب، وعاد أهلها إليها، وقد رأيت هذه القصة بعينها في سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة والله أعلم.

ذكر ما كان من ملك إنكلتار

في تاسع جمادى الأولى من هذه السنة استولى الفرنج على حصن الداروم فخربوه، ثم ساروا إلى البيت المقدس، وصلاح الدين فيه فبلغوا بيت نوبة، وكان سبب طمعهم أن صلاح الدين فرق عساكره الشرقية وغيرها لأجل الشتاء ويستريحوا وليحضر البلد عوضهم، وسار بعضهم مع ولده الأفضل وأخيه العادل إلى البلاد الجزرية ـ لما نذكره إن شاء الله تعالى، وبقي من حلقته الخاص بعض العساكر المصرية، فظنوا أنهم ينالون غرضاً، فلما سمع صلاح الدين بقربهم منه فرق أبراج البلد على الأمراء، وسار الفرنج من بيت نوبة إلى قلونية سلخ الشهر، وهي فرسخين من القدس، فصب المسلمون عليهم البلاء، وتابعوا إرسال السرايا قبل الفرنج منهم بما لا قبل لهم به، وعلموا أنهم إذا نازلوا القدس كان الشر إليهم أسرع والتسلط عليهم أمكن، فرجعوا القهقرى، وركب المسلمون أكتافهم بالرماح، والسهام، ولما بعد الفرنج عن يافا سيّر صلاح الدين سرية من عسكره إليها فقاربوها وكمنوا عندها، فاجتاز بهم جماعة من فرسان الفرنج مع قافلة، فخرجوا عليهم، فقتلوا منهم وأسروا وغنموا، وكان ذلك آخر جمادى الأولى.

ذكر استيلاء الفرنج على عسكر للمسلمين وقفل

في تاسع جمادى الآخرة بلغ الفرنج الخبر بوصول عسكر من مصر، ومعهم قفل كبير ومقدم العسكر فلك الدين سليمان أخو العادل لأمه، ومعه عدّة من الأمراء، فأسرى الفرنج إليهم فواقعهم بنواحي الخليل، فانهزم الجند، ولم يقتل منهم أحد من المشهورين إنما قتل من الغلمان والأصحاب، وغنم الفرنج خيامهم وآلاتهم، وأما القفل فإنه أخذ بعضه، وصعد من نجاجبل الخليل، فلم يقدم الفرنج على اتباعهم، ولو اتبعوهم نصف فرسخ لأتوا عليهم، وتفرق من نجا من القفل وتقطعوا، ولقوا شدة إلى أن اجتمعوا. حكى لي بعض أصحابنا، وكنا قد سيرنا معه شيئاً للتجارة إلى مصر، وكان قد خرج في هذه القفل قال: لمّا وقع الفرنج علينا كنا قد رفعنا أحمالنا للسير، فحملوا علينا وأوقعوا بنا، فضربت جمالي وصعدت الجبل، ومعي عدة أجمال لغيري، فلحقنا قوم من الفرنج، فأخذوا الأجمال التي في صحبتي، وكنت بين أيديهم بمقدار رمية

سهم، فلم يصلوا إلي، فنجوت بما معي وسرت لا أدري أين أقصد وإذ قد لاح لي بناء كبير على جبل، فسألت عنه فقيل لي هذا الكرك، فوصلت إليه ثم عدت منه إلى القدس سالماً، وسار هذا الرجل من القدس سالماً، فلما بلغ بزاعة عند حلب أخذه الحرامية، فنجا من العطب وهلك عند ظنه السلامة.

ذكر سير الأفضل والعادل إلى بلاد الجزيرة

قد تقدَّم ذكر موت تقي الدين عمر بن صلاح الدين واستيلاء ولده ناصر الدين محمد على بلاد الجزيرة، فلما استولى عليها أرسل إلى صلاح الدين يطلب تقريرها عليه مضافاً إلى ما كان لأبيه بالشام، فلم ير صلاح الدين أن مثل تلك البلاد تسلم إلى صبي، فما أجابه إلى ذلك، فحدث نفسه بالامتناع على صلاح الدين لاشتغاله بالفرنج، فطلب الأفضل علي بن صلاح الدين من أبيه أن يقطعه ما كان لتقي الدين، وينزل عن دمشق، فأجابه إلى ذلك وأمره بالمسير إليها، فسار إلى حلب في جماعة من العسكر، وكتب صلاح الدين إلى أصحاب البلاد الشرقية مثل صاحب الموصل وصاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب ديار بكر وغيرها يأمرهم بإنفاذ العساكر إلى ولده الأفضل، فلما رأى ولد تقي الدين ذلك علم أنه لا قوة له بهم، فراسل الملك العادل، عم أبيه يسأله إصلاح حاله مع صلاح الدين، فأنهى ذلك إلى صلاح الدين، وأصلح حاله وقرر قاعدته بأن يقرر له ما كان لأبيه بالشام، وتؤخذ منه البلاد الجزرية، وهي حران الرها وسميساط وميافارقين وحاني العادل، وسيره إلى ابن تقي الدين ليتسلم منه البلاد ويسيره إلى صلاح الدين ويعيد الملك الأفضل أين أدركه، فسار العادل فلحق الأفضل بحلب، فأعاده إلى أبيه، وعبر العادل الفرات وتسلم البلاد من ابن تقي الدين، وجعل نوابه فيها واستصحب ابن تقي الدين معه وعاد إلى صلاح الدين بالعساكر، وكان عوده في جمادى الآخرة من هذه السنة.

ذكر عود الفرنج إلى عكا

لما عاد الملك الأفضل فيمن معه، وعاد الملك العادل وابن تقي الدين فيمن معهما من عساكرهما، ولحقتهم العساكر الشرقية، عسكر الموصل وعسكر ديار بكر وعسكر سنجار وغير ذلك من البلاد، واجتمعت العساكر بدمشق أيقن الفرنج أنهم لا طاقة لهم

بها إذا فارقوا البحر، فعادوا نحو عكا يظهرون العزم على قصد بيروت ومحاصرتها، فأمر صلاح الدين ولده الأفضل أن يسير إليها في عسكره والعساكر الشرقية جميعها معارضاً للفرنج في مسيرتهم نحوها ، فسار إلى مرج العيون، واجتمعت العساكر معه، فأقام هنالك ينتظر مسير الفرنج ، فلما بلغهم ذلك أقاموا بعكّا ولم يفارقوها .

ذكر ملك صلاح الدين يافا

لما رحل الفرنج نحو عكّا كان قد اجتمع عند صلاح الدين عسكر حلب وغيرها، فسار إلى مدينة يافا، وكانت بيد الفرنج ، فنازلها وقاتل من بها منهم، وملكها في العشرين من رجب بالسيف عنوة ونهبها المسلمون وغنموا ما فيها وقتلوا الفرنج وأسروا كثيراً، وكان بها أكثر ما أخذوه من عسكر مصر والقفل الذي كان معهم، ـ وقد ذكر ذلك ـ وكان جماعة من المماليك الصلاحية قد وقفوا على أبواب المدينة، وكل من خرج من الجند ومعه شيء من الغنيمة أخذوه منه، فإن امتنع ضربوه وأخذوا ما معه قهراً، ثم زحفت العساكر الى القلعة، فقاتلوا عليها آخر النهار وكادوا يأخذونها، فطلب من بالقلعة الأمان على أنفسهم، وخرج البطرك الكبير الذي لهم ومعه عدة من أكابر الفرنج في ذلك، وتردّدوا، وكان قصدهم منع المسلمين عن القتال، فأدركهم الليل وواعدوا المسلمين أن ينزلوا بكرة غد ويسلموا القلعة، فلما أصبح الناس طالبهم صلاح الدين بالنزول عن الحصن فامتنعوا ، واذ قد وصلهم نجدة من عكّا وأدركهم ملك انكلتار، فأخرج من بيافا من المسلمين، وأتاه المدد من عكا وبرزوا إلى ظاهر المدينة، واعترض المسلمين وحده وحمل عليهم فلم يتقدَّم إليه أحد، فوقف بين الصفين واستدعى طعاما من المسلمين ونزل أكل، فأمر صلاح الدين عسكره بالحملة عليهم وبالجد في قتالهم، فتقدم إليه بعض أمرائه يعرف بالجناح، وهو أخو المشطوب بن علي ابن أحمد الهكّاري، فقال له: يا صلاح الدين قل لمماليكك الذين اخذوا امس الغنيمة وضربوا الناس بالحماقات يتقدمون فيقاتلون، إذا كان القتال فنحن واذا كانت الغنيمة فلهم، فغضب صلاح الدين من كلامه، وعاد عن الفرنج، وكان ـ رحمه الله ـ حليماً كريماً لمقدرة، ونزل في خيامه، وأقام حتى اجتمعت العساكر، وجاء إليه ابنه الأفضل وأخوه العادل وعساكر الشرق، فدخل بهم إلى الرملة لينظر ما يكون منه ومن الفرنج، فلزم الفرنج يافا ولم يبرحوا منها.

ذكر الهدنة مع الفرنج وعود صلاح الدين الى دمشق

في العشرين من شعبان من هذه السنة عقدت بين المسلمين والفرنج هدنة لمدّة ثلاث سنين وثمانية اشهر، اولها هذا التاريخ وافق أول أيلول، وسبب الصلح أن ملك إنلكتار لما رأى اجتماع العساكر، وانه لا يمكنه مفارقة ساحل البحر وليس بالساحل للمسلمين بلد يطمع فيه ،قد طالت غيبته عن بلاده، وأرسل صلاح الدين في الصلح وأظهر من ذلك ضد ما كان يظهـره أولا ، فلم يجبه صلاح الدين إلى ما طلب ظنّا منه أنه يفعل ذلك خديعة ومكراً، وأرسل يطلب منه المصاف والحرب، فأعاد الفرنجي رسله مرّة بعد مرّة، وترك تتمة عمارة عسقلان وعن غزة والداروم والرملة، وأرسل إلى الملك العادل في تقرير هذه القاعدة، فأشار هو وجماعة الأمراء بالإجابة إلى الصلح، وعرفوه ما عند العسكر من الضجر والملل وما قد هلك من أسلحتهم ودوابهم ونفد من نفقاتهم، وقالوا: إن هذا الفرنجي إنما طلب الصلح ليركب البحر ويعود إلى بلاده، فإن تأخّرت إجابته إلى ان يجيء الشتاء وينقطع الركوب في البحر نحتاج نبقى ههنا سنة أخرى، وحينئذ يعظم الضرر على المسلمين، وأكثروا القول له في هذا المعنى، فأجاب حينئذ إلى الصلح ، فحضر رسل الفرنج وعقدوا الهدنة وتحالفوا على هذه القاعدة، وكان في جملة من حضر عند صلاح الدين باليان بن بارزان الذي كان صاحب الرملة ونابلس، فلمّا حلف صلاح الدين قال له: ما عمل أحد في الإسلام ما عملت، ولا هلك من الفرنج مثل ما هلك منهم هذه المدة، فإننا احصينا من خرج إلينا في البحر من المقاتلة، فكانوا ستمائة ألف رجل ما عاد منهم إلى بلادهم من كل عشرة واحد، بعضهم قتلتهم أنت وبعضهم مات وبعضهم غرق، ولما انفصل أمر الهدنة أذن صلاح الدين للفرنج في زيارة بيت المقدس، فزاروه وتفرقوا، وعادت كل طائفة إلى بلادها، وأقام بالساحل الشامي ملكا على الفرنج والبلاد التي بأيديهم الكندهري، وكان خيّر الطبع قليل الشر رفيقاً بالمسلمين محبّاً لهم، وتزوج بالملكة التي كانت تملك بلاد الفرنج قبل أن يملكها صلاح الدين ـ كما ذكرناه ـ، وأما صلاح الدين فإنه بعد تمام الهدنة سـار إلى البيت المقدس، وأمر بإحكام سوره، وعمل المدرسة والرباط والبيمارستان وغيـر ذلك من مصالح المسلمين، ووقـف عليها الوقوف وصام رمضان بالقدس، وعـزم على الحج والإحرام منه فلم يمكنه ذلك، فسار عنه خامس شوال نحو دمشق واستناب بالقدس أميراً اسمه جورديك، وهو من المماليك النورية، ولما سار عنه جعل طريقه على الثغـور

الإسلامية كنابلس وطبرية وصفد وتبنين وبيروت، وتعهد هذه البلاد وأمر بإحكامها، فلما كان في بيروت أتاه بيمند صاحب أنطاكية، وأعمالها، واجتمع به وخدمه، فخلع عليه صلاح الدين وعاد إلى بلده، فلما عاد رحل صلاح الدين الى دمشق، فدخلها في الخامس والعشرين من شوال، وكان يوم دخوله إليها يوماً مشهوداً، وفرح الناس به فرحا عظيما لطول غيبته وذهاب العدو عن بلاد الإسلام.

ذكر وفاة قلج أرسلان

في هذه السنة منتصف شعبان، توفّي الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن قتلش بن سلجوق السلجوقي بمدينة قونيّة، وكان له من البلاد قونية وأعمالها وأقصرا وسيواس وملطيّة وغير ذلك من البلاد، وكانت مدّة ملكه نحو تسع وعشرين سنة، وكانِ ذا سياسة حسنة وهيبة عظيمة وعدل وافر وغزوات كثيرة الى بلاد الروم، فلما كبر فرّق بلاده على أولاده فاستضعفوه ولم يلتفتوا إليه وحجر عليه ولده قطب الدين، وكان قلج أرسلان قد استناب في مدينة ملكه رجلاً يعرف باختيار الدين حسن، فلما غلب قطب الدين على الأمر قتل حسناً، ثم أخذ والده وسار به إلى قيسارية ليأخذ من أخيه الذي سلمها إليه أبوه فحصرها مدة فوجد والده قلج ارسلان فرصة فهرب ودخل وحده، فلما علم قطب الدين ذلك عاد إلى قونية وأقصر فملكها، ولم يزل قلج أرسلان يتحول من ولد إلى ولد، وكل منهم يتبرم به حتى مضى إلى ولده غياب الدين كيخسرو صاحب مدينة برغلوا، فلما رآه فرح به وخدمه وجمع العساكر، وسار هو معه إلى قونية فملكها وسار إلى أقصرا ومعه والده قلج أرسلان فحصرها، فمرض أبوه، فعاد به إلى قونية فتوفّي بها ودفن هناك، وبقي ولده غياث الدين في قونية مالكاً لها حتى أخذها منه أخوه ركن الدين سليمان ـ على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وقد حدثني بعض من أثق إليه من أهل العلم مما يحكيه ، وكان قد وصل تلك البلاد بغير هذا ـ ونحن نذكره ـ قال: إن قلج أرسلان قسّم بلاده بين أولاده في حياته، فسلّم دوقاط إلى ابنه ركن الدين سليمان، وسلم قونية إلى ولده كيخسرو غياث الدين، وسلم أنقرة وهي التي تسمّى أنكوريّة إلى ولده محيي الدين، وسلم ملطية إلى ولده معزّ الدين قيصر شاه، وسلم ابلستين إلى ولده مغيث الدين، وسلم قيسارية إلى ولده نور الدين محمود، وسلم سيواس واقصرا إلى ولده قطب الدين، وسلم تكسار إلى ولد

آخر، وسلم أماسيا إلى ولد أخيه، هذه أمهات البلاد، وينضاف إلى كل بلد من هذه ما يجاورها من البلاد الصغار التي ليست مثل هذه، ثم إنه ندم على ذلك وأراد أن يجمع الجميع لولده الأكبر قطب الدين وخطب له ابنة صلاح الـدين يوسف صـاحب مصر والشام ليقوى به، فلما سمع باقي أولاده بذلك امتنعوا عليه وخرجوا عن طاعته وزال حكمه عنهم، فسار يتردّد بينهم على سبيل الزيارة فيقيم عند كل واحد منهم مدّة وينتقل إلى الآخر، ثم إنه مضى إلى ولده كيخسرو صاحب قونية على عادته، فخرج إليه ولقيه وقبل الأرض بين يديه وسلم قونية إليه وتصرف عن أمره فقال لكيخسرو: أريد أسير إلى ولدي الملعون محمود ـ وهو صاحب قيسارية ـ وتجيء أنت معي لآخذها منه، فتجهز وسار معه وحصر محمودا بقيسارية فمرض قلج أرسلان وتوفّي عليها، فعاد كيخسرو وبقي كل واحد من الاولاد على البلد الذي بيده.

وكان قطب الدين صاحب أقصرا وسيواس إذا أراد أن يسير من إحدى المدينتين إلى الأخرى يجعل طريقه على قيسارية وبها أخوه نور الدين محمود، وليست على طريقه إنما كان يقصدها ليظهر المودة لأخيه والمحبة له، وفي نفسه الغدر، فكان أخوه محمود يقصده ويجتمع به، ففي بعض المرات نزل بظاهر البلد على عادته وحضر اخوه محمود عنده غير محتاط، فقتله قطب الدين وألقى رأسه الى اصحابه وأراد أخذ البلد، فامتنع من به من اصحاب أخيه عليه، ثم انهم سلموه اليه على قاعدة استمرّت بينهم، وكان عند محمود أمير كبير وكان يحذره من أخيه قطب الدين ويخوفه، فلم يصغ إليه، وكان جواداً كثير الخير والتقدُّم في الدولة عند نور الدين، فلما قتل قطب الدين أخاه قتل حسناً معه وألقاه على الطريق! فجاء كلب يأكل من لحمه، فثار الناس وقالوا: لا سمعاً ولا طاعة هذا رجل مسلم وله ههنا مدرسة وتربة وصدقات دارة وأفعال حسنة لا نتركه تأكله الكلاب، فأمر به فدفن في مدرسته، وبقي أولاد قلج أرسلان على حالهم، ثم إنَّ قطب الدين مرض ومات، فسار أخوه ركن الدين سليمان صاحب دوقاط إلى سيواس، وهي تجاوره فملكها، ثم سار منها إلى قيسارية واقصرا، ثم بقي مديدة، وسار إلى قونية وبها أخوه غياث الدين فحصره بها وملكها، ففارقها غياث الدين إلى الشـام، ثم إلى بلد الروم، وكان من أمره ـ ما نذكره إن شاء الله تعالى ـ، ثم سار بعد ذلك إلى ركن الدين إلى نكسار وأماسيا، فملكها، وسار إلى ملطية سنة سبع وتسعين وخمسمائة فملكها،

وفارقها أخوه معزّ الدين إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وكان هذا معزّ الدين تزوّج ابنة للعادل، فأقام عنده واجتمع لركن الدين ملك جميع الأخوة ما عدا أنقرة، فإنها منيعة لا يوصل اليها، فجعل عليها عسكراً يحصرها صيفاً وشتاء ثلاث سنين، فتسلمها سنة إحدى وستمائة، ووضع على أخيه الذي كان بها من يقتله إذا فارقها، فلما سار عنها قتل وتوفّي ركن الدين في تلك الايام، ولم يسمع خبر قتل أخيه بل عاجله الله تعالى لقطع رحمه وإنما أوردنا هذه الحادثة ههنا لنتبع بعضها بعضا، ولأني لم أعلم تواريخ كل حادثة منها لأثبته فيه.

ذكر ملك شهاب الدين أجمير وغيرها من الهند

قد ذكرنا سنة ثلاث وثمانين غزوة شهاب الدين الغوري إلى بلد الهند وانهزامه، وبقي إلى الآن وفي نفسه الحقد العظيم على الجند الغورية الذين انهزموا وما ألزمهم من الهوان، فلما كانت هذه السنة خرج من غزنة، وقد جمع عساكره، وسار فيها يطلب غزوة الهندي الذي هزمه تلك النوبة، فلما وصل إلى يرشاوور تقدم إليه شيخ من الغورية كان يدل عليه، فقال له: قد قربنا من العدو وما يعلم أحد أين يمضي ولا من يقصد ولا نرد على الأمراء سلاما وهذا لا يجوز فعله، فقال له السلطان: أعلم أنني منذ هزمني هذا الكافر ما نمت مع زوجتي ولا غيرت ثياب البياض عني، وأنا سائر إلى عدوي ومعتمد على الله تعالى لا على الغورية ولا على غيرهم، فإن نصرني الله سبحانه ونصر دينه فمن فضله وكرمه وإن انهزمنا فلا تطلبوني فما انهزمت ولو هلكت تحت حوافر الخيل، فقال له الشيخ: سوف ترى بني عمك من الغورية ما يفعلون فينبغي أن تكلمهم وترد سلامهم ففعل ذلك، وبقي أمراء الغورية يتضرعون ويقولون سوف ترى ما نفعل.

وسار إلى أن وصل إلى موضع المصاف الأول وجازه مسيرة أربعة أيام وأخذ عدة مواضع من بلاد العدو، فلما سمع الهندي تجهّز وجمع عساكره وسار يطلب المسلمين، فلما بقي بين الطائفتين مرحلة عاد شهاب الدين وراء، والكافر في أعقابه أربعة منازل، فأرسل الكافر إليه يقول له اعطني يدك أنك تصافقني في باب غزنة حتى أجيء وراءك، وإلا فنحن مثقلون ومثلك لا يدخل البلاد شبيه اللصوص، ثم يخرج هارباً ما هذا فعل السلاطين، فأعاد الجواب إنني لا اقدر على حربك، وتم على حاله عائداً إلى أن بقي بينه وبين بلاد الإسلام ثلاثة أيام، والكافر في أثره يتبعه حتى لحقه قريباً من مرندة،

فجرد شهاب الدين من عسكره سبعين ألفاً وقال: أريد هذه الليلة تدورون حتى تكونوا وراء عسكر العدو، وعند صلاة الصبح تأتون أنتم من تلك الناحية وأنا من هذه الناحية ففعلوا ذلك، وطلع الفجر، ومن عادة الهنود انهم لا يبرحون من مضاجعهم إلى أن تطلع الشمس، فلمّا اصبحوا حمل عليهم عسكر المسلمين من كل جانب وضربت الكؤسات، فلم يلتفت ملك الهند إلى ذلك، وقال: من يقدم علي أنا هذا، والقتل قد أكثر في الهنود، والنصر قد ظهر للمسلمين، فلما رأى ملك الهند ذلك احضر فرساً له سابقاً وركبه ليهرب، فقال له أعيان أصحابه: إنك حلفت لنا أنك لا تخلينا وتهرب، فنزل عن الفرس وركب الفيل ووقف موضعه والقتال شديد والقتل قد كثر في أصحابه، فانتهى المسلمون إليه وأخذوه أسيراً، وحينئذ عظم القتل والأسر في الهنود ولم ينج منهم إلا القليل، وأحضر الهندي بين يدي شهاب الدين، فلم يخدمه فأخذ بعض الحجاب بلحيته وجذبه إلى الأرض حتى اصابها جبينه وأقعده بين يدي شهاب الدين، فقال له شهاب الدين: لو استأسرتني ما كنت تفعل بي؟ فقال الكافر: قد استعملت لك قيداً من ذهب أقيدك به، فقال شهاب الدين بل نحن ما نجعل لك من القدر ما نقيدك، وغنم المسلمون من الهنود أموالا كثيرة وأمتعة عظيمة، وفي جملة ذلك أربعة عشر فيلا من جملتها الفيل الذي جرح شهاب الدين في تلك الوقعة، وقال ملك الهند لشهاب الدين: إن كنت طالبا بلاد فما بقي فيها من يحفظها وإن كنت طالب أموال فعندي أموال تحمل أجمالك، فسار شهاب الدين وهو معه إلى الحصن الذي له يعول عليه، وهو أجمير فأخذه وأخذ جميع البلاد التي تقاربه، وأقطع جميع البلاد لمملوكه قطب الدين أيبك وعاد إلى غزنة وقتل ملك الهند.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قبض على أمير الحاج طاشتكين ببغداد، وكان نعم الأمير عادلاً في الحاج رفيقا بهم محبّاً لهم له اوراد كثيرة من صلوات وصيام، وكان كثير الصدقة لا جرم وقفت اعماله بين يديه فخلص من السجن ـ على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها خرج السلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل من الحبس بعد موت قزل أرسلان ابن أيلدكز، والتقى هو وقتغ أينانج بن البهلوان بن أيلدكز، فانهزم أينانج إلى الري على ما نذكره إن شاء الله تعالى ـ سنة تسعين وخمسمائة.

وفيها في رجب توفّي الأمير السيد علي بن المرتضى العلوي الحنفي مدرس جامع السلطان ببغداد. وفي شعبان منها توفّي أبو علي الحسن بن هبة الله بن البوقي الفقيه الشافعي الواسطي، وكان عالماً بالمذهب انتفع به الناس.

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة

ذكر وفاة صلاح الدين وبعض سيرته

في هذه السنة في صفر توفّي صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي صاحب مصر والشام والجزيرة وغيرها بدمشق ومولده بتكريت، وقد ذكرنا سبب انتقالهم منها، وملكهم مصر سنة أربع وستين وخمسمائة، وكان سبب مرضه أنه خرج يلتقي الحاج، فعاد ومرض من يومه مرضا حادا بقي به ثمانية أيام، وتوفي ـ رحمه الله ـ وكان قبل مرضه قد أحضر ولده الأفضل علياً وأخاه الملك العادل أبا بكر واستشارهما فيما يفعل، وقال: قد تفرغنا من الفرنج وليس لنا في هذه البلاد شاغل، فأي جهة نقصد؟ فأشار عليه أخوه العادل بقصد خلاط لأنه كان قد وعده إذا أخذها أن يسلمها إليه، وأشار ولده الأفضل بقصد بلد الروم التي بيد أولاد قلج أرسلان، وقال: هي اكثر بلاداً وعسكراً ومالاً وأسرع مأخذاً، وهي أيضاً طريق الفرنج إذا خرجوا على البر، فإذا ملكناها منعناهم من العبور فيه، فقال: كلاكما مقصر ناقص الهمة بل أقصد أنا بلد الروم وقال لأخيه: تأخذ أنت بعض أولادي وبعض العسكر وتقصد خلاط، فإذا فرغت أنا من بلد الروم جئت إليكم وندخل منها أذربيجان، ونتصل ببلاد العجم، فما فيها من يمنع عنها ثم أذن لأخيه العادل في المضي الى الكرك، وكان له وقال له تجهّز واحضر لتسير، فلما سار إلى الكرك مرض صلاح الدين وتوفي قبل عوده ـ وكان رحمه الله ـ كريماً حليماً حسن الأخلاق متواضعاً صبوراً على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب أصحابه يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه .

وبلغني أنه كان جالساً وعنده جماعة، فرمى بعض المماليك بعضاً بسرموز، فأخطأته، ووصلت إلى صلاح الدين فأخطأته، ووقعت بالقرب منه، فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلم جليسه ليتغافل عنها، وطلب مرة الماء فلم يحضر، وعاود الطلب في

مجلس واحد خمس مرات فلم يحضر، فقال: يا اصحابنا والله قد قتلني العطش، فأحضر الماء فشربه، ولم ينكر التواني في إحضاره، وكان مرّة قد مرض مرضاً شديداً أرجف عليه بالموت، فلما برىء منه وأدخل الحمام كان الماء حاراً، فطلب ماء بارداً فأحضره الذي يخدمه فسقط من الماء شيء على الأرض، فناله منه شيء فتألم لضعفه، ثم طلب البارد أيضاً فأحضر، فلما قاربه سقطت الطاسة على الأرض، فوقع الماء جميعه عليه، فكاد يهلك، فلم يزد على أن قال للغلام: إن كنت تريد قتلي فعرفني، فاعتذر إليه فسكت عنه.

وأما كرمه فإنه كان كثير البذل لا يقف في شيء يخرجه، ويكفي دليلا على كرمه أنه لما مات لم يخلف في خزائنه غير دينار واحد صوري وأربعين درهماً ناصرية، وبلغني أنه اخرج في مدّة مقامه على عكا قبالة الفرنج ثمانية عشر الف دابة من فرس وبغل سوى الجمال، وأما العين والثياب والسلاح، فإنه لا يدخل تحت الحصر، ولما انقرضت الدولة العلوية بمصر أخذ من ذخائرهم من سائر الأنواع ما يفوت الإحصاء، ففرقه جميعه.

وأما تواضعه فإنه كان ظاهراً لم يتكبر على أحد من أصحابه، وكان يعيب الملوك المتكبرين بذلك، وكان يحضر عنده الفقراء والصوفية، ويعمل لهم السماع، فإذا قام أحدهم لرقص أو سماع يقوم له، فلا يقعد حتى يفرغ الفقير، ولم يلبس شيئاً مما ينكره الشرع، وكان عنده علم ومعرفة وسمع الحديث واسمعه، وبالجملة فكان نادراً في عسكره كثير المحاسن والأفعال الجميلة عظيم الجهاد في الكفار، وفتوحه تدل على ذلك، وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً.

ذكر حال أهله وأولاده بعده

لما مات صلاح الدين بدمشق كان معه بها ولده الأكبر الأفضل نور الدين عليّ، وكان قد حلف له العساكر جميعهم غير مرة في حياته، فلما مات ملك دمشق والساحل والبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين وجميع الأعمال إلى الداروم، وكان ولده الملك العزيز عثمان بمصر فاستولى عليها واستقر ملكه بها، وكان ولده الظاهر غازي بحلب فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها مثل حارم وتل باشر وإعزاز وبرزية ودرب ساك ومنبج وغير ذلك، وكان بحماة محمود بن تقي الدين عمه،

فأطاعه وصار معه، وكان بحمص شيركوه بن محمد بن شيركوه، فأطاع الملك الأفضل، وكان الملك العادل بالكرك قد سار اليه كما ذكرنا فامتنع فيه ولم يحضر عند أحد أولاد أخيه فأرسل إليه الملك الأفضل يستدعيه ليحضر عنده فوعده ولم يفعل، فأعاد مراسلته، وخوفه من الملك العزيز صاحب مصر، ومن أتابك عز الدين صاحب الموصل، فإنه كان قد سار عنها إلى بلاد العادل الجزرية ـ على ما نذكره ـ ويقول له إن حضرت جهزت العساكر وسرت إلى بلادك حفظتها، وان اقمت قصدك أخي الملك العزيز لما بينكما من العداوة، وإذا ملك عز الدين بلادك، ، فليس له دون الشام مانع، وقال لرسوله: إن حضر معك وإلا فقل له قد أمرني إن سرت إليه بدمشق عدت معك، وإن لم تفعل أسير إلى الملك العزيز احالفه على ما يختار، فلما حضر الرسول عنده وعده بالمجيء، فلما رأى أن ليس معه منه شيء غير الوعد أبلغه ما قيل له في معنى موافقة العزيز، فحينئذ سار الى دمشق وجهز الأفضل معه عسكر من عنده، وأرسل إلى صاحب حمص وصاحب حماة وإلى أخيه الملك الظاهر بحلب، يحثّهم على إنفاذ العساكر مع العادل إلى البلد الجزرية ليمنعها من صاحب الموصل، ويخوفهم إن هم لم يفعلوا، ومماقال لأخيه الظاهر: قد عرفت صحبة أهل الشام لبيت أتابك فوالله لئن ملك عز الدين حرّان ليفركن أهل حلب عليك ولتخرجن منها وأنت لا تعقل، وكذلك يفعل في أهل دمشق، فاتفقت كلمتهم على تسيير العساكر معه، فجهزوا عساكرهم وسيروها إلى العادل، وقد عبر الفرات فعسكر عساكرهم بنواحي الرها بمرج الرحان، وسنذكر ما كان منه إن شاء الله تعالى.

ذكر مسير أتابك عز الدين إلى بلاد العادل وعوده بسبب مرضه

لما بلغ أتابك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل وفاة صلاح الدين جمع أهل الرأي من أصحابه، وفيهم مجاهد الدين قايماز كبير دولته والمقدم على كل من فيها، وهو نائبه فيهم، واستشارهم فيما يفعل، فسكتوا فقال له بعضهم، وهو أخي مجد الدين ابو السعادات المبارك: أنا أرى أنك تخرج مسرعا جريدة فيمن خف من أصحابك وحلقتك الخاص، وتنقدم إلى الباقين باللحاق بك، وتعطي من هو محتاج إلى شيء ما يتجهز به ويلحق بك إلى نصيبين، وتكاتب أصحاب الأطراف، مثل مظفر

الدين بن زين الدين صاحب إربل، وسنجرشاه ابن اخيك صاحب جزيرة ابن عمر، وأخـاك عماد الـدين صاحب سنجـار ونصيبين تعرفهم أنـك قد سـرت وتطلب منهم المساعدة وتبذل لهم اليمين على ما يلتمسونه، فمتى رأوك قـد سرت خـافوك، وإن أجابك اخوك صاحب سنجار ونصيبين الى الموافقة، وإلا بدأت بنصيبين أخذتها وتركت فيها من يحفظها، ثم سرت نحو الخابور، وهو له ايضا فأقطعه وتركت عسكره مقابل أخيك يمنعه من الحركة إن أرادها أو قصدت الرقة، فلا تمنع نفسها وتأتي حرّان والرها، فليس فيهما من يحفظهما لا صاحب ولا عسكر ولا ذخيرة، فإن العادل أخذهما من ابن تقي الدين ولم يقم فيهما ليصلح حالهما، وكان القوم يتكلمون على قوتهم، فلم يظنّوا هذا الحادث، فإذا فرغت من ذلك الطرف عدت إلى من امتنع من طاعتك فقاتلته، وليس وراءك ما تخاف عليه، فإنَّ بلدك عظيم لا يبالي بكل من وراءك، فقال مجاهد الدين: المصلحة أننا نكاتب اصحاب الأطراف ونأخذ رأيهم في الحركة ونستميلهم، فقال له أخي: إن أشاروا بترك الحركة تقبلون منهم؟ قال: لا، فإنهم لا يشيرون إلا بتركها لأنهم لا يريدون أن يقوى هذا السلطان خوفاً منه، وكأني بهم يغالطونكم مهما كانت البلاد الجزرية فارغة من صاحب وعسكر، فإذا جاء إليها من يحفظها جاهروكم بالعداوة، ولم يمكنه أكثر من هذا خوفا من مجاهد الدين حيث رأى ميله إلى ما تكلم به، فانفصلوا على أن يكاتبوا أصحاب الأطراف، فكاتبوهم، فكل أشار بترك الحركة الى ان ينظر ما يكون من أولاد صلاح الدين وعمهم فتثبط. ثم إن مجاهد الدين كرر المراسلات إلى عماد الدين صاحب سنجار يعـده ويستميله، فبينما هم على ذلـك إذ جاءهم كتـاب الملك العادل من المناخ بالقرب من دمشق، وقد سار عن دمشق إلى بلاده يذكر فيه موت أخيه، وأن البلاد قد استقرّت لولده الملك الأفضل، والناس متفقون على طاعته، وأنه هو المدبّر لدولة الأفضل، وقد سيّره في عسكر جمّ كثير العدد لقصد ماردين لما بلغه أن صاحبها تعرض إلى بعض القرى التي له، وذكر من هذا النحو شيئاً كثيراً فظنوه حقاً، وأن قوله لا ريب فيه ففتروا عن الحركة وذلك الرأي، فسيروا الجواسيس فأتتهم الأخبار بأنه في ظاهر حرّان من نحو مائتي خيمة لا غير، فعادوا تحركوا فإلى أن تقررت القواعد بينهم وبين صاحب سنجار، وأقبلت العساكر الشامية التي سيرها الأفضل وغيره إلى العادل، فامتنع بها، وسار أتابك عز الدين عن الموصل إلى نصيبين، واجتمع هو وأخوه عماد الدين بها، وساروا على سنجار نحو الرها، وكان العادل قد عسكر قريباً منها بمرج

الريحان فخافهم خوفاً عظيماً، فلما وصل أتابك عز الـدين إلى تل مَـوْزَن[١] مرض بالإسهال، فأقام عدة أيام فضعفت منه الحركة وكثر مجيء الدم منه، فخاف الهلاك، فترك العساكر مع أخيه عماد الدين، وعاد جريدة في مائتي فارس ومعه مجاهد الدين وأخي مجد الدين، فلما وصل إلى دُنَيْسِر[٢] استولى عليه الضعف فـأحضر أخي وكتب وصية، ثم سار فدخل الموصل وهو مريض أول رجب.

ذكر وفاة أتابك عز الدين وشيء من سيرته

في هذه السنة توفي أتابك مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل بالموصل، وقد ذكرنـا عوده إليها مريضا، فبقي في مرضه إلى التاسع والعشرين من شعبان، فتوفي رحمه الله ودفن بالمدرسة التي أنشأها مقابل دار المملكة، وكان قد بقي ما يزيد على عشرة أيام لا يتكلم إلا بالشهادتين وتلاوة القرآن، وإذا تكلم بغيرها استغفر الله، ثم عاد إلى ما كان عليه، فرزق خاتمة خير رضي الله عنه، وكان ـ رحمه الله ـ خيّر الطبع كثير الخير والإحسان لا سيما إلى شيوخ قد خدموا أباه، فإنه كان يتعهدهم بالبر والإحسان والصلة والإكرام ويرجع إلى قولهم، ويزور الصالحين ويقر بهم ويشفعهم، وكان حليماً قليل المعاقبة كثير الحياء لم يكلم جليساً له إلا وهو مطرق، وما قال في شيء يُسأله: لا، حياء وكرم طبع، وكان قد حج وليس بمكـة ـ حرسهـا الله ـ خرقـة التصوف، وكان يلبس تلك الخرقة كل ليلة ويخرج إلى مسجد قد بناه في داره ويصلي فيه نحو ثلث الليل، وكان رقيق القلب شفيقاً على الرعية.

بلغني عنه أنه قال بعض الأيام: إنني سهرت الليلة كثيراً، وسبب ذلك أني سمعت صوت نائحة، فظننت أن ولد فلان قد مات، وكان قد سمع أنه مريضَ، قال: فضاق صدري وقمت من فراشي أدور في السطح، فلما طال عـلي الأمر أرسلت خادما إلى الجاندارية، فأرسل منهم واحداً يستعلم الخبر، فعاد وذكر إنسانـاً لا أعرفـه، فسكن بعض ما عندي فنمت ولم يكن الرجل الذي ظن أن ابنه مات من اصحابه إنما كان من رعيته كان ينبغي أن تتأخر وفاته، وإنما قدمناها لتتبع أخبارها بعضها بعضاً.

---

(١) تلّ موزن: وهو بلد قديم بين رأس عين وسروج، وبينه وبين رأس عين عشرة أميال.

(٢) دنيسر: بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين.

ذكر قتل بكتمر صاحب خلاط

في هذه السنة أول جمادى الأولى قتل سيف الدين بكتمر صاحب خلاط، وكان بين قتله وموت صلاح الدين شهران، فإنه أسرف في إظهار الشماتة بموت صلاح الدين، فلم يمهله الله تعالى، ولما بلغه موت صلاح الدين فرح فرحاً كثيراً وعمل تختا جلس عليه، ولقب نفسه بالسلطان المعظم صلاح الدين، وكان لقبه سيف الدين فغيره وسمى نفسه عبد العزيز، وظهر منه اختلال وتخليط وتجهز ليقصد ميافارقين يحصرها فأدركته منيته، وكان سبب قتله أن هزارديناري، وهو أيضا من مماليك شاه أرمن من ظهير الدين كان قد قوي وكثر جمعه وتزوّج ابنة بكتمر، فطمع في الملك فوضع عليه من قتله، فلما قتل ملك بعده هزارد يناري بلاد خلاط وأعمالها، وكان بكتمر ديّناً خيراً صالحاً كثير الخير والصلاح والصدقة محباً لأهل الدين والصوفية كثير الإحسان اليهم قريباً منهم ومن سائر رعيته محبوباً إليهم عادلا فيهم، وكان جواداً شجاعاً عادلاً في رعيته حسن السيرة فيهم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة شتى شهاب الدين ملك غزنة في برشاوور، وجهز مملوكه أيبك في عساكر كثيرة، فأدخله بلاد الهند يغنم ويسبي ويفتح من البلاد ما يمكنه فدخلها وعاد وخرج هو وعساكره سالماً قد ملؤوا أيديهم من الغنائم.

وفيها في رمضان توفي سلطان شاه صاحب مرو وغيرها من خراسان وملك اخوه علاء الدين تكش بلاده وسنذكره سنة تسعين إن شاء الله.

وفيها أمر الخليفة الناصر لدين الله بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد ونقل إليها من الكتب النفيسة ألوفاً لا يوجد مثلها.

وفيها في ربيع الأول فرغ من عمارة الرباط الذي أمر بإنشائه الخليفة أيضا بالحريم الظاهري غربي بغداد على دجلة، وهو من أحسن الربط، ونقل اليه كتباً كثيرة من أحسن الكتب.

وفيها ملك الخليفة قلعة من بلاد خوزستان، وسبب ذلك أن صاحبها سوسيان بن شملة جعل فيها دردارا، فأساء السيرة مع جندها، فغدر به بعضهم فقتله ونادوا بشعار الخليفة فأرسل إليها وملكها.

وفيها انقضّ كوكبان عظيمان، وسمع صوت هدّة عظيمة، وذلك بعد طلوع الفجر وغلب ضوءهما القمر وضوء النهار.

وفيها مات الأمير داود بن عيسى بن محمد بن أبي هاشم أمير مكة وما زالت مكة تكون له تارة ولأخيه مكثر تارة إلى أن مات.

ثم دخلت سنة تسعين وخمسمائة

ذكر الحرب بين شهاب الدين وملك بنارس الهندي

كان شهاب الدين الغوري ملك غزنة قد جهّز مملوكه قطب الدين وسيره إلى بلد الهند للغزاة فدخلها فقتل فيها وسبى وغنم وعاد، فلمّا سمع به ملك بنارس، وهو اكبر ملك في الهند، ولايته من حدّ الصين إلى بلاد ملاوا طولاً، ومن البحر الى مسيرة عشرة أيام من لهاوور عرضاً، وهو ملك عظيم، فعندها جمع جيوشه وحشرها وسار يطلب بلاد الإسلام، ودخلت سنة تسعين، فسار شهاب الدين الغوري من غزنة بعساكره نحوه، فالتقى العسكران على ماخون، وهو نهر كبير يقارب دجلة بالموصل، وكان مع الهندي سبعمائة فيل ومن العسكر على ما قيل ألف ألف رجل، ومن جملة عسكره عدّة أمراء مسلمين ـ كانوا في تلك البلاد أب عن جد من أيّام السلطان محمود بن سبكتكين ـ يلازمون شريعة الإسلام ويواظبون على الصلوات وأفعال الخير، فلما التقى المسلمون والهنود اقتتلوا فصبر الكفار لكثرتهم وصبر المسلمون لشجاعتهم، فانهزم الكفار ونصر المسلمون، وكثر القتل في الهنود حتى امتلأت الأرض وجافت، وكانوا لا يأخذون إلا الصبيان والجواري، وأما الرجال فيقتلون، وأخذ منهم تسعين فيلا، وباقي الفيلة قتل بعضها وانهزم بعضها، وقتل ملك الهند ولم يعرفه أحد إلا أنه كانت أسنانه قد ضعفت أصولها فأمسكوها بشريط الذهب فلذلك عرفوه، فلما انهزم الهنود دخل شهاب الدين بلاد بنارس، وحمل من خزائنها على ألف وأربعمائة جمل، وعاد إلى غزنة ومعه الفيلة التي أخذها من جملتها فيل أبيض، حدثني من رآه لمّا أخذت الفيلة وقدمت إلى شهاب الدين وأمرت بالخدمة فخدمت جميعها إلا الابيض فإنه لم يخدم، ولا يعجب أحد من قولنا الفيلة تخدم فإنها تفهم ما يقال لها، وقد شاهدت فيلاً بالموصل، وفيّاله يحدثه فيفعل ما يقول له.

ذكر قتل السلطان طغرل وملك خوارزم شاه الري ووفاة أخيه سلطان شاه

قد ذكرنا سنة ثمان وثمانين خروج السلطان طغرل بن ألب أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجقي من الحبس وملكه همذان وغيرها، وكان قد جرى بينه وبين قتلغ اينانج بن البهلوان صاحب البلاد حرب انهزم فيها قتلغ اينانج وتحصّن بالري، وسار طغرل الى همذان، وأرسل قتلغ اينانج إلى خوارزم شاه علاء الدين تكش يستنجده، فسار إليه في سنة ثمان وثمانين، فلما تقاربا ندم قتلغ اينانج على استدعاء خوارزم شاه، وخاف على نفسه فمضى من بين يديه، وتحصَّن في قلعة له، فوصل خوارزم شاه إلى الري وملكها وحصر قلعة طبرك ففتحها في يومين وراسله طغرل واصطلحا، وبقيت الري في يد خوارزم شاه، فرتب فيها عسكرا يحفظها وعاد الى خوارزم لانه بلغه ان أخاه سلطان شاه قد قصد خوارزم، فجدّ في السير خوفاً عليها، فأتاه الخبروهو في الطريق أن أهل خوارزم منعوا سلطان شاه عنها ولم يقدر على القرب منها وعاد عنها خائباً، فشتى خوارزم شاه بخوارزم، فلما انقضى الشتاء سار إلى مرو لقصد أخيه سنة تسع وثمانين، فترددت الرسل بينهما في الصلح، فبينما هم في تقرير الصلح، وإذ قد ورد على خوارزم شاه رسول من مستحفظ قلعة سرخس لأخيه سلطان شاه يدعوه ليسلم إليه القلعة لأنه قد استوحش من صاحبه سلطان شاه، فسار خوارزم شاه إليه مجدّاً فتسلم القلعة وصار معه، وبلغ ذلك سلطان شاه، ففت ذلك في عضده وتزايد كمده فمات سلخ رمضان سنة تسع وثمانين وخمسمائة، فلما سمع خوارزم شاه بموته سار من ساعته إلى مرو فتسلمها وتسلم مملكة أخيه سلطان شاه جميعها وخزائنه، وأرسل إلى ابنه علاء الدين محمد، وكان يلقب حينئذ قطب الدين، وهو بخوارزم، فأحضره فولاه نيسابور، وولى ابنه الكبير ملكشاه مرو، وذلك في ذي الحجة سنة تسع وثمانين، فلما دخلت سنة تسعين وخمسمائة قصد السلطان طغرل بلد الري، فأغار على من به من أصحاب خوارزم شاه، ففر منه قتلغ اينانج بن البهلوان، وأرسل إلى خوارزم شاه يعتذر ويسأل إنجازه مرة ثانية، ووافق ذلك وصول رسول الخليفة إلى خوارزم شاه يشكو من طغرل، ويطلب منه قصد بلاده ومعه منشور بإقطاعه البلاد، فسار من نيسابور إلى الري فتلقاه قتلغ اينانج ومن معه بالطاعة، وساروا معه، فلما سمع السلطان طغرل بوصوله كانت عساكره متفرقة، فلم يقف ليجمعها بل سار إليه فيمن معه فقيل له: إن الذي

تفعله ليس برأي والمصلحة أن تجمع العساكر، فلم يقبل، وكان فيه شجاعة بل تمم مسيره فالتقى العسكران بالقرب من الري، فحمل طغرل بنفسه في وسط عسكر خوارزم شاه، فأحاطوا به والقوه عن فرسه وقتلوه في الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول، وحمل رأسه الى خوارزم شاه فسيَّره من يومه إلى بغداد، فنصب بها بباب النوبى عدّة أيام، وسار خوارزم شاه إلى همذان وملك تلك البلاد جميعها، وكان الخليفة الناصر لدين الله قد سير عسكراً إلى نجدة خوارزم شاه وسيّر له الخلع السلطانية مع وزيره مؤيد الدين بن القصاب، فنزل على فرسخ من همذان، فأرسل إليه خوارزم شاه يطلبه اليه، فقال مؤيد الدين: ينبغي أن تحضـر أنت وتلبس الخلعة من خيمتي، وترددت الرسل بينهما في ذلك، فقيل لخوارزم شاه إنها حيلة عليك حتى تحضر عنده ويقبض عليك، فدخل خوارزم شاه إليه قصداً لأخذه، فاندفع بين يديه إلى بضع الجبال فامتنع به، فرجع خوارزم شاه إلى همذان، ولمّا ملك همذان وتلك البلاد سلمها إلى قتلغ اينانج، وأقطع كثيرا منها لمماليكه، وجعل المقدم عليهم مياجق، وعاد إلى خوارزم.

ذكر مسير وزير الخليفة إلى خوزستان وملكها

في هذه السنة في شعبان خلع الخليفة الناصر لدين الله على النائب في الوزارة مؤيّد الدين أبي عبد الله محمّد بن علي المعروف بابن القصّاب خلع الوزارة، وحكم في الولاية، وبرز في رمضان، وسار إلى بلاد خوزستان وولي الأعمال بها، وصار له فيها اصحاب واصدقاء ومعارف، وعرف البلاد ومن أي وجه يمكن الدخول اليها والاستيلاء عليها، فلما ولي ببغداد نيابة الوزارة أشـار على الخليفة بـأن يرسله في عسكـر إليها ليملكها له، وكان عزمه أنه إذا ملك البلاد واستقر فيها أقام مظهراً للطاعة مستقلاً بالحكم فيها ليأمـن على نفسه، فاتفق ان صاحبها ابن شملة توفّي واختلف أولاده بعده، فراسل بعضهم مؤيّد الدين يستنجده لما بينهم مـن الصحبة القديمة، فقوي الطمع في البلاد، فجهزت العساكر وسيّرت معه إلى خوزستان فوصلها سنة إحدى وتسعين، وجرى بينه وبين أصحاب البلاد مراسلات ومحاربة عجزوا عنها، وملك مدينة تستر في المحرم، وملك غيرها من البلاد، وملك القلاع منها قلعة الناظر وقلعة كاكرد وقلعة الأموج وغيرها من الحصون والقلاع، وأنفذ بني شملة أصحاب بلاد خوزستان إلى بغداد فوصلوا في ربيع الأول.

ذكر حصر العزيز مدينة دمشق

في هذه السنة وصل الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، وهو صاحب مصر إلى مدينة دمشق، فحصرها وبها أخوه الأكبر الملك الأفضل علي بن صلاح الدين، وكنت حينئذ بدمشق، فنزل بنواحي ميدان الحصى، فأرسل الأفضل إلى عمّه الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وهو صاحب الديار الجزرية يستنجده، وكان الأفضل غاية الواثق به والمعتمد عليه، وقد سبق ما يدل على ذلك، فسار الملك العادل الى دمشق، هو والملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب، وناصر الدين محمد بن تقي الدين صاحب حماة، وأسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص، وعسكر الموصل وغيرها كل هؤلاء اجتمعوا بدمشق واتفقوا على حفظها علما منهم أن العزيز إن ملكها أخذ بلادهم، فلما رأى العزيز اجتماعهم علم أنه لا قدرة له على البلد، فترددت الرسل حينئذ في الصلح، فاستقرت القاعدة على أن يكون البيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز، وتبقى دمشق وطبرية وأعمالها الغور للأفضل على ماكانت عليه، وان يعطي الأفضل اخاه الملك الظاهر جبلة ولاذقية، وأن يكون للعادل بمصر اقطاعه الأول، واتفقوا على ذلك وعاد العزيز الى مصر ورجع كل واحد من الملوك إلى بلده.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كانت زلزلة في ربيع الأول بالجزيرة والعراق وكثير من البلاد سقطت منها الجبانة التي عند مشهد أمير المؤمنين علي ـ عليه السلام ـ.

وفيها في جمادى الآخرة اجتمعت زغب وغيرها من العرب وقصدوا مدينة النبيِّ ﷺ فخرج اليهم هاشم بن قاسم أخو امير المدينة، فقاتلهم فقتل هاشم، وكان امير المدينة قد توجَّه إلى الشام فلهذا طمعت العرب فيه.

وفيها توفّي القاضي ابو الحسن احمد بن محمد بن عبد الصمد الطرسوسي الحلبي بها في شعبان، وكان من عباد الله الصالحين رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة

ذكر ملك وزير الخليفة همذان وغيرها من بلاد العجم

قد ذكرنا ملك مؤيّد الدين بن القصاب بلاد خوزستان، فلما ملكها سار منها الى ميسان من اعمال خوزستان فوصل إليه قتلغ اينانج بن البهلوان صاحب البلاد، وقد تقدم ذكر تغلّب خوارزم شاه عليها ومعه جماعة من الأمراء، فأكرمه وزير الخليفة، وأحسن إليه، وكان سبب مجيئه انه جرى بينه وبين عسكر خوارزم شاه ومقدمهم مياجق مصاف عند زنجان، واقتتلوا فانهزم قتلغ اينانج وعسكره، وقصد عسكر الخليفة ملتجئاً إلى مؤيّد الدين الوزير، فأعطاه الوزير الخيل والخيام وغير ذلك مما يحتاج إليه، وخلع عليه وعلى من معه من الأمراء، ورحلوا إلى كرمانشاه، ورحل منها إلى همذان، وكان بها ولد خوارزم شاه ومياجق والعسكر الذين معهما، فلما قاربهم عسكر الخليفة فارقها الخوارزميون وتوجهوا إلى الري، واستولى الوزير على همذان في شوّال من هذه السنة ثمَّ رحل هو وقتلغ اينانج خلفهم، فاستولوا على كل بلد جازوا به منها خراقان ومزدغان وساوة وآوة، وساروا إلى الري ففارقها الخوارزميون الى خوار الري، فسير الوزير خلفهم عسكراً ففارقها الخوارزميون إلى دامغان وبسطام وجرجان، فعاد عسكر الخليفة إلى الري، فأقاموا بها، فاتفق قتلغ اينانج ومن معه من الأمراء على الخلاف على الوزير وعسكر الخليفة لأنهم رأوا البلاد قد خلت من عسكر خوارزم شاه فطمعوا فيها، فدخلوا الري فحصرها وزير الخليفة، ففارقها قتلغ اينانج وملكها الوزير ونهبها العسكر، فأمر الوزير بالنداء بالكفّ عن النهب.

وسار قتلغ أينانج ومن معه من الأمراء إلى مدينة آوه وبها شحنة الوزير فمنعهم من دخولها، فساروا عنها ورحل الوزير في أثرهم نحو همذان، فبلغه وهو في الطريق أن قتلغ أينانج قد اجتمع معه عسكر وقصد مدينة كرج، وقد نزل على دربند هناك، فطلبهم

الوزير فلما قاربهم التقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم قتلغ اينانج ونجا بنفسه، ورحل الوزير من موضع المصاف إلى همذان فنزل بظاهرها فأقام نحو ثلاثة أشهر فوصله رسول خوارزم شاه تكش، وكان قد قصدهم منكراً أخذه البلاد من عسكره ويطلب إعادتها وتقرير قواعدها والصلح، فلم يجب الوزير إلى ذلك، فسار خوارزم شاه مجدّاً إلى همذان، وكان الوزير مؤيد الدين بن القصاب قد توفّي في أوائل شعبان فوقع بينه وبين عسكر الخليفة مصاف نصف شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، فقتل بينهم كثير من العسكرين وانهزم عسكر الخليفة، وغنم الخوارزميون منهم شيئاً كثيراً، وملك خوارزم شاه همذان ونبش الوزير من قبره وقطع رأسه وسيره إلى خوارزم وأظهروا انه قتله في المعركة ثم إن خوارزم شاه أتاه من خراسان ما أوجب ان يعود إليها، فترك البلاد وعاد إلى خراسان.

ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالاندلس

في هذه السنة في شعبان غزا أبو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن صاحب بلاد المغرب والأندلس بلاد الفرنج بالأندلس، وسبب ذلك أنّ الفنش ملك الفرنج بها ومعه ملكة مدينة طليطلة، كتب إلى يعقوب كتاباً باسمك اللهم فاطر السموات والأرض، أما بعد أيُّها الأمير، فإنه لا يخفى على كل ذي عقل لازب ولاذي لب ثاقب أنك أمير الملّة الحنيفية كما أنا أمير الملة النصرانية، وأنك من لا يخفى عليه ما هو عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية واشتمالهم على الراحات، وأنا أسومهم الخسف وأخلي الديار وأسبي الذراري وأمثل بالكهول وأقتل الشباب ولا عذر لك في التخلّف عن نصرتهم وقد امكنتك يد القدرة، وأنتم تعتقدون أن الله فرض عليكم قتال عشرة منّا بواحد منكم، والآن خفَّف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فقد فرض عليكم قتال اثنين منّا بواحد منكم، ونحن الآن نقاتل عدداً منكم بواحد منا ولا تقدرون دفاعاً ولا تستطيعون امتناعاً، ثم حكي لي عنك أنك اخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال وتمطل نفسك عاماً بعد عام تقدّم رجلاً وتؤخر أخرى، ولا أدري الجبن أبطأ بك أم التكذيب بما أنزل عليك، ثم حكي لي عنك أنك لا تجد سبيلاً للحرب لعلك ما يسوغ لك التقحم فيها، فها أنا أقول لك ما فيه واعتذر عنك ولك أن توفيني بالعهود والمواثيق والأيمان أن تتوجه بجملة من عندك في المراكب والشواني وأجوز إليك بحملتي وأبارزك في أعز الأماكن عندك، فإن كان لك فغنيمة عظيمة جاءت إليك وهدية مثلت بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحققت إمارة الملتين والتقدم على الفئتين والله

يسهّل الارادة ويوفق السعادة بمنه لا رب غيره ولا خير إلا خيره فلما وصل كتابه وقرأه يعقوب كتب في أعلاه هذه الآية ﴿ارجع إليهم فلنأتينّهم بجنود لا قِبَلَ لهم بها ولنخرجنّهم منها أذلة وهم صاغرون﴾(١) فأعاده إليه وجمع العساكر العظيمة من المسلمين وعبر المجاز إلى الأندلس، وقيل كان سبب عبوره إلى الأندلس أنّ يعقوب لما قاتل الفرنج سنة ست وثمانين وصالحهم، بقي طائفة من الفرنج لم ترض الصلح ـ كما ذكرناه ـ فلما كان الآن جمعت تلك الطائفة جمعاً من الفرنج، وخرجوا إلى بلاد الإسلام فقتلوا وسبوا وغنموا وأسروا وعاثوا فيها عيثاً شديداً، فانتهى ذلك الى يعقوب فجمع العساكر وعبر المجاز إلى الأندلس في جيش يضيق عنه الفضاء، فسمعت الفرنج بذلك فجمعت قاصيهم ودانيهم، وأقبلوا إليه مجدّين على قتاله واثقين بالظفر لكثرتهم، فالتقوا تاسع شعبان شمالي قرطبة عند قلعة رياح بمكان يعرف بمرج الحديد فاقتتلوا قتالاً شديداً فكانت الدائرة أولا على المسلمين ثم عادت على الفرنج فانهزموا قبح هزيمة وانتصر المسلمون عليهم ﴿وجعل الله كلمة الذين كفروا السفلى وكلمته هي العليا والله عزيز حكيم﴾(٢).

وكان عدد من قتل من الفرنج مائة الف وستة وأربعين ألفاً، وأسر ثلاثة عشر ألفاً وغنم المسلمون منهم شيئاً عظيماً، فمن الخيام مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفاً، ومن الخيل ستة وأربعون ألفاً، ومن البغال مائة الف ومن الحمير مائة ألف، وكان يعقوب قد نادى في عسكره من غنم شيئاً فهو له سوى السلاح، واحصى ما حمل إليه منه فكان زيادة على سبعين ألف لبس ، وقتل من المسلمين نحو عشرين ألفاً ، ولما انهزم الفرنج اتبعهم أبو يوسف فرآهم قد اخلوا قلعة رياح وساروا عنها من الرعب والخوف ، فملكها وجعل فيها والياً وجنداً يحفظونها وعاد إلى مدينة أشبيلية .

وأما الفنش فإنه لما انهزم حلق رأسه ونكس صليبه وركب حماراً وأقسم أن لا يركب فرساً ولا بغلاً حتى تنصر النصرانية، فجمع جموعاً عظيمة، وبلغ الخبر بذلك إلى يعقوب، فأرسل الى بلاد الغرب مراكش وغيرها يستنفر الناس من غير إكراه، فأتاه من

(١) سورة النمل ٣٧.
(٢) سورة التوبة ٤٠ .

المتوطعة والمرتزقين جمع عظيم، فالتقوا في ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة، وغنم المسلمون ما معهم من الأموال والسلاح والدواب وغيرها، وتوجَّه إلى مدينة طليطلة، فحصرها وقاتلها قتالاً شديداً، وقطع أشجارها وشنّ الغارة على ما حولها من البلاد، وفتح فيها عدّة حصون فقتل رجالها وسبى حريمها وخرّب دورها وهدم أسوارها، فضعفت النصرانية حينئذ وعظم أمر الإسلام بالأندلس، وعاد يعقوب إلى أشبيلية فأقام بها، فلما دخلت سنة ثلاث وتسعين سار عنها الى بلاد الفرنج وذلوا واجتمع ملوكهم وأرسلوا يطلبون الصلح، فأجابهم إليه بعد ان كان عازماً على الامتناع مريداً لملازمة الجهاد الى ان يفرغ منهم فأتاه خبر علي بن إسحق الملثم الميورقي أنه فعل بافريقية ما نذكره من الأفاعيل الشنيعة، فترك عزمه وصالحهم مدة خمس سنين، وعاد الى مراكش آخر سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة.

ذكر فعلة الملثم بافريقية

لما عبر أبو يوسف يعقوب صاحب المغرب إلى الأندلس ـ كما ذكرناه ـ وأقام مجاهداً ثلاث سنين انقطعت اخباره عن افريقية، فقوي طمع علي بن إسحاق الملثم الميورقي، وكان بالبريّة مع العرب فعاود قصد افريقية، فانبث جنوده في البلاد فخربوها وأكثروا الفساد فيها، فمحيت آثار تلك البلاد وتغيرت وصارت خالية من الأنيس خاوية على عروشها، وأراد المسير إلى بجاية ومحاصرتها لاشتغال يعقوب بالجهاد، وأظهر أنه اذا استولى على بجاية سار إلى المغرب، فوصل الخبر الى يعقوب بذلك فصالح الفرنج ـ على ما ذكرناه ـ وعاد الى مراكش عازما على قصده، واخراجه من البلاد كما فعله سنة إحدى وثمانين وخمسمائة وقد ذكرناه.

ذكر ملك عسكر الخليفة اصفهان

في هذه السنة جهّز الخليفة الناصر لدين الله جيشاً وسيّره الى اصفهان ومقدمهم سيف الدين طغرل مقطع بلد اللحف من العراق، وكان بأصبهان عسكر لخوارزم شاه مع ولده، وكان أهل أصفهان يكرهونهم، فكتب صدر الدين الخجندي رئيس الشافعية بأصفهان الديوان ببغداد يبذل من نفسه تسليم البلد إلى من يصل من الديوان من العساكر، وكان بعد الحاكم بأصفهان على جميع أهلها، فسيّرت العساكر، فوصلوا الى

اصفهان ونزلوا بظاهر البلد، وفارقه عسكر خوارزم شاه وعادوا إلى خراسان، وتبعهم بعض عسكر الخليفة فتحفظوا منهم وأخذوا من ساقة العسكر من قدروا عليه، ودخل عسكر الخليفة الى اصفهان وملكوها.

ذكر ابتداء حال كوكجا وملكه بلد الري وهمذان وغيرها

لما عاد خوارزم شاه إلى خراسان كما ذكرنا اتفق المماليك الذين للبهلوان والأمراء، وقدموا على أنفسهم كوكجة وهو من أعيان البهلوانية، واستولوا على الري وما جاورها من البلاد، وساروا الى اصفهان لإخراج الخوارزمية منها، فلما قاربوها سمعوا بعسكر الخليفة عندها، فأرسل إلى مملوك الخليفة سيف الدين طغرل يعرض نفسه على خدمة الديوان ويظهر العبودية ، وأنه إنما قصد أصفهان في طلب العساكر الخوارزمية، وحيث رآهم فارقوا أصفهان سار في طلبهم فلم يدركهم، وسار عسكر الخليفة من أصفهان إلى همذان، وأما كوكجة فإنه تبع الخوارزمية إلى طبس، وهي من بلاد الإسماعيلية، وعاد فقصد أصفهان وملكها، وأرسل الى بغداد يطلب أن يكون له الري وخوار الري وساوة وقم وقاجان وما ينضم إليها من حد مزدغان، وتكون اصفهان وهمذان وزنجان وقزوين لديوان الخليفة، فأجيب الى ذلك، وكتب له منشور بما طلب وأرسلت له الخلع، فعظم شأنه وقوي أمره وكثرت عساكره، وتعظم على أصحابه.

ذكر حصر العزيز دمشق ثانية وانهزامه عنها

وفي هذه السنة أيضاً خرج الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين من مصر في عساكره الى دمشق يريد حصرها، فعاد عنها منهزماً، وسبب ذلك أن من عنده من مماليك أبيه المعروفين بالصلاحية فخر الدين جركس وسرانقر وقراجا وغيرهم، كانوا منحرفين عن الأفضل علي بن صلاح الدين لأنه كان قد أخرج من عنده منهم مثل ميمون القصري وسنقر الكبير وأيبك وغيرهم، فكانوا لا يزالون يخوفون العزيز من أخيه، ويقولون: إن الأكراد والمماليك الأسدية من عسكر مصر يريدون أخاك ونخاف ان يميلهم اليه ويخرجوك من البلاد، والمصلحة ان تأخذ دمشق، فخرج في العام الماضي وعاد ـ كما ذكرناه ـ فتجهّز هذه السنة ليخرج فبلغ الخبر إلى الأفضل، فسار من دمشق إلى عمه الملك العادل، فاجتمع به بقلعة جعبر ودعاه إلى نصرته، وسار من عنده إلى

حلب إلى أخيه الملك الظاهر غازي فاستنجد به، وسار الملك العادل من قلعة جعبر إلى دمشق فسبق إليها ودخلها، وكان الأفضل لثقته به قد أمر نوابه بإدخاله إلى القلعة، ثم عاد الأفضل من حلب إلى دمشق، فأرسل مقدم الأسدية، وهو سيف الدين أيازكوش وغيره منهم ومن الأكراد أبو الهيجاء السمين وغيره إلى الأفضل والعادل بالانحياز إليهما والكون معهما ويأمرهما بالاتّفاق على العزيز والخروج من دمشق ليسلموه إليهما.

وكان سببُ الانحراف عن العزيز وميلهم إلى الأفضل أن العزيز لما ملك مصر مال إلى المماليك الناصرية، وقدمهم ووثق بهم، ولم يلتفت إلى هؤلاء الأمراء، فأنفوا من ذلك ومالوا إلى أخيه وأرسلوا إلى الأفضل والعادل، فاتفقا على ذلك واستقرت القاعدة بحضور رسل الأمراء أن الأفضل يملك الديار المصرية ويسلم دمشق إلى عمه الملك العادل، وخرجا من دمشق فانحاز إليهما من ذكرنا، فلم يمكن العزيز المقام بل عاد منهزماً يطوي المراحل خوف الطلب ولا يصدق بالنجاة وتساقط أصحابه عنه إلى أن وصل إلى مصر، وأما العادل والأفضل فإنهما أرسلا إلى القدس وفيه نائب العزيز فسلمه إليهما، وسارا فيمن معهما من الأسدية والأكراد إلى مصر فرأى العادل انضمامة العساكر الى الأفضل واجتماعهم عليه فخاف أنه يأخذ مصر ولا يسلم اليه دمشق فأرسل حينئذ سرّاً إلى العزيز يأمره بالثبات، وأن يجعل بمدينة بلبيس من يحفظها، وتكفّل بأنه يمنع الأفضل وغيره من مقاتلة من بها، فجعل العزيز الناصرية ومقدّمهم فخر الدين جركس بها ومعهم غيرهم، ووصل العادل والأفضل إلى بلبيس فنازلوا من بها من الناصرية، وأراد الأفضل مناجزتهم أو تركهم بها والرحيل إلى مصر فمنعه العادل من الأمرين، وقال: هذه عساكر الإسلام فإذا اقتتلوا في الحرب فمن يرد العدو الكافر، وما بها حاجة إلى هذا فإن البلاد لك وبحكمك، ومتى قصدت مصر والقاهرة وأخذتهما قهرا زالت هيبة البلاد، وطمع فيها الأعداء وليس فيها من يمنعك عنها، وسلك معه مثال هذا فطالت الايام وأرسل إلى العزيز سراً يأمره بإرسال القاضي الفاضل، وكان مطاعاً عند البيت الصلاحي لعلوِّ منزلته كانت عند صلاح الدين، فحضر عندهما وأجرى ذكر الصلح، وزاد القول ونقص وانفسخت العزائم، واستقر الأمر على أن يكون للأفضل القدس وجميع البلاد بفلسطين

وطبرية والأردن وجميع ما بيده، ويكون للعادل أقطاعه الذي كان قديما ويكون مقيماً بمصر عند العزيز، وإنما اختار ذلك لأنّ الأسدية والأكراد لا يريدون العزيز، فهم يجتمعون معه فلا يقدر العزيز على منعه عما يريد، فلما استقر الأمر على ذلك وتعاهدوا عاد الأفضل إلى دمشق وبقي العادل بمصر عند العزيز.

ذكر عدة حوادث

في ذي القعدة تاسع عشر وقع حريق عظيم ببغداد بعقد المصطنع فاحترقت المربعة التي بين يديه ودكان ابن البخيل الهراس، وقيل كان ابتداؤها من دار ابن البخيل.

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة

ذكر ملك شهاب الدين بهنكر وغيرها من بلد الهند

في هذه السنة سار شهاب الدين الغوري صاحب غزنة إلى بلد الهند، وحصر قلعة بهنكر، وهي قلعة عظيمة منيعة فحصرها، فطلب أهلها منه الأمان على أن يسلّموا إليه فأمنهم وتسلمها، وأقام عندها عشرة أيام حتى رتب جندها وأحوالها، وسار عنها إلى قلعة كوالبر ـ وبينهما مسيرة خمسة أيام ـ وفي الطريق نهر فجازه ووصل إلى كوالبر، وهي قلعة منيعة حصينة على جبل لا يصل إليها حجر منجنيق، ولا نشاب، وهي كبيرة، فأقام عليها صفرا جميعه يحاصرها فلم يبلغ منها غرضا، فراسله من بها في الصلح، فأجابهم إليه على أن يقر القلعة بأيديهم على مال يحملونه إليه، فحملوا إليه فيلاً حمله ذهب، فرحل عنها إلى بلاد آي وسور فأغار عليها ونهبها وسبى وأسر ما يعجز العادّ حصره ثم عاد إلى غزنة سالماً.

ذكر ملك العادل مدينة دمشق من الأفضل

في هذه السنة في السابع والعشرين من رجب ملك الملك العادل أبو بكر بن أيوب مدينة دمشق من ابن أخيه الأفضل علي بن صلاح الدين، وكان أبلغ الأسباب في ذلك وثوق الأفضل بالعادل، وأنه بلغ من وثوقه أنه أدخله بلده وهو غائب عنه، ولقد أرسل إليه أخوه الظاهر غازي صاحب حلب يقول له: أَخْرِج عمّنا من بيننا فإنه لا يجيء علينا منه خير، ونحن ندخل لك تحت كل ما تريد، وأنا أعرف به منك، واقرب اليه فإنه عمي مثل ما هو عمك وأنا زوج ابنته، ولو علمت أنه يريد لنا خيراً لكنت أنا أولى به منك. فقال له الأفضل: أنت سيّء الظن في كل أحد، أي مصلحة لعمّنا في أن يؤذينا، ونحن إذا اجتمعت كلمتنا وسيّرنا معه العساكر من عندنا كلنا ملك من البلاد أكثر من بلادنا ونربح سوء الذكر وهذا كان أبلغ الأسباب ولا يعلمها كل احد.

وأما غير هذا فقد ذكرنا مسير العادل والأفضل الى مصر وحصارهم بلبيس وصلحهم مع الملك العزيز ابن صلاح الدين ومقام العادل معه بمصر، فلما أقام عنده استماله وقرر معه أنه يخرج معه إلى دمشق ويأخذها من أخيه ويسلمها اليه، فسار معه من مصر إلى دمشق وحصروها، واستمالوا أميراً من أمراء الأفضل يقال لـه العزيـز بن أبي غالب الحمصي، وكان الأفضل كثير الإحسان اليه والاعتماد عليه والوثوق به، فسلم اليه بابا من أبواب دمشق يعرف بالباب الشرقي ليحفظه فمال إلى العزيز والعادل ووعدهما أنه يفتح لهما الباب ويدخل العسكر منه الى البلد غفلة، ففتحه اليوم السابع والعشرين من رجب وقت العصر وأدخل الملك العادل منه ومعـه جماعـة من أصحابـه، فلم يشعر الأفضل إلا وعمه معه في دمشق، وركب الملك العزيز ووقف بالميدان الأخضر غربي دمشق، فلمّا رأى الأفضل أن البلد قد ملك خرج إلى أخيه وقت المغرب واجتمع به ودخلا كلاهما البلد واجتمعا بالعادل، وقد نزل في دار أسد الدين شيركوه وتحـادثوا فاتّفق العادل والعزيز على أن أوهما الأفضل أنهما يبقيان عليه البلد خوفا أنه ربما جمع من عنده من العسكر وثار بهما ومعه العامة، فأخرجهم من البلد لأن العادل لم يكن في كثرة، وأعاد الأفضل إلى القلعة وبات العادل في دار شيركوه، وخرج العزيز إلى الخيم فبات فيها، وخرج العادل من الغد إلى جوسقه فأقام به، وعساكره في البلد في كل يوم يخرج الأفضل إليهما ويجتمع بهما، فبقوا كذلك أياماً. ثم أرسلا إليه وأقراه بمفارقة القلعة وتسليم البلد على قاعدة ان تعطى قلعة صرخد له ويسلم جميع أعمال دمشق، فخرج الأفضل ونزل في جوسق بظاهر البلد غربي دمشق، وتسلّم العزيز القلعة ودخلها، وأقام بها أياماً فجلس يوماً في مجلس شرابه، فلما أخذت منه الخمر جرى على لسانه أنه يعيد البلد إلى الأفضل فنقل ذلك الى العادل في وقته، فحضر المجلس في ساعته والعزيز سكران، فلم يزل به حتى سلم البلد إليه وخرج منه وعاد إلى مصر، وسار الأفضل إلى صرخد، وكان العادل يذكر أن الأفضل سعى في قتله، فلهذا أخذ البلد منه، وكـان الأفضل ينكر ذلك ويتبرأ منه ﴿والله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة هبت ريح شديدة بالعراق واسودت لهـا الدنيـا ووقع رمـل أحمر واستعظم الناس ذلـك وكبروا واشتعلت الأضواء بالنهار وفيها قتل صدر الدين محمود بن

عبد اللطيف بن محمد بن ثابت الخجندي رئيس الشافعية بأصفهان قتله فلك الدين سنقر الطويل شحنة اصفهان بها وكان قدم بغداد سنة ثمان وثمانين وخمسمائة واستوطنها وولي النظر في المدرسة النظامية ببغداد ولما سار مؤيد الدين بن القصاب إلى خوزستان سار في صحبته فلما ملك الوزير أصفهان أقام ابن الخجندي بها في بيته وملكه ومنصبه فجرى بينه وبين سنقر الطويل شحنة اصفهان للخليفة منافرة فقتله سنقر.

وفي رمضان درس مجير الدين أبو القاسم محمود بن المبارك البغدادي الفقيه الشافعي بالمدرسة النظامية ببغداد.

وفي شوال منها أثبت نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي الرازي في الوزارة ببغداد وكان قد توجه إلى بغداد لما ملك ابن القصاب الري.

وفيها ولي أبو طالب يحيى بن سعيد بن زيادة ديوان الإنشاء ببغداد وكان كاتباً مفلقاً وله شعر جيد.

وفي صفر منها توفي الفخر محمود بن عليّ القوفاني الفقيه الشافعي بالكوفة عائداً من الحج وكان من أعيان أصحابه محمد بن يحيى.

وفي رجب منها توفي أبو الغنائم بن عليّ بن المعلم الشاعر الهرثي (والهرث بضم الهاء والثاء المثلثة قرية من أعمال واسط) عن إحدى وتسعين سنة.

وفي رابع شعبان منها توفي الوزير مؤيد الدين أبو الفضل محمد بن عليّ بن القصاب بهمذان وقد ذكرنا من كفايته ونهضته ما فيه كفاية.

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

ذكر إرسال الأمير أبي الهيجاء إلى همذان وما فعله

وصل إلى بغداد أمير كبير من أمراء مصر اسمه ابو الهيجاء، ويعرف بالسمين لأنه كان كثير السمن، وكان من أكابر أمراء مصر، وكان في أقطاعه أخيراً البيت المقدس وغيره مما يجاوره، فلما ملك العزيز والعادل مرتبة دمشق من الأفضل أخذ القدس منه، ففارق الشام وعبر الفرات إلى الموصل، ثم انحدر إلى بغداد لأنه طلب من ديوان الخلافة، فلما وصل إليها أكرم إكراماً كثيراً، ثم أُمر بالتجهيز والمسير الى همذان مقدماً على عساكر البغدادية، فسار إليها والتقى عندها بالملك أوزبك بن البهلوان، وأمير علم وابنه وابن سطمش وغيرهم، وهم قد كاتبوا الخليفة بالطاعة، فلمّا اجتمع بهم وثقوا إليه ولم يحذروه فقبض على أوزبك وابن سطمش وابن قرا بموافقة من أمير علم، فلما وصل الخبر بذلك إلى بغداد أنكرت هذه الحال على أبي الهيجاء وأمر بالإفراج عن الجماعة، وسيّرت لهم الخلع من بغداد تطييباً لقلوبهم فلم يسكنوا بعد هذه الحادثة ولا آمنوا، ففارقوا أبا الهيجاء السمين، فخاف الديوان، فلم يرجع إليه ولم يمكنه أيضاً المقام، فعاد يريد إربل لأنه من بلدها هو، فتوفّي قبل وصوله إليها، وهو من الأكراد الحكمية من بلد إربل.

ذكر ملك العادل يافا من الفرنج وملك الفرنج بيروت من المسلمين وحصر الفرنج تبنين ورحيلهم عنها

في هذه السنة في شوال ملك العادل أبو بكر بن أيوب مدينة يافا من الساحل الشامي، وهو بيد الفرنج ـ لعنهم الله ـ، وسبب ذلك أنَّ الفرنج كان قد ملكهم الكندهري ـ على ما ذكرناه قبل ـ وكان الصلح قد استقرّ بين المسلمين والفرنج أيّام صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ رحمه الله تعالى ـ فلما توفّي وملك أولاده بعده ـ كما

ذكرناه ـ جدَّد الملك العزيز الهدنة مع الكندهري، وزاد في مدة الهدنة، وبقي ذلك إلى الآن، وكان بمدينة بيروت أمير يعرف بأسامة، وهو مقطعها فكان يرسل الشواني تقطع الطريق على الفرنج، فاشتكى الفرنج من ذلك غير مرّة إلى الملك العادل بدمشق وإلى الملك العزيز بمصر، فلم يمنعا اسامة من ذلك، فأرسلوا إلى ملوكهم الذين داخل البحر يشتكون إليهم ما يفعل بهم المسلمون ويقولون إن لم تنجدونا وإلا أخذ المسلمون البلاد، فأمدهم الفرنج بالعساكر الكثيرة، وكان أكثرهم من ملك الألمان، وكان المقدّم عليهم قسّ يعرف بالخنصلير، فلمّا سمع العادل بذلك أرسل إلى العزيز بمصر يطلب العساكر، وأرسل إلى ديار الجزيرة والموصل يطلب العساكر، فجاءته الأمراء واجتمعوا على عين جالوت، فأقاموا شهر رمضان وبعض شوّال، ورحلوا إلى يافا وملكوا المدينة، وامتنع من بها بالقلعة التي لها، فخرب المسلمون المدينة، وحصروا القلعة فملكوها عنوة وقهراً بالسيف في يومها، وهو يوم الجمعة، وأخذ كل ما بها غنيمة وأسراً وسبياً.

ووصل الفرنج من عكّا الى قيسارية ليمنعوا المسلمين عن يافا، فوصلهم الخبر بها بملكها فعادوا وكان سببُ تأخرهم أن ملكهم الكندهري سقط من موضع عالٍ بعكّا فمات فاختلفت احوالهم فتأخروا لذلك، وعاد المسلمون إلى عين جالوت، فوصلهم الخبر بأن الفرنج على عزم قصد بيروت، فرحل العادل والعسكر في ذي القعدة إلى مرج العيون وعزم على تخريب بيروت، فسار إليها جمع من العسكر وهدموا سور المدينة سابع ذي الحجة، وشرعوا في تخريب دورها وتخريب القلعة، فمنعهم أسامة من ذلك وتكفّل بحفظها، ورحل الفرنج من عكّا إلى صيدا، وعاد عسكر المسلمين من بيروت، فالتقوا هم والفرنج بنواحي صيدا وجرى بينهم مناوشة فقتل من الفريقين جماعة وحجز بينهم الليل، وسار الفرنج تاسع ذي الحجة فوصلوا إلى بيروت، فلما قاربوها هرب منها أسامة وجميع من معه من المسلمين، فملكوها صفواً عفواً بغير حرب ولا قتال، فكانت غنمية باردة. فأرسل العادل الى صيدا من خرب ما كان بقي منها فإن صلاح الدين كان قد خرب أكثرها، وسافرت العساكر الإسلامية الى صور فقطعوا أشجارها وخرّبوا ما لها من قرى وأبراج، فلما سمع الفرنج بذلك رحلوا من بيروت إلى صور وأقاموا عليها، ونزل المسلمون عند قلعة هونين، وأذن للعساكر الشرقية بالعود ظناً منه أن الفرنج يقيمون ببلادهم، وأراد أن يعطي العساكر المصرية دستوراً بالعود، فأتاه الخبر منتصف المحرّم أن الفرنج يريدون أن يحصروا حصن تبنين، فسيَّر العادل إليه عسكراً يحمونه

ويمنعون عنه.

ورحل الفرنج من صور ونازلوا تبنين أول صفر سنة أربع وتسعين، وقاتلوا من به وجدّوا في القتال ونقبوه من جهاتهم، فلما علم العادل بذلك أرسل إلى العزيز بمصر يطلب منه أن يحضر هو بنفسه، ويقول له: إن حضرت وإلا فلا يمكن حفظ هذا الثغر، فسار العزيز مجداً فيمن بقي معه من العساكر، وأما من تحصَّن بتبنين فإنهم لما رأوا الثقوب قد خرّبت القلعة ولم يبق إلا أن يملكوها بالسيف نزل بعض من فيها إلى الفرنج يطلب الأمان على أنفسهم وأموالهم ليسلموا القلعة، وكان المرجع إلى القسيس الخنصلير من أصحاب ملك الألمان، فقال لهؤلاء المسلمين بعض الفرنج الذين من ساحل الشام: إن سلمتم الحصن استأسركم هذا وقتلكم فاحفظوا نفوسكم، فعادوا كأنهم يراجعون من في القلعة ليسلموا، فلما صعدوا إليها أصرُّوا على الامتناع وقاتلوا قتال من يحمي نفسه فحموها إلى أن وصل الملك العزيز إلى عسقلان في ربيع الأول، فلما سمع الفرنج بوصوله واجتماع المسلمين، وأن الفرنج ليس لهم ملك يجمعهم وأن أمرهم إلى امرأة وهي الملكة، فاتفقوا وأرسلوا إلى ملك قبرس واسمه هيمري فأحضروه، وهو أخو الملك الذي أسر بحطين ـ كما ذكرناه ـ فزوجوه بالملكة زوجة الكندهري، وكان رجلاً عاقلاً يحب السلامة والعافية، فلما ملكهم لم يعد إلى الزحف على الحصن ولا قاتل، واتّفق وصول العزيز أوّل شهر ربيع الآخر، ورحل هو والعساكر إلى جبل الخيل الذي يعرف بجبل عاملة، فأقاموا أياماً والأمطار متداولة فبقي إلى ثالث عشر الشهر، ثم سار وقارب الفرنج، وأرسل رماة النشاب فرموهم ساعة وعادوا، ورتَّب العساكر ليزحف إلى الفرنج ويجد في قتالهم، فرحلوا إلى صور خامس عشر الشهر المذكور ليلا، ثم رحلوا إلى عكّا، فسار المسلمون فنزلوا اللجون، وتراسلوا في الصلح وتطاول الأمر فعاد العزيز إلى مصر قبل انفصال الحال، وسببُ رحيله أن جماعة من الأمراء، وهم ميمون القصري وأسامة وسراسنقر والجحاف وابن المشطوب وغيرهم قد عزموا على الفتك به وبفخر الدين جركس مدبر دولته ـ والله سبحانه وتعالى أعلم بذلك ـ، فلما سمع بذلك سار الى مصر وبقي العادل وتردّدت الرسل بينه وبين الفرنج في الصلح في شعبان سنة أربع وتسعين، فلما انتظم الصلح عاد العادل إلى دمشق، وسار منها إلى ماردين من أرض الجزيرة، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة سيف الإسلام وملك ولده

في شوّال من هذه السنة توفّي سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخو صلاح الدين، وهو صاحب اليمن بزبيد، وقد ذكرنا كيف ملك، وكان شديد السيرة مضيقاً على رعيته يشتري أموال التجار لنفسه ويبيعها كيف شاء، وأراد ملك مكّة حرسها الله تعالى ـ فأرسل الخليفة الناصر لدين الله إلى أخيه صلاح الدين في المعنى، فمنعه من ذلك، وجمع من الأموال ما لا يحصى حتى أنه من كثرته كان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره، ولمّا توفي ملك بعده ابنه اسماعيل، وكان أهوج كثير التخليط بحيث أنه ادعى أنه قرشيّ من بني أمية ،وخطب لنفسه بالخلافة وتلقب بالهادي، فلما سمع عمه الملك العادل ذلك ساءه وأهمه وكتب إليه يلومه ويوبخه ويأمره بالعود إلى نسبه الصحيح وبترك ما ارتكبه مما يضحك الناس منه فلم يلتفت إليه ولم يرجع، وانضاف إلى ذلك أنه أساء السيرة مع أجناده وأمرائه، فوثبوا عليه فقتلوه وملكوا بعده أميراً من مماليك أبيه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في ربيع الآخر توفّي أبو بكر عبد الله بن منصور بن عمران الباقلاني المقري الواسطي بها عن ثلاث وسبعين سنة وثلاثة أشهر وأيام، وهو آخر من بقي من أصحاب القلانسي، وفي جمادى الآخرة توفّي قاضي القضاة أبو طالب علي بن البخاري ببغداد، ودفن بتربته في مشهد باب التين.

وفيها في ربيع الآخر توفّي ملكشاه بن خوارزم شاه تكش بنيسابور، وكان أبوه قد جعله فيها واضاف إليه عساكر جميع بلاده التي بخراسان، وجعله وليّ عهده في الملك، وخلف ولد اسمه هند وخان، فلما مات جعل فيها أبوه خوارزم شاه بعده ولده الآخر قطب الدين محمداً،وهو الذي ملك بعد أبيه ،وكان بين الأخوين عداوة مستحكمة أفضت الى ان محمداً لما ملك بعد أبيه هرب هندوخان بن ملكشاه منه على ما نذكره.

وفيها توفّي شيخنا أبو القاسم يعيش بن صدقة بن علي الفراتي الضرير الفقيه الشافعي كان إماماً في الفقه مدرساً صالحاً كثير الصلاح سمعتُ عليه كثيراً لم أر مثله رحمه الله تعالى ـ ولقد شاهدت منه عجباً يدل على دينه وإرادته بعمله وجه الله تعالى، وذلك أني كنت اسمع عليه ببغداد سنن أبي عبد الرحمن النسائي، وهو كتاب كبير

والوقت ضيق لأني كنت مع الحجّاج قد عدنا من مكّة حرسها الله ، فبينما نحن نسمع عليه مع أخي الأكبر مجدّ الدين أبي السعادات إذ قد أتاه إنسان من أعيان بغداد، وقال له : قد برز الأمر لنحضر كذا، فقال: أنا مشغول بسماع هؤلاء السادة ووقتهم يفوت والذي يراد مني لا يفوت، فقال: أنا لا أحسن أذكر هذا في مقابل أمر الخليفة، فقال: لا عليك قل قال أبو القاسم لا احضر حتى يفرغ السماع، فسألناه ليمشي معه فلم يفعل ذلك، وقال: اقـرؤا فقرأنا، فلما كان الغد حضر غلام لنا، وذكر ان امير الحاج الموصلي قد رحل، فعظم الأمر علينا فقال: ولم يعظم عليكم العود إلى أهلكم وبلدكم فقلنا لأجل فراغ هذا الكتاب، فقال: إذا رحلتم أستعير دابة وأركبها فأسير معكم وأنتم تقرؤون، فإذا فرغتم عدت، فمضى الغلام ليتزود ونحن نقرأ، فعاد وذكر أن الحجّاج لم يرحلوا، ففرغنا من الكتاب ، فانظر إلى هذا الدين المتين يرد أمر الخليفة وهو يخافه ويرجوه، ويريد يسير معنا ، ونحن غرباء لا يخافنا ولا يرجونا.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسمائة

ذكر وفاة عماد الدين وملك ولده قطب الدين محمد

في هذه السنة في المحرّم توفّي عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب سنجار ونصيبين الخابور والرقة، وقد تقدّم ذكره كيف ملكها سنة تسع وسبعين، وكان رحمه الله عادلاً حسن السيرة في رعيته عفيفاً عن اموالهم واملاكهم مواضعا يحب أهل العلم والدين ويحترمهم ويجلس معهم ويرجع إلى أقوالهم إلا أنه كان بخيلاً شديد البخل، وملك بعده ابنه قطب الدين محمد وتولى تدبير دولته مجاهد الدين برتقش مملوك أبيه، وكان ديّناً خيراً عادلاً حسن السيرة كثير البر والإحسان إلى الفقراء، وكان رحمه الله شديد التعصب على مذهب الحنفية كثير الذم للشافعية، فمن تعصّبه انه بنى مدرسة للحنفية بسنجار، وشرط أن يكون النظر للحنفية من أولاده دون الشافعية، وشرط أن يكون البواب والفراش على مذهب أبي حنيفة، وشرط للفقهاء طبيخاً يطبخ ذلك كل يوم، وهذا نظر حسن رحمه الله.

ذكر ملك نور الدين نصيبين

في هذه السنة في جمادى الأولى سار نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل إلى مدينة نصيبين فملكها وأخذها من ابن عمه قطب الدين محمد، وسبب ذلك أن عمه عماد الدين كان له نصيبين، فتطاول نوابه بها واستولوا على عدة قرى من أعمال بين النهرين من ولاية الموصل وهي تجاور نصيبين، فبلغ الخبر مجاهد الدين قايماز القائم بتدبير مملكة نور الدين بالموصل كلّها، والمرجوع إليه فيها، فلم يعلم مخدومه بذلك لما علم من قلة صبره على احتمال مثل هذا، وخاف ان يجري خلف بينهم، فأرسل من عنده رسولاً إلى عماد الدين في المعنى وقبح هذا الفعل الذي فعله النواب بغير أمره، وقال: إنني ما أعلمت نور الدين بالحال لئلا يخرج عن يدك فإنه

ليس كوالده وأخاف أن يبدو منه ما يخرج الأمر فيه عن يدي، فأعاد الجواب أنهم لم يفعلوا إلا ما أمرتهم به، وهذه القرى من أعمال نصيبين، فترددت الرسل بينهما، فلم يرجع عماد الدين عن أخذها، فحينئذ أعلم مجاهد الدين نور الدين بالحال، فأرسل نور الدين رسولاً من مشايخ دولته ممن خدم جدّهم الشهيد زنكي، ومن بعده وحمله رسالة فيها بعض الخشونة فمضى الرسول، فلحق عماد الدين قد مرض، فلما سمع الرسالة لم يلتفت، وقال: لا أعيد ملكي، فأشار الرسول من عنده حيث هو من مشايخ دولتهم بترك وتسليم ما أخذه، وحذره عاقبة ذلك فأغلظ عليه عماد الدين القول وعرض بذم نور الدين واحتقاره، فعاد الرسول وحكى لنور الدين جلية الحال، فغضب نور الدين وعزم على المسير إلى نصيبين وأخذها من عمه، فاتّفق أن عمّه مات وملك بعده ابنه فقوي طمعه فمنعه مجاهد الدين فلم يمتنع وتجهّز وسار إليها، فلمّا سمع قطب الدين صاحبها سار إليها من سنجار في عسكره ونزل عليها ليمتنع نور الدين عنها فوصل نور الدين وتقدّم إلى البلد، وكان بينهما نهر فجازه بعض امرائه وقاتل من بإزائه، فلم يثبتوا له، فعبر جميع العسكر النوري وتمت الهزيمة على قطب الدين، فصعد هو ونائبه مجاهد الدين برتقش إلى قلعة نصيبين، وأدركهم الليل فخرجوا منها هاربين إلى حرّان، وراسلوا الملك العادل أبا بكر بن أيوب صاحب حرّان وغيرها وهو بدمشق، وبذلوا له الأموال الكثيرة لينجدهم ويعيد نصيبين اليهم، وأقام نور الدين بنصيبين مالكها، فتضعضع عسكره بكثرة الأمراض، وعودهم إلى الموصل وموت كثير منهم ووصل العادل إلى الديار الجزرية، فحينئذ فارق نور الدين نصيبين وعاد إلى الموصل في شهر رمضان، فلما فارقها تسلمها قطب الدين.

وممن توفي من أمراء الموصل عز الدين جورديك شمس الدين عبد الله بن إبراهيم، وفخر الدين عبد الله بن عيسى المهرانيان، ومجاهد الدين قايماز، وظهير الدين يولق بن بلنكري، وجمال الدين محاسن وغيرهم، ولما عاد نور الدين الى الموصل قصد العادل قلعة ماردين، فحصرها وضيّق على أهلها على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر ملك الغورية مدينة بلخ من الخطأ الكافرة

في هذه السنة ملك بهاء الدين سام بن محمد بن مسعود، وهو ابن اخت غياث

الدين وشهاب الدين صاحبي غزنة وغيرها، وله باميان مدينة بلخ، وكان صاحبها تركيا اسمه ازيه، وكان يحمل الخراج كل سنة إلى الخطأ بما وراء النهر فتوفّي هذه السنة، فسار بهاء الدين سام إلى المدينة فملكها وتمكن منها وقطع الحمل إلى الخطأ، وخطب لغياث الدين، وصارت من جملة بلاد الإسلام بعد أن كانت في طاعة الكفار.

ذكر انهزام الخطا من الغورية

وفي هذه السنة عبر الخطا نهر جيحون إلى ناحية خراسان، فعاثوا في البلاد وأفسدوا، فلقيهم عسكر غياث الدين الغوري وقاتلهم فانهزم الخطا، وكان سببُ ذلك أنّ خوارزم شاه تكش كان قد سار إلى بلد الري وهمذان وأصفهان وما بينهما من البلاد، وملكها وتعرض إلى عساكر الخليفة وأظهر طلب السلطنة والخطبة ببغداد، فأرسل الخليفة إلى غياث الدين ملك الغور وغزنة يأمره بقصد بلاد خوارزم شاه ليعود عن قصد العراق، وكان خوارزم شاه قد عاد إلى خوارزم، فراسله غياث الدين يقبح له فعله ويتهدده بقصد بلاده وأخذها فأرسل خوارزم إلى الخطا يشكو اليهم من غياث الدين ويقول: إن لم تدركوه بإنفاذ العساكر، وإلا أخذ غياث الدين بلاده كما أخذ مدينة بلخ، وقصد بعد ذلك بلادهم ويتعذر عليهم منعه ويعجزون عنه ويضعفون عن رده عما وراء النهر فجهّز ملك الخطا جيشاً كثيفاً وجعل مقدّمهم المعروف بطاينكوا، وهو كالوزير، فساروا وعبروا جيحون في جمادى الآخرة، وكان الزمان شتاء، وكان شهاب الدين الغوري أخو غياث الدين ببلاد الهند والعساكر معه، وغياث الدين به من النقرس ما يمنعه من الحركة إنما يحمل في محفة، والذي يقود الجيش ويباشر الحروب أخوه شهاب الدين، فلمّا وصل الخطا إلى جيحون سار خوارزم شاه إلى طوس عازماً على قصد هراة ومحاصرتها، وعبر الخطا النهر، ووصلوا إلى بلاد الغور مثل كرزيان وشبرقان وغيرهما، وقتلوا وأسروا ونهبوا وسبوا كثيرا لا يحصى، فاستغاث الناس بغياث الدين فلم يكن عنده من العساكر ما يلقاهم بها، فراسل الخطا بهاء الدين سام ملك باميان يأمرونه بالإفراج عن بلخ، وانه يحمل ما كان من قبله يحمله من المال فلم يجبهم إلى ذلك.

وعظمت المصيبة على المسلمين بما فعله الخطا، فانتدب الأمير محمد بن جربك الغوري، وهو مقطع الطالقان من قبل غياث الدين، وكان شجاعاً، وكاتب الحسين بن خرميل، وكان بقلعة كرزيان، واجتمع معهما الأمير حروش الغوري وساروا بعساكرهم

إلى الخطا، فبيتوهم وكبسوهم ليلاً من عادة الخطا أنهم لا يخرجون من خيامهم ليلاً ولا يفارقونها، فأتاهم هؤلاء الغورية وقاتلوهم وأكثروا القتل في الخطا، وانهزم من سلم منهم من القتل، وأين ينهزمون، والعسكر الغوري خلفهم وجيحون بين أيديهم، وظن الخطا أن غياث الدين قد قصدهم في عساكره، فلما أصبحوا وعرفوا من قاتلهم وعلموا أن غياث الدين بمكانه قويت قلوبهم، وثبتوا عامة نهارهم، فقتل من الفريقين خلق عظيم، ولحقت المتطوعة بالغوريين، وأتاهم مدد من غياث الدين وهم في الحرب، فثبت المسلمون وعظمت نكايتهم في الكفار، وحمل الأمير حروش على قلب الخطا، وكان شيخاً كبيراً فأصابه جراحة توفّي منها، ثم إن محمود بن جربك وابن خرميل حملا في اصحابهما وتنادوا أن لا يرمي أحد بقوس ولا يطعن برمح، وأخذوا اللنوت وحملوا على الخطا، فهزموهم وألحقوهم بجيحون، فمن صبر قتل ومن ألقى نفسه في الماء غرق، ووصل الخبر إلى ملك الخطا فعظم عليه وأرسل إلى خوارزم شاه يقول له: أنت قتلت رجالي وأريد عن كل قتيل عشرة آلاف دينار، وكان القتلى اثني عشر الفا، وأنفذ إليه من رده إلى خوارزم وألزموه بالحضور عنده فأرسل حينئذ خوارزم شاه إلى غياث الدين يعرفه حاله مع الخطا ويشكو إليه ويستعطفه غير مرة، فأعاد الجواب يأمره بطاعة الخليفة، وإعادة ما أخذه الخطا من بلاد الإسلام، فلم ينفصل بينهما حال.

ذكر ملك خوارزم شاه مدينة بخارا

لمّا ورد رسول ملك الخطا على خوارزم شاه ـ بما ذكرناه ـ اعاد الجواب ان عسكرك إنما قصد انتزاع بلخ، ولم يأتوا إلى نصرتي، ولا اجتمعت بهم ولا أمرتهم بالعبور، وإن كنت فعلت ذلك فأنا مقيم بالمال المطلوب مني، ولكن حيث عجزتم انتم عن الغورية عدتم علي بهذا القول وهذا المطلب، وأما أنا فقد أصلحت الغوريّة ودخلت في طاعتهم ولا طاعة لكم عندي، فعاد الرسول بالجواب، فجهّز ملك الخطا جيشاً عظيماً وسيّره إلى خوارزم شاه يخرج إليهم كل ليلة، ويقتل منهم خلقاً عظيماً وأتاه من المتطوّعة خلق كثير، فلم يزل هذا فعله بهم حتى أتى على أكثرهم، فدخل الباقون إلى بلادهم، ورحل خوارزم شاه في آثارهم وقصد بخارا، فنازلها وحصرها، وامتنع أهلها منه وقاتلوه مع الخطا، حتى أنهم أخذوا كلباً أعور وألبسوه قباء وقلنسوة، وقالوا: هذا خوارزم شاه لأنه كان أعوراً، وطافوا به على السور، ثم ألقوه في منجنيق إلى

العسكر، وقالوا: هذا سلطانكم، وكان الخوارزميون يسبّونهم ويقولون يا أجناد الكفر أنتم قد ارتددتم عن الإسلام، فلم يزل هذا دأبهم حتى ملك خوارزم شاه البلد بعد أيام يسيرة عنوا، وعفا عن أهله وأحسن إليهم وفرق فيهم مالاً كثيراً، وأقام بها مدة ثم عاد إلى خوارزم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في ذي الحجة توفّي ابو طالب يحيى بن سعيد بن زيادة كاتب الإنشاء بديوان الخليفة، وكان عالماً فاضلاً له كتابة حسنة، وكان رجلاً عاقلاً خيّراً كثيرَ النفع للناس، وله شعر جيد.

وفيها حصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب قلعة ماردين في شهر رمضان وقاتل من بها، وكان صاحبها حسام الدين يولق أرسلان بن أيلغازي بن البي بن تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق كل هؤلاء ملوك ماردين ـ وقد تقدم من اخبارهم ما يعلم به محلهم ـ وكان صبياً، والحاكم في بلده ودولته مملوك أبيه النظام يرنقش، وليس لصاحبه معه حكم البتة في شي من الأمور، ولمّا حصر العادل ماردين ودام عليها سلّم إليه بعض أهلها الربض بمخامرة منهم، فنهب العسكر أهله نهباً قبيحاً، وفعلوا بهم أفعالاً عظيمة لم يسمع بمثلها، فلما تسلم الربض تمكن من حصر القلعة، وقطع الميرة عنها، وبقي عليها إلى أن رحل عنها سنة خمس وتسعين ـ على ما نذكره إن شاء الله.

وفيها توفي الشيخ أبو علي الحسن بن مسلم بن أبي الحسن القادسي الزاهد المقيم ببغداد والقادسية التي ينسب إليها، قرية بنهر عيسى من أعمال بغداد، وكان من عباد الله الصالحين العالمين، ودفن بقريته أبو المجد علي بن أبي الحسن علي بن الناصر بن محمد الفقيه الحنفي مدرّس أصحاب ابي حنيفة ببغداد، وكان من أولاد محمد بن الحنفية ابن امير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة

ذكر وفاة الملك العزيز وملك أخيه الأفضل ديار مصر

في هذه السنة في العشرين من المحرّم توفّي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب ديار مصر، وكان سبب موته أنه خرج الى الصيد، فوصل إلى الفيوم متصيّداً فرأى ذئباً فركض فرسه في طلبه فعثر الفرس، فسقط عنه في الأرض ولحقته حمى، فعاد إلى القاهرة مريضاً فبقي كذلك إلى أن توفّي، فلما مات كان الغالب على أمره مملوك والده فخر الدين جهاركس هو الحاكم في بلده، فأحضر إنساناً كان عندهم من أصحاب الملك العادل أبي بكر بن أيوب وأراه العزيز ميتاً وسيّره إلى العادل وهو يحاصر ماردين ـ كما ذكرناه ـ ويستدعيه ليملكه البلاد، فسار القاصد مجدا، فلما كان بالشام رأى بعض أصحاب الأفضل علي بن صلاح الدين فقال له: قل لصاحبك إن أخاه العزيز توفّي وليس في البلاد من يمنعها، فليسر اليها فليس دونها مانع، وكان الأفضل محبوباً الى الناس يريدونه، فلم يلتفت الأفضل إلى هذا القول وإذ قد وصله رسل الأمراء من مصر يدعونه اليهم ليملكوه، وكان السبب في ذلك أن الأمير سيف الدين يازكج مقدم الأسَدِيّة والفرقة الأسَدِية والأمراء الأكراد يريدونه ويميلون اليه، وكان المماليك الناصرية الذين هم ملك أبيه يكرهونه، فاجتمع سيف الدين مقدم الأسدية وفخر الدين جهاركس مقدم الناصرية ليتفقوا على من يولونه الملك، فقال فخر الدين: نولي ابن الملك العزيز، فقال سيف الدين: إنه طفل وهذه البلاد ثغر الإسلام ولا بد من قَيِّم بالملك يجمع العساكر ويقاتل بها، والرأي أننا نجعل الملك في هذا الطفل الصغير، ونجعل معه بعض أولاد صلاح الدين يُدبره إلى أن يَكْبُر، فإن العساكر لا تُطيع غيرهم ولا تنقاد لأمير، فاتفقا على هذا فقال جهاركس: فمن يتولى هذا فأشار يازكج بغير الأفضل، فجرى بينه وبين جهاركس منازعة لئلا يتهم وينفر جهاركس عنه، فامتنع

من ولايته، فلم يزل يذكر من أولاد صلاح الدين واحداً بعد آخر إلى أن ذكر آخرهم الأفضل فقال جهاركس: هو بعيد عنا، وكان بصرخد مقيماً فيها من حين أخذت منه دمشق، فقال يازكج: ترسل إليه من يطلبه مجدّاً، فأخذجهاركس يغالطه فقال يازكج: نمضي الى القاضي الفاضل ونأخذ رأيه، فاتفقا على ذلك وأرسل يازكج يعرفه ذلك ويشير بتمليك الأفضل،فلما اجتمعا عنده وعرفاه صورة الحال أشار بالأفضل، فأرسل يازكج في الحال القصاد وراءه، فسار عن صرخد لليلتين بقيتا من صفر متنكراً في تسعة عشر نفساً لأن البلاد كانت للعادل وبضبط نوابه الطرق لئلا يجوز إلى مصر ليجيء العادل ويملكها فلما قارب الأفضل القدس وقد عدل عن الطريق المؤدّي إليه لقيه فارسان قد أرسلا إليه من القدس، فأخبراه أن من بالقدس قد صار في طاعته، وجدّ في السير فوصل إلى بلبيس خامس ربيع الأول، ولقيه إخوته وجماعة الأمراء المصرية، وجميع الأعيان، فاتفق أن أخاه الملك المؤيد مسعوداً صنع له طعاماً وصنع له فخر الدين مملوك أبيه طعاماً فابتدأ بطعام أخيه ليمين حلفها أخوه أنه يبدأ به، فظن جهاركس أنه فعل هذا انحرافاً عنه وسوء اعتقاد فيه، فتغيرت نيّته وعزم على الهرب فحضر عند الأفضل، وقال إن طائفة من العرب قد اقتتلوا ولئن لم نمض إليهم نصلح بينهم يؤدي ذلك إلى فساد، فأذن له الأفضل في المضي إليهم، ففارقه وسار مُجداً حتى وصل إلى البيت المقدس ودخله وتغلب عليه، ولحقه جماعة من الناصرية منهم قراجة الزرمكش وسراسنقر، وأحضروا عندهم ميموناً القصري صاحب نابلس، وهو أيضاً من المماليك الناصرية، فقويت شوكتهم به واجتمعت كلمتهم على خلاف الأفضل، وأرسلوا إلى الملك العادل، وهو على ماردين يطلبونه اليهم ليدخلوا معه الى مصر ليملكوها، فلم يسر إليهم لأنه كانت أطماعه قد قويت في أخذ ماردين، وقد عجز من بها عن حفظها وأنه يأخذها والذي يريدونه لا يفوته، وأما الأفضل فإنه دخل إلى القاهرة سابع ربيع الأول وسمع بهرب جهاركس، فأهمه ذلك وتردّدت الرسل بينه وبينهم ليعودوا إليه، فلم يزدادوا إلا بعداً، ولحق بهم جماعة من الناصرية أيضاً فاستوحش الأفضل من الباقين، فقبض عليهم وهم شقيرة وأيبك فطيس والبكى الفارس، وكل هؤلاء بطل مشهور ومقدّم مذكور سوى من ليس مثلهم في التقدّم وعلو القدر، وأقام الأفضل بالقاهرة، وأصلح الأمور، وقرّر القواعد والمرجع في جميع الأمور إلى سيف الدين يازكج.

ذكر حصر الأفضل مدينة دمشق وعوده عنها

لما ملك الأفضل مصرَ واستقر بها ومعه ابن أخيه الملك العزيز اسم الملك له لصغره واجتمعت الكلمة على الأفضل بها وصل إليه رسول أخيه الملك الظاهر غازي صاحب حلب، ورسل ابن عمه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص يحثانه على الخروج إلى دمشق، واغتنام الفرصة بغيبة العادل عنها وبذلا له المساعدة بالمال والنفس والرجال، فبرز من مصر منتصف جمادى الأولى من السنة على عزم المسير إلى دمشق، وأقام بظاهر القاهرة إلى ثالث رجب ورحل فيه وتعوق في مسيره، ولو بادر وعجل المسير لملك دمشق لكنه تأخر، فوصل إلى دمشق ثالث عشر شعبان، فنزل عند جسر الخشب على فرسخ ونصف من دمشق، وكان العادل قد أرسل إليه نوابه بدمشق يعرفونه قصد الأفضل لهم، ففارق ماردين وخلف ولده الكامل محمداً في جميع العساكر على حصارها، وسار جريدة فجدّ في السير فسبق الأفضل فدخل دمشق قبل الأفضل بيومين، وأما الأفضل فإنه تقدّم إلى دمشق من الغدر، وهو رابع عشر شعبان، ودخل ذلك اليوم بعينه طائفة يسيرة من عسقلان إلى دمشق من باب السلامة، وسبب دخولهم ان قوماً من أجناده ممن بيوتهم مجاورة الباب اجتمعوا بالأمير مجد الدين أخي الفقيه عيسى الهكاري، وتحدثوا معه في أن يقصد هو والعسكر باب السلامة ليفتحوه لهم، فأراد مجدّ الدين أن يختص بفتح الباب وحده فلم يُعلم الأفضل ولا أخذ معه أحداً من الأمراء بل سار وحده ومعه نحو خمسين فارساً من أصحابه، ففُتح له الباب فدخله هو ومن معه، فلما رآهم عامة البلد نادوا بشعار الأفضل واسستسلم من به من الجند ونزلوا عن الأسوار، وبلغ الخبر إلى الملك العادل فكاد يستسلم وتماسك، وأما الذين دخلوا البلد فإنهم وصلوا إلى البريد، فلما رأى عسكر العادل بدمشق قلة عددهم وانقطاع مددهم وثبوا بهم وأخرجوهم منه ، وكان الأفضل قد نصب خيمة بالميدان الأخضر، وقارب عسكره الباب الحديد، وهو من أبواب القلعة، فقدَّر الله تعالى أن أشير على الأفضل بالانتقال إلى ميدان الحصى، ففعل ذلك، فقويت نفوس من فيه وضعفت نفوس العسكر المصري، ثم إن الأمراء الأكراد منهم تحالفوا، فصاروا يداً واحدة، ويغضبون لغضب أحدهم ويرضون لرضا أحدهم، فظن الأفضل وباقي الأسدية أنهم فعلوا بقاعدة بينهم وبين الدمشقيين، فرحلوا من موضعهم وتأخروا في العشرين من

شعبان، ووصل أسد الدين شيركوه صاحب حمص إلى الأفضل الخامس والعشرين من شعبان ووصل بعده الملك الظاهر صاحب حلب ثاني عشر شهر رمضان، وأراد الزحف الى دمشق فمنعهم الملك الظاهر مكراً بأخيه وحسداً له ولم يشعر أخوه الأفضل بذلك، وأما الملك العادل فإنه لما رأى كثرة العساكر وتتابع الإمداد إلى الأفضل عظم عليه، فأرسل إلى المماليك الناصرية بالبيت المقدس يستدعيهم إليه فساروا سلخ شعبان، فوصل خبرهم إلى الأفضل، فسيّر أسد الدين صاحب حمص ومعه جماعة من الأمراء إلى طريقهم ليمنعوهم فسلكوا غير طريقهم، فجاء اولئك ودخلوا دمشق خامس رمضان فقوي العادل بهم قوّة عظيمة، وأيس الأفضل ومن معه من دمشق وخرج عسكر دمشق في شوال فكبسوا العسكر المصري فوجدوهم قد حذروهم، فعادوا عنهم خاسرين وأقام العسكر على دمشق ما بين قوّة وضعف، وانتصار وتخاذل حتى أرسل الملك العادل خلف ولده الملك الكامل محمّد، وكان قد رحل عن ماردين على ما نذكره إن شاء الله تعالى ـ وهو بحران، فاستدعاه إليه بعسكره، فسار على طريق البر، فدخل إلى دمشق ثاني عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة، فعند ذلك رحل العسكر عن دمشق إلى ذيل جبل الكسوة سابع عشر صفر، واستقر أن يقيموا بحوران حتى يخرج الشتاء، فرحلوا إلى رأس الماء، وهو موضع شديد البرد فتغير العزم عن المقام، واتفقوا على أن يعود كل منهم الى بلده، فعاد الظاهر صاحب حلب وأسد الدين صاحب حمص إلى بلادهما، وعاد الأفضل الى مصر، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه محمد

في هذه السنة ثامن عشر ربيع الآخر، وقيل جمادى الأولى توفّي أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب والأندلس بمدينة سلا، وكان قد سار إليها من مراكش، وكان قد بنى مدينة محاذية لسلا وسماها المهدية من أحسن البلاد وأنزهها، فسار إليها يشاهدها فتوفّي بها، وكانت ولايته خمس عشرة سنة، وكان ذا جهاد للعدو ودين حسن وسيرة، وكان يتظاهر بمذهب الظاهرية، وأعرض عن مذهب مالك، فعظم أمر الظاهرية في أيامه، وكان بالمغرب منهم خلق كثير يقال لهم الحزمية منسوبون إلى ابن محمد بن حزم رئيس الظاهرية إلا أنهم مغمورون بالمالكية،

ففي أيامه ظهروا وانتشروا ، ثم في آخر أيامه استقضى الشافعية على بعض البلاد ومال إليهم .

ذكر عصيان أهل المهدية على يعقوب وطاعتها لولده محمد

كان أبو يوسف يعقوب صاحب المغرب لما عاد من إفريقية ـ كما ذكرناه ـ سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، استعمل أبا سعيد عثمان، وأبا علي يونس بن عمر اينتي وهما وأبوهما من أعيان الدولة، فولّى عثمان مدينة تونس، وولّى أخاه المهدية، وجعل قائد الجيش بالمهدية محمد بن عبد الكريم، وهو شجاع مشهور، فعظمت نكايته في العرب فلم يبق منهم إلا من يخافه، فاتفق انه أتاه الخبر بأن طائفة من عوف نازلين بمكان، فخرج إليهم وعدل عنهم حتى جازهم، ثم اقبل عائداً يطلبهم وأتاهم الخبر بخروجه إليهم، فهربوا من بين يديه فلقيهم أمامهم، فهربوا وتركوا المال والعيال من غير قتال، فأخذ الجميع ورجع إلى المهدية وسلم العيال إلى الوالي، وأخذ من الأسلاب والغنيمة ما شاء، وسلم الباقي إلى الوالي وإلى الجند، ثم إن العرب من بني عوف قصدوا أبا سعيد بن عمر اينتي، فوجدوا وصاروا من حزب الموحدين، واستجاروا به في رد عيالهم وأموالهم فأحضر محمد بن عبد الكريم وأمره بإعادة ما أخذ لهم من النعم، فقال: أخذه الجند ولا اقدر على رده، فأغلظ له في القول، وأراد أن يبطش به، فاستمهله الى ان يرجع الى المهدية، ويسترد من الجند ما يجده عندهم وما عدم منه غرم العوض عنه من ماله، فأمهله فعاد الى المهدية وهو خائف، فلما وصلها جمع أصحابه وأعلمهم ما كان من أبي سعيد وحالفهم على موافقته، فحلفوا له فقبض على أبي علي يونس، وتغلب على المهدية وملكها، فأرسل اليه ابو سعيد في معنى اطلاق أخيه يونس، فأطلقه على اثني عشر ألف دينار، فلما أرسلها إليه أبو سعيد فرقها في الجند وأطلق يونس وجمع أبو سعيد العساكر وأراد قصد محاصرته، فأرسل محمد بن عبد الكريم إلى علي بن اسحق الملثم فحالفه واعتضد به، فامتنع أبو سعيد من قصده، ومات يعقوب، وولي ابنه محمد فسيّر عسكراً مع عمه في البحر، وعسكراً آخر في البر مع ابن عمه الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن، فلما وصل عسكر البحر إلى بجاية وعسكر السير إلى قسطينة الهوى هرب الملثم ومن معه من العرب من بلاد افريقية الى الصحراء، ووصل الأسطول إلى المهدية، فشكا محمد بن عبد الكريم ما لقي من ابي

سعيد، وقال: أنا على طاعة أمير المؤمنين محمد، ولا أسلمها إلى أبي سعيد وإنما أسلمها الى من يرسله أمير المؤمنين، فأرسل محمد من يتسلمها منه وعاد إلى الطاعة.

ذكر رحيل عسكر الملك العادل عن ماردين

في هذه السنة زال الحصار عن ماردين ورحل عسكر الملك العادل عنها مع ولده الملك الكامل، وسبب ذلك أن الملك العادل لما حصر ماردين عظم ذلك على نور الدين صاحب الموصل وغيره من ملوك ديار بكر والجزيرة، وخافوا إن ملكها لا يبقي عليهم إلا أن العجز عن منعه حملهم على طاعته، فلما توفي العزيز صاحب مصر وملك الأفضل مصر ـ كما ذكرناه ـ وبينه وبين العادل اختلاف، فأرسل أخذ عسكر مصر من عنده، وأرسل إلى نور الدين صاحب الموصل وغيره من الملوك يدعوهم إلى موافقته، فأجابوه إلى ذلك، فلما رحل الملك العادل عن ماردين إلى دمشق ـ كما ذكرناه ـ برز نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل عنها ثاني شعبان، وسار إلى دنيسر، فنزل عليها ووافقه ابن عمّه قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود صاحب سنجار وابن عمه الآخر سنجر شاه بن غازي بن مودود صاحب جزيرة ابن عمر، فاجتمعوا كلهم بدُنَيْسِر إلى أن عيّدوا عيد الفطر، ثم ساروا عنها سادس شوال ونزلوا بحرزم، وتقدم العسكر إلى تحت الجبل ليرتادوا موضعاً للنزول، وكان أهل ماردين قد عدمت الأقوات عندهم، وكثرت الأمراض فيهم حتى إن كثيراً منهم كان لا يطيق القيام، فلما رأى النظام، وهو الحاكم في دولة صاحبها ذلك ارسل إلى ابن العادل في تسليم القلعة إليه إلى أجل معلوم ذكره على شرط أن يتركهم يدخل اليهم من الميرة ما يقوتهم حسب، فأجابهم إلى ذلك، وتحالفوا عليه ورفعوا أعلامهم إلى رأس القلعة، وجعل ولد العادل بباب القلعة أميرا لا يترك يدخلها من الأطعمة إلا ما يكفيهم يوما بيوم، فأعطى من بالقلعة ذلك الأمير شيئاً، فمكّنهم من إدخال الذخائر الكثيرة فبينما هم كذلك إذ أتاهم خبر وصول نور الدين صاحب الموصل، فقويت نفوسهم وعزموا على الامتناع، فلمّا تقدّم عسكره إلى ذيل جبل ماردين قدر الله تعالى أن الملك الكامل بن العادل نزل بعسكره من ربض ماردين إلى لقاء نور الدين وقتاله، ولو اقاموا بالربض لم يمكن نور الدين ولا غيره الصعود اليهم ولا ازالتهم، لكن نزلوا ليقضي الله أمراً كان مفعولا، فلما أصحروا من

الجبل اقتتلوا، وكان من عجيب الاتفاق ان قطب الدين صاحب سنجار كان قد واعد العسكر العادليّ أن ينهزم إذا التقوا، ولم يعلم بذلك أحداً من العسكر، فقدر الله تعالى أنه لما نزل العسكر العادلي، واصطفت العساكر للقتال الجأت قطب الدين الضرورة بالزحمة إلى أن وقف في سفح بجبل ماردين ليس اليه طريق للعسكر العادلي، ولا يرى الحرب الواقعة بينهم وبين نور الدين ففاته ما أراده من الانهزام، فلمّا التقى العسكران واقتتلوا حمل ذلك اليوم نور الدين بنفسه واصطلى الحرب الناس أنفسهم بين يديه، فانهزم العسكر العادلي وصعدوا في الجبل الى الربض وأسر منهم كثير، فحملوا إلى بين يدي نور الدين، فأحسن اليهم ووعدهم الإطلاق إذا انفصلوا، ولم يظن أن الملك الكامل ومن معه يرحلون عن ماردين سريعاً، فجاءهم أمر لم يكن في الحساب، فإن الملك الكامل لما صعد إلى الربض رأى أهل القلعة قد نزلوا إلى الذين جعلوهم بالربض من العسكر، فقاتلوهم ونالوا منهم ونهبوا، فألقى الله الرعب في قلوب الجميع، فأعملوا رأيهم على مفارقة الربض ليلا فرحلوا ليلة الاثنين سابع شوال، وتركوا كثيرا من أثقالهم ورحالهم، وما اعدوه فأخذه أهل القلعة، ولو ثبت العسكر العادلي بمكانه لم يمكن أحداً أن يقرب منهم، ولما رحلوا نزل صاحب ماردين حسام الدين يولق بن ايلغازي إلى نور الدين، ثم عاد إلى حصنه وعاد أتابك إلى دنيسر، ورحل عنها إلى رأس عين على عزم قصد حرّان وحصرها، فأتاه رسول من الملك الظاهر يطلب الخطبة والسكة وغير ذلك، فتغيرت نية نور الدين وفتر عزمه عن حصرها، فعزم على العود إلى الموصل، فهو يقدم إلى العود رجلاً ويؤخر أخرى إذ اصابه مرض، فتحقق عزم العود الى الموصل، فعاد إليها وأرسل رسولا إلى الملك الأفضل والملك الظاهر يعتذر عن عوده بمرضه، فوصل الرسول ثاني ذي الحجة إليهم، وهم على دمشق وكان عود نور الدين من سعادة الملك العادل، فإنه كان وكل من عنده ينتظرون ما يجيء من أخباره، فإن من بحرّان استسلموا فقدّر الله تعالى أنه عاد، فلما عاد جاء الملك الكامل إلى حران، وكان قد سار عن ماردين إلى ميافارقين، فلما رجع نور الدين سار الكامل إلى حران، وسار إلى أبيه بدمشق على ما ذكرناه فازداد به قوة، والأفضل ومن معه ضعفا.

ذكر الفتنة بفيروز وزكوه من خراسان

في هذه السنة كانت فتنة عظيمة بعسكر غياث الدين ملك الغور وغزنة، وهو بفيروزكوه عمّت الرعية والملوك والأمراء، وسببها أن الفخر محمد بن عمر بن الحسين الرازي ـ الإمام المشهور الفقيه الشافعي ـ كان قدم إلى غياث الدين مفارقاً لبهاء الدين سام صاحب باميان، وهو ابن أخت غياث الدين، فأكرمه غياث الدين واحترمه وبالغ في إكرامه، وبنى له مدرسة بهراة بالقرب من الجامع، فقصده الفقهاء من البلاد فعظم ذلك على الكرامية، وهم كثيرون بهراة، وأما الغورية فكلهم كرامية وكرهوه، وكان أشدّ الناس عليه الملك ضياء الدين، وهو ابن عم غياث الدين وزوج ابنته، فاتّفق أن حضر الفقهاء من الكرامية والحنفية والشافعية عند غياث الدين بفيروزكوه للمناظرة، وحضر فخر الدين الرازي والقاضي مجدّ الدين عبد المجيد بن عمر المعروف بابن القدوة، وهو من الكرامية الهيصمية، وله عندهم محل كبير لزهده وعلمه وبيته، فتكلم الرازي فاعترض عليه ابن القدوة، وطال الكلام فقام غياث الدين فاستطال عليه الفخر وسبّه وشتمه، وبالغ في أذاه وابن القدوة لا يزيد على أن يقول: لا يفعل مولانا لا واخذك الله، استغفر الله، فانفصلوا على هذا وقام ضياء الدين في هذه الحادثة وشكر إلى غياث الدين وذم الفخر، ونسبه إلى الزندقة ومذهب الفلاسفة فلم يصغ غياث الدين إليه، فلما كان الغد وعظ ابن عمر المجد بن القدوة بالجامع، فلما صعد المنبر قال بعد أن حمد الله وصلى على النبي ﷺ: لا إله إلا الله ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين، أيّها الناس إنا لا نقول إلا ما صح عندنا عن رسول الله ﷺ، وأما علم ارسطاطاليس وكفريات ابن سينا وفلسفة الفارابي فلا نعلمها، فلأي حال يشتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام يذبّ عن دين الله وعن سنة نبيه، وبكى وضج الناس وبكى الكرامية واستغاثوا وأعابهم من يؤثر بعد الفخر الرازي عن السلطان، وثار الناس من كل جانب وامتلأ البلد فتنة، وكادوا يقتتلون ويجري ما يهلك فيه خلق كثير، فبلغ ذلك السلطان، فأرسل جماعة من عنده إلى الناس، وسكنهم ووعدهم بإخراج الفخر من عندهم، وتقدّم إليه بالعود إلى هراة فعاد اليها.

ذكر مسير خوارزم شاه إلى الري

في هذه السنة في ربيع الأول سار خوارزم شاه علاء الدين تكش إلى الري وغيرها

من بلاد الجبل لأنه بلغه أن نائبه بها مياجق قد تغيّر عن طاعته، فسار إليه فخافه مياجق، فجعل يفر من بين يديه وخوارزم شاه في طلبه، يدعوه إلى الحضور عنده، وهو يمتنع فاستأمن من أكثر أصحابه إلى خوارزم شاه، وهرب هو فحصل بقلعة من أعمال مازندران، فامتنع بها، فسارت العساكر في طلبه، فأخذ منها، وأحضر بين يدي خوارزم شاه، فأمر بحبسه، بشفاعة أخيه أقجة، وسيرت الخلع من الخليفة لخوارزم شاه ولولده قطب الدين محمد وتقليد ما بيده من البلاد، فلبس الخلعة، واشتغل بقتال الملاحدة، فافتتح قلعة على باب قزوين تسمى أرسلان كشاه، وانتقل الى حصار الموت، فقتل عليها صدر الدين محمد بن الوزان رئيس الشافعية بالري، وكان قد تقدّم عنده تقدما عظيما قتله الملاحدة، وعاد خوارزم شاه إلى خوارزم، فوثب الملاحدة على وزيره نظام الملك مسعود بن علي فقتلوه في جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين، فأمر تكش ولده قطب الدين بقصد الملاحدة، فقصد قلعة ترشيش، وهي من قلاعهم فحصرها، فأذعنوا له بالطاعة وصالحوه على مائة ألف دينار ففارقها، وإنما صالحهم لأنه بلغه خبر مرض أبيه، وكانوا يراسلونه بالصلح فلا يفعل، فلما سمع بمرض أبيه لم يرحل حتى صالحهم على المال المذكور والطاعة ورحل.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في ربيع الأول توفي مجاهد الدين قايماز ـ رحمه الله ـ بقلعة الموصل، وهو الحاكم في دولة نور الدين والمرجوع إليه فيها، وكان ابتداء ولايته قلعة الموصل في ذي الحجة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وولّي إربل سنة تسع وخمسين وخمسمائة، فلمّا مات زين الدين علي كوكج سنة ثلاث وستين بقي هو الحاكم فيها ومعه من يختاره من أولاد زين الدين ليس لواحد منهم معه حكم، وكان عاقلاً أديباً خبيراً فاضلا يعرف الفقه على مذهب أبي حنيفة، ويحفظ من التاريخ والأشعار والحكايات شيئاً كثيراً، وكان كثير الصوم يصوم من كلّ سنة نحو أربعة أشهر، وله أوراد كثيرة حسنة كل ليلة، ويكثر الصدقة وكان له فراسة حسنة فيمن يستحق الصدقة، ويعرف الفقير المستحق ويبرّهم وبنى عدة جوامع منها الجامع الذي بظاهر الموصل بباب الجسر، وبنى الربط والمدارس والخانات في الطرق، وله من المعروف شيء كثير ـ رحمه الله ـ، فلقد كان من محاسن الدنيا..

وفيها فارق غياث الدين صاحب غزنة وبعض خراسان مذهب الكرامية ـ وصار شافعي المذهب، وكان سبب ذلك انه كان عنده إنسان يعرف بالفخر مبارك شاه يقول الشعر بالفارسيّة متفنّنا في كثير من العلوم، فأوصل إلى غياث الدين الشيخ وجيه الدين أبا الفتح محمد بن محمود المروروذي الفقيه الشافعي، فوضح له مذهب الشافعي، وبيَّن له فساد مذهب الكرامية، فصار شافعياً وبنى المدارس للشافعية، وبنى بغزنة مسجداً لهم أيضا، وأكثر مراعاتهم، فسعى الكرامية في أذى وجيه الدين، فلم يقدرهم الله تعالى على ذلك، وقيل إن غياث الدين وأخاه شهاب الدين لما ملكا في خراسان قيل لهما : إن الناس في جميع البلاد يزرون على الكرامية ويحتقرونهم، والرأي أن تفارقا مذاهبهم فصارا شافعيين، وقيل: إن شهاب الدين كان حنفياً والله أعلم.

وفي هذه السنة توفّي أبو القاسم يحيى بن علي بن فضلان الفقيه الشافعي، وكان إماما فاضلاً، ودرس ببغداد، وكان من أعيان أصحاب محمد بن يحيى نجي النيسابوري.

ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسمائة

ذكر ملك العادل الديار المصرية

قد ذكرنا سنة خمس وتسعين حصر الأفضل والظاهر ولدي صلاح الـدين دمشق ورحيلهما إلى رأس الماء على عزم المقام بحوران إلى أن يخرج الشتاء، فلما أقاموا برأس الماء وجد العسكر برداً شديداً لأن البرد في ذلك المكان في الصيف موجود، فكيف في الشتاء؟ فتغير العزم على المقام واتفقوا على أن يعود كل إنسان منهم إلى بلده، ويعودوا إلى الاجتماع فتفرقوا تاسع ربيع الأول، فعاد الظاهر وصاحب حمص إلى بلادهما، وسار الأفضل إلى مصر، فوصل بلبيس فأقام بها، ووصلته الأخبار بأن عمه الملك العادل قدسار من دمشق قاصداً مصر، ومعه المماليك الناصرية وقد حلفوه أن يكون ولد الملك العزيز هو صاحب البلاد وهو المدبر للملك إلى أن يكبر، فساروا على هذا، وكان عسكره بمصر قد تفرّق عن الأفضل من الخشبي، فسار كل منهم إلى أقطاعه ليربعوا دوابهم، فرام الأفضل جمعهم من أطراف البلاد، فأعجله الأمر عن ذلك ولم يجتمع منهم إلا طائفة يسيرة ممن قرب أقطاعه، ووصل العادل، فأشار بعض الناس على الأفضل أن يخرّب سور بلبيس ويقيم بالقاهرة، وأشار غيرهم بالتقدّم إلى اطراف البلاد، ففعل ذلك، فسار عن بلبيس ونزل موضعاً يقال له: السائح في طرف البلاد والتقى هو والعادل سابع ربيع الآخر، فانهزم الأفضل ودخل القاهرة ليلاً. وفي تلك الليلة توفّي القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني كاتب الإنشاء لصلاح الدين ووزيره، فحضر الأفضل الصلاة عليه، وسار العادل فنزل على القاهرة وحصرها، فجمع الأفضل من عنده من الأمراء واستشارهم، فرأى منهم تخاذلا، فأرسل رسولاً إلى عمه في الصلح وتسليم البلاد إليه وأخذ العوض عنها، وطلب دمشق، فلم يجبه، فنزل عنها إلى حـرّان والرها فلم يجبه، فنزل إلى ميافارقين وحاني[1] وجبل جور[2] فأجابه إلى

---

(١) حاني: مدينة معروفة بديار بكر.

(٢) جبل جور: كورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية، اهلها نصارى أرمن، وفيها قلاع وقرى.

ذلك وتحالفوا عليه وخرج الأفضل من مصر ليلة السبت ثامن عشر ربيع الآخر، واجتمع بالعادل، وسار إلى صَرْخَد[١] ودخل العادل إلى القاهرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر، ولما وصل الأفضلُ إلى صرخد أرسل من تسلم ميافارقين وحاني وجبل جور، فامتنع نجم الدين أيوب بن الملك العادل من تسليم ميافارقين، وسلم ما عداها، فتردّدت الرسل بين الأفضل والعادل في ذلك والعادل يزعم أن ابنه عصاه، فأمسك عن المراسلة في ذلك لعلمه أن هذا فعل بأمر العادل، ولما ثبت قدم العادل بمصر قطع خطبة الملك المنصور ابن الملك العزيز في شوال من السنة، وخطب لنفسه وحاقق الجندفي اقطاعاتهم ، واعترضهم في أصحابهم، ومن عليهم من العسكر المقرر، فتغيرت لذلك نياتهم، فكان ما نذكره سنة سبع وتسعين إن شاء الله.

ذكر وفاة خوارزم شاه

في هذه السنة في العشرين من رمضان توفّي خوارزم شاه تكش بن أرسلان صاحب خوارزم وبعض خراسان والريّ وغيرها من البلاد الجباليّة بشهرستانة بين نيسابور وخوارزم، وكان قد سار من خوارزم الى خراسان، وكان به خوانيق، فأشار عليه الأطباء بترك الحركة، فامتنع وسار، فلمّا بلغ شهرستانة اشتد مرضه ومات، ولما اشتّد مرضه أرسلوا إلى ابنه قطب الدين محمد يستدعونه ويعرفونه شدّة مرض أبيه، فسار إليهم وقد مات أبوه، فولي الملك بعده، ولقب علاء الدين لقب أبيه، وكان لقبه قطب الدين وأمر فحمل أبوه ودفن بخوارزم في تربة عملها في مدرسة بناها كبيرة عظيمة، وكان عادلاً حسن السيرة له معرفة حسنة، وعلم يعرف الفقه على مذهب أبي حنيفة، ويعرف الأصول، وكان ولده علي شاه بأصفهان فأرسل إليه أخوه خوارزم شاه محمد يستدعيه، فسار إليه فنهب أهل أصفهان خزانته ورحله ، فلما وصل إلى أخيه ولاه حرب خراسان والتقدم على جندها وسلم إليه نيسابور ، وكان هندوخان ملك شاه بن خوارزم شاه تكش يخاف عمه محمدا فهرب منه ونهب كثيراً من خزائن جده تكش لما مات، وكان معه وسار إلى مرو، ولما سمع غياث الدين ملك غزنة وفاة خوارزم شاه أمر أن لا تضرب نوبته ثلاثة أيام، وجلس للعزاء على ما بينهما من العداوة والمحاربة فعل

---

(١) صَرْخَدْ: بالفتح ثم السكون، بلد ملاصق لبلاد حوران من اعمال دمشق، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة، ينسب إليها الخمر.

ذلك عقلا منه ومروءة، ثم ان هندوخان جمع جمعا كثيراً بخراسان، فسيَّر إليه عمّه خوارزم شاه جيشاً مقدمهم جقر التركي، فلمّا سمع هندوخان بمسيرهم هرب عن خراسان، وسار إلى غياث الدين يستنجده على عمّه فأكرم لقاءه وإنزاله وأقطعه ووعده النصرة، فأقام عنده ودخل جقر مدينة مرو، وبها والدة هندوخان وأولاده، فاستظهر عليهم وأعلم صاحبه فأمره بإرسالهم إلى خوارزم مكرمين، فلمّا سمع غياث الدين ذلك أرسل إلى محمد بن جربك صاحب الطالقان يأمره أن يرسل إلى جقر يتهدده، ففعل وسار من الطالقان، فأخذ مرو الروذ والخمس قرى، وتُسَمّى بالفارسية بنج ده وأرسل إلى جقر يأمره بإقامة الخطبة بمرو لغياث الدين أو يفارق البلد، فأعاد الجواب يتهدّد ابن جربك ويتوعده، وكتب إليه سرّاً يسأله أن يأخذ له أماناً من غياث الدين ليحضر خدمته، فكتب الى غياث الدين بذلك، فلمّا قرأ كتابه علم أنّ خوارزم شاه ليس له قوّة فلهذا طلب جقر الانحياز إليه، فقوي طمعه في البلاد، وكتب إلى أخيه شهاب الدين يأمره بالخروج إلى خراسان ليتفقا على أخذ بلاد خوارزم شاه محمد.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في جمادى الآخرة وثب الملاحدة الإسماعيلية على نظام الملك مسعود بن علي وزير خوارزم شاه تكش فقتلوه، وكان صالحاً كثير الخير حسن السيرة شافعي المذهب بنى للشافعية بمرو جامعاً مشرفاً على جامع الحنفية، فتعصب شيخ الإسلام، وهو مقدم الحنابلة بها فيهم والرياسة، وجمع الأوباش فأحرقه، فأنفذ خوارزم شاه، فأحضر شيخ الإسلام وجماعة ممن سعى في ذلك،فأغرمهم مالاً كثيراً .وبنى الوزير أيضا مدرسة عظيمة بخوارزم وجامعا، وجعل فيها خزانة كتب، وله آثار حسنة بخراسان باقية، ولما مات خلّف ولداً صغيراً فاستوزره خوارزم شاه رعاية لحق أبيه، فأشير عليه أن يستعفي، فأرسل يقول: إنني صبي، لا أصلح لهذاالمنصب الجليل، فيولي السلطان فيه من يصلح له إلى أن أكبر، فإن كنت أصلح فأنا المملوك، فقال خوارزم شاه، لست اعفيك، وأنا وزيرك فكن مراجعي في الأمور فإنه لا يقف منها شيء فاستحسن الناس هذا، ثم إن الصبي لم تطل أيامه فتوفِّي قبل خوارزم شاه بيسير.

وفي هذه السنة في ربيع الأول توفّي شيخنا أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب

ابن كليب الحراني المقيم ببغداد، وله ست وتسعون سنة وشهران، وكان عالي الإسناد في الحديث، وكان ثقة صحيح السماع.

وفي ربيع الآخر منها توفّي القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني الكاتب لم يكن في زمانه أحسن كتابة منه، ودفن بظاهر مصر بالقرافة، وكان ديّناً كثير الصدقة والعبادة، وله وقوف كثيرة على الصدقة وفك الأسارى، وكان يكثر الحج والمجاورة مع اشتغاله بخدمة السلطان، وكان السلطان صرح الدين يعظمه ويحترمه ويكرمه ويرجع إلى قوله رحمهما الله.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة

ذكر ملك الملك الظاهر صاحب حلب منبج وغيرها من الشام وحصره هو وأخوه الأفضل مدينة دمشق وعودهما عنها

قد ذكرنا قبل ملك العادل ديار مصر وقطعه خطبة الملك المنصور ولد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، وأنه لما فعل ذلك لم يرضه الأمراء المصريون، وخبثت نياتهم في طاعته، فراسلوا أخويه الظاهر بحلب والأفضل بصرخد، وتكرّرت المكاتبات والمراسلات بينهم يدعونهما إلى قصد دمشق وحصرها ليخرج الملك العادل اليهم، فإذا خرج إليهم من مصر أسلموه، وصاروا معهما، فتملكا البلاد وكثر ذلك حتى فشا الخبر واتصل بالملك العادل، وانضاف إلى ذلك أن النيل لم يزد بمصر الزيادة التي تركب الأرض ليزرع الناس، فكثر الغلاء، فضعفت قوّة الجند، وكان فخر الدين جهاركس قد فارق مصر إلى الشام هو وجماعة من المماليك الناصرية لحصار بانياس ليأخذها لنفسه بأمر العادل، وكانت لأمير كبير تركي اسمه بشارة قد اتهمه العادل، فأمر جهاركس بذلك، وكان أمير من أمراء العادل يعرف بعزّ الدين اسامة قد حجّ هذه السنة، فلمّا عاد من الحج، وقارب صرخد نزل الملك الأفضل فلقيه وأكرمه ودعاه إلى نفسه، فأجابه وحلف له وعرفه الأفضل جلية الحال، وكان أسامة من بطانة العادل، وإنما حلف لينكشف له الأمر، فلمّا فارق الأفضل أرسل إلى العادل، وهو بمصر يعرفه الخبر جميعه، فأرسل إلى ولده الذي بدمشق يأمره بحصر الأفضل بصرخد، وكتب إلى إياس جركس وميمون القصري صاحب بلبيس وغيرهما من الناصرية يأمرهم بالاجتماع مع ولده على حصر الأفضل، وسمع الأفضل الخبر، فسار إلى أخيه الظاهر بحلب مستهلّ جمادى الأولى من السنة، ووصل إلى حلب عاشر الشهر.

وكان الظاهر قد أرسل أميراً كبيراً من أمرائه إلى عمّه العادل، فمنعه العادل من الوصول إليه وأمره بأن يكتب رسالته، فلم يفعل وعاد لوقته، فتحرك الظاهر لذلك وجمع

عسكره، وقصد منبج فملكها السادس والعشرين من رجب وسار إلى قلعة نجم وحصرها فتسلمها سلخ رجب، وأما الملك المعظّم عيسى بن العادل المقيم بدمشق، فإنه سار إلى بصرى وأرسل إلى جهاركس ومن معه، وهم على بانياس يحصرونها يدعوهم إليه، فلم يجيبوه إلى ذلك بل غالطوه، فلما طال مقامه على بصرى عاد الى دمشق، وأرسل الأمير أسامة إليهم يدعوهم إلى مساعدته، فاتّفق أنه جرى بينه وبين البكّاء الفارس بعض المماليك الكبار الناصرية منافرة أغلظ له البكاء القول، وتعدى إلى الفعل باليد، وثار العسكر جميعه على أسامة، فاستذم بميمون فأمنه وأعاده إلى دمشق، واجتمعوا كلهم عند الملك الظافر خضر بن صلاح الدين، وأنزلوه من صرخد وأرسلوا إلى الملك الظاهر والأفضل يحثونهما على الوصول إليهم، والملك الظاهر يتربّص ويتعوّق، فوصل من منبج إلى حماة في عشرين يوما، وأقام على حماة يحصرها وبها صاحبها ناصر الدين بن تقي الدين إلى تاسع عشر رمضان، فاصطلحا وحمل له ابن تقي الدين ثلاثين ألف دينار صوريّة، وساروا عنها الى حمص، وسار منها إلى دمشق على طريق بعلبك، فنزلوا عليها عند مسجد القدم، فلما نزلوا على دمشق أتاهم المماليك الناصرية مع الملك الظافر خضر بن صلاح الدين، وكانت القاعدة استقرَّت بين الظاهر وأخيه الأفضل أنهم إذا ملكوا دمشق تكون بيد الأفضل، ويسيرون إلى مصر فإذا ملكوها تسلم الظاهر دمشق، فيبقى الشام جميعه له، وتبقى مصر للأفضل. وسلّم الأفضل صرخد إلى زين الدين قراجة مملوك والده ليحضر في خدمته، وأنزل والدته وأهله منها وسيّرهم إلى حمص فأقاموا عند أسد الدين شيركوه صاحبها، وكان الملك العادل قد سار من مصر إلى الشام، فنزل على مدينة نابلس، وسيَّر جمعاً من العسكر إلى دمشق ليحفظها، فوصلوا قبل وصول الظاهر والأفضل، وحضر فخر الدين جهاركس وغيره من الناصرية، فوصلوا قبل وصول الظاهر والأفضل، وزحفوا إلى دمشق وقاتلوها رابع عشر ذي القعدة، واشتدَّ القتال عليها فالتصق الرجال بالسور، فأدركهم الليل فعادوا وقد قوي الطمع في أخذها ثم زحفوا إليها مرة ثانية وثالثة، فلم يبق إلا ملكها لأن العسكر صعد إلى سطح خان ابن المقدم وهو ملاصق السور فلو لم يدركهم الليل لملكوا البلد، فلما أدركهم الليل وهم عازمون على الزحف بكرة وليس لهم عن البلد مانع حسد الظاهر أخاه الأفضل، فأرسل إليه يقول له تكون دمشق له وبيده ويسير العساكر معه إلى مصر، فقال له الأفضل: قد علمت أن

والدتي وأهلي، وهم أهلك ايضا على الأرض ليس لهم موضع يأوون إليه، فاحسب أن هذا البلد لك تُعيرنا إياه ليسكنها أهلي هذه المدّة إلى أن يملك مصر فلم يجبه الظاهر في ذلك ولجّ، فلما رأى الأفضل ذلك الحال قال للناصرية وكل من جاء إليهم من الجند: إن كنتم جئتم إلي فقد أذنت لكم في العود إلى العادل، وإن كنت جئتم إلى أخي الظاهر فأنتم وهو أخبر، وكان الناس كلهم يريدون الأفضل، فقالوا: ما نريد سواك والعادل أحب إلينا من أخيك، فأذن لهم في العود، فهرب فخر الدين جهاركس وزير الدين قراجة الذي أعطاه الأفضل صرخد، فمنهم من دخل دمشق، ومنهم من عاد إلى أقطاعه، فلما انفسخ الأمر عليهم عادوا إلى تجديد الصلح مع العادل، فترددت الرسل بينهم واستقرَّ الصلح على أن يكون للظاهر: منبج وأفامية وكَفَرْ طاب[١] وقرى معينة من المعرة، ويكون للأفضل: سُمَيْسَاط وسَروج ورأس العين[٢] وحملين، ورحلوا عن دمشق أوّل المحرم سنة ثمان وتسعين، فقصد الأفضل حمص فأقام بها، وسار الظاهر إلى حلب، ووصل العادل إلى دمشق تاسع المحرم، وسار الأفضل إليه من حمص، فاجتمع به بظاهر دمشق، وعاد من عنده إلى حمص، وسار منها ليتسلم سميساط، فتسلمها وتسلم باقي ما استقر له برأس العين وسروج وغيرها.

ذكر ملك غياث الدين وأخيه ما كان لخوارزم شاه بخراسان

قد ذكرنا مسير محمد بن خرميل من الطالقان واستيلاءه على مرورود، وسؤال جقر التركي نائب علاء الدين محمد خوارزم شاه بمرو أن يكون في جملة عسكر غياث الدين، ولما وصل كتاب ابن خرميل إلى غياث الدين في معنى جقر علم أنَّ هذا إنّما دعاه إلى الانتماء إليهم ضعف صاحبه، فأرسل إلى أخيه شهاب الدين يستدعيه إلى خراسان، فسار من غزنة في عساكره وجنوده وعدته وما يحتاج إليه، وكان بهراة الأمير عمر بن محمد المرغني نائباً عن غياث الدين، وكان يكره خروج غياث الدين إلى خراسان، فأحضره غياث الدين واستشاره، فأشار بالكفّ عن قصدها وترك المسير إليها، فأنكر عليه ذلك وأراد إبعاده عنه، ثمَّ تركه ووصل شهاب الدين في عساكره

(١) كفرطاب: بلدة بين المعرة ومدينة حلب في برية معطشة.

(٢) سُمَيساط: مدينة على شاطىء الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات. وسَرُوج: بلدة قريبة من حرّان من ديار مضر. ورأس عين: ويقال رأس العين، مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حرّان ونصيبين ودُنيسر وهي إلى دنيسر أقرب.

وعساكر سجستان وغيرها في جمادى الأولى من هذه السنة، فلما وصلوا إلى ميمنة ـ وهي قرية بين الطالقان وكُرْزُيان[1] ـ وصل إلى شهاب الدين كتاب جقر مستحفظ مرو يطلبه ليسلمها إليه، فاستأذن أخاه غياث الدين فأذن له، فسار إليها، فخرج أهلها مع العسكر الخوارزمي وقاتلوه، فأمر أصحابه بالحملة عليهم والجدّ في قتالهم فحملوا عليهم فأدخلوهم البلد وزحفوا بالفيلة الى ان قاربوا السور، فطلب أهل البلد الأمان فأمنهم وكفَّ الناس عن التعرض إليهم، وخرج جقر إلى شهاب الدين فوعده الجميل، ثم حضر غياث الدين إلى مرو بعد فتحها فأخذ جقر وسيّره إلى هراة مكرماً وسلم مرو إلى هندوخان ابن ملك شاه بن خوارزم شاه تكش، وقد ذكرنا هربه من عمه خوارزم شاه محمد بن تكش إلى غياث الدين، ووصاه بالإحسان إلى أهلها.

ثم سار غياث الدين إلى مدينة سرخس فأخذها صلحاً وسلمها إلى الأمير زنكي بن مسعود، وهو من أولاد عمه وأقطعه معها نساو أبيورد، ثم سار بالعساكر إلى طوس، فأراد الأمير الذي بها أن يمتنع فيها ولا يسلمها، فأغلق باب البلد ثلاثة أيام، فبلغ الخبر ثلاثة أمناء بدينار ركني، فضج أهل البلد عليه فأرسل إلى غياث الدين يطلب الأمان فأمنه فخرج إليه فخلع عليه وسيره إلى هراة ولما ملكها أرسل إلى علي شاه بن خوارزم شاه تكش، وهو نائب أخيه علاء الدين محمد بنيسابور يأمره بمفارقة البلد ويحذره إن أقام سطوة أخيه شهاب الدين ، وكان مع علي شاه عسكر من خوارزم شاه، فاتفقوا على الامتناع من تسليم البلد وحصره وخربوا ما بظاهره من العمارة، وقطعوا الأشجار، وسار غياث الدين إلى نيسابور فوصل إليها أوائل رجب، وتقدّم عسكر أخيه شهاب الدين إلى القتال، فلما رأى غياث الدين ذلك قال لولده محمود: قد سبقنا عسكر غزنة بفتح مرو، وهم يريدون يفتحون نيسابور، فيحصلون بالإسم، فاحمل إلى البلد، ولا ترجع حتى تصل السور؛ فحمل، وحمل معه وجوه الغورية، فلم يردهم أحد عن السور، حتى اصعدوا علم غياث الدين اليه، فلما رأى شهاب الدين علم أخيه على السور، قال لأصحابه: اقصدوا بنا هذه الناحية، واصعدوا السور من ههنا، وأشار إلى مكان فيه، فسقط السور متهدماً، فضج الناس بالتكبير، وذهل الخوارزميون وأهل البلد ودخل الغورية البلد وملكوه عنوة ونهبوه ساعة من نهار، فبلغ الخبر إلى غياث الدين، فأمر

---

(١) كرزيان: في معجم البلدان كُرْزُبان وأهل خراسان يسمونها كُرزوان، بضم الكاف وبعد الراء الساكنة زاي وباء موحدة: بلدة في الجبل قرب الطالقان جبلها متصل بجبل الغور.

بالنداء من نهب مالاً أو آذى أحداً فدمه حلال، فأعاد الناس ما نهبوه عن آخره، ولقد حدثني بعض أصدقائنا من التجار، وكان بنيسابور في هذه الحادثة، نهب من متاعي شيء من جملته سكر، فلمّا سمع العسكر النداء ردوا جميع ما أخذوا مني، وبقي لي بساط وشيء من السكر مع جماعة فطلبته منهم، فقالوا، أما السكر فأكلناه فنسألك ان لا يسمع أحد، وإن أردت ثمنه أعطيناك، فقلت: أنتم في حلّ منه ولم يكن البساط مع أولئك، قال: فمشيت الى باب البلد مع النظارة، فرأيت البساط الذي لي قد ألقي عند باب البلد لم يجسر أحد يأخذه فأخذته، وقلت: هذا لي، فطلبوا مني من يشهد به فأحضرت من شهد لي وأخذته، ثمَّ إن الخوارزميين تحصنوا بالجامع، فأخرجهم أهل البلد فأخذهم الغورية ونهبوا مالهم وأخذ علي شاه بن خوارزم شاه، وأحضر عند غياث الدين راجلاً، فأنكر ذلك على من أحضره وعظم الأمر فيه، وحضرت دابة كانت لعلي شاه، وقال لغياث الدين: أهكذا يفعل بأولاد الملوك، فقال: لا بل هكذا، وأخذ بيده وأقعده معه على السرير وطيَّب نفسه، وسيَّر جماعة الأمراء الخوارزمية إلى هراة تحت الاستظهار، وأحضر غياث الدين ابن عمّه وصهره على ابنة ضياء الدين محمد بن أبي الغوري، وولاه حرب خراسان وخراجها، ولقبه علاء الدين، وجعل معه وجوه الغورية، ورحل إلى هراة، وسلم علي شاه إلى أخيه شهاب الدين وأحسن إلى أهل نيسابور وفرق فيهم مالاً كثيراً.

ثم رحل بعده شهاب الدين إلى ناحية قهستان، فوصل إلى قرية فذكر له أن أهلها إسماعيلية فأمر بقتل المقاتلة ونهب الأموال وسبي الذراري وخرب القرية، فجعلها خاوية على عروشها، ثم سار إلى كناباد، وهي من المدن التي جميع أهلها إسماعيلية، فنزل عليها وحصرها، فأرسل صاحب قهستان إلى غياث الدين يشكو أخاه شهاب الدين ويقول بيننا عهد فما الذي بدا منا حتى تحاصر بلدي؟ واشتد خوف الإسماعيلية الذين بالمدينة من شهاب الدين، فطلبوا الأمان ليخرجوا منه فأمنهم وأخرجهم وملك المدينة وسلمها إلى بعض الغورية فأقام بها الصلوات وشعار الإسلام، ورحل شهاب الدين فنزل على حصن آخر للإسماعيلية، وصل إليه رسول أخيه غياث الدين، فقال الرسول: معي تقدم من السلطان فلا يجري حردان فعلته فقال: لا أرحل قال: إذن أفعل ما أمرني، قال: افعل، فسل سيفه وقطع اطناب سرادق شهاب الدين

وقال ارحل بتقدم السلطان ، فرحل شهاب الدين والعسكر ، وهو كاره إلى بلد الهند ولم يقم بغزنة غضباً لما فعله أخوه .

ذكر قصد نور الدين بلاد العادل والصلح بينهما

في هذه السنة أيضاً تجهّز نور الدين أرسلان صاحب الموصل وجمع عساكره، وسار إلى بلاد الملك العادل بالجزيرة حران والرها، وكان سبب حركته أن الملك العادل لما ملك مصر ـ على ماذكرناه قبل ـ اتّفق نور الدين والملك الظاهر صاحب حلب وصاحب ماردين وغيرهما على أن يكونوا يداً واحدة متفقين على منع العادل عن قصد أحدهم، فلمّا تجدّد حركة الأفضل والظاهر أرسلا إلى نور الدين، ليقصد البلاد الجزرية، فسار عن الموصل في شعبان من هذه السنة، وسار معه ابن عمه قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي صاحب سنجار، ونصيبين وصاحب ماردين، ووصل إلى رأس العين، وكان الزمان قيظاً فكثرت الأمراض في عسكره، وكان بحران ولد للعادل، يلقب بالملك الفائز، ومعه عسكر يحفظ البلاد، فلما وصل نور الدين إلى رأس العين جاءت رسل الفائز ومن معه من أكابر الأمراء يطلبون الصلح ويرغبون فيه، وكان نور الدين قد سمع بأن الصلح بدأ يتم بين الملك العادل والملك الظاهر والأفضل، وانضاف إلى ذلك كثرة الأمراض في عسكره، فأجاب إليه وحلف الملك الفائز ومن عنده من أكابر الأمراء على القاعدة التي استقرّت وحلفوا انهم يحلفون الملك العادل له، فإن امتنع كانوا معه عليه، وحلف هو للملك العادل، وسارت الرسل من عنده ومن عند ولده في طلب اليمين من العادل، فأجاب إلى ذلك وحلف له واستقرّت القاعدة وامنت البلاد، وعاد نور الدين إلى الموصل في ذي القعدة من السنة .

ذكر ملك شهاب الدين نهرواله

لما سار شهاب الدين من خراسان ـ على ما ذكرناه ـ لم يقم بغزنة وقصد بلاد الهند، وأرسل مملوكه قطب الدين أيبك إلى نهرواله، فوصلها سنة ثمان وتسعين، فلقيه عسكر الهنود، فقاتلوه قتالاً شديداً فهزمهم أيبك واستباح معسكرهم ومالهم فيه من الدواب وغيرها، وتقدّم إلى نهرواله فملكها عنوة وهرب ملكها، فجمع وحشد فكثر جمعه وعلم شهاب الدين أنه لا يقدر على حفظها إلا بأن يقيم هو فيها ويخليها من

أهلها، فيتعذر عليه ذلك، فإنّ البلد عظيم هو اعظم بلاد الهند وأكثرهم أهلاً، فصالح صاحبها على ما يؤديه إليه عاجلاً وآجلاً، وأعاد عساكره عنها وسلمها إلى صاحبها.

ذكر ملك ركن الدين ملطية من أخيه وأرزن الروم

في هذه السنة في شهر رمضان ملك ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان مدينة ملطيّة وكانت لأخيه معزّ الدين قيصرشاه، فسار إليه وحصره أياماً وملكها، وسار منها إلى ارزن الروم، وكانت لولد الملك ابن محمد بن صلتق،وهم ببيت قد ملكوا أرزن الروم مدّة طويلة، فلمّا سار اليها وقاربها خرج صاحبها اليه، ثقة به ليقرّر معه الصلح على قاعدة يؤثرها ركن الدين، فقبض عليه واعتقله عنده وأخذ البلد، وكان هذا آخر أهل بيته الذين ملكوا، فتبارك الله الحي القيوم الذي لا يزول ملكه أبداً سرمداً.

ذكر وفاة سقمان صاحب آمد وملك أخيه محمود

في هذه السنة توفّي قطب الدين سقمان بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان صاحب آمد وحصن كيفا سقط من سطح جوسق، كان له بظاهر حصن كيفا، فمات، وكان شديد الكراهة لأخيه هذا، والنفور عنه قد أبعده وأنزله حصن منصور في آخر بلادهم، واتخذ مملوكاً اسمه إياس، فزوجه اخته وأحبه حباً شديداً، وجعله ولي عهده، فلما توفي ملك بعده عدّة أيام، وتهدّد وزيراً كان لقطب الدين وغيره من أمراء الدولة، فأرسلوا إلى أخيه محمود سرّاً يستدعونه، فسار مجدّاً فوصل إلى آمد وقد سبقه اليها إياس مملوك أخيه، فلم يقدم على الامتناع فتسلم محمود البلاد جميعها وملكها وحبس المملوك، فبقي مدّة محبوساً، ثمّ شفع له صاحب بلاد الروم، فأطلق من الحبس، وسار إلى الروم، فصار اميراً من أمراء الدولة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة اشتد الغلاء بالبلاد المصرية لعدم زيادة النيل، وتعذرت الأقوات حتى أكل الناس الميتة، وأكل بعضهم بعضاً، ثم لحقهم عليه وباء وموت كثير أفنى الناس.

وفي شعبان منها تزلزلت الأرض بالموصل وديار الجزيرة كلها والشام ومصر وغيرها، فأثرت في الشام آثاراً قبيحة، وخربت كثيراً من الدور بدمشق وحمص

وحماة، وانخسفت قرية من قرى بصرى، وأثرت في الساحل الشامي أثراً كثيراً، فاستولى الخراب على طرابلس وصور وعكّا ونابلس وغيرها من القلاع، ووصلت الزلزلة إلى بلد الروم، وكانت بالعراق يسيرة لم تهدم دوراً.

وفيها ولد ببغداد طفل له رأسان، وذلك ان جبهته مفروقة بمقدار ما يدخل فيها ميل.

وفي هذه السنة في شهر رمضان توفي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الحنبلي الواعظ ببغداد، وتصانيفه مشهورة وكان كثير الوقيعة في الناس لا سيما في العلماء المخالفين لمذهبه والموافقين له، وكان مولده سنة عشر وخمسمائة.

وفيها أيضاً توفي عيسى بن نصير النميري الشاعر، وكان حسن الشعر وله أدب وفضل، وكان موته ببغداد، وفيها توفّي العماد أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله بن أله (باللام المشددة المضمومة)، وهو العماد الكاتب الأصفهاني كتب لنور الدين محمود بن زنكي، ولصلاح الدين يوسف بن أيوب رضي الله عنهما ـ وكان كاتباً مفلقاً قادراً على القول.

وفيها جمع عبد الله بن حمزة العلوي المتغلب على جبال اليمن جموعاً كثيرة، فيها اثنا عشر ألف فارس، ومن الرجالة ما لا يحصى كثرة، وكان قد انضاف إليه من جند المعز بن إسماعيل بن سيف الإسلام طغدكين بن أيوب صاحب اليمن خوفاً منه، وأيقنوا بملك البلاد واقتسموها وخافهم ابن سيف الإسلام خوفاً عظيماً فاجتمع قواد عسكر ابن حمزة ليلاً ليتفقوا على رأي يكون العمل بمقتضاه، وكانوا اثني عشر قائداً فنزلت عليهم صاعقة أهلكتهم جميعهم، فأتى الخبر ابن سيف الإسلام في باقي الليلة بذلك فسار اليهم مجدا فأوقع بالعسكر المجتمع، فلم يثبتوا له وانهزموا بين يديه، ووضع السيف فيهم، فقتل منهم ستة آلاف قتيل أو اكثر من ذلك، وثبت ملكه واستقر أمره.

وفيها وقع في بني عنزة بأرض الشراة بين الحجاز واليمن وباء عظيم وكانوا يسكنون في عشرين قرية، فوقع الوباء في ثمان عشرة قرية، فلم يبق منهم أحد، وكان الإنسان إذا قرب من تلك القرى يموت ساعة ما يقاربها فتحاماها الناس، وبقيت إبلهم وأغنامهم لا مانع لها، وأما القريتان الأخريان ، فلم يمت فيهما أحد، ولا احسوا بشيء مما كان فيه أولئك .

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة

ذكر ملك خوارزم شاه ما كان أخذه الغورية من بلاده

قد ذكرنا في سنة سبع وتسعين ملك غياث الدين وأخيه شهاب الدين، ما كان لخوارزم شاه محمد بن تكش بخراسان ومرو ونيسابور وغيرها، وعودهما عنها بعد أن أقطعا البلاد، ومسير شهاب الدين إلى الهند. فلما اتصل بخوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش عود العساكر الغورية عن خراسان، ودخول شهاب الدين الهند أرسل إلى غياث الدين يعاتبه ويقول: كنت اعتقد أن تخلف علي بعد أبي، وان تنصرني على الخطا، وتردهم عن بلادي، فحيث لم تفعل فلا أقل من أن لا تؤذيني وتأخذ بلادي، والذي أريده أن تعيد ما أخذته مني إلي، وإلا انتصرت عليك بالخطا وغيرهم من الأتراك إن عجزت عن أخذ بلادي فإنني إنّما شغلني عن منعكم عنها الاشتغال بعزاء والدي وتقرير أمر بلادي، وإلا فما أنا بعاجز عنكم وعن أخذ بلادك خراسان وغيرها، فغالطه غياث الدين في الجواب ليمهد الأيام بالمراسلات، ويخرج أخوه شهاب الدين من الهند بالعساكر، فإن غياث الدين كان عاجزاً باستيلاء النقرس عليه. فلمّا وقف خوارزم شاه على رسالة غياث الدين أرسل إلى علاء الدين الغوري نائب غياث الدين بخراسان يأمره بالرحيل عن نيسابور ويتهدده إن لم يفعل، فكتب علاء الدين إلى غياث الدين بذلك، ويعرفه ميل أهل البلد إلى الخوارزميين، فأعاد غياث الدين جوابه يقوّي قلبه ويعده النصرة والمنع عنه وجمع خوارزم شاه عساكره وسار عن خوارزم نصف ذي الحجة سنة سبع وتسعين وخمسمائة، فلمّا قارب نساوأبيورد هرب هندوخان ابن أخي ملك شاه من مرو إلى غياث الدين بفيروزكوه، وملك خوارزم شاه مدينة مرو، وسار إلى نيسابور، وبها علاء الدين، فحصره وقاتله قتالاً شديداً، وطال مقامه عليها، وراسله غير مرة في تسليم البلد إليه، وهو لا يجيب إلى ذلك انتظاراً للمدد من غياث الدين، فبقي نحو

شهرين، فلما أبطأت عليه النجدة أرسل إلى خوارزم شاه يطلب الأمان لنفسه ولمن معه من الغورية، وأنه لا يتعرض إليهم بحبس ولا غيره من الأذى، فأجابه إلى ذلك وحلف لهم، وخرجوا من البلد وأحسن خوارزم شاه إليهم ووصلهم بمال جليل وهدايا كثيرة، وطلب من علاء الدين أن يسعى في الصلح بينه وبين غياث الدين وأخيه، فأجابه إلى ذلك وسار إلى هراة وفيها إقطاعه ولم يمض إلى غياث الدين تجنياً عليه لتأخر أمداده.

ولما خرج الغوريّة من نيسابور أحسن خوارزم شاه إلى الحسين بن خرميل، وهو من أعيان أمرائهم زيادة على غيره وبالغ في إكرامه، فقيل: إنه من ذلك اليوم استخلفه لنفسه، وأن يكون معه بعد غياث الدين وأخيه شهاب الدين، ثم سار خوارزم شاه إلى سرخس وبها الأمير زنكي، فحضره أربعين يوما وجرى بين الفريقين حروب كثيرة، فضاقت الميرة على أهل البلد لا سيما الحطب، فأرسل زنكي إلى خوارزم شاه يطلب منه أن يتأخر عن باب البلد حتى يخرج هو وأصحابه ويترك البلد له، فراسله خوارزم شاه في الاجتماع به ليحسن إليه وإلى من معه، فلم يجبه إلى ذلك واحتج بقرب نسبه من غياث الدين، فأبعد خوارزم شاه عن باب البلد بعساكره، فخرج زنكي فأخذ من الغلات وغيرها التي في العسكر ما أراد لا سيما من الحطب وعاد إلى البلد، وأخرج منه من كان قد ضاق به الأمر، وكتب إلى خوارزم شاه (العود أحمد) فندم حيث لم ينفعه الندم، ورحل عن البلد وترك عليه جماعة من الأمراء يحصرونه، فلما أبعد خوارزم شاه سار محمد بن جربك من الطالقان ـ وهو من أمراء الغورية ـ وأرسل إلى زنكي أمير سرخس يعرفه أنه يريد يكبس الخوارزميين لئلا ينزعج إذا سمع الغلبة، وسمع الخوارزميون الخبر ففارقوا سرخس، وخرج زنكي ولقي محمد بن جربك، وعسكرا في مرو الروذ، وأخذ أخراجها وما يجاورها، فسيّر اليهم خوارزم شاه عسكراً مع خاله فلقيهم محمد بن جربك وقاتلهم، وحمل بلت في يده على صاحب علم الخوارزمية فضربه فقتله، وألقى علمهم وكسر كوساتهم، فانقطع صوتها عن العسكر ولم يروا أعلامهم فانهزموا وركبهم الغورية قتلاً وأسرا نحو فرسخين، فكانوا ثلاثة آلاف فارس وابن جربك في تسعمائة فارس، وغنم جميع معسكرهم، فلما سمع خوارزم شاه ذلك عاد إلى خوارزم، وأرسل إلى غياث الدين في الصلح، فأجابه عن رسالته مع أمير كبير من الغورية يقال له: الحسين بن محمد المرغني و(مرغن) من قرى الغور فقبض عليه خوارزم شاه.

ذكر حصر خوارزم شاه هراة وعوده عنها

لما أرسل خوارزم شاه إلى غياث الدين في الصلح، وأجابه عن رسالته مع الحسين المرغني مغالطاً، قبض خوارزم شاه على الحسين وسار إلى هراة ليحاصرها، فكتب الحسين إلى أخيه عمر بن محمد المرغني أمير هراة يخبره بذلك، فاستعد للحصار، وكان سبب قصد خوارزم شاه حصار هراة ان رجلين اخوين ممن كان يخدم محمداً سلطان شاه اتصلا بغياث الدين بعد وفاة سلطان شاه، فأكرمهما غياث الدين وأحسن إليهما يقال لأحدهما الأمير الحاجي، فكاتبا خوارزم شاه، وأطمعاه في البلد، وضمنا له تسليمه إليه، فسار لذلك ونازل المدينة وحصرها، فسلَّم الأمير عمر المرغني أمير البلد مفاتح الأبواب إليهما وجعلهما على القتال، ثقة منه بهما وظنا منه أنهما عدوا خوارزم شاه تكش وابنه محمد بعده، فاتّفق أن بعض الخوارزمية أخبر الحسين المرغني عند خوارزم شاه بحال الرجلين، وأنهما هما اللذان يدبران خوارزم شاه ويأمرانه بما يفعل، فلم يصدقه وأتاه بخط الأمير حاجي، فأخذه وأرسله إلى أخيه عمر أمير هراة فأخذهما واعتقلهما وأخذ اصحابهما، ثم إن ألب غازي وهو ابن اخت غياث الدين جاء في عسكر من الغورية، فنزل على خمسة فراسخ من هراة، فكان يمنع الميرة عن عسكر خوارزم شاه، ثمَّ إن خوارزم شاه سيّر عسكراً إلى أعمال الطالقان للغارة عليها، فلقيهم الحسن بن جربك فقاتلهم فظفر بهم، فلم يفلت منهم أحد. وسار غياث الدين عن فيروزكوه إلى هراة في عسكره، فنزل برباط رزين بالقرب من هراة، ولم يقدم على خوارزم شاه لقلّة عسكره لأن أكثر عساكره كانت مع أخيه بالهند وغزنة، فأقام خوارزم شاه على هراة أربعين يوما وعزم على الرحيل، لأنه بلغه انهزام أصحابه بالطالقان، وقرب غياث الدين وكذلك أيضا قرب ألب غازي، وسمع أيضا أن شهاب الدين قد خرج من الهند إلى غزنة، وكان وصوله اليها في رجب من هذه السنة، فخاف أن يصل بعساكره فلا يمكنه المقام على البلد، فأرسل إلى أمير البلد عمر المرغني فصالحه على مال حمله إليه وارتحل عن البلد، وأما شهاب الدين فإنه لمّا وصل إلى غزنة بلغه الخبر بما فعله خوارزم شاه بخراسان وملكه لها، فسار إلى خراسان فوصل إلى بلخ، ومنها إلى باميان ثمّ إلى مرو عازماً على حرب خوارزم شاه، وكان نازلاً هناك، فالتقت أوائل عسكريهما، واقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل من الفريقين خلق كثير، ثمَّ إن خوارزم شاه ارتحل عن مكانه شبه المنهزم، وقطع القناطر، وقتل الأمير سنجر صاحب نيسابور لأنه

اتهمه بالمخامرة عليه، وتوجه شهاب الدين إلى طوس فأقام بها تلك الشتوة على عزم المصير إلى خوارزم ليحصرها، فأتاه الخبر بوفاة أخيه غياث الدين، فقصد هراة وترك ذلك العزم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة درس مجد الدين أبو علي يحيى بن الربيع الفقيه الشافعي بالنظامية ببغداد في ربيع الأول.

وفيها توفيت بنفشه جارية الخليفة المستنصر بأمر الله، وكان كثير الميل إليها والمحبّة لها، وكانت كثيرة المعروف والإحسان والصدقة. وفيها ايضا توفي الخطيب عبد الملك بن زيد الدولعي خطيب دمشق، وكان فقيهاً شافعياً، والدولعية قرية من أعمال الموصل.

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة

ذكر حصر العادل ماردين وصلحه مع صاحبها

في هذه السنة في المحرم سير الملك العادل ـ أبو بكر بن أيوب، صاحب دمشق ومصر ـ عسكراً مع ولده الملك الأشرف موسى إلى ماردين فحصروها وشحنوا على أعمالها، وانضاف إليه عسكر الموصل وسنجار وغيرهما، ونزلوا بخرزم تحت ماردين، ونزل عسكر من قلعة البارعية، وهي لصاحب ماردين يقطعون الميرة عن العسكر العادليّ، فسار إليهم طائفة من العسكر العادلي فاقتتلوا، فانهزم عسكر البارعية، وثار التركمان وقطعوا الطريق في تلك الناحية، وأكثروا الفساد، فتعذر سلوك الطريق إلا لجماعة من أرباب السلاح، فسار طائفة من العسكر العادلي إلى رأس العين لإصلاح الطرق وكف عادية الفساد، وأقام ولد العادل ولم يحصل له غرض، فدخل الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف صاحب حلب في الصلح بينهم، وأرسل إلى عمّه العادل في ذلك، فأجاب إليه على قاعدة أن يحمل له صاحب ماردين مائة وخمسين ألف دينار، فجاء صرف الدينار أحد عشر قيراطاً من أميري، ويخطب له ببلاده، ويضرب اسمه على السكة، ويكون عسكره في خدمته أي وقت طلبه، وأخذ الظاهري عشرين ألف دينار من النقد المذكور وقرية القرادي من أعمال شيختان، فرحل ولد العادل عن ماردين.

ذكر وفاة غياث الدين ملك الغور وشيء من سيرته

في هذه السنة في جمادى الأولى، توفّي غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام الغوري صاحب غزنة وبعض خراسان وغيرها، وأخفيت وفاته، وكان أخوه شهاب الدين بطوس عازماً على قصد خوارزم شاه، فأتاه الخبر بوفاة أخيه، فسار إلى هراة، فلما وصل إليها جلس للعزاء بأخيه في رجب، وأظهرت وفاته حينئذ، وخلّف غياث الدين من الولد

ابنا اسمه محمود لقب بعد موت أبيه غياث الدين، وسنورد من أخباره كثيراً. ولمّا سار شهاب الدين من طوس استخلف بمرو الأمير محمد بن جربك، فسار إليه جماعة من الأمراء الخوارزمية، فخرج إليهم محمّد ليلاً وبيتهم، فلم ينج منهم إلا القليل، وأنفذ الأسرى، والرؤوس إلى هراة، فأمر شهاب الدين بالاستعداد لقصد خوارزم على طريق الرمل، وجهَّز خوارزم شاه جيشاً وسيّرهم مع برفور التركي الى قتال محمد بن جربك، فسمع بهم فخرج إليهم ولقيهم على عشرة فراسخ من مرو، فاقتتلوا قتالاً شديداً قتل بين الفريقين خلق كثير، وانهزم الغورية، ودخل محمد بن جربك مرو في عشرة فرسان، وجاء الخوارزميون فحصروه خمسة عشر يوما فضعف عن الحفظ، فأرسل في طلب الأمان، فحلفوا له إن خرج إليهم على حكمهم أنهم لا يقتلونه، فخرج فقتلوه وأخذوا كل ما معـه، وسمع شهاب الدين الخبر، فعظم عليه وترددت الرسل بينه وبين خوارزم شاه، فلم يستقر الصلح، وأراد العود إلـى غزنة، فاستعمل على هراة ابن أخيه ألب غازي، وفلك الملك علاء الدين محمد بن أبي علي الغوري على مدينة فيروزكوه، وجعل إليه حرب خراسان، وأمر كل ما يتعلق بالمملكة، وأتاه محمد ابن أخيه غياث الدين، فولاه مدينة بست واسفرار وتلك الناحية، وجعله بمعزل من الملك جميعه، ولم يحسن الخلافة عليه بعد أبيه ولا على غيره من أهله، فمن جملة فعله أن غياث الدين كانت له زوجة كانت مغنيّة فهويها وتزوجها، فلما مات غياث الدين قبض عليها وضربها ضرباً مبرحاً، وضـرب ولدهـا غياث الـدين وزوج أختها، وأخـذ أموالهم وأمـلاكهم وسيّرهم إلى بلد الهند، فكانوا في أقبح صورة، وكانت قد بنت مدرسة ودفنت فيها أباها وأمها وأخاها، فهدمها ونبش قبور الموتى ورمى بعظامهم منها، وأما سيرة غياث الدين وأخلاقه، فإنه كان مظفراً منصوراً في حروبه لم تهزم له راية قط، وكان قليل المباشرة للحروب، وإنما كان له دهاء ومكر، وكان جواداً حسن الاعتقاد كثير الصدقات والوقوف بخراسان، بنى المساجد والمدارس بخراسان لأصحاب الشافعي، وبنى الخانكاهات في الطرق، وأسقط المكوس، ولم يتعرض إلى مال أحد من الناس، ومن مات ببلده يسلم ماله إلى أهل بلده من التجار، فإن لم يجد أحداً يسلّمه إلى القاضي ويختم عليه إلى أن يصل من يأخذه بمقتضى الشرع، وكـان إذا وصل إلى بلدٍ عمَّ إحسـانه أهله والفقهاء وأهل الفضل يخلع عليهم ويفرض لهم الأعطيات كلّ سنة من خزانته، ويفرق الأموال في الفقراء، وكان يراعي كلّ من وصل إلى حضـرته من العلويين والشعـراء

وغيرهم، وكان فيه فضل غزير وأدب مع حسن خط وبلاغة، وكان رحمه الله ينسخ المصاحف بخطِّه ويوقفها الى المدارس التي بناها، ولم يظهر منه تعصُّب على مذهب، ويقول: التعصب في المذاهب من الملك قبيح إلا أنه كان شافعي المذهب. فهو يميل إلى الشافعية من غير أن يطمعهم في غيرهم ولا أعطاهم ما ليس لهم.

ذكر أخذ الظاهر قلعة نجم من أخيه الأفضل

في هذه السنة أخذ الظاهر غازي قلعة نجم من أخيه الأفضل، وكانت في جملة ما أخذ من العادل لمّا صالحه سنة سبع وتسعين، فلما كان هذه السنة أخذ العادل من الأفضل سروج وحملين ورأس العين، وبقي بيده سميساط وقلعة نجم، فأرسل الظاهر اليه يطلب منه قلعة نجم، وضمن له أنه يشفع إلى عمّه العادل في إعادة ما أخذ منه فلم يعطه، فتهدده بأن يكون ألباً عليه ولم تزل الرسل تتردَّد حتى سلمها إليه في شعبان، وطلب منه أن يعوضه قرى أو مالاً فلم يفعل، وكان هذا من أقبح ما سمع عن ملك يزاحم أخاه في مثل قلعة نجم مع خستها وحقارتها وكثرة بلاده هو وعدمها لأخيه، وأما العادل فإنه لما أخذ سروج ورأس العين من الأفضل أرسل والدته إليه لتسأل في ردها، فلم يشفعها وردها خائبة، ولقد عوقب البيت الصلاحي بما فعله أبوهم مع البيت الأتابكي، فإنه لما قصد حصار الموصل سنة ثمانين وخمسمائة أرسل صاحب الموصل والدته وابنه عمّ نور الدين إليه يسألانه أن يعود، فلم يشفعهما فجرى لأولاده هذا وردّت زوجته خائبة كما فعل، ولما رأى الأفضل عمّه وأخاه قد أخذا ما كان بيده أرسل إلى ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان صاحب ملطية وقونية وما بينهما من البلاد يبذل له الطاعة، وأن يكون في خدمته، ويخطب له ببلده، ويضرب السكة باسمه، فأجابه ركن الدين إلى ذلك، وأرسل له خلعة فلبسها الأفضل، وخطب له بسميساط في سنة ستمائة وصار في جملته.

ذكر ملك الكرج مدينة دوين

في هذه السنة استولى الكرج على مدينة دوين من أذربيجان ونهبوها واستباحوها وأكثروا في أهلها، وكانت هي وجميع بلاد أذربيجان للأمير أبي بكر بن البهلوان، وكان على عادته مشغولاً بالشرب ليلاً ونهاراً، لا يفيق ولا يصحو ولا ينظر في أمر مملكته

ورعيته وجنده قد ألقى الجميع إعن قلبه، وسلك طريق من ليس له علاقة، وكان أهل تلك البلاد قد أكثرت الاستغاثة اليه وإعلامه بقصد الكرج بلادهم بالغارة مرة بعد أخرى، فكأنهم ينادون صخرة صماء، فلما حصر الكرج هذه السنة مدينة دوين سار منهم جماعة يستغيثون، فلم يغثهم وخوّفه جماعة من أمرائه عاقبة إهماله وتوانيه وإصراره ما هو فيه فلم يصغ إليهم فلما طال الأمر على أهلها ضعفوا وعجزوا وأخذهم الكرج عنوةً بالسيف، وفعلوا ـ ما ذكرنا ـ ثم إنّ الكرج بعد أن استقرَّ أمرهم بها أحسنوا إلى من بقي من أهلها، فالله تعالى ينظر إلى المسلمين ويسهل لثغورهم من يحفظها ويحميها، فإنها مستباحة لا سيما هذه الناحية، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فقد بلغنا من فعل الكرج بأهل دوين من القتل والسبي والأمر ما تقشعر منه الجلود.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة أحضر الملك العادل محمداً ولد العزيز صاحب مصر إلى الرها، وذلك انه لمّا قطع خطبته من مصر سنة ست وتسعين ـ كما ذكرناه ـ خاف شيعة أبيه أن يجتمعوا عليه ويصير له معهم فتنة، فأخرجه سنة ثمان وتسعين إلى دمشق، ثم نقله هذه السنة إلى الرها، فأقام بها ومعه جميع إخوته وأخواته ووالدته ومن يخصه.

وفيها في رجب توفّي الشيخ وجيه الدين محمد بن محمود المروروذي الفقيه الشافعي وهذا الذي كان السبب في أن صار غياث الدين شافعياً. وفي ربيع الأول منها توفّي أبو الفتح عبيد الله بن أبي المعمر الفقيه الشافعي المعروف بالمستملي ببغداد وله حظ حسن. وفي ربيع الآخر توفيت زمرد خاتون أم الخليفة الناصر لدين الله، وأخرجت جنازتها ظاهرة، وصلى الخلق الكثير عليها، ودفنت في التربة التي بنتها لنفسها، وكانت كثيرة المعروف.

ثم دخلت سنة ستمائة

ذكر حصار خوارزم شاه هراة ثانية

في هذه السنة أول رجب وصل خوارزم شاه محمد إلى مدينة هراة، فحصرها وبها ألب غازي ابن اخت شهاب الدين الغوري ملك غزنة بعد مراسلات جرت بينه وبين شهاب الدين في الصلح، فلم يتم، وكان شهاب الدين قد سار عن غزنة إلى لهاوور عازماً على غزو الهند، فأقام خوارزم شاه على حصار هراة إلى سلخ شعبان، وكان القتال دائماً والقتل من الفريقين كثير وممن قتل رئيس خراسان، وكان كبير القدر يقيم بمشهد طوس، وكان الحسين بن خرميل بكرزيان[1] وهي أقطاعه، فأرسل إلى خوارزم شاه يقول له: ارسل إليّ عسكرا لنسلم إليهم الفيلة وخزانة شهاب الدين فأرسل إليه ألف فارس من أعيان عسكره إلى كرزيان، فخرج عليه هو والحسين بن محمد الميرغني، فقتلوهم إلا القليل، فبلغ الخبر إلى خوارزم شاه، فسقط ما في يديه وندم على إنفاذ العسكر، وأرسل إلى ألب غازي يطلب منه أن يخرج إليه من البلد ويخدمه خدمة سلطانية ليرحل عنه، فلم يجبه إلى ذلك، فاتّفق أن ألب غازي مرض واشتد مرضه، فخاف أن يشتغل بمرضه، فيملك خوارزم شاه البلد، فأجاب إلى ما طلب منه واستحلفه على الصلح، وأهدى له هدية جليلة، وخرج من البلد ليخدمه، فسقط إلى الأرض ميتاً ولم يشعر أحد بذلك، وارتحل خوارزم شاه عن البلد، وأحرق المجانيق، وسار إلى سرخس فأقام بها.

ذكر عود شهاب الدين من الهند وحصر خوارزم وانهزامه من الخطا

في هذه السنة في رمضان عاد شهاب الدين الغوري الى خراسان من قصد الهند،

---

(١) كرزيان: في معجم البلدان كرزبان، انظر الحاشية رقم ٣ صفحة ٢٥٣ من هذا الجزء.

وسبب ذلك أنه بلغه حصر خوارزم شاه هراة، وموت ألب غازي نائبه بها، فعاد حنقاً على خوارزم شاه، فلما بلغ ميمند عدل إلى طريق أخرى قاصداً إلى خوارزم، فأرسل خوارزم شاه يقول له: ارجع إلي لأحاربك، وإلا سرت إلى هراة ومنها إلى غزنة، وكان خوارزم شاه قد سار من سرخس إلى مرو فأقام بظاهرها، فأعاد إليه شهاب الدين جوابه لعلك تنهزم كما فعلت تلك الدفعة، لكن خوارزم تجمعنا ففرق خوارزم شاه عساكره، وأحرق ما جمعه من العلف ورحل يسابق شهاب الدين إلى خوارزم، فسبقه إليها فقطع الطريق وأجرى المياه فيها، فتعذر على شهاب الدين سلوكها، وأقام أربعين يوما يصلحها حتى أمكنه الوصول إلى خوارزم، والتقى العسكران بسوقرا ـ ومعناه الماء الأسود ـ فجرى بينهم قتال شديد كثرت القتلى فيه بين الفريقين، وممن قتل من الغورية الحسين المرغني وغيره، وأسر جماعة من الخوارزمية، فأمر شهاب الدين بقتلهم فقتلوا.

وأرسل خوارزم شاه إلى الأتراك الخطا يستنجدهم، وهم حينئذ أصحاب ما وراء النهر، فاستعدوا وساروا إلى بلاد الغورية، فلما بلغ شهاب الدين ذلك عاد عن خوارزم، فلقي أوائلهم في صحراء اندخوي أول صفر سنة إحدى وستمائة، فقتل فيهم وأسر كثيراً، فلما كان اليوم الثاني دهمه من الخطا ما لا طاقة له بهم. فانهزم المسلمون هزيمة قبيحة، وبقي شهاب الدين في نفر يسير، وقتل بيده أربعة أفيال له لأنها أعيت وأخذ الكفار فيلين، ودخل شهاب الدين اندخوي فيمن معه وحصره الكفار، ثم صالحوه على أن يعطيهم فيلاً آخر ففعل، وخلص ووقع الخبر في جميع بلاده بأنه قد عدم وكثرت الأراجيف بذلك، ثم وصل إلى الطالقان في سبعة نفر، وقد قتل أكثر عسكره، ونهبت خزائنه جميعها فلم يبق منها شيء فأخرج له الحسين بن خرميل صاحب الطالقان خياما وجميع ما يحتاج إليه، وسار إلى غزنة وأخذ معه الحسين بن خرميل لأنه قيل له عنه: إنه شديد الخوف لانهزامه، وانه قال إذا سار السلطان هربت إلى خوارزم شاه، فأخذه معه وجعله أمير حاجب، ولما شاع الخبر بقتل شهاب الدين جمع تاج الدين الدز ـ وهو مملوك اشتراه شهاب الدين ـ أصحابه، وقصد قلعة غزنة ليصعد اليها، فمنعه مستحفظها، فعاد إلى داره، فأقام بها وأفسد الخلج وسائر المفسدين في البلاد، وقطعوا الطرق وقتلوا كثيراً، فلما عاد شهاب الدين إلى غزنة بلغه ما فعله الدر، فأراد قتله فشفع فيه سائر المماليك، فأطلقه، ثم اعتذر، وسار شهاب الدين في البلاد،

فقتل من المفسدين من تلك الأمم نفراً كثيراً، وكان له ايضاً مملوك آخر اسمه أيبك بال تر، فسلم من المعركة، ولحق بالهند، ودخل المولتان، وقتل نائب السلطان بها، وملك البلد وأخذ الأموال السلطانية، وأساء السيرة في الرعية وأخذ أموالهم، وقال: قتل السلطان وأنا السلطان، وكان يحمله على ذلك ويحسنه له إنسان اسمه عمر بن يزان، وكان زنديقاً ففعل ما أمره وجمع المفسدين وأخذ الأموال، فأخاف الطريق، فبلغ خبره إلى شهاب الدين ، فسار إلى الهند وأرسل إليه عسكراً، فأخذوه ومعه عمر بن يزان، فقتلهما أقبح قتلة وقتل من وافقهما في جمادى الآخرة من سنة إحدى وستمائة، ولما رآهم قتلى قرأ ﴿إنّما جزاءُ الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا﴾[1] الآية، وأمر شهاب الدين في جميع بلاده بالتجهّز لقتال الخطا وغزوهم والأخذ بثارهم، وقيل: كان سبب انهزامه أنه لمّا عاد إلى الخطا من خوارزم فرق عسكره في المفازة التي في طريقه لقلة الماء وكان الخطا قد نزلوا على طرف المفازة، فكلما خرج من أصحابه طائفة فتكوا فيهم بالقتل والأسر، ومن سلم من عسكره انهزم نحو البلاد، ولم يرجع إليه أحد يعلم الحال، وجاء شهاب الدين في ساقة العسكر في عشرين ألف فارس، ولم يعلم الحال، فلمّا خرج من البرية لقيه الخطا مستريحين، وهو ومن معه قد تعبوا وأعيوا، وكان الخطا اضعاف أصحابه، فقاتلهم عامة نهاره وحمى نفسه منهم وحصروه في اندخوي، فجرى بينهم في عدة أيام ربعة عشر مصافاً منها مصاف واحد كان من العصر إلى بكرة الغد، ثم إنه بعد ذلك سيّر طائفة من عسكره ليلاً سرّاً وأمرهم أن يرجعوا إليه بكرة كأنهم قد أتوه مدداً من بلاده، فلما فعلوا ذلك خافه الخطا وقال لهم صاحب سمرقند وكان مسلما، وهو في طاعة الخطا، وقد خاف على الإسلام والمسلمين ان هم ظفروا بشهاب الدين، فقال لهم: إن هذا الرجل لا نجد قط أضعف منه لما خرج من المفازة، ومع ضعفه وتعبه وقلة من معه لم نظفر به والأمداد أتته وكأنكم بعساكره وقد أقبلت من كل طريق، وحينئذ نطلب الخلاص منه فلا نقدر عليه، والرأي لنا الصلح معه، فأجابوا إلى ذلك، فأرسلوا إليه في الصلح، وكان صاحب سمرقند قد أرسل إليه وعرّفه الحال سراً، وأمره بإظهار الامتناع من الصلح أولا والاجابة اليه اخيراً، فلمّا أتته الرسل امتنع واظهر القوة بانتظار الأمداد، وطال الكلام، فاصطلحوا على أن الخطا لا يعبرون النهر إلى بلاده، ولا يعبر إلى

---

(١) سورة المائدة آية ٣٣

بلادهم ورجعوا عنه، وخلص هو وعاد إلى بلاده والباقي نحو ما تقدم.

ذكر قتل طائفة من الاسماعيلية بخراسان

في هذه السنة وصل رسول الى شهاب الدين الغوري من عند مقدّم الاسماعيلية بخراسان برسالة أنكرها، فأمر علاء الدين محمد بن أبي علي متولّي بلاد الغورية بالمسير إليهم، ومحاصرة بلادهم، فسار في عساكر كثيرة إلى قهستان، وسمع به صاحب زوزن، فقصده وسار معه وفارق خدمة خوارزم شاه، ونزل علاء الدين على مدينة قاين، ـ وهي للاسماعيلية ـ وحصرها وضيّق على أهلها، ووصل خبر قتل شهاب الدين على ما نذكره، فصالح أهلها على ستين ألف دينار ركنية، ورحل عنهم، وقصد حصن كاخك فأخذوه، وقتل المقاتلة وسبى الذرية ورحل إلى هراة ومنها إلى فيروزكوه.

ذكر ملك القسطنطينية من الروم

في هذه السنة في شعبان ملك الفرنج مدينة القسطنطينية من الروم، وأزالوا ملك الروم عنها، وكان سبب ذلك أن ملك الروم بها تزوّج أخت ملك إفرنسيس، وهو من أكبر ملوك الفرنج، فرزق منها ولداً ذكراً، ثم وثب على الملك أخ له، فقبض عليه، وملك البلد منه وسمل عينيه وسجنه، فهرب ولده ومضى إلى خاله مستنصراً به على عمّه فاتفق ذلك، وقد اجتمع كثير من الفرنج ليخرجوا إلى بلاد الشام، لاستنقاذ البيت المقدس، فأخذوا ولد الملك معهم وجعلوا طريقهم على القسطنطينية قصداً لإصلاح الحال بينه وبين عمه، ولم يكن له طمع في سوى ذلك فلما وصلوا خرج عمه في عسكر الروم محارباً لهم، فوقع القتال بينهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وخمسمائة فانهزمت الروم، ودخلوا البلد فدخله الفرنج معهم فهرب ملك الروم إلى أطراف البلاد، وقيل إن ملك الروم لم يقاتل الفرنج بظاهر البلد، وإنما حصروه فيها، وكان بالقسطنطينية من الروم من يريد الصبي، فألقوا النار في البلد، فاشتغل الناس بذلك، ففتحوا باباً من أبواب المدينة، فدخلها الفرنج، وخرج ملكها هارباً، وجعل الفرنج الملك في ذلك الصبي، وليس له من الحكم شيء وأخرجوا أباه من السجن إنما الفرنج هم الحكام في البلد، فثقلوا الوطأة على أهله، وطلبوا منهم أموالاً عجزوا عنها، وأخذوا أموال البيع وما فيها من ذهب ونقرة وغير ذلك حتى ما على الصلبان، وهو على صورة المسيح عليه السلام، والحواريين، وما على الأناجيل من

ذلك أيضاً، فعظم ذلك على الروم وحملوا منه خطباً عظيماً، فعمدوا إلى ذلك الصبي الملك فقتلوه، وأخرجوا الفرنج من البلد وأغلقوا الأبواب واستحضروا الملك، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ستمائة فأقام الفرنج بظاهره محاصـرين للروم وقاتلوهم ولازموا قتالهم ليلاً ونهاراً، وكان الروم قد ضعفوا ضعفاً كثيراً، فأرسلوا إلى السلطان ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان صاحب قونية وغيرها من البلاد يستنجدونه، فلم يجد إلى ذلك سبيلاً، وكان بالمدينة كثير من الفرنج مقيمين يقاربون ثلاثين ألفاً ولعظم البلد لا يظهر أمرهم فتواضعوا هم والفرنج الذين بظاهر البلد ووثبوا فيه وألقوا النار مرة ثانية فاحترق نحو ربع البلد، وفتحوا الأبواب فدخلوها، ووضعوا السيف ثلاثة أيام، وفتكوا بالروم قتلاً ونهباً، فأصبح الروم كلهم ما بين قتيل أو فقير لا يملك شيئاً، ودخل جماعة من أعيان الروم الكنيسة العظمى التي تدعى سوفيا، فجاء الفرنج إليها، فخرج إليهم جماعة من القسيسين والأساقفة والرهبان بأيديهم الإنجيل والصليب يتوسلون بها إلى الفرنج ليبقوا عليهم فلم يلتفتوا إليهم وقتلوهم أجمعين ونهبوا الكنيسة، وكانوا ثلاثة ملوك، دوقس البنـادقة، وهـو صاحب المـراكب البحريـة، وفي مـراكبـه ركبـوا إلى القسطنطينية، وهو شيخ أعمى إذا ركب تقاد فرسه، والآخر يقال له المركيس، وهو مقدم الإفرنسيس، والآخر يقال له كند أفلند، وهو أكثرهم عدداً، فلما استولى على القسطنطينية اقترعوا على الملك فخرجت القرعة على كند أفلند فأعادوا القرعة ثانية وثالثة فخرجت عليه فملكوه والله يؤتي ملكه من يشاء وينزعه ممن يشـاء، فلما خرجت القرعة عليه ملكوه عليها وعلى ما يجاورها، وتكون لدوقس البنادقة الجزائر البحرية مثل جـزيرة إقريطش وجزيرة رودس وغيرهما، ويكون لمركيس الإفرنسيس البلاد التي هي شرقي الخليج مثل أزنيق ولاذيق، فلم يحصل لأحد منهم شيء غير الذي أخذ القسطنطينية، وأما الباقي فلم يسلم من به من الروم، وأما البلاد التي كانت لملك القسطنطينية شرقي الخليج المجاورة لبلاد ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان، ومن جملتها أزنيق ولاذيق، فإنها تغلب عليها بطريق الروم اسمه لشكري، وهي بيده إلى أن توفي.

ذكر انهزام نور الدين صاحب الموصل من العساكر العادلية

في هذه السنة في العشرين من شوال انهزم نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل من العساكر العادلية، وسبب ذلك أن نور الدين كان بينه وبين عمه قطب الدين محمد بن

زنكي صاحب سنجار وحشة مستحكمة أولاً، فاتفقا وسار معه إلى ميافارقين سنة خمس وتسعين وقد ذكرناه، فلما كان الآن أرسل الملك العادل أبو بكر بن أيوب صاحب مصر ودمشق وبلاد الجزيرة إلى قطب الدين واستماله، فمال إليه وخطب له، فلما سمع نور الدين ذلك سار إلى مدينة نصيبين سلخ شعبان، وهي لقطب الدين، فحصرها وملك المدينة، وبقيت القلعة فحصرها عدة أيام، فبينما هو يحاصرها، وقد أشرف على أن يتسلمها أتاه الخبر أن مظفر الدين بوكبري زين الدين على صاحب إربل قد قصد أعمال الموصل، فنهب نينوى وأحرق غلاتها، فلما بلغه ذلك من نائبه المرتب بالموصل يحفظها سار عن نصيبين إلى الموصل على عزم العبور إلى بلد إربل ونهبه جزاء بما فعل صاحبها ببلده، فوصل إلى مدينة بلد[1]، وعاد مظفر الدين إلى بلده، وتحقق نور الدين أن الذي قيل له وقع فيه زيادة، فسار إلى تل أعفر من بلد، وهب لصاحب سنجار وحصرها وأخذها ورتب أمورها وأقام عليها سبعة عشر يوماً، وكان الملك الأشرف موسى بن الملك العادل بن أيوب قد سار من مدينة حران إلى رأس عين نجدة لقطب الدين صاحب سنجار ونصيبين، وقد اتفق هو ومظفر الدين صاحب إربل، وصاحب الحصن وآمد، وصاحب جزيرة ابن عمر وغيرهم على ذلك وعلى منع نور الدين من أخذ شيء من بلاده، وكلهم خائفون منه ولم يمكنهم الاجتماع، وهو على نصيبين، فلما فارقها نور الدين سار الأشرف إليها، وأتاه أخوه نجم الدين صاحب ميافارقين وصاحب الحصن، وصاحب الجزيرة، وصاحب دارا، وساروا عن نصيبين نحو بلد البقعا قريباً من بوشري، وسار نور الدين من تل أَعْفَرَ[2] إلى كفر زمار[3]، وعزم على المطاولة ليتفرقوا، فأتاه كتاب من بعض مماليكه يسمى جرديك، وقد أرسله يتجسس أخبارهم، فيقللهم في عينه ويطمعه فيهم، ويقول إن أذنت لي لقيتهم بمفردي، فسار حينئذ نور الدين إلى بوشري فوصل إليها من الغد الظهر وقد تعبت دوابه وأصحابه، ولقوا شدة من الحر فنزل بالقرب منهم أقل من ساعة، وأتاه الخبر أن عساكر الخصم قد ركبوا، فركب هو وأصحابه، وساروا نحوهم، فلم يروا لهم أثراً، فعاد إلى خيامه ونزل هو وعساكره،

---

(١) بلد : مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل.

(٢) تل أعفر : اسم قلعة ورمض بين سنجار والموصل في وسط وادٍ فيه نهر جارٍ.

(٣) كفرْ زمار : قرية من قرى الموصل.

وتفرق كثير منهم في القرى لتحصيل العلوفات، وما يحتاجون إليه، فجاءه من أخبره بحركة الخصم وقصده، فركب نور الدين وعسكره، وتقدموا إليهم وبينهم نحو فرسخين، فوصلوا وقد زاد تعبهم والخصم مستريح، فالتقوا واقتتلوا، فلم يطل الحرب بينهم حتى انهزم عسكر نور الدين وانهزم هو أيضاً، وطلب الموصل فوصل إليها في أربعة أنفس وتلاحق الناس، وأتى الأشرف ومن معه فنزلوا في كفر زمار ونهبوا البلاد نهباً قبيحاً، وأهلكوا ما لم يصلح لهم لا سيما مدينة بلد، فإنهم أفحشوا في نهبها، ومن أعجب ما سمعنا أن امرأة كانت تطبخ، فرأت النهب، فألقت سوارين كانتا في يديها في النار، وهربت، فجاء بعض الجند ونهب ما في البيت، فرأى فيه بيضاً فأخذه وجعله في النار ليأكله، فحرك، فرأى السوارين فيها فأخذهما وطال مقامهم والرسل تتردد في الصلح، فوقف الأمر على إعادة تل أعفر، ويكون الصلح على القاعدة الأولى، وتوقف نور الدين في إعادة تل أعفر، فلما طال الأمر سلمها إليهم، واصطلحوا أوائل سنة إحدى وستمائة، وتفرقت العساكر من البلاد.

ذكر خروج الفرنج بالشام إلى بلاد الإسلام والصلح معهم

في هذه السنة خرج كثير من الفرنج في البحر إلى الشام، وسهل الأمر عليهم بذلك لملكهم قسطنطينية، وأرسوا بعكا، وعزموا على قصد البيت المقدس ـ حرسه الله ـ واستنقاذه من المسلمين، فلما استراحوا بعكا ساروا فنهبوا كثيراً من بلاد الإسلام بنواحي الأردن وسبوا وفتكوا في المسلمين، وكان الملك العادل بدمشق، فأرسل في جمع العساكر من بلاد الشام ومصر، وسار فنزل عند الطور بالقرب من عكا لمنع الفرنج من قصد بلاد الإسلام، ونزل الفرنج بمرج عكا واغاروا على كفر كنا، فأخذوا كل من بها وأموالهم والأمراء يحثون العادل على قصد بلادهم ونهبها، فلم يفعل، فبقوا كذلك إلى أن انقضت السنة، وذلك سنة إحدى وستمائة، فاصطلح هو والفرنج على دمشق وأعمالها وما بيد العادل من الشام، ونزل لهم عن كثير من المناصفات في الرملة وغيرها، وأعطاهم ناصرة وغيرها، وسار نحو الديار المصرية، فقصد الفرنج مدينة حماة فلقيهم صاحبها ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فقاتلهم، وكان في قلة فهزموه إلى البلد، فخرج العامة إلى قتالهم، فقتل الفرنج منهم جماعة وعاد الفرنج.

ذكر قتل كوكجة ببلاد الجبل وولاية أيتغمش

قد ذكرنا قبل تغلب كوكجة مملوك البهلوان على الري وهمذان وبلد الجبل، وبقي الآن، وكان قد اصطنع مملوكاً آخر كان للبهلوان اسمه أيتغمش، وقدمه وأحسن إليه ووثق به، فجمع أيتغمش الجموع من المماليك وغيرهم، ثم قصد كوكجة فتصافا واقتتل الفريقان، فقتل كوكجة في الحرب واستولى أيتغمش على البلاد، وأخذ معه أوزبك بن البهلوان له اسم الملك، وأيتغمش هو المدبر له والقيم بأمر المملكة، وكان شهماً شجاعا ظالما، وكان كوكجة عادلاً حسن السيرة رحمه الله.

ذكر وفاة ركن الدين بن قلج أرسلان وملك ابنه بعده

وفي هذه السنة سادس ذي القعدة توفي ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن سلجوق صاحب ديار الروم ما بين ملطية وقونية، وكان موته بمرض القولنج في سبعة أيام، وكان قبل مرضه بخمسة أيام قد غدر بأخيه صاحب أنكورية، وتسمى أيضاً أنقرة، وهي مدينة منيعة، وكان مشاقا لركن الدين فحصره عدة سنين حتى ضعف، وقلت الأقوات عنده، فأذعن بالتسليم على عوض يأخذه، فعوضه قلعة في أطراف بلده، وحلف له عليها، فنزل أخوه عن مدينة أنقرة وسلمها، ومعه ولدان له، فوضع ركن الدين عليه من أخذه وأخذ أولاده معه فقتله، فلم يمض غير خمسة أيام حتى أصابه القولنج فمات، واجتمع الناس بعده على ولده قلج أرسلان، وكان صغيراً فبقي في الملك إلى بعد سنة إحدى وستمائة، وأخذ منه على ما نذكره هناك، وكان ركن الدين شديداً على الأعداء قيما بأمر الملك، إلا أن الناس كانوا ينسبون إلى فساد الاعتقاد، كان يقال: إنه يعتقد أن مذهبه مذهب الفلاسفة، وكان كل من يرمى بهذا المذهب يأوي إليه، ولهذه الطائفة منه إحسان كثير، إلا أنه كان عاقلاً فلا يحب ستر هذا المذهب لئلا ينفر الناس عنه. حكي لي عنه أنه كان عنده إنسان، وكان يرمى بالزندقة ومذهب الفلاسفة، وهو قريب منه، فحضر يوماً عنده فقيه فتناظرا، فأظهر شيئاً من اعتقاد الفلاسفة فقام الفقيه إليه ولطمه وشتمه بحضرة ركن الدين، وركن الدين ساكت وخرج الفقيه، فقال لركن الدين: يجري عليّ مثل هذا في حضرتك، ولا تنكره. فقال: لو تكلمت لقتلنا جميعاً، ولا يمكن إظهار ما تريده أنت.

ذكر قتل الباطنية بواسط

في هذه السنة في رمضان قُتل الباطنية بواسط، وسبب كونهم بها وقتلهم، أنه ورد إليها رجل يعرف بالركم محمد بن طالب بن عصية وأصله من القاروب من قرى واسط، وكان باطنيا ملحدا، ونزل مجاوراً لدور بني الهروي وغشيه الناس، وكثر أتباعه، وكان ممن يغشاه رجل يعرف بحسن الصابوني، فاتفق أنه اجتاز بالسويقة، فكلمه رجل نجار في مذهبهم، فرد عليه الصابوني رداً غليظاً، فقام إليه النجار وقتله وتسامع الناس بذلك، فوثبوا وقتلوا من وجدوا ممن ينتسب إلى هذا المذهب، وقصدوا دار ابن عصّية وقد اجتمع إليه خلق من أصحابه، وأغلقوا الباب وصعدوا إلى سطحها ومنعوا الناس عنهم، فصعدوا إليهم من بعض الدور من على السطح، وتحصن من بقي في الدار بإغلاق الأبواب والممارق، فكسروها ونزلوا، فقتلوا من وجدوا في الدار، وأحرقوا، وقتل ابن عصية وفتح الباب وهرب منهم، فقتلوا، وبلغ الخبر إلى بغداد، وانحدر فخر الدين أبو البدر بن أمسينا الواسطي لإصلاح الحال وتسكين الفتنة.

ذكر استيلاء محمود على مرباط وغيرها من حضرموت

في هذه السنة استولى إنسان اسمه محمود بن محمد الحميري على مدينة مرباط وظفار وغيرهما من حضرموت، وكان ابتداء أمره أنه له مركب يكريه في البحر للتجار، ثم وزر لصاحب مرباط، وفيه كرم وشجاعة وحسن سيرة، فلما توفي صاحب مرباط ملك المدينة بعده، وأطاعه الناس محبة له لكرمه وسيرته، ودامت أيامه بها، فلما كان سنة تسع عشرة وستمائة خرب مرباطا وظفارا، وبنى مدينة جديدة على ساحل البحر بالقرب من مرباط، وعندها عين عذبة كبيرة أجراها إلى المدينة، وعمل عليها سوراً وخندقاً وحصنها وسماها الأحمدية، وكان يحب الشعر ويكثر الجائزة عليه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة خرج أسطول من الفرنج إلى الديار المصرية، فنهبوا مدينة فوّة، وأقاموا خمسة أيام يَسْبُون وينهبون، وعساكر مصر مقابلهم بينهم النيل ليس لهم وصول إليهم لأنهم لم تكن لهم سفن.

وفيها كانت زلزلة عظيمة عمت أكثر البلاد مصر والشام والجزيرة وبلاد الروم

وصقلية وقبرس، ووصلت إلى الموصل والعراق وغيرهـا، وخربت من مـدينة صـور سورها، وأثرت في كثير من الشام.

وفيها في رجب اجتمع جماعة من الصوفية برباط شيخ الشيوخ ببغـداد، وفيهم صوفي اسمه أحمد بن إبراهيم الداري ومن أصحاب شيـخ الشيوخ عبـد الرحيم بن إسماعيل رحمهم الله ومعهم مغن يغني بقول الشعر:

أعاذلتي أقصري* كَفىٰ بمشيبي عـذلْ   شبابٌ كأنْ لم يَكُنْ * وشيبٌ كأن لم يَزَلْ

وحقٌّ ليالي الوصـال* وآخرهـا والأول   وصفرةُ لونِ المحبِّ * عند استماعِ العذل

لئن عاد عيشي بكم * حلا العيش لي واتصل

فتحركَ الجماعة عادة الصوفية في السماع، وطرب الشيخ المذكور وتواجد، ثم سقط مغشياً عليه، فحركوه فإذا هو ميت فصلي عليه ودفن وكان رجلاً صالحاً.

وفيها توفي أبو الفتوح أسعد بن محمود العجلي الفقيه الشافعي بأصفهان في صفر، وكان إماماً فاضلاً. وفي رمضان منها توفي قاضي هراة عمدة الدين الفضل بن محمود بن صاعد الساوي، وولي بعده ابنه صاعد.

ثم دخلت سنة إحدى وستمائة

ذكر ملك كيخسرو بن قلج أرسلان بلاد الروم من ابن أخيه

في هذه السنة في رجب ملك غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بلاد الروم التي كانت بيد أخيه ركن الدين سليمان، وكان سبب ملك غياث الدين لها أن ركن الدين كان قد أخذ ما كان لأخيه غياث الدين، وهو مدينة قونية، فهرب غياث الدين منه، وقصد الشام إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين ـ صاحب حلب، فلم يجد عنده قبولاً وقصر به فسار من عنده، وتقلب في البلاد إلى أن وصل إلى القسطنطينية، فأحسن إليه ملك الروم وأقطعه وأكرمه، فأقام عنده وتزوّج بابنة بعض البطارقة الكبار، وكان لهذا البطريق قلعة من عمل القسطنطينية، فلما ملك الفرنج القسطنطينية هرب غياث الدين إلى حميه، وهو بقلعته، فأنزله عنده، وقال له اشترك في هذه القلعة وتقنع بداخلها، فأقام عنده، فلما مات أخوه سنة ستمائة ـ كما ذكرناه ـ اجتمع الأمراء على ولده، وخالفهم الأتراك الأوج، وهم كثير بتلك البلاد، وأنف من اتباعهم، وأرسل إلى غياث الدين يستدعيه إليه ليملكه البلاد، فسار إليه فوصل في جمادى الأولى اجتمع به، وكثر جمعه وقصد مدينة قونية ليحصرها، وكان ولد ركن الدين والعساكر بها، فأخرجوا إليه طائفة من العسكر فلقوه فهزموه، فبقي حيران لا يدري أين يتوجه، فقصد بلدة صغيرة يقال لها أوكرم بالقرب من قونية، فقدر الله تعالى أن أهل مدينة اقصرا وثبوا على الوالي فأخرجوه منها، ونادوا بشعار غياث الدين، فلما سمع أهل قونية بما فعله أهل اقصرا قالوا: نحن أولى بفعل هذا لأنه كان حسن السيرة فيهم لما كان ملكهم، فنادوا باسمه أيضاً وأخرجوا من عندهم، واستدعوه، فحضر عندهم، وملك المدينة وقبض ابن أخيه ومن معه، وآتاه الله الملك، وجمع له البلاد جميعها في ساعة واحدة، فسبحان من إذا أراد أمراً هيأ أسبابه، وكان أخوه قيصر شاه الذي كان صاحب ملطية لما أخذها ركن

الدين منه سنة سبع وتسعين خرج منها وقصد الملك العادل أبا بكر بن أيوب لأنه كان زوج ابنته مستنصراً به، فأمره بالمقام بمدينة الرها، فأقام بها، فلما سمع بملك أخيه غياث الدين سار إليه، فلم يجد عنده قبولاً إنما أعطاه شيئاً وأمره بمفارقة البلاد، فعاد إلى الرها، وأقام بها. فلما استقر ملك غياث الدين سار إليه الأفضل صاحب سميساط، فلقيه بمدينة قيسارية، وقصده أيضاً نظام الدين صاحب خرت برت، وصار معه فعظم شأنه وقوي أمره.

ذكر حصر صاحب آمد خَرتَ بِرتَ ورجوعه عنها

كانت خرت برت لعماد الدين بن قرا أرسلان، فمات وملكها بعده ابنه نظام الدين أبو بكر، والتجأ إلى ركن الدين بن قلج أرسلان، وبعده إلى أخيه غياث الدين ليمتنع به من ابن عمه ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أسلان، فامتنع به، وكان صاحب آمد ملتجئا إلى الملك العادل، وفي طاعته، وحضر مع ابنه الملك الأشرف قتال صاحب الموصل على شرط أنّه يسير معه عساكره، ويأخذ له خرت برت، وإنما طمع فيها بموت ركن الدين، فلما دخلت هذه السنة طلب ما كان استقر الأمر عليه، فسار معه الملك الأشرف وعساكر ديار الجزيرة من سنجار وجزيرة ابن عمر والموصل وغيرها، وكان نزولهم عليها في شعبان، وفي رمضان تسلموا ربضها، وكان قد اجتمع بغياث الدين بعد أن ملك البلاد الرومية، وصار معه في طاعته، فلما نزل صاحب آمد على خرت برت خاطب صاحبها غياث الدين يستنجده بعسكر يرحلهم عنه، فجهز عسكراً كثيراً عدتهم ستة آلاف فارس، وسيرهم مع الملك الأفضل صاحب سميساط، فلما وصل العسكر إلى ملطية فارق صاحب آمد ومن معه من خرت برت، ونزلوا إلى الصحراء، وحصروا البحيرة المعروفة ببحيرة سهنين، وبها حصنان، أحدهما لصاحب آمد، والآخر لصاحب خرت برت، فحصره وزاحفه، ففتحه ثاني ذي الحجة، ووصل صاحب خرت برت مع العسكر الرومي إلى خرت برت، فرحل صاحب آمد عن البحيرة، وقوى الحصن الذي فتحه فيها، فأزاح علته ورحل إلى خلف مرحلة، ونزل، وترددت الرسل والعسكر الرومي يطلب إعادة البحيرة، وصاحب آمد يمتنع من ذلك، فلما طال الأمر بقي الحصن بيد صاحب آمد، وانفصل العسكران، وعاد كل فريق إلى بلاده.

ذكر الفتن ببغداد

في سابع عشر شعبان جرت فتنة ببغداد بين أهل باب الأزج وأهل المأمونية، وسببها أن أهلْ باب الأزج قتلوا سبعاً وأرادوا أن يطوفوا به، فمنعهم أهل المأمونية، فوقعت الفتنة بينهما عند البستان الكبير، فجرح منهم خلق كثير، وقتل جماعة وركب صاحب الباب لتسكين الفتنة، فجرح فرسه، فعاد، فلمّا كان الغد سار أهل المأمونية إلى باب الأزج، فوقعت بينهم فتنة شديدة وقتال بالسيوف والنشاب، واشتد الأمر فنهبت الدور القريبة منهم، وسعى الركن بن عبد القادر ويوسف في تسكين الناس، وركب الأتراك، فصاروا يبيتون تحت المنظرة، فامتنع أهل الفتنة من الاجتماع فسكنوا.

وفي العشرين منه جرت فتنة بين أهل قطفتا والقرية من محال الجانب الغربي بسبب قتل سبع أيضاً أراد أهل قطفتا أن يجتمعوا ويطوفوا به فمنعهم أهل القرية أن يجروا به عندهم فاقتتلوا، وقتل بينهم عدة قتلى، فأرسل إليهم عسكر من الديوان لتلافي الأمر، ومنع الناس عن الفتنة فامتنعوا، وفي تاسع رمضان كانت فتنة بين أهل سوق السلطان والجعفرية، منشؤها أن رجلين من المحلتين اختصما وتوعد كل واحد منهما صاحبه، فاجتمع أهل المحلتين واقتتلوا في مقبرة الجعفرية، فسير إليهم من الديوان من تلافى الأمر وسكنه، فلما كثرت الفتن رتب أمير كبير من مماليك الخليفة ومعه جماعة كثيرة، فطاف في البلد، وقتل جماعة ممن فيه شبهة، فسكن الناس.

ذكر غارة الكرج على بلاد الإسلام

في هذه السنة أغارت الكرج على بلاد الإسلام من ناحية أذربيجان، فأكثروا العيث والفساد والنهب والسبي، ثم أغاروا على ناحية خلاط من أرمينية، فأوغلوا في البلاد حتى بلغوا ملازكرد، ولم يخرج إليهم أحد من المسلمين يمنعهم، فجاسوا خلال البلاد، ينهبون ويأسرون، وكلما تقدموا تأخرت عساكر المسلمين منهم، ثم إنهم رجعوا، فالله تعالى ينظر إلى الإسلام وأهله، وييسر لهم من يحمي بلادهم ويحفظ ثغورهم ويغزو أعداءهم.

وفيها أغارت الكرج على بلاد خلّاط، فأتوا إلى أرجيش ونواحيها فنهبوا وسبوا وخربوا البلاد، وساروا إلى حصن التين من أعمال خلاط، وهو مجاور أزن الروم،

فجمع صاحب خلّاط عسكره، وسار إلى طغل شاه ولد قلج أرسلان صاحب أرزن الروم، فاستنجده على الكرج، فسير عسكره جميعه معه، فتوجهوا نحو الكرج، فلقوهم وتصافوا واقتتلوا، فانهزمت الكرج، وقتل زكري الصغير، وهو من أكابر مقدميهم، وهو الذي كان مقدم هذا العسكر من الكرج، والمقاتل بهم وغنم المسلمون ما معهم من الأموال والسلاح والكراع، وغير ذلك، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وأسروا كذلك، وعاد إلى بلاده.

ذكر الحرب بين أمير مكة وأمير المدينة

وفي هذه السنة أيضاً كانت الحرب، بين الأمير قتادة الحسيني أمير مكة، وبين الأمير سالم بن قاسم الحسيني أمير المدينة، ومع كل واحد منهما جمع كثير، فاقتتلوا قتالاً شديداً. وكانت الحرب بذي الحليفة بالقرب من المدينة، وكان قتادة قد قصد المدينة ليحصرها ويأخذها، فلقيه سالم بعد أن قصد الحجرة على ساكنها الصلاة والسلام، فصلى عندها ودعا وسار فلقيه، فانهزم قتادة وتبعه سالم إلى مكة فحصره بها، فأرسل قتادة إلى من مع سالم من الأمراء، فأفسدهم عليه فمالوا إليه وحالفوه، فلما رأى سالم ذلك رحل عنه عائداً إلى المدينة، وعاد أمر قتادة قوياً.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في يوم الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة، قطعت خطبة ولي العهد، وأظهر خط قرىء بدار الوزير نصير الدين بن مهدي الرازي، وإذا هو خط ولي العهد الأمير أبي نصر بن الخليفة إلى أبيه الناصر لدين الله أمير المؤمنين، يتضمن العجز عن القيام بولاية العهد، ويطلب الإقالة، وشهد عدلان أنه خطه، وأن الخليفة أقاله، وعمل بذلك محضر شهد فيه القضاة والعدول والفقهاء.

وفي هذه السنة ولدت امرأة ببغداد ولداً له رأسان وأربع أرجل ويدان ومات في يومه.

وفيها أيضاً وقع الحريق في خزانة السلاح التي للخليفة، فاحترق فيها منه شيء كثير، وبقيت النّار يومين، وسار ذكر هذا الحريق في البلدان، فحمل الملوك من السلاح إلى بغداد شيئاً كثيراً. وفي هذه السنة وقع الثلج، بمدينة هراة أسبوعاً كاملاً، فلما سكن

جاء بعده سيل من الجبل من باب سرا، خرّب كثيراً من البلد، ورمى من حصنه قطعة عظيمة، وجاء بعده برد شديد أهلك الثمار، فلم يكن بها تلك السنة شيء إلا اليسير.

وفيها في شعبان خرج عسكر من الغورية مقدمهم الأمير زنكي بن مسعود إلى مدينة مرو، فلقيهم نائب خوارزم شاه بمدينة سرخس، وهو الأمير جقر، وكمن لهم كميناً، فلما وصلوا إليه هزمهم، وأخذ وجوه الغورية أسرى، فلم يفلت منهم إلا القليل، وأخذ أميرهم زنكي أسيراً، فقتل صبراً وعلقت رؤسهم بمرو أياماً.

وفيها في ذي القعدة سار الأمير عماد الدين عمر بن الحسين الغوري ـ صاحب بلخ إلى مدينة ترمذ، وهي للأتراك الخطا، فافتتحها عنوة وجعل بها ولده الأكبر، وقتل من بها من الخطا، ونقل العلويين منها إلى بلخ، وصارت ترمذ دار إسلام، وهي من أمنع الحصون وأقواها.

وفيها توفي صدر الدين السجزي شيخ خانكاه السلطان بهراة: وفيها في صفر توفي أبو علي الحسن بن محمد بن عبدوس الشاعر الواسطي وهو من الشعراء المجيدين، واجتمعت به بالموصل وردها مادحاً لصاحبها نور الدين أرسلان شاه وغيره من المقدمين، وكان نعم الرجل حسن الصحبة والعشرة.

وفيها اجتمع ببغداد رجلان أعميان على رجل أعمى أيضاً، وقتلاه بمسجد طمعاً أن يأخذا منه شيئاً، فلم يجدا معه ما يأخذانه، وأدركهما الصباح، فهربا من الخوف يريدان الموصل ورؤي الرجل مقتولاً ولم يعلم قاتله، فاتفق أن بعض أصحاب الشحنة اجتاز من الحريم في خصومة جرت، فرأى الرجلين الضريرين، فقال: لمن معه: هذان اللذان قتلا الأعمى ـ يقوله مزحاً ـ فقال أحدهما: هذا والله قتله. فقال الآخر: بل أنت قتلته، فأخذا إلى صاحب الباب، فأقرّا، فقتل أحدهما، وصلب الآخر على باب المسجد الذي قتلا فيه الرجل.

ثم دخلت سنة اثنتين وستمائة

ذكر الفتنة بهـــراة

في هذه السنة في المحرم ثار العامة بهراة، وجرت فيه فتنة عظيمة بين أهل السوقين ـ الحدادين والصفارين ـ قتل فيها جماعة، ونهبت الأموال، وخربت الديار، فخرج أمير البلد ليكفهم، فضربه بعض العامة بحجر ناله منه ألم شديد، واجتمع الغوغاء عليه، فرفع إلى القصر الفيروزي، واختفى أياماً إلى أن سكنت الفتنة ثم ظهر.

ذكر قتال شهاب الدين الغوري بني كوكر

قد ذكرنا انهزام شهاب الدين محمد بن سام الغوري صاحب غزنة من الخطا الكفار ، وأن الخبر ظهر ببلاده أنه عدم من المعركة لم يقف أصحابه له على خبر ، فلما اشتهر هذا الخبر ثار المفسدون في أطراف البلاد ، وكان ممن أفسد دانيال صـاحـب الجودي، فإنه كان قد أسلم ، فلما بلغه الخبر ارتد عن الإسلام، وتـابع بني كـوكر ومساكنهم في جبال بين لهاوور والمولتان حصينة منيعة، وكانوا قد أطاعوا شهاب الدين وحملوا له الخراج ، فلما بلغهم خبر عدمه ثاروا فيمن معهم من قبائلهم وعشائرهم ، وأطاعوا صاحب جبل الجودي وغيره من القاطنين بتلك الجبال، ومنعوا الطريق من لهاوور وغيرها إلى غزنة ، فلما بلغ شهاب الدين من قتل مملوكه أيبك ، وقد ذكرناه أرسل إلى نائبه بلهاوور والمولتان ، وهو محمد بن أبي علي يأمره بحمل المال لسنة ستمائة وسنة إحدى وستمائة ليتجهّز به لحرب الخطا ، فأجاب أن أولاد كوكر قد قطعوا الطريق ولا يمكنه إرسال المال ، وحضر جماعة من التجار، وذكروا أن قفلا كبيراً أخذه أولاد كوكر ولم ينج منه إلا القليل، فأمر شهاب الدين مملوكه أيبك مقدم عساكر الهند أن يراسل بني كوكر، يدعوهم إلى الطاعة، ويتهددهم إن لم يجيبوا ، ففعل ذلك، فقال ابن كوكر: لأي معنى لم يرسل السلطان إلينا رسولاً ، فقال له الرسول: وما قدركم أنتم حتى يرسل إليكم، وإنما مملوكه يبصركم رشدكم ويهددكم، فقال ابن كوكر: لو كان شهاب

الدين حيّاً لراسلنا، وقد كنا ندفع الأموال إليه، فحيث عدم فقل لأيبك يترك لنا لهاوور وما والاها وفرشابور ونحن نصالحه، فقال الرسول: نفذ أنت جاسوسا نثق إليه يأتيك بخبر شهاب الدين من فرشابور، فلم يصغ إلى قوله فرده، فعاد وأخبر بما سمع ورأى، فأمر شهاب الدين مملوكه قطب الدين أيبك بالعود الى بلاده، وجمع العساكر وقتال بني كوكر، فعاد إلى دهلى وأمر عساكره بالاستعداد، فأقام شهاب الدين في فَرْشَابور[1] إلى نصف شعبان من سنة إحدى وستمائة، ثم عاد إلى غزنة فوصلها أول رمضان، وأمر بالنداء في العساكر بالتجهّز لقتال الخطا، وأن المسير يكون أول شوال، فتجهّزوا لذلك، فاتّفق أن الشكايات كثرت من بني كوكر، وما يتعهدونه من إخافة السبل، وأنهم قد أنفذوا شحنة إلى البلاد، ووافقهم أكثر الهنود، وخرجوا من طاعة أمير لهاوور والمولتان وغيرهما، ووصل كتاب الوالي يذكر ما قد دهمه منهم وأن عماله قد أخرجهم بنو كوكر، وجبوا الخراج، وأن ابن كوكر مقدمهم أرسل إليه ليترك له لهاوور والبلاد وإلا قتله، ويقول له: إن لم يحضر السلطان شهاب الدين بنفسه ومعه العساكر وإلا خرجت البلاد من يده.

وتحدث الناس بكثرة من معهم من الجموع وما لهم من القوة، فتغير عزم شهاب الدين حينئذ عن غزو الخطا. وأخرج خيامه وسار عن غزنة خامس ربيع الأول سنة اثنتين وستمائة، فلما سار وأبعد انقطعت أخباره عن الناس بغزنة وفرشابور، حتى أرجف الناس بانهزامه، وكان شهاب الدين لما سار عن فَرْشَابور أتاه خبر ابن كوكر أنه نازل في عساكره ما بين حبلم وسودرة، فجدَّ السير إليه، فدهمه قبل الوقت الذي كان يقدر وصوله فيه، فاقتتلوا قتالاً شديداً يوم الخميس لخمس بقين من ربيع الآخر من بكرة إلى العصر، واشتد القتال، فبينما هم في القتال وإذ قد أقبل قطب الدين أيبك في عساكره، فنادوا بشعار الإسلام وحملوا حملة صادقة، فانهزم الكوكرية ومن انضم إليهم، وقتلوا بكل مكان، وقصدوا أجمة هناك فاحتموا بها وأضرموا ناراً، فكان أحدهم يقول لصاحبه لا تترك المسلمين يقتلونك، ثم يلقي نفسه في النار، فيلقي صاحبه نفسه بعده فيها، فعمهم الفناء قتلاً وحرقاً، ﴿فبعدا للقوم الظالمين﴾[2] وكان أهلهم وأموالهم معهم لم

---

(١) فرشابور: مدينة وولاية واسعة من أعمال لهاوور بينها وبين غزنة.

(٢) سورة المؤمنون: ٤١.

يفارقوها، فغنم المسلمون منهم ما لم يسمع بمثله حتى إن المماليك كانوا يباعون كل خمسة بدينار ركني ونحوه، وهرب ابن كوكر بعد أن قتل إخوته وأهله، وأما ابن دانيال صاحب جبل الجودي، فإنه جاء ليلاً إلى قطب الدين أيبك فاستجار به فأجاره، وشفع فيه إلى شهاب الدين فشفعه فيه وأخذ منه قلعة الجودى، فلما فرغ منهم سار نحو لهاوور ليؤمن أهلها ويسكن روعهم، وأمر الناس بالرجوع إلى بلادهم والتجهيز لحرب الخطا، وأقام شهاب الدين بلهاوور إلى سادس عشر رجب، وعاد نحو غزنة، وأرسل إلى بهاء الدين سام صاحب باميان ليتجهز للمسير إلى سمرقند ويعمل جسراً ليعبر هو وعساكره عليه.

ذكر الظفر بالتيراهية

كان من جملة الخارجين المفسدين أيضاً على شهاب الدين التيراهية، فإنهم خرجوا إلى حدود سوران ومكرهان للغارة على المسلمين، فأوقع بهم نائب تاج الدين الدز مملوك شهاب الدين بتلك الناحية ويعرف بالخايجي، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وحمل رؤوس المعروفين فعلّقت ببلاد الإسلام، وكانت فتنة هؤلاء التيراهية على بلاد الإسلام عظيمة قديماً وحديثاً، وكان إذا وقع بأيديهم أسير من المسلمين عذبوه بأنواع العذاب، وكان أهل فرشابور معهم في ضرّ شديد لأنهم يحيطون بتلك الولاية من جوانبها لا سيما آخر أيام سبكتكين، فإن الملوك ضعفوا وقوي هؤلاء عليهم، وكانوا يغيرون على أطراف البلاد، وكانوا كفّاراً، لا دين لهم يرجعون إليه، ولا مذهب يعتمدون عليه، إلا أنهم كانوا إذا ولد لأحدهم بنت، وقف على باب داره ونادى من يتزوج هذه من يقبلها، فإن أجابه أحد تركها وإلا قتلها، ويكون للمرأة عدة أزواج، فإذا كان أحدهم عندها جعل مداسه على الباب، فإذا جاء غيره من أزواجها ورأى مداسه عاد، ولم يزالوا كذلك حتى أسلم طائفة منهم آخر أيام شهاب الدين الغوري، فكفوا عن البلاد، وسبب إسلامهم أنهم أسروا إنساناً من فرشابور فعذبوه فلم يمت، ودامت أيامه عندهم، فأحضره يوماً مقدمهم وسأله عن بلاد الإسلام، وقال له: لو حضرت أنا عند شهاب الدين ماذا كان يعطيني؟ فقال له: كان يعطيك الأموال والأقطاع ويرد إليك حكم جميع البلاد التي لكم، فأرسله إلى شهاب الدين في الدخول في الإسلام، فعاد ومعه رسول بالخلع والمنشور بالإقطاع ، فلما وصل إليه الرسول سار هو وجماعة من أهله

إلى شهاب الدين فأسلموا وعادوا، وكان للناس بهم راحة، فلما كانت هذه الفتنة واختلفت البلاد نزل أكثرهم من الجبال، فلم يكن لهذه الطائفة بهم قدرة ليمنعوهم، فأفسدوا وعملوا ما ذكرناه.

ذكر قتل شهاب الدين الغوري

في هذه السنة أول ليلة من شعبان قتل شهاب الدين أبو المظفر محمد بن سام الغوري، ملك غزنة وبعض خراسان، بعد عوده من لها وور بمنزل يقال له: دميك وقت صلاة العشاء، وكان سبب قتله أن نفراً من الكفار الكوكرية لزموا عسكره عازمين على قتله لمّا فعل بهم من القتل والأسر والسبي، فلما كان هذه الليلة تفرق عنه أصحابه، وكان قد عاد ومعه من الأموال ما لا يحد، فإنه كان عازماً على قصد الخطا والاستكثار من العساكر وتفريق المال فيهم، وقد أمر عساكره بالهند باللحاق به، وأمر عساكره الخراسانية بالتجهّز إلى أن يصل إليهم فأتاه الله من حيث لم يحتسب، ولم يغن عنه ما جمع من مال وسلاح ورجال، لكن كان على نيّة صالحة من قتال الكفار، فلمّا تفرّق عنه أصحابه وبقي وحده في خركاه ، فثار أولئك النفر فقتل أحدهم بعض الحرس بباب سرادق شهاب الدين، فلما قتلوه صاح، فثار أصحابه من حول السرادق لينظروا ما بصاحبهم، فأخلوا مواقفهم وكثر الزحام، فاغتنم الكوكرية غفلتهم عن الحفظ فدخلوا على شهاب الدين، وهو في الخركاه فضربوه بالسكاكين اثنتين وعشرين ضربة فقتلوه فدخل عليه أصحابه، فوجدوه على مصلاه قتيلاً وهو ساجد، فأخذوا أولئك الكفار فقتلوهم، وكان فيهم اثنان مجنونان، وقيل إنما قتله الإسماعيلية لأنهم خافوا خروجه إلى خيراسان، وكان له عسكر يحاصر بعض قلاعهم ـ على ما ذكرناه، فلما قتل اجتمع الأمراء عند وزيره مؤيد الملك ابن خوجاسجستان، فتحالفوا على حفظ الخزانة والملك ولزوم السكينة إلى أن يظهر من يتولاه، وأجلسوا شهاب الدين وخيطوا جراحه وجعلوه في المحفة، وساروا به، ورتب الوزير الأمور، وسكن الناس بحيث لم ترق محجمة دم ولم يوجد في أحد شيء، وكانت المحفة محفوفة بالحشم والوزير والعسكر والشمسية على حاله في حياته، وتقدّم الوزير إلى أمير دار العسكر بإقامة السياسة وضبط العسكر، وكانت الخزانة التي في صحبته ألفي حمل ومائتي حمل، وشغل الغلمان الأتراك الصغار لينهبوا المال، فمنعهم الوزير والأمراء الكبار من المماليك، وهو صونج صهر الذز وغيره، وأمروا كل من له إقطاع عند قطب الدين أيبك مملوك شهاب الدين ببلاد

الهند بالعود إليه، وفرقوا فيهم أموالاً كثيرة فعادوا، وسار الوزير ومعه من له أقطاع وأهل بغزنة، وعلموا أنه يكون من غياث الدين محمود بن غياث الدين أخي شهاب الدين الأكبر، وبين بهاء الدين صاحب باميان وهو ابن أخت شهاب الدين حروب شديدة، وكان ميل الوزير والأتراك وغيرهم إلى غياث الدين محمود، وكان الأمراء الغورية يميلون إلى بهاء الدين سام صاحب باميان، فأرسل كل طائفة إلى من يميلون إليه يعرفونه قتل شهاب الدين وجلية الأمور، وجاء بعض المفسدين من أهل غزنة، فقال للمماليك: إن فخر الدين الرازي قتل مولاكم لأنه هو أوصل من قتله، فوضع من خوارزمشاه، فثاروا به ليقتلوه، فهرب وقصد مؤيد الملك الوزير، فأعلمه الحال، فسيّره سراً إلى مأمنه، ولما وصل العسكر والوزير إلى فرشابور اختلفوا، فالغورية يقولون نسير إلى غزنة على طريق مكرهان، وكان غرضهم أن يقربوا من باميان، ليخرج صاحبها بهاء الدين سام، فيملك الخزانة، قال الأتراك بل نسير على طريق سوران، وكان مقصودهم أن يكونوا قريباً من تاج الدين الدز مملوك شهاب الدين، وهو صاحب كرمان مدينة بين غزنة ولهاوور وليست بكرمان التي تجاور بلاد فارس ليحفظ الدز الخزانة، ويرسلون من كرمان إلى غياث الدين يستدعونه إلى غزنة ويملّكونه، وكثر بينهم الاختلاف حتى كادوا يقتتلون، فتوصل مؤيد الملك مع الغورية حتى أذنوا له وللأتراك بأخذ الخزانة والمحفة التي فيها شهاب الدين، والمسير على كرمان، وساروا هم على طريق مكرهان، ولقي الوزير ومن معه مشقة عظيمة، وخرج عليهم الأمم الذين في تلك الجبال التيراهية وأوغان وغيرهم، فنالوا من أطراف العسكر إلى أن وصلوا إلى كرمان، فخرج إليهم تاج الدين الدز يستقبلهم، فلما عاين المحفة وفيها شهاب الدين ميتانزل، وقبّل الأرض على عادته في حياة شهاب الدين، وكشف عنه، فلما رآه ميتاً مزّق ثيابه وصاح وبكى فأبكى الناس، وكان يوماً مشهوداً.

ذكر ما فعله الـدز

كان الدز من أول مماليك شهاب الدين وأكبرهم وأقدمهم وأكبرهم محلاً عنده، بحيث إن أهل شهاب الدين كانوا يخدمونه ويقصدونه في أشغالهم، فلما قتل صاحبه طمع أن يملك غزنة، فأول ما عمل أنه سأل الوزير مؤيد الملك عن الأموال والسلاح والدواب، فأخبره بما خرج من ذلك وبالباقي معه، فأنكر الحال وأساء أدبه في

الجواب، وقال: إن الغورية قد كاتبوا بهاء الدين سام صاحب باميان ليملّكوه غزنة، وقد كتب إليّ غياث الدين محمود، وهو مولاي يأمرني أنني لا أترك أحداً يقرب من غزنة، وقد جعلني نائبه فيها وفي سائر الولاية المجاورة لها لأنه مشتغل بأمر خراسان، وقال للوزير: إنه أمرني أيضاً أن أتسلم الخزانة منك، فلم يقدر على الامتناع لميل الأتراك إليه فسلمها إليه وسار بالمحفّة والمماليك والوزير إلى غزنة فدفن شهاب الدين في التربة بالمدرسة التي أنشأها، ودفن ابنته فيها، وكان وصوله إليها في الثاني والعشرين من شعبان من السنة.

ذكر بعض سيرة شهاب الدين

كان رحمه الله شجاعاً مقداماً كثير الغزو إلى بلاد الهند، عادلاً في رعيته، حسن السيرة فيهم حاكماً بينهم بما يوجبه الشرع المطهر، وكان القاضي بغزنة يحضر داره من كل أسبوع السبت والأحد والاثنين والثلاثاء، ويحضر معه أمير حاجب وأميردار وصاحب التربة، فيحكم القاضي وأصحاب السلطان ينفذون أحكامه على الصغير والكبير والشريف والوضيع، وإن طلب أحد الخصوم الحضور عنده أحضره، وسمع كلامه، وأمضى عليه أوله حكم الشرع، فكانت الأمور جارية على أحسن نظام.

(حكي عنه) أنه لقيه صبي علوي عمره نحو خمس سنين فدعا له وقال: لي خمسة أيام ما أكلت شيئاً، فعاد من الركوب لوقته ومعه الصبي، فنزل في داره وأطعم العلوي أطيب الطعام بحضرته، ثم أعطاه مالا بعد أن أحضر أباه وسلمه إليه، وفرّق في سائر العلويين مالاً عظيماً.

(وحكي) أن تاجراً من مراغة كان بغزنة، وله على بعض مماليك شهاب الدين دين مبلغه عشرة آلاف دينار، فقتل المملوك في حرب كانت له، فرفع التاجر حاله، فأمر بأن يقر أقطاع المملوك بيد التاجر إلى أن يستوفي دينه ففعل ذلك.

(وحكي عنه) أنه كان يحضر العلماء بحضرته، فيتكلمون من المسائل الفقهية وغيرها، وكان فخر الدين الرازي يعظ في داره، فحضر يوماً فوعظ، وقال في آخر كلامه: يا سلطان لا سلطانك يبقى ولا تلبيس الرازي، وأنّ مردنا إلى الله، فبكى شهاب الدين حتى رحمه الناس لكثرة بكائه، وكان رقيق القلب، وكان شافعي المذهب مثل أخيه، قيل: وكان حنفياً والله أعلم.

ذكر مسير بهاء الدين سام إلى غزنة وموته

لمّا ملك غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام باميان أقطعها ابن عمه شمس الدين محمد بن مسعود وزوّجه أخته، فأتاه منها ولد اسمه سام، فبقي فيها إلى أن توفي وملك بعده ابنه الأكبر واسمه عباس وأمه تركية، فغضب غياث الدين وأخوه شهاب الدين في ذلك، وأرسلا من أحضر عباساً عندهما، فأخذ الملك منه وجعلا ابن أختهما سام ملكاً على باميان، وتلقب بهاء الدين وعظم شأنه ومحله، وجمع الأموال ليملك البلاد بعد خاله وأحبّه أمراء الغورية حباً شديداً وعظّموه، فلما قتل خاله شهاب الدين سار بعض الأمراء الغورية إلى بهاء الدين سام، فأخبره بذلك، فلما بلغه قتله كتب إلى من بغزنة من الأمراء الغورية يأمرهم بحفظ البلد، ويعرفهم أنه على الطريق سائر إليهم، وكان والي قلعة غزنة ويعرف بأميردار، وقد أرسل ولده إلى بهاء الدين سام يستدعيه إلى غزنة، فأعاد جوابه أنه تجهَّز ويصل إليه ويعده الجميل والإحسان، وكتب بهاء الدين إلى علاء الدين محمد بن أبي علي ملك الغور، يستدعيه، إليه وإلى غياث الدين محمود بن غياث الدين، وإلى ابن خرميل، وإلى هراة يأمرهما بإقامة الخطبة له، وحفظ ما بأيديهما من الأعمال، ولم يظن أن أحداً يخالفه، فأقام أهل غزنة ينتظرون وصوله أو وصول غياث الدين محمود والأتراك، ويقولون: لا نترك غير ابن سيدنا ـ يعنون غياث الدين ـ يدخل غزنة، والغورية يتظاهرون بالميل إلى بهاء الدين ومنع غيره، فسار من باميان إلى غزنة في عساكر ومعه ولداه علاء الدين محمود وجلال الدين، فلما سار عن باميان مرحلتين وجد صداعاً، فنزل يستريح ينتظر خفته عنه، فازداد الصداع وعظم الأمر عليه، فأيقن بالموت، فأحضر ولديه وعهد إلى علاء الدين، وأمرهما بقصد غزنة وحفظ مشايخ الغورية، وضبط الملك وبالرفق بالرعايا وبذل الأموال، وأمرهما أن يصالحا غياث الدين على أن يكون له خراسان وبلاد الغور، ويكون لهما غزنة وبلاد الهند.

ذكر ملك علاء الدين غزنة وأخذها منه

لما فرغ بهاء الدين من وصيته، توفّي فسار ولداه إلى غزنة، فخرج أمراء الغورية وأهل البلد فلقوهما، وخرج الأتراك معهم على كره منهم ودخلوا البلد وملكوه، ونزل علاء الدين وجلال الدين دار السلطنة مستهل رمضان، وكانوا قد وصلوا في ضرورقلة من

العسكر، وأراد الأتراك منعهم، فنهاهم مؤيد الملك وزير شهاب الدين لقلتهم، ولاشتغال غياث الدين بابن خرميل والي هراة ـ على ما نذكره، فلم يرجعوا، ولما استقرا بالقلعة ونزلا بدار السلطانية راسلهما الأتراك بأن يخرجا من الدار وإلا قاتلوهما، ففرقا فيهم أموالاً كثيرة، واستحلفاهم فحلفوا واستبوا غياث الدين محموداً، وأنفذا خلعاً إلى تاج الدين الدز، وهو بأقطاعه مع رسول، وطلباه إلى طاعتهما، وواعداه بالأموال والزيادة في الأقطاع وإمارة الجيش والحكم في جميع الممالك، فأتاه الرسول فلقيه، وقد سار عن كرمان في جيش كثير من الترك والخلج والغز وغيرهم، فأبلغه الرسالة فلم يلتفت إليه، وقال: قل لهما يعودان إلى باميان وفيها كفاية، فإني قد أمرني مولاي غياث الدين أن أسير إلى غزنة وأمنعهما عنها، فإن عادا إلى بلدهما وإلا فعلت بهما وبمن معهما ما يكرهون، ورد ما معه من الهدايا والخلع، ولم يكن قصد الدز بهذا حفظ بيت صاحبه، وإنما أراد أن يجعل هذا طريقاً إلى ملك غزنة لنفسه، فعاد الرسول وأبلغ علاء الدين رسالة الدز، فأرسل وزيره، وكان قبله وزير أبيه إلى باميان وبلخ وترمذ وغيرها من بلادهم ليجمع العساكر ويعود إليه، فأرسل الدز إلى الأتراك الذين بغزنة يعرفهم أن غياث الدين أمره أن يقصد غزنة، ويُخرج علاء الدين وأخاه منها، فحضروا عند وزير علاء الدين، وطلبوا منه سلاحاً، ففتح خزانة السلاح، فهرب ابن الوزير إلى علاء الدين، وقال له قد كان كذا وكذا، فلم يقدر أن يفعل شيئاً وسمع مؤيد الملك وزير شهاب الدين، فركب وأنكر على الخازن تسليم المفاتيح، وأمره فاسترد ما نهبه الترك جميعه لأنه كان مطاعاً فيهم، ووصل الدز إلى غزنة،فأخرج إليه علاء الدين جماعة من الغورية ومن الأتراك، وفيهم صونج صهر الدز، فأشار عليه أصحابه أن لا يفعل، وينتظر العسكر مع وزيره، فلم يقبل منهم وسيّر العساكر فالتقوا خامس رمضان، فلما لقوه خدعه الأتراك وعادوا معه على عسكر علاء الدين، فقاتلوهم فهزموهم وأسروا مقدمهم، وهو محمد بن علي بن حردون، ودخل عسكر الدز المدينة فنهبوا بيوت الغورية والبامانية، وحصر الدز القلعة فخرج جلال الدين منها في عشرين فارساً وسار عن غزنة. فقالت له امرأة تستهزىء به: إلى أين تمضي خذ الجتر والشمسة معك ما أقبح خروج السلاطين هكذا، فقال لها: إنك سترين ذلك اليوم وأفعل بكم ما تقرون به بالسلطنة لي، وكان قد قال لأخيه: احفظ القلعة إلى أن آتيك بالعساكر، فبقي الدز يحاصرها، وأراد من مع الدز نهب البلد فنهاهم عن ذلك.

وأرسل إلى علاء الدين يأمره بالخروج من القلعة وتهدده إن لم يخرج منها، وترددت الرسل بينهما في ذلك، فأجاب إلى مفارقتها والعود إلى بلده، وأرسل من حلف له الدز أن لا يؤذيه ولا يعترض إليه، ولا إلى أحد ممن يحلف له، وسار عن غزنة، فلما رآه الدز وقد نزل من القلعة عدل إلى تربة شهاب الدين مولاه، ونزل إليها ونهب الأتراك ما كان مع علاء الدين وألقوه عن فرسه، وأخذوا ثيابه، وتركوه عرياناً بسراويله، فلما سمع الدز ذلك أرسل إليه بدواب وثياب ومال، واعتذر إليه فأخذ مالبسه وترك الباقي، فلما وصل إلى باميان لبس ثياب سواد وركب حماراً، فأخرجوا له مراكب ملوكية وملابس جميلة، فلم يركب ولم يلبس، وقال: أريد أن يراني الناس وما صنع بي أهل غزنة حتى إذا عدت إليها وخربتها ونهبتها لا يلومني أحد، ودخل دار الإمارة وشرع في جمع العساكر.

ذكر ملك الدُز غزنة

قد ذكرنا استيلاء الدُز على الأموال والسلاح والدواب وغير ذلك مما كان صحبة شهاب الدين، وأخذه من الوزير مؤيد الملك فجمع له العساكر من أنواع الناس الأتراك والخلج وغيرهم، وسار إلى غزنة، وجرى له مع علاء الدين ما ذكرنا، فلما خرج علاء الدين من غزنة أقام الدز بداره أربعة أيام يظهر طاعة غياث الدين إلا أنه لم يأمر الخطيب بالخطبة له ولا لغيره، وإنما يخطب للخليفة ويترحم على شهاب الدين الشهيد حسب، فلما كان في اليوم الرابع أحضر مقدمي الغورية والأتراك وذم من كاتب علاء الدين وأخاه وقبض على أمير دار والي غزنة، فلما كان الغد، وهو سادس عشر رمضان أحضر القضاة والفقهاء والمقدمين وأحضر أيضاً رسول الخليفة، وهو الشيخ مجد الدين أبو علي بن الربيع الفقيه الشافعي مدرّس النظامية ببغداد، وكان قد ورد إلى غزنة رسولاً إلى شهاب الدين، فقتل شهاب الدين، وهو بغزنة فأرسل إليه والى قاضي غزنة يقول له: إنني أريد أن أنتقل إلى الدار السلطانية، وأن أخاطب بالملك، ولا بد من حضورك والمقصود من هذا أن تستقر أمور الناس، فحضر عنده فركب الدز والناس في خدمته وعليه ثياب الحزن، وجلس في الدار في غير مجلس كان يجلس فيه شهاب الدين، فتغيرت لذلك نيات كثير من الأتراك لأنهم كانوا يطيعونه ظناً منهم أنه يريد الملك لغياث الدين، فحيث رأوه يريد الانفراد تغيّروا عن طاعته حتى إن بعضهم بكى غيظاً من فعله، وأقطع

الإقطاعات الكثيرة، وفرق الأموال الجليلة، وكان عند شهاب الدين جماعة من أولاد ملوك الغور وسمرقند وغيرهم، فأنفوا من خدمة الدز، وطلبوا منه أن يقصدوا خدمة غياث الدين وأخيه صاحبي باميان، وأرسل غياث الدين إلى الدز يشكره ويثني عليه لإخراج أولاد بهاء الدين من غزنة، وسيّر له الخلع، وطلب منه الخطبة والسكة فلم يفعل، وأعاد الجواب فغالطه وطلب منه أن يخاطبه بالملك، وأن يعتقه من الرق لأن غياث الدين ابن أخي سيده لا وارث له سواه، وأن يزوج ابنه بابنة الدز فلم يجبه إلى ذلك، واتفق أن جماعة من الغوريين من عسكر صاحب باميان أغاروا على أعمال كرمان وسوران، وهي أقطاع الدز القديمة فغنموا وقتلوا، فأرسل صهره صونج في عسكر، فلقوا سكر الباميان فظفر بهم وقتل منهم كثيراً، وأنفذ رؤوسهم إلى غزنة، فنصبت بها وأجرى الدز في غزنة رسوم شهاب الدين، وفرق في أهلها أموالاً جليلة المقدار، وألزم مؤيد الملك أن يكون وزيراً له فامتنع من ذلك، فألح عليه فأجابه على كره منه، فدخل على مؤيد الملك صديق له يهنئه، فقال: بماذا تهنئني من بعد ركوب الجواد بالحمار وأنشد:

ومن ركب الثور بعد الجوا دأنكر إطلاقه والغبب

بينا الدز يأتي إلى بابي ألف مرة حتى آذن له في الدخول أصبح على بابه، ولو حفظ النفس مع هؤلاء الأتراك لكان لي حكم آخر.

ذكر حال غياث الدين بعد قتل عمه

وأما غياث الدين محمود بن غياث الدين، فإنه كان في أقطاعه وهو بست واسفرار، وكان الملك علاء الدين بن محمد بن علي قد ولّاه شهاب الدين بلاد الغور وغيرها من أرض الراون، فلما بلغه قتله سار إلى فيروزكوه خوفاً أن يسبقه إليها غياث الدين فيملك البلد ويأخذ الخزائن التي بها، وكان علاء الدين حسن السيرة من أكابر بيوت الغورية إلا أن الناس كرهوه لميلهم إلى غياث الدين، وأبى الأمراء من خدمته مع وجود ولد غياث الدين سلطانهم، ولأنه كان كرامياً مغالياً في مذهبه، وأهل فيروزكوه شافعية، وألزمهم أن يجعلوا الإقامة مثنى، فلما وصل إلى فيروزكوه أحضر جماعة من الأمراء منهم محمد المرغني وأخوه ومحمد بن عثمان، وهم من أكابر الأمراء، وحلفهم على مساعدته على

قتال خوارزمشاه وبهاء الدين صاحب باميان، ولم يذكر غياث الدين احتقاراً له، فحلفوا له ولولده من بعده، وكان غياث الدين بمدينة بست لم يتحرك في شيء انتظاراً لما يكون من صاحب باميان، لأنهما كانا قد تعاهدا أيام شهاب الدين أن تكون خراسان لغياث الدين وغزنة والهند لبهاء الدين، وكان بهاء الدين أقوى، فلهذا لم يفعل شيئاً، فلما بلغه خبر موت بهاء الدين، جلس على التخت وخطب لنفسه بالسلطنة عاشر رمضان، وحلف الأمراء الذين قصدوه وهم إسماعيل الخلجي وسونج أمير اشكار وزنكي بن خرجوم وحسين الغوري صاحب تكيا باذ وغيرهم وتلقب بألقاب أبيه غياث الدين.

وكتب إلى علاء الدين محمد بن أبي علي، وهو بفيروزكوه يستدعيه إليه ويستعطفه، ليصده عن رأيه، ويسلم مملكته إليه؛ وكتب إلى الحسين بن خرميل، وإلى هراة مثل ذلك أيضاً، ووعده الزيادة في الإقطاع، فأما علاء الدين فأغلظ له في الجواب، وكتب إلى الأمراء الذين معه، يتهددهم فرحل غياث الدين إلى فيروزكوه، فأرسل علاء الدين عسكراً مع ولده، وفرق فيهم مالاً كثيراً، وخلع عليهم ليمنعوا غياث الدين فلقوه قريباً من فيروزكوه، فلما تراءى الجمعان كشف إسماعيل الخلجي المغفر عن وجهه، وقال: الحمد لله أن الأتراك الذين لا يعرفون آباءهم لم يضيعوا حق التربية، وردوا ابن ملك باميان، وأنتم مشايخ الغورية الذين أنعم عليكم والد هذا السلطان ورباكم وأحسن إليكم كفرتم الإحسان وجئتم تقاتلون ولده أهذا فعل الأحرار، فقال محمد المرغني، وهو مقدم العسكر الذين يصدرون عن رأيه: لا والله، ثم ترجل عن فرسه وألقى سلاحه وقصد غياث الدين وقبل الأرض بين يديه، وبكى بصوتٍ عال، وفعل سائر الأمراء كذلك، فانهزم أصحاب علاء الدين مع ولده، فلما بلغه الخبر خرج عن فيروزكوه هارباً نحو الغور، وهو يقال: أنا أمشي أجاور بمكة، فأنفذ غياث الدين خلفه من رده إليه، فأخذه وحبسه، وملك فيروزكوه، وفرح به أهل البلد، وقبض غياث الدين على جماعة من أصحاب علاء الدين الكرامية وقتل بعضهم، ولمّا دخل غياث الدين فيروزكوه ابتدأ بالجامع، فصلى فيه، ثم ركب إلى دار أبيه، فسكنها وأعاد رسوم أبيه واستخدم حاشيته، وقدم عليه عبد الجبار بن محمد الكيراني وزير أبيه واستوزره، وسلك طريق أبيه في الإحسان والعدل، ولما فرغ غياث الدين من علاء الدين لم يكن له همة إلا ابن خرميل بهراة واجتذابه إلى طاعته، فكاتبه وراسله واتخذه أباً واستدعاه إليه، وكان ابن

خرميل قد بلغه موت شهاب الدين ثامن رمضان، فجمع أعيان الناس، منهم قاضي هراة صاعد بن الفضل النيسابوري، وعلي بن عبد الخلاق بن زياد مدرس النظامية بهراة، وشيخ الإسلام رئيس هراة ونقيب العلويين ومقدمي المحال، وقال لهم: قد بلغني وفاة السلطان شهاب الدين، وأنا في نحو خوارزمشاه، وأخاف الحصار، وأريد أن تحلفوا لي على المساعدة على كل من نازعني، فأجابه القاضي وابن زياد: بأننا نحلف على كل الناس إلا ولد غياث الدين، فحقد عليهما، فلما وصل كتاب غياث الدين خاف ميل الناس إليه، فغالطه في الجواب.

وكان ابن خرميل قد كاتب خوارزمشاه يطلب منه أن يرسل إليه عسكراً ليصير في طاعته، ويمتنع به على الغورية، فطلب منه خوارزمشاه إنفاذ ولده رهينة ويرسل إليه عسكراً، فسيّر ولده إلى خوارزمشاه، فكتب خوارزمشاه إلى عسكره الذين بنيسابور وغيرها من بلاد خراسان يأمرهم بالتوجه إلى هراة، وأن يكونوا يتصرفون بأمر ابن خرميل ويمتثلون أمره هذا، وغياث الدين يتابع الكتب إلى ابن خرميل وهو يحتج بشيء بعد شيء انتظاراً لعسكر خوارزمشاه، ولا يؤيسه من طاعته، ولا يخطب له ويعطيه طاعة غير مستوية، ثم إن الأمير علي بن أبي علي صاحب كالوين أطلع غياث الدين على حال ابن خرميل، فعزم غياث الدين على التوجه إلى هراة فثبطه بعض الأمراء الذين معه، وأشاروا عليه بانتظار آخر أمره، وترك محاققته واستشار ابن خرميل القاضي في أمر غياث الدين، فقال له: علي بن عبد الخلاق بن زياد مدرّس النظامية بهراة، وهو متولي وقوف خراسان التي بيده للغوريّة جميعها: ينبغي أن تخطب للسلطان غياث الدين، وتترك المغالطة إنني أخاف على نفسي، فامض أنت وتوثق لي منه، وكان قصده أن يبعده عن نفسه، فمضى برسالته إلى غياث الدين، وأطلعه على ما يريد ابن خرميل يفعله من الغدر به والميل إلى خوارزمشاه، وحثّه على قصد هراة وقال له: أنا أسلمها إليك ساعة تصل إليها، ووافقه بعض الأمراء وخالفه غيرهم، وقال: ينبغي أن لا تترك له حجة، فترسل إليه تقليداً بولاية هراة، ففعل ذلك، وسيره مع ابن زياد وبعض أصحابه، ثم إن غياث الدين كاتب أميران بن قيصر صاحب الطالقان، يستدعيه إليه، فتوقف وأرسل إلى صاحب مرو ليسير إليه فتوقف أيضاً: فقال له أهل البلد إن لم تسلم البلد إلى غياث الدين وتتوجه وإلا سلمناك وقيدناك وأرسلناك إليه، فاضطر إلى المجيء إلى فيروزكوه،

فخلع عليه غياث الدين وأقطعه إقطاعات شتى، وأقطع الطالقان سونج مملوك أبيه المعروف بأمير اشكار.

ذكر استيلاء خوارزمشاه على بلاد الغورية بخراسان

قد ذكرنا مكاتبة الحسين بن خرميل والي هراة خوارزمشاه، ومراسلته في الانتماء إليه، والطاعة له، وترك طاعة الغورية، وخداعه لغياث الدين، ومغالطته له بالخطبة له والطاعة انتظاراً لوصول عسكر خوارزمشاه، ووصول رسول غياث الدين، وابن زياد بالخطبة، فقال يوم الجمعة نخطب له فاتفق قرب عسكر خوارزمشاه منهم، فلما كان يوم الجمعة قيل له في معنى الخطبة، فقال نحن في شغل أهم منها بوصول هذا العدو، فطالت المجادلات بينهم في ذلك، وهو مصرٌّ على الامتناع منها، ووصل عسكر خوارزمشاه، فلقيهم ابن خرميل، وأنزلهم على باب البلد، فقالوا له: قد أمرنا خوارزمشاه أننا لا نخالف لك أمر فشكرهم على ذلك، وكان يخرج إليهم كل يوم وأقام لهم الوظائف الكثيرة، وأتاه الخبر أن خوارزمشاه نزل على بلخ فحاصرها فلقيه صاحبها وقاتله بظاهر البلد، فلم ينزل بالقرب منها، فنزل على أربعة فراسخ، فندم ابن خرميل على طاعة خوارزمشاه، وقال لخواصه لقد أخطأنا حيث صرنا مع هذا الرجل، فإنني أراه عاجزاً وشرع في إعادة العسكر، فقال للأمراء: إن خوارزمشاه قد أرسل إلى غياث الدين يقول له إنني على العهد الذي بيننا، وأنا أترك ما كان لأبيك بخراسان والمصلحة أن ترجعوا حتى ننظر ما يكون، فعادوا وأرسل إليهم الهدايا الكثيرة.

وكان غياث الدين حيث اتصل به وصول عسكر خوارزمشاه إلى هراة أخذ إقطاع ابن خرميل، وأرسل إلى كرزيان وأخذ كل ما له بها من مال وأولاد ودواب وغير ذلك، وأخذ أصحابه في القيود، وأتاه كتب من يميل إليه من الغورية يقولون له: إن رآك غياث الدين قتلك، ولما سمع أهل هراة بما فعل غياث الدين بأهل ابن خرميل وماله عزموا على قبضه، والمكاتبة إلى غياث الدين بإنفاذ من يتسلم البلد، وكتب القاضي صاعد قاضي هراة وابن زياد إلى غياث الدين بذلك، فلما سمع ابن خرميل بما فعله غياث الدين بأهله، وبما عزم عليه أهل هراة خاف أن يعاجله بالقبض، فحضر عند القاضي وأحضر أعيان البلد، وألان لهم القول، وتقرب إليهم وأظهر طاعة غياث الدين، وقال:

قد رددت عسكر خوارزمشاه وأريد أرسل رسولاً إلى غياث الدين بطاعتي، والذي أوثره منكم أن تكتبوا معه كتاباً بطاعتي، فاستحسنوا قوله، وكتبوا له بما طلب، وسيَّر رسوله إلى فيروزكوه، وأمره إذا جنه الليل أن يرجع على طريق نيسابور يلحق عسكر خوارزمشاه، ويجد السير، فإذا لحقهم ردَّهم إليه، ففعل الرسول ما أمره، ولحق العسكر على يومين من هراة، فأمرهم بالعود، فعادوا، فلما كان اليوم الرابع من سير الرسول وصلوا إلى هراة، والرسول بين أيديهم، فلقيهم ابن خرميل، وأدخلهم البلد والطبولُ تضرب بين أيديهم، فلما دخلوا أخذ ابن زياد الفقيه، فسمله وأخرج القاضي صاعداً من البلد، فسار إلى غياث الدين بفيروزكوه، وأخرج من عنده من الغورية، وكل من يعلم أنه يريدهم وسلم أبواب البلد إلى الخوارزمية.

وأما غياث الدين، فإنه برز من فيروزكوه نحو هراة، وأرسل عسكراً فأخذوا حشيراً كان لأهل هراة، فخرج الخوارزمية فشنوا الغارة على هراة الروذ وغيره، فأمر غياث الدين عسكره بالتقدم إلى هراة، وجعل المقدم عليهم علي بن أبي علي وأقام هو بفيروزكوه لما بلغه أن خوارزمشاه على بلخ، فسار العسكر وعلى يزكه الأمير أميران بن قيصر الذي كان صاحب الطالقان، فأرسل إلى ابن خرميل يعرّفه أنه على اليزك، ويأمره بالمجيء إليه، فإنه لا يمنعه وحلف له على ذلك، فسار ابن خرميل في عسكره، فكبس عسكر غياث الدين، فلم يلحقوا يركبون خيولهم حتى خالطوهم، فقتلوا فيهم، فكفّ ابن خرميل أصحابه عن الغورية خوفاً أن يهلكوا، وغنم وأسر إسماعيل الخلجي، وأقام بمكانه وأرسل عسكره، فشنوا الغارة على البلاد باذغيس وغيرها، وعظم الأمر على غياث الدين، فعزم على المسير إلى هراة بنفسه، فأتاه الخبر أن علاء الدين صاحب باميان قد عاد إلى غزنة ـ على ما نذكره ـ فأقام ينتظر ما يكون منهم ومن الدز.

وأما بلخ فإن خوارزم شاه لمّا بلغه قتل شهاب الدين أخرج من كان عنده من الغوريين الذين كان أسرهم في المصاف على باب خوارزم، فخلع عليهم وأحسن إليهم وأعطاهم الأموال، وقال: إن غياث الدين أخي ولا فرق بيني وبينه، فمن أحب منكم المقام عندي فليقم ومن أحب أن يسير إليه فإني أسيره ولو أراد مني مهما أراد نزلت له عنه وعهد إلي محمد بن علي بن بشيرّ وهو من أكابر الأمراء الغورية، فأحسن إليه وأقطعه استمالة للغورية، وجعله سفيراً بينه وبين صاحب بلخ، فسيّر أخاه علي شاه بين يديه في عسكره إلى بلخ، فلما قاربها خرج إليه عماد الدين عمر بن الحسين الغوري أميرها،

فدفعه عن النزول عليها، فنزل على أربعة فراسخ عنها، فأرسل إلى أخيه خوارزم شاه يعلمه قوتهم، فسار إليها في ذي القعدة من السنة، فلما وصل إلى بلخ خرج صاحبها، فقاتلهم فلم يقو بهم لكثرتهم، فنزلوا فصار يوقع بهم ليلاً، فكانوا معه على أقبح صورة، فأقام صاحب بلخ محاصراً، وهو ينتظر المدد من أصحابه أولاد بهاء الدين صاحب باميان، وكانوا قد اشتغلوا عنه بغزنة ـ على ما ذكرناه ـ وعلى ما نذكره إن شاء الله تعالى ـ فأقام خوارزم شاه على بلخ أربعين يوماً كل يوم يركب إلى الحرب، فيقتل من أصحابه كثير ولا يظفر بشيء، فراسل صاحبها عماد الدين مع محمد بن علي بن بشير الغوري، وبذل له بذلاً كثيراً ليسلم إليه البلد، فلم يجبه إلى ذلك، وقال: لا أسلم البلد إلا إلى أصحابه، فعزم على المسير إلى هراة، فلما سار أصحابه أولاد بهاء الدين صاحب باميان إلى غزنة المرة الثانية ـ على ما نذكره إن شاء الله تعالى ـ وأسرهم تاج الدين الدز عاد عن ذلك العزم، وأرسل محمد بن علي بن بشير إلى عماد الدين نائبه يعرفه حال أصحابه وأسرهم، وأنه لا يبقى عليه حجة ولا له في التأخر عنه عذر، فدخل إليه ولم يزل يخدعه تارة يرغبه وتارة يرهبه حتى أجاب إلى طاعة خوارزم شاه والخطبة له وذكر اسمه على السكة، وقال: أنا أعلم أنه لا يفي له، وأرسل من يستحلفه على ما أراد، فتم الصلح وخرج إلى خوارزم شاه، فخلع عليه وأعاد إلى بلده، وكان سلخ ربيع الأول سنة ثلاث وستمائة، ثم سار خوارزم شاه إلى كرزيان ليحاصرها وبها علي بن أبي علي، وأرسل إلى غياث الدين يقول: إن هذه كان قد أقطعها عمّك لابن خرميل، فتنزل عنها فامتنع وقال: بيني وبينكم السيف، فأرسل إليه خوارزم شاه مع محمد بن علي بن بشير، فرغبه وآيسه من نجدة غياث الدين، ولم يزل به حتى نزل عنها وسلّمها، وعاد إلى فيروزكوه، فأمر غياث الدين بقتله، فشفع فيه الأمراء، فتركه وسلم خوارزم شاه كرزيان إلى ابن خرميل، ثم أرسل إلى عماد الدين صاحب بلخ يطلبه إليه، ويقول: قد حضر معهم ولا غنى عن حضورك، فأنت اليوم من أخص أوليائنا، فحضر عنده فقبض عليه وسيَّره إلى خوارزم ومضى هو إلى بلخ فأخذها واستناب بها جعفراً التركي.

ذكر ملك خوارزم شاه ترمذ وتسلمها إلى الخطا

لما أخذ خوارزمشاه مدينة بلخ سار عنها إلى مدينة ترمذ مجداً وبها ولد عماد الدين الذي كان صاحب بلخ، فأرسل إليه محمّد بن علي بن بشير يقول له: إن أباك قد

صار من أخصّ أصحابي وأكابر أمراء دولتي، وقد سلم إليّ بلخ، وإنما ظهر لي منه ما أنكرته فسيّرته إلى خوارزم مكرماً محترماً، وأما أنت فتكون عندي أخاً ووعده وأقطعه الكثير، فخدعه محمّد بن علي، فرأى صاحبها أن خوارزم شاه قد حصره من جانب، والخطا قد حصروه من جانب آخر، وأصحابه قد أسرهم الدز بغزنة فضعفت نفسه وأسل من يستحلف له خوارزم شاه، فحلف له وتسلم منه ترمذ وسلمها الى الخطا فلقد اكتسب بها خوارزمشاه مسبة عظيمة وذكراً قبيحاً في عاجل الأمر، ثم ظهر للناس بعد ذلك أنه إنما سلمها إليهم ليتمكن بذلك من ملك خراسان، ثم يعود إليهم فيأخذها وغيرها منهم ، لأنه لما ملك خراسان ، وقصد بلاد الخطا وأخذها وأفناهم ظهر على الناس أنه فعل ذلك خديعة ومكراً ـ غفر الله له ـ .

ذكر عود أصحاب باميان إلى غزنة

قد ذكرنا قبل وصول الدز التركي إلى غزنة، وإخراجه علاء الدين وجلال الدين ـ ولدي بهاء الدين سام صاحب باميان ـ منها بعد أن ملكها، وأقام هو في غزنة من عاشر رمضان سنة اثنتين وستمائة إلى خامس ذي القعدة من السنة يحسن السيرة ويعدل في الرعية، وأقطع البلاد للأجناد، فبعضهم قام، وبعضهم سار إلى غياث الدين، ولم يخطب لأحد ولا لنفسه، وكان يعد الناس بأنّ رسولي عند مولاي غياث الدين، فإذا عاد خطبت له، ففرح الناس بقوله: وكان يفعل ذلك مكراً وخديعة بهم وبغياث الدين لأنه لو لم يظهر ذلك لفارقه أكثر الأتراك، وسائر الرعايا؛ وكان حينئذ يضعف عن مقاومة صاحب باميان، فكان يستخدم الأتراك وغيرهم بهذا القول وأشباهه، فلما ظفر بصاحب باميان على ـ ما نذكره ـ أظهر ما كان يضمره، فبينما هو في هذا أتاه الخبر بقرب علاء الدين وجلال الدين ولدي بهاء الدين صاحب باميان في العساكر الكثيرة، وأنهم قد عزموا على نهب غزنة، واستباحة الأموال والأنفس، فخاف الناس خوفاً شديداً، وجهز الدز كثيراً من عسكره، وسيّرهم إلى طريقهم فلقوا أوائل العسكر، فقتل من الأتراك وأدركهم العسكر، فلم يكن لهم قوة بهم، فانهزموا وتبعهم عسكر علاء الدين يقتلون ويأسرون، فوصل المنهزمون إلى غزنة فخرج عنها الدز منهزماً يطلب بلده كرمان، فأدركه بعض عسكر باميان نحو ثلاثة آلاف فارس، فقاتلهم قتالاً شديداً، فردهم عنه وأحضر من كرمان مالاً كثيراً وسلاحاً، ففرقه في العسكر، وأما علاء الدين وأخوه فإنهما تركا غزنة لم يدخلاها، وسارا في أثر الدز، فسمع بهم، فسار عن كرمان فنهب الناس

بعضهم بعضاً، وملك علاء الدين كرمان وأمنوا أهلها، وعزموا على العود إلى غـزنة ونهبها. فسمع أهلها بذلك، فقصدوا القاضي سعيد بن مسعود وشكوا إليه حالهم، فمشى إلى وزير علاء الدين المعروف بالصاحب، وأخبره بحال الناس، فطيب قلوبهم وأخبرهم غيره ممن يثقون إليه أنهم مجمعون على النهب، فاستعدوا وضيّقوا أبواب الدروب والشوارع، وأعدوا العرادات والأحجار، وجاءت التجار من العراق والموصل والشام وغيرها وشكوا إلى أصحاب السلطان، فلم يسكنهم أحد فقصدوا دار مجد الدين ابن الربيع رسول الخليفة، واستغاثوا به فسكنهم ووعدهم الشفاعة فيهم، وفي أهـل البلد، فأرسل إلى أمير كبير من الغورية يقال له: سليمان بن سيسر، وكان شيخاً كبيراً يرجعون إلى قوله يعرفه الحال، ويقول له: يكتب إلى علاء الـدين وأخيه يتشفـع في الناس، ففعل وبالغ في الشفاعة وخوفهم من أهل البلدان أصرُّوا على النهب فأجابوه إلى العفو عن الناس بعد مراجعات كثيرة، وكانوا قد وعدوا من معهم من العساكر بنهب غزنة، فعوضوهم من الخزانة، فسكن الناس.

وعاد العسكر إلى غزنة أواخر ذي القعدة ومعهم الخزانـة التي أخذها الدز من مؤيد الملك لما عاد ومعه شهاب الدين قتيلاً، فكانت مع ما أضيف إليها من الثياب والعين تسعمائة حمل، ومن جملة ما كان فيها من الثياب الممزج المنسوج بالذهب إثني عشر ألف ثوب، وعزم علاء الدين أن يستوزر مؤيد الملك فسمع أخوه جلال الدين فأحضره وخلع عليه على كراهة منه للخلعة واستوزره؛ فلما سمع علاء الدين بذلك قبض على مؤيد الملك وقيده وحبسه فتغيرت نيّات الناس واختلفوا، ثم إن علاء الـدين وجلال الدين اقتسما الخزانة، وجرى بينهما من المشاحنة ما لا يجري بين التجار، فاستدل بذلك الناس على أنهما لا يستقيم لهما حال لبخلهما واختلافهما، وندم الأمراء على ميلهم إليهما وتركهم غياث الدين مع ما ظهر من كرمه وإحسانه، ثم إن جلال الدين وعمه عباساً سارا في بعض العسكر إلى باميان، وبقي علاء الدين بغزنة، فأساء وزيره عماد الملك السيرة مع الأجناد والرعية، ونهب أموال الأتراك حتى أنهم باعوا أمهات أولادهم، وهن يبكين ويصرخن ولا يلتفت إليهن.

ذكر عود الدز إلى غزنة

لما سار جلال الدين عن غزنة، وأقام بها أخوه علاء الدين، جمع الدز ومن معه من

الأتراك عسكراً كثيراً وعادوا إلى غزنة، فوصلوا إلى كلوا فملكوها وقتلوا جماعة من الغورية، ووصل المهزمون إلى كرمان، فسار الدز إليهم، وجعل على مقدمته مملوكاً كبيراً من مماليك شهاب الدين اسمه أي دكز التتر في ألفي فارس من الخلج والأتراك والغز والغورية وغيرهم، وكان بكرمان عسكر لعلاء الدين مع أمير يقال له: ابن المؤيد، ومعه جماعة من الأمراء منهم أبو علي بن سليمان بن سيسر، وهو وأبوه من أعيان الغورية، وكانا مشتغلين باللعب واللهو والشرب لا يفتران من ذلك فقيل لهما: إن عسكر الأتراك قد قربوا منكم، فلم يلتفتا إلى ذلك ولا تركا ما كانا عليه، فهجم عليهم أي دكز التتر ومن معه من الأتراك، فلم يمهلهم يركبون خيولهم، فقتلوا عن آخرهم منهم من قتل في المعركة، ومنهم من قتل صبراً ولم ينج إلا من تركه الأتراك عمداً، ولما وصل الدز، فرأى أمراء الغورية كلهم قتلى، قال: كل هؤلاء قاتلونا فقال أي دكز التتر: لا بل قتلناهم صبراً فلامه على ذلك ووبخه، وأحضر رأس ابن المؤيد بين يديه، فسجد شكراً لله تعالى، وأمر بالمقتولين فغسلوا ودفنوا، وكان في جملة القتلى أبو علي بن سليمان ابن سيسر، ووصل الخبر إلى غزنة في العشرين من ذي الحجة من هذه السنة، فصلب علاء الدين الذي جاء بالخبر، فتغيّمت السماء، وجاء مطر شديد خرّب بعض غزنة، وجاء بعده بردٌ كبار مثل بيض الدجاج، فضج الناس إلى علاء الدين بإنزال المصلوب، فأنزله آخر النهار، فانكشفت الظلمة، وسكن ما كانوا فيه، وملك الدز كرمان وأحسن إلى أهلها، وكانوا في ضر شديد مع أولئك، ولما صح الخبر عند علاء الدين أرسل وزيره الصاحب إلى أخيه جلال الدين في باميان يخبره بحال الدز ويستنجده، وكان قد أعد العساكر ليسير إلى بلخ يُرحل عنها خوارزمشاه، فلما أتاه هذا الخبر، ترك بلخ وسار إلى غزنة، وكان أكثر عسكره من الغورية قد فارقوه وفارقوا أخاه، وقصدوا غياث الدين، فلما كان أواخر ذي الحجة وصل الدز إلى غزنة ونزل هو وعسكره بإزاء قلعة غزنة، وحضر علاء الدين وجرى بينهم قتال شديد، وأمر الدز فنودي في البلد بالأمان، وتسكين الناس من أهل البلد والغورية، وعسكر باميان، وأقام الدز محاصراً للقلعة، فوصل جلال الدين في أربعة آلاف من عسكر باميان، وغيرهم فرحل الدز إلى طريقهم، وكان مقامه إلى أن سار إليهم أربعين يوماً، فلما سار الدز سير علاء الدين من كان عنده من العسكر وأمرهم أن يأتوا الدز من خلفه ويكون أخوه من بين يديه فلا يسلم من عسكره أحد، فلما خرجوا من القلعة سار سليمان بن سيسر الغوري إلى غياث الدين

بفيروزكوه ؛ فلما وصل أكرمه وعظمه وجعله أمير دار فيروزكوه، وكان ذلك في صفر سنة ثلاث وستمائة.

وأما الذز فإنّه سار إلى طريق جلال الدين ، فالتقوا بقرية بلق فاقتتلوا قتالاً صبروا فيه فانهزم جلال الدين وعسكره وأُخذ جلال الدين أسيراً وأُتي به إلى الذز، فلما رآه ترجل وقبل يده، وأمر بالاحتياط عليه وعاد إلى غزنة وجلال الدين معه أسير يقول له ليسلم القلعة إليه وإلا قتل من عنده من الأسرى، فلم يسلمها فقتل منهم أربعمائة أسير بإزاء القلعة، فلما رأى علاء الدين ذلك أرسل مؤيد الملك يطلب الأمان فأمنه الذز، فلما خرج قبل عليه ووكل به وبأخيه من يحفظهما، وقبض على وزيره لسوء سيرته، وكان هندوخان ملكشاه بن خوارزمشاه تكش مع علاء الدين بقلعة غزنة، فلما خرج منها قبض عليه أيضاً، وكتب إلى غياث الدين بالفتح وأرسل إليه الأعلام وبعض الأسرى.

ذكر قصد صاحب مراغة وصاحب إربل أذربيجان

في هذه السنة اتفق صاحب مراغة، وهو علاء الدين هو ومظفر الدين كوكبري صاحب إربل على قصد أذربيجان، وأخذها من صاحبها أبي بكر بن البلهوان لاشتغاله بالشرب ليلاً ونهاراً، وتركه النظر في أحوال المملكة، وحفظ العساكر والرعايا، فسار صاحب إربل إلى مراغة واجتمع هو وصاحبها علاء الدين وتقدما نحو تبريز، فلما علم صاحبها أبو بكر أرسل إلى ايتغمش صاحب بلاد الجبل همذان وأصفهان والري وما بينهما من البلاد، وهو مملوك أبيه البهلوان، وهو في طاعة أبي بكر إلا أنه قد غلب على البلاد، فلا يلتفت إلى أبي بكر، فأرسل إليه أبو بكر يستنجده ويعرفه الحال، وكان حينئذ ببلد الإسماعيلية، فلما أتاه الخبر سار إليه في العساكر الكثيرة، فلما حضر عنده أرسل إلى صاحب إربل يقول له: إننا كنا نسمع عنك أنك تحب أهل العلم والخير وتحسن إليهم، فكنا نعتقد فيك الخير والدين، فلما كان الآن ظهر لنا منك ضد ذلك لقصدك بلاد الإسلام، وقتال المسلمين، ونهب أموالهم وإثارة الفتنة، فإذا كنت كذلك فمالك عقل تجيء إلينا، وأنت صاحب قرية ونحن لنا من باب خراسان إلى خلاط وإلى إربل وأحسب أنك هزمت هذا أما تعلم أن له مماليك أنا أحدهم ولو أخذ من كل قرية شحنة أو من كل مدينة عشرة رجال لاجتمع له أضعاف عسكرك، فالمصلحة أنك ترجع إلى

بلدك، وإنما أقول لك هذا إبقاء عليك، ثم سار نحوه عقيب هذه الرسالة، فلما سمعها مظفر الدين وبلغه مسير ايتغمش عزم على العود فاجتهد به صاحب مراغة ليقيم بمكانه ويسلم عسكره إليه، وقال له: إنني قد كاتبني جميع أمرائه ليكونوا معي إذا قصدتهم، فلم يقبل مظفر الدين من قوله وعاد إلى بلده وسلك الطريق الشاقة، والمضايق الصعبة والعقاب الشاهقة خوفاً من الطلب، ثم إن أبا بكر وايتغمش قصدا مراغة وحصراها، فصالحهما صاحبها على تسليم قلعة من حصونه إلى أبي بكر، هي كانت سبب الاختلاف، وأقطعه أبو بكر مدينتي استوا وأرمية وعاد عنه.

ذكر إيقاع أيتغمش بالإسماعيلية

وفي هذه السنة سار أيتغمش إلى بلاد الإسماعيلية المجاورة لقزوين، فقتل منهم مقتلة كبيرة، ونهب وسبى وحصر قلاعهم، ففتح منها خمس قلاع، وصمّم العزم على حصر الموت واستئصال أهلها فاتفق ما ذكرنا من حركة صاحب مراغة وصاحب إربل واستدعاه الأمير أبو بكر، ففارق بلادهم، وسار إلى أبي بكر كما ذكرناه.

ذكر وصول عسكر خوارزم إلى بلاد الجبل وما كان منهم

وفي هذه السنة سار من عسكر خوارزم طائفة كبيرة نحو عشرة آلاف فارس بأهليهم وأولادهم، فوصلوا إلى زنكان، وكان أيتغمش صاحبها مشغولاً مع صاحب إربل وصاحب مراغة، واغتنموا خلو البلاد، فلما عاد مظفّر الدين إلى بلده وانفصل الحال بين ايتغمش وصاحب مراغة سار أيتغمش نحو الخوارزمية، فلقيهم وقاتلهم، فاشتد القتال بين الطائفتين، ثم انهزم الخوارزميون وأخذهم السيف، فقتل منهم وأسر خلق كثير، ولم ينج منهم إلا الشريد وسُبِي نساؤهم، وغنمت أموالهم، وكانوا قد أفسدوا في البلاد بالنهب والقتل، فلقوا عاقبة فعلهم.

ذكر الغارة من ابن ليون على أعمال حلب

وفي هذه السنة توالت الغارة من ابن ليون الأرمني صاحب الدروب على ولاية حلب، فنهب وحرق وأسر وسبى، فجمع الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف صاحب حلب عساكره، واستنجد غيره من الملوك، فجمع كثيراً من الفارس والراجل، وسار عن حلب نحو ابن ليون، وكان ابن ليون قد نزل في طرف بلاده مما يلي بلد

حلب ، فليس إليه طريق لأن جميع بلاده لا طريق إليها إلا من جبال وعرة ومضايق صعبة، فلا يقدر غيره على الدخول إليها لا سيما من ناحية حلب ، فإنَّ الطريق منها متعذر جداً، فنزل الظاهر على خمسة فراسخ من حلب ، وجعل على مقدمته جماعة من عسكره مع أمير كبير من مماليك أبيه يعرف بميمون القصري ينسب إلى قصر الخلفاء العلويين بمصر لأن أباه منهم أخذه، فأنفذ الظاهر ميرة وسلاحاً إلى حصن له مجاور لبلاد ابن ليون اسمه دربساك، وأنفذ إلى ميمون ليرسل طائفة من العسكر الذين عنده إلى طريق هذه الذخيرة ليسيروا معها إلى دربساك ، ففعل ذلك وسيَّر جماعة كثيرة من عسكره ، وبقي في قلة ، فبلغ الخبر إلى ابن ليون فجدّ، فوافاه وهو مخف من العسكر، فقاتله واشتد القتال بينهم، فأرسل ميمون إلى الظاهر يعرفه، وكان بعيداً عنه فطالت الحرب بينهم، وحمى ميمون نفسه وأثقاله على قلةٍ من المسلمين وكثرة من الأرمن ، فانهزم المسلمون ونال العدو منهم فقتل وأسر، وكذلك أيضاً فعل المسلمون بالأرمن من كثرة القتل ، وظفر الأرمن بأثقال المسلمين، فغنموها وساروا بها ، فصادفهم المسلمون الذين كانوا قد ساروا مع الذخائر إلى دربساك ، فلم يشعروا بالحال ، فلم يرعهم إلا العدو وقد خالطهم ووضع السيف فيهم ، فاقتتلوا أشد قتال ، ثم انهزم المسلمون أيضاً، وعاد الأرمن إلى بلادهم بما غنموا واعتصموا بجبالهم وحصونهم .

ذكر نهب الكرج أرمينية

في هذه السنة قصدت الكرج في جموعها ولاية خلاط من أرمينية، ونهبوا وقتلوا وأسروا وسبوا أهلها كثيراً، وجاسوا خلال الديار آمنين، ولم يخرج إليهم من خلاط من يمنعهم، فبقوا متصرفين في النهب والسبي، والبلاد شاغرة لا مانع لها لأن صاحبها صبي والمدبر لدولته ليست له تلك الطاعة على الجند، فلما اشتد البلاء على الناس تذامروا وحرض بعضهم بعضاً، واجتمعت العساكر الإسلامية الّتي بتلك الولاية جميعها، وانضاف إليهم من المتطوعة كثير، فساروا جميعهم نحو الكرج، وهم خائفون، فرأى بعض الصوفية الأخيار الشيخ محمد البستي وهو من الصالحين، وكان قد مات، فقال له: الصوفي أراك ههنا، فقال: جئت لمساعدة المسلمين على عدوهم فاستيقظ فرحاً بمحل البستي من الإسلام، وأتى إلى مدبر العسكر والقيم بأمره، وقصَّ عليه رؤياه، ففرح بذلك، وقوي عزمه على قصد الكرج، وسار بالعساكر إليهم فنزل

منزلاً، فوصلت الأخبار إلى الكرج، فعزموا على كبس المسلمين، فانتقلوا من موضعهم بالوادي إلى أعلاه فنزلوا فيه ليكبسوا المسلمين إذا أظلم الليل فأتى المسلمين الخبر، فقصدوا الكرج وأمسكوا عليهم رأس الوادي وأسفله، وهو واد ليس إليه غير هذين الطريقين، فلما رأى الكرج ذلك أيقنوا بالهلاك، وسقط في أيديهم، وطمع المسلمون فيهم وضايقوهم وقاتلوهم فقتلوا منهم كثيراً وأسروا مثلهم، ولم يفلت من الكرج إلا القليل، وكفى الله المسلمين شرّهم بعد أن كانوا أشرفوا على الهلاك.

ذكر عـدة حوادث

في هذه السنة في جمادى الآخرة توفي الأمير طاشتكين مجير الدين أمير الحاج بتستر، وكان قد ولّاه الخليفة على جميع خوزستان، وكان أميراً على الحاج سنين كثيرة، وكان خيّراً صالحاً حسن السيرة كثير العبادة يتشيع، ولما مات ولى الخليفة على خوزستان مملوكه سنجر، وهو صهر طاشتكين زوج ابنته.

وفيها قتل سنجر بن مقلد بن سليمان بن مهارش أمير عبادة بالعراق، وكان سبب قتله أنه سعى بأبيه مقلد إلى الخليفة الناصر لدين الله، فأمر بالتوكيل على أبيه فبقي مدّة ثم أطلقه الخليفة، ثم إن سنجرا قتل أخاً له اسمه.....(١).

فأوغر بهذه الأسباب صدور أهله وإخوته، فلما كان هذه السنة في شعبان نزل بأرض المعشوق، وركب في بعض الأيام ومعه إخوته وغيرهم من أصحابه، فلما انفرد عن أصحابه ضربه أخوه علي بن مقلد بالسيف، فسقط إلى الأرض، فنزل إخوته إليه فقتلوه.

وفيها تجهز غياث الدين خسروشاه صاحب مدينة الروم إلى مدينة طرابزون، وحصر صاحبها لأنه كان قد خرج عن طاعته، فضيّق عليه، فانقطعت لذلك الطرق من بلاد الروم والروس وقفجاق وغيرها براً وبحراً، ولم يخرج منهم أحد إلى بلاد غياث الدين، فدخل بذلك ضرر عظيم على الناس لأنهم كانوا يتجرون معهم، ويدخلون بلادهم، ويقصدهم التجار من الشام والعراق والموصل والجزيرة وغيرها، فاجتمع منهم بمدينة سيواس خلق كثير، فحيث لم ينفتح الطريق تأذوا أذى كثيراً، فكان السعيد منهم من عاد إلى رأس ماله.

---

(١) بياض في الأصل.

وفيها تزوج أبو بكر بن البهلوان صاحب أذربيجان وأران بابنة ملك الكرج، وسبب ذلك أن الكرج تابعت الغارات منهم على بلاده لمّا رأوا من عجزه وانهاكه في الشرب واللعب وماجانسهما وإعراضه عن تدبير الملك وحفظ البلاد، فلما رأى هو أيضاً ذلك، ولم يكن عنده من الحمية والأنفة من هذه المناجس ما يترك ما هو مصر عليه، وأنه لا يقدر على الذب عن البلاد عدل إلى الذب عنها بأيره، فخطب ابنة ملكهم، فتزوجها فكفَّ الكرج عن النهب والإغارة والقتل، فكان كما قيل (أغمد سيفه وسل أيره).

وفيها حمل إلى أزيك خروف وجهه صورة آدمي وبدنه بدن خروف، وكان هذا من العجائب.

وفيها توفي القاضي أبو محمد بن محمد المانداي الواسطي بها. وفيها في شوال توفي فخر الدين مبارك شاه بن الحسن المروروذي، وكان حسن الشعر بالفارسية والعربية، وله منزلة عظيمة عند غياث الدين الكبير صاحب غزنة وهراة وغيرهما، وكان له دار ضيافة فيها كتب شطرنج، فالعلماء يطالعون الكتب والجهال يلعبون بالشطرنج. وفيها في ذي الحجة توفي أبو الحسن علي بن علي بن سعادة الفارقي الفقيه الشافعي ببغداد، وبقي مدة طويلة معيداً بالنظامية، وصار مدرّساً بالمدرسة التي أحدثتها أم الخليفة الناصر لدين الله، وكان مع علمه صالحاً طلب للنيابة في القضاء ببغداد، فامتنع فألزم بذلك فوليه يسيراً، ثم في بعض الأيام مشى إلى جامع ابن المطلب، فنزل ولبس مئزر صوف غليظ وغيّر ثيابه وأمر الوكلاء وغيرهم بالانصراف، وأقام به حتى سكن الطلب عنه، وعاد إلى داره بغير ولاية.

وفيها وقع الشيخ أبو موسى المكي المقيم بمقصورة جامع السلطان ببغداد من سطح الجامع فمات، وكان رجلاً صالحاً كثير العبادة. وفيها توفي العفيف أبو المكارم عرفة بن علي بن بصلا البندنيجي ببغداد، وكان رجلا صالحاً منقطعاً إلى العبادة رحمه الله.

ثم دخلت سنة ثلاث وستمائة

ذكر ملك عباس باميان وعودها إلى ابن أخيه

في هذه السنة ملك عباس باميان من علاء الدين وجلال الدين ولدي أخيه بهاء الدين، وسبب ذلك أنّ عسكر باميان لمّا انهزموا من الدز وعادوا إليها أخبروا أن علاء الدين وجلال الدين أُسرا، وأن الدز ومن معه غنموا ما في أيديهما، فأخذ وزير أبيهما المعروف بالصاحب من الأموال كثيراً ومن الجواهر وغيرها من التحف، وأخذ فيلاً وسار إلى خوارزم شاه يستنجده على الدز ليسيّر معه عسكراً يستخلص به صاحبه، فلما فارق باميان، ورأى عمهما عباس خلو البلد منه ومن ابني أخيه جمع أصحابه وقام في البلد فملكه، وصعد إلى القلعة فملكها، وأخرج اصحاب ابني اخيه علاء الدين وجلال الدين منها، فبلغ الخبر إلى الوزير السائر إلى خوارزم شاه، فعاد إلى باميان وجمع الجموع الكثيرة، وحصر عباساً في القلعة، وكان مطاعاً في جميع ممالك بهاء الدين وولديه من بعده، وأقام محاصراً إلا أنه لم يكن معه من المال ما يقوم بما يحتاج إليه، إنما كان معه ما أخذه إلى خوارزم شاه، فلما خلص جلال الدين من أسر الدز ـ على ما نذكره ـ وسار الى باميان، فوصل إلى أرصف، وهي مدينة باميان، وجاء إليه وزير أبيه الصاحب، واجتمع به، وسار إلى القلاع وأرسلوا عباسا المنقلب عليها ولاطفوه، فسلّم الجميع إلى جلال الدين، وقال: إنما حفظتها خوفاً أن يأخذها خوارزم شاه، فاستحسن فعله وعاد إلى ملكه.

ذكر ملك خوارزم شاه الطالقان

لما سلم خوارزم شاه ترمذ إلى الخطا، سار عنها إلى ميهنة واندخوي، وكتب إلى سونج أمير الشكار ـ نائب غياث الدين محمود بالطالقان ـ يستميله، فعاد الرسول خائباً لم يجبه سونج إلى ما أراد منه، وجمع عسكره وخرج يحارب خوارزم شاه، فالتقوا

بالقرب من الطالقان، فلمّا تقابل العسكران حمل سونج وحده مجداً حتى قارب عسكر خوارزم شاه، فالقى نفسه إلى الأرض ورمى سلاحه عنه وقبّل الأرض وسأل العفو فظن خوارزم شاه أنه سكران، فلما علم أنه صاح ذمه وسبه، وقال: من يثق إلى هذا وأشباهه ولم يلتفت إليه، وأخذ ما بالطالقان من مال وسلاح ودواب، وأنفذه إلى غياث الدين مع رسول، وحمّله رسالة تتضمن التقرب إليه والملاطفة له، واستناب بالطالقان بعض أصحابه، وسار إلى قلاع كالوين وبيوار، فخرج إليه حسام الدين علي بن أبي علي صاحب كالوين وقاتله على رؤوس الجبال، فأرسل إليه خوارزم شاه يتهدده إن لم يسلم إليه، فقال: أما أنا فمملوك، وهذه الحصون فهي أمانة بيدي، ولا أسلمها إلا إلى صاحبها، فاستحسن خوارزم شاه منه هذا، وأثنى عليه، وذم سونج، ولما بلغ غياث الدين خبر سونج وتسليم الطالقان إلى خوارزم شاه عظم عنده وشق عليه فسلاه أصحابه وهوّنوا الأمر. ولما فرغ خوارزم شاه من الطالقان سار إلى هراة، فنزل بظاهرها، ولم يمكّن ابن خرميل أحداً من الخوارزميين أن يتطرق بالأذى إلى أهلها، وإنما كان يجتمع منهم الجماعة بعد الجماعة، فيقطعون الطريق، وهذه عادة الخوارزميين، ووصل رسول غياث الدين إلى خوارزم شاه بالهدايا، ورأى الناس عجباً، وذلك أن الخوارزميين لا يذكرون غياث الدين الكبير والد هذا غياث الدين، ولا يذكرون أيضاً شهاب الدين أخاه وهما حيان إلا بالغوري صاحب غزنة، وكان وزير خوارزم شاه الآن مع عظم شأنه وقلة شأن غياث الدين هذا، لا يذكره إلا بمولانا السلطان مع ضعفه وعجزه وقلة بلاده، وأما ابن خرميل فإنه سار من هراة في جمع من عسكر خوارزم شاه، فنزل على اسفرار في صفر، وكان صاحبها قد توجّه إلى غياث الدين فحصرها وأرسل إلى من بها يقسم بالله لئن سلموها أن يؤمنهم، وإن امتنعوا أقام عليهم إلى أن يأخذهم، فإذا أخذهم قهراً لا يُبقي على كبير ولا صغير، فخافوا فسلموها في ربيع الأول فأمنهم ولم يتعرض إلى أهلها بسوء، فلما أخذها أرسل إلى حرب بن محمد صاحب سجستان يدعوه إلى طاعة خوارزم شاه، والخطبة له ببلاده، فأجابه إلى ذلك، وكان غياث الدين قد راسله قبل ذلك في الخطبة والدخول في طاعته، فغالطه، ولم يجبه إلى ما طلب، ولما كان خوارزم شاه على هراة، عاد إليها القاضي صاعد بن الفضل، الذي كان ابن خرميل قد اخرجه من هراة في العام الماضي، وسار إلى غياث الدين، فعاد الآن من عنده، فلما وصل قال ابن خرميل

لخوارزم شاه : إن هذا يميل إلى الغورية ، ويريد دولتهم ، ووقع فيه ، فسجنه خوارزم شاه بقلعة زوزن ، وولى القضاء بهراة الصفي أبا بكر بن محمد السرخسي ، وكان ينوب عن صاعد وابنه في القضاء بهراة .

ذكر حال غياث الدين مع الدز وأيبك

لما عاد الدز إلى غزنة ، وأسر علاء الدين وأخاه جلال الدين ـ كما ذكرناه ـ وكتب اليه غياث الدين يطالبه بالخطبة له فأجابه في هذه المدة أشد منه فيما تقدم ، وأعاد غياث الدين اليه يقول : إما أن تخطب لنا وإما أن تعرفنا ما في نفسك ، فلما وصل الرسول بهذا ، أحضر خطيب غزنة وأمره يخطب لنفسه بعد الترحُّم على شهاب الدين ، فخطب لتاج الدين الدز بغزنة ، فلما سمع الناس ذلك ساءهم ، وتغيرت نياتهم ونيات الأتراك الذين معه ، ولم يروه أهلاً أن يخدموه وإنما كانوا يطيعونه ظنّاً منهم أنه ينصر دولة غياث الدين ، فلما خطب لنفسه أرسل إلى غياث الدين يقول له : بماذا تشتط علي وتتحكم ، هذه الخزانة نحن جمعناها بأسيافنا وهذا الملك قد أخذته ، وأنت قد اجتمع عندك الذين هم اساس الفتنة ، وأقطعتهم الإقطاعات ، ووعدتني بأمور لم تفِ بها ، فإن أنت اعتقتني خطبت لك وحضرت خدمتك ، فلما وصل الرسول أجابه غياث الدين إلى عتق الدز بعد الامتناع الشديد ، والعزم على مصالحة خوارزم شاه على ما يريد ، وقصد غزنة ومحاربته بها فلما أجابه إلى العتق أشهد عليه به وأشهد عليه أيضاً بعتق قطب الدين أيبك مملوك شهاب الدين ونائبه ببلاد الهند ، وأرسل إلى كل واحد منهما ألف قباء وألف قلنسوة ومناطق الذهب وسيوفاً كثيراً وجترين ومائة رأس من الخيل ، وأرسل إلى كل واحد منهما رسولاً ، فقبل الدز الخلع ورد الجتر وقال : نحن عبيد ومماليك والجتر له أصحاب ، وسار رسول أيبك إليه ، وكان بفرشابور قد ضبط المملكة ، وحفظ البلاد ومنع المفسدين من الفساد والأذى ، والناس معه في أمن ، فلما قرب الرسول منه لقيه على بعد وترجل ، وقبّل حافر الفرس ، ولبس الخلعة ، وقال : أما الجتر فلا يصلح للمماليك ، وأما العتق فمقبول وسوف اجازيه بعبودية الأبد ، وأما خوارزم شاه فإنه أرسل إلى غياث الدين ، يطلب منه أن يتصاهرا ، ويطلب منه ابن خرميل صاحب هراة إلى طاعته ، ويسير معه في العساكر إلى غزنة ، فإذا ملكها من الدز اقتسموا المال أثلاثاً ، ثلثاً لخوارزم شاه وثلثاً لغياث الدين وثلثاً للعسكر ، فأجابه إلى ذلك ، ولم يبق إلا الصلح ، فوصل الخبر إلى خوارزم شاه بموت صاحب مازندران ، فسار عن هراة إلى مرو .

وسمع الدز بالصلح، فجزع لذلك جزعاً عظيماً، ظهر أثره عليه، وأرسل إلى غياث الدين يقول له: ما حملك على هذا؟ فقال: حملني عليه عصيانك وخلافك علي، فثار الدز إلى تكياباذ فأخذها، وإلى بُست وتلك الأعمال فملكها وقطع خطبة غياث الدين منها، وأرسل إلى صاحب سجستان بأمره، بإعادة الترحم على شهاب الدين، وقطع خطبة خوارزم شاه وأرسل إلى ابن خرميل صاحب هراة بمثل ذلك وتهددهما بقصد بلادهما، فخالفه الناس، ثم إن الدز أخرج جلال الدين صاحب باميان من أسره، وسير معه خمسة آلاف فارس مع أيدكز التتر، مملوك شهاب الدين إلى باميان ليعيدوه إلى ملكه ويزيلوا ابن عمّه عنه، وزوجه ابنته، وسار ومعه ايدكز، فلما خلا به لامه على لبسه خلعة الدز، وقال: أنتم ما رضيتم تلبسون خلعة غياث الدين، وهو أكبر سناً منكم وأشرف بيتاً، تلبس خلعة هذا المزبون، ، يعني الدز، ودعاه إلى العود معه إلى غزنة، وأعلمه أن الأتراك كلهم مجمعون على خلاف الدز، فلم يجبه إلى ذلك فقال ايدكز فإني لا أسير معك، وعاد إلى كابل وهي أقطاعه، فلما وصل ايدكز إلى كابل لقيه رسول من قطب الدين أيبك إلى الدز، يقبح له فعله، ويأمره بإقامة خطبة غياث الدين، ويخبره انه قد خطب له في بلاده، ويقول له: إن لم يخطب له هو ايضاً بغزنة ويعود إلى طاعته وإلا قصده وحاربه، فلما علم ايدكز ذلك قويت نفسه على محاربة الدز وصمم العزم على قصد غزنة، ووصل أيضا رسول أيبك إلى غياث الدين بالهدايا والتحف، ويشير بإجابة خوارزم شاه إلى ما طلب. الآن، وعند الفراغ من أمر غزنة تسهل امور خوارزم شاه وغيره، وأنفذ له ذهباً عليه اسمه، فكتب أيدكز إلى أيبك يعرفه عصيان الدز على غياث الدين وما فعله في البلاد وأنه على عزم مشافقة الدز، وهو ينتظر أمره، فأعاد أيبك جوابه يأمره بقصد غزنة، فإن حصلت له القلعة أقام بها إلى أن يأتيه، وإن لم تحصل له القلعة، وقصده الدز انحاز إليه أو إلى غياث الدين أو يعود إلى كابل، فسار إلى غزنة، وكان جلال الدين قد كتب إلى الدز يخبره خبر أيدكز، وما عزم عليه، فكتب الدز إلى نوابه بقلعة غزنة يأمرهم بالاحتياط منه، فوصلها ايدكز أول رجب من السنة وقد حذروه، فلم يسلموا إليه القلعة ومنعوه عنها، فأمر اصحابه بنهب البلد، فنهبوا عدة مواضع منه، فتوسط القاضي الحال بأن سلم إليه من الخزانة خمسين ألف دينارركنية، وأخذ له من التجار شيئاً آخر وخطب أيدكز بغزنة لغياث الدين وقطع خطبة الدز، ففرح الناس بذلك، وكان مؤيد الملك ينوب عن الدز بالقلعة.

ووصل الخبر إلى الدز بوصول أيدكز إلى غزنة ووصول رسول أيبك إليه، ففت في عضده، وخطب لغياث الدين في تكياباذ، وأسقط اسمه من الخطبة فخطب له ورحل إلى غزنة، فلما قاربها ورحل ايدكز عنها إلى بلد الغور، فأقام في تمران، وكتب إلى غياث الدين يخبره بحاله، وأنفذ إليه المال الذي أخذه من الخزانة ومن أموال الناس، فأرسل إليه خلعاً واعتقه وخاطبه بملك الأمراء، ورد عليه المال الذي كان أخذه من الخزانة، وقال له: أما مال الخزانة فقد أعدناه إليك لتخرجه، وأما أموال التجار وأهل البلد فقد أرسلته مع رسولي ليعاد إلى أربابه لئلا نفتتح دولتنا بالظلم وقد عوضتك عنه ضعفه، وأرسل أموال الناس إلى غزنة إلى قاضي غزنة، وأمره أن يرد المال المنفذ على أربابه، فأنهى القاضي الحال إلى الدز، وأشار عليه بالخطبة لغياث الدين، وقال: أنا أسعى في الوصلة بينكما والصلح فأمره بذلك، فبلغ الخبر إلى غياث الدين، فأرسل إلى القاضي ينهاه عن المجيء إليه، وقال: لا تسأل في عبد أبق قدبان فساده واتضح عناده، فأقام هو والدز وسيّر غياث الدين عسكر إلى أيدكز التتر، فأقاموا معه، وسيّر الدز عسكر إلى روين كان ـ وهي لغياث الدين وقد أقطعها لبعض الأمراء ـ فهجموا على صاحبها فنهبوا ماله وأخذوا أولاده، فنجا وحده إلى غياث الدين، فاقتضى الحال أن سار غياث الدين إلى بست وتلك الولاية، فاستردها وأحسن إلى أهلها، وأطلق لهم خراج سنة لما نالهم من الدز من الأذى.

ذكر وفاة صاحب مازندران والخلف بين أولاده

في هذه السنة توفّي حسام الدين أردشير صاحب مازندران، وخلّف ثلاثة أولاد، فملك بعده ابنه الأكبر، وأخرج أخاه الأوسط من البلاد، فقصد جرجان وبها الملك علي شاه بن خوارزم شاه تكش أخو خوارزم شاه محمد، وهو ينوب عن أخيه فيها، فشكا إليه ما صنع به أخوه من إخراجه من البلاد، وطلب منه أن ينجده عليه، ويأخذ له البلاد ليكون في طاعته، فكتب علي شاه إلى أخيه خوارزم شاه في ذلك، فأمره بالمسير معه إلى مازندران وأخذ البلاد له وإقامة الخطبة لخوارزم شاه فيها، فساروا عن جرجان، فاتّفق أن حسام الدين صاحب مازندران مات في ذلك الوقت، وملك البلاد بعده أخوه الأصغر، واستولى على القلاع، والأموال، فوصل علي شاه البلاد ومعه صاحب مازندران فنهبوها وخربوها، وامتنع منهم الأخ الصغير بالقلاع، وأقام بقلعة كورا ـ وهي التي فيها الأموال والذخائر ـ وحصره فيها بعد أن ملكوا أسامة البلاد مثل سارية وآمل

وغيرها من البلاد والحصون، وخطب لخوارزم شاه فيها جميعها فصارت في طاعته وعاد عليّ شاه إلى جرجان، وأقام ابن ملك مازندران في البلاد مالكها جميعها سوى القلعة التي فيها أخوه الأصغر، وهو يراسله ويستميله ويستعطفه، وأخوه لا يرد جواباً ولا ينزل في حصنه.

ذكر ملك غياث الدين كيخسرو مدينة أنطاكية

في هذه السنة ثالث شعبان، ملك غياث الدين كيخسرو ـ صاحب قونية وبلد الروم ـ مدينة أنطاكية بالأمان، وهي للروم على ساحل البحر، وسبب ذلك أنه كان حصرها قبل هذا التاريخ، وأطال المقام عليها وهدم عدَّة أبراج من سورها، ولم يبق إلا فتحها عنوة، فأرسل من بها من الروم إلى الفرنج الذين بجزيرة قبرس وهي قريبة منها، فاستنجدوهم فوصل إليها جماعة منهم، فعند ذلك يئس غياث الدين منها، ورحل عنها، وترك طائفة من عسكره، بالقرب منها بالجبال التي بينها وبين بلاده وأمرهم بقطع الميرة عنها، فاستمر الحال على ذلك مدة، حتى ضاق بأهل البلد واشتد الأمر عليهم، فطلبوا من الفرنج الخروج لدفع المسلمين عن مضايقتهم، فظنَّ الفرنج أن الروم يريدون إخراجهم من المدينة بهذا السبب فوقع الخلف بينهم فاقتتلوا فأرسل الروم إلى المسلمين وطلبوهم ليسلموا إليهم البلد فوصلوا إليهم واجتمعوا معهم على قتال الفرنج، فانهزم الفرنج ودخلوا الحصن فاعتصموا به، فأرسل المسلمون يطلبون غياث الدين، وهو بمدينة قونية، فسار إليهم مجدّاً في طائفة من عسكره، فوصلها ثاني شعبان، وتقرَّر الحال بينه وبين الروم، وتسلم المدينة ثالثه، وحصر الحصن الذي فيه الفرنج وتسلمه، وقتل كل من كان به من الفرنج.

ذكر عزل ولد بكتمر صاحب خلاط وملك بلبان ومسير صاحب ماردين إلى خلاط وعوده

وفي هذه السنة، قبض عسكر خلاط على صاحبها، ولد بكتمر وملكها بلبان مملوك شاه أرمن بن سكمان، وكتب اهل خلاط إلى ناصر الدين ارتق بن أيلغازي بن ألبي بن تمرتاش بن أيلغازي بن أرتق، يستدعونه إليها، وسبب ذلك أن ولد بكتمر كان صبياً جاهلاً، فقبض على الأمير شجاع الدين قتلغ مملوك من مماليك شاه أرمن وهو كان

أتابكه ومدبر بلاده، وكان حسن السيرة مع الجند والرعية ، فلما قتله اختلفت الكلمة عليه من الجند والعامة، واشتغل هو باللهو واللعب وإدمان الشرب، فكاتب جماعة من أهل خلاط وجماعة من الجند ناصر الدين صاحب ماردين يستدعونه إليهم، وإنما كاتبوه دون غيره من الملوك لأن أباه قطب الدين أيلغازي كان ابن اخت شاه ارمن بن سكمان، وكان شاه ارمن قد حلف له الناس في حياته لأنه لم يكن له ولد، فلما تجدَّدت بعده هذه الحادثة، تذاكروا تلك الأيمان، وقالوا: نستدعيه ونملكه فإنه من أهل شاه ارمن،فكاتبوه،وطلبوه إليهم، ثم إنّ بعض مماليك شاه أرمن اسمه بلبان، وكان قد جاهر ولد بكتمر بالعداوة والعصيان ، سار من خلاط إلى بلاد ماز كرد وملكها، واجتمع الأجناد عليه وكثر جمعه، وسار إلى خلاط فملكها، واتّفق وصول صاحب ماردين إليها، وهو يظن أن أحداً لا يمتنع عليه ويسلمون إليه المدينة، فنزل قريباً من خلاط عدّة أيام، فأرسل إليه بلبان يقول له: إن أهل خلاط قد اتهموني بالميل إليك، وهم ينفرون من العرب، والرأي أنك ترحل عائداً مرحلة واحدة وتقيم، فإذا تسلَّمت البلد سلمته إليك لأنني لا يمكنني أن أملكه أنا، ففعل صاحب ماردين ذلك، فلما أبعد عن خلاط أرسل إليه يقول له: تعود إلى بلدك، وإلا جئت إليك وأوقعت بك وبمن معك، وكان في قلة من الجيش، فعاد إلى ماردين، وكان الملك الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب صاحب حران وديار الجزيرة، قد أرسل إلى صاحب ماردين لما سمع أنه يريد قصد خلاط يقول له: إن سرت الى خلاط قصدت بلدك، وانما خاف ان يملك خلاط فيقوى عليهم، فلما سار الى خلاط جمع الأشرف العساكر ، وسار إلى ولاية ماردين ، فأخذ دخلها وأقام بدنيسر حتى تجيء الأموال إليه، فلما فرغ منه عاد إلى حرّان، فكان مثل صاحب ماردين كما قيل : (خرجت النعامة تطلب قرنين عادت بلا أذنين).

وأما بلبان فإنه جمع العسكر وحشد وحصر خلاط، وضيّق على أهلها وبها ولد بكتمر، فجمع من عنده بالبلد من الأجناد والعامة، وخرج إليه، فالتقوا، فانهزم بلبان ومن معه من بين يديه، وعاد إلى الذي بيده من البلاد، وهو ملان كرد وأرجيش وغيرهما من الحصون، وجمع العساكر واستكثر منها، وعاود حصار خلاط، وضيَّق على أهلها، فاضطرهم إلى خذلان ولد بكتمر لصغره وجهله بالملك واشتغاله بلهوه ولعبه، ثم قبضوا عليه في القلعة وارسلوا إلى بلبان وحلّفوه على ما أرادوا وسلَّموا إليه البلد وابن بكتمر،

واستولى على جميع أعمال خلاط، وسجن ابن بكتمر في قلعة هناك، واستقر ملكه، فسبحان من إذا أراد أمراً هيأ أسبابه، بالأمس يقصدها شمس الدين محمد بن البهلوان وصلاح الدين يوسف بن أيوب، فلم يقدر أحدهما عليها، والآن يظهر هذا المملوك العاجز القاصر عن الرجال والبلاد والأموال، فيملكها صفواً عفواً، ثم إن نجم الدين أيوب بن العادل صاحب ميافارقين سار نحو ولاية خلاط، وكان قد استولى على عدّة حصون من أعمالها، منها حصن موسى ومدينته، فلما قارب خلاط أظهر له بلبان العجز عن مقابلته، فطمع وأوغل في القرب، فأخذ عليه بلبان الطريق وقاتله، فهزمه، ولم يفلت من أصحابه إلا القليل وهم جرحى، وعاد إلى ميافارقين.

ذكر ملك الكرج مدينة قرس وموت ملكة الكرج

في هذه السنة ملك الكرج حصن قرس، من أعمال خلاط، وكانوا قد حصروه مدّة طويلة، وضيقوا على من فيه، وأخذوا دخل الولاية عدّة سنين، وكلّ من نزل خلاط لا ينجدهم ولا يسعى في راحة تصل إليهم، وكان الوالي بها يواصل رسله في طلب النجدة وإزاحة من عليه من الكرج، فلا يجاب له دعاء، فلما طال الأمر عليه ورأى أن لا ناصر له صالح الكرج على تسليم القلعة على مال كثير وأقطاع يأخذه منهم، وصارت دار شرك بعد أن كانت دار توحيد، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ونسأل الله أن يسهل للإسلام وأهله نصراً من عنده، فإن ملوك زماننا قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم وظلمهم عن سد الثغور وحفظ البلاد، ثمّ إنّ الله تعالى نظر إلى قلة ناصر الإسلام فتولاه، فأمات ملكة الكرج، واختلفوا فيما بينهم، وكفى الله شرّهم إلى آخر السنة.

ذكر الحرب بين عسكر الخليفة وصاحب كرستان

في هذه السنة في رمضان سار عسكر الخليفة من خوزستان مع مملوكه سنجر، وهو كان المتولّي لتلك الأعمال وليها بعد موت طاشتكين أمير الحاج لأنه زوّج ابنة طاشتكين إلى جبال كرستان، وصاحبها يعرف بأبي طاهر، وهي جبال منيعة بين فارس وأصبهان وخوزستان، فقاتلوا أهلها، وعادوا منهزمين، وسبب ذلك أن مملوكا للخليفة الناصر لدين الله اسمه قشتمر من أكابر مماليكه، كان قد فارق الخدمة لتقصير رآه من الوزير نصير الدين العلوي الرازي، واجتاز بخوزستان وأخذ منها ما أمكنه، ولحق بأبي طاهر صاحب كرستان، فأكرمه وعظمه وزوجه ابنته، ثم توفّي أبو طاهر، فقوي أمر قشتمر

وأطاعه أهل تلك الولاية، فأمر سنجر بجمع العساكر وقصده وقتاله، ففعل سنجر ما أمر به وجمع العساكر وسار إليه، فأرسل قشتمر يعتذر ويسأل أن لا يقصده، ويخرج إلى الخروج عن العبودية، ولم يقبل عذره، فجمع أهل تلك الأعمال، ونزل إلى العسكر فلقيهم فهزمهم، وأرسل إلى صاحب فارس بن دكلا وشمس الدين أيتغمش صاحب اصبهان وهمذان والري يعرفهما الحال، ويقول: إني لا قوّة لي بعسكر الخليفة لما أضيف اليهم عساكر أخرى من بغداد، وعادوا إلى حربي وحينئذ لا أقدر بهم وطلب منهما النجدة وخوّفهما من عسكر الخليفة إن ملك تلك الجبال فأجاباه إلى ما طلب، فقوي جنابه واستمر على حاله.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قتل صبيّ صبيّاً آخر ببغداد، وكانا يتعاشران، وعمر كل واحد منهما يقارب عشرين سنة، فقال احدهما للآخر، الساعة أضربك بهذه السكين يمازحه بذلك، وأهوى نحوه بها فدخلت في جوفه فمات، فهرب القاتل ثم أخذ وأمر به ليقتل، فلما أرادوا قتله طلب دواة وبيضاء وكتب فيها من قوله:

قَدمْتَ على الكريمِ بغيرِ زادٍ ... من الأعْمالِ بالقلبِ السليمِ
وسوءُ الظنِّ أنْ تعتدّ زاداً ... إذا كانَ القدومُ على كريمِ

وفيها حج برهان الدين صدر جهان محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن مارة البخاري رئيس الحنفية ببخارا، وهو كان صاحبها على الحقيقة يؤدّي الخراج إلى الخطا، وينوب عنهم في البلد، فلمّا حجّ لم تحمد سيرته في الطريق ولم يصنع معروفاً، وكان قد أكرم ببغداد عند قدومه من بخارا، فلما عاد لم يلفت اليه لسوء سيرته مع الحاج، وسمّاه الحجّاج صدر جهنم.

وفيها في شوال مات شيخنا أبو الحرم مكّي بن ريّان بن شبة النحوي المقري بالموصل، وكان عارفاً بالنحو واللغة والقراءات، لم يكن في زمانه مثله وكان ضريراً، وكان يعرف سوى هذه العلوم من الفقه والحساب وغير ذلك معرفة حسنة، وكان من خيار عباد الله وصالحيهم، كثير التواضع لا يزال الناس يشتغلون عليه من بكرة إلى الليل.

وفيها فارق أمير الحاج مظفَّر الدين سنقر مملوك الخليفة المعروف بوجه السبع الحاج بموضع يقال له المرخوم، ومضى في طائفة من اصحابه إلى الشام، وسار الحاج ومعهم الجند، فوصلوا سالمين، ووصل هو إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب، فأقطعه أقطاعاً كثيراً بمصر، وأقام عنده إلى أن عاد إلى بغداد سنة ثمان وستمائة في جمادى الأولى، فإنه لما قبض الوزير أمن على نفسه وأرسل يطلب العود، فأجيب إليه، فلما وصل أكرمه الخليفة وأقطعه الكوفة.

وفيها في جمادى الآخرة، توفّي ابو الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز الإسكندراني، المعروف بابن النظروني في مارستان ببغداد، وكان قد مضى إلى المايورقي في رسالة بافريقية، فحصل له منه عشرة آلاف دينار مغربية، ففرقها جميعها في بلده على معارفه وأصدقائه، وكان فاضلاً خيراً، نعم الرجل رحمه الله، وله شعر حسن، وكان قيّماً بعلم الأدب، وأقام بالموصل مدّة، واشتغل على الشيخ أبي الحرم، واجتمعتُ به كثيراً عند الشيخ أبي الحرم ـ رحمه الله ـ.

ثم دخلت سنة أربع وستمائة

ذكر ملك خوارزم شاه وراء النهر وما كان بخراسان من الفتن وإصلاحها

في هذه السنة عبر علاء الدين محمد بن خوارزم شاه نهر جيحون لقتال الخطا، وسبب ذلك أنَّ الخطا كانوا قد طالت أيّامهم ببلاد تركستان وما وراء النهر، وثقلت وطأتهم على أهلها، ولهم في كل مدينة نائب يجبي إليهم الأموال، وهم يسكنون الخركاهات على عادتهم قبل أن يملكوا، وكان مقامهم بنواحي أوزكند وبلاساغون وكاشغر وتلك النواحي، فاتّفق أن سلطان سمرقند وبخارا، ويلقب خان خانان ـ يعني سلطان السلاطين ـ وهو من أولاد الخانية عريق النسب في الإسلام، والملك أنف وضجر من تحكم الكفار على المسلمين، فأرسل إلى خوارزم شاه يقول له: إنَّ الله عز وجل قد أوجب عليك بما أعطاك، من سعة الملك، وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين وبلادهم من أيدي الكفار، وتخلصهم مما يجري عليهم من التحكم في الأموال والأبشار، ونحن نتفق معك على محاربة الخطا، ونحمل إليك ما نحمله إليهم، ونذكر اسمك في الخطبة وعلى السكة، فأجابه إلى ذلك، وقال: أخاف أنكم لا توفون لي، فسيَّر إليه صاحب سمرقند وجوه أهل بخارا وسمرقند بعد أن حلفوا صاحبهم على الوفاء بما تضمنه، وضمنوا عنه الصدق والثبات على بذل، وجعلوا عنده رهائن، فشرع في إصلاح أمر خراسان وتقرير قواعدها، فولّى أخاه علي شاه طبرستان مضافة إلى جرجان، وأمر بالحفظ والاحتياط، وولَّى الأمير كزلك خان، وهو من أقارب أمه وأعيان دولته بنيسابور ،وجعل معه عسكراً، وولَّى الأمير جلدك مدينة الخام، وولى الأمير أمين الدين أبا بكر مدينة زوزن، وكان هذا أمين الدين حمالاً، ثم صار أكبر الأمراء، وهو الذي ملك كرمان ـ على ما نذكره إن شاء الله تعالى ـ وأقر الأمير الحسين على هراة، وجعل معه فيها ألف فارس من الخوارزمية، وصالح غياث الدين محموداً على ما بيده من بلاد الغور

وكرمسير، واستناب في مرو وسرخس، وغيرهما من خراسان نواباً، وأمرهم بحسن السياسة والحفظ والاحتياط ، وجمع عساكره جميعها وسار إلى خوارزم، وتجهز منها وعبر جيحون، واجتمع بسلطان سمرقند، وسمع الخطا فحشدوا وجمعوا وجاؤوا إليه، فجرى بينهم وقعات كثيرة ومغاورات، فتارة له وتارة عليه.

ذكر قتل ابن خرميل وحصر هراة وأسر خوارزمشاه وخلاصه

ثم إن خرميل صاحب هراة رأى سوء معاملة عسكر خوارزمشاه للرعية وتعديهم إلى الأموال، فقبض عليهم وحبسهم وبعث رسولاً إلى خوارزمشاه يعتذر ويعرفه ما صنعوا، فعظم عليه ولم يمكنه محاققته لاشتغاله بقتال الخطا، فكتب اليه يتحسن فعله ويأمره بانفاذ الجند الذين قبض عليهم لحاجته إليهم، وقال له: إنني قد أمرت عز الدين جلدك ابن طغرل صاحب الخام أن يكون عندك لما أعلمه من عقله، وحسن سيرته، وأرسل إلى جلدك يأمره بالمسير إلى هراة، وأسرّ إليه أن يحتال في القبض على حسين بن خرميل، ولو أول ساعة يلقاه، فسار جلدك في ألفي فارس، وكان أبوه طغرل أيّام السلطان سنجر والياً بهراة، فهوى إليها بالأشواق يختارها على جميع خراسان، فلما قارب هراة أمر ابن خرميل الناس بالخروج بتلقيه، وكان للحسين وزير يعرف بخواجه الصاحب، وكان كبيراً قد حنكته التجارب، فقال لابن خرميل: لا تخرج إلى لقائه، ودعه يدخل إليك منفرداً، فإنني أخاف أن يغدر بك، وأن يكون خوارزمشاه أمر بذلك، فقال: لا يجوز أن يقدم مثل هذا الأمير ولا ألتقيه، وأخاف أن يضطغن ذلك على خوارزشماه وما أظنه يتجاسر عليّ، فخرج إليه الحسين بن خرميل، فلما بصر كل واحد منهما بصاحبه ترجل للالتقاء، وكان جلدك قد أمر أصحابه بالقبض عليه، فاختلطوا بهما، وحالوا بين ابن خرميل وأصحابه، وقبضوا عليه، فانهزم اصحابه ودخلوا المدينة وأخبروا الوزير بالحال، فأمر بإغلاق الباب والطلوع إلى الأسوار، واستعد للحصار، ونزل جلدك على البلد، وأرسل إلى الوزير يبذل له الأمان ويتهدده إن لم يسلم البلد بقتل ابن خرميل فنادى الوزير بشعار غياث الدين محمود الغوري، وقال لجلدك: لا أسلم البلد إليك، ولا إلى الغادر ابن خرميل، وإنما هو لغياث الدين ولأبيه قبله، فقدموا ابن خرميل إلى السور، فخاطب الوزير وأمره بالتسليم، فلم يفعل فقتل ابن خرميل، وهذه عاقبة الغدر، فقد تقدَّم من أخباره عند شهاب الدين الغوري ما يدل على غدره، وكفرانه الإحسان

ممن أحسن إليه، فلما قتل ابن خرميل كتب جلدك إلى خوارزمشاه بجلية الحال، فأنفذ خوارزمشاه إلى كزلك خان، وإلى نيسابور أمين الدين أبي بكر صاحب زوزن، يأمرهما بالمسير إلى هراة وحصارها وأخذها، فسارا في عشرة آلاف فارس فنزلوا على هراة، وراسلوا الوزير بالتسليم، فلم يلتفت إليهم وقال: ليس لكم من المحل ما يسلم إليكم مثل هراة، لكن إذا وصل السلطان خوارزمشاه سلمتها إليه، فقاتلوه وجدوا في قتاله، فلم يقدروا عليه، وكان ابن خرميل قد حصن هراة، وعمل لها أربعة أسوار محكمة، وحفر خندقهاوشحنها بالميرة، فلما فرغ من كل ما أراد، قال: بقيت أخاف على هذه المدينة شيئاً واحداً، وهو ان تسكر المياه التي لها أياماً كثيرة، ثم ترسل دفعة واحدة، فتخرق أسوارها، فلما حصرها هؤلاء سمعوا قول ابن خرميل، فسكروا المياه حتى اجتمعت كثيراً، ثم اطلقوها على هراة، فأحاطت بها، ولم تصل إلى السور لأن أرض المدينة مرتفعة، فامتلأ الخندق ماء، وصار حولها وحل، فانتقل العسكر عنهم، ولم يمكنهم القتال لبعدهم عن المدينة، وهذا كان قصد ابن خرميل أن يمتلىء الخندق ماء، ويمنع الوحل من القرب عن المدينة، فأقاموا مدّة حتى نشف الماء، فكان قول ابن خرميل من أحسن الحيل.

ونعود الى قتال خوارزمشاه الخطا وأسره، وأما خوارزمشاه فإنه دام القتال بينه وبين الخطا، ففي بعض الأيام اقتتلوا، واشتد القتال ودام بينهم، ثم انهزم المسلمون هزيمة قبيحة، وأسر كثير منهم، وقتل كثير، وكان من جملة الأسرى خوارزمشاه، وأسر معه أمير كبير يقال له: فلان بن شهاب الدين مسعود، أسرهما رجل واحد، ووصلت العساكر الإسلامية إلى خوارزم، ولم يروا السلطان معهم، فأرسلت أخت كزلك خان صاحب نيسابور، وهو يحاصر هراة وأعلمته الحال، فلما أتاه الخبر سار عن هراة ليلاً إلى نيسابور، وأحس به الأمير أمين الدين أبو بكر صاحب زوزن، فأراد هو ومن عنده من الأمراء منعه، مخافة أن يجري بينهم حرب، يطمع بسببها أهل هراة فيهم، فيخرجون اليهم فيبلغون منهم ما يريدونه، فامسكوا عن معارضته، وكان خوارزمشاه قد خرَّب سور نيسابور لما ملكها من الغورية فشرع كزلك خان يعمّره، وأدخل اليها الميرة واستكثر من الجند، وعزم على الإستيلاء على خراسان إن صح فقد السلطان، وبلغ خبر عدم السلطان إلى أخيه علي شاه، وهو بطبرستان فدعا إلى نفسه وقطع خطبة أخيه، واستعد لطلب السلطنة، واختلطت خراسان اختلاطاً عظيماً، وأما السلطان خوارزمشاه فإنه لما

أسر قال له ابن شهاب الدين مسعود: يجب ان تدع السلطنة في هذه الأيّام وتصير خادماً لعلي احتال في خلاصك، فشرع يخدم ابن مسعود ويقدم له الطعام، ويخلعه ثيابه وخفه ويعظمه، فقال الرجل الذي أسرهما لابن مسعود: أرى هذا الرجل يعظِّمك فمن أنت؟ فقال: أنا فلان وهذا غلامي، فقام إليه وأكرمه وقال: لولا أن القوم عرفوا بمكانك عندي لأطلقتك، ثم تركه أيّاماً، فقال له ابن مسعود: إني خاف ان يرجع المنهزمون فلا يراني أهلي معهم فيظنون أني قتلت، فيعملون العزاء والمأتم وتضيق صدورهم لذلك، ثم يقتسمون مالي فأهلك، واحب أن تقرر عليّ شيئاً من المال حتى أحمله إليك، فقرر عليه مالا، وقال له: أريد أن تأمر رجلًا عاقلًا يذهب بكتابي الى اهلي ويخبرهم بعافيتي ويحضر معه من يحمل المال ثم قال: إن اصحابكم لا يعرفون أهلنا، ولكن هذا غلامي أثق به ويصدقه أهلي فأذن له الخطائي بإنفاذه فسيَّره وأرسل معه الخطائي فرساً وعدة من الفرسان يحمونه، فساروا حتى قاربوا خوارزم وعاد الفرسان عن خوارزمشاه، ووصل خوارزمشاه إلى خوارزم، فاستبشر به الناس وضربت البشائر وزيَّنوا البلد، وأتته الأخبار بما صنع كزلك بنيسابور، وبما صنع أخوه علي شاه بطبرستان.

ذكر ما فعله خوارزمشاه بخراسان

لما وصل خوارزمشاه إلى خوارزم، أتته الأخبار بما فعله كزلك خان وأخوه علي شاه وغيرهم، فسار إلى خراسان وتبعته العساكر فتقطعت، ووصل هو إليها في اليوم السادس ومعه ستة فرسان، وبلغ كزلك خان وصوله، فأخذ أمواله وعساكره، وهرب نحو العراق، وبلغ أخاه علي شاه فخافه، وسار على طريق قهستان ملتجئا الى غياث الدين محمود الغوري صاحب فيروزكوه، فتلقاه وأكرمه وأنزله عنده، وأما خوارزم شاه، فإنه دخل نيسابور، وأصلح أمرها، وجعل فيها نائباً، وسار إلى هراة، فنزل عليها مع عسكره الذين يحاصرونه، وأحسن إلى أولئك الأمراء، ووثق بهم لأنهم صبروا على تلك الحال ولم يتغيروا، ولم يبلغوا من هراة غرضا بحسن تدبير ذلك الوزير، فأرسل خوارزمشاه إلى الوزير يقول له: إنك وعدت عسكري أنك تسلم المدينة إذا حضرت فسلم، فقال: لا أفعل لأني أعرف أنكم غدّارون لا تبقون على أحد، ولا أسلم البلد إلا إلى غياث الدين محمود، فغضب خوارزمشاه من ذلك، وزحف إليه بعساكره فلم يكن فيه حيلة فاتفق جماعة من أهل هراة، وقالوا هلك الناس من الجوع والقلة، وقد تعطلت علينا

معايشنا وقد مضى سنة وشهر، وكان الوزير وعد تسليم البلد إلى خوارزمشاه إذا وصل إليه، وقد حضر خوارزمشا ه ولم يسلم، ويجب أن نحتال في تسليم البلد والخلاص من هذه الشدّة التي نحن فيها، فانتهى ذلك إلى الوزير، فبعث إليهم جماعة من عسكره، وأمره بالقبض عليهم، فمضى الجند إليهم، فثارت فتنة في البلد عظم خطبها، فاحتاج الوزير إلى تداركها بنفسه، فمضى لذلك، فكتب من البلد إلى خوارزمشاه بالخبر، وزحف إلى البلد وأهله مختلطون، فخربوا برجين من السور، ودخلوا البلد فملكوه وقبضوا على الوزير، فقتله خوارزمشاه، وملك البلد، وذلك سنة خمس وستمائة، وأصلح حاله وسلمه إلى خاله أمير ملك، وهو من أعيان امرائه، فلم تزل بيده حتى هلك خوارزمشاه، وأما ابن شهاب الدين مسعود، فإنه أقام عند الخطا مديدة، فقال له: الذي استأسره يوما إن خوارزمشاه قد عدم، فإيش عندك من خبره فقال له :أما تعرفه؟ قال: لا، قال: هو اسيرك الذي كان عندك. فقال: لم لا عرفتني حتى كنت أخدمه وأسير بين يديه إلى مملكته، قال: خفتكم عليه، فقال الخطائي: سر بنا إليه، فسار إليه، فأكرمهما وأحسن إليهما، وبالغ في ذلك.

ذكر قتل غياث الدين محمود

لمّا سلّم خوارزمشاه هراة إلى خاله أمير ملك، وسار إلى خوارزم، أمره أن يقصد غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد بن سام الغوري صاحب الغوروفيروزكوه، وأن يقبض عليه وعلى أخيه علي شاه بن خوارزمشاه، ويأخذ فيروزكوه من غياث الدين، فسار أمير ملك إلى فيروزكوه، وبلغ ذلك إلى محمود، فأرسل يبذل الطاعة ويطلب الأمان، فأعطاه ذلك، فنزل إليه محمود، فقبض عليه أمير ملك وعلى علي شاه أخي خوارزمشاه، فسألاه أن يحملهما إلى خوارزمشاه ليرى فيهما رأيه، فأرسل إلى خوارزمشاه يعرفه الخبر، فأمره بقتلهما، فقتلا في يوم واحد، واستقامت خراسان كلها لخوارزمشاه، وذلك سنة خمس وستمائة أيضا، وهذا غياث الدين هو آخر ملوك الغورية، ولقد كانت دولتهم من أحسن الدول سيرة وأعدلها وأكثرها جهاداً، وكان محمود هذا عادلاً حليماً كريماً من أكرم الملوك أخلاقاً ـ رحمه الله تعالى ـ.

ذكر عود خوارزمشاه إلى الخطا

لما استقرّ أمر خراسان لمحمد خوارزمشاه، وعبر نهر جيحون، جمع له الخطا

جمعاً عظيماً، وساروا إليـه،والمقدَّم عليهم شيـخ دولتهم، القائم مقـام الملك فيهم المعروف بطاينكوه، وكان عمره قد جاوز مائة سنة، ولقي حروباً كثيرة، وكان مظفراً حسن التدبير والعقل، واجتمع خوارزمشاه وصاحب سمرقند، وتصافوا هم والخطا سنة ست وستمائة، فجرت حروب لم يكن مثلها شدّة وصبروا، فانهزم الخطا هزيمة منكرة، وقتل منهم وأسر خلق لا يحصى، وكان فيمن أسر طاينكوه مقـدَّمهم، وجيء به إلى خوارزشماه، فأكرمه وأجلسه على سريره وسيّره إلى خوارزم، ثم قصد خوارزمشاه إلى بلد ما وراء النهر، فملكها مدينة مدينة، وناحية ناحية حتى بلغ أوزكند، وجعل نوابه فيها، وعاد إلى خوارزم ومعه سلطان سمرقند، وكان من أحسن الناس صورة، فكان أهل خوارزم يجتمعون حتى ينظروا إليه، فزوجه خوارزمشاه بابنته، ورده إلى سمرقند، وبعث معه شحنة يكون بسمرقند على ما كان رسم الخطا.

ذكر غدر صاحب سمرقند بالخوارزميين

لما عاد صاحب سمرقند إليها ومعه شحنة لخوارزمشاه، وأقام معه نحو سنة، فرأى سوء سيرة الخوارزميين وقبح معاملتهم ندم على مفارقة الخطا، فأرسل إلى ملك الخطا يدعوه إلى سمرقند، ليسلمها إليه، ويعود إلى طاعته، وأمر بقتل كل من في سمرقند من الخـوارزمية ممن سكنها قديما وحديثا، وأخذ أصحـاب خوارزمشـاه، فكان يجعـل الرجل منهم قطعتين ويعلقهم في الأسواق كمـا يعلق القصاب اللحم، وأسـاء غايـة الإساءة، ومضى إلى القلعة ليقتل زوجته ابنة خوارزمشاه، فأغلقت الأبواب، ووقفت بجواريها تمنعه، وأرسلت إليه تقول: أنا امرأة، وقتل مثلي قبيح، ولم يكن مني اليك ما استوجب به هذا منك، ولعل تركي احمد عاقبة فاتق الله فيّ، فتركها ووكـل بها من يمنعها التصرّف في نفسها، ووصل الخبر إلى خوارزمشاه، فقامت قيامته وغضب غضباً شديداً، وأمر بقتل كل من بخوارزم من الغرباء فمنعته أمه عن ذلك، وقالت: إن هذا قد أتاه الناس من أقطار الأرض، ولم يرض كلهم بما كان من هذا الرجل، فأمر بقتل أهل سمرقند فنهته أمه فانتهى، وأمر عساكره بالتجهيز إلى ما وراء النهر، وسيَّرهم أرسالاً كلَّما تجهّـز جماعة عبروا جيحون، فعبر منهم خلق كثير لا يحصى، ثم عبر هو بنفسه في آخرهم، ونزل على سمرقند، وأنفذ إلى صاحبها يقول له: قد فعلت ما لم يفعله مسلم، واستحللت من دماء المسلمين ما لا يفعله عاقل لا مسلم ولا كافر، وقد عفا الله عما

سلف، فاخرج من البلاد وامضِ حيث شئت، فقال: لا اخرج وافعل ما بدا لك، فأمر عساكره بالزحف، فأشار عليه بعض من معه بأن يأمر بعض الأمراء إذا فتحوا البلدان، يقصدوا الدرب الذي يسكنه التجار، فيمنع من نهبه والتطرق إليهم بسوء، فإنهم غرباء، وكلهم كارهون لهذا الفعل، فأمر بعض الأمراء بذلك، وزحف ونصب السلاليم على السور، فلم يكن بأسرع من أن أخذوا البلد، وأذن لعسكره بالنهب وقتل من يجدونه من أهل سمرقند، فنهب البلد وقتل أهله ثلاثة أيام، فيقال: إنهم قتلوا منهم مائتي ألف إنسان، وسلم ذلك الدرب الذي فيه الغرباء، فلم يعدم منهم الفرد ولا الآدمي الواحد ثم أمر بالكف عن النهب والقتل ثم زحف إلى القلعة، فرأى صاحبها ما ملأ قلبه هيبة وخوفاً، فأرسل يطلب الأمان، فقال: لا أمان لك عندي، فزحفوا عليها فملكوها وأسروا صاحبها، وأحضروه عند خوارزمشاه، فقبل الأرض فطلب العفو، فلم يعف عنه، وأمر بقتله فقتل صبراً وقتل معه جماعة من أقاربه، ولم يترك أحداً ممن ينسب إلى الخانية، ورتب فيها وفي سائر البلاد نوابه، ولم يبق لأحد معه في البلاد حكم.

ذكر الوقعة التي أفنت الخطا

لما فعل خوارزم شاه بالخطا ـ ما ذكرناه ـ مضى من سلم منهم إلى ملكهم، فإنه لم يحضر الحرب، فاجتمعوا عنده، وكان طائفة عظيمة من التتر قد خرجوا من بلادهم حدود الصين قديماً ونزلوا وراء بلاد تركستان وكان بينهم وبين الخطا عداوة وحروب، فلما سمعوا بما فعله خوارزمشاه بالخطا قصدوهم مع ملكهم كشلي خان، فلما رأى ملك الخطا ذلك أرسل إلى خوارزمشاه يقول له: أما ما كان منك من أخذ بلادنا وقتل رجالنا فعفو عنه، وقد أتى من هذا العدو من لا قبل لنا به، وإنهم إن انتصروا علينا وملكونا فلا دافع لهم عنك، والمصلحة أن تسير إلينا بعساكرك وتنصرنا على قتالهم، ونحن نحلف لك أننا إذا ظفرنا بهم لا نتعرض إلى ما أخذت من البلاد، ونقنع بما في أيدينا وأرسل إليه كشلي خان ملك التتر يقول: إن هؤلاء الخطا اعداؤك وأعداء آبائك واعداؤنا فساعدنا عليهم، ونحلف أننا إذا انتصرنا عليهم لا نقرب بلادك، ونقنع بالمواضع التي ينزلونها، فأجاب كلا منهما أنني معك ومعا ضدك على خصمك، وسار بعساكره إلى أن نزل قريباً من الموضع الذي تصافوا فيه، فلم يخالطهم مخالطة يعلم بها أنه من أحدهما، فكانت كل طائفة منهم تظنُّ أنه معها وتواقع الخطا والتتر، فانهزم الخطا هزيمة عظيمة، فمال

حينئذ خوارزمشاه، وجعل يقتل ويأسر وينهب، ولم يترك احداً ينجو منهم، فلم يسلم منهم إلا طائفة يسيرةٌ مع ملكهم في موضع من نواحي الترك يحيط به جبال، ليس إليه طريق إلا من جهة واحدة تحصنوا فيه ، وانضم إلى خوارزم شاه منهم طائفة ، وساروا في عسكره ، وأنفذ خوارزمشاه إلى كشلي خان ملك التتر يمنّ عليه بأنه حضر لمساعدته، ولولاه ما تمكن من الخطا، فاعترف له كشلي خان بذلك مدّة، ثم ارسل إليه يطلب منه المقاسمة على بلاد الخطا، وقال: كما انّا اتّفقنا على ابادتهم ينبغي أن نقسم بلادهم، فقال: ليس لك عندي غير السيف، ولستم بأقوى من الخطا شوكة، ولا اعز ملكاً، فإن قنعت بالمساكنة، وإلا سرت إليك وفعلت بك شراً مما فعلت بهم، وتجهز وسار حتى نزل قريباً منهم، وعلم خوارزمشاه أنه لا طاقة له به فكان يراوغه، فإذا سار إلى موضع قصد خوارزمشاه أهله وأثقالهم فينهبها، وإذا سمع أن طائفة سارت عن موطنهم سار إليها فأوقع بها، فأرسل إليه كشلي خان يقول له: ليس هذا فعل الملوك هذا فعل اللصوص، وإلا إن كنت سلطانا كما تقول: فيجب أن نلتقي، فإما أن تهزمني وتملك البلاد التي بيدي، وإما أن أفعل أنا بك ذلك، فكان يغالطه ولا يجيبه إلى ما طلب، لكنه أمر أهل الشاش وفرغانة واسفيجاب وكاسان وما حولها من المدن التي لم يكن في الدنيا أنزه منها، ولا احسن عمارة بالجلاء منها واللحاق ببلاد الإسلام، ثم خربها جميعها خوفاً من التتر أن يملكوها، ثم اتّفق خروج هؤلاء التتر الآخر الذين خربوا الدنيا، وملكهم جنكزخان النهرجي على كشلي خان التتري الأول، فاشتغل بهم كشلي خان عن خوارزمشاه، فخلا وجهه فعبر النهر إلى خراسان .

ذكر ملك نجم الدين بن الملك العادل خلاط

في هذه السنة ملك الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ـ مدينة خلاط، وسبب ذلك أنّه كان بمدينة ميافارقين من جهة أبيه، فلما كان من ملك بلبان خلاط ـ ما ذكرناه قصد هو مدينة موش، وحصرها وأخذها وأخذ غيرها مما يجاورها، وكان بلبان لم تثبت قدمه حتى يمنعه، فلما ملكها طمع في خلاط، فسار اليها فهزمه بلبان ـ كما ذكرناه أيضا ـ فعاد إلى بلده، وجمع وحشد، وسيَّر إليه أبوه جيشاً فقصد خلاط، فسار إليه بلبان فتصافا واقتتلا فانهزم بلبان، وتمكّن نجم الدين من البلاد، وازداد منها، ودخل بلبان خلاط واعتصم بها، وأرسل رسولاً إلى مغيث الدين طغرل شاه بن قلج أرسلان، وهو صاحب ارزن الروم يستنجده على نجم الدين، فحضر

بنفسه ومعه عسكره، فاجتمعا وهزما نجم الدين وحصرا موش، فأشرف الحصار على أن تملك، فغدر ابن قلج ارسلان بصاحب خلاط وقتله طمعاً في البلاد، فلما قتله سار الى خلاط فمنعه اهلها عنها فسار الى ملازكرد فرده أهلها ايضا، وامتنعوا عليه فلما لم يجد في شيء من البلاد مطمعاً عاد إلى بلده، فأرسل أهل خلاط إلى نجم الدين يستدعونه إليهم ليُملكوه، فحضر عندهم وملك خِلاط وأعمالها سوى اليسير منها، وكره الملوك المجاورون له ملكه لها خوفا من أبيه، وكذلك ايضا خافه الكرج وكرهوه، فتابعوا الغارات على أعمال خلاط وبلادها، ونجم الدين مقيم بخلاط لا يقدر على مفارقتها، فلقي المسلمون من ذلك اذى شديداً، واعتزل جماعة من عسكر خلاط واستولوا على حصن وان، وهو من اعظم الحصون وامنعها، وعضوا على نجم الدين، واجتمع اليهم جمع كثير وملكوا مدينة أرجيش، فأرسل نجم الدين إلى أبيه الملك العادل، يعرّفه الحال، ويطلب منه نجدة وان يمدّه بعسكر، فسيَّر إليه أخاه الملك الأشرف موسى بن العادل في عسكر، فاجتمعا في عسكر كثير، وحصرا قلعة وان، وبها الخلاطية وجدوا في قتالهم، فضعف أولئك عن مقاومتهم فسلموها صلحا، وخرجوا منها وتسلمها نجم الدين، واستقر ملكه بخلاط وأعمالها، وعاد أخوه الاشرف إلى بلده حرّان والرها.

ذكر غارات الفرنج بالشام

وفي هذه السنة كثر الفرنج الذين بطرابلس، وحصن الأكراد وأكثروا الاغارة على بلد حمص وولاياتها، ونازلوا مدينة حمص، وكان جمعهم كثيراً، فلم يكن لصاحبها أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بهم قوة، ولا يقدر على دفعهم ومنعهم، فاستنجد الظاهر غازي صاحب حلب وغيره من ملوك الشام، فلم ينجده أحد إلا الظاهر، فإنه سيَّر له عسكراً، اقاموا عنده ومنعوا الفرنج عن ولايته، ثم إن الملك العادل خرج من مصر بالعساكر الكثيرة، وقصد مدينة عكا، فصالحه صاحبها الفرنجي على قاعدة استقرّت من إطلاق أسرى من المسلمين وغير ذلك، ثمّ سار إلى حمص، فنزل على بحيرة قدس، وجاءته عساكر الشرق وديار الجزيرة، ودخل الى بلاد طرابلس، وحاصر موضعا يسمى القليعات، وأخذه صلحاً، وأطلق صاحبه، وغنم ما فيه من دواب وسلاح وخربه، وتقدّم الى طرابلس، فنهب وأحرق وسبى وغنم وعاد إلى بحيرة قدس، وتردّدت الرسل بينه وبين الفرنج في الصلح، فلم تستقر قاعدة ودخل الشتاء، وطلبت العساكر الشرقية العود إلى بلادهم قبل البرد، فنزل طائفة من العسكر بحمص عند صاحبها،

وعاد إلى دمشق، فشتى بها، وعادت عساكر ديار الجزيرة إلى اماكنها، وكان سبب خروجه من مصر بالعساكر أن أهل قبرس الفرنج اخذوا عدّة قطع من اسطول مصر واسروا من فيها فأرسل العادل الى صاحب عكا في ردّ ما أخذوا، ويقول: نحن صلح فلم غدرتم باصحابنا، فاعتذر بأن أهل قبرس ليس لي عليهم حكم، وأن مرجعهم إلى الفرنج الذين بالقسطنطينية، ثم إن أهل قبرس ساروا إلي القسطنطينية بسبب غلاء كان عندهم، تعذرت عليهم اقوات، وعاد حكم قبرس إلى صاحب عكا، وأعاد العادل مراسلته، فلم ينفصل حال، فخرج بالعساكر، وفعل بعكا ـ ما ذكرناه ـ فأجابه حينئذ صاحبها إلى ما طلب وأرسل الأسرى.

ذكر الفتنة بخلاط وقتل كثير من أهلها

لما تمَّ ملك خلاط وأعمالها للملك الأوحد نجم الدين بن العادل سار عنها إلى ملازكرد، ليقرر قواعدها أيضا، ويفعل ما ينبغي أن يفعله فيها، فلما فارق خلاط وثب أهلها على من بها من العسكر، فاخرجوه من عندهم وعصوا، وحصروا القلعة وبها أصحاب الأوحد، ونادوا بشعار شاه أرمن، وإن كان ميتاً يعنون بذلك رد الملك إلى اصحابه ومماليكه، فبلغ الخبر إلى الملك الأوحد، فعاد إليهم وقد وافاه عسكر من الجزيرة، فقوي بهم وحصر خلاط فاختلف اهلها، فمال اليه بعضهم حسداً للاخرين، فملكها وقتل بها خلقاً كثيراً من أهلها، وأسر جماعة من الأعيان، فسيَّرهم إلى ميافارقين، وكان كل يوم يرسل إليهم، فيقتل منهم جماعة، فلم يسلم إلا القليل، وذل أهل خلاط بعد هذه الوقعة وتفرّقت كلمة الفتيان، وكان الحكم إليهم، وكفى الناس شرهم، فإنهم كانوا قد صاروا يقيمون ملكاً ويقتلون آخر، السلطنة عندهم لا حكم لها وإنما الحكم لهم وإليهم.

ذكر ملك أبي بكر بن البهلوان مراغة

في هذه السنة ملك الأمير نصرة الدين أبو بكر بن البهلوان صاحب أذربيجان مدينة مراغة، وسبب ذلك أن صاحبها علاء الدين قراسنقر، مات هذه السنة، وولي بعده ابن له طفل، وقام بتدبير دولته وتربيته خادم كان لأبيه، فعصى عليه أمير كان مع أبيه وجمع جمعاً كثيراً، فأرسل إليه الخادم من عنده من العسكر، فقاتلهم ذلك الأمير، فانهزموا

واستقر ملك ولد علاء الدين إلا أنه لم تطل أيّامه حتى توفّي في أول سنة خمس وستمائة، وانقرض أهل بيته، ولم يبق منهم أحد، فلما توفّي سار نصرة الدين أبو بكر من تبريز الى مراغة، فملكها واستولى على جميع مملكة آل قراسنقر ما عدا قلعة روين، فإنها اعتصم بها الخادم وعنده الخزائن، فامتنع بها على الأمير أبي بكر.

ذكر عزل نصير الدين وزير الخليفة

كان هذا نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي من أهل الري من بيت كبير، فقدم بغداد، لمّا ملك مؤيد الدين بن القصاب وزير الخليفة الري، ولقي من الخليفة قبولاً، فجعله نائب الوزارة، ثم جعله وزيراً، وحكم ابنه صاحب المخزن، فلمّا كان في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة عزل وأغلق بابه، وكان سبب عزله أنه اساء السيرة مع أكابر مماليك الخليفة، فمنهم أمير الحاج مظفّر الدين سنقر المعروف بوجه السبع، فإنه هرب من يديه الى الشام سنة ثلاث وستمائة، فارق الحاج بالمرخوم، وأرسل يعتذر، ويقول: إن الوزير يريد أن لا يبقي في خدمة الخليفة أحداً من مماليكه، ولا شك أنه يريد أن يدعي الخلافة، وقال الناس في ذلك فأكثروا، وقالوا الشعر فمن ذلك قول بعضهم:

ألا مبلغاً عني الخليفةَ أحمداً ... توق وقيت السوء ما أنت صانعُ
وزيرُك هذا بينَ أمرينِ فِيهمَا ... فعالُكَ يا خيرَ البريَّةِ ضائعُ
فإنْ كانَ حقاً مِنْ سلالةِ أحمدٍ ... فهَذا وزيدٌ في الخِلافةِ طامعُ
وإنْ كانَ فيما يدّعي غيرَ صادقٍ ... فأضيع ما كانَتْ لديه الصنائعُ

فعزله وقيل، في سبب ذلك غيره ولما عزل، أرسل إلى الخليفة يقول: إنني قدمت إلى ههنا، وليس لي دينار ولا درهم، وقد حصل لي من الأموال والاعلاق النفيسة وغير ذلك ما يزيد على خمسة آلاف دينار، ويسأل أن يؤخذ منه الجميع، ويمكّن من المقام بالمشهد أسوة ببعض العلويين، فأجابه إننا ما أنعمنا عليك بشيء، فنوينا إعادته، ولو كان ملء الأرض ذهباً، ونفسك في أمان الله وأماننا، لم يبلغنا عنك ما تستوجب به ذلك، غير أن الأعداء قد اكثروا فيك فاختر لنفسك موضعاً تنتقل إليه موقراً محترماً، فاختار ان يكون تحت الاستظهار من جانب الخليفة لئلا يتمكن منه العدو فتذهب نفسه، ففعل به ذلك، وكان حسن السيرة قريباً إلى الناس حسن اللقاء لهم والانبساط معهم عفيفاً عن

أموالهم غير ظالم لهم، فلما قبض، عاد أمير الحاج من مصر في الخدمة العادلية، وعاد أيضاً قشتمر، واقيم في النيابة في الوزارة فخر الدين أبو البدر محمد بن أحمد بن امسينا الواسطي، إلا أنه لم يكن متحكماً.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ليلة الأربعاء لخمس بقين من رجب زلزلت الأرض وقت السحر، وكنت حينئذ بالموصل، ولم تكن بها شديدة، وجاءت الأخبار من كثير من البلاد، بأنها زلزلت، ولم تكن بالقوية.

وفيها أطلق الخليفة الناصر لدين الله جميع حق البيع، وما يؤخذ من أرباب الأمتعة من الموكس من سائر المبيعات، وكان مبلغاً كثيراً، وكان سبب ذلك أن بنتاً لعز الدين نجاح شرابي الخليفة توفّيت، فاشترى لها بقرة، لتذبح، ويتصدق بلحمها عنها، فرفعوا في حساب ثمنها مؤنة البقرة، فكانت كثيرة، فوقف الخليفة على ذلك، وأمر بإطلاق المؤنة جميعها.

وفيها في شهر رمضان أمر الخليفة ببناء دور في المحال ببغداد، ليفطر فيها الفقراء، وسميت دور الضيافة، يطبخ فيها اللحم الضأن والخبز الجيد، عمل ذلك في جانبي بغداد، وجعل في كل دار من يوثق بأمانته، وكان يعطي كل إنسان قدحاً مملوءاً من الطبيخ واللحم، ومنا من الخبز، فكان يفطر كل ليلة على طعامه خلق لا يحصون كثرة.

وفيها، زادت دجلة زيادة كثيرة، ودخل الماء في خندق بغداد من ناحية باب كلواذي، فخيف على البلد من الغرق، فاهتم الخليفة بسدّ الخندق، وركب فخر الدين نائب الوزارة وعز الدين الشرابي، ووقفا ظاهر البلد، فلم يبرحا حتى سد الخندق.

وفيها توفي الشيخ حنبل بن عبد الله بن الفرج المكبر بجامع الرصافة، وكان عالي الإسناد، روي عن ابن الحصين مسند أحمد بن حنبل، وله إسناد حسن، وقدم الموصل، وحدث بها وبغيرها.

ثم دخلت سنة خمس وستمائة

ذكر ملك الكرج أزجيش وعودهم عنها

في هذه السنة سارت الكرج في جموعها إلى ولاية خلاط، وقصدوا مدينة أزجيش، فحصروها وملكوها عنوة، ونهبوا جميع ما بها من الأموال والأمتعة وغيرها، وأسروا وسبوا أهلها، وأحرقوها وخربوها بالكلية، ولم يبق بها من أهلها أحد فأصبحت خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس، وكان نجم الدين أيوب صاحب أرمينية بمدينة خلاط، وعنده كثير من العساكر، فلم يقدم على الكرج لأسباب، منها: كثرتهم وخوفه من أهل خلاط لما كان أسلف اليهم من القتل والأذى، وخاف ان يخرج منها فلا يمكن من العود اليها، فلما لم يخرج الى قتال الكفار عادوا إلى بلادهم سالمين، لم يذعرهم ذاعر، وهذا جميعه، وان كان عظيماً شديداً على الإسلام وأهله، فإنه يسير بالنسبة الى ما كان ـ مما نذكره، سنة أربع عشرة إلى سنة سبع عشرة وستمائة.

ذكر قتل سنجر شاه وملك ابنه محمود

في هذه السنة قتل سنجر شاه بن غازي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب جزيرة ابن عمر، وهو ابن عم نور الدين صاحب الموصل قتله ابنه غازي، ولقد سلك ابنه في قتله طريقاً عجيباً يدل على مكر ودهاء، وسبب ذلك أن سنجر كان سيء السيرة مع الناس كلهم، من الرعية والجند والحريم والأولاد، وبلغ من قبيح فعله مع أولاده أنه سيّر ابنيه محموداً ومودوداً إلى قلعة فرح من بلد الزوزان، وأخرج ابنه هذا إلى دار بالمدينة اسكنه فيها، ووكل به من يمنعه من الخروج، وكانت الدار إلى جانب بستان لبعض الرعية، فكان يدخل إليه منها الحيات والعقارب وغيرهما من الحيوان المؤذي، ففي بعض الأيام اصطاد حيّة وسيرها في منديل إلى أبيه لعله يرق له، فلم يعطف عليه، فأعمل الحيلة حتى نزل من الدار التي كان بها، واختفى ووضع إنسانا كان يخدمه،

فخرج من الجزيرة، وقصد الموصل، وأظهر أنه غازي بن سنجر، فلما سمع نور الدين بقربه منها أرسل نفقة وثياباً وخيلاً، وأمره بالعود، وقال: إن أباك يتجنّى لنا الذنوب التي لم نعلمها، ويقبح ذكرنا، فإذا صرت عندنا جعل ذلك ذريعة للشناعات والبشاعات، ونقع معه في صدام لا ينادى وليده، فسار إلى الشام. وأما غازي بن سنجر فإنه تسلّق إلى دار أبيه، واختفى عند بعض سراريه، وعلم به أكثر من بالدار، فسترت عليه، بغضا لأبيه، وتوقعا للخلاص منه لشدّته عليهن، فبقي كذلك، وترك أبوه الطلب له ظناً منه أنه بالشام، فاتفق أن أباه في بعض الأيام شرب الخمر بظاهر البلد مع ندمائه، فكان يقترح على المغنين أن يغنوا في الفراق وما شاكل ذلك، ويبكي ويظهر في قوله قرب الأجل ودنو الموت وزوال ما هو فيه، فلم يزل كذلك إلى آخر النهار، وعاد إلى داره، وسكر عند بعض حظاياه، ففي الليل دخل الخلاء، وكان ابنه عند تلك الحظية، فدخل اليه فضربه بالسكين أربع عشرة ضربة، ثم ذبحه وتركه ملقى، ودخل الحمام، وقعد يلعب مع الجواري، فلو فتح باب الدار، وأحضر الجند واستحلفهم لملك البلد لكنه أمن واطمأن، ولم يشك في الملك، فاتفق أن بعض الخدم الصغار خرج إلى الباب، وأعلم أستاذ دار سنجر الخبر، فأحضر أعيان الدولة وعرفهم ذلك، وأغلق الابواب على غازي، واستحلف الناس لمحمود بن سنجر شاه، وأرسل إليه أحضره من فرح ومعه أخوه مودود، فلما حلف الناس وسكنوا فتحوا باب الدار على غازي، ودخلوا عليه ليأخذوه، فمانعهم عن نفسه، فقتلوه وألقوه على باب الدار، فأكلت الكلاب بعض لحمه، ثم دفن باقيه، ووصل محمود إلى البلد وملكه ولقب بمعز الدين لقب أبيه. فلما استقرَّ أخذ كثيراً من الجواري اللواتي لأبيه فغرقهن في دجلة.

ولقد حدثني صديق لنا أنه رأى بدجلة في مقدار غلوة سهم سبع جواري مغرقات، منهن ثلاث قد أحرقت وجوههن بالنار، فلم أعلم سبب ذلك الحريق، حتى حدثتني جارية اشتريتها بالموصل من جواريه أن محموداً كان يأخذ الجارية، فيجعل وجهها في النار، فإذا احترقت ألقاها في دلجة، وباع من لم يغرقه منهن، فتفرق أهل تلك الدار أيدي سبا، وكان سنجرشاه، قبيح السيرة ظالماً غاشماً كثير المخاتلة، والمواربة والنظر في دقيق الأمور وجليلها، لا يمتنع من قبيح يفعله مع رعيته وغيرهم، من أخذ الأموال والأملاك والقتل والاهانة، وسلك معهم طريقاً وعراً، من قطع الألسنة والأنوف والآذان،

وأما اللحى ، فإنه حلق منها ما لا يحصى ، وكان جلّ فكره في ظلم يفعله ، وبلغ من شدّة ظلمه، أنه كان إذا استدعى إنساناً ليحسن إليه لا يصل، إلا وقد قارب الموت من شدّة الخوف، واستعلى في أيامه السفهاء، ونفقت سوق الأشرار والساعين بالناس، فخرب البلد، وتفرق أهله لا جرم سلّط الله عليه أقرب الخلق إليه، فقتله، ثم قتل ولده غازي، وبعد قليل قتل ولده محمود أخاه مودوداً، وجرى في داره من التحريق، والتغريق والتفريق ما ذكرنا بعضه، ولو رمنا شرح قبح سيرته لطال، والله تعالى بالمرصاد لكل ظالم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ثاني المحرم توفّي أبو الحسن ورام بن أبي فراس الزاهد بالحلّة السيفية، وهو منها، وكان صالحاً وفي صفر توفّي الشيخ مصدق بن شبيب النحوي، وهو من أهل واسط. وفي شعبان توفّي القاضي محمد بن أحمد بن المنداي الواسطي بها، وكان كثير الرواية للحديث، وله اسناد عال، وهو آخر من حدث بمسند أحمد بن حنبل على ابن الحصين، وفيه توفي القوم أبو فراس نصر بن ناصر بن مكي المدائني صاحب المخزن ببغداد، وكان أديباً فاضلاً كامل المروءة يحب الأدب وأهله، ويحب الشعر ويحسن الجوائز عليه، ولما توفي، ولي بعده أبو الفتوح المبارك بن الوزير عضد الدين أبي الفرج بن رئيس الرؤساء، وأكرم وأعلى محلّه، فبقي متولياً إلى سابع ذي القعدة وعزل لعجزه.

وفيها كانت زلزلة عظيمة بنيسابور وخراسان، وكان اشدها بنيسابور، وخرج أهلها الى الصحراء أياماً حتى سكنت وعادوا إلى مساكنهم.

ثم دخلت سنة ست وستمائة

ذكر ملك العادل الخابور ونصيبين وحصر سنجار وعوده عنها واتفاق نور الدين أرسلان شاه ومظفر الدين

في هذه السنة، ملك العادل أبـو بكر بن أيوب بلد الخابور ونصيبين، وحصر مدينة سنجار، والجميع من اعمال الجزيرة، وهي بيد قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود، وسبب ذلك، أن قطب الدين المذكور كان بينه وبين ابن عمه نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود، صاحب الموصل عداوة مستحكمة ـ وقد تقدّم ذكر ذلك ـ، فلما كان سنة خمس وستمائة حصلت مصاهرة بين نور الدين والعادل، فإن ولد العادل تزوّج بابنة لنور الدين، وكان لنور الدين وزراء يحبّون أن يشتغل عنهم، فحسّنوا له مراسلة العادل، والاتفاق معه، على أن يقتسما بالبلاد التي لقطب الدين، وبالولاية التي لولد سنجرشاه ابن غازي بن مودود، وهي جزيرة ابن عمر واعمالها، فيكون ملك قطب الدين للعادل، وتكون الجزيرة لنور الدين، فوافق هذا القول هوى نور الدين، فأرسل إلى العادل في المعنى، فأجابه الى ذلك مستبشراً، وجاءه ما لم يكن يرجوه، لأنه علم أنه متى ملك هذه البلاد، أخذ الموصل وغيرها، وأطمع نور الدين أيضا، في أن يعطي هذه البلاد إذا ملكها لولده الذي هو زوج ابنة نور الدين، ويكون مقامه في خدمته بالموصل، واستقرّت القاعدة على ذلك وتحالفا عليها، فبادر العادل إلى المسير من دمشق إلى الفرات في عساكره، وقصد الخابور فأخذه، فلما سمع نور الدين بوصوله كأنه خاف واستشعر، فأحضر من يرجع إلى رأيهم وقولهم، وعرّفهم وصول العادل، واستشارهم فيما يفعله، فأما من أشار عليه فسكتوا وكان فيهم من لم يعلم هذه الحال، فعظم الأمر، وأشـار بالاستعداد للحصار، وجمع الرجال، وتحصيل الذخائر، وما يحتاج إليه، فقال نـور الدين: نحن فعلنا ذلك وخبّره، فقال بأي رأي تجيء إلى عدو لك، هو أقوى منك وأكثر جمعاً، وهو بعيد منك متى تحرّك لقصدك تعلم به، فلا يصل إلا وقد فرغت من جميع ما

تريده، تسعى حتى يصير قريباً منك، ويزداد قوة إلى قوته، ثم إن الذي استقرّ بينكما أنه لما يملكه أولا بغير تعب ولا مشقة، وتبقى أنت لا يمكنك أن تفارق الموصل إلى الجزيرة وتحصرها، والعادل ههنا هذا إن وفى لك بما استقرّت القاعدة عليه لا يجوز أن تفارق الموصل، وإن عاد إلى الشام لأنه قد صار له ملك خلاط وبعض ديار بكر، وديار الجزيرة جميعها، والجميع بيد أولاده، فمتى سرت عن الموصل أمكنهم أن يحولوا بينك وبينها، فما زدت على أن آذيت نفسك وابن عمك، وقويت عدوك وجعلته شعارك، وقد فات الأمر، وليس يجوز إلا أن تقف معه على ما استقر بينكما لئلا يجعل ذلك حجة، ويتبدىء بك، هذا والعادل قد ملك الخابور ونصيبين وسار إلى سنجار فحصرها، وكان عزم صاحبها قطب الدين أن يسلمها إلى العادل بعوض يأخذه عنها، فمنعه من ذلك أمير كان معه اسمه أحمد بن يرنقش مملوك أبيه زنكي، وقام بحفظ المدينة والذب عنها وجهَّز نور الدين عسكراً مع ولده الملك القاهر ليسيروا الى الملك العادل، فبينما الأمر على ذلك إذ جاءهم أمر لم يكن لهم في حساب، وهو أن مظفّر الدين كوكبري صاحب إربل أرسل وزيره إلى نور الدين يبذل من نفسه المساعدة على منع العادل عن سنجار، وأن الاتفاق معه على ما يريده، فوصل الرسول ليلاً، وأبلغه الرسالة، فأجاب نور الدين إلى ما طلب من الموافقة، وحلف له على ذلك. وعاد الوزير من ليلته، فسار مظفر الدين، واجتمع هو ونور الدين، ونزلا بعساكرهما بظاهر الموصل، وكان سبب ما فعله مظفر الدين أن يستشفع به إلى العادل ليتقي عليه سنجار وكان مظفر الدين يظن أنه لو شفع في نصف ملك العادل لشفعه، لأثره الجميل في خدمته، وقيامه في الذبِّ عن ملكه غير مرة ـ كما تقدم ـ فشفع اليه، فلم يشفعه العادل ظناً منه أنه بعد اتفاقه مع نور الدين لا يبالي بمظفر الدين، فلمّا رده العادل في شفاعته، راسل نور الدين في الموافقة عليه، ولما وصل إلى الموصل، واجتمع بنور الدين أرسلا إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين، وهو صاحب حلب، وإلى كيخسرو بن قلج أرسلان صاحب بلاد الروم بالاتفاق معهما، فكلاهما أجاب الى ذلك، وتداعوا على الحركة وقصد بلاد العادل، إن امتنع من الصلح، والابقاء على صاحب سنجار، وأرسلا أيضا إلى الخليفة الناصر لدين الله ليرسل رسولاً إلى العادل في الصلح أيضا، فقويت حينئذ نفس صاحب سنجار على الامتناع، ووصلت رسل الخليفة، وهو هبة الله بن المبارك بن الضحَّاك استاذ الدار، والأمير آق باش، وهو من خواص مماليك الخليفة

وكبارهم، فوصلا إلى الموصل، وسارا منها إلى العادل وهو يحاصر سنجار، وكان من معه لا يناصحونه في القتال لا سيما أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة، فإنه كان يدخل إليها الأغنام، وغيرها من الأقوات ظاهراً، ولا يقاتل عليها وكذلك غيره، فلما وصل رسول الخليفة إلى العادل أجاب أولاً إلى الرحيل، ثم امتنع عن ذلك، وغالط واطال الأمر لعله يبلغ منها غرضا، فلم ينل منها ما أمله، واجاب الى الصلح على ان له ما أخذه، وتبقى سنجار لصاحبها، واستقرَّت القاعدة على ذلك، وتحالفوا على هذا كلهم، وعلى أن يكونوا يداً واحدة على الناكث منهم، ورحل العادل عن سنجار إلى حران، وعاد مظفر الدين إلى اربل، وبقي كل واحد من الملوك في بلده، وكان مظفر الدين عند مقامه بالموصل قد زوَّج ابنتين له بولدين لنور الدين، وهما عز الدين مسعود، وعماد الدين زنكي.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في ربيع الأول، عزل فخر الدين بـن امسينا عن نيابة الوزارة للخليفة وألزم بيته، ثم نقل الى المخزن على سبيل الاستظهار عليه، وولي بعده نيابة الوزارة مكين الدين محمد بن محمد بن برزالقمي كاتب الإنشاء، ولقب مؤيد الدين، ونقل إلى دار الوزارة مقابل باب النوبى.

وفيها في شوال توفّي مجد الدين يحيى بن الربيع الفقيه الشافعي مدرّس النظامية ببغداد.

وفيها توفّي فخر الدين أبو الفضل محمد بن عمر بن خطيب الري الفقيه الشافعي، صاحب التصانيف المشهورة في الفقه والأصول وغيرهما، وكان إمام الدنيا في عصره، وبلغني أن مولده سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة.

وفيها في سلخ ذي الحجة توفّي أخي مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن عبد الكريم الكاتب، مولده في أحد الربيعين سنة أربع وأربعين، وكان عالماً في عدة علوم منها الفقه والأصولان، والنحو والحديث واللغة، وله تصانيف مشهورة في التفسير والحديث والنحو والحساب وغريب الحديث، وله رسائل مدونة، وكـان كاتبـاً مفلقاً يضرب به المثل، ذا دين متين ولزوم طريق مستقيم ـ رحمه الله ورضي عنه ـ فلقد كان

من محاسن الزمان، ولعل من يقف على ما ذكرته يتهمني في قولي، ومن عرفه من أهل عصرنا يعلم أني مقصّر.

وفيها توفّي المجد المطرزي النحوي الخوارزمي، وكان إماماً في النحو لـه فيه تصانيف حسنة .

وفيها توفي المؤيد بن عبد الرحيم بن الاخوة بأصفهان، وهو من أهل الحـديث رحمه الله .

ثم دخلت سنة سبع وستمائة

ذكر عصيان سنجر مملوك الخليفة بخوزستان ومسير العساكر اليه

كان قطب الدين سنجر مملوك الخليفة الناصر لدين الله، قد ولاه الخليفة خوزستان بعد طشتكين أمير الحاج ـ كما ذكرناه ـ فلما كان سنة ست وستمائة بدا منه تغير عن الطاعة، فروسل في القدوم إلى بغداد، فغالط ولم يحضر، وكان يظهر الطاعة، ويبطن التغلب على البلاد، فبقي الأمر كذلك الى ربيع الأول من هذه السنة، فتقدم الخليفة إلى مؤيد الدين نائب الوزارة والى عز الدين بن نجاح الشرابي خاص الخليفة، بالمسير بالعساكر إليه بخوزستان، وإخراجه عنها، فسارا في عساكر كثيرة، فلما تحقق سنجر قصدهم إليه فارق البلاد، ولحق بصاحب شيراز، وهو أتابك عز الدين سعد بن دكلا ملتجئاً إليه، فأكرمه وقام دونه ووصل عسكر الخليفة إلى خوزستان في ربيع الآخر بغير ممانعة، فلما استقروا في البلاد راسلوا سنجر يدعونه إلى الطاعة، فلم يجب الى ذلك، فساروا إلى ارجان عازمين على قصد صاحب شيراز، فأدركهم الشتاء، فأقاموا شهوراً والرسل مترددة بينهم وبين صاحب شيراز، فلم يجبهم إلى تسليمه، فلما دخل شوال رحلوا يريدون شيراز، فحينئذ أرسل صاحبها إلى الوزير والشرابي، يشفع فيه، ويطلب العهد له على أن لا يؤذى، فأجيب إلى ذلك، وسلّمه اليهم هو وماله وأهله، فعادوا إلى بغداد وسنجر معهم تحت الاستظهار، وولى الخليفة بلاد خوزستان مملوكه ياقوتاً أمير الحاج، ووصل الوزير الى بغداد في المحرّم سنة ثمان وستمائة هو والشرابي والعساكر، وخرج أهل بغداد إلى تلقيهم، فدخلوها وسنجر معهم راكباً على بغل بأكلف،وفي رجله سلسلتان في يد كل جندي سلسلة، وبقي محبوسا إلى أن دخل صفر، فجمع الخلق الكثير من الأمراء والأعيان الى دار مؤيد الدين نائب الوزارة، فأحضر سنجر، وقرر بأمور نسبت إليه منكرة، فأقر بها، فقال مؤيد الدين للناس: قد عرفتم ما تقتضيه السياسة من

عقوبة هذا الرجل، وقد عفا امير المؤمنين عنه، وأمر بالخلع عليه، فلبسها وعاد إلى داره، فعجب الناس من ذلك، وقيل إن اتابك سعد نهب مال سنجر وخزانته ودوابه وكل ما لَهُ ولأصحابه وسيرهم، فلما وصل سنجر إلى الوزير والشرابي طلبوا المال، فأرسل شيئاً يسيراً والله أعلم.

ذكر وفاة نور الدين أرسلان شاه وشيء من سيرته

في هذه السنة أواخر رجب توفّي نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل، وكان مرضه قد طال ومزاجه قد فسد، وكانت مدّة ملكه سبع عشرة سنة وأحد عشر شهراً، وكان شهماً شجاعاً ذا سياسة للرعايا شديداً على اصحابه، فكانوا يخافونه خوفاً شديداً، وكان ذلك مانعاً من تعدّي بعضهم على بعض، وكان له همّة عالية اعاد ناموس البيت الأتابكي، وجاهه، وحرمته بعد ان كانت قد ذهبت، وخافه الملوك، وكان سريع الحركة في طلب الملك إلا أنه لم يكن له صبر، فلهذا لم يتسع ملكه، ولو لم يكن له من الفضيلة إلا أنه لمّا رحل الكامل بن العادل عن ماردين ـ كما ذكرناه ـ سنة خمس وتسعين وخمسمائة، عفّ عنها وأبقاها على صاحبها، ولو قصدها وحصرها لم يكن فيها قوّة الامتناع، لأن من كان بها كانوا قد هلكوا أو ضجروا، ولم يبق لهم رمق، فأبقاها على صاحبها، ولما ملك استغاث إليه انسان من التجار، فسأل عن حاله، فقيل: إنه قد أدخل قماشه إلى البلد لبيعه، فلم يتم له البيع ويريد إخراجه، وقد منع من ذلك، فقال: من منعه؟ فقيل: ضامن البز يريد منه ما جرت به العادة من المكس.

وكان القيم بتدبير مملكته مجاهد الدين قايماز، وهو الى جانبه، فسأله عن العادة كيف هي؟ فقال: إن اشترط صاحبه إخراج متاعه مُكّن من اخراجه، وان لم يشترط ذلك لم يخرج حتى يؤخذ ما جرت العادة بأخذه، فقال: والله ان هذه العادة مدبرة انسان لا يبيع متاعه لاي شيء يؤخذ منه ماله؟ فقال مجاهد الدين: لا شك في فساد هذه العادة؟ فقال: إذا قلت أنا وانت، انها عادة فاسدة، فما المانع من تركها، وتقدَّم بإخراج مال الرجل؟ وأن لا يؤخذ إلا ممن باع، وسمعت أخي مجد الدين أبا السعادات ـ رحمه الله ـ وكان من اكثر الناس اختصاصا به يقول: ما قلت له يوماً في فعل خير، فامتنع منه بل بادر إليه بفرح واستبشار، واستدعى في بعض الأيام أخي المذكور، فركب إلى داره،

فلما كان بباب الدار لقيته امرأة وبيدها رقعة، وهي تشكو، وتطلب عَرْضَها على نور الدين، فأخذها فلما دخل اليه جاراه في مهم له، فقال: قبل كل شيء تقف على هذه الرقعة، وتقضي شغل صاحبتها، فقال: لا حاجة إلى الوقوف عليها عرفنا إيش فيها. فقال : والله لا أعلم . إلا أنني رأيت امرأة بباب الدار، وهي متظلمة شاكية، فقال: نعم عرفت حالها، ثم انزعج فظهر منه الغيظ والغضب وعنده رجلان هما القيمان بأمور دولته، فقال لأخي : ابصر إلى أي شيء قد دفعت مع هذين هذه المرأة، كان لها ابن وقد مات في الموصل، وهو غريب، وخلف قماشا ومملوكين، فاحتاط نوّاب بيت المال على القماش ، واحضروا المملوكين الينا ، فبقيا عندنا ننتظر من يستحق التركة ليأخذها، فحضرت هذه المرأة ومعها كتاب حكمي بأن المال الذي مع ولدها لها ، فتقدمنا بتسليم ما لها إليها، وقلت لهذين : اشتريا المملوكين منها وانصفاها في الثمن، فعادا، وقالا : لم يتم بيننا بيع لأنها طلبت ثمناً كثيراً، فأمرتهما بإعادة المملوكين إليها من مدّة شهرين وأكثر، وإلى الآن ما عدت سمعت لها حديثاً ، وظنى انها اخذت ما لها ولا شك أنهما لم يسلما المملوكين إليها، وقد استغاثت إليهما فلم ينصفاها، فجاءت إليك، وكل من رأى هذه المرأة تشكو وتستغيث يظنُّ أني أنا منعتها من مالها، فيذمني وينسبني إلى الظلم، وليس لي علم، وكل هذا فعل هذين اشتهي ان تتسلم أنت المملوكين، وتسلمهما إليها ، فأخذت المرأة ما لها وعادت شاكرة داعية، وله من هذا الجنس كثير لا نطول بذكره .

ذكر ولاية ابنة الملك القاهر

لما حضر نور الدين الموت أمر ان يرتب في الملك بعده ولده الملك القاهر عز الدين مسعود، وأحلف له الجند وأعيان الناس، وكان قد عهد اليه قبل موته بمدّة، فجدد العهد له عند وفاته، وأعطى ولده الأصغر عماد الدين زنكي قلعة عقر الحميدية وقلعة شوش وولايتها، وسيَّره إلى العقر، وأمر أن يتولى تدبير مملكتها، ويقوم بحفظها، والنظر في مصالحها، فتاه الأمير بدر الدين لؤلؤ، لما رأى من عقله وسداده، وحسن سياسته، وتدبيره، وكمال خلال السياسة فيه، وكان عمر القاهر حينئذ عشر سنين، ولما اشتدَّ مرضه ، وأيس من نفسه أمره الأطباء بالانحدار الى الحالة المعروفة بعين القيارة ، وهي بالقرب من الموصل، فانحدر إليها، فلم يجد بها راحة وازداد ضعفاً، فأخذه بدر الدين ، واصعده في الشبارة الى الموصل، فتوفّي في الطريق ليلاً ومعه الملاحون

والأطباء بينه وبينهم ستر، وكان مع بدر الدين عند نور الدين مملوكان، فلما توفّي نور الدين قال لهما: لا يسمع احد بموته. وقال: للأطباء والملاحين لا يتكلم أحد فقد نام السلطان فسكتوا ووصلوا إلى الموصل في الليل، فأمر الأطباء والملاحين بمفارقة الشبارة لئلا يروه ميتاً وأبعدوا، فحمله هو والمملوكان، وأدخله الدار وتركه في الموضع الذي كان فيه ، ومعه المملوكان ، ونزل على بابه من يثق إليه لا يمكن أحداً من الدخول والخروج، وقعد مع الناس يمضي أموراً كان يحتاج إلى اتمامها، فلما فرغ من جميع ما يريده، أظهر موته وقت العصر ودفن ليلاً بالمدرسة التي أنشأها مقابل داره ، وضبط البلد تلك الليلة ضبطاً جيداً بحيث أن الناس في البلد لم يزالوا متردّدين لم يعدم من أحد مقدار الحبة الفرد، واستقر الملك لولده، وقام بدر الدين بتدبير الدولة والنظر في مصالحها.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في شهر ربيع الآخر، درس القاضي ابوزكريا بن القاسم بن المفرج قاضي تكريت بالمدرسة النظامية ببغداد استدعي من تكريت اليها.

وفيها نقصت دجلة بالعراق نقصاً كثيراً حتى كان يجري الماء ببغداد في نحو خمسة اذرع، وأمر الخليفة ان يكري دجلة، فجمع الخلق الكثير، وكانوا كلما حفروا شيئاً، عاد الرمل وغطاه، وكان الناس يخوضون دجلة فوق بغداد، وهذا لم يعهد مثله، وحجّ بالناس هذه السنة علاء الدين محمد ولد الأمير مجاهد الدين ياقوت أمير الحاج، وكان قد ولاه الخليفة خوزستان، وجعله هو امير الحاج، وجعل معه من يدبر الحاج لأنه كان صبياً.

وفيها في العشرين من ربيع الآخر توفّي ضياء الدين احمد عبد الوهاب بن علي بن عبد الله الأمير البغدادي ببغداد، وهو سبط صدر الدين اسماعيل شيخ الشيوخ، وعمره سبع وثمانون سنة وشهور. وكان صوفياً فقيهاً محدثاً سمعنا معه الكثير رحمه الله وكان من عباد الله الصالحين كثير العبادة والصلاح.

وفيها توفّي شيخنا أبو حفص عمر بن محمد بن المعمر بن طبرزذ البغدادي، وكان عالي الإسناد.

ثم دخلت سنة ثمان وستمائة

ذكر استيلاء منكلي على بلاد الجبل وأصفهان وغيرها وهرب أيتغمش

في هذه السنة في شعبان قدم ايتغمش صاحب همذان وأصفهان والري وما بينهما من البلاد الى بغداد هاربا من منكلي، وسبب ذلك أن ايتغمش كان قد تمكّن في البلاد، وعظم شأنه، وانتشر صيته، وكثر عسكره حتى إنه حصر صاحبه أبا بكر بن البهلوان ـ صاحب هذه البلاد ـ أذربيجان وأران ـ كما ذكرناه ـ فلما كان الآن خرج عليه مملوك اسمه منكلي، ونازعه في البلاد وكثر اتباعه واطاعه المماليك البهلوانية، فاستولى عليها، وهرب منه شمس الدين أيتغمش الى بغداد، فلما وصل اليها أمر الخليفة بالاحتفال به في اللقاء، فخرج الناس كافة وكان يوم وصوله مشهوداً، ثم قدمت زوجته في رمضان في محمل، فأُكرمت وأنزلت عند زوجها، وأقام ببغداد إلى سنة عشر وستمائة، فسار عنها فكان من أمره ـ ما نذكره ـ .

ذكر نهب الحاج بمنى

وفي هذه السنة نهب الحاج بمنى، وسبب ذلك أن باطنياً وثب على بعض أهل الأمير قتادة صاحب مكة، فقتله بمنى ظناً منه أنه قتادة، فلما سمع قتادة ذلك جمع الأشراف والعرب والعبيد وأهل مكة، وقصدوا الحاج، ونزلوا عليهم من الجبل، ورموهم بالحجارة والنبل، وغير ذلك، وكان أمير الحاج ولد الأمير ياقوت المقدم ذكره، وهو صبي لا يعرف كيف يفعل، فخاف وتحيّر وتمكّن أمير مكة من نهب الحاج، فنهبوا منهم من كان في الأطراف، واقاموا على حالهم الى الليل، فاضطرب الحاج، وباتوا بأسوأ حال من شدّة الخوف من القتل والنهب، فقال بعض الناس لأمير الحاج: لينتقل بالحجاج الى منزلة حجاج الشام، فأمر بالرحيل، فرفعوا أثقالهم على الجمال، واشتغل

الناس بذلك، فطمع العدو فيهم وتمكن من النهب، والتحق من سلم بحجاج الشام، فاجتمعوا بهم، ثم رحلوا الى الزاهر، ومنعوا من دخول مكة، ثم اذن لهم في ذلك، فدخلوها، وتمموا حجتهم وعادوا، ثم ارسل قتادة ولده وجماعة من اصحابه الى بغداد، فدخلوها ومعهم السيوف مسلولة والأكفان، فقبلوا العتبة واعتذروا مما جرى على الحجاج.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة اظهر الاسماعيلية ومقدمهم جلال الدين بن فلان بن حسن بن الصباح الانتقال عن فعل المحرمات واستحلالها، وأمر باقامة الصلوات وشرائع الإسلام ببلادهم من خراسان والشام، وأرسل مقدمهم رسلاً الى الخليفة وغيره من ملوك الإسلام يخبرهم بذلك، وأرسل والدته الى الحج، فأكرمت ببغداد إكراماً عظيما، وكذلك بطريق مكة.

وفيها سلخ جمادى الآخرة توفِّي أبو حامد محمد بن يونس بن ميعة الفقيه الشافعي بمدينة الموصل، وكان إماما فاضلاً، إليه انتهت رياسة الشافعية، لم يكن في زمانه مثله، وكان حسن الاخلاق كثير التجاوز عن الفقهاء والإحسان اليهم رحمه الله.

وفيها في شهر ربيع الأول توفّي القاضي ابو الفضائل علي بن يوسف بن احمد بن الأمدي الواسطي قاضيها، وكان نعم الرجل.

وفيها في شعبان توفّي المعين ابو الفتوح عبد الواحد بن احمد بن علي الأمين شيخ الشيوخ ببغداد، وكان موته بجزيرة كاس مضى اليها رسولاً من الخليفة، وكان من اصدقائنا، وبيننا وبينه مودّة متأكّدة وصحبة كثيرة، وكان من عباد الله الصالحين ـ رحمه الله ورضي عنه ـ، وله كتابة حسنة وشعر جيد، وكان عالماً بالفقه وغيره، ولما توفّي رتب أخوه زين الدين عبد الرزاق بن أبي احمد، وكان ناظراً على المارستان العضدي، فتركه واقتصر على الرباط.

وفيها في ذي الحجة توفّي محمد بن يوسف بن محمد بن عبيد الله النيسابوري الكاتب الحسن الخطّ وكان يؤدي طريقة ابن البواب وكان فقيهاً حاسباً متكلماً وفيها توفّي

عمر بن مسعود أبي العز أبو القاسم البزار البغدادي بها وكان من الصالحين يجتمع إليه الفقراء كثيراً ويحسن اليهم وتوفّي أيضاً أبـو سعيد الحسن بن محمـد بن الحسن بن حمدون الثعلبي العدوي وهو ولد مصنف التذكرة وكان عالماً.

ثم دخلت سنة تسع وستمائة

ذكر قدوم ابن منكلي بغداد

في هذه السنة في المحرم قدم محمد بن منكلي، المستولي على بلاد الجبل الى بغداد، وسبب ذلك ان أباه منكلي لمّا استولى على بلاد الجبل، وهرب ايتغمش صاحبها منها الى بغداد، خاف ان يساعده الخليفة ويرسل معه العساكر، فيعظم الأمر عليه لأنه لم يكن قد تمكّن في البلاد، فأرسل ولده محمداً، ومعه جماعة من العسكر، فخرج الناس ببغداد على طبقاتهم يلتقونه، وأنزل وأكرم، وبقي ببغداد إلى أن قتل أيتغمش، فخلع عليه وعلى من معه، وأكرموا وسيّرهم إلى أبيه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قبض الملك العادل أبو بكر بن أيوب، صاحب مصر والشام على علي أمير اسمه أسامة ، كان له أقطاع كثيرة، من جملتها حصن كوكب من اعمال الأردن بالشام، وأخذ منه حصن كوكب، وخرّبه وعفى أثره، ومن بعده بنى حصناً بالقرب منه على جبل يسمّى الطور، وهو معروف هناك ، وشحنه بالرجال والذخائر والسلاح.

وفيها توفّي الفقيه محمد بن اسماعيل بن أبي الصيف اليمني، فقيه الحرم الشريف بمكة.

ثم دخلت سنة عشر وستمائة

ذكر قتل ايتغمش

في هذه السنة في المحرّم قتل أيتغمش الذي كان صاحب همذان،وقد ذكرنا سنة ثمان انه قدم إلى بغداد وأقام بها، فأنعم عليه الخليفة، وشرّفه بالخلع، وأعطاه الكوسات وما يحتاج إليه، وسيّره إلى همذان، فسار في جمادى الآخرة عن بغداد، قاصداً إلى همذان، فوصل إلى بلاد ابن ترجم، واجتمعا، وأقام ينتظر وصول عساكر بغداد اليه ليسير معه على قاعدة استقرت بينهم، وكان الخليفة قد عزل سليمان بن ترجم عن الامارة على عشيرته من التركمان الايوانية، وولى أخاه الأصغر، فأرسل سليمان إلى منكلي يعرّفه بحال أيتغمش، ومضى هو على وجهه، فأخذوه فقتلوه، وحملوا رأسه إلى منكلي، وتفرّق من معه من اصحابه في البلاد لا يلوي أخ على أخيه، ووصل الخبر بقتله إلى بغداد، فعظم على الخليفة ذلك، وأرسل إلى منكلي ينكر عليه ما فعل، فأجاب جواباً شديداً، وتمكن من البلاد، وقوي أمره، وكثرت جموعه وعساكره، وكان من أمره ما نذكره ـ إن شاء الله ـ.

ذكر عدة حوادث

حجَّ بالناس في هذه السنة أبو فراس بن جعفر بن فراس الحلي نيابة عن أمير الحاج ابي ياقوت ومُنع ابن ياقوت عن الحج لما جرى للحاج في ولايته.

وفيها في المحرم توفّي الحكيم المهذب علي بن احمد بن مقبل الطبيب المشهور، كان اعلم أهل زمانه بالطبّ، روى الحديث، وكان مقيماً بالموصل، وبها مات، وكان كثير الصدقة حسن الأخلاق، وله تصنيف حسن في الطبّ.

وفيها توفّي اسماعيل بن علي البغدادي، الفقيه الحنبلي صاحب ابن المني.

وفيها توفّي ايضا احمد بن مسعود التركستاني[١] الفقيه الحنفي ببغداد، وهو مدرّس مشهد ابي حنيفة.

وفيها في جمادى الأولى توفّي معز الدين أبو المعاني سعد بن علي، المعروف بابن حديد الذي كان وزير الخليفة الناصر لدين الله، وكان قد ألزم بيته، ولمّا توفّي حمل تابوته الى مشهد أمير المؤمنين علي عليه السلام بالكوفة، وكان حسن السيرة في وزارته كثير الخير والنفع للناس.

---

(١) هو ابو الفضل أحمد بن مسعود التركستاني، شيخ الحنفية بالعراق. تاريخ بغداد ٥/ ٤٠.

ثم دخلت سنة إحدى عشر وستمائة

ذكر ملك خوارزمشاه علاء الدين كرمان ومكران والسند

هذه الحادثة لا أعلم الحقيقة أيّ سنة كانت، إنما هي إما هذه السنة أو قبلها بقليل أو بعدها بقليل، لأن الذي أخبر بها كان من اجناد الموصل، وسافر الى تلك البلاد، وأقام بها عدّة سنين، وسار مع الأمير أبي بكر الذي فتح كرمان، ثم عاد، فأخبرني بها على شك من وقتها، وقد حضرها فقال: خوارزمشاه محمد بن تكش، كان من جملة أمراء أبيه أمير اسمه ابو بكر ولقبه تاج الدين، وكان في ابتداء امره جمالا يكري الجمال في الاسفار، ثم جاءته السعادة، فاتصل بخوارزمشاه، وصار سيروان جماله، فرأى منه جلداً وأمانة فقدمه إلى أن صار من اعيان امراء عسكره، فولاه مدينة زوزن، وكان عاقلاً ذا رأي وحزم وشجاعة، فتقدّم عند خوارزمشاه تقدّماً كثيراً، فوثق به اكثر من جميع امراء دولته، فقال ابو بكر لخوارزمشاه: إن بلاد كرمان مجاورة لبلدي، فلو أضاف السلطان إليّ عسكراً لملكتها في اسرع وقت، فسيَّر معه عسكراً كثيراً، فمضى إلى كرمان، وصاحبها اسمه حرب بن محمد بن أبي الفضل ، الذي كان صاحب سجستان أيام السلطان سنجر، فقاتله، فلم يكن له به قوَّة، وضعف، ، فملك أبو بكر بلاده في اسرع وقت، وسار منها إلى نواحي مكران، فملكها كلها الى السند من حدود كابل، وسار إلى هرمز مدينة على ساحل بحر مكران، فأطاعه صاحبها، واسمه ملتك، وخطب بها لخوارزمشاه، وحمل عنها مالاً، وخطب له بقلهات، وبعض عمان، لأن اصحابها كانوا يطيعون صاحب هرمز، وسبب طاعتهم له مع بعد الشقة والبحر يقطع بينهم أنهم يتقربون إليه بالطاعة ليأمن اصحاب المراكب التي تسير اليهم عنده، فإن هرمز مرسى عظيم، ومجمع للتجار من اقاصي الهند والصين واليمن وغيرها من البلاد وكان بين صاحب هرمز وبين صاحب كيش حروب وغارات، وكل منهما ينهى اصحاب المراكب

ان ترسي ببلد خصمه، وهم كذلك إلى الآن، وكان خوارزمشاه يصيِّف بنواحي سمرقند لأجل التتر أصحاب كشلي خان لئلا يقصد بلاده، وكان سريع السير إذا قصد جهة سبق خبره.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قتل مؤيد الملك الشحري، وكان قد وزر لشهاب الدين الغوري، ولتاج الدين الدز بعده ، وكان حسن السيرة، جميل الاعتقاد، محسناً إلى العلماء، وأهل الخبر، يزورهم ويبرهم، ويحضر الجمعة ماشياً، وكان سبب قتله أن بعض عسكر الدر كرهوه، وكان كل سنة يتقدَّم الى البلاد الحارة بين يدي الدز أول الشتاء، فسار هذه كعادته، فجاء اربعون نفراً أتراكاً قالوا له: السلطان يقول لك تحضر جريدة في عشر نفر لمهم تجدد، فسار معهم جريدة في عشر مماليك، فلما وصلوا الى نهوند بالقرب من ماء السند، قتلوه وهربوا، ثم إنهم ظفر بهم خوارزمشاه محمّد فقتلهم.

وفيها في رجب توفّي الركن أبو منصور عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلي البغدادي بغداد وكان قد ولي عدة ولايات وكان يتهم بمذهب الفلاسفة حتى انه رأى أبوه يوماً عليه قميصاً بخارياً، فقال:ما هذا القميص؟ فقال: بخاري، فقال أبوه: هذا عجب، ما زلنا نسمع مسلم والبخاري، وأما كافر والبخاري ما سمعنا، وأخذت كتبه قبل موته بعدة سنين، وأظهرت في ملأ من الناس، ورؤي فيها من تبخير النجوم، ومخاطبة زحل بالإلهية، وغير ذلك من الكفريات، ثم احرقت بباب العامة، وحبس، ثم افرج عنه بشفاعة أبيه، واستعمل بعد ذلك.

وفيها ايضا توفّي ابو العباس احمد بن هبة الله بن العلاء، المعروف بابن الزاهد ببغداد، وكان عالماً بالنحو واللغة.

وفي شعبان منها توفّي ابو المظفر محمد بن علي بن ألبل اللوري الواعظ ودفن برباط على نهر عيسى، ومولده سنة عشر وخمسمائة .

وفي شوال منها توفّي عبد العزيز بن محمود بن الأخضر، وكان من فضلاء المحدثين، وله سبع وثمانون سنة.

ثم دخلت سنة اثنتي عشر وستمائة

ذكر قتل منكلي وولاية اغلمش ما كان بيده من الممالك

في هذه السنة في جمادى الأولى، انهزم منكلي صاحب همذان وأصفهان والري وما بينهم من البلاد، ومضى هارباً فقتل، وسبب ذلك أنه كان قد ملك البلاد ـ كما ذكرناه ـ وقتل ايتغمش، فأرسل إليه من الديوان الخلفي رسول ينكر ذلك عليه، وكان اوحش الأمير أوزبك بن البهلوان صاحب اذربيجان، وهو صاحبه ومخدومه، فأرسل الخليفة اليه يحرضه على منكلي، ويعده النصرة، وأرسل ايضا الى جلال الدين الاسماعيلي، صاحب قلاع الاسماعيلية ببلاد العجم، الموت وغيرها يأمره بمساعدة أوزبك على قتال منكلي، واستقرّت القاعدة بينهم على أن يكون للخليفة بعض البلاد، ولأوزبك بعضها، ويعطي جلال الدين بعضها، فلما استقرَّت القواعد على ذلك، جهَّز الخليفة عسكراً كثيراً، وجعل مقدمهم مملوكه مظفر الدين سنقر الملقب بوجه السبع، وأرسل الى مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي كوجك، وهو اذ ذاك صاحب إربل وشهرزور واعمالها يأمره أن يحضر بعساكره، ويكون مقدَّم العساكر جميعها، وإليه المرجع في الحرب، فحضر وحضر معه عسكر الموصل، وديار الجزيرة وعسكر حلب، فاجتمعت عساكر كثيرة، وساروا إلى همذان، فاجتمعت العساكر كلُّها، فانزاح منكلي من بين أيديهم، وتعلَّق بالجبال وتبعوه، فنزلوا بسفح جبل هو في أعلاء بالقرب من مدينة كرج، وضاقت الميرة والأقوات على العسكر الخليفي جميعه ومن معهم، فلو أقام منكلي بموضعه لم يمكنهم المقام عليه اكثر من عشرة أيام لكنه طمع، فنزل ببعض عسكره من الجبل مقابل الأمير أوزبك، فحملوا عليه، فلم يثبت أوزبك، ومضى منهزماً، فعاد اصحاب منكلي وصعدوا الجبل، وعاد اوزبك الى خيامه، فطمع منكلي حينئذ، ونزل من الغد في جميع عسكره، واصطدمت العساكر للحرب، واقتتلوا اشد

قتال يكون، فانهزم منكلي وصعد الجبل، فلو أقام بمكانه لم يقدر أحد على الصعود إليه، وكان قصاراهم العود عنه لكنه اتخذ الليل جملاً، وفارق موضعه، ومضى منهزماً، فاتبعه نفر يسير من عسكره، وفارقه الباقون، وتفرَّقوا أيدي سبا، واستولى عسكر الخليفة وأوزبك على البلاد، فاعطى جلال الدين ملك الاسماعيلية من البلاد ما كان استقَّر له، وأخذ الباقي أوزبك، فسلَّمها الى اغلمش مملوك أخيه، وكان قد توجَّه إلى خوارزمشاه علاء الدين محمد، وبقي عنده، ثم عاد عنه، وشهد الحرب وأبلى فيها فولاهأوزبك البلاد وعاد كل طائفة من العسكر الى بلادهم، وأما منكلي، فإنه مضى منهزماً إلى مدينة ساوة، وبها شحنة هو صديق له، فأرسل إليه يستأذنه في الدخول الى البلد، فأذن له ودخل اليه، وخرج فلقيه، وقبل الأرض بين يديه، وادخله البلد، وأنزله في داره، ثم أخذ سلاحه وأراد أن يقيده ويرسله إلى أغلمش، فسأله ان يقتله هو، ولا يرسله فقتله وأرسل رأسه إلى أوزبك ، وأرسله أوزبك إلى بغداد، وكان يوم دخولها يوماً مشهوداً إلا أنه لم تتم المسرة للخليفة بذلك، فانه وصل ومات ولده في تلك الحال، فأعيد ودفن.

ذكر وفاة ابن الخليفة

في هذه السنة في العشرين من ذي القعدة توفّي ولد الخليفة، وهو الأصغر، وكان يلقب الملك المعظم، واسمهأبـو الحسن علي، وكان احب ولدي الخليفة إليه، وقد رشحه لولاية العهد بعده، وعزل ولده الأكبر عن ولاية العهد، واطرحه لأجل هذا الولد، وكان رحمه الله كريماً كثير الصدقـة، والمعروف حسن السيـرة محبوبـاً الى الخاص والعام، وكان سبب موته أنه اصابه إسهال، فتوفّي وحزن عليه الخليفة حزنا لم يسمع بمثله حتى انه ارسل الى اصحاب الأطراف، ينهاهم عن انفاذ رسول اليه يعزيه بولده، ولم يقرأ كتاباً ولا سمع رسالة وانقطع وخلا بهمومه واحزانه، ورؤي عليه من الحزن والجزع ما لم يسمع بمثله، ولما توفّي اخرج نهاراً ومشى جميع الناس بين يدي تابوته إلى تربة جدته عند قبر معروف الكرخي، فدفن عندها، ولما أدخل التابوت اغلقت الأبواب، وسمع الصراخ العظيم من داخل التربة، فقيل: إن ذلك صوت الخليفة، وأما العامة ببغداد، فإنهم وجدوا عليه وجدا شديدا، ودامت المناحات عليه في اقطار بغداد ليلاً ونهاراً، ولم يبق ببغداد محلة إلا فيها النوح ولم تبق امرأة إلا وأظهرت الحزن، وما سمع ببغداد مثل ذلك في قديم الزمان وحديثه، وكان موته وقت وصول رأس منكلي إلى

بغداد، فإن الموكب أمر بالخروج الى لقاء الرأس، فخرج الناس كافة، فلما دخلوا بالرأس درب حبيب وقع الصوت بموت ابن الخليفة، فأعيد الرأس، وهذا دأب الدنيا لا يصفو أبداً فرحها من ترح، وقد تخلص مصائبها من شائبة الترح.

ذكر ملك خوارزمشاه غزنة واعمالها

في هذه السنة في شعبان ملك خوارزمشاه محمّد بن تكش مدينة غزنة واعمالها، وسبب ذلك أن خوارزمشاه لمّا استولى على عامة خراسان، وملك باميان، وغيرها ارسل الى تاج الدين صاحب غزنة، وقد تقدّمت اخباره حتى ملكها، يطلب منه ان يخطب له، ويضرب السكة باسمه، ويرسل إليه فيلاً واحداً ليصالحه، وبيده غزنة، ولا يعارضه فيها، فأحضر الأمراء واعيان دولته، واستشارهم، وكان فيهم اكبر امير اسمه قتلغ تكين، وهو من مماليك شهاب الدين الغوري ايضاً، وإليه الحكم في دولة الدز، وهو النائب عنه بغزنة، فقال: الرأي أن تخطب له، وتعطيهما طلب، وتستريح من الحرب والقتال، وليس لنا بهذا السلطان قوّة، فقال الجماعة مثل قوله، فأجاب الى ما طلب منه، وخطب لخوارزمشاه، وضرب السكة باسمه، وأرسل إليه رسولاً، وأعاد رسوله اليه، ومضى إلى الصيد، فأرسل قتلغ تكين من غزنة إلى خوارزمشاه يطلبه، ليسلم إليه غزنة فسار مجداً، وسبق خبره فسلم إليه قتلغ تكين غزنة وقلعتها، فلما دخل اليها قتل من بها من عسكر الغورية، لا سيما الأتراك، فوصل الخبر إلى الدز بذلك فقال: ما فعل قتلغ تكين، وكيف ملك القلعة مع وجوده فيها؛ فقيل: هو الذي احضره، وسلّم إليه، فمضى هارباً هو ومن معه إلى لهاوور، وأقام خوارزمشاه بغزنة، فلما تمكّن منها احضر قتلغ تكين، فقال له: كيف حالك مع الدز، وكان عالماً به، وإنما أراد أن تكون له الحجّة عليه فقال: كلانا مماليك شهاب الدين، ولم يكن الدز يقيم بغزنة إلا أربعة اشهر الصيف، وانا الحاكم فيها، والمرجع إليّ في كل الأمور، فقال له خوارزمشاه: اذا كنت لا ترعى لرفيقك، ومن احسن اليك صحبته، وإحسانه، فكيف يكون حالي أنا معك؟ وما الذي تصنع مع ولدي إذا تركته عندك؟ فقبض عليه وأخذ منه أموالاً جمة حملها ثلاثون دابة من أصناف الأموال والأمتعة، وأحضر أربعمائة مملوك، فلما أخذ ماله قتله، وترك ولده جلال الدين بغزنة مع جماعة من عسكره وامرائه، وقيل إن ملك خوارزمشاه غزنة كان سنة ثلاث عشرة وستمائة.

ذكر استيلاء الدز على لهاوور وقتله

لما هرب الدز من غزنة الى لهاوور لقيه صاحبها ناصر الدين قباجة وهو من مماليك شهاب الدين الغوري أيضاً، وله من البلاد لهاوور وملتان وأوجه وديبل، وغير ذلك الى ساحل البحر، ومعه نحو خمسة عشر الف فارس، وكان قد بقي مع الدز نحو الف وخمسمائة فارس، فوقع بينهما مصاف، واقتتلوا، فانهزمت ميمنة الدز وميسرته، وأخذت الفيلة التي معه ولم يبق له غير فيلين معه في القلب، فقال الفيال: إذاً اخاطر بسعادتك وأمر احدالفيلين ان يحمل على العلم الذي لقباجة يأخذه، وأمر الفيل الآخر الذي له ايضا ان يأخذ الجتر الذي له، فأخذه ايضا، والفيلة المعلَّمة تفهم ما يقال لها - هذا رأيناه - فحمل الفيلان ، وحمل معهما الدز فيمن بقي عنده من العسكر، وكشف رأسه، وقال بالعجمية ما معناه: إما ملك، وإما هلك، واختلط الناس بعضهم ببعض، وفعل الغيلان ما أمرهما الفيال، من أخذ العلم والختر، فانهزم قباجة وعسكره، وملك الدز مدينة لهاوور، ثم سار إلى بلاد الهند ليملك مدينة دهلة وغيرها مما بيد المسلمين، وكان صاحب دهلة امير اسمه الترمش، ولقبه شمس الدين، وهو من مماليك قطب الدين أيبك، مملوك شهاب الدين أيضاً، وكان قد ملك الهند بعد سيده، فلمّا سمع به الترمش سار اليه في عساكره كلِّها فلقيه عند مدينة سمانا، فاقتتلوا، فانهزم الدز وعسكره، واخذ وقتل، وكان الدز محمود السيرة في ولايته كثير العدل والاحسان الى الرعية، لا سيما التجار والغرباء، ومن محاسن اعماله انه كان له اولاد، ولهم معلم يعلمهم، فضرب المعلم احدهم، فمات فاحضره الدز، وقال له: يا مسكين ما حملك على هذا؟ فقال: والله ما أردت إلا تأديبه، فاتَّفق ان مات. فقال: صدقت، وأعطاه نفقة، وقال له: تغيب فان أمه لا تقدر على الصبر، فربما اهلكتك، لا اقدر أمنع عنك، فلما سمعت أم الصبي بموته طلبت الأستاذ لتقتله، فلم تجده فسلم، وكان هذا من احسن ما يحكى عن احد من الناس.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفّي الوجيه المبارك بن أبي الأزهر سعيد بن الدهان الواسطي النحوي الضرير، كان نحريراً فاضلاً، قرأ على الكمال بن الأنباري ،وعلى غيره، وكان حنبلياً، فصار حنفياً، ثم صار شافعياً، فقال فيه ابو البركات بن زيد التكريتي :

ألا مبلغاً عني الـوجيـهَ رسـالـةً وإنْ كانَ لا تُجدِي لديه الرسائـلُ
تمذهبْتَ للنْعمانِ بعـدَ ابن حنبلٍ وفـارَقْتَـهُ إذ اعـوزَتْـكَ المـآكـلُ
ومـا اخترتَ رأيَ الشـافعيِّ تديناً ولكنَّمـا تَهوَى الـذي هو حَـاصلُ
وعمَّـا قليلٌ أنْتَ لا شـكَّ صـائـرٌ إلى مـالكٍ فـافطنْ لِمـا أنَا قَـائـلُ

ثم دخلت سنة ثلاث عشر وستمائة

ذكر وفاة الملك الظاهر

في هذه السنة في جمادى الآخر، توفّي الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن ايوب، وهو صاحب مدينة حلب ومنبج وغيرهما من بلاد الشام، وكان مرضه إسهالاً، وكان شديد السيرة ضابطاً لأموره كلِّها، كثير الجمع للأموال من غير جهاتها المعتادة، عظيم العقوبة على الذنب، لا يرى الصفح، وله مقصد، يقصده كثير من أهل البيوتات من اطراف البلاد والشعراء وأهل الدين وغيرهم فيكرمهم ويجري عليهم الجاري الحسن، ولما اشتدت علته عهد بالملك بعده لولد له صغير اسمه محمد، ولقبه الملك العزيز غياث الدين، عمره ثلاث سنين، وعدل عن ولد كبير، لأن الصغير كانت أمه ابنة عمه الملك العادل أبي بكر بن أيّوب، صاحب مصر ودمشق وغيرهما من البلاد، فعهد بالملك له ليبقي عمّه البلاد عليه، ولا ينازعه فيها، ومن أعجب ما يحكى ان الملك الظاهر قبل مرضه أرسل رسولاً الى عمه العادل بمصر يطلب منه ان يخلف لولده الصغير، فقال العادل سبحان الله أي حاجة إلى هذه اليمين الملك الظاهر مثل بعض أولادي، فقال الرسول، وقد طلب هذا واختاره، ولا بد من اجابته اليه، فقال العادل كم من كبش في المرعى وخروف عند القصاب، وحلف فاتفق في تلك الايام، أن توفي الملك الظاهر، والرسول في الطريق، ولما عهد الظاهر إلى ولده بالملك، جعل أتابكه ومربيه خادماً رومياً اسمه طغربل، ولقبه شهاب الدين، وهو من خيار عباد الله، كثير الصدقة والمعروف، ولما توفّي الظاهر أحسن هذا شهاب الدين السيرة في الناس، وعدل فيهم، وأزال كثيراً من السنن الجارية، واعاد املاكاً كانت قد اخذت من اربابها، وقام بتربية الطفل احسن قيام، وحفظ بلاده، واستقامت الأمور بحسن سيرته وعدله، وملك ما كان يتعذر على الظاهر ملكه، فمن ذلك: تل باشر، كان

الملك الظاهر لا يقدر ان يتعرض إليه، فلما توفّي ملكها كيكاوس ملك الروم ـ كما نذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ انتقلت الى شهاب الدين، وما اقبح بالملوك وابناء الملوك ان يكون الرجل الغريب المنفرد، احسن سيرة ، واعف من اموال الرعيـة، وأقرب إلى الخير منهم، ولا اعلم اليوم في ولاة امور المسلمين احسن سيرة منه، فالله يبقيه ويدفع عنه، فلقد بلغني عنه كل حسن وجميل,

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في المحرم، وقع بالبصرة برد كثير، وهو مع كثرته عظيم القدر، قيل كان اصغره مثل النارنجة الكبيرة، وقيل في أكبره ما يستحي الانسان ان يذكره، فكسر كثيرا من رؤوس النخيل، وفي المحرم ايضاً سيّر الخليفة الناصر لدين الله ولدي ابنه المعظّم علي الى تستر وهما : المؤيد والموفق، وسار معهما مؤيد الدين النائب عن الوزارة وعز الدين الشرابي، فأقاما بها يسيراً، ثم عاد الموفق مع الوزير والشرابي إلى بغداد أواخر ربيع الآخر.

وفيها في صفر هبت ببغداد ريح سوداء شديدة كثيرة الغبار والقتام، وألقت رملاً كثيراً، وقلعت كثيراً من الشجر، فخاف الناس، وتضرعوا ودامت من العشاء الآخرة الى ثلث الليل وانكشفت .

وفيها توفّي التاج زيد بن الحسن بن زيد الكندي أبو اليمن البغدادي المولد والمنشأ انتقل بالشام، فأقام بدمشق، وكان إماماً في النحو واللغـة، وله الاسنـاد العالي في الحديث، وكان ذا فنون كثيرة من انواع العلوم رحمه الله.

ثم دخلت سنة أربع عشر وستمائة

ذكر ملك خوارزم شاه بلد الجبل

في هذه السنة سار خوارزم شاه، علاء الدين محمد بن تكش الى بلاد الجبل فملكها، وكان سبب حركته في هذا الوقت اشياء: أحدها انه كان قد استولى على ما وراء النهر، وظفر بالخطا، وعظم أمره، وعلا شأنه واطاعه القريب والبعيد، ومنها أنه كان يهوى أن يخطب له ببغداد، ويلقب بالسلطان، وكان الأمر بالصد لأنه كان لا يجد من ديوان الخلافة قبولاً، وكان سبيله إذا ورد إلى بغداد ان يقدم غيره عليه، ولعل في عسكره مائة مثل الذي يقدم سبيله عليه، فكان إذا سمع ذلك يغضبه، ومنها ان اغلمش لمّا ملك بلاد الجبل خطب له فيها جميعها ـ كما ذكرناه ـ فلما قتله الباطنية غضب له، وخرج لئلا تخرج البلاد عن طاعته، فسار مجداً في عساكر تطبق الأرض، فوصل إلى الري فملكها.

وكان أتابك سعد بن دكلا صاحب بلاد فارس لمّا بلغه مقتل أغلمش جمع عساكره، وسار نحو بلاد الجبل طمعاً في تملكهالخلوها عن حام وممانع، فوصل إلى أصفهان، فاطاعه أهلها، وسار منها يريد الري ولم يعلم بقدوم خوارزم شاه، فلقيه مقدمة خوارزم شاه، فظنها عساكر تلك الديار قد اجتمعت لقتاله ومنعه عن البلاد فقاتلهم وجدّ في محاربتهم حتى كاد يهزمهم، فبينما هو كذلك، وإذ هو قد ظهر له جتر خوارزم شاه، فسأل عنه، فأخبر به، فاستسلم وانهزمت عساكره، وأخذ أسيراً، وحمل الى بين يدي خوارزم شاه، فأكرمه ووعده الإحسان والجميل، وأمنه على نفسه واستحلفه على طاعته، واستقرت القاعدة بينهما على ان يسلم بعض البلاد إليه، ويبقي بعضها واطلقه، وسيَّر معه جيشاً إلى بلاد فارس ليسلم إليهم ما استقرَّت القاعدة عليه، فلما قدم على ولده الأكبر رآه قد تغلب على بلاد فارس، فامتنع من التسليم إلى أبيه، ثم إنه ملك

البلاد ـ كما نذكره ـ وخطب فيها لخوارزم شاه، وسار خوارزم شاه إلى ساوة، فملكها وأقطعها العماد الملك عارض جيشه وهو من أهلها، ثم سار الى قزوين وزنجان وأبهر، فملكها كلها بغير ممانع ولا مدافع، ثم سار الى همذان، فملكها واقطع البلاد لأصحابه، وملك اصفهان، وكذلك قم وقاشان، واستوعب ملك جميع البلاد، واستقرت القاعدة بينه وبين أوزبك بن البهلوان صاحب اذربيجان وأران بان يخطب له اوزبك في بلاده ويدخل في طاعته، ثم انه عزم على المسير الى بغداد، فقدم بين يديه أميراً كبيراً في خمسة عشر الف فارس، واقطعه حلوان، فسار حتى وصل إليها ثم أتبعه بأمير آخر، فلما سار عن همذان يومين أو ثلاثة سقط عليهم من الثلج ما لم يسمع بمثله، فهلكت دوابهم، ومات كثير منهم، وطمع فيمن بقي بنو ترجم الأتراك، وبنو هكار الأكراد، فتخطفوهم، فلم يرجع منهم الى خوارزم شاه إلا اليسير، فتطير خوارزم شاه من ذلك الطريق، وعزم على العود إلى خراسان خوفاً من التتر، لأنه ظن أنه يقضي حاجته، ويفرغ من إرادته في المدة اليسيرة، فخاب ظنه ورأى البيكار بين يديه طويلاً، فعزم على العود، فولى همذان اميراً من أقاربه من جهة والدته يقال له: طائيسي، وجعل في البلاد جميعها ابنه ركن الدين، وجعل معه متولياً لأمر دولته عماد الملك الساوي، وكان عظيم القدر عنده، وكان يحرص على قصد العراق.

وعاد خوارزم شاه إلى خراسان، فوصل إلى مرو في المحرَّم سنة خمس عشرة وستمائة، وسار من وجهه إلى ما وراء النهر، ولمَّا قدم إلى نيسابور جلس يوم الجمعة عند المنبر، وأمر الخطيب بترك الخطبة للخليفة الناصر لدين الله، وقال: إنه قد مات، وكان ذلك في ذي القعدة سنة أربع عشرة وستمائة، ولما قدم مرو قطع الخطبة بها، وكذلك ببلخ وبخارى وسرخس،وبقي خوارزم وسمرقند وهراة لم تقطع الخطبة فيها، إلا عن قصد لتركها لأن البلاد كانت لا تعارض من اشباه هذا، ان احبوا خطبوا، وإن ارادوا قطعوا، فبقيت كذلك الى أن كان منه ما كان، وهذه من جملة سعادات هذا البيت الشريف العباسي لم يقصده أحد بأذى إلا لقيه فعله وخبث نيته، لا جرم لم يمهل هذا خوارزم شاه حتى جرى له ما نذكره مما لم يسمع بمثله في الدنيا قديماً ولا حديثاً.

ذكر ما جرى لأتابك سعد مع اولاده

لما قتل أغلمش صاحب بلاد الجبل همذان وأصفهان، وما بينهما من البلاد جمع

أتابك سعد بن دكلا صاحب فارس عساكره، وسار عن بلاده أصفهان، فملكها وأطاعه أهلها، فطمع تلك البلاد جميعها، فسار عن أصفهان إلى الري، فلما وصل إليها لقي عساكر خوارزمشاه قد وصلت ـ كما ذكرناه ـ، فعزم على محاربة مقدمة العسكر، فقاتلها حتى كاد يهزمها، فظهرت عساكر خوارزم شاه، ورأى الجتر، فسقط في يده والقى نفسه، وضعفت قوته وقوة عسكره، فولوا الأدبار، وأخذ أتابك سعد أسيراً، وأحضر بين يدي خوارزمشاه، فأكرمه، وطيَّب نفسه، ووعده الإحسان واستصحبه معه إلى ان وصل إلى اصفهان، فسيره منها الى بلاده ، وهي تجاورها، وسيَّر معه عسكراً مع أمير كبير ليتسلم منه ما كان استقر بينهما، فإنهما اتفقا على ان يكون لخوارزمشاه بعض البلاد ولأتابك سعد بعضها، وتكون الخطبة لخوارزمشاه في البلاد جميعها، وكان أتابك سعد قد استخلف ابناً له على البلاد، فلمّا سمع الابن بأسر أبيه خطب لنفسه بالمملكة، وقطع خطبة أبيه، فلمّا وصل أبوه ومعه عسكر خوارزمشاه، امتنع الابن من تسليم البلاد إلى أبيه، وجمع العساكر، وخرج يقاتله، فلما تراءى الجمعان، انحازت عساكر فارس إلى صاحبهم أتابك سعد، وتركوا ابنه في خصاصته، فحمل على أبيه فلما رآه أبوه ظن أنه لم يعرفه، فقال له: أنا فلان، فقال إياك أردت، فحينئذ امتنع منه، وولى الابن منهزماً، ووصل أتابك سعد إلى البلاد، فدخلها مالكاً لها، وأخذ ابنه اسيراً، فسجنه إلى الآن إلا أنني سمعت الآن، وهو سنة عشرين وستمائة أنه قد خفَّف حبسه ووسع عليه، ولما عاد خوارزم شاه إلى خراسان غدر سعد بالأمير الذي عنده فقتله، ورفع عن طاعة خوارزم شاه، واشتغل خوارزم شاه بالحادثة العظمى التي شغلته عن هذا وغيره، لكن الله انتقم له بابنه غياث الدين ـ كما ذكرناه ـ سنة عشرين وستمائة لأن سعداً كفر إحسان خوارزم شاه، وكفر الإحسان عظيم العقوبة.

ذكر ظهور الفرنج إلى الشام ومسيرهم إلى ديار مصر وملكهم مدينة دمياط وعودها إلى المسلمين

كان من أول هذه الحادثة إلى آخرها اربع سنين غير شهر، وإنما ذكرناها ههنا لأن ظهورهم كان فيها، وسقناها سياقة متتابعة ليتلو بعضها بعضا، فنقول في هذه السنة وصلت أمداد الفرنج في البحر من رومية الكبرى وغيرها من بلاد الفرنج، في الغرب والشمال، إلا أن المتولّي لها كان صاحب رومية، لأنه ينزل عند الفرنج بمنزلة عظيمة،

لا يرون مخالفة أمره ولا العدول عن حكمه، فيما سرهم وساءهم، فجهَّز العساكر من عنده مع جماعة من مقدّمي الفرنج وأمر غيره من ملوك الفرنج أن يسير بنفسه أو يرسل جيشاً، ففعلوا ما أمرهم، فاجتمعوا بعكًا من ساحل الشام، وكان الملك العادل أبو بكر ابن أيوب بمصر، فسار منها إلى الشام، فوصل إلى الرملة، ومنها إلى لدّ وبرز الفرنج من عكا ليقصدوه، فسار العادل نحوهم، فوصل الى نابلس عازماً على أن يسبقهم إلى أطراف البلاد مما يلي عكا ليحميها منهم، فساروا هم، فسبقوه، فنزل على بيسان من الأردن، فتقدَّم الفرنج إليه في شعبان عازمين على محاربته، لعلمهم أنه في قلة من العسكر، لأن العساكر كانت متفرِّقة في البلاد، فلما رأى العادل قربهم منه لم ير أن يلقاهم في الطائفة التي معه خوفاً من هزيمة تكون عليه وكان حازماً كثير الحذر ففارق بيسان نحو دمشق ليقيم بالقرب منها ويرسل الى البلاد، ويجمع العساكر، فوصل الى مرج الصفر، فنزل فيه، وكان أهل بيسان وتلك الأعمال لما رأوا الملك العادل عندهم اطمأنوا، فلم يفارقوا بلادهم ظناً منهم أن الفرنج لا يقدمون عليه، فلما أقدموا على غفلة من الناس، فلم يقدر على النجاة إلا القليل، فأخذ الفرنج كل ما في بيسان من ذخائر قد جمعت، وكانت كثيرة، وغنموا شيئاً كثيراً، ونهبوا البلاد من بيسان إلى بانياس، وبثوا السرايا في القرى، فوصلت إلى خسفين، ونوى وأطراف السواد، ونازلوا بانياس، وأقاموا عليها ثلاثة أيام، ثم عادوا عنها الى مرج عكا ومعهم من الغنائم والسبي والأسرى ما لا يحصى كثرة، سوى ما قتلوا وأحرقوا وأهلكوا، فأقاموا أياما استراحوا، ثم جاؤوا الى صور، وقصدوا بلد الشقيف، ونزلوا بينهم وبين بانياس مقدار فرسخين، فنهبوا البلاد صيدا والشقيف، وعادوا الى عكا، وكان هذا من نصف رمضان الى العيد، والذي سلم من تلك البلاد كان مخفاً حتى قدر على النجاة، ولقد بلغني أن العادل لما سار الى مرج الصفر، رأى في طريقه رجلاً يحمل شيئاً، وهو يمشي تارة وتارة يقعد ليستريح، فعدل العادل إليه وحده فقال له: يا شيخ لا تعجل، وارفق بنفسك، فعرفه الرجل، فقال: يا سلطان المسلمين أنت لا تعجل، فإنا إذا رأيناك قد سرت إلى بلادك وتركتنا مع الاعداء كيف لا نعجل، وبالجملة الذي فعله العادل هو الحزم والمصلحة لئلا يخاطر باللقاء على حال تفرّق من العساكر ولما نزل العادل على مرج الصفر سيّر ولده الملك المعظم عيسى وهو صاحب دمشق في قطعة صالحة من الجيش الى نابلس ليمنع الفرنج عن البيت المقدس.

ذكر حصر الفرنج قلعة الطور وتخريبها

لما نزل الفرنج بمرج عكا، تجهزوا وأخذوا معهم آلة الحصار من مجانيق وغيرها، وقصدوا قلعة الطور، وهي قلعة منيعة على رأس جبل بالقرب من عكا، كان العادل قد بناها عن قريب، فتقدموا إليها وحصروها، وزحفوا اليها، وصعدوا في جبلها حتى وصلوا الى سورها، وكادوا يملكونه، فاتفق ان بعض المسلمين ممن فيها قتل بعض ملوكهم، فعادوا عن القلعة، فتركوها، وقصدوا عكا، وكان مدّة مقامهم على الطور سبعة عشر يوماً، ولما فارقوا الطور أقاموا قريباً، ثم ساروا في البحر الى ديار مصر ـ على ما نذكره إن شاء الله تعالى ـ فتوجّه الملك المعظّم الى قلعة الطور فخربها الى ان الحقها يالأرض لأنها بالقرب من عكا ، ويتعذر حفظها.

ذكر حصر الفرنج دمياط إلى أن ملكوها

لما عاد الفرنج من حصار الطور أقاموا بعكّا إلى أن دخلت سنة خمس عشرة وستمائة ، فساروا في البحر إلى دمياط ، فوصلوا في صفر ، فأرسلوا إلى بر الجيزة بينهم وبين دمياط النيل، فإن بعض النيل يصب في البحر المالح عند دمياط ، وقد بني في النيل برج كبير منيع ، وجعلوا فيه سلاسل من حديد غلاظ، ومدوها في النيل الى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة من البحر المالح ان تصعد في النيل إلى ديار مصر، ولولا هذا البرج، وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو لا يقدر أحد على منعها عن اقاصي ديار مصر وأدانيها، فلما نزل الفرنج على برّ الجيزة، وبينهم وبين دمياط النيل، بنوا عليهم سوراً، وجعلوا خندقاً يمنعهم ممن يريدهم، وشرعوا في قتال من بدمياط، وعملوا آلات ومرمات وأبراجاً يزحفون بها في المراكب الى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه، وكان البرج مشحوناً بالرجال، وقد نزل الملك الكامل ابن الملك العادل، وهو صاحب دمياط ، وجميع ديار مصر بمنزلة تعرف بالعادلية بالقرب من دمياط، والعساكر متصلة من عنده الى دمياط ليمنع العدو من العبور إلى أرضها، وأدام الفرنج قتال البرج وتابعوه ، فلم يظفروا منه بشيء، وكسرت مرماتهم وآلاتهم، ومع هذا فهم ملازمون لقتاله، فبقوا كذلك أربعة اشهر، ولم يقدروا على أخذه، ثم بعد

ذلك ملكوا البرج، فلما ملكوه قطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر المالح في النيل، ويتحكموا في البر، فنصب الملك عوض السلاسل جسراً عظيماً امتنعوا به من سلوك النيل، ثم انهم قاتلوا عليه أيضاً قتالاً شديداً كثيراً متتابعاً حتى قطعوه، فلما قطع اخذ الملك الكامل عدَّة مراكب كبار وملأها وخرقها وغرقها في النيل، فمنعت المراكب من سلوكه، فلما رأى الفرنج ذلك قصدوا خليجاً هناك، يعرف بالأزرق، كان النيل يجري عليه قديماً، فحفروا ذلك الخليج، وعمقوه فوق المراكب التي جعلت في النيل، واجروا الماء فيه الى البحر المالح، واصعدوا مراكبهم فيه الى موضع يقال له: بورة على ارض الجيزة ايضا مقابل المنزلة التي فيها الملك الكامل ليقاتلوه من هناك، فإنهم لم يكن لهم إليه طريق يقاتلونه فيها، كانت دمياط تحجز بينهم وبينه، فلما صاروا في بورة حاذوه، فقاتلوه في الماء وزحفوا اليه غير مرة، فلم يظفروا بطائل، ولم يتغير على أهل دمياط شيء لأن الميرة والأمداد متصلة بهم، والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج فهم ممتنعون لا يصل اليهم اذى، وأبوابها مفتحة، وليس عليها من الحصر ضيق، ولا ضرر، فاتفق ـ لما يريد الله عز وجل ـ أن الملك العادل توفِّي في جمادى الآخرة من سنة خمس عشر وستمائة ـ على ما نذكره إن شاء الله ـ فضعفت نفوس الناس لأنه السلطان حقيقة، وأولاده وإن كانوا ملوكاً إلا أنهم بحكمه والأمر إليه وهو ملكهم البلاد فاتفق موته، والحال هكذا من مقاتلة العدو.

وكان من جملة الأمراء بمصر أمير يقال له عماد الدين، احمد بن علي ويعرف بابن المشطوب، وهو من الأكراد الهكارية، وهو اكبر أمير بمصر، وله لفيف كثير، وجميع الأمراء ينقادون اليه ويطيعونه، لا سيما الأكراد، فاتفق هذا الأمير مع غيره من الأمراء، وأرادوا ان يخلعوا الملك الكامل من الملك، ويملكوا أخاه الملك الفائز بن العادل، ليصير الحكم اليهم عليه وعلى البلاد، فبلغ الخبر الى الكامل، ففارق المنزلة ليلاً جريدة، وسار إلى قرية يقال لها شمعون طناح، فنزل عندها واصبح العسكر، وقد فقدوا سلطانهم، فركب كل انسان منهم هواه، ولم يقف الأخ على أخيه، ولم يقدروا على أخذ شيء من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم الا اليسير الذي يخفّ حمله، وتركوا الباقي بحاله من ميرة وسلاح ودواب وخيام وغير ذلك، ولحقوا بالكامل، وأما الفرنج فإنهم اصبحوا من الغد، فلم يروا من المسلمين أحداً على شاطىء النيل كجاري عادتهم، فبقوا لا يدرون ما الخبر، وإذا قد أتاهم من اخبرهم الخبر على حقيقته، فعبروا

حينئذ النيل إلى بر دمياط آمنين بغير منازع ولا مانع، وكان عبورهم في العشرين من ذي القعدة سنة خمس عشرة وستمائة، فغنموا ما في عسكر المسلمين، فكان عظيماً يعجز العادين، وكان الملك الكامل قد فارق الديار المصرية لأنه لم يثق بأحد من عسكره، وكان الفرنج ملكوا الجميع بغير تعب ولا مشقة، فاتفق من لطف الله تعالى بالمسلمين ان الملك المعظَّم عيسى بن الملك العادل وصل إلى أخيه الكامل بعد هذه الحركة بيومين، والناس في أمر مريج، فقوي به قلبه، واشتد ظهره، وثبت جنانه، وأقام بمنزلته وأخرجوا ابن المشطوب الى الشام، فاتصل بالملك الأشرف، وصار من جنده، فلمّا عبر الفرنج الى ارض دمياط اجتمعت العرب على اختلاف قبائلها ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط، وقطعوا الطريق، وأفسدوا وبالغوا في الإفساد، فكانوا أشدًّ على المسلمين من الفرنج.

وكان اضرّ شيء على أهل دمياط أنها لم يكن بها من العسكر أحد لأن السلطان ومن معه من العساكر، كانواعندها يمنعون العدوعنها، فأتتهم هذه الحركة بغتة، فلم يدخلها أحد من العسكر، وكان ذلك من فعل ابن المشطوب، لا جرم لم يمهله الله وأخذه اخذة رابية ـ على ما نذكره إن شاء الله، واحاط الفرنج بدمياط، وقاتلوها براً وبحراً، وعملوا عليهم خندقاً يمنعهم ممن يريدهم من المسلمين، وهذه كانت عادتهم، وأداموا القتال واشتد الأمر على أهلها، وتعذرت عليهم الأقوات وغيرها وسئموا القتال وملازمته لأن الفرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم، وليس بدمياط من الكثرة ما يجعلون القتال بينهم مناوبة، ومع هذا فصبروا صبرا لم يسمع بمثله، وكثر القتل فيهم والجراح والموت والأمراض، ودام الحصار عليهم الى السابع والعشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمائة، فعجز من بقي من أهلها عن الحفظ لقلتهم وتعذر القوت عندهم، فسلموا البلد إلى الفرنج في هذا التاريخ بالأمان، فخرج منهم قوة، وأقام آخرون لعجزهم عن الحركة فتفرقوا أيدي سبا.

ذكر ملك المسلمين دمياط من الفرنج

لما ملك الفرنج دمياط، اقاموا بها وبثوا سراياهم في كل ما جاورهم من البلاد، ينهبون ويقتلون، فجلى أهله عنها، وشرعوا في عمارتها وتحصينها، وبالغوا في ذلك حتى انها بقيت لا ترام، وأما الملك الكامل، فانه أقام بالقرب منهم في اطراف بلاده

يحميها، ولما سمع الفرنج في بلادهم بفتح دمياط على أصحابهم اقبلوا يهرعون من كل فجٍّ عميق، واصبحت دار هجرتهم، وعاد الملك المعظم صاحب دمشق الى الشام فخرّب البيت المقدس في ذي القعدة من السنة، وإنما فعل ذلك لأن الناس كافة خافوا الفرنج ، وأشرف الإسلام وكافة أهله وبلاده على خطة خسف في شرق الأرض وغربها ، وأقبل التتر من المشرق حتى وصلوا إلى نواحي العراق وأذربيجان وأران وغيرها ـ على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

واقبل الفرنج من المغرب، فملكوا مثل دمياط في الديار المصريّة، مع عدم الحصون المانعة بها من الأعداء، وأشرف على سائر البلاد بمصر والشام وصاروا يتوقعون البلاء صباحا ومساء، وأراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم خوفاً من العدو، ولات حين مناص، والعدو قد أحاط بهم من كل جانب، ولو مكنهم الكامل من ذلك لتركوا البلاد خاوية على عروشها ، وإنما منعوا منه ، فثبتوا وتابع الملك الكامل كتبه إلى أخويه ، المعظم صاحب دمشق ، والملك الأشرف موسى بن العادل صاحب ديار الجزيرة وأرمينية وغيرهما يستنجدهما ويحثهما على الحضور بأنفسهما، فإن لم يمكن ، فيرسلان العساكر إليه، فسار صاحب دمشق إلى الأشرف بنفسه، فرآه مشغولاً عن انجاده بما دهمه من اختلاف الكلمة عليه، وزوال الطاعة عن كثير ممن كان يطيعه ـ ونحن نذكر ذلك سنة خمس عشرة وستمائة إن شاء الله عند وفاة الملك القاهر صاحب الموصل فليطلب من هناك ـ فعذره وعاد عنه، وبقي الأمر كذلك مع الفرنج، فأمر الملك الأشرف، فزال الخلف من بلاده، ورجع الملوك الخارجون عن طاعته إليه واستقامت له الأمور الى سنة ثمان عشرة وستمائة والملك الكامل مقابل الفرنج، فلما دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة علم بزوال المانع للأشرف عن انجاده، فأرسل يستنجده وأخاه صاحب دمشق، فصار صاحب دمشق يحثه على المسير، ففعل، وسار الى دمشق فيمن معه من العساكر والعود إلى بلاده خوفاً من اختلاف يحدث، فلم يقبل قولهم. وقال: قد خرجت للجهاد ولا بد من إتمام ذلك العزم، فسار إلى مصر، وكان الفرنج قد ساروا عن دمياط الفارس والراجل، وقصدوا الملك الكامل ونزلوا مقابله ، بينهما خليج من النيل، يسمى بحر أشمون، وهم يرمون بالمنجنيق والجرخ إلى عسكر المسلمين، وقد تيقنوا هم وكل الناس أنهم يملكون الديار المصرية، وأما الأشرف، فإنه

سار حتى وصل مصر، فلما سمع أخوه الكامل بقربه منهم توجّه اليه فلقيه، واستبشر هو وكافة المسلمين باجتماعهما لعل الله يحدث بذلك نصراً وظفراً.

وأما الملك المعظم صاحب دمشق، فإنه سار أيضاً إلى ديار مصر وقصد دمياط ظناً منه أن اخويه وعسكريهما قد نازلوها، وقيل: بل أخبر في الطريق أن الفرنج قد توجَّهوا إلى دمياط، فسابقهم اليها ليلقاهم من بين أيديهم وأخواه من خلفهم والله أعلم، ولما اجتمع الأشرف بالكامل استقرَّ الأمر بينهما على التقدُّم الى خليج من النيل يعرف ببحر المحلة، فتقدموا إليه فقاتلوا الفرنج، وازدادوا قرباً، وتقدَّمت شواني المسلمين من النيل، وقاتلوا شواني الفرنج، فأخذوا منها ثلاث قطع بمن فيها من الرجال، وما فيها من الأموال والسلاح، ففرح المسلمون بذلك، واستبشروا وتفاءلوا، وقويت نفوسهم، واستطالوا على عدوهم. هذا يجري والرسل متردِّدة بينهم في تقرير قاعدة الصلح، وبذل المسلمون لهم تسليم البيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية، وجميع ما فتحه صلاح الدين ما عدا الكرك ليسلموا دمياط، فلم يرضوا وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب القدس ليعمروه بها، فلم يتم بينهم أمر وقالوا: لا بد من الكرك، فبينما الأمر في هذا وهم يمنعون، فاضطر المسلمون الى قتالهم، وكان الفرنج لاقتدارهم في نفوسهم لم يستصحبوا معهم ما يقوتهم عدة ايام ظناً منهم أن العساكر الإسلامية لا تقوم لهم، وان القرى والسواد جميعه يبقى بأيديهم يأخذون منه ما أرادوا من الميرة لأمر يريده الله تعالى بهم، فعبر طائفة من المسلمين الى الأرض التي عليها الفرنج، ففجروا النيل، فركب الماء اكثر تلك الأرض، ولم يبق للفرنج جهة يسلكون منها غير جهة واحدة، فيها ضيق، فنصب الكامل حينئذ الجسور على النيل عند اشمون، وعبرت العساكر عليها، فملك الطريق الذي يسلكه الفرنج ان ارادوا العود الى دمياط، فلم يبقَ لهم خلاص، واتفق في تلك الحال انه وصل إليهم مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب، يسمى مرمة، وحوله عدة حراقات تحميه، والجميع مملوءة من الميرة والسلاح وما يحتاجون اليه، فوقع عليها شواني المسلمين وقاتلوهم، فظفروا بالمرمة وبما معها من الحراقات، وأخذوها فلما رأى الفرنج ذلك سقط في أيديهم، ورأوا أنهم قد ضلُّوا الصواب بمفارقة دمياط في أرض يجهلونها هذا وعساكر المسلمين محيطة بهم، يرمونهم بالنشاب، ويحملون على أطرافهم، فلما اشتد الأمر على الفرنج

احرقوا خيامهم ومجانيقهم وأثقالهم، وأرادوا الزحف الى المسلمين ومقاتلتهم لعلهم يقدرون على العود الى دمياط، فرأوا ما أملوه بعيداً، وحيل بينهم وبين ما يشتهون لكثرة الوحل والمياه حولهم، والوجه الذي يقدرون على سلوكه قد ملكه المسلمون، فلما تيقّنوا أنهم قد أحيط بهم من سائر جهاتهم، وأن ميرتهم قد تعذر عليهم وصولها، وان المنايا قد كشّرت لهم عن أنيابها، ذلت نفوسهم وتنكست صلبانهم، وضلّ عنهم شيطانهم، فراسلوا الملك الكامل والأشرف يطلبون الأمان ليسلموا دمياط بغير عوض، فبينما المراسلات مترددة اذ اقبل جيش كبيرلهم رهج شديد وجلبة عظيمة من جهة دمياط، فظنه المسلمون نجدة اتت للفرنج، فاستشعروا، وإذ هو الملك المعظم صاحب دمشق قد وصل اليهم، وكان قد جعل طريقه على دمياط ـ لما ذكرناه ـ فاشتدت ظهور المسلمين، وازداد الفرنج خذلاناً ووهناً وتمموا الصلح على تسليم دمياط، واستقرت القاعدة والأيمان سابع رجب من سنة ثمان عشر وستمائة، وانتقل ملوك الفرنج وكنودهم وقمامصتهم إلى الملك الكامل والأشرف رهائن على تسليم دمياط، ملك عكا ونائب بابا صاحب رومية وكندريش وغيرهم، وعدتهم عشرون ملكاً، وراسلوا قسوسهم ورهبانهم الى دمياط في تسليمها، فلم يمتنع من بها وسلّموها الى المسلمين تاسع رجب المذكور، وكان يوماً مشهوداً، ومن العجب ان المسلمين لما تسلموها وصلت للفرنج نجدة في البحر، فلو سبقوا المسلمين اليها لامتنعوا من تسليمها، ولكن سبقهم المسلمون ليقضي الله امراً كان مفعولا، ولم يبق بها من أهلها الا آحاد، وتفرّقوا ايدي سبا، بعضهم سار عنها باختياره، وبعضهم مات، وبعضهم أخذه الفرنج، ولمّا دخلها المسلمون رأوها حصينة قد حصنها الفرنج تحصيناً عظيماً، بحيث بقيت لا ترام ولا يوصل اليها، وأعاد الله سبحانه وتعالى الحق الى نصابه، ورده الى اربابه واعطى المسلمين ظفراً لم يكن في حسابهم، ، فإنهم كانت غاية امانيهم ان يسلموا البلاد التي اخذت منهم بالشام ليعيدوا دمياط، فرزقهم الله إعادة دمياط، وبقيت البلاد بأيديهم على حالها، فالله المحمود المشكور على ما أنعم به على الاسلام والمسلمين من كفِّ عادية هذا العدو، وكفاهم شر التتر ـ على ما نذكره ان شاء الله تعالى.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في المحرم، كانت ببغداد فتنة بين اهل المأمونية وبين أهل باب

الأزج بسبب قتل سبع، وزاد الشر بينهم، واقتتلوا، فجرح بينهم كثير، فحضر نائب الباب، وكفهم عن ذلك، فلم يقبلوا ذلك واسمعوه ما يكره، فأرسل من الديوان امير من مماليك الخليفة، فردَّ أهل كل محلة الى محلتهم، وسكنت الفتنة.

وفيها كثر الفار ببلدة دجيل من اعمال بغداد، فكان الانسان لا يقدر أن يجلس إلا معه عصا يرد الفار عنه، وكان يرى الكثير منه ظاهراً يتبع بعضه بعضا.

وفيها زادت دجلة زيادة عظيمة لم يشاهد في قديم الزمان مثلها، وأشرفت بغداد على الغرق، فركب الوزير وكافة الأمراء والأعيان، وجمعوا الخلق العظيم من العامة وغيرهم لعمل القورج حول البلد، وقلق الناس لذلك، وانزعجوا، وعاينوا الهلاك، واعدوا السفن لينجوا فيها، وظهر الخليفة للناس، وحثَّهم على العمل، وكان ممّا قال لهم: لو كان يفدى ما أرى بمال او غيره لفعلت، ولو دفع بحرب لفعلت، ولكن أمر الله لا يرد، ونبع الماء من البلاليع والآبار من الجانب الشرقي، وغرق كثير منه، وغرق مشهد أبي حنيفة وبعض الرصافة وجامع المهدي، وقربة الملكية، والكشك، وانقطعت الصلاة بجامع السلطان، وأما الجانب الغربي، فتهدم اكثر القرية، ونهر عيسى، والشطيات، وخربت البساتين، ومشهد باب التين، ومقبرة احمد بن حنبل، والحريم الظاهري، وبعض باب البصرة والدور التي على نهر عيسى واكثر محلة قطفتا.

وفيها توفّي احمد بن ابي الفضائل عبد المنعم بن أبي البركات محمد بن طاهر بن سعيد بن فضل الله بن سعيد بن أبي الخير الميهني الصوفي ابو الفضل شيخ رباط الخليفة ببغداد، وكان صالحاً من بيت التصوف والصلاح.

ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمائة

ذكر وفاة الملك القاهر وولاية ابنه نور الدين

وما كان من الفتن بسبب موته الى ان استقرت الأمور

في هذه السنة توفي الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آق سنقر، صاحق الموصل ليلة الاثنين، لثلاث بقين من شهر ربيع الأول، وكانت ولايته سبع سنين وتسعة اشهر، وكان موته، أن أخذته حمى، ثم فارقته الغد، وبقي يومين موعوكاً، ثم عاودته الحمى مع قيء كثير وكرب شديد وقلق متتابع، ثم برد بدنه وعرق، وبقي كذلك الى وسط الليل، ثم توفّي، وكان كريماً حليماً قليل الطمع، في أموال الرعية كافاً عن أذى يوصله إليهم، مقبلاً على لذاته كأنما ينهبها، ويبادر بها الموت، وكان عنده رقة شديدة ويكثر ذكر الموت.

حكى لي بعض من كان يلازمه قال: كنا ليلة قبل وفاته بنصف شهر عنده فقال لي: قد وجدت ضجراً من القعود، فقم بنا نتمشّى الى الباب العمادي. قال: فقمنا نخرج من داره نحو الباب العمادي، فوصل التربة التي عملها لنفسه عند داره، فوقف عندها مفكراً لا يتكلم، ثم قال لي: والله ما نحن في شيء أليس مصيرنا الى ههنا وندفن تحت الأرض، وأطال الحديث في هذا ونحوه، ثم عاد إلى الدار. فقلت له: ألا نمشي الى الباب العمادي. فقال: ما بقي عندي نشاط إلى هذا ولا إلى غيره، ودخل داره وتوفّي بعد ايام، واصيب أهل بلاده بموته، وعظم عليهم فقده، وكان محبوباً إليهم قريباً من قلوبهم، ففي كل دار لأجله رنة وعويل، ولمّا حضرته الوفاة اوصى بالملك لولده الأكبر نور الدين ارسلان شاه وعمره نحو عشر سنين، وجعل الوصي عليه والمدبر لدولته بدر الدين لؤلؤ وهو الذي كان يتولى دولة القاهر ودولة أبيه نور الدين قبله، وقد تقدَّم من اخباره ما يعرف به محله، وسيرد منها ايضا ما يزيد الناظر بصيرة فيه، فلما قضى نحبه قام بدر الدين بأمر نور الدين اجلسه في مملكة أبيه، وأرسل الى الخليفة يطلب له التقليد

والتشريف، وأرسل إلى الملوك واصحاب الأطراف المجاورين لهم، يطلب تجديد العهد لنور الدين على القاعدة التي كانت بينهم وبين أبيه، فلم يصبح إلا وقد فرغ من كل ما يحتاج إليه، وجلس للعزاء وحلف الجند والرعايا، وضبط المملكة من التزلزل والتغير، مع صغر السلطان وكثرة الطامعين في الملك، فإنه كان معه في البلد اعمام أبيه، وكان معه عماد الدين زنكي بن أرسلان شاه بولايته، وهي قلعة عقر الحميدية يحدّث نفسه بالملك لا يشك في أن الملك يصير اليه بعد أخيه، فرفع بدر الدين ذلك الخرق، ورتق ذلك الفتق وتابع الاحسان والخلع على كافة الناس وغيَّر ثياب الحداد عنهم، فلم يخص بذلك شريفاً دون مشروف، ولا كبيراً دون صغير، واحسن السيرة وجلس لكشف ظلامات الناس، وانصاف بعضهم من بعض، ويعد ايام وصل التقليد من الخليفة لنور الدين بالولاية، ولبدر الدين بالنظر في أمر دولته والتشريفات لهما أيضاً ، وأتتهم رسل الملوك بالتعزية ، وبذل ما طلب منهم من العهود واستقرَّت القواعد لها .

ذكر ملك عماد الدين زنكي قلاع الهكارية والزوزان

قد ذكرنا عند وفاة نور الدين سنة سبع وستمائة انه أعطى ولده الأصغر زنكي قلعتي العقر وشوش، وهما بالقرب من الموصل، فكان تارة يكون بالموصل، وتارة بولايته متجنياً لكثرة تلونه، وكان بقلعة العمادية مستحفظ من مماليك جدّه عز الدين مسعود بن مودود، قيل: إنه جرى له مع زنكي مراسلات في معنى تسليم العمادية اليه فنمي الخبر بذلك إلى بدر الدين، فبادره بالعزل مع امير كبير وجماعة من الجند لم يمكنه الامتناع، وسلم القلعة الى نائب بدر الدين كذلك، وجعل بدر الدين في غير العمادية من القلاع نوَّاباً له، وكان نور الدين بن القاهر لا يزال مريضاً من جروح كانت به وغيرها من الأمراض، وكان يبقى المدَّة الطويلة لا يركب ولا يظهر للناس، فأرسل زنكي الى من بالعمادية من الجند يقول: إن ابن اخي توفّي ، ويريد بدر الدين يملك البلاد، وأنا احق بملك آبائي واجدادي، فلم يزل حتى استدعاه الجند منها، وسلموا اليه ثامن عشر رمضان سنة خمس عشرة وستمائة، وقبضوا على النائب البدري، وعلى من معه فوصل الخبر الى بدر الدين ليلاً، فجد في الأمر ونادى في العسكر لوقته بالرحيل، فساروا مجدين الى العمادية وحصروها، وكان الزمان شتاء والبرد شديد والثلج هناك كثير، فلم

يتمكّنوا من القتال من بها لكنهم اقاموا يحصرونها، وقام مظفَّر الدين كوكبري بن زين الدين صاحب إربل في نصر عماد الدين، وتجرَّد لمساعدته، فراسله بدر الدين يذكره الايمان والعهود، التي من جملتها انه لا يتعرض الى شيء من اعمال الموصل، ومنها قلاع الهكارية والزوزان باسمائها، ومتى تعرض اليها احد من الناس من كان منعه بنفسه وعساكره، واعان نور الدين وبدر الدين على منعه، ويطالبه بالوفاء بها، ثم نزل عند هذا، ورضي منه بالسكوت لا لهم ولا عليهم، فلم يفعل، وأظهر معاضدة عماد الدين زنكي، فحينئذ لم تكن مكاثرة زنكي بالرجال والعساكر لقرب هذا الخصم واعمالها الا ان العسكر البدري محاصر العمادية وبها زنكي.

ثم إن بعض الأمراء من عسكر الموصل ممّن لا علم له بالحرب، وكان شجاعاً، وهو جديد الإمارة اراد ان يظهر شجاعته ليزداد بها تقدّماً، واشار على من هناك من العسكر بالتقدُّم الى العمادية ومباشرتها بالقتال، وكانوا قد تأخروا عنها شيئا يسيرا لشدة البرد والثلج، فلم يوافقوه وقبحوا رأيه، فتركهم ورحل متقدِّماً اليهم ليلاً، فاضطروا الى اتباعه خوفاً عليه من اذى يصيبه، ومن معه، فساروا اليه على غير تعبية لضيق المسلك، ولأنه اعجلهم عن ذلك، وحكم الثلج عليهم ايضا فسمع زنكي ومن معه فنزلوا ولقوا اوائل الناس وأهل مكة اخبر بشعابها، فلم يثبتوا لهم، وانهزموا وعادوا الى منزلتهم، ولم يقف العسكر عليهم، فاضطروا الى العود، فلما عادوا راسل زنكي باقي قلاع الهكارية والزوزان، واستدعاهم إلى طاعته فأجابوه، وسلموا إليه، فجعل فيها الولاة، وتسلمها وحكم فيها .

ذكر اتفاق بدر الدين مع الملك الأشرف

لما رأى بدر الدين خروج القلاع عن يده، واتفاق مظفر الدين وعماد الدين عليه، لم ينفع معهم اللين ولا الشدة، وأنهما لا يزالان يسعيان في أخذ بلاده، ويتعرضان الى اطرافها بالنهب والأذى، أرسل الى الملك الأشرف موسى بن الملك العادل وهو صاحب ديار الجزيرة كلها الا القليل، وصاحب خلاط وبلادها يطلب منه الموافقة والمعاضدة، وانتمى اليه وصار في طاعته منخرطاً في سلك موافقته، فأجابه الأشرف بالقبول والفرح به والاستبشار، وبذل له المساعدة والمعاضدة والمحاربة دونه، واستعادة ما أخذ من القلاع التي كانت له، وكان الملك الأشرف حينئذ بحلب نازلاً

بظاهرها ـ لما ذكرناه ـ من تعرض كيكاوس ملك بلاد الروم التي بيد المسلمين قونية وغيرها الى اعمالها، وملكوا بعض قلاعها فأرسل الى مظفّر الدين يقبح هذه الحالة، ويقول له: إن هذه القاعدة تقرّرت بين جميعنا بحضور رسلك، واننا نكون على الناكث الى ان يرجع الى الحق، ولا بد من اعادة ما اخذ من بلد الموصل لندوم على اليمين التي استقرت بيننا، فإن امتنعت، واصررت على معاضدة زنكي ونصرته، فأنا اجيء بنفسي وعساكري، واقصد بلادك وغيرها، واسترد ما اخذتموه، واعيده الى اصحابه، والمّصلحة انك توافق، وتعود الى الحق لنجعل شغلنا جمع العساكر، وقصد الديار المصرية، واجلاء الفرنج عنها قبل ان يعظم خطبهم، ويستطير شرهم، فلم تحصل بالاجابة منه الى شيء من ذلك، وكان ناصر الدين محمود صاحب الحصن، وآمد قد امتنع عن موافقة الاشرف، وقصد بعض بلاده، ونهبها وكذلك صاحب ماردين، واتفقا مع مظفر الدين، فلما رأى الأشرف ذلك جهز عسكراً وسيره الى نصيبين نجدة لبدر الدين إن احتاج إليهم.

ذكر انهزام عماد الدين زنكي من العسكر البدري

لما عاد العسكر البدري من حصار العمادية، وبها زنكي ـ كما ذكرناه ـ قويت نفسه وفارقها، وعاد الى قلعة العقر التي له ليتسلط على اعمال الموصل بالصحراء، فإن بلد الجبل كان قد فرغ منه، وأمده مظفر الدين بطائفة كثيرة من العسكر، فلما اتصل الخبر ببدر الدين سيّر طائفة من عسكره الى اطراف بلد الموصل يحمونها، فأقاموا على اربعة فراسخ من الموصل، ثم إنهم اتفقوا بينهم على المسير الى زنكي، وهو عند العقر في عسكره ومحاربته، ففعلوا ذلك، ولم يأخذوا أمر بدر الدين بل اعلموه بمسيرهم جريدة، ليس معهم إلا سلاحهم ودواب يقاتلون عليها، فساروا ليلتهم وصبحوا زنكي بكرة الأحد لأربع بقين من المحرم من سنة ست عشرة وستمائة، فالتقوا واقتتلوا تحت العقر؛ وعظم الخطب، فأنزل الله نصره على العسكر البدري، فانهزم عماد الدين وعسكره، وسار الى إربل منهزماً، وعاد العسكر البدري إلى منزلته التي كان بها، وحضرت الرسل من الخليفة الناصر لدين الله، ومن الملك الأشرف في تجديد الصلح، فاصطلحوا وتحالفوا بحضرة الرسل.

ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل وملك أخيه

ولمّا تقرر الصلح توفّي نور الدين أرسلان شاه بن الملك القاهر صاحب الموصل، وكان لا يزال مريضاً بعدّة امراض، فرتب بدر الدين في الملك بعده أخاه ناصر الدين، وله من العمر نحو ثلاث سنين، ولم يكن للقاهر ولد غيره، وحلف له الجند وركبه، فطابت نفوس الناس، لأن نور الدين كان لا يقدر على الركوب لمرضه، فلما ركبوا هذا علموا ان لهم سلطاناً من البيت الأتابكي، فاستقروا واطمأنوا، وسكن كثير من الشغب بسببه.

ذكر انهزام بدر الدين من مظفر الدين

لما توفي نور الدين، وملك اخوه ناصر الدين تجدّد لمظفر الدين ولعماد الدين طمع لصغر سن ناصر الدين، فجمعا الرجال، وتجهزا للحركة، فظهر ذلك، وقصد بعض اصحابهم طرف ولاية الموصل بالنهب والفساد، وكان بدر الدينُ قد سيَّر ولده الاكبر في جمع صالح من العسكر، الى الملك الأشرف، بحلب نجدة له بسبب اجتماع الفرنج بمصر، وهو يريد ان يدخل بلاد الفرنج التي بساحل الشام ينهبها، ويخربها ليعود بعض من بدمياط الى بلادهم، فيخف الأمر على الملك الكامل صاحب مصر، فلما رأى بدر الدين تحرك مظفر الدين وعماد الدين، وأن بعض عسكره بالشام أرسل الى عسكر الملك الأشرف الذي بنصيبين يستدعيهم ليعتضد بهم، وكان المقدم عليهم مملوك الأشرف، اسمه أيبك فسار الى الموصل رابع رجب سنة ست عشرة، فلما رآهم بدر الدين استقلهم لأنهم كانوا اقل من العسكر الذي له بالشام أو مثلهم، فألح ايبك على عبور دجلة، وقصد بلاد إربل، فمنعه بدر الدين من ذلك وأمره بالاستراحة، فنزل بظاهر الموصل أياماً، وأصر على عبور دجلة، فعبرها بدر الدين موافقة له، ونزلوا على فرسخين من الموصل شرقي دجلة فلما سمع مظفر الدين ذلك جمع عسكره، وسار إليهم ومعه زنكي، فعبر الزاب، وسبق خبره، فسمع به بدر الدين، فعبى اصحابه، وجعل ايبك في الجالشية، ومعه شجعان أصحابه، وأكثر معه منهم بحيث انه لم يبق معه إلا اليسير، وجعل في مسيرته اميراً كبيراً، وطلب الانتقال عنها الى الميمنة، فنقله فلما كان وقت العشاء الآخرة اعاد ذلك الأمير الطلب بالانتقال من الميمنة الى الميسرة، والخصم

بالقرب منهم، فمنعه بدر الدين، وقال: متى انتقلت انت ومن معك في هذا الليل، ربما ظنه الناس هزيمة، فلا يقف احد، فأقام بمكانه، وهو في جمع كبير من العسكر، فلمّا انتصف الليل سار أيبك، فأمره بدر الدين بالمقام الى الصبح لقرب العدو منهم، فلم يقبل لجهله بالحرب، فاضطر الناس لاتباعه، فتقطعوا في الليل، والظلمة والتقوا هم والخصم في العشرين من رجب على ثلاثة فراسخ من الموصل، فأما عز الدين، فإنه تيامن والتحق بالميمنة، وحمل في اطلابه، هو والميمنة على ميسرة مظفر الدين، فهزمها، وبها زنكي، وكان الأمير الذي انتقل الى الميمنة قد ابعد عنها، فلم يقاتل، فلما رأى ايبك قد هزم الميسرة تبعه وتقدم إليه مظفّر الدين، فيمن معه في القلب لم يتفرقوا، فلم يمكنه الوقوف، فعاد إلى الموصل وعبر دجلة إلى القلعة، ونزل منها إلى البلد، فلما رآه الناس فرحوا به، وساروا معه، وقصد باب الجسر، والعدو بإزائه بينهما دجلة، فنزل مظفر الدين فيمن سلم معه من عسكره، وزايل حصن نينوى، فأقام ثلاثة أيام، فلما رأى اجتماع العسكر البدري بالموصل، وأنهم لم يفقد منهم إلا اليسيرة وبلغه الخبر ان بدر الدين يريد العبور إليه ليلاً بالفارس والراجل على الجسور، وفي السفن، ويكبسه، فرحل ليلاً من غير أن يضرب كأساً أو بقواً، وعادوا نحو أربل، فلما عبروا الزاب نزلوا، ثم جاءت الرسل وسعوا في الصلح، فاصطلحوا على أن كل من بيده شيء هو له، وتقررت العهود والأيمان على ذلك.

ذكر ملك عماد الدين قلعة كواشي وملك بدر الدين تل يعفر وملك الملك الأشرف سنجار

كواشي هذه من احصن قلاع الموصل وأعلاها وأمنعها وكان الجند الذين بها لما رأوا ما فعل أهل العمادي وغيرها من التسليم الى زنكي، وانهم قد تحكموا في القلاع لا يقدر احد على الحكم عليهم احبوا ان يكونوا كذلك، فأخرجوا نواب بدر الدين عنهم، وامتنعوا بها، وكانت رهائنهم بالموصل، وهم يظهرون طاعة بدر الدين، ويبطنون المخالفة، فتردَّدت الرسل في عودهم الى الطاعة، ، فلم يفعلوا، وراسلوا زنكي في المجيء إليهم، وتسلم القلعة وأقام عندهم، فروسِل مظفر الدين يذكر بالايمان القريبة العهد، ويطلب منه إعادة كواشي، فلم تقع الإجابة إلى ذلك حينئذ بدر الدين إلى الملك الأشرف، وهو بحلب يستنجده، فسار وعبر الفرات الى حرَّان، واختلفت عليه الأمور

من عدة جهات منعته من سرعة السير، وسبب هذا كان الاختلاف ان مظفر الدين كان يراسل الملوك اصحاب الأطراف ليستميلهم، ويحسِّن لهم الخروج على الأشرف، ويخوفهم منه إذا خلى وجهه، فأجابه إلى ذلك عز الدين كيكاوس كيخسرو بن قلج أرسلان صاحب بلاد الروم، وصاحب آمد وحصن كيفا، وصاحب ماردين، واتفقوا كلهم على طاعة كيكاوس وخطبوا له في بلادهم، ونحن نذكر ما كان بينه وبين الأشرف عند منبج لمَّا قصد بلاد حلب، فهو موغر الصدر عليه، فاتفق ان كيكاوس مات في ذلك الوقت، وكُفي الأشرف وبدر الدين شره، ولا جدالاً ما أقعص عنك الرجال، وكان مظفر الدين قد راسل جماعة من الأمراء الذين مع الأشرف واستمالهم، فأجابوه منهم احمد ابن علي بن المشطوب ـ الذي ذكرنا أنه فعل على دمياط ما فعل ـ وهو أكبر أمير معه، ووافقه غيره، منهم عز الدين محمد بن بدر الحميدي وغيرهما، وفارقوا الأشرف، ونزلوا بدنيسر تحت ماردين ليجتمعوا مع صاحب آمد ويمنعوا الأشراف من العبور الى الموصل لمساعدة بدر الدين، فلما اجتمعوا هناك عاد صاحب آمد الى موافقة الأشرف وفارقهم، واستقر الصلح بينهما، وسلّم اليه الأشرف مدينة حاني وجبل جوز، وضمن له أخذ دارا وتسليمها اليه، فلما فارقهم صاحب آمد انحل امرهم، فاضطر بعض أولئك الأمراء الى العود الى طاعة الأشرف، وبقي ابن المشطوب، وحده فسار الى نصيبين ليسير الى إربل، فخرج إليه شحنة نصيبين، فيمن عنده من الجند، فاقتتلوا فانهزم ابن المشطوب، وتفرق من معه من الجمع، ومضى منهزماً، فاجتاز بطرف بلد سنجار، فسيَّر إليه صاحبها فروخ شاه بن زنكي بن مودود بن زنكي عسكراً فهزموه وأخذوه أسيراً وحملوه الى سنجار، وكان صاحبها موافقاً للأشرف وبدر الدين فلما صار عنده ابن المشطوب حسن له مخالفة الأشرف فأجابه إلى ذلك، وأطلقه فاجتمع معه من يريد الفساد، فقصدوا البقعاء من أعمال الموصل، ونهبوا فيها عدة قرى، وعادوا الى سنجار، ثم ساروا وهم معهم إلى تلّ يعفر[1] وهي لصاحب سنجار ليقصدوا بلد الموصل وينهبوا في تلك الناحية، فلما سمع بدر الدين بذلك سيَّر اليه عسكراً، فقاتلوهم، فمضى منهزماً، وصعد الى تل يعفر، واحتمى بها منهم ونازلوه وحصره فيها، فسار بدر الدين من الموصل اليه يوم الثلاثاء لتسع بقين من ربيع الأول سنة سبع عشرة

---

(١) تل يعفر: هذا قول الخاصة، اما قول العامة: تل اعفر، وهو اسم قلعة وربض بين سنجار والموصل في وسط وادٍ فيه نهر جارٍ.

وستمائة، وجد في حصره، وزحف إليها مرة بعد أخرى، فملكها سابع عشر ربيع الآخرة من هذه السنة، وأخذ ابن المشطوب معه الى الموصل، فسجنه بها، ثم اخذه منه الأشرف. فسجن بحران الى ان توفّي في ربيع الآخر سنة تسع عشرة وستمائة، ولقاه الله عقوبة ما صنع بالمسلمين بدمياط.

وأما الملك الأشرف، فإنه لما اطاعه صاحب الحصن وآمد، وتفرق الأمراء ـ كما ذكرناه ـ رحل من حرّان إلى دُنَيْسر، فنزل عليها، واستولى على بلد ماردين، وشحن عليه وأقطعه ومنع الميرة عن ماردين، وحضر معه صاحب آمد، وترددت الرسل بينه وبين صاحب ماردين في الصلح، فاصطلحوا على ان يأخذ الأشرف رأس العين، وكان هو قد اقطعها لصاحب ماردين، ويأخذ منه ايضا ثلاثين ألف دينار، ويأخذ منه صاحب آمد الموزر من بلد شبختان، فلما تم الصلح سار الأشرف من دنيسر إلى نصيبين يريد الموصل فبينما هو في الطريق لقيه رسل صاحب سنجار يبذل تسليمها إليه، ويطلب العوض عنها مدينة الرقة، وكان السبب في ذلك أخذ تل يعفر منه، فانخلع قلبه، وانضاف الى ذلك أن ثقاته ونصحاءه خانوه، وزادوه رعباً وخوفاً لأنهم تهددوه، فتغدوا به قبل ان يتعشى بهم، ولأنه قطع رحمه، وقتل اخاه الذي ملك سنجار بعد أبيه قتله ـ كما نذكره إن شاء الله ـ وملكها فلقاه الله سوء فعله، ولم يمتعه بها، فلما تيقن رحيل الأشرف تحيَّر في الأمر، فأرسل في التسليم اليه، فأجابه الأشرف الى العوض، وسلم اليه الرقة وتسلم سنجار مستهل جمادى الأولى سنة سبع عشرة وستمائة، وفارقها صاحبها واخوته بأهليهم وأموالهم، وكان هذا آخر ملوك البيت الأتابكي بسنجار، فسبحان الحيِّ الذي ليس لملكه آخر، وكان مدَّة ملكهم لها أربعاً وتسعين سنة، وهذا دأب الدنيا بأبنائها، فتعساً لها من دار ما أغدرها بأهلها.

ذكر وصول الأشرف الى الموْصِل والصلح مع مظفَّر الدين

لما ملك الملك الأشرف سنجار سار يريد الموصل ليجتاز منها فَقَدَّمَ بين يديه عساكره، فكان يصل كل يوم منهم جمعٌ كثيرٌ، ثم وصل هو في آخرهم يوم الثلاثاء تاسع عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة، وكان يوم وصوله مشهوداً وأتاه رسل الخليفة ومظفر الدين في الصلح، وبذل تسليم القلاع المأخوذة جميعها الى بدر الدين ما عدا قلعة العمادية، فإنها تبقى بيد زنكي، وأن المصلحة قبول هذا لتزول الفتن،

ويقع الاشتغال بجهاد الفرنج ، وطال الحديث في ذلك نحو شهرين، ثم رحل الأشرف يريد مظفَّر الدين صاحب إربل، فوصل الى قرية السّلامية بالقرب من نهر الزاب، وكان مظفَّر الدين نازلاً عليه من جانب إربل، فأعاد الرسل.

وكان العسكر قد طال بيكاره والناس قد ضجروا وناصر الدين صاحب آمد يميل بهواه إلى مظفر الدين فأشار بالاجابة الى ما بذل وأعانه عليه غيره، فوقعت الاجابة اليه واصطلحوا على ذلك وجعل لتسليمها أجل . وحمل زنكي إلى الملك الأشرف يكون عنده رهينة إلى حين تسليم القلاع، وسلمت قلعة العقر وقلعة شوش أيضاً وهما لزنكي إلى نواب الأشرف رهناً على تسليم ما استقرَّ من القلاع، فإذا سلّمت أطلق زنكي . . وأعيد عليه قلعة العقر وقلعة شوش وحلفوا على هذا وسلّم الأشرف إلى زنكي القلعتين، وعاد إلى سنجار ، وكان رحيله عن الموصل ثاني شهر رمضان من سنة سبع عشرة وستمائة ، فأرسلوا إلى القلاع لتسلم إلى نواب بدر الدين، فلم يسلم إليه غير قلعة جل صورا من أعمال الهكاريّة، وأما باقي القلاع، فإن جندها أظهروا الامتناع من ذلك، ومضى الأجل ولم يسلم الأجل صوراً ولزم عماد الدين زنكي لشهاب الدين غازي بن الملك العادل وخدمه وتقرب إليه فاستعطف له أخاه الملك الأشرف، فمال إليه وأطلقه، وأزال نوابه من قلعة العقر وشوش ، وسلمها إليه وبلغ بدر الدين عن الملك الأشرف ميل إلى قلعة تل يعفر ، وأنها كانت لسنجار من قديم الزمان وحديثه ، وطال الحديث في ذلك ، فسلمها إليه بدر الدين .

ذكر عود قلاع الهكّارية والزوزان الى بدر الدين

لما ملك زنكي قلاع الهكّارية والزوزان لم يفعل مع اهلها ماظنوه من الاحسان والإنعام، بل فعل ضده وضيَّق عليهم، وكان يبلغهم افعال بدر الدين مع جنده ورعاياه وإحسانه اليهم وبذله الأموال لهم، وكانوا يريدون العود اليه ويمنعهم الخوف منه لِما اسلفوه من ذلك، فلمّا كان الآن اعلنوا بما فعل معهم، فأرسلوا الى بدر الدين في المحرّم سنة ثمان عشرة وستمائة في التسليم إليه وطلبوا منه اليمين والعفو عنهم، وذكروا شيئاً من اقطاع تكون لهم، فأجابهم إلى ذلك، وأرسل إلى الملك الأشرف يستأذنه في ذلك ، فلم يأذن له ، وعاد زنكي من عند الأشرف ، فجمع جموعاً ، وحصر قلعة العمادية، فلم يبلغ منهم غرضاً، واعادوا مراسلة بدر الدين التسليم اليه، فكتب الى

الملك الأشرف في المعنى، وبذل له قلعة جديدة ونصيبين وولاية بين النهرين ليأذن له في أخذها، فأذن له، فأرسل اليها النواب وتسلموها، واحسن إلى أهلها، ورحل زنكي عنها، ووفى له بدر الدين بما بذله له، فلما سمع جندياً في القلاع بما فعلوا وما وصلهم من الاحسان والزيادة ورغبوا كلهم في التسليم، فسيّر اليهم النّواب، واتفقت كلمة أهلها على طاعته والانقياد إليه، والعجب ان العساكر اجتمعت من الشام والجزيرة وديار بكر وخلاط وغيرها في استعادة هذه القلاع، فلم يقدروا على ذلك، فلما تفرّقوا حضر اهلها، وسألوا ان تؤخذ منهم، فعادت صفواً عفواً بغير منة ولقد احسن من قال:

لا سَهْلَ إلا ما جعلتَ سهلاً وإن تَشَأْ تجعلْ بِحُزْنٍ وَحْلاً

فتبارك الله الفعّال لِما يريد لا مانع لِما اعطى ولا معطي لِما منع وهو على كل شيء قدير.

ذكر قصد كيكاوس ولاية حلب وطاعة صاحبها للأشرف وانهزام كيكاوس

في هذه السنة سار عز الدين كيكاوس بن كيسخرو ملك الروم الى ولاية حلب قصداً للتغلب عليها، ومعه الأفضل بن صلاح الدين يوسف، وسبب ذلك انه كان بحلب رجلان فيهما شرٌّ كثير وسعاية بالناس، فكانا ينقلان الى صاحبها الملك الظاهر بن صلاح الدين عن رعيته، فأوغروا صدره، فلقي الناس منهما شدَّة، فلما توفّي الظاهر وولي الأمر شهاب الدين طغرل أبعدهما وغيّرهما ممن يفعل فعلهما، وسدَّ هذا الباب على فاعله، ولم يطرق إليه احداً من أهله، فلما رأى الرجلان كساد سوقهما لزما بيوتهما وثار بهما الناس وآذوهما وتهددوهما لما كانا أسلفاه من الشر، فخافا ففارقا حلب، وقصدا كيكاوس، فأطمعاه فيها، وقررا في نفسه انه متى قصدها لا يثبت بين يديه، وانه يملكها ويهون عليه ملك ما بعدها، فلمّا عزم على ذلك أشار عليه ذوو الرأي من اصحابه، وقالوا له لا يتم لك هذا الا بأن يكون معك احد من بيت أيُّوب ليسهل على أهل البلاد وجندها الانقياد إليه، وهذا الأفضل بن صلاح الدين هو في طاعتك، والمصلحة أنك تستصحبه معك، وتقرر بينكما قاعدة فيما تفتحانه من البلاد، فمتى كان معك اطاعك الناس، وسهل عليك ما تريد، فأحضر الأفضل من سميساط إليه وأكرمه، وحمل اليه شيئاً كثيراً من الخيل والخيام والسلاح وغير ذلك، واستقرَّت القواعد بينهما ان يكون ما يفتحه من حلب وأعمالها للأفضل، وهو في طاعة كيكاوس، والخطبة له

ذلك أجمع، ثم يقصدون ديار الجزيرة، فما يفتحونه مما بيد الملك الأشرف مثل حرّان والرها من البلاد الجزرية تكون لكيكاوس، وجرت الأيمان على ذلك، وجمعوا العساكر، وساروا فملكوا قلعة رعيان، فتسلمها الأفضل، فمال الناس حينئذ إليهما، ثم سارا الى قلعة تل باشر وفيها صاحبها ابن بدر الدين دلدرم الياروقي، فحصروه وضيقوا عليه، وملكوها منه، فأخذها كيكاوس لنفسه، ولم يسلمها الى الأفضل، فاستشعر الأفضل من ذلك وقال: هذا أوّل الغدر، وخاف انه ان ملك حلب يفعل به هكذا، فلا يحصل إلا أن يكون قد قلع بيته لغيره، ففترت نيته، واعرض عمّا كان يفعله، وكذلك أيضاً أهل البلاد فكانوا يظنّون أن الأفضل يملكها فيسهل عليهم الأمر، فلما رأوا ضدّ ذلك وقفوا.

واما شهاب الدين أتابك ولد الظاهر صاحب حلب، فإنه ملازم قلعة حلب لا ينزل منها ولا يفارقها البتة، وهذه كانت عادته مذمات الظاهر خوفاً من ثائر يثور به، فلما حدث هذا الأمر خاف ان يحصروه، وربما سلم أهل البلد والجند والمدينة الى الأفضل لميلهم اليه، فأرسل الى الملك الأشرف ابن الملك العادل صاحب الديار الجزرية وخلاط وغيرها يستدعيه، لتكون طاعتهم له، ويخطبون له ويجعل السكة باسمه، ويأخذ من أعمال حلب ما اختار، ولأن ولد الظاهر هو ابن اخته، فأجاب الى ذلك، وسار إليهم في عساكره التي عنده، وأرسل الى الباقين يطلبهم إليه، وسره ذلك للمصلحة العامة لجميعهم، وأحضر اليه العرب من طيء وغيرهم، ونزل بظاهر حلب، ولما اخذ كيكاوس تل باشر كان الأفضل يشير بمعالجة حلب قبل اجتماع العساكر بها، وقبل أن يحتاطوا او يتجهزوا، فعاد عن ذلك وصار يقول: الرأي اننا نقصد منبج وغيرها لئلا يبقى لهم وراء ظهورنا شيء قصداً للتمادي ومرور الزمان في لا شيء، فتوجهوا من تل باشر الى جهة منبج، وتقدم الأشرف نحوهم، وسارت العرب في مقدمته، وكان طائفة من عسكر كيكاوس نحو الف فارس قد سبقت مقدمته له، فالتقوا هم والعرب ومن معهم من العسكر الأشرفي، فاقتتلوا، فانهزم عسكر كيكاوس، وعادوا إليه منهزمين، واكثر العرب الأسر منهم، والنهب لجودة خيلهم، ودير خيل الروم، فلما وصل إليه اصحابه منهزمين لم يثبت بل ولى على أعقابه يطوي المراحل الى بلاده خائفاً يترقب، فلما وصل الى اطرافها اقام وإنما فعل هذا لأنه صبي غرّ لا معرفة له بالحرب ، وإلا فالعساكر ما برحت تقع مقدماتها بعضها على بعض، فسار حينئذ الأشرف فملك رعيان وحصر تل باشر وبها

جمع من عسكر كيكاوس، فقاتلوه حتى غلبوا، فأخذت القلعة منهم وأطلقهم الأشرف، فلما وصلوا الى كيكاوس جعلهم في دار وأحرقها عليهم، فهلكوا فعظم ذلك على الناس كافة واستقبحوه واستضعفوه ـ لا جرم لم يمهله الله تعالى ـ وعجّل عقوبته للؤم قدرته وشدة عقوبته ولعدم الرحمة في قلبه، ومات عقيب هذه الحادثة، وسلم الأشرف تل باشر وغيرها من بلد حلب الى شهاب الدين أتابك صاحب حلب، وكان عازماً على اتباع كيكاوس ويدخل بلاده، فأتاه الخبر بوفاة أبيه الملك العادل، فاقتضت المصلحة العود الى حلب لأن الفرنج بديار مصر، ومثل ذلك السلطان العظيم إذا توفّي ربما جرى خلل في البلاد لا تعرف العاقبة فيه، فعاد إليها، وكفي كل منهما أذى صاحبه.

ذكر وفاة الملك العادل وملك أولاده بعده

توفّي الملك العادل أبو بكر بن أيوب سابع جمادى الآخرة من سنة خمس عشر وستمائة، وقد ذكرنا ابتداء دولتهم عند ملك عمّه اسد الدين شيركوه ديار مصر سنة أربع وستين وخمسمائة، ولما ملك أخوه صلاح الدين يوسف بن أيوب ديار مصر بعد عمه، وسار الى الشام استخلفه بمصر ثقة به، واعتماداً عليه، وعلماً بما هو عليه من توفر العقل وحسن السيرة، فلما توفّي أخوه صلاح الدين، ملك دمشق ـ كما ذكرناه ـ وبقي مالكاً للبلاد الى الأن، فلما ظهر الفرنج ـ كما ذكرناه سنة أربع عشر وستمائة ـ قصد هو مرج الصفر، فلما سار الفرنج الى ديار مصر انتقل هو الى عالقين، فأقام به ومرض وتوفّي وحمل الى دمشق فدفن بالتربة التي له، وكان عاقلاً ذا رأي سديد ومكر شديد وخديعة، صبوراً حليماً ذا أناة يسمع ما يكره ويغض عليه حتى كأنه لم يسمعه كثير الحرج وقت الحاجة لا يقف في شيء وإذا لم تكن حاجة فلا، وكان عمره خمساً وسبعين سنة وشهوراً لأن مولده كان في المحرَّم من سنة أربعين وخمسمائة، وملك دمشق في شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة من الأفضل ابن أخيه، وملك مصر في ربيع الآخر من سنة ست وتسعين منه أيضاً، ومن أعجب ما رأيت من منافاة الطوالع انه لم يملك الأفضل مملكة قط إلا وأخذها منه عمّه العادل فأول ذلك أن صلاح الدين اعطى ابنه الأفضل حرّان والرها وميافارقين سنة ست وثمانين بعد وفاة تقي الدين، فسار إليها فلما وصل الى حلب أرسل أبوه الملك العادل بعده فرده من حلب، وأخذ هذه البلاد منه، ثم ملك الأفضل بعد وفاة أبيه مدينة دمشق، فأخذها منه، ثم ملك مصر بعد وفاة أخيه الملك العزيز،

فأخذها أيضاً منه، ثم ملك صرخد فأخذها منه، وأعجب من هذا أنّني رأيت بالبيت المقدس سارية من الرخام ملقاة في بيعة صهيون ليس يوجد مثلها فقال القس الذي بالبيعة هذه كان قد أخذها الملك الأفضل لينقلها الى دمشق، ثم ان العادل أخذها بعد ذلك من الأفضل طلبها منه فأخذها وهذا غاية، وهو من اعجب ما يحكى، وكان العادل قد قسم البلاد في حياته بين أولاده، فجعل بمصر الملك الكامل محمداً، وبدمشق والقدس وطبرية والأردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة لها ابنه المعظم عيسى، وجعل بعض ديار الجزيرة وميافارقين وخلّاط وأعمالها لابنه الملك الأشرف موسى، وأعطى الرها لولده شهاب الدين غازي وأعطى قلعة جعفر لولده الحافظ أرسلان شاه، فلما توفّي ثبت كل منهم في المملكة التي أعطاه إياها أبوه، واتفقوا اتفاقاً حسناً لم يجر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة ان يجري بين أولاد الملوك بعد آبائهم بل كانوا كالنفس الواحدة، كل منهم يثق الى الاخر بحيث يحضر عنده منفرداً من عسكره، ولا يخافه، فلا جرم زاد ملكهم ورأوا من نفاذ الأمر والحكم ما لم يره ابوهم، ولعمري أنهم نعم الملوك فيهم الحلم والجهاد والذب عن الاسلام، وفي نوبة دمياط كفاية. وأما الملك الأشرف، فليس للمال عنده محل بل يمطره مطراً كثيراً، كعفته عن أموال الرعية دائم الإحسان لا يسمع سعاية ساع.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في ذي القعدة رحل الملك الكامل بن العادل عن أرض دمياط لأنه بلغه أن جماعة من الأمراء قد اجتمعوا على تمليك أخيه الفائز عوضه فخافهم، ففارق منزلته، فانتقل الفرنج إليها، وحصروا حينئذ دمياط براً وبحراً، وتمكنوا من ذلك، وقد تقدَّم مستقصى سنة اربع عشرة وستمائة.

وفيها في المحرّم توفّي شرف الدين محمد بن علوان بن مهاجر الفقيه الشافعي، وكان مدرساً في عدة مدارس بالموصل، وكان صالحاً كثير الخير والدين سليم القلب رحمه الله.

وفيها توفّي عز الدين نجاح الشرابي خاص الخليفة واقرب الناس اليه، وكان الحاكم في دولته كثير العدل والإحسان والمعروف والعصبية للناس، وأما عقله وتدبيره

فإليه كانت النهاية وبه يضرب المثل.

وفيها توفي علي بن نصر بن هارون أبو الحسن الحلي النحوي الملقب بالحجة ، قرأ على الخشاب وغيره .

ثم دخلت سنة ست عشرة وستمائة

ذكر وفاة كيكاوس وملك كيقباذ أخيه

في هذه السنة توفيّ الملك الغالب عزّ الدين كيكاوس بن كيخسرو بن قلج أرسلان، صاحب قونية واقصرا وملطية وما بينهما من بلاد الروم، وكان قد جمع عساكره، وحشد، وسار إلى ملطية على قصد بلاد الملك الأشرف لقاعدة استقرت بينه وبين ناصر الدين صاحب آمد، ومظفر الدين صاحب إربل، وكانوا قد خطبوا له، وضربوا اسمه على السكة في بلادهم، واتفقوا على الملك الأشرف وبدر الدين بالموصل، فسار كيكاوس إلى ملطية ليمنع الملك الأشرف عن المسير إلى الموصل نجدة لصاحبها بدر الدين لعل مظفر الدين يبلغ من الموصل غرضاً، وكان قد علق به السل، فلما اشتد مرضه عاد عنها فتوفّي وملك بعده أخوه كيقباذ، وكان محبوساً قد حبسه أخوه كيكاوس لما أخذ البلاد، وأشار عليه بعض أصحابه بقتله، فلم يفعل، فلما توفّي لم يخلف ولداً يصلح للملك لصغرهم، فأخرج الجند كيقباذ وملكوه ومن بُغِيَ عليه لينصرنه الله، وقيل بل أرسل كيكاوس لما اشتدَّ مرضه، فأحضره عنده من السجن، ووصى له بالملك، وحلف الناس له، فلما ملك خالفه عمه صاحب أرزن الروم، وخاف أيضاً من الروم المجاورين لبلاده، فأرسل إلى الملك الأشرف، وصالحه وتعاهدا على المصافاة والتعاضد، وتصاهرا، وكفى الأشرف شر تلك الجهة، وتفرغ باله لإصلاح ما بين يديه، ولقد صدق القائل: (وجدك طعان بغير سنان)، وهذا ثمرة حسن النية، فإنه حسن النية لرعيته وأصحابه، كافاً عن أذى يتطرق إليهم منه غير قاصد إلى البلاد المجاورة لبلاده بأذى، وملك مع ضعف أصحابها وقوته، لا جرم تأتيه البلاد صفواً عفواً.

ذكر موت صاحب سنجار وملك ابنه ثم قتل ابنه وملك أخيه

وفي هذه السنة ثامن صفر توفيّ قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود بن زنكي، صاحب سنجار، وكان كريماً، حسن السيرة في رعيته، حسن المعاملة مع التجار، كثير الإحسان إليهم، وأما أصحابه، فكانوا معه في أرغدعيش، يعمهم بإحسانه ولا يخافون أذاه، وكان عاجزاً عن حفظ بلده مسلماً الأمور إلى نوّابه، ولما توفّي ملك بعده ابنه عماد الدين شاهانشاه، وركب الناس معه، وبقي مالكاً لسنجار عدَّة شهور، وسار إلى تل أعفر، وهي له، فدخل عليه أخوه عمر بن محمد بن زنكي ومعه جماعة فقتلوه وملك أخوه عمر بعده، فبقي كذلك إلى أن سلَّم سنجار إلى الملك الأشرف ـ على ما نذكره إن شاء الله تعالى ـ ولم يمتع بملكه الذي قطع رحمه وأراق الدم الحرام لأجله، ولما سلم سنجار أخذ عوضها الرقة، ثم أخذت منه عن قريب، وتوفّي بعد أخذها منه بقليل وعدم روحه وشبابه، وهذه عاقبة قطيعة الرحم، فإن صلتها تزيد في العمر وقطيعتها تهدم العمر.

ذكر إجلاء بني معروف عن البطائح وقتلهم

في هذه السنة في ذي القعدة أمر الخليفة الناصر لدين الله الشريف معداً متوّلي بلاد واسط أن يسير إلى قتال بني معروف، فتجهّز وجمع معه من الرجّالة من تكريت، وهيت والحديثة والأنبار والحلة والكوفة وواسط والبصرة وغيرها خلقاً كثيراً، وسار إليهم، ومقدّمهم حينئذ معلى بن معروف، وهم قوم من ربيعة، وكانت بيوتهم غربي الفرات تحت سوراء، وما يتصل بذلك من البطائح، وكثر فسادهم وأذاهم لما يقاربهم من القرى، وقطعوا الطريق، وأفسدوا في النواحي المقاربة لبطيحة الغراف، فشكا أهل تلك البلاد الديوان منهم، فأمر معداً أن يسير إليهم في الجموع، فسار إليهم، فاستعد بنو معروف لقتاله، فاقتتلوا بموضع يعرف بالمقبر، وهو تل كبير بالبطيحة بقرب الغراف، وكثر القتل بينهم، ثم انهزم بنو معروف، وكثر القتل فيهم والأسر والغرق، وأخذت أموالهم، وحملت رؤوس كثيرة من القتلى إلى بغداد في ذي الحجة من السنة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في المحرَّم، انهزم عماد الدين زنكي من عسكر بدر الدين.

وفيها في العشرين من رجب، انهزم بدر الدين من مظفّر الدين صاحب إربل، وعاد مظفر الدين إلى بلده، وقد تقدم ذلك مستوفى في سنة خمس عشرة وستمائة.

وفيها في السابع والعشرين من شعبان ملك الفرنج مدينة دمياط وقد ذكر سنة أربع عشرة مشروحاً.

وفيها توفي افتخار الدين عبد المطلب بن الفضل الهاشمي العباسي الفقيه الحنفي، رئيس الحنفية بحلب، روى الحديث عن عمر البسطامي نزيل بلخ، وعن أبي سعد السمعاني وغيرهما.

وفيها توفي أبو البقاء عبد الله بن الحسن بن عبد الله العكبري الضرير النحوي.

وفيها توفي أبو الحسن علي بن أبي محمد القاسم بن علي بن الحسن بن عبد الله الدمشقي، الحافظ بن الحافظ المعروف بابن عساكر، وكان قد قصد خراسان، وسمع بها الحديث، فأكثر، وعاد إلى بغداد، فوقع على القفل حرامية، فجرح وبقي ببغداد، وتوفِّي في جمادى الأولى ـ رحمه الله ـ.

ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة

ذكر خروج التتر إلى بلاد الإسلام

لقد بقيتُ عدَّة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها، فأنا أقدِّم إليه رجلاً وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك، فيا ليت أمِّي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا، إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها، وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً، فنقول هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى التي عقت الأيام والليالي عن مثلها عمت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها.

ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني إسرائيل من القتل، وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة، منها أضعاف البيت المقدس. وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا، فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة، إلى أن ينقرض العالم، وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج، وأما الدجّال، فإنه يبقي على من اتبعه ويهلك من خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقُّوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها، وعم ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح، فإن قوماً خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى، وغيرهما، فيملكونها، ويفعلون بأهلها ـ ما نذكره ـ ثم تعبر طائفة

منهم إلى خراسان، فيفرغون منها ملكاً وتخريباً وقتلاً ونهباً، ثم يتجاوزونها إلى الري وهمذان وبلد الجبل، وما فيه من البلاد إلى حدِّ العراق، ثم بلاد أذربيجان وأرانية، ويخربونها، ويقتلون أكثر أهلها، ولم ينجُ إلا الشريد النادر في أقلّ من سنة هذا ما لم يسمع بمثله، ثم لمّا فرغوا من أذربيجان وأرانية ساروا إلى دربندشروان، فملكوا مدنه ولم يسلم غير القلعة التي بها ملكهم.

وعبروا عندها إلى بلد اللان واللكز، ومن في ذلك الصقع من الأمم المختلفة، فأوسعوهم قتلاً ونهباً وتخريباً، ثم قصدوا بلاد قفجاق، وهم من أكثر الترك عدداً فقتلوا كل من وقف لهم، فهرب الباقون إلى الغياض ورؤوس الجبال، وفارقوا بلادهم، واستولى هؤلاء التتر عليها، فعلوا هذا في أسرع زمان لم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لا غير، ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة، وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان، ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء وأشد، هذا ما لم يطرق الأسماع مثله، فإن الإسكندر الذي اتّفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة إنما ملكها في نحو عشر سنين، ولم يقتل أحداً إنما رضي من الناس بالطاعة، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض، وأحسنه وأكثره عمارة وأهلاً، وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة في نحو سنة، ولم يبت أحد من البلاد التي لم يطرقوها إلا وهو خائف يتوقعهم، ويترقب وصولهم إليه، ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم، فإنهم معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير، وأما دوابهم التي يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها، وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من خارج، وأما ديانتهم، فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرمون شيئاً، فإنهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها، ولا يعرفون نكاحاً بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال، فإذا جاء الولد لا يعرف أباه، ولقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم منها، هؤلاء التتر ـ قبحهم الله ـ أقبلوا من المشرق، ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها، وستراها مشروحة متصلة إن شاء الله تعالى.

ومنها خروج الفرنج ـ لعنهم الله ـ من المغرب إلى الشام، وقصدهم ديار مصر وملكهم ثغر دمياط منها، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها لولا لطف

الله تعالى ونصره عليهم ـ وقد ذكرناه ـ سنة أربع عشرة وستمائة.

ومنها أن الذي سلم من هاتين الطائفتين، فالسيف بينهم مسلول، والفتنة قائمة على ساق ـ وقد ذكرناه أيضاً فإنّا لله وإنا إليه راجعون نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين نصراً من عنده، فإن الناصر والمعين والذاب عن الإسلام معدوم ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال﴾ فإن هؤلاء التتر إنما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع، وسبب عدمه أن خوارزمشاه محمَّداً كان قد استولى على البلاد، وقتل ملوكها، وأفناهم، وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها، فلما انهزم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها ﴿ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ وهذا حين نذكر ابتداء خروجهم إلى البلاد .

ذكر خروج التتر إلى تركستان وما وراء النهر وما فعلوه

في هذه السنة ظهر التتر إلى بلاد الإسلام، وهم نوع كثير من الترك ومساكنهم جبال طمغاج من نحو الصين، وبينها وبين بلاد الإسلام ما يزيد على ستة أشهر، وكان السبب في ظهورهم أنَّ ملكهم، ويسمى بجنكزخان المعروف بتموجين، كان قد فارق بلاده، وسار إلى نواحي تركستان، وسير جماعة من التجار والأتراك، ومعهم شيء كثير من النقرة والقندر وغيرهما إلى بلاد ما وراء النهر سمرقند وبخارا ليشتروا له ثياباً للكسوة، فوصلوا إلى مدينة من بلاد الترك تسمى أوترار، وهي آخر ولاية خوارزمشاه، وكان له نائب هناك، فلما وردت عليه هذه الطائفة من التتر أرسل إلى خوارزمشاه يعلمه بوصولهم، ويذكر له ما معهم من الأموال، فبعث إليه خوارزمشاه يأمر بقتلهم، وأخذ ما معهم من الأموال، وإنفاذه إليه، فقتلهم وسيَّر ما معهم، وكان شيئاً كثيراً ، فلما وصل إلى خوارزمشاه فرقه على تجار بخارا وسمرقند، وأخذ ثمنه منهم، وكان بعد أن ملك ما وراء النهر من الخطا قد سد الطرق عن بلاد تركستان، وما بعدها من البلاد، وأن طائفة من التتر أيضاً كانوا قد خرجوا قديماً والبلاد للخطا، فلما ملك خوارزمشاه البلاد بما وراء النهر من الخطا، وقتلهم، واستولى هؤلاء التتر على تركستان كاشغار وبلاساغون، وغيرها، صاروا يحاربون عساكر خوارزمشاه، فلذلك منع الميرة عنهم من الكسوات

وغيرها، وقيل في سبب خروجهم إلى بلاد الإسلام غير ذلك مما لا يذكر في بطون الدفاتر:

فكانَ مَاكَان ممَّا لستُ أذكُرُهُ   فَظُنَّ خيراً ولا تسأل عَنِ الخَبَرِ

فلما قتل نائب خوارزمشاه أصحاب جنكزخان أرسل جواسيس إلى جنكزخان، لينظر ما هو، وكم مقْدار ما معه من اليزك، وما يريد أن يعمل، فمضى الجواسيس، وسلكوا المفازة والجبال التي على طريقهم حتى وصلوا إليه، فعادوا بعد مدَّة طويلة وأخبروه بكثرة عددهم، وأنهم يخرجون عن الإحصاء، وأنهم من أصبر خلق الله على القتال لا يعرفون هزيمة، وأنهم يعملون ما يحتاجون إليه من السلاح بأيديهم، فندم خوارزمشاه على قتل أصحابهم، وأخذ أموالهم، وحصل عنده فكر زائد، فأحضر الشهاب الحيوفي، وهو فقيه فاضل كبير المحل عنده لا يخالف ما يشير به، فحضر عنده فقال له: قد حدث أمر عظيم لا بد من الفكر فيه فأخذ رأيك في الذي نفعله، وذاك أنه قد تحرك إلينا خصم من ناحية الترك في كثرة لا تحصى، فقال له: عساكرك كثيرة ونكاتب الأطراف، ونجمع العساكر، ويكون النفير عاماً، فإنه يجب على المسلمين كافة مساعدتك بالمال والنفس، ثم نذهب بجميع العساكر إلى جانب سيحون، وهو نهر كبير يفصل بين بلاد الترك وبلاد الاسلام، فتكون هناك، فإذا جاء العدو وقد سار مسافة بعيدة لقيناه، ونحن مستريحون، وهو وعساكره قد مسهم النصب والتعب، فجمع خوارزمشاه أمراءه ومن عنده من أرباب المشورة، فاستشارهم، فلم يوافقوه على رأيه بل قالوا نتركهم يعبرون سيحون إلينا ويسلكون هذه الجبال والمضايق، فإنهم جاهلون بطرقهم، ونحن عارفون بها، فنقوى حينئذ عليهم ونهلكهم، فلا ينجو منهم أحد، ، فبينما الأتراك كذلك إذ ورد رسول من هذا اللعين جنكزخان معه جماعة يتهدد خوارزمشاه، ويقول تقتلون أصحابي وتأخذون أموالهم، استعدوا للحرب، فإني واصل إليكم بجمع لا قبل لكم به.

وكان جنكز خان قد سار إلى تركستان، فملك كاشغار وبلاساغون، وجميع البلاد، وأزال عنها التتر الأولى، فلم يظهر لهم خبر، ولا بقي لهم أثر بل بادوا كما أصاب الخطا، وأرسل الرسالة المذكورة إلى خوارزمشاه، فلما سمعها خوارزمشاه أمر بقتل رسوله فقتل، وأمر بحلق لحى الجماعة الذين كانوا معه، وأعادهم إلى صاحبهم جنكز

خان يخبرونه بما فعل بالرسول، ويقولون له إن خوارزمشاه يقول لك: أنا سائر إليك ولو أنك في آخر الدنيا حتى أنتقم وأفعل بك كما فعلت بأصحابك، وتجهَّز خوارزمشاه، وسار بعد الرسول مبادراً ليسبق خبره، ويكبسهم، فأدمن السير، فمضى وقطع مسيرة أربعة أشهر، فوصل إلى بيوتهم، فلم ير فيها إلا النساء والصبيان والأطفال، فأوقع بهم وغنم الجميع، وسبى النساء والذرية، وكان سبب غيبة الكفار عن بيوتهم أنهم ساروا إلى محاربة ملك من ملوك الترك يقال له: كشلوخان، فقاتلوه وهزموه، وغنموا أمواله، وعادوا، فلقيهم في الطريق الخبر بما فعل خوارزمشاه بمخلفيهم، فجدوا السير، فأدركوه قبل أن يخرج عن بيوتهم، وتصافوا للحرب، واقتتلوا قتالاً لم يسمع بمثله، فبقوا في الحرب ثلاثة أيام بلياليها، فقتل من الطائفتين ما لا يعد، ولم ينهزم أحد منهم.

أما المسلمون، فإنهم صبروا حمية للدين، وعلموا أنهم إن انهزموا لم يبق للمسلمين باقية، وأنهم يؤخذون لبعدهم عن بلادهم، وأما الكفار فصبروا لاستنقاذ أهليهم وأموالهم، واشتد بهم الأمر حتى إن أحدهم كان ينزل عن فرسه ويقاتل قرنه راجلاً، ويتضاربون بالسكاكين، وجرى الدم على الأرض حتى صارت الخيل تزلق من كثرته واستنقد الطائفتان وسعهم في الصبر والقتال هذا القتال جميعه مع ابن جنكيز خان، ولم يحضر أبوه الوقعة ولم يشعر بها، فأحصي من قتل من المسلمين في هذه الوقعة، فكانوا عشرين ألفاً، وأما من الكفار فلا يحصى من قتل منهم، فلما كان الليلة الرابعة افترقوا، فنزل بعضهم مقابل بعض، فلما أظلم الليل أوقد الكفار نيرانهم وتركوها بحالها وساروا، وكذلك فعل المسلمون أيضاً كل منهم سئم القتال، فأما الكفار، فعادوا إلى ملكهم جنكزخان، وأما المسلمون فرجعوا إلى بخارى، فاستعد للحصار لعلمه بعجزه لأن طائفة من عسكره لم يقدر خوارزمشاه على أن يظفر بهم، فكيف إذا جاؤا جميعهم مع ملكهم، فأمر أهل بخارى، وسمرقند بالاستعداد للحصار، وجمع الذخائر للامتناع، وجعل في بخارى عشرين ألف فارس من العسكر يحملونها، وفي سمرقند خمسين ألفاً، وقال لهم احفظوا البلد حتى أعود إلى خوارزم وخراسان، وأجمع العساكر واستنجد بالمسلمين، وأعود إليكم، فلما فرغ من ذلك رحل عائداً إلى خراسان، فعبر جيحون ونزل بالقرب من بلخ، فعسكر هناك، وأما الكفار فإنَّهم رحلوا بعد أن استعدوا يطلبون ما وراء النهر، فوصلوا إلى بخارى بعد خمسة أشهر من وصول

خوارزمشاه وحصروها، وقاتلوها ثلاثة أيام قتالاً شديداً متتابعاً، فلم يكن للعسكر الخوارزمي بهم قوة ففارقوا البلد عائدين إلى خراسان، فلما أصبح أهل البلد وليس عندهم من العسكر أحد ضعفت نفوسهم، فأرسلوا القاضي، وهو بدر الدين قاضيخان ليطلب الأمان للناس، فأعطوهم الأمان، وكان قد بقي من العسكر طائفة لم يمكنهم الهرب مع أصحابهم، فاعتصموا بالقلعة، فلما أجابهم جنكزخان إلى الأمان فتحت أبواب المدينة يوم الثلاثاء رابع ذي الحجة من سنة ست عشرة وستمائة، فدخل الكفار بخارى، ولم يتعرضوا إلى أحد بل قالوا لهم كل ما هو للسلطان عندكم من ذخيرة وغيره أخرجوه إلينا وساعدونا على قتال من بالقلعة، وأظهروا عندهم العدل وحسن السيرة، ودخل جنكزخان بنفسه، وأحاط بالقلعة، ونادى في البلد بأن لا يتخلف أحد، ومن تخلف قتل، فحضروا جميعهم، فأمرهم بطم الخندق فطموه بالأخشاب والتراب، وغير ذلك، حتى إن الكفار كانوا يأخذون المنابر وربعات القرآن فيلقونها في الخندق، فإنا لله وإنا إليه راجعون وبحق سمى الله نفسه صبوراً حليماً وإلا كان خسف بهم الأرض عند فعل مثل هذا.

ثم تابعوا الزحف إلى القلعة وبها نحو أربعمائة فارس من المسلمين، فبذلوا جهدهم ومنعوا القلعة اثني عشر يوماً يقاتلون جمع الكفار وأهل البلد فقتل بعضهم ولم يزالوا كذلك حتى زحفوا إليهم، ووصل النقابون إلى سور القلعة، فنقبوه، واشتد حينئذ القتال ومن بها من المسلمين يرمون بكل ما يجدون من حجارة ونار وسهام، فغضب اللعين ورد أصحابه ذلك اليوم وباكرهم من الغد، فجدوا في القتال، وقد تعب من بالقلعة ونصبوا وجاءهم مالا قبل لهم به، فقهرهم الكفار ودخلوا القلعة، وقاتلهم المسلمون الذين فيها حتى قتلوا عن آخرهم، فلما فرغ من القلعة أمر أن يكتب له رؤوس البلد ورؤساؤهم، ففعلوا ذلك، فلما عرضوا عليه أمر بإحضارهم، فحضروا فقال أريد منكم النقرة التي باعكم خوارزمشاه، فإنها لي ومن أصحابي أخذت، وهي عندكم، فأحضر كل من كان عنده شيء منها بين يديه، ثم أمرهم بالخروج من البلد، فخرجوا من البلد مجردين من أموالهم ليس مع أحد منهم غير ثيابه التي عليه، ودخل الكفار البلد فنهبوه وقتلوا من وجدوا فيه، وأحاط بالمسلمين، فأمر أصحابه أن يقتسموهم، فاقتسموهم، وكان يوماً عظيماً من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان،

وتفرقوا أيدي سبا، وتمزقوا كل ممـزق واقتسموا النساء أيضاً، وأصبحت بخارى خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس، وارتكبوا من النساء العـظيم، والناس ينـظرون، ويبكون ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئاً مما نزل بهم، فمنعهم من لم يرض بذلك، واختار الموت على ذلك، فقاتل حتى قتل.

وممن فعل ذلك واختار أن يقتل ولا يرى ما نزل بالمسلمين الفقيه الإمام ركن الدين إمام زاده وولده، فإنهما لما رأيا ما يفعل بالحرم قاتلا حتى قتلا، وكذلك فعل القاضي صدر الدين خان ومن استسلم أخذ أسيراً وألقوا النار في البلد والمدارس والمساجد، وعذبوا الناس بأنواع العذاب من طلب المال، ثم رحلوا نحو سمرقند، وقد تحققوا عجز خوارزمشاه عنهم ، وهم بمكانه بين ترمذ وبلخ ، واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى أسارى، فساروا بهم مشاة على أقبح صورة، فكل من أعيا وعجز عن المشي قتل، فلما قاربوا سمرقند قدموا الخيَّالة وتركوا الرجالة والأسارى والأثقال وراءهم حتى تقدموا شيئاً فشيئـاً ليكون أرعب لقلوب المسلمين، فلمـا رأى أهل البلد سـوادهم استعظموه، فلما كان اليوم الثاني وصل الأسارى والرجالة والأثقال، ومع كل عشرة من الأسارى علم فظن أهل البلد أن الجميع عساكر مقاتلة، وأحاطوا بالبلد وفيه خمسون ألف مقاتل من الخوارزمية، وأما عامة البلد: فلا يحصون كثرة، فخرج إليهم شجعان أهله وأهل الجلد والقوة رجالة، ولم يخرج معهم من العسكر الخوارزمي أحد لِما في قلوبهم من خوف هؤلاء الملاعين، فقاتلهم الرجالة بظاهر البلد، فلم يزل التتر يتأخرون وأهل البلد يتبعوهم، ويطمعون فيهم، وكان الكفار قد كمنوا لهم كميناً، فلما جاوزوا الكمين خرجوا عليهم وحالوا بينهم وبين البلد، ورجع الباقون الذين أنشبوا القتال أولاً فبقوا في الوسط وأخذهم السيف من كل جانب، فلم يسلم منهم أحد، قتلوا عن آخرهم شهداء رضي الله عنهم، وكانوا سبعين ألفاً على ما قيل، فلما رأى البـاقون من الجند والعامةذلك ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك ،فقال الجند،وكانوا أتراكاً : نحن من جنس هؤلاء ولا ويقتلوننا، فطلبوا الأمان، فأجابوهم إلى ذلك ففتحوا أبواب البلد ولم يقـدر العامة على منعهم، وخرجوا إلى الكفار بأهلهم وأموالهم، فقال لهم الكفار: ادفعوا إلينا سلاحكم وأموالكم ودوابكم، ونحن نسيركم إلى مأمنكم، ففعلوا ذلك، فلما أخذوا أسلحتهم ودوابهم وضعوا السيف فيهم وقتلوهم عن آخرهم، وأخذوا أموالهم ودوابهم

ونساءهم، فلما كان اليوم الرابع نادوا في البلد أن يخرج أهله جميعهم ومن تأخر قتلوه، فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان، ففعلوا مع أهل بخارى من النهب والقتل والسبي والفساد، ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه وأحرقوا الجامع وتركوا باقي البلد على حاله، وافتضوا الأبكار وعذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال، وقتلوا من لم يصلح للسبي، وكان ذلك في المحرّم سنة سبع عشرة وستمائة، وكان خوارزمشاه بمنزلته، كلما اجتمع إليه عسكر سيّره إلى سمرقند، فيرجعون ولا يقدمون على الوصول إليها نعوذ بالله من الخذلان سيّر مرة عشرة آلاف فارس فعادوا وسيّر عشرين ألفاً فعادوا أيضاً.

ذكر مسير التتر إلى خوارزمشاه وانهزامه وموته

لما ملك الكفار سمرقند عمد جنكزخان ـ لعنه الله ـ وسيّر عشرين ألف فارس، وقال لهم: اطلبوا خوارزمشاه أين كان، ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه وهذه الطائفة تسميها التتر المغربة لأنها سارت نحو غرب خراسان ليقع الفرق بينهم وبين غيرهم منهم لأنهم هم الذين أوغلوا في البلاد، فلما أمرهم جنكزخان بالمسير ساروا وقصدوا موضعاً يسمى فنج اب ومعناه خمس مياه، فوصلوا إليه، فلم يجدوا هناك سفينة، فعملوا من الخشب مثل الأحواض الكبار، وألبسوها جلود البقر لئلا يدخلها الماء، ووضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم، وألقوا الخيل في الماء وأمسكوا أذنابها، وتلك الحياض التي من الخشب مشدودة إليهم فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره، فعبروا كلهم دفعة واحدة، فلم يشعر خوارزمشاه إلا وقد صاروا معه على أرض واحدة، وكان المسلمون قد ملئوا منهم رعباً وخوفاً، وقد اختلفوا فيما بينهم أنهم كانوا يتماسكون بسبب ان نهر جيحون بينهم، فلما عبروه إليهم لم يقدروا على الثبات ولا على المسير مجتمعين بل تفرقوا أيدي سبا، وطلب كل طائفة منهم جهة، ورحل خوارزمشاه لا يلوي على شيء في نفر من خاصته، وقصدوا نيسابور، فلما دخلها اجتمع عليه بعض العسكر، فلم يستقر حتى وصل أولئك التتر إليها، وكانوا لم يتعرضوا في مسيرهم لشيء لا بنهب ولا قتل بل يجدون السير في طلبه لا يمهلون حتى يجمع لهم، فلما سمع بقربهم منه رحل إلى ما زندران، وهي له أيضاً، فرحل التتر المغربون في أثره، ولم يعرجوا على نيسابور بل تبعوه، فكان كلما رحل عن

منزلة نزلوها، فوصل إلى مرسى من بحر طبرستان تعرف باب سكون، وله هناك قلعة في البحر، فلما نزل هو وأصحابه في السفن وصلت التتر، فلما رأوا خوارزمشاه وقد دخل البحر، وقفوا على ساحل البحر، فلما أيسوا من لحاق خوارزمشاه رجعوا فهم الذين قصدوا الري وما بعدها على ما نذكره إن شاء الله هكذا ذكر لي بعض الفقهاء ممن كان ببخارى،وأسروه معهم إلى سمرقند، ثم نجا منهم ووصل إلينا، وذكر غيره من التجار أن خوارزم شاه سار من مازندران حتى وصل إلى الري، ثم منها إلى همذان، والتتر أثره، ففارق همذان في نفر يسير جريدة ليستر نفسه ويكتم خبره، وعاد إلى مازندران، وركب في البحر إلى هذه القلعة، وكان هذا هو الصحيح، فإن الفقيه كان حينئذ مأسوراً، وهؤلاء التجار أخبروا أنهم كانوا بهمذان، ووصل خوارزمشاه ثم وصل بعده من أخبره بوصول التتر، ففارق همذان، وكذلك أيضاً هؤلاء التجار فارقوها، ووصل التتر إليها بعدهم ببعض نهارفهم يخبرون عن مشاهدة، ولما وصل خوارزمشاه إلى هذه القلعة المذكورة توفّي فيها.

ذكر صفة خوارزمشاه وشيء من سيرته

هو علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش، وكان مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وشهوراً تقريباً، واتسع ملكه وعظم محله وأطاعه العالم بأسره، ولم يملك بعد السلجوقية أحد مثل ملكه، فإنه ملك من حد العراق إلى تركستان، وملك بلاد غزنة وبعض الهند، وملك سجستان وكرمان وطبرستان، وجرجان وبلاد الجبال وخراسان وبعض فارس، وفعل بالخطا الأفاعيل العظيمة، وملك بلادهم، وكان فاضلاً عالماً بالفقه والأصول وغيرهما ، وكان مكرماً للعلماء محباً لهم محسناً إليهم، يكثر مجالستهم ومناظراتهم بين يديه ، وكان صبوراً على التعب وإدمان السير ، غير متنعم ولا مقبل على اللذات ، إنما همه في الملك وتدبيره، وحفظه وحفظ رعاياه، وكان معظماً لأهل الدين ، مقبلاً عليهم ، متبركاً بهم.

حكى لي بعض خدم حجرة النبي - ﷺ - وقد عاد من خراسان قال: وصلت الى خوارزم، فنزلت ودخلت الحمّام، ثم قصدت باب السلطان علاء الدين فحين حضرت لقيني إنسان، فقال: ما حاجتك؟ فقلت له: أنا من خدم حجرة النبي - ﷺ - فأمرني

بالجلوس وانصرف عني ثم عاد إلي واخذني وأدخلني الى دار السلطان، فتسلمني منه حاجب من حجاب السلطان، وقال لي قد اعلمت السلطان خبرك، فأمر بإحضارك عنده، فدخلت اليه، وهو جالس في صدر إيوان كبير، فحين توسطت صحن الدار قام قائماً ومشى إلي بين يدي، فأسرعت السير فلقيته في وسط الايوان، فأردت ان اقبل يده، فمنعني واعتنقني وجلس وأجلسني إلى جانبه، وقال لي أنت تخدم حجرة النبي - ﷺ -؟ فقلت: نعم، فأخذ يدي وأمرها على وجهه، وسألني عن حالنا، وعيشنا وصفة المدينة ومقدارها، وأطال الحديث معي، فلما خرجت من عنده، قال: لولا أننا على عزم السفر هذه الساعة لما ودعتك إنما نريد أن نعبر جيحون إلى الخطا، وهذا طريق مبارك حيث رأينا من خدم حجرة النبي - ﷺ -، ثم ودعني، وأرسل إلي جملة كثيرة من النفقة، ومضى، وكان منه ومن الخطا - ما ذكرناه - وبالجملة فاجتمع فيه ما تفرَّق في غيره من ملوك العالم - رحمه الله -، ولو اردنا ذكر مناقبه لطال.

ذكر استيلاء التتر المغربة على مازندران

لما أيس التتر المغربة من إدراك خوارزمشاه، عادوا فقصدوا بلاد مازندران، فملكوها في أسرع وقت مع حصانتها، وصعوبة الدخول اليها وامتناع قلاعها، فإنها لم تزل ممتنعة قديم الزمان وحديثه، حتى إن المسلمين لمَّا ملكوا بلاد الاكاسرة جميعها من العراق إلى أقاصي خراسان، بقيت اعمال مازندران، يؤخذ منهم الخراج، ولا يقدرون على دخول البلاد الى ان ملكت أيام سليمان بن عبد الملك سنة تسعين، وهؤلاء الملاعين ملكوها صفواً عفواً لأمر يريده الله تعالى، ولما ملكوا بلد مازندران قتلوا وسبوا ونهبوا وأحرقوا البلاد، ولما فرغوا من مازندران سلكوا نحو الري، فرأوا في الطريق والدة خوارزمشاه ونساءه وأموالهم وذخائرهم التي لم يسمع بمثلها من الاعلاق النفيسة، وكان سبب ذلك أن والدة خوارزمشاه لما سمعت بما جرى على ولدها، خافت، ففارقت خوارزم، وقصدت نحو الريِّ لتصل الى أصفهان وهمذان وبلد الجبل تمتنع فيها، فصادفوها في الطريق وما معها قبل وصولها الى الري، فكان فيه ما ملأ عيونهم وقلوبهم، وما لم يشاهد الناس مثله، من كل غريب من المتاع، ونفيس من الجواهر، وغير ذلك، وسيَّروا الجميع الى جنكزخان بسمرقند.

ذكر وصول التتر الى الري وهمذان

في سنة سبع عشرة وستمائة وصل التتر ـ لعنهم الله ـ الى الري في طلب خوارزمشاه محمد لأنهم بلغهم أنه مضى منهزماً منهم نحو الري، فجدوا السير في أثره، وقد انضاف إليهم كثير من عساكر المسلمين والكفار، وكذلك ايضا من المفسدين من يريد النهب والشر، فوصلوا الى الري على حين غفلة من اهلها فلم يشعروا إلا وقد وصلوا اليها وملكوها، ونهبوها، وسبوا الحريم، واسترقوا الأطفال، وفعلوا الأفعال التي لم يسمع بمثلها، ولم يقيموا ومضوا مسرعين في طلب خوارزمشاه، فنهبوا في طريقهم كل مدينة وقرية مرُّوا عليها، وفعلوا في الجميع اضعاف ما فعلوا في الري، وأحرقوا وخربوا، ووضعوا السيف في الرجال والنساء والأطفال، فلم يبقوا على شيء، وتموا على حالهم الى همذان، وكان خوارزمشاه قد وصل اليها في نفر من اصحابه، ففارقها وكان آخر العهد به، فلا يدرى ما كان منه، فيما حكاه بعضهم عنه، وقيل: غير ذلك وقد ذكرناه، فلما قاربوا همذان خرج رئيسها ومعه الحمل من الأموال والثياب والدواب وغير ذلك يطلب الأمان لأهل البلد، فأمنوهم، ثم فارقوها، وساروا الى زنجان، ففعلوا أضعاف ذلك، ثم وصلوا الى قزوين، فاعتصم أهلها منهم بمدينتهم، فقاتلوهم وجدوا في قتالهم، ودخلوها عنوة بالسيف، فاقتتلوا هم وأهل البلد في باطنه حتى صاروا يقتتلون بالسكاكين، فقتل من الفريقين ما لا يُحصى، ثم فارقوا قزوين، فعد القتلى من أهل قزوين، فزادوا على أربعين الف قتيل.

ذكر وصول التتر إلى أذربيجان

لما هجم الشتاء على التتر في همذان وبلد الجبل رأوا برداً شديداً وثلجاً متراكما فساروا إلى أذربيجان ، ففعلوا في طريقهم بالقرى والمدن الصغار من القتل والنهب مثل ما تقدَّم منهم، وخرّبوا وأحرقوا، ووصلوا الى تبريز وبها صاحب أذربيجان اوزبك بن البهلوان، فلم يخرج إليهم ولا حدث نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدده من إدمان الشرب ليلاً ونهارا لا يفيق ،وإنما أرسل إليهم وصالحهم على مال وثياب ودواب وحمل الجميع إليهم، فساروا من عنده يريدون ساحل البحر لأنه يكون قليل البرد ليشتوا عليه ، والمراعي به كثيرة لأجل دوابهم، فوصلوا الى موقان، وتطرفوا في طريقهم الى بلاد

الكـرج، فجاء اليهم من الكـرج جمع كثيـر من العسكر نحـو عشرة آلاف مقـاتـل، فقـاتلوهم، فانهـزمت الكرج، وقتـل أكثرهم، وأرسـل الكرج الى اوزبـك صـاحب أذربيجان، يطلبون منه الصلح، والاتفاق معهم على دفع التتر، فاصطلحوا ليجتمعوا اذا انحسر الشتاء وكذلك ارسلوا الى الملك الأشـرف بن الملك العادل صـاحب خلاط وبديار الجزيرة يطلبون منه الموافقة عليهم، وظنُّوا جميعهم ان التتر يصبرون في الشتاء الى الربيع ،فلم يفعلوا كذلك بل تحرَّكوا وساروا نحو بلاد الكرج.

وانضاف اليهم مملوك تركي من مماليك اوزبك اسمه أقوش، وجمع أهل تلك الجبال والصحراء من التركمان والأكراد وغيرهم، فاجتمع معهم خلق كثير، وراسل التتر في الانضمام اليهم، فأجابوه الى ذلك ومالوا اليه للجنسية، فاجتمعوا وساروا في مقدمة التتر الى الكرج، فملكوا حصناً من حصونهم وخربوه، ونهبوا البلاد وخرّبوها، وقتلوا أهلها، ونهبوا أموالهم حتى وصلوا إلى قريب تفليس فاجتمعت الكرج وخرجت بحدها وحديدها إليهم، فلقيهم أقوش أولاً فيمن اجتمع إليه، فاقتتلوا قتالاً شديداً صبروا فيه كلهم، فقتل من اصحاب اقوش خلق كثير، وأدركهم التتر وقد تعب الكرج من القتال، فقتل منهم أيضاً كثير، فلم يثبتوا للتتر، وانهزموا أقبح هزيمة، وركبهم السيف من كل جانب، فقتل منهم ما لا يحصى كثرة، وكانت الوقعة في ذي القعدة من هذه السنة، ونهبوا من البلاد ما كان سلم منهم، ولقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه طائفة تخرج من حدود الصين، لا تنقضي عليهم سنة حتى يصل بعضهم الى بلاد ارمينية من هذه الناحية، ويجاوزون العراق من ناحية همذان، وتالله لا اشك ان من يجيء بعدنا اذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها، والحق بيده، فمتى استبعد ذلك، فلينظر أنا سطرنا نحن، وكل من جمع التاريخ في ازماننا هذه في وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها يسّر الله للمسلمين والاسلام من يحفظهم ويحوطهم، فلقد دفعوا من العدوِّ الى عظيم، ومن الملكوك المسلمين الى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه، ولم ينل المسلمين اذى وشدة مذ جاء النبي - ﷺ - الى هذا الوقت مثل ما دفعوا إليه الآن هذا العدو الكافر التتر، قد وطؤوا بلاد ما وراء النهر وملكوها، وخربوها، وناهيك به سعة بلاد وتعدَّت طائفة منهم النهرَ الى خـراسان، فملكوها وفعلوا مثل ذلك، ثم الى الري وبلد الجبل

وأذربيجان، وقد اتصلوا بالكرج، فغلبوهم على بلادهم، والعدو الآخر الفرنج قد ظهر من بلادهم في اقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال، ووصلوا الى مصر فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها ولم يقدر المسلمون على ازعاجهم عنها ولا إخراجهم منها، وباقي ديار مصر على خطر، فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومن اعظم الامور على المسلمين ان سلطانهم خوارزمشاه محمداً قد عدم لا يعرف حقيقة خبره، فتارة يقال مات عن همذان، وأخفي موته، وتارة دخل اطراف بلاد فارس ومات هناك وأخفى موته لئلا يقصدها التتر في اثره، وتارة يقال عاد الى طبرستان، وركب البحر فتوفّي في جزيرة هناك، وبالجملة فقد عدم، ثم صحَّ موته ببحر طبرستان، وهذا عظيم مثل خراسان وعراق العجم اصبح سائباً لا مانع له ولا سلطان يدفع عنه، والعدو يجوس البلاد يأخذ ما أراد، ويترك ما أراد، على انهم لم يبقوا على مدينة إلا خربوها، وكل ما مروا عليه نهبوه، وما لا يصلح لهم احرقوه، فكانوا يجمعون الإبريسم تلالاً ويلقون فيه النار، وكذلك غيره من الامتعة.

ذكر ملك التتر مراغة

في صفر سنة ثمان عشر وستمائة ملك التتر مدينة مراغة من أذربيجان، وسبب ذلك اننا ذكرنا سنة سبع عشرة وستمائة ما فعله التتر بالكرج، وانقضت تلك السنة، وهم في بلاد الكرج، فلما دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة ساروا من ناحية الكرج لأنهم رأوا أن بين أيديهم شوكة قويَّة ومضايق تحتاج إلى قتال وصراع، فعدلوا عنهم، وهذه كانت عادتهم إذا قصدوا مدينة ورأوا عندها امتناعا عدلوا عنها، فوصلوا الى تبريز وصانعهم صاحبها بمال وثياب ودواب، فساروا عنه الى مدينة مراغة، فحصروها وليس بها صاحب يمنعها لأن صاحبها كانت امرأة، وهي مقيمة بقلعة رويندز، وقد قال النبي - ﷺ - لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة، فلما حصروها قاتلهم أهلها، فنصبوا عليها المجانيق وزحفوا اليها، وكانت عادتهم اذا قاتلوا مدينة قدموا من معهم من أسارى المسلمين بين ايديهم يزحفون ويقاتلون، فإن عادوا قتلوا، فكانوا يقتلون كرهاً وهم المساكين كما قيل: كالاشقر إن تقدم ينحر وإن تأخر يعقر، وكانوا هم يقاتلون وراء المسلمين، فيكون القتل في المسلمين الأسارى، وهم بنجوة منه، فأقاموا عليها عدَّة أيام، ثم ملكوا المدينة عنوةً وقهراً رابع صفر، ووضعوا السيف في أهلها، فقتل منهم ما

يخرج عن الحدِّ والاحصاء ونهبوا كل ما صلح لهم، وما لا يصلح لهم، واحرقـوه، واختفى بعض الناس منهم، فكانوا يأخذون الأسارى، ويقولون لهم: نادوا في الدروب ان التتر قد رحلوا، فإذا نادى أولئك خرج من اختفى، فيؤخذ ويقتل.

وبلغني أن امرأة من التتر دخلت داراً وقتلت جماعة من أهلها، وهم يظنونها رجلاً فوضعت السلاح، وإذا هي امرأة فقتلها رجل اخذته اسيراً.

وسمعت من بعض أهلها ان رجلاً من التتر دخل درباً فيه مائة رجل، فما زال يقتلهم واحدا واحدا حتى أفناهم، ولم يمد أحد يده اليه بسوء ووضعت الذلّة على الناس، فلا يدفعون عن نفوسهم قليلاً ولا كثيـراً ـ نعوذ بـالله من الخذلان ـ ثم رحلوا عنهـا نحو مدينة إربل، ووصل الخبر إلينا بذلك بـالموصـل، فخفنا حتى إن بعض النـاس همّ بالجلاء خوفاً من السيف، وجاءت كتب مظفـر الدين صـاحب إربل الى بـدر الدين صاحب الموصل يطلب منه نجدة من العساكر، فسيَّر جمعاً صالحاً من عسكره، وأراد ان يمضي إلى طرف بلاده من جهة التتر، ويحفظ المضايق لئلا يجوزها احد، فإنها جميعها جبال وعرة ومضايق لا يقدر أن يجوزها إلا الفارس بعد الفارس، ويمنعهم من الجواز إليه، ووصلت كتب الخليفة ورسله الى الموصل، والى مظفر الدين يأمر الجميع بالاجتماع مع عساكره، بمدينة دقوقا ليمنعوا التتر، فإنهم ربما عدلوا عن جبال إربل لصعوبتها الى هذه الناحية ويطرقون العراق، فسار مظفَّر الدين من إربل في صفر، وسار إليهم جمع من عسكر الموصل، وتبعهم من المتطوِّعة كثير، وأرسل الخليفة ايضا الى الملك الأشرف يأمره بالحضور بنفسه في عسكـره ليجتمع الجميـع على قصد التتـر وقتالهم، فاتفق ان الملك المعظم بن الملك العادل وصل من دمشق إلى أخيه الأشرف، وهو بحران يستنجده على الفرنج الذين بمصر، وطلب منه ان يحضر بنفسه ليسيروا كلهم الى مصر ليستنقذوا دمياط من الفرنج، فاعتذر الى الخليفة بأخيه، وقوة الفرنج، وإن لم يتداركها خرجت هي وغيرها، وشرع يتجهَّز للسير الى الشام ليدخل مصر، وكان ما ذكرناه من استنقاذ دمياط، فلما اجتمع مظفَّر الدين والعساكر بدقوقا سير الخليفة اليهم مملوكه قشتمر، وهو اكبر امير بالعراق، ومعه غيره من الأمراء في نحو ثمانمائة فارس، فاجتمعوا هناك ليتصل بهم باقي عسكر الخليفـة، وكان المقـدّم على الجميع مـظفَّر الدين، فلما رأى قلّة العسكر لم يقدم على قصد التتر.

وحكى مظفر الدين قال: لمّا أرسل إليّ الخليفة في معنى التتر قلت له: إن العدو قويٌّ وليس لي من العسكر ما ألقاه به، فإن اجتمع معي عشرة آلاف فارس استنقذت ما أخذ من البلاد، فأمرني بالمسير وواعدني بوصول العسكر، فلما سرت لم يحضر عندي غير عدد لم يبلغوا ثمانمائة طواشي، فأقمت وما رأيت المخاطرة بنفسي وبالمسلمين، ولما سمع التتر باجتماع العساكر لهم، رجعوا القهقرى ظناً منهم ان العسكر يتبعهم، فلما لم يروا أحداً يطلبهم أقاموا، وأقام العسكر الاسلامي عند دقوقا، فلما لم يروا ان العدو يقصدهم ولا المدد يأتيهم تفرَّقوا، وعادوا إلى بلادهم.

ذكر ملك التتر همذان وقتل أهلها

لما تفرَّق العسكر الإسلامي عاد التتر الى همذان، فنزلوا بالقرب منها، وكان لهم بها شحنة يحكم فيها، فأرسلوا إليه يأمرونه ليطلب من اهلها مالاً وثياباً، وكانوا قد استنفدوا أموالهم في طول المدَّة وكان رئيس همذان شريفاً علويّاً، وهو من بيت رياسة قديمة لهذه المدينة، وهو الذي يسعى في امور اهل البلد مع التتر، ويوصل إليهم ما يجمعه من الأموال، فلما طلبوا الآن منهم المال، لم يجد أهل همذان ما يحملونه إليهم، فحضروا عند الرئيس، ومعه انسان فقيه قد قام في اجتماع الكلمة على الكفَّار قياماً مرضياً، فقالوا لهما هؤلاء الكفار قد افنوا اموالنا، ولم يبق لنا ما نعطيهم، وقد هلكنا من أخذهم اموالنا وما يفعله النائب عنهم بنا من الهوان، وكانوا قد جعلوا بهمذان شحنة لهم يحكم في اهلها بما يختاره، فقال الشريف: إذا كنا نعجز عنهم، فكيف الحيلة؟ فليس لنا إلا مصانعتهم بالأموال، فقالوا له: أنت أشد علينا من الكفار، وغلظوا له في القول. فقال: أنا واحد منكم فاصنعوا ما شئتم، فأشار الفقيه بإخراج شحنة التتر من البلد والامتناع فيه ومقاتلة التتر، فوثب العامة على الشحنة، فقتلوه وامتنعوا في البلد، فتقدم التتر اليهم وحصروهم.

وكانت الأقوات متعذِّرة في تلك البلاد جميعها لخرابها، وقتل أهلها وجلاء من سلم منهم، فلا يقدر أحد على الطعام إلا قليلا، وأما التتر، فلا يبالون لعدم الأقوات لأنهم لا يأكلون إلا اللحم، ولا تأكل دوابهم إلا نبات الأرض حتى إنها تحفر بحوافرها الأرض عن عروق النبات، فتأكلها، فلما حصروا همذان قاتلهم أهلها والرئيس والفقيه في أوائلهم، فقتل من التتر خلق كثير، وجرح الفقيه عدَّة جراحات، وافترقوا ثمَّ خرجوا من

الغد، فاقتتلوا أشدَّ من القتال الأول، وقتل أيضاً من التتر اكثر من اليوم الأول، وجرح الفقيه ايضا عدَّة جراحات، وهو صابر وأرادوا ايضا الخروج في اليوم الثالث، فلم يطق الفقيه الركوب، وطلب الناس الرئيس العلوي، فلم يجدوه، وكان قد هرب في سرب صنعه الى ظاهر البلد هو وأهله الى قلعة هناك على جبل عال، فامتنع فيها، فلما فقده الناس بقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون إلا أنهم اجتمعت كلمتهم على القتال إلى ان يموتوا، فأقاموا في البلد، ولم يخرجوا منه، وكان التتر قد عزموا على الرحيل لكثرة من قتل منهم ، فلما لم يروا أحداً خرج إليهم من البلد طمعوا واستدلوا على ضعف أهله ، فقصدوهم وقاتلوهم في رجب من سنة ثمان عشرة وستمائة، ودخلوا المدينة بالسيف، وقاتلهم الناس في الدروب، فبطل السلاح للزحمة، واقتتلوا بالسكاكين، فقتل من الفريقين ما لا يحصيه إلا الله تعالى ـ وقوي التتر على المسلمين، فأفنوهم قتلاً ولم يسلم الا من كان عمل له نفقاً يختفي فيه، وبقي القتل في المسلمين عدة أيام، ثم ألقوا النار في البلد فأحرقوه، ورحلوا عنها إلى مدينة أردويل.

وقيل كان السبب في ملكها أن اهل البلد لمّا شكوا الى الرئيس الشريف ما يفعل بهم الكفار أشار عليهم بمكاتبة الخليفة لينفذ اليهم عسكراً مع أمير يجمع كلمتهم، فاتفقوا على ذلك، فكتب الى الخليفة ينهي إليه ما هم عليه من الخوف والذل وما يركبهم به العدو من الصغار والخزي، ويطلب نجدة ولو ألف فارس من أمير يقاتلون معه ويجتمعون عليه، فلما سار القصاد بالكتب أرسل بعض من علم بالحال الى التتر يعلمهم ذلك، فأرسلوا الى الطريق، فأخذوهم واخذوا الكتب منهم، وأرسلوا الى الرئيس ينكرون عليه الحال، فجحد، فأرسلوا اليه كتبه وكتب الجماعة، فسقط في أيديهم وتقدم اليهم التتر حينئذ، وقاتلوهم وجرى في القتال كما ذكرنا.

ذكر مسير التتر الى اذربيجان وملكهم أردويل وغيرها

لما فرغ التتر من همذان ساروا الى اذربيجان، فوصلوا الى اردويل، فملكوها وقتلوا فيها واكثروا ، وخربوا أكثرها، وساروا منها إلى تبريز، وكان قد قام بأمرها شمس الدين الطغرائي ، وجمع كلمة أهلها، وقد فارقها صاحبها أوزبك بن البهلوان، وكان أميراً مختلفاً، لا يزال منهمكاً في الخمر ليلاً ونهاراً يبقى الشهر والشهرين لا يظهر، وإذا سمع هيعة طار مجفلاً لها، وله جميع أذربيجان، وأران، وهو اعجز خلق الله عن البلاد من

عدوّ يريدها ويقصدها، فلما سمع بمسير التتر من همذان فارق هو تبريز، وقصد نقجوان، وسيَّر أهله ونساءه إلى خوى ليبعد عنهم، فقام هذا الطغرائي بأمر البلد، وجمع الكلمة، وقوّى نفوس الناس على الامتناع، وحذرهم عاقبة التخاذل والتواني، وحصَّن البلد بجهده وطاقته، فلما قاربه التتر وسمعوا بما أهل البلد عليه من اجتماع الكلمة على قتالهم، وانهم قد حصَّنوا المدينة، واصلحوا اسوارها وخندقها ارسلوا يطلبون منهم مالاً وثياباً، فاستقرَّ الأمر بينهم على قدر معلوم من ذلك، فسيروه إليهم، فأخذوه ورحلوا الى مدينة سراو، فنهبوها وقتلوا كل من فيها، ورحلوا منها إلى بيلقان من بلاد أران، فنهبوا كل ما مروا به من البلاد والقرى، وخربوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها، فلما وصلوا الى بيلقان حصروها، فاستدعى اهلها منهم رسولاً يقرون معه الصلح، فأرسلوا إليهم رسولاً من أكابرهم ومقدمهم، فقتله أهل البلد، فزحف التتر اليهم وقاتلوهم، ثم إنهم ملكوا البلد عنوةً في شهر رمضان سنة ثمان عشرة ووضعوا السيف، فلم يبقوا على صغير ولا كبير ولا امرأة حتى إنهم يشقون بطون الحبالى ويقتلون الاجنة، وكانوا يفجرون بالمرأة، ثم يقتلونها، وكان الانسان منهم يدخل الدرب فيه الجماعة، فيقتلهم واحداً بعد واحد حتى يفرغ من الجميع لا يمدُّ أحد منهم اليه يداً، فلما فرغوا منها استقصوا ما حولها من النهب والتخريب، وساروا الى مدينة كنجة، وهي أم بلاد أران، فعلموا بكثرة أهلها وشجاعتهم لكثرة دربتهم بقتال الكرج، وحصانتها، فلم يقدموا عليها، فأرسلوا الى اهلها يطلبون منهم المال والثياب، فحملوا إليهم ما طلبوا، فساروا عنهم.

ذكر وصول التتر الى بلاد الكُرج

لما فرغ التتر من بلاد المسلمين بأذربيجان، وأرّان، بعضه بالملك وبعضه بالصلح،، وساروا الى بلاد الكرج، من هذه الأعمال أيضاً، وكان الكرج قد اعدّوا لهم، واستعدوا وسيَّروا جيشاً كثيرا الى طرف بلادهم ليمنعوا التتر عنها، فوصل إليهم التتر، فالتقوا فلم يثبت الكرج، بل ولوا منهزمين، فأخذهم السيف، فلم يسلم منهم الا الشريد، ولقد بلغني أنهم قتل منهم نحو ثلاثين ألفاً، ونهبوا ما وصلوا اليه من بلادهم وخربوها وفعلوا بها ما هو عادتهم، فلما وصل المنهزمون الى تفليس، وبها ملكهم جمع جموعاً اخرى، وسيَّرهم الى التتر ايضا ليمنعوهم من توسط بلادهم، فرأوا التتر وقد

دخلوا البلاد لم يمنعهم جبل ولا مضيق ولا غير ذلك، فلما رأوا فعلهم عادوا إلى تفليس، فأخلوا البلاد، ففعل التتر فيها ما أرادوا من النهب والقتل والتخريب، ورأوا بلاداً كثيرة المضايق والدربندات، فلم يتجاسروا على الوغول فيها، فعادوا عنها، وداخل الكرج منهم خوفٌ عظيمٌ حتى سمعت عن بعض اكابر الكرج، وكان قد م رسولاً انه قال: من حدثكم ان التتر انهزموا وأسروا فلا تصدقوه، واذا حدثتم انهم قتلوا فصدقوا، فإن القوم لا يفرُّون أبداً، ولقد اخذنا أسيراً منهم فألقى نفسه من الدابة، وضرب رأسه بالحجر الى ان مات، ولم يسلم نفسه للأسرة.

ذكر وصولهم الى دَرْبَنْدْ شِروان وما فعلوه

لما عاد التتر من بلد الكرج قصدوا دربندشروان، فحصروا مدينة شماخي، وقاتلوا اهلها، فصبروا على الحصر، ثم ان التتر صعدوا سورها بالسلاليم، وقيل: بل جمعوا كثيرا من الجمال والبقر والغنم وغير ذلك، ومن قتلى الناس منهم وممن قتل من غيرهم، والقوا بعضه فوق بعض، فصار مثل الغل وصعدوا عليه، فأشرفوا على المدينة وقاتلوا اهلها فصبروا، واشتد القتال ثلاثة أيام فأشرفوا على أن يؤخذوا فقالوا السيف لا بد منه، فالصبر اولى بنا نموت كراماً، فصبروا تلك الليلة، فأنتنت تلك الجيف وانهضمت، فلم يبق للتتر على السور استعلاء ولا تسلط على الحرب، فعاودوا الزحف وملازمة القتال، فضجر اهلها ومسهم التعب والكلال والاعياء، فضعفوا، فملك التتر البلد، وقتلوا فيه كثيراً ونهبوا الأموال واستباحوها، فلما فرغوا منه ارادوا عبور الدربند، فلم يقدروا على ذلك، فأرسلوا رسولاً الى شروان شاه ملك دربندشروان يقولون له ليرسل إليهم رسولاً يسعى بينهم في الصلح، فأرسل عشرة رجال من أعيان اصحابه، فأخذوا احدهم فقتلوه ثم قالوا: للباقين إن أنتم عرفتمونا طريقاً نعبر فيه فلكم الأمان، وإن لم تفعلوا قتلناكم كما قتلنا هذا فقالوا لهم ان هذا الدربند ليس فيه طريق البتة، ولكن فيه موضع هو اسهل ما فيه من الطرق، فساروا معهم الى ذلك الطريق، فعبروا فيه وخلفوه وراء ظهورهم.

ذكر ما فعلوه باللان وقفجاق

لما عبر التتر دَرْبَنْدَ شِروان ساروا في تلك الأعمال وفيها أممٌ كثيرة منهم اللان واللكز وطوائف من الترك، فنهبوه وقتلوا من اللكز كثيراً، وهم مسلمون وكفار، وأوقعوا

بمن عداهم من أهل تلك البلاد، ووصلوا الى اللان، وهم أممٌ كثيرة وقد بلغهم خبرهم فجدُّوا وجمعوا عندهم جمعاً من قفجان فقاتلوهم، فلم تظفر احدى الطائفتين بالأخرى، فأرسل التتر الى قفجاق يقولون: نحن وأنتم جنس واحد وهؤلاء اللان ليسوا منكم حتى تنصروهم، ولا دينكم مثل دينهم، ونحن نعاهدكم اننا لا نعترض إليكم ونحمل اليكم من الأموال والثياب ما شئتم وتتركون بيننا وبينهم، فاستقرَّ الأمر بينهم على مال حملوه وثياب وغير ذلك، فحملوا إليهم ما استقر وفارقهم قفجاق، فأوقع التتر باللان فقتلوا منهم وأكثروا ونهبوا وسبوا، وساروا الى قفجاق، وهم آمنون متفرِّقون لما استقر بينهم من الصلح، فلم يسمعوا بهم إلا وقد طرقوهم ودخلوا بلادهم، فأوقعوا بهم الأول فالأول! وأخذوا منهم أضعاف ما حملوا إليهم، وسمع من كان بعيد الدار من قفجان الخبر، ففروا من غير قتال وأبعدوا، وبعضهم اعتصم بالغياض، وبعضهم بالجبال وبعضهم لحق ببلاد الروس، وأقام التتر في بلاد قفجان، وهي أرض كثيرة المراعي في الشتاء والصيف، وفيها اماكن باردة في الصيف كثيرة المرعى، وأماكن حارة في الشتاء كثيرة المرعى، وهي غياض على ساحل البحر، ووصلوا الى مدينة سوادق، وهي مدينة قفجاق التي منها مادتهم، فإنها على بحر حزرية والمراكب تصل إليها، وفيها الثياب، فتشتري منهم وتبيع عليهم الجواري والمماليك والبرطاسي والقندر والسنجاب وغير ذلك ممّا هو في بلادهم، وبحر خزرية هذا بحرٌ متصلٌ بخليج القسطنطينية، ولما وصل التتر الى سوادق ملكوها، وتفرق اهلها منها، فبعضهم صعد الجبال بأهله وماله، وبعضهم ركب البحر، وسار الى بلاد الروم التي بيد المسلمين من أولاد قلج أرسلان.

ذكر ما فعله التتر قفجاق والروس

لمّا استولى التتر على ارض قفجاق ـ كما ذكرنا ـ سار طائفة كثيرة منهم الى بلاد الروس، وهي بلاد كثيرةٌ طويلةٌ عريضة تجاورهم، وأهلها يدينون بالنصرانية، فلما وصلوا إليهم اجتمعوا كلهم، واتفقت كلمتهم على قتال التتر ان قصدوهم، وأقام التتر بأرض قفجاق مدَّة، ثم انهم ساروا سنة عشرين وستمائة الى بلاد الروس، فسمع الروس وقفجان خبرهم، وكانوا مستعدّين لقتالهم، فساروا الى طريق التتر ليلقوهم قبل ان يصلوا الى بلادهم ليمنعوهم عنها، فبلغ مسيرهم التتر، فعادوا على اعقابهم راجعين، فطمع الروس وقفجاق فيهم، وظنوا انهم عادوا خوفاً منهم وعجزاً عن قتالهم، فجدوا في

اتباعهم، ولم يزل التتر راجعين، واولئك يقفون اثرهم اثني عشر يومـا، ثم ان التتر عطفوا على الروس وقفجان، فلم يشعروا بهم الا وقد لقوهم على غرّة منهم لأنهم كانوا قد أمنوا التتر، واستشعروا القدرة عليهم، فلم يجتمعوا للقتال الا وقد بلغ التتر منهم مبلغا عظيما، فصبر الطائفتان صبراً لم يسمع بمثله، ودام القتال بينهم عدة ايام، ثم إن التتر ظفروا واستظهروا، فانهزم قفجان والروس هزيمة عظيمة بعد ان اثخن فيهم التتر، وكثر القتل في المنهزمين، فلم يسلم منهم الا القليل، ونهب جميع ما معهم، ومن سلم وصل الى البلاد على أقبح صورة لبعد الطريق والهزيمة، وتبعهم كثير يقتلون وينهبون ويخربون البلاد حتى خلا اكثرها، فاجتمع كثير من اعيان تجـار الروس وأغنيـائهم، وحملوا ما يعز عليهم وساروا يقطعون البحر الى بلاد الإسلام في عدَّة مراكب، فلما قاربوا المرسى الذي يريدونه انكسر مركب من مراكبهم، فغرق الا ان الناس نجوا، وكانت العادة جارية ان السلطان له المركب الذي ينكسر، فأخذ من ذلك شيئاً كثيراً، وسلم باقي المراكب، وأخبره من بها بهذه الحال.

ذكر عود التتر من بلاد الروس وقفجاق الى ملكهم

لما فعل التتر بالروس ما ذكرناه، ونهبوا بلادهم عادوا عنها، وقصدوا بلغار أواخر سنة عشرين وستمائة، فلما سمع اهل بلغار بقربهم منهم كمنوا لهم في عدَّة مواضع وخرجوا إليهم، فلقوهم واستجروهم الى ان جاوزوا موضع الكمناء فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم فبقوا في الوسط وأخذهم السيف من كل ناحية فقتل اكثرهم ولم ينج منهم الا القليل، قيل: كانوا نحو اربعة آلاف رجل، فساروا الى سقين عائدين الى ملكهم جنكزخان، وخلت ارض قفجاق منهم، فعاد من سلم منهم الى بلادهم، وكان الطريق منقطعاً مذ دخلها التتر، فلم يصل منهم شيء من البرطاسي والسنجاب والقندر وغيرها مما يحمل من تلك البلاد، فلما فارقوها عادوا الى بلادهم، واتصلت الطريق، وحملت الأمتعة كما كانت هذا اخبار التتر المغربة قد ذكرناها سياقة واحدة لئلا تنقطع.

ذكر ما فعله التتر بما وراء النهر بعد بخارى وسمرقند

قد ذكرنا ما فعله التتر المغربة التي سيرهـا ملكهم جنكزخـان ـ لعنه الله ـ إلى خوارزمشاه، وأما جنكزخان، فإنه بعد ان سيّر هذه الطائفة الى خوارزم شاه، وبعد

انهزام خوارزمشاه من خراسان، قسّم اصحابه عدّة أقسام، فسيَّر قسماً منها إلى بلاد فرغانة ليملكوها، وسيَّر قسماً آخر منها الى ترمذ، وسيَّر قسما منها الى كلابة، وهي قلعة حصينة على جانب جيحون من أحصن القلاع وامنع الحصون، فسارت كل طائفة إلى الجهة التي أمرت بقصدها، ونازلتها واستولت عليها وفعلت من القتل والأسر والسبي والنهب والتخريب وانواع الفساد مثل ما فعل اصحابهم، فلمّا فرغوا من ذلك عادوا الى ملكهم جنكزخان، وهو بسمرقند فجهّز جيشاً عظيماً مع احد اولاده وسيّره الى خوارزم، وسيَّر جيشاً آخر فعبروا جيحون الى خراسان.

ذكر ملك التتر خراسان

لمّا سار الجيش المنفذ الى خراسان عبروا جيحون، وقصدوا مدينة بلخ، فطلب أهلها الأمان، فأمنوهم فسلم البلد سنة سبع عشرة وستمائة، ولم يتعرضوا اليه بنهب، ولا قتل بل جعلوا فيه شحنة، وساروا وقصدوا الزوزان وسميند واندخوي وقاريات، فملكوا الجميع، وجعلوا فيه ولاة، ولم يتعرضوا الى اهلها بسوء ولا اذى، سوى أنهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم، حتى وصلوا الى الطالقان، وهي ولاية تشتمل على عدة بلاد، وفيها قلعة حصينة، يقال لها: منصوركوه لا ترام علواً وارتفاعا، وبها رجال يقاتلون شجعان، فحصروها مدة ستة اشهر يقاتلون اهلها ليلاً ونهاراً، ولا يظفرون منها بشيء، فأرسلوا الى جنكزخان يعرفونه بعجزهم عن ملك هذه القلعة لكثرة من فيها من المقاتلة ولامتناعها بحصانتها، فسار بنفسه، وبمن عنده من جموعه اليهم، وحصرها ومعه خلقٌ كثيرٌ من المسلمين اسرى، فأمرهم بمباشرة القتال، وإلا قتلهم، فقاتلوا معه، وأقام عليها أربعة أشهر أخرى، فقتل من التتر عليها خلق كثير، فلما رأى ملكهم ذلك أمر أن يجمع له من الحطب والأخشاب ما امكن جمعه، ففعلوا ذلك، وصاروا يعملون صفا من خشب، وفوقه صفا من تراب، فلم يزالوا كذلك حتى صار تلا عالياً يوازي القلعة فاجتمع من بها، وفتحوا بابها، وخرجوا منها، وحملوا حملة رجل واحد، فسلم الخيالة منهم ونجوا وسلكوا تلك الجبال والشعاب، واما الرجالة فقتلوا، ودخل التتر القلعة وسبوا النساء والأطفال، ونهبوا الأموال والأمتعة، ثم إن جنكزخان جمع أهل البلاد التي اعطاهم الأمان ببلخ وغيرها وسيَّرهم مع بعض أولاده الى مدينة مرو، فدخلوا إليها، وقد اجتمع بها من الأعراب والأتراك وغيرهم ممن نجا

من المسلمين ما يزيد على مائتي ألف رجل وهم معسكرون بظاهر مرو، وهم عازمون على لقاء التتر ويحدثون نفوسهم بالغلبة لهم والاستيلاء عليهم، فلما وصل التتر إليهم التقوا واقتتلوا، فصبر المسلمون، وأما التتر فلا يعرفون الهزيمة حتى ان بعضهم أسر، فقال وهو عند المسلمين: إن قيل إن التتر يقتلون فصدقوا، وإن قيل إنهم ينهزمون فلا تصدقوا، فلما رأى المسلمون صبر التتر واقدامهم ولوا منهزمين، فقتل التتر منهم وأسروا الكثير، ولم يسلم إلا القليل، ونهبت اموالهم وسلاحهم ودوابهم.

وأرسل التتر الى ما حولهم من البلاد يجمعون الرجال لحصار مرو، فلما اجتمع لهم ما ارادوا تقدَّموا الى مرو وحصروها، وجدوا في حصرها ولازموا القتال، وكان اهل البلد قد ضعفوا بانهزام ذلك العسكر، وكثرة القتل والأسر فيهم، فلما كان اليوم الخامس من نزولهم ارسل التتر الى الأمير الذي بها متقدما على من فيها يقولون له: لا تهلك نفسك وأهل البلد، واخرج الينا فنحن نجعلك امير هذه البلدة، ونرحل عنك، فأرسل يطلب الأمان لنفسه ولأهل البلد، فأمنهم فخرج اليهم فخلع عليه ابن جنكزخان واحترمه، وقال له: اريد ان تعرض على اصحابك حتى تنظر من يصلح لخدمتنا استخدمناه وأعطيناه اقطاعا ويكون معنا، فلما حضروا عنده وتمكّن منهم قبض عليهم وعلى أميرهم وكتفوهم، فلما فرغ منهم قال لهم: اكتبوا الى تجار البلد ورؤسائه وأرباب الأموال في جريدة، واكتبوا الى ارباب الصناعات والحرف في نسخة اخرى، واعرضوا ذلك علينا، ففعلوا ما امرهم، فلما وقف على النسخ أمر ان يخرج أهل البلد منه بأهلهم، فخرجوا كلهم، ولم يبق فيه احد، فجلس على كرسي من ذهب، وأمر ان يحضر أولئك الأجناد الذين قبض عليهم، فأحضروا وضربت رقابهم صبرا، والناس ينظرون إليهم ويبكون.

وأما العامة فإنَّهم قسموا الرجال والنساء والأطفال، فكان يوماً مشهوداً من كثرة الصراخ والبكاء والعويل، وأخذوا ارباب الأموال، فضربوهم وعذبوهم بأنواع العقوبات في طلب الأموال، فربما مات احدهم من شدة الضرب، ولم يكن بقي له ما يفتدي به نفسه، ثم انهم احرقوا البلد، وأحرقوا تربة السلطان سنجر، ونبشوا القبر طلباً للمال، فبقوا كذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع أمر بقتل أهل البلد كافة، وقال هؤلاء عصوا علينا فقتلوهم اجمعين، وأمر باحصاء القتلى، فكانوا نحو سبعمائة الف قتيل، فإنا لله

وإنا اليه راجعون ممّا جرى على المسلمين ذلك اليوم، ثم ساروا الى نيسابور فحصروها خمسة أيام، وبها جمع صالح من العسكر الإسلامي، فلم يكن لهم بالتتر قوة فملكوا المدينة، وأخرجوا أهلها إلى الصحراء، فقتلوهم وسبوا حريمهم وعاقبوا من اتهموه بمال كما فعلوا بمرو، وأقاموا خمسة عشر يوماً يخربون ويفتشون المنازل عن الأموال، وكانوا لما قتلوا أهل مرو قيل لهم ان قتلاهم سلم منهم كثير، ونجوا الى بلاد الإسلام فأمروا بأهل نيسابور ان تقطع رؤوسهم لئلا يسلم من القتل أحد فلما فرغوا من ذلك سيروا طائفة منهم الى طوس، ففعلوا بها كذلك أيضاً وخربوها، وخربوا المشهد الذي فيه الامام علي بن موسى الرضا (ع) والرشيد حتى جعلوا الجميع خراباً، ثم ساروا الى هراة، وهي من احصن البلاد، فحصروها عشرة أيام، فملكوها وأمنوا اهلها، وقتلوا منهم البعض، وجعلوا عند من سلم منهم شحنة وساروا الى غزنة فلقيهم جلال الدين ابن خوارزم شاه، فقاتلهم وهزمهم ـ على ما نذكره إن شاء الله ـ فوثب اهل هراة على الشحنة فقتلوه، فلما عاد المنهزمون إليهم دخلوا البلد قهراً وعنوةً، وقتلوا كل من فيه، ونهبوا الأموال، وسبوا الحريم، ونهبوا السواد، وخربوا المدينة جميعها، وأحرقوها، وعادوا الى ملكهم جنكزخان، وهو بالطالقان يرسل السرايا الى جميع بلاد خراسان، ففعلوا بها كذلك، ولم يسلم من شرهم وفسادهم شيء من البلاد، وكان جميع ما فعلوه بخراسان سنة سبع عشرة.

ذكر ملكهم خوارزم وتخريبها

واما الطائفة من الجيش التي سيرها جنكزخان الى خوارزم، فإنها كانت اكثر السرايا جميعها لعظم البلد، فساروا حتى وصلوا الى خوارزم وفيها عسكر كبير، وأهل البلد معروفون بالشجاعة والكثرة، فقاتلوهم اشد قتال سمع به الناس، ودام الحصر لهم خمسة اشهر، فقتل من الفريقين خلق كثير إلا أن القتلى من التتر كانوا اكثر لأن المسلمين كان يحميهم السور، فأرسل التتر الى ملكهم جنكزخان يطلبون المدد، فأمدّهم بخلق كثير فلما وصلوا إلى البلد زحفوا زحفاً متتابعاً، فملكوا طرفاً منه، فاجتمع أهل البلد وقاتلوهم في طرف الموضع الذي ملكوا، فلم يقدروا على افراجهم، ولم يزالوا يقاتلونهم، والتتر يملكون منهم محلّة بعد محلة، وكلما ملكوا محلة قاتلهم المسلمون في المحلّة التي تليهم، فكان الرجال والنساء

والصبيان يقاتلون، فلم يزالوا كذلك حتى ملكوا البلد جميعه ، وقتلوا كل من فيه، ونهبوا كل ما فيه، ثم إنهم فتحوا السكر الذي يمنع ماء جيحون عن البلد، فدخله الماء فغرق البلد جميعه، وتهدمت الابنية، وبقي موضعه مـاء ولم يسلم من اهله احد البتة، فإن غيره من البلاد قد كان يسلم بعض اهله، منهم من يختفي ومنهم من يهرب ومنهم من يخرج ثم يسلم، ومنهم من يلقي نفسه بين القتلى فينجو، وأما أهل خوارزم فمن اختفى من التتر غرقه الماء او قتله الهدم، فأصبحت خراباً يبابا:

كأن لم يكنْ بين الحجُونِ إلى الصَفَا أنـيسٌ ولم يُـسْمِـرْ بـمـكّـةَ سَـامـرُ

وهذا لم يسمع بمثله في قديم الزمان وحديثه، نعوذ بالله من الخور بعد الكور، ومن الخذلان بعد النصر، فلقد عمَّت هذه المصيبة الإسلام وأهله، فكم من قتيل من أهل خراسان وغيرها لأن القاصدين من التجـار وغيرهم كـانوا كثيـرا مضى الجميع تحت السيف، ولما فرغوا من خراسان وخوارزم، عادوا الى ملكهم بالطالقان.

ذكر ملك التتر غزنة وبلاد الغور

لمّا فرغ التتر من خرسان، وعادوا الى ملكهم جيشاً كثيفاً، وسيّره الى غزنة، وبها جلال الدين بن خوارزمشاه مالكاً لها، وقد اجتمع إليه من سلم من عسكر أبيه قيل كانوا ستين الفاً، فلما وصلوا الى اعمال غزنة خرج إليهم المسلمون مع ابن خوارزمشاه الى موضع يقال له: بلق فالتقوا هناك واقتتلوا قتالا شديداً، وبقوا كذلك ثلاثة أيام، ثم أنزل الله نصره الى المسلمين، فانهزم التتر، وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا، ومن سلم منهم عاد إلى ملكهم بالطالقان، فلما سمع أهل هراة بذلك ثاروا بالوالي الذي عندهم للتتر فقتلوه، فسير إليهم جنكزخان عسكراً،فملكوا البلد وخربوه، كما ذكرناه، فلما انهزم التتر أرسل جلال الدين رسولاً إلى جنكزخان يقول له: في أي موضع تـريد يكون الحرب حتى نأتي اليه؟ فجهز جنكزخان عسكراً كثيراً اكثر من الأول مع بعض أولاده، وسيره اليه، فوصل الى كابل، فتوجه العسكر الإسلامي اليهم، وتصافوا هناك، وجرى بينهم قتال عظيم، فانهزم الكفار ثانياً، فقتل كثير منهم، وغنم المسلمون ما معهم، وكان عظيماً، وكان معهم من أسارى المسلمين خلق كثير، فاستنقذوهم، ثم ان المسلمين جرى بينهم فتنة لأجل الغنيمة، وسبب ذلك ان اميراً منهم يقال له: سيف الدين بغراق أصله

من الأتراك الخلج ، كان شجاعاً مقداماً ذا رأي في الحرب ومكيدة، واصطلى الحرب مع التتر بنفسه، وقال لعسكر جلال الدين تأخَّروا أنتم فقد ملئتم منهم رعباً، وهو الذي كسر التتر على الحقيقة.

وكان من المسلمين أيضاً أمير كبير يقال له : ملك خان بينه وبين خوارزمشاه نسب، وهو صاحب هراة، فاختلف هذان الأميران في الغنيمة، فاقتتلوا فقتل بينهم أخ لبغراق، فقال بغراق: أنا اهزم الكفار ويقتل أخي لأجل هذا السحت، فغضب وفارق العسكر، وسار الى الهند، فتبعه من العسكر ثلاثون ألفاً كلّهم يريدونه، فاستعطفه جلال الدين بكل طريق، وسار بنفسه إليه وذكَّره الجهاد، وخوفه من الله تعالى، وبكى بين يديه، فلم يرجع وسار مفارقاً، فانكسر لذلك المسلمون وضعفوا، فبينما هم كذلك اذ ورد الخبر أن جنكزخان قد وصل في جموعه وجيوشه، فلما رأى جلال الدين ضعف المسلمين لأجل من فارقهم من العسكر، ولم يقدر على المقام سار نحو بلاد الهند، فوصل إلى ماء السند، وهو نهر كبير، فلم يجد من السفن ما يعبر فيه، وكان جنكزخان يقص أثره مسرعاً، فلم يتمكن جلال الدين من العبور حتى ادركه جنكزخان في التتر، فاضطر المسلمون حنيئذ إلى القتال والصبر لتعذر العبور عليهم، وكانوا في ذلك كالأشقر ان تقدم ينحر وان تأخر يعقر، فتصافوا واقتتلوا أشد قتال اعترفوا كلهم ان كل ما مضى من الحروب كان لعباً بالنسبة إلى هذا القتال، فبقوا كذلك ثلاثة أيام، فقتل الأمير ملك خان المقدَّم ذكره، وخلق كثير، وكان القتل في الكفار اكثر، والجراح اعظم، فرجع الكفار عنهم فأبعدوا ونزلوا، فلما رأى المسلمون انهم لا مدد لهم، وقد ازدادوا ضعفا بمن قتل منهم وجرح، ، ولم يعلموا بما أصاب الكفار من ذلك، فأرسلوا يطلبون السفن فوصلت وعبر المسلمين ليقضي الله امرا كان مفعولاً، فلما كان الغد عاد الكفار الى غزنة وقد قويت نفوسهم بعبور المسلمين الماء الى جهة الهند وبعدهم، فلما وصلوا اليها ملكوها لوقتها لخلوها من العساكر والمحامي، فقتلوا اهلها ونهبوا الأموال، وسبوا الحريم، ولم يبق احد، وخربوها وأحرقوها، وفعلوا بسوادها كذلك، ونهبوا وقتلوا وأحرقوا، فأصبحت تلك الأعمال جميعها خالية من الأنيس خاوية على عروشها، كأن لم تغن بالأمس.

ذكر تسليم الأشرف خلاط الى اخيه شهاب الدين غازي

أواخر هذه السنة اقطع الملك الأشرف موسى بن العادل مدينة خلاط، وجميع الأعمال ارمينية، ومدينة ميافارقين من ديار بكر، ومدينة حابي أخاه شهاب الدين غازي ابن العادل، وأخذ منه مدينة الرها، ومدينة سروج من بلاد الجزيرة وسيره الى خلاط أول سنة ثمان عشرة وستمائة، وسبب ذلك ان الكرج لما قصد التتر بلادهم، وهزموهم ونهبوها، وقتلوا كثيراً من اهلها ارسلوا الى أوزبك صاحب اذربيجان واران يطلبون منه المهادنة والموافقة على دفع التتر وأرسلوا الى الملك الأشرف في هذا المعنى، وقالوا للجميع: إن لم توافقونا على قتال هؤلاء القوم، ودفعهم عن بلادنا، وتحضروا بنفوسكم وعساكركم لهذا المهم وإلا صالحناهم عليكم، فوصلت رسلهم الى الاشرف وهو يتجهز الى الديار المصرية لأجل الفرنج، وكانوا عنده أهم الوجوه لأسباب، أولها ان الفرنج كانوا قد ملكوا دمياط، وقد أشرفت الديار المصرية على أن تملك، فلو ملكوها لم يبق بالشام ولا غيره معهم ملك لأحد، وثانيها أن الفرنج أشدُّ شكيمة، وطالبو ملك فإذا ملكوا قرية لا يفارقونها إلا بعد أن يعجزوا عن حفظها يوماً واحد، وثالثها أن الفرنج قد طمعوا في كرسي مملكة البيت العادلي، وهي مصر، والتتر لم يصلوا إليها ولم يجاوزوا شيئاً من بلادهم، وليسوا أيضاً ممن يريد المنازعة في الملك، وما غرضهم إلا النهب والقتل وتخريب البلاد والانتقال من بلد إلى آخر، فلما أتاه رُسُلُ الكُرج بما ذكرناه أجابهم يتعذر بالمسير إلى مصر لدفع الفرنج، ويقول لهم: إنني قد أقطعت ولاية خلّاط لأخي وسيرته إليها ليكون بالقرب منكم وتركت عنده العساكر فمتى احتجتم إلى نصرته حضر لدفع التتر، وسار هو إلى مصر كما ذكرناه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في ربيع الآخر، ملك بدر الدين قلعة تل اعفر.

وفيها في جمادى الأولى ملك الأشرف مدينة سنجار.

وفيها أيضاً وصل الموصل، وأقام بظاهرها، ثم سار يريد إربل لقصد صاحبها، فتردّدت الرسل بينهم في الصلح، فاصطلحوا في شعبان، وقد تقدم هذا جميعه مفصلاً

سنة خمس عشرة وستمائة.

وفيها وصل التتر الري فملكوها وقتلوا كل من فيها ونهبوها، وساروا عنها فوصلوا الى همذان، فلقيهم رئيسها بالطاعة والحمل، فأبقوا على أهلها وساروا الى أذربيجان، فخربوا وحرقوا البلاد، وقتلوا وسبوا، وعملوا ما لم يسمع بمثله، وقد تقدم أيضاً مفصلاً.

وفيها توفي نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي الذي كان وزير الخليفة وصلي عليه بجامع القصر، وحضره أرباب الدولة ودفن بالمشهد.

وفيها توفي صدر الدين ابو الحسن محمد بن عمر بن حموية الجويني شيخ الشيوخ بمصر والشام وكان موته بالموصل وردها رسولاً، وكان فقيهاً فاضلاً وصوفياً صالحاً من بيت كبير من خراسان ـ رحمه الله ـ كان نعم الرجل.

وفيها عاد جمع بني معروف الى مواضعهم من البطيحة، وكانوا قد ساروا الى الاجنا والقطيف، فلم يمكنهم المقام لكثرة اعدائهم، فقصدوا شحنة البصرة، وطلبوا منه ان يكاتب الديوان ببغداد بالرضا عنهم، فكتب معهم بذلك، وسيرهم مع اصحابه الى بغداد، فلما قاربوا واسط لقيهم قاصد من الديوان بقتلهم فقتلوا.

ثم دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة

ذكر وفاة قتادة امير مكة وملك ابنه الحسن وقتل أمير الحاج

في هذه السنة في جمادى الآخرة، توفّي قتادة بن ادريس العلوي، ثم الحسيني امير مكة حرسها الله، وكان عمره نحو سبعين سنة، وكانت ولايته قد اتسعت من حدود اليمن الى مدينة النبي ـ ﷺ ـ وله قلعة ينبع بنواحي المدينة، وكثر عسكره، واستكثر من المماليك، وخافه العرب في تلك البلاد خوفاً عظيماً، وكان أوّل ملكه لمّا ملك مكة حرسها الله ـ حسن السيرة، وأزال عنها العبيد المفسدين، وحمى البلاد، وأحسن إلى الحجاج وأكرمهم، وبقي كذلك مدَّة ثم إنه بعد ذلك اساء السيرة، وجدّد المكوس بمكّة، وفعل افعالاً شنيعة، ونهب الحاج في بعض السنين ـ كما ذكرناه ـ، ولمّا مات ملك بعده ابنه الحسن، وكان له ابن آخر اسمه راجح مقيم في العرب بظاهر مكة، يفسد وينازع اخاه في مسلكه، فلما سار حاج العراق كان الأمير عليهم مملوكاً من مماليك الخليفة الناصر لدين الله اسمه اقباش، وكان حسن السيرة مع الحاج في الطريق كثير الحماية، فقصده راجح بن قتادة، وبذل له وللخليفة مالاً ليساعده على ملك مكة، فأجابه الى ذلك، ووصلوا الى مكة، ونزلوا بالزاهر، وتقدَّم الى مكة مقاتلاً لصاحبها حسن، وكان حسن قد جمع جموعاً كثيرة من العرب وغيرها فخرج إليه من مكة وقاتله، وتقدم أمير الحاج من بين يدي عسكره منفرداً وصعد الجبل إذلالاً بنفسه، وانه لا يقدم احد عليه، فأحاط به اصحاب حسن وقتلوه، وغلقوا رأسه، فانهزم عسكر امير المؤمنين، واحاط اصحاب حسن بالحاج لينهبوهم، فأرسل اليهم حسن عمامته أماناً للحجاج، فعاد اصحابه ولم ينهبوا منهم شيئاً، وسكن الناس، وأذن لهم حسن في دخول مكة، وفعل ما يريدونه من الحج والبيع وغير ذلك، واقاموا بمكة عشرة ايام، وعادوا فوصلوا الى العراق سالمين، وعظم الأمر على الخليفة، فوصلت رسل حسن يعتذرون، ويطلبون العفو عنه فأجيب الى ذلك.

وقيل في موت قتادة أن ابنه حسن خنقه ، فمات ، وسبب ذلك أن قتادة جمع جموعاً كثيرة ، وسار عن مكّة يريد المدينة ، فنزل بوادي الفرع وهو مريض ، وسيَّر أخاه على الجيش ومعه ابنه الحسن بن قتادة ، فلما ابعدوا بلغ الحسن أن عمَّه، قال لبعض الجند : إن أخي مريض ، وهو ميت لا محالة، وطلب منهم ان يحلفوا له ليكون هو الأمير بعد أخيه قتادة، فحضر الحسن عند عمِّه واجتمع إليه كثير من الأجناد والمماليك الذين لأبيه، فقال الحسن لعمه: قد فعلت كذا وكذا، فقال: لم افعل فأمر حسن الحاضرين بقتله، فلم يفعلوا: وقالوا: أنت أمير وهذا أمير، ولا نمد ايدينا الى احد كما قال له غلامان لقتادة: نحن عبيدك، فمرنا بما شئت، فأمرهما أن يجعلا عمامة عمه في عنقه ففعلا ثم قتله، فسمع قتادة الخبر، فبلغ منه الغيظ كل مبلغ، وحلف ليقتلن ابنه، وكان على ما ذكرناه من المرض، فكتب بعض اصحابه الى الحسن يعرفه الحال، ويقول له: ابدأ به قبل ان يقتلك، فعاد الحسن الى مكة، فلما وصلها قصد دار أبيه في نفر يسير، فوجد على باب الدار جمعاً كثيراً، فأمرهم بالانصراف الى منازلهم، ففارقوا الدار، وعادوا الى مساكنهم، ودخل الحسن إلى أبيه، فلما رآه أبوه شتمه وبالغ في ذمه وتهديده، فوثب اليه الحسن، فخنقه لوقته وخرج الى الحرم الشريف. واحضر الأشراف وقال: ان أبي قد اشتد مرضه وقد أمركم ان تحلفوا لي ان اكون انا اميركم فحلفوا له، ثم إنه أظهر تابوتا ودفنه ليظنَّ الناس انه مات وكان قد دفنه سرًّا، فلما استقرت الامارة بمكة له ارسل الى اخيه الذي بقلعة الينبع على لسان أبيه يستدعيه ، وكتم موت أبيه عنه ، فلما حضر أخوه قتله أيضاً ، واستقر أمره ، وثبَّت قدمه وفعل بأمير الحاج ـ ما تقدَّم ذكره ـ فارتكب عظيماً قتل أباه وعمه وأخاه في أيام يسيرة ، لا جرم لم يمهله الله سبحانه وتعالى ، نزع ملكه وجعله طريداً شريداً خائفاً يترقب . وقيل : إن قتادة كان يقول شعراً ، فمن ذلك انه طلب ليحضر عند أمير الحاج كما جرت عادة أمراء مكة فامتنع ،فعوتب من بغداد ، فأجاب بأبيات شعر منها :

وَلِي كفٌّ ضرغامٍ أدلُّ ببَطْشِهَا ... وأَشرِي بهَا بينَ الورى وأبيعُ
تظلُّ ملوكُ الأرضِ تلثمُ ظَهرَهَا ... وفي سطحِهَا للمَجْد بينَ ربيعُ
أأجعَلُهَا تحتَ الرَحا ثمَّ أبتغي ... خلاصاً لَهَا إني إذا لرقيعُ
وما أنا إلّا المسكُ في كلِّ بلدةٍ ... يَضُوعُ، وأمَّا عندَكم فيضيعُ

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة استعاد المسلمون مدينة دمياط بالديار المصرية من الفرنج، وقد تقدم ذكرها مشروحاً مفصلاً.

وفيها في صفر ملك التتر مراغة وخرّبوها واحرقوها وقتلوا اكثر اهلها، ونهبوا أموالهم، وسبوا حريمهم، وسار التتر منها الى همذان وحصروها، فقاتلهم اهلها، وظفر بهم التتر، وقتلوا منهم ما لا يحصى، ونهبوا البلد وساروا إلى أذربيجان، فأعادوا النهب، ونهبوا ما بقي من البلاد، ولم ينهبوه أولاً، ووصلوا الى بيلقان من بلاد اران، فحصروها وملكوها، وقتلوا اهلها حتى كادوا يفنونهم، وقتل منهم كثير، ونهبت اموالهم، وأكثر بلادهم، وقصدوا دربندشروان، فحصروا مدينة شماخي وملكوها، وقتلوا كثيراً من أهلها، وساروا الى بلد اللان واللكز ومن عندهم من الأمم، فأوقعوا ورحلوا عن قفجاق، وأجلوهم عنهم، واستولوا عليها، وساحوا في تلك الأرض حتى وصلوا الى بلاد الروس، وقد تقدم ذكر جميعه مستقصى، وإنما أوردناه ههنا جملة ليعلم الذي كان في هذه السنة من حوادثهم.

وفيها توفي صديقنا أمين الدين ياقوت الكاتب الموصلي، ولم يكن في زمانه من يكتب ما يقاربه، ولا من يؤدي طريقة ابن البواب مثله، وكان ذا فضائل جمّة من علم الأدب وغيره، وكان كثير الخير، نعم الرجل مشهوراً في الدنيا، والناس متفقون على الثناء الجميل عليه والمدح له، ولهم فيه أقوال كثيرة نظما ونثراً، فمن ذلك ما قاله نجيب الدين الحسين بن علي الواسطي من قصيدة يمدحه بها:

جامعُ شارد العلوم ولَوْلاَ ... ه لَكَانَت الفَضَائِل ثَكْلَى
ذو يراع تخافُ سطوتهُ الأُسْدُ وتَعْنو لَهُ الكتائبُ ذلا
وإذا افترَّ ثَغْرُهُ عن سوادٍ ... في بَيَاضٍ فالبيضُ والسُمْرُ خجلَى
أنت بدرٌ والكاتبُ بن هِلال ... كأبِيهِ لا فَخْرَ فيمن تولَّى

ومنها:

إن يكنْ أولاً فإنَّك بالتفضِيل أولى لقدْ سبقْتَ وصَلَّى

وهي طويلة، والكاتب بن هلال هو ابن البواب الذي هو أشهر من أن يعرف.

وفيها توفّي جلال الدين الحسن، وهو من أولاد الحسن بن الصباح الذي تقدّم ذكره صاحب الموت وكردكوه، وهو مقدَّم الاسماعيلية، وقد ذكرنا أنه كان قد اظهر شريعة الإسلام من الأذان والصلاة، وولي بعده ابنه علاء الدين محمد.

ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمائة

ذكر خروج طائفة من قفجاق إلى أذربيجان وما فعلوه بالكرج وما كان منهم

لما استولى التتر على أرض قفجاق، تفرَّق قفجاق، فطائفة قصدت بلاد الروس، وطائفة تفرقت في جبالهم، واجتمع طائفة كثيرة منهم، وساروا الى دربند شروان، وأرسلوا الى صاحبه، واسمه رشيد، وقالوا له: إن التتر قد ملكوا بلادنا ونهبوا أموالنا، وقد قصدناك لنقيم في بلادك، ونحن مماليك لك، ونفتح البلاد لك، وأنت سلطاننا، فمنعهم من ذلك وخافهم، فأعادوا الرسالة إليه إننا نحن نرهن عندك أولادنا ونساءنا، على الطاعة والخدمة لك والانقياد لحكمك، فلم يجبهم الى ما طلبوا، فسألوه ان يمكنهم ليتزودوا من بلده تدخل عشرة عشرة، فإذا اشتروا ما يحتاجون إليه فارقوا بلاده، فأجابهم إلى ذلك، فصاروا يدخلون متفرقين ويشترون ما يريدون، ويخرجون، ثم إن بعض كبرائهم والمقدَّمين منهم جاء الى رشيد، وقال: إنني كنت في خدمة السلطان خوارزمشاه وأنا مسلم، والدين يحملني على نصحك، اعلم ان قفجاق اعداؤك، ويريدون الغدر بك، فلا تمكنهم من المقام ببلادك، فاعطني عسكراً حتى أقاتلهم وأخرجهم من البلاد، ففعل ذلك، وسلم اليه طائفة من عسكره واعطاهم ما يحتاجون من سلاح وغيره، فساروا معه فأوقعوا بطائفة من قفجاق فقتل منهم جماعة ونهب منهم، فلم يتحرك قفجاق لقتال بل قالوا نحن مماليك الملك شروان شاه رشيد، ولولا ذلك لقاتلنا عسكره، فلما عاد ذلك المقدم القفجاقي ومعه عسكر رشيد سالمين فرح بهم، ثم ان قفجاق فارقوا موضعهم، فساروا ثلاثة أيام، فقال ذلك القفجاقي لرشيد: أريد عسكرا اتبعهم، فأمر له من العسكر بما أراد، فسار يقفو أثر القفجاقي، فأوقع بأواخرهم وغنم منهم.

وقصده جمع كثير من قفجاق من الرجال والنساء يبكون، وقد جزوا شعورهم،

ومعهم تابوت، وهم محيطون به يبكون حوله، وقالوا له إن صديقك فلاناً قد مات، وقد أوصى ان نحمله إليك فتدفنه في أيِّ موضع شئت، ونكون نحن عندك فحمله معه والذين يكون عليه أيضاً وعاد الى شروان شاه رشيد وأعلمه أن الميت صديق له وقد حمله معه وقد طلب أهله ان يكونوا عنده في خدمته، فأمر أن يدخلوا البلد وأنزلهم فيه فكان أولئك الجماعة يسيرون مع ذلك المقدم، ويركبون بركوبه، ويصعدون معه الى القلعة التي لرشيد ويقعدون عنده، ويشربون معهم ونساؤهم، فأحب رشيد امرأة ذلك الرجل الذي قيل له انه ميت، ولم يكن مات، وإنما فعلوا هكذا مكيدة حتى دخلوا البلد والذي أظهروا موته معهم في المجلس، ولا يعرفه رشيد هو من أكبر مقدمي قفجاق، فبقوا كذلك عدَّة أيام، فكل يوم يجيء جماعة من قفجاق متفرقين، فاجتمع بالقلعة منهم جماعة وأرادوا قبض رشيد وملك بلاده، ففطن لذلك، فخرج عن القلعة من باب السر، وهرب ومضى إلى شروان، وملك قفجاق القلعة، وقالوا لأهل البلد: نحن خير لكم من رشيد، وأعادوا باقي أصحابهم اليهم وأخذوا السلاح الذي في البلد جميعه، واستولوا على الأموال التي كانت لرشيد في القلعة، ورحلوا عن القلعة، وقصدوا قبلة، وهي للكرج، فنزلوا عليها وحصروها، فلما سمع رشيد بمفارقتهم القلعة رجع اليها وملكها وقتل من بها من قفجاق، ولم يشعر القفجاق الذين عند قبلة بذلك، فأرسلوا طائفة منهم الى القلعة، فقتلهم رشيد أيضا، فبلغ الخبر الى القفجاق، فعادوا الى دربند، فلم يكن لهم في القلعة طمع، وكان صاحب قبلة لما كانوا يحصرونه قد أرسل إليهم، وقال لهم: أنا أرسل الى ملك الكرج حتى يرسل اليكم الخلع والأموال، ونجتمع نحن وأنتم، ونملك البلاد، فكفوا عن نهب ولايته أياماً، ثم انهم مدّوا ايديهم بالنهب والفساد ونهبوا بلاد قبلة جميعها، وساروا الى قريب كنجة من بلاد أرادن، وهي للمسلمين، فنزلوا هناك، فأرسل اليهم الأمير بكنجة، وهو مملوك لأوزبك صاحب أذربيجان اسمه كوشخرة عسكراً، فمنعهم من الوصول الى بلاده وسيَّر رسولاً إليهم يقول لهم: غدرتم بصاحب شروان واخذتم قلعته، وغدرتم بصاحب قبلة ونهبتم بلاده، فما يثق بكم أحد، فأجابوا أننا ما جئنا الا قصداً لخدمة سلطانكم، فمنعنا شروان شاه عنكم، فلهذا قصدنا بلاده وأخذنا قلعته، ثم تركناها من غير خوف، وأما صاحب قبلة، فهو عدو لكم، ولو أردنا أن نكون عند الكرج لما كنا جعلنا طريقنا على دربندشروان، فإنَّه اصعب واشق وأبعد وكنا جئنا الى بلادهم على عادتنا، ونحن نوجه الرهائن اليكم، فلما سمع هذا سار

اليهم، فسمع به قفجاق، فركب اميران منهم هما مقدماهم في نفر يسير، وجاؤوا اليه ولقوه وخدموه، وقالوا له: قد اتيناك جريدة في قلّة من العدد لتعلم أننا ما قصدنا إلا الوفاء والخدمة لسلطانكم، فأمرهم كوشخرة بالرحيل والنزول عند كنجة، وتزوج ابنة احدهم، وأرسل الى صاحبه أوزبك يعرفه حالهم، فأمر لهم بالخلع والنزول بجبل كيلكون، ففعلوا ذلك وخافهم الكرج، فجمعوا لهم ليكبسوهم، فوصل الخبر بذلك إلى كوشخرة أمير كنجة، فأخبر قفجاق وأمرهم بالعود والنزول عند كنجة، فعادوا ونزلوا عندها، وسار امير من امراء قفجاق في جمع منهم الى الكرج، فكبسهم وقتل كثيراً منهم، وهزمهم وغنم ما معهم، واكثر القتل فيهم والأسر منهم، وتمت الهزيمة عليهم، ورجع قفجاق الى جبل كيلكون، فنزلوا فيه كما كانوا، فلما نزلوا اراد الأمير الآخر من أمراء قفجاق أن يؤثر في الكرج مثل ما فعل صاحبه فسمع كوشخرة، فأرسل إليه ينهاه عن الحركة إلى أن يكشف له خبر الكرج فلم يقف فسار الى بلادهم في طائفته ونهب وخرب، وأخذ الغنائم، فسار الكرج من طريق يعرفونها وسبقوه، فلما وصل اليهم قاتلوه وحملوا عليه وعلى من معه على غرّة وغفلة، فوضعوا السيف فيهم، وأكثروا القتل فيهم واستنقذوا الغنائم منه فعاد هو ومن معه على أقبح حالة وقصدوا برذعة، وأرسلوا إلى كوشخرة يطلبون ان يحضر عندهم هو بنفسه وعسكره ليقصدوا الكرج، فيأخذوا بثأرهم منهم، فلم يفعل وأخافهم، وقال: انتم خالفتموني وعملتم برأيكم، فلا انجدكم بفارس واحد، فأرسلوا يطلبون الرهائن الذين لهم، فلم يعطهم، فاجتمعوا واخذوا كثيرا من المسلمين عوضا من الرهائن، فثار بهم المسلمون من اهل البلاد، وقاتلوهم، فقتلوا منهم جماعة كثيرة، فخافوا وساروا نحو شروان، وجازوا الى بلد اللكز، فطمع الناس فيهم المسلمون والكرج واللكز وغيرهم، فأفنوهم قتلا ونهباً وأسراً وسبياً، بحيث ان المملوك منهم كان يباع في دربند شروان بالثمن البخس.

ذكر نهب الكُرج بَيْلقان

في هذه السنة في شهر رمضان، سار الكرج من بلادهم الى بلاد أران، وقصدوا مدينة بيلقان، وكان التتر قد خربوها ونهبوها ـ كما ذكرناه قبل ـ فلما سار التتر إلى بلاد قفجاق عاد من سلم من اهلها اليها وعمروا ما أمكنهم عمارته من سورَها، فبينما هم كذلك اذا اتاهم الكرج، ودخلوا البلد وملكوه، وكان المسلمون في تلك البلاد ألفوا من

الكرج انهم إذا ظفروا ببلد صانعوهم بشيء من المال، فيعودون عنهم، فكانوا احسن الأعداء مقدرة، فلما كان هذه الدفعة ظنّ المسلمون انهم يفعلون مثل ما تقدم، فلم يبالغوا في الامتناع منهم ولا هربوا من بين أيديهم، فلما ملك الكرج المدينة وضعوا السيف في أهلها وفعلوا من القتل والنهب ما فعل بهم التتر، هذا جميعه يجري وصاحب بلاد أذربيجان أوزبك بن البهلوان بمدينة تبريز، ولا يتحرك في صلاح، ولا يتجه لخير بل قد قنع بالأكل وادمان الشرب والفساد، فقبحه الله، ويسر للمسلمين من يقوم بنصرهم وحفظ بلادهم بمحمَّد وآله.

ذكر ملك بدر الدين قلعة شوش

في هذه السنة ملك بدر الدين صاحب الموصل قلعة شوش من اعمال الحميدية، وبينها وبين الموصل اثنا عشر فرسخاً، وسبب ذلك انها كانت هي وقلعة العقر متجاورتين لعماد الدين زنكي بن أرسلانشاه، وكان بينهما من الخلف ما تقدم ذكره، فلما كان هذه السنة سار زنكي الى اذربيجان ليخدم صاحبها أوزبك بن البهلوان، فاتصل به، وصار معه واقطعه اقطاعات وأقام عنده، فسار بدر الدين إلى قلعة شوش، فحاصرها وضيَّق عليها، وهي على رأس جبل عال، فطال مقامه عليها لحصانتها، فعاد الى الموصل وترك عسكره محاصراً لها، فلما طال الأمر على من بها ولم يروا من يرحله عنهم ولا من ينجدهم سلَّموها على قاعدة استقرَّت بينهم من اقطاع وخلع وغير ذلك، فتسلمها نوابه في التاريخ، ورتبوا أمورها، وعادوا الى الموصل.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في العشرين من شعبان ظهر كوكب في السماء في الشرق كبير له ذؤابة طويلة غليظة، وكان طلوعه وقت السحر، فبقي كذلك عشرة أيام، ثم انه ظهر اول الليل في الغرب مما يلي الشمال، فكان كل ليلة يتقدم الى جهة الجنوب نحو عشرة أذرع في رأي العين، فلم يزل يقرب من الجنوب حتى صار غرباً محضاً، ثم صار غرباً مائلاً الى الجنوب بعد ان كان غرباً مما يلي الشمال، فبقي كذلك الى آخر شهر رمضان من السنة ثم غاب.

وفيها توفّي ناصر الدين محمود بن محمد قزا أرسلان صاحب حصن كيفا وآمد، وكان ظالماً قبيح السيرة في رعيته، قيل: إنه كان يتظاهـر بمذهب الفـلاسفة في أن الأجساد لا تحشر، كذبوا لعنهم الله، ولما مات ملك ابنه الملك المسعود.

ثم دخلت سنة عشرين وستمائة

ذكر ملك صاحب اليمن مكة حرسها الله تعالى

في هذه السنة سار الملك المسعود اتسز بن الملك الكامل محمد صاحب مصر الى مكة، وصاحبها حينئذٍ حسن بن قتادة بن ادريس العلوي الحسيني قد ملكها بعد ابيه كما ذكرنا، وكان حسن قد أساء إلى الأشراف والمماليك الذين كانوا لأبيه، وقد تفرَّقوا عنه، ولم يبقَ عنده غير أخواله، من غيره، فوصل صاحب اليمن الى مكة ونهبها عسكره الى العصر، فحدثني بعض المجاورين المتأهلين أنهم نهبوها حتى أخذوا الثياب عن الناس وأفقروهم، وأمر صاحب اليمن أن ينبش قبر قتادة ويحرق فنبشوه، فظهر التابوت الذي دفنه ابنه الحسن، والناس ينظرون اليه، فلم يروا فيه شيئاً، فعلموا حينئذ ان الحسن دفن أباه سراً، وانه لم يجعل في التابوت شيئاً، وذاق الحسن عاقبة قطيعة الرحم، وعجل الله مقابلته، وأزال عنه ما قتل أباه وأخاه وعمه لأجله خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

ذكر حرب بين المسلمين والكرج بأرمينية

في هذه السنة في شعبان، سار صاحب قلعة سرماري، وهي من اعمال ارمينية الى خلاط لانه كان في طاعة صاحب خلاط، وهو حينئذٍ شهاب الدين غازي بن العادل أبي بكر بن ايوب، فحضر عنده؛ واستخلف ببلده اميراً من أمرائه، فجمع هذا الأمير جمعاً وسار الى بلاد الكرج، فنهب منها عدة قرى، وعاد فسمعت الكرج بذلك، فجمع صاحب دوين، واسمه شلوة، وهو من أكابر امراء الكرج عسكره، وسار الى سرماري، فحصرها أياماً ونهب بلدها وسوادها، ورجع فسمع صاحب سرماري الخبر، فعاد الى سرماري، فوصل إليها في اليوم الذي رحل الكرج عنها، فأخذ عسكره وتبعهم، فأوقع بساقنهم، فقتل منهم وغنم واستنقذ ما أخذوا من غنائم بلاده، ثم إن صاحب دوين جمع

عسكره، وسار الى سرماري ليحصرها، فوصل الخبر الى صاحبها بذلك، فحصنها وجمع الذخائر وما يحتاج إليه، فأتاه من اخبره ان الكرج نزلوا بواد بين دوين وسرماري، وهو وادٍ ضيق فسار بجميع عسكره جريدة، وجدَّ السير ليكبس الكرج، فوصل الى الوادي الذي هم فيه وقت السحر، ففرق عسكره فرقتين، فرقة من أعلى الوادي، وفرقة من أسفله، وحملوا عليهم، وهم غافلون ووضعوا السيف فيهم، فقتلوا وأسروا، فكان في جملة الأسرى شلوة أمير دوين في جماعة كثيرة من مقدميهم، ومن سلم من الكرج عاد الى بلدهم على حال سيئة، ثم إن ملك الكرج ارسل الى الملك الأشرف موسى بن العادل صاحب ديار الجزيرة، وهو الذي أعطى خلاّط وأعمالها الأمير شهاب الدين يقول له: كنا نظن أننا على صلح، والآن فقد عمل صاحب سرماري هذا العمل، فإن كنا على الصلح فنريد إطلاق أصحابنا من الأسر، وإن كان الصلح قد انفسخ بيننا، فتعرفنا حتى ندبر أمرنا، فأرسل الأشرف الى صاحب سرماري يأمره بإطلاق الأسرى، وتجديد الصلح مع الكرج، ففعل ذلك واستقرَّت قاعدة الصلاح وأطلق الأسرى.

ذكر الحرب بين غياث الدين وبين خاله

في هذه السنة في جمادى الآخرة، انهزم إيغان طائسي، وهو خال غياث الدين بن خوارزمشاه محمد بن تكش، وهذا غياث الدين، هو صاحب بلاد الجبل والري وأصبهان وغير ذلك، وله أيضاً بلاد كرمان، وكان سبب ذلك ان خاله إيغان طائسي كان معه، وفي خدمته، وهو اكبر أمير معه لا يصدر غياث الدين الا عن رأيه، والحكم إليه في جميع المملكة، فلما عظم شأنه حدَّث نفسه بالاستيلاء على الملك، وحسن له ذلك غيره وأطعمه فيه.

قيل: إن الخليفة الناصر لدين الله اقطعه البلاد سراً وأمره بذلك، فقويت نفسه على الخلاف، فاستفسد جماعة من العسكر واستمالهم، فلما تم له أمره أظهر الخلاف على غياث الدين وخرج عن طاعته أوزبك، وصار في البلاد يفسد ويقطع الطريق وينهب ما أمكنه من القرى وغيرها، وانضاف إليه جمعٌ كثير من أهل العنف والفساد، ومعه مملوك آخر اسمه أيبك الشامي كانا متفقين على العصيان، فقوي بهما، وساروا جميعهم إلى غياث الدين ليقاتلوه ويملكوا بلاده ويخرجوه منها، فجمع غياث الدين عسكره، والتقوا بنواحي. . . .(١)

---

(١) بياض في الأصل.

واقتتلوا فانهزم خال غياث الدين ومن معه وقتل من عسكره وأسر كثير ، وعاد المنهزمون إلى أذربيجان على أقبح حال وأقام غياث الدين في بلاده وثبت قدمه .

حادثة غريبة لم يوجد مثلها

كان أهل مملكة الكرج لم يبق منهم غير امرأة، وقد انتهى الملك إليها، فوليته وقامت بالأمر فيهم، وحكمت فطلبوا لها رجلاً يتزوجها، ويقوم بالملك نيابة عنها ، ويكون من اهل بيت مملكة، فلم يكن فيهم من يصلح لهذا الأمر، وكان صاحب أرزن الروم هذا الوقت هو مغيث الدين طغرلشاه بن قلج ارسلان بن مسعود قلج ارسلان، وبيته مشهور من أكابر ملوك الاسلام، وهم من الملوك السلجوقية، وله ولد كبير، فأرسل الى الكرج يطلب الملكة لولده ليتزوجها، فامتنعوا من إجابته، وقالوا: لا نفعل هذا لأننا لا يمكننا ان يملك أمرنا مسلم، فقال لهم: إن ابني يتنصر ويتزوجها، فأجابوه إلى ذلك، فأمر ابنه فتنصر ودان بالنصرانية، وتزوج الملكة وانتقل فيها، وأقام عند الكرج حاكماً في بلادهم، واستمرّ على النصرانية نعوذ بالله من الخذلان ونسأله ان يجعل خير اعمالنا آخرها، وخير أعمالنا خواتيمها وخير ايامنا يوم نلقاه، ثم كانت هذه الملكة الكرجية تهوى مملوكا لها، فكان زوجها يسمع عنها القبائح ، ولا يمكنه الكلام لعجزه، ثم إنه يوماً دخل عليها، فرآها نائمة مع مملوكها في فراش، فأنكر ذلك وواجهها بالمنع منه، فقالن: إن رضيت بهذا وإلا فأنت أخبر، فقال: إنني لا ارضى بهذه فنقلته الى بلد آخر، ووكلت به من يمنعه من الحركة ، وحجرت عليه، وأرسلت الى بلد اللان، وأحضرت رجلين كانا قد وصفا بحسن الصورة، فتزوجت أحدهما، فبقي معها يسيرا، ثم إنها فارقته، واحضرت انساناً آخر من كنجة، وهو مسلم ، فطلبت منه ان يتنصر ليتزوجها، فلم يفعل، فأرادت ان تتزوجه وهو مسلم، فقام عليها جماعة الأمراء، ومعهم إيواني وهو مقدم العساكر الكرجية، فقالوا لها قدافتضحنا بين الملوك بما تفعلين، ثم تريدين ان يتزوجك مسلم، وهذا لا نمكن منه ابداً، والأمر بينهم متردد، والرجل الكنجي عندهم لم يجبهم الى الدخول في النصرانية وهي تهواه .

ذكر حوادث عدة

في هذه السنة كان الجراد في اكثر البلاد، وأهلك كثيراً من الغلات والخضر بالعراق والجزيرة وديار بكر وكثير من الشام وغيرها .

وفيهـا في رمضان، توفّي عبد الـرحمن بن هبة الله بن عسـاكر الفقيـهالشافعي الدمشقي بها ، وكان غزير العلم عالماً بالمذهب كثير الصلاح والزهد والخير ـ رحمه الله .

وفيها تجمع العرب في خلق كثير على حجاج الشام، وأرادوا قطع الطريق عليهم وأخذهم، وكان الأمير على الحجاج شرف يعقوب بن محمد وهو من اهل الموصل أقام بالشام وتقدم فيه، فمنعهم بالرغبة والرهبة، ثم صانعهم بمال وثياب وغير ذلك، فأعطى الجميع من ماله، ولم يأخذ من الحجاج الدرهم الفرد، وفعل فعلاً جميلاً، وكان عنده كثير من العلوم ، ويرجع الى دين متين .

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وستمائة

ذكر عود طائفة من التتر الى الري وهمذان وغيرهما

أول هذه السنة وصل طائفة من التتر من عند ملكهم جنكزخان، وهؤلاء غير الطائفة الغربية التي ذكرنا اخبارها قبل وصول هؤلاء الري، وكان من سلم من اهلها قد عادوا إليها وعمروها، فلم يشعروا بالتتر الا وقد وصلوا اليهم، فلم يمتنعوا عنهم، فوضعوا في اهلها السيف، وقتلوهم كيف شاؤوا، ونهبوا البلد وخربوه، وساروا الى ساوة، ففعلوا بها كذلك، ثمَّ الى قم وقاشان، وكانتا قد سلمتا من التتر أولاً، فإنهم لم يقربوهما، ولا اصاب اهلهما أذى، فأتاهما هؤلاء وملكوهما، وقتلوا أهلهما، وخربوهما والحقوهما بغيرهما من البلاد الخراب، ثم ساروا في البلاد يخربون ويقتلون وينهبون، ثم قصدوا همذان، وكان قد اجتمع بها كثير ممن سلم من اهلها، فأبادوهم قتلا وأسراً ونهباً، وخربوا البلد، وكانوا لما وصلوا الى الري رأوا بها عسكرا كثيرا من الخوارزمية، فكبسوهم وقتلوا منهم، وانهزم الباقون الى اذربيجان، فنزلوا بأطرافها، فلم يشعروا إلا والتتر ايضا قد كبسوهم، ووضعوا السيف فيهم، فولوا منهزمين، فوصل طائفة منهم الى تبريز، وأرسلوا الى صاحبها أوزبك بن البهلوان يقولون: إن كنت موافقنا فسلم إلينا من عندك من الخوارزمية، وإلا فعرفنا أنك غير موافق لنا ولا في طاعتنا، فعمد الى من عنده من الخوارزمية فقتل بعضهم، وأسر بعضهم وحمل الأسرى والرؤوس إلى التتر وانفذ معها من الأموال والثياب والدواب شيئاً كثيراً، فعادوا عن بلاده نحو خراسان فعلوا هذا وليسوا في كثرة كانوا نحو ثلاثة آلاف فارس، وكان الخوارزمية الذين انهزموا منهم نحو ستة آلاف فارس وعسكر اوزبك اكثر من الجميع، ومع هذا، فلم يحدث نفسه ولا الخوارزمية بالامتناع منهم نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين من يقوم بنصرتهم، فقد دفعوا الى امر عظيم من قتل النفوس ونهب الأموال واسترقاق الأولاد وسبي الحريم وقتلهن وتخريب البلاد.

ذكر ملك غياث الـدين بلاد فارس

قد ذكرنا ان غياث الدين بن خوارزمشاه محمد كان بالـري، وله معهـا أصفهان وهمدان وما بينهما من البلاد، وله ايضا بلاد كرمان، فلما هلك أبوه كما ذكرناه وصل التتر الى بلاده وامتنع بأصفهان وحصره التتر فيها فلم يقدروا عليها فلما فارق التتر بلاده، وساروا الى بلاد قفجاق عاد وملك البلاد وعمَّر ما أمكنه منها، وأقام بها الى اواخر سنة عشرين وستمائة، وجرى له ـ ما ذكـرناه ـ ففي آخر سنة عشرين سار الى بلاد فارس، فلم يشعر صاحبها وهو أتابك سعد بن دكلا إلا وقد وصل غياث الدين الى أطراف بلاده، فلم يتمكن من الامتناع، فقصد قلعة اصطخر، فاحتمى بها، وسار غياث الدين الى مدينة شيراز، وهي كرسي مملكة فارس وأكبرها وأعظمها فملكها بغير تعب أول سنة احدى وعشرين وستمائة، وبقي غياث الدين بها، واستولى على اكثر البلاد، ولم يبق بيد سعد الدين إلا الحصون المنيعة، فلما طال الأمر على سعد الدين صالح غياث الدين على أن يكون لسعد الدين من البلاد قسم اتفقوا عليه ، ولغياث الدين الباقي ، وأقام غياث الدين بشيراز وازداد اقامة وعزماً على ذلك لمَّا سمع أن التتر قد عادوا الى الري والبلاد التي له وخربوها.

ذكر عصيان شهاب الدين غازي على أخيه الملك الأشرف وأخذ خلاط منه

كان الملك الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب قد اقطع أخاه شهاب الدين غازي مدينة خلاط وجميع أعمال أرمينية، وأضاف إليها ميافـارقين، وحاني ، وجبـل جور، ولم يقنع بذلك حتى جعله ولي عهده في البلاد التي له جميعها، وحلف له جميع النواب والعساكر في البلاد فلما سلم إليه أرمينية سار إليها ـ كما ذكرناه ـ وأقام بها إلى آخـر سنة عشـرين وستمائـة، فأظهـر مغاضبـة أخيه الملك الأشـرف، والتجني عليه والعصيان والخروج عن طاعته، فراسله الأشرف يستميـله ويعاتبه على ما فعل، فلم يرعو ولا ترك ما هو عليه بل اصر على ذلك، واتفق هو واخوه المعظَّم عيسى صاحب دمشق ومظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل، على الخلاف للأشرف، والاجتماع على محاربته، واظهروا ذلك وعلم الاشرف، فأرسل الى أخيه الكامل بمصر يعرفـه ذلك، وكانا متفقين وطلب منه نجدة، فجهَّز العساكر، وأرسل إلى اخيه صاحب دمشق يقول له: إن تحركت من بلدك سرت إليه وأخذته، وكان قد سار نحـو ديار الجـزيرة

للميعاد الذي بينهم، فلما وصلت إليه رسالة أخيه، وسمع بتجهيز العساكر عاد الى دمشق، واما صاحب إربل، فإنه جمع العساكر، وسار الى الموصل، فكان منه ـ ما نذكره إن شاء الله ـ وأما الأشرف فإنه لما اتفق عصيان اخيه جمع العساكر من الشام والجزيرة والموصل، وسار الى خلاط، فلما قرب منها خافه اخوه غازي، ولم يكن له قوّة على ان يلقاه محارباً ففرق عسكره في البلاد ليحصنها، وانتظر ان يسير صاحب اربل الى ما يجاوره من الموصل وسنجار، وان يسير أخوه صاحب دمشق الى بلاد الاشرف عند الفرات الرقة وحران وغيرهما، فيضطر الأشرف حينئذ الى العود عن خلاط، فسار الأشرف إليه، وقصد خلاط، وكان أهلها يريدونه ويختارون دولته لحسن سيرته كانت فيهم وسوء سيرة غازي، فلما حصرها سلمها أهلها إليه يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الآخرة، وبقي غازي في القلعة ممتنعاً، فلما جنه الليل نزل الى أخيه معتذراً ومتنصلاً، فعاتبه الأشرف، وأبقى عليه ولم يعاقبه على فعله لكن اخذ البلاد منه وأبقى عليه ميافارقين.

ذكر حصار صاحب إربل الموصل

قد ذكرنا اتفاق مظفَّر الدين كوكبري بن زين الدين على صاحب إربل وشهاب الدين غازي صاحب خلاط، والمعظم عيسى صاحب دمشق على قصد بلاد الملك الأشرف، فأما صاحب دمشق، فإنه سار عنها مراحل يسيرة، وعاد اليها لأن اخاه صاحب مصر أرسل إليه يتهدده ان سار عن دمشق أنه يقصدها ويحصرها فعاد. وأما غازي، فإنه استحصر في خلّاط وأخذت منه ـ كما ذكرناه ـ وأما صاحب أربل، فإنه جمع عسكره، وسار إلى بلد الموصل وحصرها ونازلها يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة ظناً منه ان الملك الأشرف اذا سمع بنزوله عليها رحل عن خلاط، ويخرج غازي في طلبه، فتتخبط أحواله، وتقوى نفس صاحب دمشق على المجيء إليهم، فلما نازل الموصل كان صاحبها بدر الدين لؤلؤ قد أحكم امورها، من استخدام الجند على الأسوار، وإظهار آلة الحصار، وإخراج الذخائر، وإنما قوي طمع صاحب إربل على حصر الموصل لأن اكثر عسكرها كان قد سار الى الملك الأشرف الى خلاط، وقد قلَّ العسكر فيها، وكان الغلاء شديداً في البلاد جميعها، والسعر في الموصل كل ثلاث مكاكي بدينار، فلهذا السبب أقدم على حصرها، فلما نزل عليها أقام عشرة أيام، ثم رحل عنها

يوم الجمعة لسبع بقين من جمادى الآخرة، وكان سبب رحيله، انه رأى امتناع البلد عليه، وكثرة من فيه، وعندهم من الذخائر ما يكفيهم الزمان الكثير، ووصل إليه خبر الملك الأشرف انه ملك خلاط، فانفسخ عليه كل ما كان يؤمله من صاحبها ومن دمشق، وبقي وحده متلبساً بالأمر، فلما وصلت الاخبار اليه بذلك سقط في يده، ورأى انه قد اخطأ الصواب، فرحل عائداً الى بلده، وأقام على الزاب، ومدَّة مقامه على الموصل لم يقاتلها، إنما كان في بعض الأوقات يجيء بعض الترك الذين له يقاتلون البلد، فيخرج إليهم بعض الفرسان وبعض الرجالة، فيجري بينهم قتال ليس بالكثير، ثم يتفرقون وترجع كل طائفة الى صاحبها.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة أول آب ، جاء ببغداد مطر برعد وبرق، وجرت المياه بباب البصرة والحربية ، وكذلك بالمحول، بحيث أن الناس كانوا يخوضون في الماء والوحل بالمحول.

وفيها سار صاحب المخزن الى يعقوبا في ذي القعدة، فعسف أهلها، فنقل إليه عن انسان منها انه يسبه، فأحضره وأمر بمعاقبته، وقال له: لم تسبني. فقال له: انتم تسبون أبا بكر وعمر لأجل اخذهما فدك وهي عشر نخلات لفاطمة عليها السلام، وانتم تأخذون مني ألف نخلة ولا اتكلم فعفا عنه.

وفيها وقعت فتنة بواسط بين السنية والشيعة على جاري عادتهم.

وفيها قلت الأمطار في البلاد. فلم يجبى منها شيء الى شباط، ثم إنها كانت تجيء في الاوقات المتفرقة مجيئاً قريباً لا يحصل منه الري للزرع، فجاءت الغلات قليلة، ثم خرج عليها الجراد، ولم يكن في الأرض من النبات ما يشتغل به عنها، فأكلها إلا القليل، وكان كثيراً خارجاً عن الحدِّ فغلت الأسعار في العراق والموصل وسائر ديار الجزيرة وديار بكر وغيرها، وقلت الأقوات، إلا ان اكثر الغلاء كان بالموصل وديار الجزيرة.

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وستمائة

ذكر حصر الكرج مدينة كنجة

في هذه السنة سارت الكرج في جموعها الى مدينة كنجة من بلاد أران قصدا لحصرها، وامتدوا لها بما امكنهم من القوة لأن اهل كنجة كثير عددهم قوية شوكتهم، وعندهم شجاعة كبيرة من طول ممارستهم للحرب مع الكرج، فلما وصلوا إليها، وقاربوا قاتلوا اهلها عدَّة ايام من وراء السور، ولم يظهر من اهلها أحد، ثم في بعض الأيام خرج اهل كنجة، ومن عندهم من العسكر من البلد، وقاتلوا الكرج بظاهر البلد أشدَّ قتال وأعظمه، فلما رأى الكرج ذلك علموا انهم لا طاقة لهم بالبلد، فرحلوا بعد ان اثخن أهل كنجة فيهم ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا﴾.

ذكر وصول جلال الدين بن خوارزمشاه الى خوزستان والعراق

في أول هذه السنة وصل جلال الدين بن خوارزمشاه محمد بن تكش الى بلاد خوزستان والعراق، وكان مجيئه من بلاد الهند لأنه كان وصل اليها لمَّا قصد التتر غزنة، وقد ذكرنا ذلك، فلما تعذر عليه المقام ببلاد الهند سار عنها على كرمان ووصل الى اصفهان، وهي بيد اخيه غياث الدين وقد تقدمت اخباره فملكها وسار عنها إلى بلاد فارس وكان اخوه قد استولى على بعضها كما ذكرناه. فأعاد ما كان اخوه اخذه منها الى اتابك سعد صاحبها وصالحه وسار من عنده الى خوزستان فحصر مدينة تستر في المحرَّم، وبها الأمير مظفر الدين المعروف بوجه السبع مملوك الخليفة الناصر لدين الله، حافظاً لهاوأميراً عليها، فحصره جلال الدين، وضيَّق عليه، فحفظها وجه السبع، وبالغ في الحفظ والاحتياط، وتفرَّق الخوارزمية ينهبون حتى وصلوا الى بادرايا وباكسايا وغيرهما، وانحدر بعضهم إلى ناحية البصرة، فنهبوا هنالك، فسار إليهم شحنة البصرة، وهو الأمير ملتكين، فأوقع بهم وقتل منهم جماعة، فدام الحصار نحو شهرين، ثم رحل

عنها بغتة، وكانت عساكر الخليفة مع مملوكه جمال الدين قشتمر بالقرب منه، فلما رحل جلال الدين لم يقدر العسكر على منعه فسار الى ان وصل الى يعقوبا، وهي قرية مشهورة بطريق خراسان، بينها وبين بغداد نحو سبعة فراسخ، فلما وصل الخبر الى بغداد تجهَّزوا للحصار، واسلحوا السلاح من الجروخ والقسي والنشاب والنفط وغير ذلك، وعاد عسكر الخليفة الى بغداد، واما عسكر جلال الدين فنهب البلاد وأهلها، وكان قد وصل هو وعسكره الى خوزستان في ضرٍّ شديدٍ وجهدٍ جهيدٍ وقلّةٍ من الدواب، والذي معهم، فهو من الضعف إلى حد لا ينتفع به، فغنموا من البلاد جميعها، واستغنوا واكثروا من اخذ الخيل والبغال، فانهم كانوا في غاية الحاجة اليها، وسار من يعقوبا الى دقوقا، فحصرها، فصعد أهلها إلى السور وقاتلوه وسبوه وأكثروا من التكبير، فعظم ذلك عنده وشق عليه، وجدَّ في قتالهم، ففتحها عنوة وقهراً ونهبتها عساكره، وقتلوا كثيرا من اهلها، فهرب من سلم منهم من القتل، وتفرقوا في البلاد.

ولما كان الخوارزميون على دقوقا سارت سرية منهم الى البت والراذان، فهرب اهلها الى تكريت، فتبعهم الخوارزميون فجرى بينهم وبين عسكر تكريت وقعة شديدة، فعادوا إلى العسكر، ولقد رأيت بعض أعيان أهل دقوقا، وهم بنو يعلى، وهم أغنياء فنهبوا، وسلم احدهم ومعه ولدان له وشيء يسير من المال، فسيَّر ما سلم معه الى الشام مع الولدين ليتجر بما ينتفعون به وينفقونه على نفوسهم، فمات احد الولدين بدمشق، واحتاط الحاكم على ما معهم، فلقد رأيت أباهم على حالة شديدة - لا يعلمها الا الله - يقول: اخذت الأملاك وقتل بعض الأهل، وفارقنا من سلم منهم والوطن بهذا القدر الحقير، اردنا نكفُّ به وجوهنا من السؤال، ونصون أنفسنا، فقد ذهب الولد والمال، ثم سار إلى دمشق ليأخذ ما سلم مع ابنه الآخر، فأخذه وعاد إلى الموصل، فلم يبق غير شهر حتى توفي.

ان الشقي بكل حبل يخنق

وأما جلال الدين فإنه لما فعل بأهل دقوقا ما فعل خافه أهل البوازيج، وهي لصاحب الموصل، فأرسلوا اليه يطلبون منه ارسال شحنة اليهم يحميهم، وبذلوا له شيئاً من المال، فأجابهم إلى ذلك، وسيَّر اليهم من يحميهم، قيل: كان بعض أولاد جنكزخان ملك التتر أسره جلال الدين في بعض حروبه مع التتر، فأكرمه، فحماهم وأقام بمكانه

الى اواخر ربيع الآخر، والرسل مترددة بينه وبين مظفر الدين صاحب اربل، فاصطلحوا فسار جلال الدين الى اذربيجان، وفي مدة مقام جلال الدين بخوزستان والعراق ثارت العرب في البلاد، يقطعون الطريق، وينهبون القرى، ويخيفون السبيل، فنال الخلق منهم أذى شديد، وأخذوا في طريق العراق قفلين عظيمين، كانا سائرين إلى الموصل، فلم يسلم منهم شيء البتة.

ذكر وفاة الملك الأفضل وغيره من الملوك

في هذه السنة في صفر، توفي الملك الأفضل علي بن صلاح الدين يوسف بن ايوب فجأة بقلعة سميساط، وكان عمره نحو سبع وخمسين سنة، وقد ذكرنا سنة تسع وثمانين وخمسمائة عند وفاة والده ـ رحمه الله ـ ملكه مدينة دمشق والبيت المقدس، وغيرهما من الشام، وذكرنا سنة اثنتين وتسعين اخذ الجميع منه، ثم ذكرنا سنة خمس وتسعين ملكه ديار مصر، وذكرنا سنة ست وتسعين أخذها منه، وانتقل الى سميساط، وأقام بها، ولم يزل بها الى الان، فتوفي بها، وكان رحمه الله من محاسن الزمان لم يكن في الملوك مثله، كان خيّراً عادلاً فاضلاً حليماً كريماً، قلّ أن عاقب على ذنب، ولم يمنع طالباً، وكان يكتب خطا حسناً وكتابة جيدة، وبالجملة، فاجتمع فيه من الفضائل والمناقب ما تفرّق في كثير من الملوك، لا جرم حرم الملك والدنيا، وعاداه الدهر، ومات بموته كل خلق جميل وفعل حميد ـ فرحمه الله ورضي عنه ـ ورأيت من كتابته أشياء حسنة، فمما بقي على خاطري منها أنه كتب إلى أصحابه لما أخذت دمشق منه كتاباً من فصوله، وأما أصحابنا بدمشق، فلا علم لي بأحد منهم وسبب ذلك أني:

أيُّ صديقٍ سألْتُ عنه فَفِي الذلِّ ... وتحتَ الخُمولِ في الوَطَنِ
وأيّ ضد سألتُ حالَتَهُ ... سَمِعْتُ مَالاَ تُحبُّهُ أُذُنِي

فتركت السؤال عنهم، وهذا غاية الجودة في الاعتذار، عن ترك السؤال عنهم، ولما مات اختلف أولاده وعمهم قطب الدين موسى، ولم يقو أحد منهم على الباقين، ليستبد بالأمر.

ومات في هذه السنة صاحب ارزن الروم، وهو مغيث الدين طغرل بن قلج أرسلان، وهو الذي سيَّر ولده إلى الكرج، وتنصر وتزوج ملكة الكرج، ولمَّا مات منك

بعده ابنه.

ومات فيها ملك ارزنكان، وتوفيّ فيها عز الدين الخضر بن إبراهيم بن أبي بكر بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان صاحب خرت برت، وملك بعده ابنه نور الدين أرتق شاه، وكان المدبر لدولته ودولة والده معين الدين عبد الرحمن.

ذكر خلع شروان شاه وظفر المسلمين بالكرج

في هذه السنة ثار على شروان شاه ولده، فنزعه من الملك، وأخرجه من البلاد، وملك بعده، وسبب ذلك أن شروان شاه كان سيّء السيرة كثير الفساد والظلم يتعرَّض الى اموال الرعايا وأملاكهم، وقيل أيضا: إنه كان يتعرَّض إلى النساء والولدان، فاشتدت وطأته على الناس، فاتَّفق بعض العسكر مع ولده، وأخرجوا اباه من البلاد، وملك الابن، واحسن السيرة، فأحبَّه العساكر والرعية، وأرسل الولد إلى أبيه يقول له: إني أردت أن أتركك في بعض القلاع، وأجري لك الجرايات الكثيرة، ولكل من تحب أن يكون عندك، والذي حملني على ما فعلت معك سوء سيرتك، وظلمك لأهل البلاد، وكراهيتهم لك ولدولتك، فلما رأى الأب ذلك سار إلى الكرج واستنصر بهم، وقرّر معهم أن يرسلوا معه عسكراً يعيدونه إلى ملكه ويعطيهم نصف البلاد، فسيَّروا معه عسكراً كثيراً، فسار حتى قارب مدينة شروان، فجمع ولده العسكر، وأعلمهم الحال، وقال: إن الكرج متى حصرونا ربما ظفروا بنا وحينئذ لا يُبقي أبي على احد منا ويأخذ الكرج نصف البلاد وربما أخذوا الجميع وهذا أمر عظيم إننا نسير إليهم جريدة ونلقاهم فإن ظفرنا بهم فالحمد لله وإن ظفروا بنا فالحصر بين أيدينا فأجابوه إلى ذلك، فخرج في عسكره، و هم قليل نحو الف فارس ولقوا الكرج، وهم في ثلاثة آلاف مقاتل، فالتقوا واقتتلوا وصبر أهل شروان، فانهزم الكرج، فقتل كثير منهم، وأسر كثير، ومن سلم عاد بأسوأ حال، وشروان شاه المخلوع معهم، فقال له مقدمو الكرج: إننا لم نلق بسببك خيراً ولا نؤاخذك بما كان منك، فلا تقم ببلادنا، ففارقهم، وبقي متردداً لا يأوي إلى احد، واستقرَّ ولده في الملك، وأحسن الى الجند والرعية، وأعاد الى الناس أملاكهم ومصادراتهم، فاغتبطوا بولايته.

ذكر ظفر المسلمين بالكرج ايضاً

وفي هذه السنة ايضا سار جمع من الكرج من تفليس يقصدون أذربيجان والبلاد التي بيد اوزبك، فنزلوا وراء مضيق في الجبال، لا يسلك إلا للفارس معه الفرس، فنزلوا آمنين من المسلمين استضعافا لهم، واغترارا بحصانة موضعهم، وأنه لا طريق اليهم، وركب طائفة من العساكر الإسلامية، وقصدوا الكرج، فوصل الى ذلك المضيق، فجازوه مخاطرين، فلم يشعر الكرج إلا وقد غشيهم المسلمون، ووضعوا فيهم السيف، فقتلوهم كيف شاؤوا وولى الباقون منهزمين لا يلوي والد على ولده، ولا أخ على أخيه ، وأسر منهم جمع كثير صالح ، فعظم الأمر عليهم، وعزموا على الأخذ بثارهم والجد في قصد أذربيجان، واستئصال المسلمين منه وأخذوا يتجهزون على قدر عزمهم، فبينما هم في ذلك إذ وصل اليهم الخبر بوصول جلال الدين بن خوارزمشاه إلى مراغة ـ على ما نذكره إن شاء الله ـ فتركوا ذلك، وأرسلوا إلى أوزبك صاحب أذربيجان يدعونه إلى الموافقة على ردِّ جلال الدين، وخوفوه منه إن لم نتفق نحن وأنت، وإلا أخذك، ثم أخذنا، فعاجلهم جلال الدين قبل اتفاقهم واجتماعهم، فكان ـ ما نذكره إن شاء الله تعالى ـ.

ذكر ملك جلال الدين أذربيجان

في هذه السنة استولى جلال الدين على أذربيجان، وسبب ذلك انه لمّا سار من دقوقا ـ كما ذكرناه ـ قصد مراغة، فملكها، وأقام بها، وشرع في عمارة البلد، فاستحسنه، فلما وصل اليها أتاه الخبر أن الأمير إيغان طائيسي ـ وهو خال أخيه غياث الدين ـ قد قصد همذان قبل وصول جلال الدين بيومين، وكان ايغان طائيسي هذا قد جمع عسكراً يتجاوز خمسين الف فارس، ونهب كثيرا من أذربيجان، وسار الى البحر من بلد أران، فشتى هنالك لقلة البرد، ولما عاد الى همذان نهب أذربيجان ايضا مرَّة ثانية، وكان سبب مسيره الى همذان أن الخليفة الناصر لدين الله راسله، وأمره بقصد همذان، وأقطعه إياها وغيرها، فسار ليستولي عليها كما أمر، فلمّا سمع جلال الدين بذلك سار جريدة إليه، فوصل إلى ايغان طائيسي ليلاً، وكان إذا نزل جعل حول عسكره جميع ما غنموا من أذربيجان وأران من خيل وبغال وحمير وبقر وغنم، فلما وصل جلال الدين أحاط بالجميع، فلما أصبح عسكر إيغان طائيسي، ورأى العسكر، والجتر الذي يكون

على رأس السلطان علموا أنه جلال الدين، فسقط في أيديهم لأنهم كانوا يظنونه عند دقوقا، فأرسل ايغان طائيسي زوجته وهي اخت جلال الدين تطلب له الأمان، فأمنه وأحضره عنده، وانضاف عسكره إلى جلال الدين، وبقي إيغان طائيسي وحده الى ان اضاف إليه جلال الدين عسكراً غير عسكره، وعاد إلى مراغة، وأعجبه المقام بها، وكان أوزبك بن البهلوان، صاحب أذربيجان وأران قد سار من تبريز الى كنجة خوفا من جلال الدين، وأرسل جلال الدين إلى من في تبريز من وال وأمير ورئيس يطلب منهم أن يتردَّد عسكره إليهم يمتارون، فأجابوه إلى ذلك وأطاعوه، فتردد العسكر اليها، وباعوا واشتروا الأقوات والكسوات وغيرها، ومدوا أيديهم الى اموال الناس، فكان أحدهم يأخذ الشيء ويعطي الثمن ما يريد، فشكا بعض أهل تبريز إلى جلال الدين منهم، فأرسل إليهم شحنة يكون عندهم، وأمر أن يقيم بتبريز، ويكف أيدي الجند عن أهلها، ومن تعدى على أحد منهم صلبه،فأقام الشحنة، ومنع الجند من التعدي على أحد من الناس، وكانت زوجة أوزبك، وهي ابنة السلطان طغرل بن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه مقيمة بتبريز، وهي كانت الحاكمة في بلاد زوجها، وهو مشغول بلذاته من أكل وشرب ولعب.

ثم إن أهل تبريز شكوا من الشحنة، وقالوا انه يكلفنا اكثر من طاقتنا، فأمر جلال الدين أنه لا يعطي إلا ما يقيم به لا غير، ففعلوا ذلك، وسار جلال الدين إلى تبريز، وحصرها خمسة أيام، وقاتل أهلها قتالاً شديداً، وزحف اليها، فوصل العسكر إلى السور، فأذعن أهلها بالطاعة، وأرسلوا يطلبون الأمان منه لأنه كان يذمهم، ويقول: قتلوا اصحابنا المسلمين، وأرسلوا رؤوسهم إلى التتر الكفار، وقد تقدّمت الحادثة سنة إحدى وعشرين وستمائة، فخافوا منه لذلك، فلما طلبوا الأمان ذكر لهم فعلهم بأصحاب أبيه وقتلهم، فاعتذروا بأنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك، وإنما فعله صاحبهم، ولم يكن لهم من القدرة ما يمنعونه، فعذرهم وأمنهم، وطلبوا منه أن يؤمن زوجة أوزبك، ولا يعارضها في الذي لها بأذربيجان ومدينة خوى وغيرها من ملك ومال وغيره، فأجابهم إلى ذلك وملك البلد سابع عشر رجب من هذه السنة وسيَّر زوجة أوزبك إلى خوى، ومعها طائفة من العسكر من رجل كبير القدر عظيم المنزلة، وأمرهم بخدمتها، فإذا وصلت الى خوى عادوا عنها، ولما رحل جلال الدين الى تبريز امر ان لا يمنعوا عنه احدا من أهلها، فأتاه الناس مسلّمين عليه، فلم يحجبوا عنه، وأحسن إليهم، وبث فيهم العدل، ووعدهم

الإحسان والزيادة منه، وقال لهم: قد رأيتم ما فعلت بمراغة من الإحسان والعمارة بعد أن كانت خرابا، وسترون كيف أصنع معكم من العدل فيكم وعمـارة بلادكم، وأقام الى يوم الجمعة، فحضر الجامع، فلما خطب الخطيب ودعا للخليفة، قام قائما، ولم يزل كذلك حتى فرغ من الدعاء وجلس، ودخل الى كشك كان أوزبك قد عمره، وأخرج عليه من الأموال كثيرا، فهو في غاية الحسن مشرف على البساتين، فلما طاف فيه خرج منه وقال: وهذا مسكن الكسالى لا يصلح لنا، وأقام أياما استولى فيها على غيرها من البلاد، وسير الجيوش إلى بلاد الكرج.

ذكر انهزام الكرج من جلال الدين

قد ذكرنا فيما تقدَّم من السنين ما كان الكرج يفعلونه في بلاد الإسـلام، خلّاط وأعمالها، وأذربيجان، وأران، وأرزن الروم، ودربند شروان، وهـذه ولايات تجـاور بلادهم، وما كانوا يسفكون من دماء المسلمين، وينهبون من أموالهم، ويملكون من بلادهم، والمسلمون معهم في هذه البلاد تحت الذلِّ والخزي كل يوم، قـد أغاروا وفتكوا فيهم، وقاطعوهم على ما شاؤوا من الأموال، فكنـا كلما سمعنا بشيء من ذلك سألنا الله تعالى، نحن والمسلمون في أن ييسـر للإسـلام والمسلمين من يحميهم، وينصرهـم، ويأخذ بثارهم، فإنَّ أوزبك صاحب أذربيجان منعكف على شهـوة بطنـه وفرجه، لا يفيق من سكره وإن هو أفاق، فهو مشغول بالقمار بالبيض، وهذا ما لم يسمع أن أحداً من الملوك فعله لا يهتدي لمصلحة ولا يغضب لنفسه، بحيث ان بلاده مأخوذة، وعساكره طماعة، ورعيته قد قهرها، وقد كان كل من أراد أن يجمع جمعاً، ويتغلب على بعض البلاد، فعل ـ كما ذكرناه ـ من حال بغدي وأيبك الشامي وإيغان طائيسي، فنظر الله تعـالى إلى أهل هذه البلاد المساكين بعين الرحمة، فرحمهم ويسر لهم جلال الدين هذا ففعل بالكرج ما تراه، وانتقم للإسلام والمسلمين منهم، فنقول: في هذه السنة كان المصاف بين جلال الدين، وبين الكرج في شهر شعبان، فإنَّ جلال الدين من حين قصد إلى هذه الـنواحي لا يزال يقول: إنني أريد أقصد بلاد الكرج، واقاتلهم، وأملك بلادهم، فلمَّا ملك أذربيجان أرسل إليهم يؤذنهم، فأجابوه بأننـا قد قصدنا التتر الذين فعلوا بأبيك، وهو أعظم منك ملكاً، وأكثر عسكراً، وأقوى نفسا ما تعلمه، وأخـذوا بلادكم، فلم نبال بهم، وكان قصاراهم السلامة منا، وشرعـوا يجمعون العسـاكر،

فجمعوا ما يزيد على سبعين ألف مقاتل، فسار اليهم، فملك مدينة دوين، وهي للكرج كانوا قد أخذوها من المسلمين ـ كما ذكرناه ـ وسار منها اليهم، فلقوه وقاتلوه اشد قتال، وأعظمه وصبر كل منهم لصاحبه، فانهزم الكرج، وأمر ان يقتلوا بكل طريق، ولا يبقوا على احد منهم، فالذي تحققنا انه قتل منهم عشرون الفا، وقيل: اكثر من ذلك، فقيل: الكرج جميعهم قتلوا وافترقوا، وأسر كثير من أعيانهم، من جملتهم شلوة، فتمت الهزيمة عليهم، ومضى إيواني منهزما، وهو المقدم على الكرج جميعهم، ومرجعهم إليه، ومعولهم عليه، وليس لهم ملك إنّما الملك امرأة، ولقد صدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة» فلما انهزم إيواني أدركه الطلب، فصعد قلعة لهم على طريقهم، فاحتمى فيها، وجعل جلال الدين عليها من يحصرها ويمنعه من النزول، وفرق عساكره في بلاد الكرج ينهبون ويقتلون ويسبون ويخربون البلاد، فلولا ما أتاه من تبريز ممّا أوجب عوده لملك البلاد بغير تعب ولا مشقة لأن اهلها كانوا قد هلكوا، فهم بين قتيل وأسير وطريد.

ذكر عود جلال الدين إلى تبريز وملكه مدينة كنجة ونكاحه زوجة أوزبك

لما فرغ جلال الدين من هزيمة الكرج، ودخل البلاد وبث العساكر فيها أمرهم بالمقام بها مع أخيه غياث الدين، وعاد الى تبريز، وسبب عوده انه كان قد خلف وزيره شرف الدين في تبريز، ليحفظ البلد، وينظر في مصالح الرعية، فبلغه عن رئيس تبريز، وشمس الدين الطغرائي، وهو المقدم على كل من في البلد وعن غيرهما من المقدمين، انهم قد اجتمعوا وتحالفوا على الامتناع على جلال الدين، واعادة البلد إلى اوزبك، وقالوا: إن جلال الدين قد قصد بلاد الكرج، فلا يقدر على المقام، ويجتمع اوزبك والكرج، ويقصدونه، فينحل نظام امره، وتتم عليه الهزيمة فبنوا أمرهم على ان جلال الدين يسير الهوينا إلى بلاد الكرج، ويتريث في الطريق احتياطا منهم، فلما اتّفقوا على ذلك أتى الخبر إلى الوزير، فأرسل إلى جلال الدين يعرّفه الحال، فأتاه الخبر، وقد قارب بلاد الكرج، فلم يظهر من ذلك شيئا، وسار نحو الكرج مجدّاً فلقيهم وهزمهم، فلمّا فرغ منهم، قال لأمراء عسكره: إنّني قد بلغني من الخبر كذا وكذا، فتقيمون انتم في البلاد على ما انتم عليه، من قتل من ظفرتم به، وتخريب ما امكنكم من بلادهم، فإنني خفت ان اعرفكم قبل هزيمة الكرج لئلا يلحقكم وهن وخوف، فأقاموا على

حالهم، وعاد هو الى تبريز، وقبض على الرئيس والطغرائي وغيرهما، فأمَّا الرئيس فأمر أن يطاف به على أهل البلد، وكل من له عليه مظلمة، فليأخذها منه، وكان ظالماً، ففرح الناس بذلك، ثم قتله، وأما الباقون، فحبسوا، فلما فرغ منهم واستقام له أمر البلد تزوج زوجة أوزبك ابنة السلطـان طغرل، وإنما صحَّ له نكاحها، لانه ثبت عن اوزبك انه حلف بطلاقها انه لا يقتل مملوكا له اسمه. . . . . ، ثم قتله، فلمَّا وقع الطلاق بهذا اليمين نكحها جلال الدين، وأقام بتبريز مدَّة وسيَّر منها جيشاً الى مدينة كنجة، فملكوها وفارقها أوزبك الى قلعة كنجة، فتحصن فيها، فبلغني ان عساكر جلال الدين تعرضوا إلى اعمال هذه القلعة بالنهب والأخذ، فأرسل أوزبك الى جلال الدين يشكو، ويقول: كنت لا ارضى بهذه الحال لبعض اصحابي، فأنا أسأل ان نكفَّ الايدي المتطرقة إلى هذه الأعمال عنها، فأرسل جلال الدين اليها من يحميها من التعرض لها من اصحابه وغيرهم.

ذكر وفاة الخليفة الناصر لدين الله

في هذه السنة آخر ليلة من شهر رمضان، توفي الخليفة الناصـر لدين الله، أبـو العباس احمد بن المستضيء بأمر الله، أبي محمد الحسن بن المستنجد بـالله، أبي المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله، أبي العباس محمد بن المقتدي بأمر الله، أبي القاسم عبد الله بن الذخيرة محمَّد بن القائم بأمر الله، أبي جعفر عبد الله بن القادر بالله، أبي العباس احمد بن اسحق بن المقتدر بالله، أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله، أبي العباس احمد بن الموفق، أبي احمد محمد بن جعفر المتـوكل على الله، ولم يكن الموفق خليفة، وإنما كان ولي عهد أخيه المعتمد على الله، فمات قبل المعتمد، فصار ولده المعتضد بالله، ولي عهد المعتمد على الله، وكان المتوكل على الله بن المعتصم بالله أبي اسحق بن هرون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله أبي جعفر بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنهم.

نَسَبٌ كأنَّ عليه من شَمْسِ الضحى ... نــوراً ومن فَلَقِ الصباح عمــوداً

فكان في آبائه أربعة عشر خليفة، وهم كل من له لقب، والباقون غير خلفاء، وكان فيهم من ولي العهد محمد بن القائم، والموفق بن المتوكل، وأما باقي الخلفاء من بني

العباس، فلم يكونوا من آبائه، فكان السفاح أبو العباس عبد الله أخا المنصور ولي قبله، وكان موسى أخا الرشيد ولي قبله، وكان محمد الأمين وعبد الله المأمون ابنا الرشيد أخوي المعتصم وليا قبله، وكان محمد المنتصر بن المتوكل ولي بعده، ثم ولي بعد المنتصر بالله المستعين بالله أبو العباس احمد بن محمدبن المعتصم، وولي بعد المستعين المعتز بالله محمد وقيل طلحة وهو ابن المتوكل، وولي بعد المعتز المهتدي بالله محمد بن الواثق، ثم ولي بعده المعتمد على الله احمد بن المتوكل، فالمنتصر، والمعتز، والمعتمد أخوه الموفق والمهتدي ابن عمه، والموفق من اجداد الناصر لدين الله، ثم ولي المعتضد بعد المعتمد، وولي بعد المعتضد ابنه ابو محمد علي المكتفي بالله، وهو اخو المقتدر بالله، وولي بعد المقتدر اخوه القاهر بالله ابو منصور محمد بن المعتضد، وولي بعد القاهر الراضي بالله ابو العباس محمد بن المقتدر، ثم ولي بعده المقتفي لله ابو اسحق ابراهيم بن المقتدر، ثمّ ولي بعده المكتفي بالله ابو القاسم عبد الله بن المكتفي بالله علي بن المعتضد، ثم ولي بعده المطيع لله ابو بكر عبد الكريم فالقاهر أخو المقتدر والراضي والمقتفي والمطيع بنوه والمستكفي ابن أخيه المكتفي، ثم ولي بعد الطائع القادر بالله، وهو من اجداد الناصر لدين الله، ثمَّ ولي بعد المستظهر بالله، ثم ولي بعده ابنه المسترشد بالله ابو منصور وولي بعد المسترشد بالله ابنه الراشد ابو جعفر فالمسترشد أخو المقتفي والراشد ابن أخيه فجميع من ولي الخلافة ممن ليس في سياة، نسب الناصر تسعة عشر خليفة، وكانت أم الناصر ام ولد تركية اسمها زمرد، وكانت خلافته ستاً وأربعين سنة وعشرة اشهر وثمانية وعشرين يوما، وكان عمره نحو سبعين سنة تقريباً، فلم يل الخلافة اطول مدة منه إلا ما قيل عن المستنصر بالله العلوي صاحب مصر، فإنه ولي ستين سنة، ولا اعتبار به فانه ولي له سبع سنين فلا تصح ولايته، وبقي الناصر لدين الله ثلاث سنين عاطلا عن الحركة بالكلية، وقد ذهبت احدى عينيه والأخرى يبصر بها إبصاراً ضعيفاً، وفي آخر الأمر أصابه دوسنطاريا عشرين يوماً ومات، ووزر له عدة وزراء، وقد تقدم ذكرهم.

ولم يطلق في طول مرضه شيئاً كان احدثه من الرسوم الجائرة، وكان قبيح السيرة في رعيته ظالما، فخرب في أيامه العراق، وتفرق أهله في البلاد، وأخذ املاكهم واموالهم، وكان يفعل الشيء وضده، فمن ذلك انه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر

الناس عليها في رمضان، فبقيت مدة ثم قطع ذلك ثم عمل دور الضيافة للحجاج، فبقيت مدة ثم ابطلها، واطلق بعض المكوس التي جددها ببغداد خاصة، ثم اعادها وجعل جل همه في رمي البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة، فبطل الفتوة في البلاد جميعها إلا من يلبس منه سراويل يدعى اليه، ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة، وكذلك ايضا منع الطيور المناسيب لغيره إلا ما يؤخذ من طيوره، ومنع الرمي بالبندق الا من ينتمي اليه، فأجابه الناس بالعراق وغيره إلى ذلك إلا انسانا واحدا يقال له: ابن السفت من بغداد، فإنه هرب من العراق ولحق بالشام، فأرسل إليه يرغبه في المال الجزيل ليرمي عنه، وينسب في الرمي اليه، فلم يفعل، فبلغني ان بعض اصدقائه أنكر عليه الامتناع من اخذ المال، فقال: يكفيني فخرا انه ليس في الدنيا احد إلا رمى للخليفة إلا انا، فكان غرام الخليفة بهذه الاشياء من اعجب الأمور، وكان سبب ما ينسبه العجم اليه صحيحاً من انه هو الذي اطمع التتر في البلاد، وراسلهم في ذلك ، فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم .

ذكر خلافة الظاهر بأمر الله

قد ذكرنا سنة خمس وثمانين وخمسمائة الخطبة للأمير ابي نصر محمد بن الخليفة الناصر لدين الله بولاية العهد في العراق وغيره من البلاد، ثم بعد ذلك خلعه الخليفة من ولاية العهد وأرسل إلى البلاد في قطع الخطبة له، وإنما فعل ذلك لأنه كان يميل إلى ولده الصغير علي، فاتّفق ان الولد الصغيرتوفّي سنة اثنتي عشر وستمائة، ولم يكن للخليفة ولد غير ولي العهد، فاضطر إلى اعادته إلا انه تحت الاحتياط والحجر لا يتصرف في شيء، فلما توفى أبوه وَلِيَ الخلافة واحضر الناس لأخذ البيعة، وتلقب بالظاهر بأمر الله وعنى أن أباه وجميع اصحابه أرادوا صرف الأمر عنه، فظهر وولي الخلافة بأمر الله لا يسعى من أحد، ولما ولي الخلافة أظهر من العدل والاحسان ما اعاد به سنة العمرين، فلو قيل إنه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقاً، فإنه اعاد من الأموال المغصوبة في أيام أبيه وقبله شيئاً كثيراً، واطلق المكوس في البلاد جميعها، وأمر بإعادة الخراج القديم في جميع العراق، وأن يسقط جميع ما جدده أبوه، وكان كثيراً لا يحصى، فمن ذلك أن قرية يعقوبا كان يحصل منها قديما نحو عشرة الاف دينار، فلما تولى الناصر لدين الله كان يؤخذ منها كل سنة ثمانون الف دينار،

فحضر أهلها واستغاثوا، وذكروا أن املاكهم أخذت حتى صار يحصل منها هذا المبلغ، فأمر أن يؤخذ الخراج الأول، وهو عشرة آلاف دينار، فقيل له ان هذا المبلغ يصل الى المخزن، فمن أين يكون العوض، فأقام لهم العوض من جهات أخرى، فإذا كان المطلق من جهة واحدة سبعين ألف دينار، فما الظنُّ بباقي البلاد، ومن أفعاله الجميلة أنَّه أمر بأخذ الخراج الأول من باقي البلاد جميعها، فحضر كثير من أهل العراق، وذكروا ان الاملاك التي كان يؤخذ منها الخراج قديما قد يبس أكثر اشجارها، وخربت، ومتى طولبوا بالخراج الأول لا يفي دخل الباقي بالخراج، فأمر أن لا يؤخذ الخراج إلا من كل شجرة سليمة، وأما الذهب فلا يؤخذ منه شيء، وهذا عظيم جدا، ومن ذلك ايضا ان المخزن كان له صنجة الذهب تزيد على صنجة البلد نصف قيراط يقبضون بها المال، ويعطون بالصنجة التي للبلد يتعامل بها الناس، فسمع بذلك، فخرج خطه إلى الوزير وأوله، ﴿ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم﴾[1] وقد بلغنا أن الأمر كذا وكذا، فتعاد صنجة المخزن إلى الصنجة التي يتعامل بها المسلمون واليهود والنصارى، فكتب بعض النواب اليه يقول: إن هذا مبلغ كثير، وقد حسبناه، فكان في السنة الماضية خمسة وثلاثين ألف دينار، فأعاد الجواب ينكر على القائل، ويقول لو انه ثلاثمائة الف وخمسون الف دينار يطلق، وكذلك ايضا فعل في إطلاق زيادة الصنجة التي للديوان، وهي في كل دينار حبة، وتقدَّم الى القاضي أن كل من عرض عليه كتاباً صحيحاً بملك يغيده إليه من غير إذن، وأقام رجلاً صالحاً في ولاية الحشرى وبيت المال، وكان الرجل حنبلياً، فقال: إنني من مذهبي أن أورث ذوي الأرحام، فإن أذن أمير المؤمنين أن أفعل ذلك ولّيت وإلا فلا، فقال له أعط كل ذي حق حقه، واتق الله ولا تتق سواه.

ومنها ان العادة كانت ببغداد أن الحارس بكل درب يبكر ويكتب مطالعة إلى الخليفة بما تجدَّد في دربه من اجتماع بعض الأصدقاء ببعض، على نزهة أو سماع أو غير ذلك، ويكتب ما سوى ذلك من صغير وكبير، فكان الناس من هذا في حجر عظيم، فلما ولي هذا الخليفة جزاه الله خيراً أتته المطالعات على العادة، فأمر بقطعها، وقال: أي غرض لنا في معرفة أحوال الناس في بيوتهم، فلا يكتب احد الينا إلا ما يتعلق

---

(١) سورة المطففين ٢.

بمصالح دولتنا، فقيل له: إن العامة تفسد بذلك، ويعظم شرها، فقال: نحن ندعو الله في أن يصلحهم.

ومنها انه لما ولي الخلافة وصل صاحب الديوان من واسط، وكان قد سار اليها أيام الناصر لتحصيل الأموال، فأصعد ومعه من المال ما يزيد على مائة الف دينار، وكتب مطالعة تتضمن ذكر ما معه، ويستخرج الأمر في حمله، فأعاد الجواب بأن يعاد إلى أربابه فلا حاجة لنا إليه ، فأعيد عليهم .

ومنها أنه أخرج كل من كان في السجون، وأمر بإعادة ما أخذ منهم، وأرسل إلى القاضي عشرة آلاف دينار ليعطيها عن كل من هو محبوس في حبس الشرع، وليس له مال، ومن حسن نيته للناس أن الأسعار في الموصل وديار الجزيرة كانت غالية، فرخصت الأسعار، وأطلق حمل الأطعمة إليها، وأن يبيع كل من أراد البيع للغلة، فحمل منها الكثير الذي لا يحصى فقيل له ان السعر قد غلا شيئاً والمصلحة منع حمله، فقال أولئك مسلمون وهؤلاء مسلمون، وكما يجب علينا النظر في أمر هؤلاء كذلك يجب علينا النظر لأولئك، وأمر أن يباع من الأهراء التي له طعام أرخص مما يبيع غيره، ففعلوا ذلك، فرخصت الأسعار عندهم ايضا اكثر مما كانت أولا، وكان السعر في الموصل لما ولي كل مكوكين بدينار، وثلثي قيراط، فصار كل أربعة مكاكيك بدينار في أيام قليلة، وكذلك باقي الأشياء من التمر والدبس والأرز والسمسم وغيرها، فالله تعالى يؤيده وينصره ويبقيه، فإنه غريب في هذا الزمان الفاسد، ولقد سمعت عنه كلمة اعجبتني جدا، وهي أنه قيل له: في الذي يخرجه ويطلقه من الأموال التي لا تسمح نفس ببعضها، فقال لهم: أنا فتحت الدكان بعد العصر، فاتركوني أفعل الخير فكم أعيش وتصدق ليلة عيد الفطر من هذه السنة، وفرّق في العلماء وأهل الدين مائة ألف دينار.

ذكر ملك بدر الدين قلعتي العمادية وهرور

في هذه السنة ملك بدر الدين قلعة العمادية من أعمال الموصل . وقد تقدَّم ذكر عصيان أهلها عليه سنة خمس عشرة وستمائة، وتسليمها الى عماد الدين زنكي، ثم عودهم الى طاعة بدر الدين، وخلافهم على عماد الدين، فلما عادوا إلى بدر الدين

أحسن إليهم، وأعطاهم الاقطاع الكثير، وملكهم القرى، ووصلهم بالأموال الجزيلة، والخلع السنية، فبقوا كذلك مدَّة يسيرة، ثم شرعوا يراسلون عمادالدين زنكي، ومظفر الدين صاحب اربل، وشهاب الدين غازي بن العادل، لمَّا كان بخلاَّط، ويعدون كلا منهم بالانحياز اليه والطاعة له، وأظهروا من المخالفة لبدر الدين ما كانوا يبطنونه، فكانوا يمكنون أن يقيم عندهم من أصحاب بدر الدين إلا من يريدونه، ويمنعون من كرهوه، فطال الأمر، وهو يحتمل فعلهم ويداريهم، وهم لا يزدادون إلا طمعا وخروجا عن الطاعة، وكانوا جماعة فاختلفوا، فقوي بعضهم، وهم أولاد خواجة إبراهيم وأخوه ومن معهم على الباقين، فأخرجوهم عن القلعة، وغلبوا عليها، وأصروا على ما كانوا عليه من النفاق، فلما كان هذه السنة سار بدر الدين إليهم في عساكره، فأتاهم بغتة فحصرهم وضيَّق عليهم، وقطع الميرة عنهم، وأقام بنفسه عليهم، وجعل قطعة من الجيش على قلعة هرور يحصرونها، وهي من أمنع الحصون وأحصنها لا يوجد مثلها، وكان أهلها أيضاً قد سلكوا طريق أهل العمادية من عصيان وطاعة ومخادعة، فأتاهم العسكر وحصروهم، وهم في قلّة من الذخيرة، فحصروها أياما ففني ما في القلعة، فأضطر أهلها إلى التسليم، فسلموها، ونزلوا منها، وعاد العسكر الى العمادية، فأقاموا عليها مع بدر الدين فبقي بدر الدين بعد أخذ هرور يسيرا وعاد الى الموصل، وترك العسكر بحاله مقيما عليهم مع نائبه أمين الدين لؤلؤ، فبقي الحصار إلى أول ذي القعدة، فأرسلوا يذعنون بالطاعة ويطلبون العوض عنها ليسلموها، فاستقرَّت القواعد على العوض من قلعة يحتمون فيها وأقطاع ومال وغير ذلك، فأجابهم بدر الدين إلى ما طلبوا، وحضر نوابهم ليحلفوا بدر الدين، فبينما هو يريد أن يحلف لهم، وقد احضر من يشهد اليمين إذ قد وصل طائر من العمادية، وعلى جناحه رقعة من أمين الدين لؤلؤ يخبرانه قد ملك العمادية قهراً وعنوة وأسر بني خواجة الذين كانوا تغلبوا عليه، فامتنع بدر الدين من اليمين.

وأما سبب غلبة أمين الدين عليها، فإنه كان قد ولاه بدر الدين عليها لمَّا عاد أهلها الى طاعته، فبقي فيها مدة، فأحسن اليهم، واحسن السيرة فيهم، واستمال جماعة منهم ليتقوَّى بهم على الحزب الذين عصوا أولا، فنمي الخبر اليهم، فأساؤوا مجاورته واستقالوا من ولايته عليهم، ففارقهم الى الموصل، وكان اولئك الذين استمالهم يكاتبونه ويراسلونه، فلما حصرهم كانوا ايضا يكاتبونه في النشاب، يخبرونه بكل ما

يفعله أولاد خواجه من انفاذ رسول وغير ذلك، وبما عندهم من الذخائر إلا انهم لم يكونوا في الكثرة إلى انهم يقهرون أولئك ، فلما كان الآن، واستقرت القواعد من التسليم لم يذكر أولاد خواجة احدا من جند القلعة في نسخة اليمين بمال ولا غيره من امام واقطاع، فسخطوا هذه الحال، وقالوا لهم: قد حلفتم لأنفسكم بالحصون والقرى والمال، ونحن قد خربت بيوتنا لأجلكم، فلم تذكرونا، فأهانوهم ولم يلتفتوا إليهم، فحضرعند أمين الدين رجلان منهم ليلا، وطلبوا منه أن يرسل إليهم جمعاً يصعدونهم الى القلعة ويثبتون بأولئك ويأخذونهم، فامتنع وقال: أخاف أن لا يتم هذا الأمر، وينفسد علينا كل ما فعلناه، فقالوا: نحن نقبض عليهم غداً بكرة، وتكون أنت والعسكر على ظهر، فإذا سمعتم النداء باسم بدر الدين وشعاره تصعدون إلينا، فأجابهم إلى ذلك، وركب بكرة هو والعسكر على العادة. وأما أولئك فانهم اجتمعوا وقبضوا على أولاد خواجة ومن معهم ونادوا بشعار بدر الدين، فبينما العسكر قيام اذا الصوت من القلعة باسم بدر الدين، فصعدوا اليها وملكوها، وتسلم امين الدين أولاد خواجه، فحبسهم وكتب الرقعة على جناح الطائر بالحال، وملكوا القلعة صفوا عفوا بغير عوض، وكان يريد أن يغرم مالا جليلا وأقطاعا كثيرة، وحصنا منيعا، فتوفر الجميع عليه، وأخذ منهم كل ما احتقبوه وادخروه، وإذا أراد الله أمرا فلا مرد له.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ليلة الأحد والعشرين من صفر، زلزلت الأرض بالموصل وديار الجزيرة والعراق وغيرها زلزلة متوسطة.

وفيها اشتدَّ الغلاء بالموصل وديار الجزيرة جميعها، فأكل الناس الميتة والكلاب والسنانير، فقلَّ الكلاب والسنانير بعد أن كانوا كثيراً، ولقد دخلت يوما إلى داري، فرأيت الجواري يقطعن اللحم ليطبخوه، فرأيت سنانير استكثرتها، فعددتها فكانت اثني عشر سنوراً، ورأيت اللحم في هذه الغلاء في الدار، وليس عنده من يحفظه من السنانير لعدمها، وليس بين المرتين كثير، وغلا مع الطعام كل شيء، فبيع الرطل الشيرج بقيراطين بعد ان كان بنصف قيراط قبل الغلاء، وأما قبل ذلك فكان كل ستين رطلاً بدينار، ومن العجب ان السلق والجزر والسلجم بيع كل خمسة ارطال بدرهم ، وبيع البنفسج كل ستة أرطال بدرهم، وبيع في بعض الأوقات كل سبعة أرطال بدرهم، وهذا

ما لم يسمع بمثله، ولقد رأينا ما لم نر ولا سمعنا بمثله، فإن الدينار ما زالت قديما وحديثا إذا غلت الأسعار متى جاء المطر رخصت، إلا هذه السنة، فإن الأمطار ما زالت متتابعة من أول الشتاء إلى آخر الربيع، وكلما جاء المطر غلتِ الأسعار، وهذا ما لم يسمع بمثله، فبلغت الحنطة مكوك وثلث بدينار وقيراط، يكون وزنه خمسة وأربعين رطلا دقيقا بالبغدادي، وكان الملح مكوك بدرهم، فصار المكوك بعشرة دراهم، وكان الأرز مكوك باثني عشر درهماً، فصار المكوك بخمسين درهما، وكان التمر كل اربعة ارطال وخمسة أرطال بقيراط، فصار كل رطلين بقيراط.

ومن عجيب ما يحكى أن السكر النادر الأسمر كان كل رطل بدرهم، وكان السكر الأبلوج المصري النقي كل رطل بدرهمين، فصار السكر الأسمركل رطل بثلاثة دراهم ونصف، والسكر الأبلوج كل رطل بثلاثة دراهم وربع، وسببه أن الأمراض لما كثرت، واشتد الوباء قال النساء: هذه الأمراض باردة والسكر الأسمر حار، فينفع منها، والأبلوج بارد يقويها، وتبعهن الأطباء استمالة لقلوبهن ولجهلهن، فغلا الأسمر بهذا السبب، وهذا من الجهل المفرط، وما زالت الأشياء هكذا إلى أول الصيف، واشتد الوباء، وكثر الموت والمرض في الناس، فكان يحمل على النعش الواحد عدة من الموتى، فممَّن مات فيه شيخنا عبد المحسن بن عبد الله الخطيب الطوسي خطيب الموصل، وكان من صالحي المسلمين، وعمره ثلاث وثمانون سنة وشهور.

وفيها انخسف القمر ليلة الثلاثاء خامس عشر صفر.

وفيها هرب أمير حاج العراق، وهو حسام الدين أبو فراس الحلي الكردي الوارمي، وهو ابن أخي الشيخ ورام، كان عمه من صالحي المسلمين وخيارهم من أهل الحلة السيفية، فارق الحاج بين مكَّة والمدينة، وسار إلى مصر، حكى لي بعض أصدقائه انه إنما حمله على الهرب كثرة الخرج في الطريق، وقلة المعونة من الخليفة، ولما فارق الحاج خافوا خوفاً شديداً من العرب، فأمن الله خوفهم ولم يرفعهم ذاعر في جميع الطريق، ووصلوا آمنين إلا أن كثيراً من الجمال هلك اصابها غدَّة عظيمة لم يسلم إلا القليل.

وفيها في آب جاء مطر شديد ورعد وبرق، ودام حتى جرت الأودية وامتلأت الطرق

بالوحل، ثم جاء الخبر من العراق والشام والجزيرة وديار بكر، انه كان عندهم مثله، ولم يصل إلينا احد الا واخبر ان المطر كان عندهم في ذلك التاريخ.

وفيها كان في الشتاء ثلج كثير، ونزلت بالعراق، فسمعت انه نزل في جميع العراق حتى في البصرة، أما الى واسط فلا شك فيه، وأما البصرة فإن الخبر لم يكثر عندنا بنزوله فيها.

وفيها خرجت قلعة الزعفران من أعمال الموصل، وهي حصنٌ مشهور يعرف قديماً بدير الزعفران، وهو على جبل عال قريب من فرشابور.

وفيها ايضا خربت القلعة الجديدة من بلد الهكارية من اعمال الموصل ايضا، وأضيف عملها وقراها الى العمادية.

وفيها في ذي الحجة سار جلال الدين بن خوارزم شاه من تبريز الى بلد الكرج قاصداً لأخذ بلادهم واستئصالهم، وخرجت السنة، ولم يبلغنا انه فعل بهم شيئاً، ونحن نذكر ما فعله بهم سنة ثلاث وعشرين وستمائة إن شاء الله.

وفيها ثالث شباط سقط ببغداد ثلج، وبرد الماء برداً شديداً، وقوي البرد حتى مات به جماعة من الفقراء.

وفيها في ربيع الأول، زادت دجلة زيادة عظيمة، واشتغل الناس بإصلاح سكر القورج، وخافوا، فبلغت الزيادة قريبا من الزيادة الأولى، ثم نقص الماء، واستبشر الناس.

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة

ذكر ملك جلال الدين تفليس

في هذه السنة ثامن ربيع الأول فتح جلال الدين بن خوارزمشاه مدينة تفليس من الكرج، وسببُ ذلك ـ انا قد ذكرنا سنة اثنتين وعشرين وستمائة ـ الحرب بينه وبينهم، وانهزامهم منه، وعوده إلى تبريز، بسبب الخلف الواقع فيها، فلما استقر الأمر في أذربيجان عاد الى بلد الكرج في ذي الحجة من السنة، وخرجت سنة اثنتين وعشرين وستمائة، ودخلت هذه السنة ـ فقصد بلادهم، وقد عادوا وحشدوا وجمعوا من الأمم المجاورة لهم اللان، واللكز، وقفجاق، وغيرهم، فاجتمعوا في جمع كثير لا يحصى، فطمعوا بذلك، ومنتهم أنفسهم الأباطيل، ووعدهم الشيطان الظفر ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾[1] فلقيهم وجعل لهم الكمين في عدَّة مواضع، والتقوا واقتتلوا، فولى الكرج منهزمين، لا يلوي الأخ على أخيه، ولا الوالد على ولده، وكل منهم قد أهمَّته نفسه، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب، فلم ينج منهم الا اليسير الشاذ الذي لا يعبأ به، وأمر جلال الدين عسكره أن لا يبقوا على أحد، وان يقتلوا من وجدوا، فتبعوا المنهزمين يقتلونهم، وأشار عليه اصحابه بقصد تفليس دارملكهم، فقال: لا حاجة لنا إلى ان نقتل رجالنا تحت الأسوار، إنما اذا افنيت الكرج اخذت البلاد صفوا عفواً، ولم تزل العساكر تتبعهم، وتستقصي في طلبهم الى ان كادوا يفنونهم، فحينئذ قصد تفليس، ونزل بالقرب منها، وسار في بعض الأيام في طائفة من العسكر، وقصدها لينظر اليها،ويبصر مواضع النزول عليها، وكيف يقاتلها، فلما قاربها كمن اكثر العسكر الذي معه في عدَّة مواضع، ثم تقدم اليها في نحو ثلاثة آلاف فارس، فلما رآه من بها من الكرج طمعوا فيه لقلة من معه، ولم يعلموا ما معهم، فظهروا اليه، فقاتلوه

---

(١) سورة النساء ١٢٠.

فتأخر عنهم، فقوي طمعهم، فظنوه منهزما فتبعوه، فلما توسطوا العساكر خرجوا عليهم، ووضعوا السيف فيهم، فقتل اكثرهم وانهزم الباقون الى المدينة، فدخلوها وتبعهم المسلمون، فلما وصلوا اليها نادى المسلمون من اهلها بشعار الإسلام، وباسم جلال الدين، فألقى الكرج بأيديهم واستسلموا لأنهم كانوا قد قتل رجالهم في الوقعات المذكورة فقلّ عددهم، وملئت قلوبهم خوفا ورعبا، فملك المسلمون البلد عنوة وقهراً بغير أمان، وقتل كل من فيه من الكرج، ولم يبق على كبير ولا صغير إلا من اذعن بالإسلام، وأقر بكلمتي الشهادة، فإنهم أبقى عليهم، وأمرهم فتختنوا وتركهم، ونهب المسلمون الأموال، وسبوا النساء واسترقوا الأولاد، ووصل إلى المسلمين الذين بها بعض الأذى من قتل ونهب وغيره.

وهذه تفليس من أحصن البلاد وأمنعها، وهي على جانبي نهر الكرج، وهو نهر كبير، ولقد جل هذا الفتح وعظم موقعه في بلاد الإسلام، وعند المسلمين، فإن الكرج كانوا قد استطالوا عليهم، وفعلوا بهم ما ارادوا، فكانوا يقصدون اي بلاد أذربيجان ارادوا، فلا يمنعهم عنها مانع، ولا يدفعهم عنها دافع، وهكذا أرزن الروم، حتى إن صاحبها لبس خلعة ملك الكرج، ورفع على رأسه علماً منه في اعلاه صليب، وتنصر ولده رغبة في نكاح ملكة الكرج، وخوفاً منهم ليدفع الشر عنه، وقد تقدمت القصة، وهكذا دربند شروان، وعظم امرهم الى حد ان ركن الدين بن قلج ارسلان صاحب قونية، واقصرا، وملطية، وسائر بلاد الروم التي للمسلمين جمع عساكره وحشد معها غيرها فاستكثر، وقصد أرزن الروم، وهي لأخيه طغرل شاه بن قلج ارسلان، فأتاه الكرج وهزموه، وفعلوا به وبعسكره كل عظيم، وكان أهل دربند شروان معهم في الضنك والشدة، وأما ارمينية فإن الكرج دخلوا مدينة أرجيش، وملكوا قرس وغيرها، وحصروا خلاط، فلولا أن الله سبحانه منَّ على المسلمين بأسر ايواني مقدَّم عساكر الكرج لملكوها، فاضطر اهلها الى ان بنوا لهم بيعة في القلعة، يضرب فيها الناقوس، فرحلوا عنهم، وقد تقدم تفصيل هذه الجملة، ولم يزل هذا الثغر من اعظم الثغور ضرراً، على المجاورين من الفرس قبل الإسلام، وعلى المسلمين بعدهم من اول الإسلام إلى الآن ولم يقدم احد عليهم هذا الإقدام، ولا فعل بهم هذه الأفاعيل، فإن الكرج ملكوا تفليس سنة خمس عشرة وخمسمائة، والسلطان حينئذ محمود بن محمد ابن ملكشاه السلجوقي، وهو من اعظم السلاطين منزلة، وأوسعهم مملكة، وأكثرهم

عساكر، فلم يقدر على منعهم عنها هذا مع سعة بلاده، فإنه كان له الري وأعمالها، وبلد الجبل، واصفهان، وفارس، وخوزستان، والعراق وأذربيجان، وأران، وأرمينية، وديار بكر والجزيرة، والموصل، والشام وغير ذلك وعمُّه السلطان سنجر له خراسان، وما وراء النهر، فكان اكثر بلاد الإسلام بأيديهم، ومع هذا فإنه جمع عساكره سنة تسع عشرة وخمسمائة، وسار إليهم بعد ان ملكوها، فلم يقدر عليهم، ثم ملك بعده اخوه السلطان مسعود، فكذلك، وملك الدكز بلد الجبل والري وأذربيجان وأران، واطاعه صاحب خلاط، وصاحب فارس، وصاحب خوزستان، وجمع وحشد لهم، وكان قصاراه ان يتخلص منهم، ثم ابنه البهلوان بعده، وكانت البلاد في أيام أولئك كثيرة الأموال والرجال، فلم يحدثوا انفسهم بالظفر بهؤلاء حتى جاء هذا السلطان، والبلاد خراب قد اضعفها الكرج اولا، ثم استأصلتها التتر - لعنهم الله - على ما ذكرنا - ففعل بهم هذه الأفاعيل، فسبحان من إذا أراد أمرا قال له كن فيكون.

ذكر مسير مظفر الدين صاحب اربل الى الموصل وعوده عنها

في هذه السنة في جمادى الآخرة، سار مظفر الدين بن زين الدين، صاحب اربل الى اعمال الموصل قاصداً اليها، وكان السبب في ذلك انه استقرَّت القاعدة بينه وبين جلال الدين بن خوارزمشاه، وبين الملك المعظم صاحب دمشق، وبين صاحب آمد، وبين ناصر الدين صاحب ماردين، ليقصدوا البلاد التي بيد الأشرف، ويتغلبوا عليها، ويكون لكل منهم نصيب ذكره، واستقرت القواعد بينهم على ذلك، فبادر مظفر الدين الى الموصل، واما جلال الدين، فإنه سار من تفليس يريد خلاط، فأتاه الخبر أن نائبه ببلاد كرمان ، واسمه بلاق حاجب قد عصى عليه - على ما نذكره - فلما أتاه الخبر بذلك ترك خلاط ولم يقصدها إلا أن عسكره نهب بعض بلدها ، وخربوا كثيراً منه ، وسار مجداً إلى كرمان ، فانفسخ جميع ما كانوا عزموا عليه إلا أن مظفر الدين سار من إربل، ونزل على جانب الزاب ، ولم يمكنه العبور الى بلد الموصل ، وكان بدر الدين قد أرسل من الموصل إلى الأشرف، وهو بالرقة يستنجده، ويطلب منه أن يحضر بنفسه الموصل ليدفعوا مظفر الدين ، فسار منها الى حرّان، ومن حرَّان إلى دنيسر فخرب بلد ماردين ، وأهلكه تخريباً ونهباً، وأما المعظم صاحب دمشق ، فإنه قصد بلد حمص وحماة ، وأرسلت إلى مظفر الدين ليرجع عن بلد الموصل ، فرحل الأشرف عن

ماردين ، وعاد كل منهم إلى بلده، وخربت أعمال الموصل ، وأعمال ماردين بهذه الحركة ، فإنها كانت قد أجحف بها تتابع الغلاء ، وطول مدته ، وجلاء أكثر أهلها ، فأتتها هذه الحادثة ، فازدادت خراباً.

ذكر عصيان كرمان على جلال الدين ومسيره اليها

في هذه السنة في جمادى الآخرة، وصل الخبر الى جلال الدين ان نائبه بكرمان، وهو امير كبير اسمه بلاق حاجب، قد عصى عليه، وطمع في البلد ان يتملكها، ويستبد بها لبعد جلال الدين عنها واشتغاله ـ بما ذكرناه ـ من الكرج وغيرهم، وانه ارسل الى التتر يعرفهم قوة جلال الدين، وملكه كثيراً من البلاد، وان اخذ الباقي عظمت مملكته، وكثرت عساكره، وسار اليكم وأخذ ما بأيديكم من البلاد، فلما سمع جلال الدين ذلك، وكان قد سار يريد خلاط، فتركها وسار الى كرمان يطوي المراحل أرسل بين يديه رسولاً إلى صاحب كرمان، ومعه الخلع ليطمئن ويأتيه، وهو غير محتاط، ولا مستعد للامتناع منه، فلما وصل الرسول علم ان ذلك مكيدة عليه لما يعرفه من عادته، فأخذ ما يعزّ عليه، وصعد الى قلعة منيعة، فتحصن بها، وجعل من يثق اليه من اصحابه في الحصون يمتنعون بها، وأرسل الى جلال الدين يقول: إنني أنا العبد والمملوك، ولما سمعت بمسيرك الى هذه البلاد اخليتها لك لأنها بلادك، ولو علمت انك تبقى علي لحضرت بابك، ولكني اخاف، وهذا جميعه والرسول يحلف له ان جلال الدين بتفليس، وهو لا يلتفت الى قوله، فعاد الرسول، فعلم جلال الدين انه لا يمكنه أخذ ما بيده من الحصون لأنه يحتاج ان يحصرها مدة طويلة، فوقف بالقرب من اصفهان، وارسل اليه الخلع وأقره على ولايته، فبينما الرسل تتردَّد اذ وصل رسول من وزير جلال الدين اليه من تفليس يعرفه ان عسكر الملك الأشرف الذي بخلاط قد هزموا بعض عسكره، واوقعوا بهم، ويحثه على العود الى تفليس، فعاد اليها مسرعا.

ذكر الحرب بين عسكر الأشرف وعسكر جلال الدين

لما سار جلال الدين الى كرمان ترك بمدينة تفليس عسكرا مع وزيره شرف الملك، فقلت عليهم الميرة، فساروا الى اعمال ارزن الروم، فوصلوا اليها ونهبوها وسبوا النساء، وأخذوا من الغنائم شيئا كثيرا لا يحصى وعادوا، فكان طريقهم على اطراف ولاية خلّاط، فسمع النائب من الأشرف بخلاط، وهو الحاجب حسام الدين على الموصل،

فجمع العسكر، وسار اليهم، فأوقع بهم، واستنقذ ما معهم من الغنائم، وغنم كثيرا ممّا معهم، وعاد هو وعساكره سالمين، فلما فعل ذلك خاف وزير جلال الدين منهم، فأرسل الى صاحبه بكرمان يعرفه الحال، ويحثه على الوصول اليه، ويخوفه عاقبة التواني والاهمال، فرجع فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة الخليفة الظاهر بأمر الله

في هذه السنة في الرابع عشر من رجب توفّي الإمام الظاهر بأمر الله، أمير المؤمنين، أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله، أبي العباس احمد بن المستضيء بأمر الله ،وقد تقدَّم نسبه عند وفاة أبيه رضي الله عنهما،فكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يوما، وكان نعم الخليفة جمع الخشوع مع الخضوع لربه، والعدل والإحسان إلى رعيته، وقد تقدم عند ذكر ولايته الخلافة من افعاله ما فيه كفاية، ولم يزل كل يوم يزداد من الخير والإحسان الى الرعية، فرضي الله عنه وأرضاه، واحسن متقلبه ومثواه، فلقد جدد من العدل ما كان دارسا، وأذكر من الاحسان ما كان منسيا، وكان قبل وفاته اخرج توقيعا الى الوزير بخطه على أرباب الدولة وقال الرسول: (امير المؤمنين يقول: ليس غرضنا ان يقال: برز مرسوم أو نفذ مثال، ثم لا يبين له أثر بل انتم الى امام فعال احوج منكم إلى امام قوال) فقرؤه، فإذا أوله بعد البسملة ﴿اعلموا أنه ليس إمهالنا إهمالا ،ولا اغضاؤنا إغفالا، ولكن لنبلوكم أيكم احسن عملا، وقد عفونا لكم ما سلف، من اخراب البلاد، وتشريد الرعايا، وتقبيح الشريعة، وإظهار الباطل الجلي في صورة الحق الخفي حيلة ومكيدة ، وتسمية الاستئصال والاحتياج استيفاء، واستدراكا لأغراض، انتهزتم فرصها مختلسة من براثن ليث باسل، وأنياب أسد مهين، تتفقون بألفاظ مختلفة على معنى ، وأنت أمناؤه وثقاته، فتميلون رأيه إلى هواكم، وتمزجون باطلكم بحقه، فيطيعكم وأنتم له عاصون، ويوافقكم وانتم له مخالفون، والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم امنا، وبفقركم غنى، وبباطلكم حقا، ورزقكم سلطانا يقيل العثرة ،ولا يؤاخذ إلا من اصر، ولا ينتقم الا ممن استمر، يأمركم بالعدل، وهو يريده منكم، وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم يخاف الله تعالى فيخوفكم مكره ، ويرجو الله تعالى ويرغبكم في طاعته، فإن سلكتم مسالك نواب خلفاء الله في ارضه وأمنائه على خلقه، وإلا هلكتم والسلام﴾، ولما توفّي وجدوا في بيت في داره الوف رقاع كلها مختومة لم

يفتحها، فقيل له: ليفتحها. فقال: لا حاجة لنا فيها كلها سعايات، ولم أزل ـ علم الله سبحانه مذ ولي الخلافة ـ أخافُ عليه قصر المدة لخبث الزمان، وفساد أهله، وأقول: لكثير من اصدقائنا، وما اخوفني ان تقصر مدة خلافته لان زماننا وأهله لا يستحقون خلافته، فكان كذلك.

ذكر خلافة ابنه المستنصر بالله

لما توفّي الظاهر بأمر الله بويع بالخلافة ابنه الأكبر أبو جعفر المنصور، ولقب المستنصر بالله، وسلك في الخير والإحسان إلى الناس سيرة أبيه رضي الله عنه، وأمر فنودي ببغداد بإفاضة العدل، وان من كان له حاجة أو مظلمة يطالع بها تقضى حاجته، وتكشف مظلمته، فلما كان أول جمعة أتت على خلافته اراد ان يصلي الجمعة في المقصورة التي كان يصلي فيها الخلفاء، فقيل له ان المطبق الذي يسلك فيه اليها خراب لا يمكن سلوكه، فركب فرسا وسار الى الجامع جامع القصر ظاهرا، يراه الناس بقميص أبيض وعمامة بيضاء بسكاكين حرير، ولم يترك احداً يمشي معه من اصحابه بالصلاة الى الموضع الذي كان يصلّي فيه، وسار هو ومعه خادمان، وركابدار لا غير، فصلى وعاد، وكذلك الجمعة الثانية حتى اصلح له المطبق، وكان السعر قد تحرك بعد وفاة الظاهر بأمر الله رضي الله عنه، فبلغت الكارة ثمانية عشر قيراطا، فأمر أن تباع الغلات التي له كل كارة بثلاثة عشر قيراطا، فرخصت الأسعار، واستقامت الأمور.

ذكر الحرب بين كيقباذ وصاحب آمد

في هذه السنة في شعبان سار علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج ارسلان ملك بلاد الروم الى بلاد الملك المسعود صاحب آمد، وملك عدّة من حصونه، وسبب ذلك ما ذكرناه، من اتفاق صاحب آمد مع جلال الدين خوارزمشاه، والملك المعظم صاحب دمشق، وغيرهما على خلاف الأشرف، فلما رأى الأشرف ذلك أرسل إلى كيقباذ ملك الروم، وكانا متفقين يطلب منه أن يقصد بلد صاحب آمد، ويحاربه، وكان الأشرف حينئذ على ماردين، فسار ملك الروم الى ملطيّة ـ وهي له ـ فنزل عندها، وسيّر العساكر الى ولاية صاحب آمد، ففتحوا حصن منصور وحصن شمكازاد وغيرها، فلما رأى صاحب آمد ذلك راسل الأشرف، وعاد الى موافقته، فأرسل الأشرف إلى كيقباذ يعرفه،

ذلك ويقول له ليعيد الى صاحب آمد ما أخذ منه، فلم يفعل، وقال: لم اكن نائباً للأشرف يأمرني وينهاني، فاتفق ان الأشرف سار الى دمشق ليصلح أخاه الملك المعظم، وأمر العساكر التي له بديار الجزيرة بمساعدة صاحب آمد ان اصر ملك الروم على قصده، فسارت عساكر الأشرف الى صاحب آمد، وقد جمع عسكره ومن بلاده ممن يصلح للحرب، وسار الى عسكر ملك الروم، وهم يحاصرون قلعة الكختا، فالتقوا هناك في شوال، فانهزم صاحب آمد ومن معه من العسكر هزيمة عظيمة، وجرح كثير، وأسر، وملك عسكر كيقباذ قلعة الكختا بعد الهزيمة وهي من أمنع الحصون والمعاقل فلما ملكوه عادوا الى صاحبهم.

ذكر حصر جلال الدين مدينتي آني وقرس

في هذه السنة في رمضان، عاد جلال الدين من كرمان كما ذكرناه الى تفليس، وسار منها الى مدينة آني، وهي للكرج، وبها إيوائي مقدّم عساكر الكرج، فيمن بقي معه من اعيان الكرج، فحصره وسيّر طائفة من العسكر الى مدينة قرس، وهي للكرج ايضا، وكلاهما من احصن البلاد وامنعها، فنازلهما وحضرهما، وقاتل من بهما ونصب عليهما المجانيق، وجدّ في القتال عليهما، وحفظهما تلكرج وبالغوا في الحفظ والاحتياط لخوفهم منه ان يفعل بهم ما فعل بأشياعهم من قبل بمدينة تفليس، وأقام عليهما الى ان مضى بعض شوال، ثم ترك العسكر عليهما يحصرونهما، وعاد الى تفليس، وسار من تفليس مجداً الى بلاد ابخاز وبقايا الكرج، فأوقع بمن فيها، فنهب وقتل وسبى وخرَّب البلاد واحرقها، وغنم عساكره ما فيها، وعاد منها الى تفليس.

ذكر حصر جلال الدين خلاط

قد ذكرنا ان جلال الدين عاد من مدينة آني الى تفليس، ودخل بلاد ابخاز، وكان رحيله مكيدة لأنه بلغه ان النائب عن الملك الأشرف، وهو الحاجب حسام الدين على مدينة خلاط قد احتاط، واهتم بالأمر، وحفظ البلاد لقربه منه، فعاد الى تفليس ليطمئن أهل خلاط، وتركوا الاحتياط والاستظهار، ثم يقصدهم بغتة، فكانت غيبته ببلاد ابخاز عشرة ايام، وعاد وسار مجدًا على عادته، فلم يكن عنده من يراسل نواب الأشرف بالأخبار لفجأهم على غفلة منهم، وإنما كان عنده بعض ثقاته يعرفهم أخباره، وكتب

اليهم يحذرهم، فوصل الخبر اليهم قبل وصوله بيومين، ووصل جلال الدين، فنازل مدينة ملازكرد يوم السبت ثالث عشر ذي القعدة، ثم رحل عنها، فنازل مدينة خلاط يوم الاثنين خامس عشر، فلم ينزل حتى زحف اليها، وقاتل اهلها قتالاً شديداً، فوصل عسكره سور البلد، وقتل بينهم قتلى كثيرة، ثم زحف اليها مرة ثانية، وقاتل اهل البلد قتالاً عظيماً، فعظمت نكايةالعسكر في أهل خلاط، ووصلوا الى سور البلد، ودخلوا الربض الذي له، ومدوا أيديهم في النهب وسبي الحريم، فلما رأى اهل خلاط ذلك تذامروا، وحرض بعضهم بعضا فعادوا الى العسكر، فقاتلوهم وأخرجوهم من البلد، وقتل بينهم خلقٌ كثير، وأسر العسكر الخوارزمي من أمراء خلاط جماعة، وقتل منهم كثير وترجل الحاجب علي ووقف في نحر العدو وأبلى بلاء عظيما، ثم إن جلال الدين استراح عدة أيام، وعاود الزحف مثل أول يوم، فقاتلوه حتى ابعدوا عسكره عن البلد، وكان أهل خلاط مجدين في القتال حريصين على المنع عن انفسهم لما رأوا من سوء سيرة الخوارزميين ونهبهم البلاد، وما فيهم من الفساد، فهم يقاتلون قتال من يمنع عن نفسه وحريمه وماله، ثم أقام عليها إلى أن اشتدَّ البرد، ونزل شيء من الثلج ، فرحل عنها يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذي الحجة من السنة، وكان سبب رحيله مع خوف الثلج ما بلغه عن التركمان الإيوائية من الفساد ببلاده.

ذكر ايقاع جلال الدين بالتركمان الايوائية

كان التركمان الايوائية قد تغلبوا على مدينة أشتر وأرمية من نواحي اذربيجان، وأخذوا الخراج من اهل خوي ليكفوا عنهم، واغتروا باشتغال جلال الدين بالكرج، وبعدهم بخلاط، وازداد طمعهم وانبسطوا بأذربيجان ينهبون ويقطعون الطريق، والأخبار تأتي الى خوارزمشاه جلال الدين، وهو يتغافل عنهم لاشتغاله بما هو أهم عنده، وبلغ من طمعهم انهم قطعوا الطريق بالقرب من تبريز، واخذوا من تجار اهلها شيئاً كثيراً، ومن جملة ذلك أنهم اشتروا غنماً من ارزن الروم، وقصدوا بها تبريز، فلقيهم الايوائية قبل وصولهم الى تبريز، فأخذوا جميع ما معهم، ومن جملته عشرون الف رأس غنم، فلما اشتد ذلك على الناس، وعظم الشر أرسلت زوجة جلال الدين ابنة السلطان طغرل ونوابه في البلاد إليه يسغيثون، ويعرفونه أن البلاد قد خرَّبها الإيوائية، ولئن لم يلحقها وإلا هلكت بالمرة، فاتّفق هذا الى خوف الثلج ، فرحل عن خلاط وجدَّ السير الى

الايوائية، وهم آمنـون مطمئنـون لعلمهم ان خوارزمشـاه على خلّاط، وظنـوا انه لا يفارقها ، فلولا هذا الاعتقاد لصعدوا إلى جبال لهم منيعة شاهقة لا يرتقى اليهـا إلا بمشقة وعناء، فإنهم كانوا إذا خافوا صعدوا اليها، وامتنعوا بها، فلم يرعهم إلا والعساكر الجلالية قد احاطت بهم،وأخذهم السيف من كل جانب، فأكثروا القتل فيهم والنهب والسبي، واسترقوا الحريم والأولاد واخذوا من عندهم ما لا يدخل تحت الحصر، فرأوا كثيرا من الأمتعة التي اخذوها من التجار بحالها في الشذوات لم تحل هذا سوى ما كانوا قد حلوه، وفصلوا، فلما فرغ عاد الى تبريز.

ذكر الصلح بين المعظم والأشرف

نبتدىء بذكـر سبب الاختلاف ، فنقـول لما توفّي الملك العادل أبـو بكر بن أيوب ، اتفق أولاده الملوك بعده إتفاقاً حسناً ، وهم الملك الكامـل محمد صـاحب مصر ، والملك المعظم عيسى صاحب دمشق ، والبيت المقدس ومـا يجاورهـا من البلاد ، والملك الأشرف موسى ، وهو صـاحب ديار الجـزيرة وخـلاط ، واجتمعت كلمتهم على دفع الفرنج عن الديار المصرية ، ولما رحل الكامل عن دمياط لما كان الفرنج يحصرونها صادفه أخوه المعظم من الغدّ ، وقويت نفسه وثبّت قدمه ، ولولا ذلك لكان الأمر عظيماً ، وقد ذكرنا ذلك مفصلاً ، ثم إنه عاد من مصر ، وسار إلى أخيه ببلاد الجزيرة مرتين يستنجده على الفرنج ، ويحثه على مساعدة أخيه الكامل ، ولم يزل به حتى أخذه ، وسار إلى مصر ، وأزالوا الفرنج عن الديار المصرية ـ كما ذكرناه قبل ـ فكان اتفاقهم سبباً لحفظ بلاد الإسلام ، وسرَّ الناس أجمعون بذلك ، فلما فارق الفرنج مصر ، وعاد كل من الملوك أولاد العادل إلى بلده بقوا كذلك يسيراً ، ثمَّ سار الأشرف إلى أخيه الكامل بمصر ، فاجتاز بأخيه المعظم بدمشق ، فلم يستصحبه معه ، وأطال المقام بمصر ، فلا شك أن المعظم سار إلى مدينة حماة وحصرها ، فأرسل إليه أخواه من مصر ورحّلاه عنها كارهاً ، فازداد نفوراً ، وقيل إنه نقل إليه عنهما أنهما اتفقا عليه ـ والله أعلم بذلك ـ ثم انضاف إلى ذلك أن الخليفة الناصر لدين الله ـ رضي الله عنه ـ كان قد استوحش من الكامل لما فعله ولده صاحب اليمن بمكة من الاستهانة بأمير الحاج العراقي ، فأعرض عنه وعن أخيه الأشرف لاتفاقهما ، وقاطعهما ، وراسل مظفر الدين كوكبري بن زين الدين على صاحب إربل لعلمه بانحرافه عن الأشرف واستماله ، واتفقا

على مراسلة المعظم ، وتعظيم الأمر عليه، فمال إليهما ، وانحرف عن أخويه ، ثم اتّفق ظهور جلال الدين ، وكثرة ملكه ، فاشتد الأمر على الأشرف بمجاورة جلال الدين خوارزمشاه ولاية خلاط ، ولان المعظم بدمشق، يمنع عنه عساكر مصر ان تصل إليه، وكذلك عساكر حلب وغيرها من الشام ، فرأى الأشرف ان يسير إلى أخيه المعظم بدمشق ، فسار إليه في شوال واستماله وأصلحه، فلما سمع الكامل بذلك عظم عليه وظنَّ أن اتفاقهما عليه ، ثم إنهما راسلاه وأعلماه بنزول جلال الدين على خلاط ، وعظَّما الأمر عليه ، وأعلماه أن هذه الحال تقتضي الاتفاق لعمارة البيت العادلي، وانقضت السنة والأشرف بدمشق ، والناس على موضعهم ينتظرون خروج الشتاء ، ما يكون من الخوارزميين وسنذكر ما يكون سنة أربع وعشرين وستمائة إن شاء الله تعالى.

ذكر الفتنة بين الفرنج والأرمن

في هذه السنة جمع البرنس الفرنجي صاحب انطاكية جموعا كثيرة، وقصد الارمن الذين في الدروب من بلاد ابن ليون، فكان بينهم حربٌ شديدةٌ وسبب ذلك ان ابن ليون الأرمني، صاحب الدروب، توفي قبل ولم يخلف ولدا ذكرا إنما خلف بنتا فملَّكها الأرمن عليهم، ثم علموا ان الملك لا يقوم بامرأة، فزوجوها من ولد البرنس، فتزوجها وانتقل الى بلدهم، واستقر في الملك نحو سنة، ثم ندموا على ذلك، وخافوا ان يستولي الفرنج على بلادهم، فثاروا بابن البرنس فقبضوا عليه وسجنوه، فأرسل أبوه يطلب أن يطلق ويعاد في الملك، فلم يفعلوا، فأرسل الى بابا ملك الفرنج برومية الكبرى يستأذنه في قصد بلادهم، وهذا ملك رومية أمره عند الفرنج لا يخالف، فمنعه عنهم. وقال: إنهم اهل ملتنا ولا يجوز قصد بلادهم، فخالفه وأرسل الى علاء الدين كيقباذ ملك قونية وملطية وما بينهما من بلاد المسلمين، وصالحه ووافقه على قصد بلاد ابن ليون، والاتفاق على قصدها، فاتفقا على ذلك، وجمع البرنس عساكره ليسير الى بلاد الارمن، فخالف عليه الداوية والاسبتار وهما جمرة الفرنج، فقالوا: إن ملك رومية نهانا عن ذلك إلا انه اطاعه غيرهم، فدخل اطراف بلاد الأرمن وهي مضايق وجبال وعرة، فلم يتمكن من فعل ما يريد، وأما كيقباذ، فإنه قصد بلاد الارمن من جهته، وهي اسهل مدخلا من جهة الشام، فدخلها سنة اثنتين وعشرين وستمائة، فنهبها وأحرقها وحصر عدّة حصون، ففتح اربعة حصون، وادركه الشتاء، فعاد عنها، فلما سمع بابا ملك

الفرنج برومية أرسل الى الفرنج بالشام يعلمهم أنه قد حرم البـرنس، فكان الـداوية والاسبتارية وكثير من الفرنج لا يحضرون معه ولا يسمعون قوله وكان اهل بلاده ، وهي انطاكية وطرابلس اذا جاءهم عيد يخرج من عندهم ، فإذا فرغوا من عيدهم دخل البلد، ثم إنه ارسل الى ملك رومية يشكو من الأرمن، وانهم لم يطلقوا ولده، فأرسـل الى الارمن يأمرهم بإطلاق ابنه واعادته الى الملك، فإن فعلوا والا فقد أذن له في قصد بلادهم، فلما بلغتهم الرسالة لم يطلقوا ولده، فجمع البرنس، وقصد بلاد الأرمن، فأرسل الارمن الى الاتابك شهاب الدين بحلب، يستنجدونه ويخوفونه من البرنس ان استولى على بلادهم لأنها تجاور اعمال حلب، فأمدهم بجند وسلاح، فلما سمع البرنس ذلك، صمم العزم على قصد بلادهم، فسار اليهم وحاربهم فلم يحصل على غرض، فعاد عنهم .

حدثني بهذا رجل من عقلاء النصارى ممن دخل تلك البلاد، وعرف حالها وسألت غيره فعرف البعض، وأنكر البعض.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة انخسف القمر مرتين اولاهما ليلة رابع عشر صفر.

وفيها كانت اعجوبة بالقرب من الموصل حامة تعرف بعين القيارة شديدة الحرارة تسميها الناس عين ميمون، ويخرج مع الماء قليل من القار، فكان الناس يسبحون فيها دائما في الربيع والخريف، لأنها تنفع من الأمراض الباردة كالفالج وغيره نفعا عظيما، فكان من يسبح فيها يجد الكرب الشديد من حرارة الماء، ففي هذه السنة برد الماء فيها حتى كان السابح فيها يجد البرد، فتركوها وانتقلوا الى غيرها.

وفيها كثرت الذئاب والخنازير والحيات، فقتل كثير، فلقد بلغني ان ذئبـا دخل الموصل فقتل فيها.

وحدثني صديق لنا له بستان بظاهر الموصل أنه قتل فيه في سنة اثنتين وعشرين وستمائة جميع الصيف حيثين، وقتل هذه السنة الى اول حزيران سبع حيات لكثرتها، وفيها انقطع المطر بـالموصل، واكثر البلاد الجزرية من خامس شباط الى ثـاني عشر نيسان، ولم يجر شيء يعتد به لكنه سقط اليسير منه في بعض القرى، فجاءت الغلات

قليلة ثم خرج الجراد الكثير، فازدادت الناس اذى، وكانت الأسعار قد صلحت شيئاً، فعادت لكثرة الجراد غلت ونزل ايضا في كثير من القرى برد كبير اهلك زروع اهلها وأفسدها، واختلفت اقاويل الناس في اكبره، كان وزن بردة مائتي درهم، وقيل: رطل، وقيل: غير ذلك، إلا انه اهلك كثيرا من الحيوان، وانقضت هذه السنة والغلاء باق واشتد بالموصل.

وفيها اصطاد صديق لنا أرنبا فرآه وله انثيان وذكر وفرج انثى، فلما شقوا بطنها رأوا فيها حريفين، سمعت هذا منه ومن جماعة كانوا معه، وقالوا ما زلنا نسمع ان الأرنب يكون سنة ذكرا وسنة أنثى، ولا نصدق بذلك، فلما رأينا هذا علمنا أنه قد حمل وهو أنثى، وانقضت السنة فصار ذكرا، فإن كان كذلك فيكون في الارانب كالخنثى من بني آدم يكون لأحدهم فرج الرجل وفرج الأنثى. فإني كنت بالجزيرة ولنا جار له بنت اسمها صفية، فبقيت كذلك نحو خمس عشرة سنة، إذ قد طلع لها ذكر رجل، ونبتت لحيتها، فكان لها فرج امرأة وذكر رجل.

وفيها ذبح إنسان عندنا رأس غنم، فوجد لحمه مرًّا شديد المرارة حتى رأسه واكارعه ومعلاقه وجميع اجزائه، وهذا ما لم يسمع بمثله.

وفيها في يوم الاربعاء الخامس والعشرين من ذي القعدة ضحوة النهار زلزلت الأرض بالموصل وكثير من البلاد العربية والعجمية، وكان اكثرها بشهروزر، فإنها خرب اكثرها لا سيما القلعة، فإنها اجحفت بها وخرب من تلك الناحية ست قلاع، وبقيت الزلزلة تتردد فيها نيفا وثلاثين يوما، ثم كشفها الله عنهم، وأما القرى بتلك الناحية فخرب أكثرها.

وفيها في رجب توفّي القاضي حجة الدين أبو منصور المظفر بن عبد القاهر بن الحسن بن علي بن القاسم الشهرزوري قاضي الموصل بها وكان قد اضر قبل وفاته بنحو سنتين، وكان عالما بالقضاء عفيفا نزها ذا رياسة كبيرة، وله صلات دارة للمقيم والوارد رحمه الله، فلقد كان من محاسن الدنيا، ولم يخلف غير بنت توفيت بعده بثلاثة اشهر.

ثم دخلت سنة اربع وعشرين وستمائة

ذكر دخول الكرج مدينة تفليس وإحراقها

في هذه السنة في ربيع الأول وصل الكرج مدينة تفليس، ولم يكن بها من العسكر الاسلامي من يقوم بحمايتها، وسبب ذلك ان جلال الدين لمَّا عاد من خلاط - كما ذكرنا قبل - وأوقع بالايوائية فرق عساكره إلى المواضع الحارة الكثيرة المرعى ليشتوا بها، وكان عسكره قد أساؤوا السيرة في رعية تفليس، وهم مسلمون وعسفوهم، فكاتبوا الكرج يستدعونهم اليهم ليملكوهم البلد، فاغتنم الكرج ذلك لميل اهل البلد إليهم ،وخلوه من العسكر، فاجتمعوا وكانوا بمدينتي قرس وآني وغيرهما من الحصون، وساروا الى تفليس، وكانت خالية كما ذكرناه، ولأن جلال الدين استضعف الكرج لكثرة من قتل منهم، ولم يظن فيهم حركة، فملكوا البلد، ووضعوا السيف فيمن بقي من اهله، وعلموا انهم لا يقدرون على حفظ البلد من جلال الدين، فأحرقوها جميعها، وأما جلال الدين فإنه لمَّا بلغه الخبر سار فيمن عنده من العساكر ليدركهم، فلم ير منهم احداً، كانوا قد فارقوا تفليس لمَّا احرقوها.

ذكر نهب جلال الدين بلد الإسماعيلية

في هذه السنة قتل الإسماعيلية اميراً كبيراً من أمراء جلال الدين ، وكان قد أقطعه جلال الدين مدينة كنجة واعمالها، وكان نعم الأمير كثير الخير حسن السيرة، ينكر على جلال الدين ما يفعله عسكره من النهب وغيره من الشر، فلما قتل ذلك الأمير عظم قتله على جلال الدين واشتد عليه، فسار في عساكره الى بلاد الاسماعيلية من حدود الموت الى كردكوه بخراسان، فحارب الجميع، وقتل أهلها ونهب الأموال، وسبى الحريم، واسترق الأولاد، وقتل الرجال، وعمل بهم الأعمال العظيمة وانتقم منهم،

وكانوا قد عظم شرهم وازداد ضررهم، وطمعوا مذ خرج التتر الى بلاد الإسلام الى الان، فكفَّ عاديتهم وقمعهم، ولقاهم الله ما عملوا بالمسلمين.

ذكر الحرب بين جلال الدين والتتر

لما فرغ جلال الدين من الاسماعيلية بلغه الخبر ان طائفة من التتر عظيمة قد بلغوا الى دامغان بالقرب من الري عازمين على بلاد الإسلام، فسار اليهم وحاربهم، واشتد القتال بينهم، فانهزموا منه فأوسعهم قتلا وتبع المنهزمين عدَّة ايام يقتل ويأسر، فبينما هو كذلك قد أقام بنواحي الري خوفاً من جمع آخر للتتر إذ أتاه الخبر بأن كثيراً منهم واصلون إليه، فأقام ينتظرهم وسنذكر خبرهم سنة خمس وعشرين وستمائة .

ذكر دخول العساكر الأشرفية إلى اذربيجان وملك بعضها

في هذه السنة في شعبان سار الحاجب علي حسام الدين، وهو النائب عن الملك الأشرف بخلاط، والمقدم على عساكرها الى بلاد أذربيجان فيمن عنده من العساكر، وسبب ذلك ان سيرة جلال الدين كانت جائرة وعساكره طامعة في الرعايا، وكانت زوجته ابنة السلطان طغرل السلجوقي، وهي التي كانت زوجة اوزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان، فتزوجها جلال الدين ـ كما ذكرناه قبل ـ وكانت مع اوزبك تحكم في البلاد جميعها ليس له ولا لغيره معها حكم، فلما تزوجها جلال الدين أهملها، ولم يلتفت اليها فخافته مع حرمته من الحكم والأمر والنهي، فأرسلت هي وأهل خوى الى حسام الدين الحاجب يستدعونه ليسلموا البلاد له، فسار ودخل البلاد بلاد أذربيجان، فملك مدينة خوى وما يجاورها من الحصون التي بيد امرأة جلال الدين، وملك مرندو كاتبه أهل مدينة نقجوان، فمضى اليهم، فسلموها اليه، وقويت شوكتهم بتلك البلاد، ولو داموا لملكوها جميعها إنما عادوا الى خلاَّط واستصحبوا معهم زوجة جلال الدين ابنة السلطان طغرل الى خلاط، وسنذكر باقي خبرهم سنة خمس وعشرين إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة المعظم صاحب دمشق وملك ولده

في هذه السنة توفِّي الملك المعظم عيسى بن الملك العادل ابي بكر بن ايوب صاحب دمشق يوم الجمعة سلخ ذي القعدة، وكان مرضه دوسنطاريا، وكان ملكه لمدينة

دمشق من حين وفاة والده الملك العادل عشر سنين وخمسة اشهر وثلاثة وعشرين يوما، وكان عالما بعدة علوم فاضلا فيها، منها الفقه على مذهب أبي حنيفة، فإنه كان قد اشتغل به كثيرا، وصار من المتميزين فيه، ومنها علم النحو، فإنه اشتغل به ايضا اشتغالا زائدا وصار فيه فاضلا، وكذلك اللغة وغيرها، وكان قد أمر أن يجمع له كتاب في اللغة جامع كبير فيه كتاب الصحاح للجوهري، ويضاف اليه ما فات الصحاح من التهذيب للأزهري والجمهرة لابن دويد وغيرهما، وكذلك ايضا امر بأن يرتب مسند احمد بن حنبل على الأبواب، ويرد كل حديث الى الباب الذي يقتضيه معناه، مثاله ان يجمع احاديث الطهارة، وكذلك يفعل في الصلاة، وغيرها من الرقائق والتفسير والغزوات، فيكون كتابا جامعا، وكان قد سمع المسند من بعض اصحاب ابن الحصين، ونفق العلم في سوقه، وقصده العلماء من الآفاق، فأكرمهم وأجرى عليهم الجرايات الوافرة وقربهم، وكان يجالسهم ويستفيد منهم ويفيدهم، وكان يرجع الى علم وصبر على سماعٍ ما يكره لم يسمع احد ممن يصحبه منه كلمة تسوءه وكان حسن الاعتقاد يقول كثيراً إن اعتقادي في الأصول ما سطره أبو جعفر الطحاوي ووصى عند موته بأن يكفن في البياض، ولا يجعل في اكفانه ثوب فيه ذهب، وأن يدفن في لحد، ولا يبنى عليه بناء بل يكون قبره في الصحراء تحت السماء، ويقول في مرضه: لي عند الله تعالى في أمر دمياط ما ارجو ان يرحمني به، ولما توفّي ولي بعده ابنه داود، ويلقب الملك الناصر، وكان عمره قد قارب عشرين سنة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة دام الغلاء في ديار الجزيرة، ودامت الأسعار تزيد قليلا وتنقص قليلا وانقطع المطر جميع شباط وعشرة ايام من اذار، فازداد الغلاء، فبلغت الحنطة كل مكوكين بالموصلي بدينار وقيراطين بالموصل، والشعير كل ثلاثة مكاكيك بالموصلي بدينار وقيراطين أيضاً، وكل شيء بهذه النسبة في الغلاء.

وفيها في الربيع قلَّ لحم الغنم بالموصل، وغلا سعره حتى بيع كل رطل لحم بالبغدادي بحبتين بالصنجة، وربما زاد في بعض الأيام على هذا الثمن، وحكى لي من يتولى بيع الغنم بالموصل انهم باعوا خروفا واحدا لا غير، وفي بعضها خمسة رؤوس وفي بعضها ستة، وأقل وأكثر، وهذا ما لم يسمع بمثله، ولا رأيناه في جميع اعمارنا،

ولا حُكِيَ لنا مثله لأن الربيع مظنـة رخص اللحم لأن التركمـان والأكراد والكيلكـان ينتقلون من الأمكنة التي شتوا بها الى الزوزان، فيبيعون الغنم رخيصا، وكان اللحم كل سنة في هذا الفصل يكون سعره كل ستة ارطال وسبعة بقيراط صار هذه السنة الرطل بحبتين.

وفيها عاشر آذار، وهو العشرون من ربيع الأول سقط الثلـج مرتين، وهذا غريب جدا لم يسمع بمثله، فأهلك الأزهار التي خرجت كزهر اللوز والمشمش والاجاص والسفرجل وغيرها، ووصلت الأخبار من العراق جميعه مثل ذلك، فهلكت به ازهار الثمار ايضا وهذا اعجب من حال ديار الجزيرة والشام، فإنه أشد حراً من جميعها.

وفيها ظفر جمعٌ من التركمان كانوا بأطراف اعمال حلب بفارس مشهور من الفرنج الداوية بأنطاكية، فقتلوه فعلم الداوية بذلك، فساروا وكبسوا التركمان، فقتلوا منهم وأسروا وغنموا من أموالهم، فبلغ الى اتابك شهاب الدين المتولّي لأمور حلب، فراسل الفرنج وتهدَّدهم بقصد بلادهم، واتفق ان عسكر حلب قتلوا فارسين كبيرين من الداوية ايضا؛ فأذعنوا بالصلح، وردوا الى التركمان كثيرا من اموالهم وحريمهم وأسراهم.

وفيها في رجب اجتمع طائفةٌ كثيرة من ديار بكر، وأرادوا الإغارة على جزير ابن عمر، وكان صاحب الجزيرة قد قتل، فلما قصدوا بلد الجزيرة اجتمع أهل قرية كبيرة من بلد الجزيرة، اسمها سلكون ولقوهم من ضحوة النهار الى العصر، وطال القتال بينهم، ثم حمل أهل القرية على الأكراد، فهزموهم، وقتلوا فيهم، ونهبوا ما معهم، وعادوا سالمين.

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة

ذكر الخلف بين جلال الدين واخيه

في هذه السنة خاف غياث الدين بن خوارزمشاه، وهو اخو جلال الدين من ابيه أخاه، وخافه معه جماعة من الأمراء، واستشعروا منه، وأراد الخلاص منه، فلم يتمكنوا من ذلك إلى أن خرجت التتر، واشتغل بهم جلال الدين، فهرب غياث الدين ومن معه، وقصدوا خوزستان، وهي من بلاد الخليفة، فلم يمكنهم النائب بها من الدخول الى البلد خوفا ان تكون هذه مكيدة، فبقي هناك، فلما طال عليه الأمر فارق خوزستان، وقصد بلاد الإسماعيلية، فوصل اليهم، واحتمى بهم واستجار بهم، وكان جلال الدين قد فرغ من أمر التتر، وعاد تبريز، فأتاه الخبر، وهو بالميدان يلعب بالكرة أن أخاه قد قصد اصفهان، فألقى الجوكان من يده، وسار مجدا فسمع أن أخاه قصد الإسماعيلية ملتجئاً إليهم، ولم يقصد اصفهان، فعاد الى بلاد الإسماعيلية لينهب بلادهم إن لم يسلموا إليه أخاه، وأرسل بطلبه من مقدم الإسماعيلية، فأعاد الجواب يقول: إن اخاك قد قصدنا، وهو سلطان ابن سلطان، ولا يجوز لنا ان نسلمه، لكن نحن نتركه عندنا، ولا نمكنه ان يقصد شيئاً من بلادك، ونسألك ان تشفعنا فيه والضمان علينا بما قلنا، ومتى كان منه ما تكره في بلادك، فبلادنا حينئذ بين يديك تفعل فيها ما تختار، فأجابهم الى ذلك، واستحلفهم على الوفاء بذلك، وعاد منهم، وقصد خلاط على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر الحرب بين جلال الدين والتتر

في هذه السنة عاود التتر الخروج الى الري. وجرى بينهم وبين جلال الدين حروب كثيرة، اختلف الناس علينا في عددها، كان اكثرها عليه، وفي الأخير كان الظفرُ له، وكانت في أول حرب بينهم عجائب غريبة، وكان هؤلاء التتر قد سخط ملكهم جنكزخان

على مقدمهم، وأبعده عنه، وأخرجه من بلاده، فقصد خراسان، فرآها خرابا، فقصد الري ليتغلب على تلك النواحي والبلاد، فلقيه بها جلال الدين، فاقتتلوا اشدَّ قتال، ثم انهزم جلال الدين، وعاود، ثم انهزم، وقصد اصفهان، واقام بينهما وبين الري، وجمع عساكره، ومن طاعته، فكان فيمن أتاه صاحب بلاد فارس، وهو ابن أتابك سعد ملك بعد وفاة أبيه ـ كما ذكرناه ـ وعاد جلال الدين الى التتر، فلقيهم فبينما هم مصطفون كل طائفة مقابل الأخرى، انفرد غياث الدين أخو جلال الدين، فيمن وافقه من الأمراء على مفارقة جلال الدين، واعتزلوا وقصدوا الجهة ساروا اليها، فلما رآهم التتر قد فارقوا العسكر ظنوهم يريدون ان يأتوهم من وراء ظهورهم ويقاتلوهم من جهتين، فانهزم التتر لهذا الظن، وتبعهم صاحب بلاد فارس، وأما جلال الدين، فإنه لما رأى مفارقة اخيه إياه، ومن معه من الأمراء ظنَّ ان التتر قد رجعوا خديعة ليستدرجوه، فعاد منهزما، ولم يجسر يدخل اصفهان لئلا يحصروه، فمضى الى سميدم، واما صاحب فارس، فلما أبعد في اثر التتر، ولم ير جلال الدين ولا عسكره معه خاف التتر، فعاد عنهم، وأما التتر، فلما لم يروا في آثارهم احداً يطلبهم وقفوا، ثم عادوا الى اصفهان، فلم يجدوا في طريقهم من يمنعهم، فوصلوا الى اصفهان، فحصروها، وأهلها يظنون ان جلال الدين قد عدم، فبينما هم كذلك، والتتر يحصروهم اذ وصل قاصد من جلال الدين اليهم يعرفهم سلامته، ويقول: إني متعوق او يجتمع إليَّ من سلم من العسكر وأقصدكم، ونتفق انا وانتم على ازعاج التتر، ونرحلهم عنكم، فأرسلوا اليه يستدعونه اليهم، ويعدونه النصرة والخروج معه الى عدوه، وفيهم شجاعة عظيمة، فسار اليهم واجتمع بهم، وخرج اهل اصفهان معه، فقاتلوا التتر، فانهزم التتر أقبح هزيمة، وتبعهم جلال الدين الى الري يقتل ويأسر فلما ابعدوا عن الري أقام بها، وأرسل اليه ابن جنكزخان يقول: إن هؤلاء ليسوا من اصحابنا انما نحن ابعدناهم عنا، فلما امن جانب جنكزخان امن، وعاد الى اذربيجان.

ذكر خروج الفرنج الى الشام وعمارة صيدا

وفي هذه السنة خرج كثير من الفرنج من بلادهم، التي هي في الغرب من صقلية، وما وراءها من البلاد الى بلادهم التي بالشام عكّا وصور وغيرهما من ساحل الشام، فكثر جمعهم، وكان قد خرج قبل هؤلاء جمعٌ آخر ايضا، الا انهم لم تمكنهم الحركة

والشروع في أمر الحرب لأجل ان ملكهم الذي هو المقدم عليهم هو ملك الالمان ولقبه انبرور، قيل: معناه ملك الأمراء، ولأن المعظم كان حيّاً، وكان شهماً شجاعاً مقداماً، فلما توفي المعظم ـ كما ذكرناه ـ وولي بعده ابنه، وملك دمشق طمع الفرنج، وظهروا من عكا وصور وبيروت الى مدينة صيدا، وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين ، وسورها خراب، فعمروها واستولوا عليها، وأزالوا عنها حكم المسلمين، وإنما تمَّ لهم ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها تبنين وهونين وغيرهما، وقد تقدم ذكر ذلك قبل مستقصى، فعظمت شوكة الفرنج وقوي طمعهم واستولى في طريقه على جزيرة قبرس وملكها، وسار منها الى عكا، فارتاع المسلمون لذلك، والله تعالى يخذله وينصر المسلمين بمحمد وآله، ثم إن ملكهم انبرور وصل الى الشام.

ذكر ملك كيقباذ أرزنكان

وفي هذه السنة ملك علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج ارسلان ـ وهو صاحب قونية، واقصرا وملطية، وغيرها من بلاد الروم ـ أرزنكان، وسبب ملكه اياها ان صاحبها وبهرام شاه، وكان قد طال ملكه لها، وجاوز ستين سنة توفّي ولم يزل في طاعة قلج ارسلان واولاده بعده، فلما توفي ملك بعده ولده علاء الدين داود شاه، فأرسل اليه كيقباذ يطلب منه عسكراً ليسير معه الى مدينة ارزن الروم ليحصرها، ويكون هو مع العسكر، ففعل ذلك وسار في عسكره اليه، فلما وصل قبض عليه واخذ مدينة أرزنكان منه، وله حصن من امنع الحصون اسمه كماخ، وفيه مستحفظ لداود شاه، فأرسل اليه ملك الروم يحصره، فلم يقدر العسكر على القرب منه لعلوه وارتفاعه وامتناعه، فتهدد داود شاه ان لم يسلم كماخ، فأرسل إلى نائبه في التسليم، فسلم القلعة الى كيقباذ، وأراد كيقباذ المسير الى ارزن الروم ليأخذها، وبها صاحبها ابن عمه طغرل شاه بن قلج ارسلان، فلما سمع صاحبها بذلك أرسل الى الأمير حسام الدين علي النائب عن الملك الأشرف بخلاط يستنجده، واظهر طاعة الأشرف، فسار حسام الدين فيمن عنده من العساكر، وكان قد جمعها من الشام وديار الجزيرة خوفاً من ملك الروم خافوا انه اذا ملك ارزن الروم، يتعدى او يقصد خلاط، فسار الحاجب حسام الدين إلى ارزن الروم، ومنع عنها، ولما سمع كيقباذ بوصول العساكر اليها لم يقدم على قصدها، فسار من ارزنبكان الى بلاده، وكان قد أتاه الخبر ان الروم الكفّار المجاورين لبلاده قد ملكوا منه حصناً،

يسمى صنوب، وهو من احصن القلاع مطلٌّ على البحر بحر الخزر، فلما وصل الى بلاده سيَّر العسكر اليه وحصره براً وبحراً ، فاستعاده من الروم ، وسار الى انطاكية ليشتي بها على عادته .

ذكر خروج الملك الكامل

في هذه السنة في شوال سار الملك الكامل محمد بن الملك العادل صاحب مصر الى الشام، فوصل الى البيت المقدس ـ حرسه الله تعالى ـ وجعله دار السلام أبدا، ثم سار عنه، وولى بمدينة نابلس، وشحن على تلك البلاد جميعها، وكانت من اعمال دمشق، وهو إلى الملك المعظّم، فخاف ان يقصده ويأخذ دمشق منه، فأرسل الى عمّه الملك الأشرف، يستنجده ويطلبه ليحضر عنده بدمشق، فسار اليه جريدة، فدخل دمشق فلما سمع الكامل بذلك لم يتقدَّم إليه لأن البلد منيع، وقد صار به من يمنعه ويحميه، وأرسل اليه الملك الأشرف، يستعطفه ويعرفه انه ما جاء الى دمشق إلا طاعة له وموافقة لأغراضه والاتفاق معه على منع الفرنج عن البلاد، فأعاد الكامل الجواب يقول: إني ما جئت الى هذه البلاد الا بسبب الفرنج، فانهم لم يكن في البلاد من يمنعهم عمّا يريدونه، وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية، ولم يمنعوا، وأنت تعلم ان عمّنا السلطان صلاح الدين فتح البيت المقدس، فصار لنا بذلك الذكر الجميل على تقضّي الأعصار، وممر الأيام، فإن أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر، وقبح الأحدوثة، ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي ادخره عمنا، وأي وجه يبقى لنا عند الناس، وعند الله ـ تعالى ـ ثم انهم ما يقنعون حينئذ بما اخذوه، ويتعدون الى غيره، وحيث قد حضرت انت فأنا أعود الى مصر، واحفظ انت البلاد ولست بالذي يقال عني : اني قاتلت اخي او حصرته ـ حاشى لله تعالى ـ، وتأخر عن نابلس نحو الديار المصرية، ونزل تل العجول، فخاف الأشرف ، والناس قاطبة بالشام ، وعلموا أنه إن عاد استولى الفرنج على البيت المقدس وغيره ممّا يجاوره لا مانع دونه ، فترددت الرسل ، وسار الأشرف بنفسه إلى الكامل أخيه ، فحضر عنده، وكان وصوله ليلة عيد الأضحية ، ومنعه من العود إلى مصر ، فأقاما بمكانهما .

ذكر نهب جلال الدين بلاد ارمينية

في هذه السنة وصل جلال الدين خوارزمشاه الى بلاد خلاط، وتعدى خلاط الى

صحراء موش، وجبل حور، ونهب الجميع، وسبى الحريم، واسترق الأولاد، وقتل الرجال، وخرب القرى، وعاد الى بلاده، ولما وصل الخبر الى البلاد الجزرية حرّان وسروج وغيرهما انه قد جاز خلاط الى جور، وانه قد قرب منهم، خاف اهل البلاد ان يجيء اليهم لأن الزمان كان شتاء، وظنوا انه يقصد الجزيرة ليشتي بها لأن البرد بها ليس بالشديد، وعزموا على الانتقال من بلادهم الى الشام، ووصل بعض اهل سروج الى منبج من ارض الشام، فأتاهم الخبر انه قد نهب البلاد، وعاد فأقاموا، وكان سبب عوده ان الثلج سقط ببلاد خلّاط كثيرا لم يعهد مثله، فأسرع العود.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة رخصت الأسعار بديار الجزيرة جميعها، وجاءت الغلّات لهم من الحنطة والشعير جيّداً الا ان الرخص لم يبلغ الأول الذي كان قبل الغلاء، انما صارت الحنطة كل خمس مكاكيك بدينار، والشعير كل سبعة عشر مكوكا بالموصلي بدينار.

ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة

ذكر تسليم البيت المقدس الى الفرنج

في هذه السنة أول ربيع الآخر تسلم الفرنج ـ لعنهم الله ـ البيت المقدس صلحاً ـ اعاده الله الى الاسلام سريعا ـ وسبب ذلك ـ ما ذكرناه ـ سنة خمس وعشرين وستمائة من خروج الانبرور، وملك الفرنج من بلاد الفرنج داخل البحر الى ساحل الشام، وكانت عساكره قد سبقته، ونزلوا بالساحل، وأفسدوا من يجاورهم من بلاد المسلمين، ومضى اليهم، وهم بمدينة صور طائفة من المسلمين يسكنون الجبال المجاورة لمدينة صور، واطاعوهم، وصاروا معهم، وقوي طمع الفرنج بموت الملك المعظَّم عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق، ولمَّا وصل الأنبرور الى الساحل نزل بمدينة عكًا، وكان الملك الكامل صاحب مصر قد خرج من الديار المصرية يريد الشام بعد وفاة اخيه المعظم، وهو نازل بتل العجول يريد ان يملك دمشق من صلاح الدين داود بن المعظم، وهو صاحبها يومئذ، وكان داود لما سمع بقصد عمه الملك الكامل له، قد أرسل الى عمّه الملك الأشرف صاحب البلاد الجزرية، يستنجده ويطلب منه المساعدة على دفع عمه عنه، فسار الى دمشق فترددت الرسل بينه وبين اخيه الملك الكامل في الصلح، فاصطلحا واتفقا وسار الملك الأشرف الى الملك الكامل، واجتمع به فلما اجتمعا تردّدت الرسل بينهما وبين الانبرور ملك الفرنج دفعات كثيرة، فاستقرَّت القاعدة على ان يسلموا اليه البيت المقدس ومعه مواضع يسيرة من بلاده، ويكون باقي البلاد مثل الخليل ونابلس والغور وطبرية وغير ذلك بيد المسلمين، ولا يسلم الى الفرنج إلا البيت المقدس، والمواضع التي استقرَّت معه، وكان سور البيت المقدس خرابا قد خربه الملك المعظم، وقد ذكرنا ذلك، وتسلم الفرنج البيت المقدس، واستعظم المسلمون ذلك واكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه يسَّر الله فتحه، وعوده الى المسلمين بمنه وكرمه. آمين.

ذكر ملك الملك الأشرف مدينة دمشق

وفي هذه السنة يوم الاثنين ثاني شعبان، ملك الملك الأشرف بن الملك العادل ـ مدينة دمشق من ابن اخيه صلاح الدين داود بن المعظم، وسبب ذلك ما ذكرناه ـ ان صاحب دمشق لمّا خاف من عمه الملك الكامل أرسل الى عمه الأشرف، يستنجده ويستعين به على دفع الكامل، فسار اليه من البلاد الجزرية، ودخل دمشق، وفرح به صاحبها وأهل البلد، وكانوا قد احتاطوا وهم يتجهزون للحصار، فأمر بإزالة ذلك، وترك ما عزموا عليه من الاحتياط، وحلف لصاحبها على المساعدة، والحفظ له ولبلاده عليه، وراسل الملك الكامل، واصطلحا وظنّ صاحب دمشق انه معهما في الصلح، وسار الأشرف الى اخيه الكامل، واجتمعا في ذي الحجة من سنة خمس وعشرين يوم العيد، وسار صاحب دمشق الى بيسان، وأقام بها وعاد الملك الأشرف من عند أخيه، واجتمع هو وصاحب دمشق، ولم يكن الأشرف في كثرة من العسكر، فبينما هما جالسان في خيمة لهما، وإذ قد دخل عز الدين أيبك مملوك المعظَّم الذي كان صاحب دمشق، وهو أكبر أمير مع ولده فقال لصاحبه داود قم اخرج، والاقبضت الساعة، فأخرجه ولم يمكن الأشرف منعه لأن أيبك كان قد أركب العسكر الذي له جميعه، وكانوا أكثر من الذين مع الأشرف، فخرج داود، وسار هو وعسكره الى دمشق، وكان سبب ذلك أن أيبك قيل له ان الأشرف يريد القبض على صاحبه واخذ دمشق منه ففعل ذلك، فلما عادوا وصلت العساكر من الكامل الى الأشرف، وسار فنازل دمشق وحصرها وأقام محاصرا لها الى ان وصل اليه الملك الكامل، فحينئذ اشتد الحصار، وعظم الخطب على أهل البلد، وبلغت القلوب الحناجر. وكان من أشد الأمور على صاحبها ان المال عنده قليل لأن امواله بالكرك، ولوثوقه بعمه الأشرف لم يحضر منها شيئا، فاحتاج الى ان باع حلي نسائه وملبوسهم ، وضاقت الأمور عليه ، فخرج الى عمه الكامل، وبذل له تسليم دمشق، على ان يبقي عليه الكرك وقلعة الشويك والغور ونابلس وتلك الأعمال، وان يبقى على ايبك قلعة صرخد واعمالها، وتسليم الكامل دمشق، وجعل نائبه بالقلعة الى ان سلم اليه اخوه الأشرف حرّان، والرها، والرقة، وسروج، ورأس العين من الجزيرة، فلما تسلَّم ذلك سلَّم قلعة دمشق الى اخيه الأشرف، فدخلها وأقام بها، وسار الكامل الى الديار الجزرية، فأقام بها الى ان استدعى اخاه الأشرف بسبب حصر جلال الدين خوارزمشاه مدينة خلاط، فلما حضر عنده بالرقة عاد الكامل الى ديار مصر، وأما

الأشرف فكان منه ـ ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر القبض على الحاجب علي وقتله

وفي هذه السنة ارسل الملك الأشرف مملوكه عز الدين أيبك، وهو امير كبير في دولته الى مدينة خلاط، وأمره بالقبض على الحاجب حسام الدين علي بن حماد، وهو المتولي لبلاد خلاط، والحاكم فيها من قبل الأشرف، ولم تعلم شيئا يوجب القبض عليه لأنه كان مشفقاً عليه، ناصحا له، حافظا لبلاده، حسن السيرة مع الرعية، ولقد وقف هذه المدة الطويلة في وجه خوارزمشاه جلال الدين، وحفظ خلاط حفظا يعجز غيره عنه، وكان مهتما بحفظ بلاده وذابا عنها، وقد تقدَّم من ذكر قصده بلاد جلال الدين والاستيلاء على بعضها ما يدل على همة عالية وشجاعة تامة، وصار لصاحبه به منزلة عظيمة، فإن الناس يقولون بعض غلمان الملك الأشرف يقاوم خوارزمشاه، وكان ـ رحمه الله ـ كثير الخير والاحسان لا يمكن احدا من ظلم، وعمل كثيرا من اعمال البر من الخانات في الطرق والمساجد في البلاد، وبنى بخلاط بيمارستاناً وجامعاً، وعمل كثيراً من الطرق واصلحها، كان يشق سلوكها، فلما وصل ايبك الى خلاط قبض عليه، ثم قتله غيلة لأنه كان عدوّه ولما قتل ظهر اثر كفايته، فإن جلال الدين حصر خلّاط بعد قبضه، وملكها على ما نذكره إن شاء الله، ولم يمهل الله ايبك بل انتقم منه سريعاً، فإن جلال الدين أخذ أيبك اسيراً لما ملك خلاط مع غيره من الأمراء، فلما اصطلح الأشرف وجلال الدين اطلق الجميع وذكر ان ايبك قتل، وكان سبب قتله أنّ مملوكا للحاجب علي، كان قد هرب الى جلال الدين، فلما أسر ايبك طلبه ذلك المملوك من جلال الدين ليقتله بصاحبه الحاجب علي، فسلمه اليه فقتله، وبلغني أن الملك الأشرف رأى في المنام كأن الحاجب علياً قد دخل الى مجلس فيه أيبك، فأخذ منديلا، وجعله في رقبة أيبك ،وأخذه وخرج ،فأصبح الملك الأشرف، وقال قد مات أيبك، فإني رأيت في المنام كذا وكذا .

ذكر ملك الكامل مدينة حماة

وفي هذه السنة اواخر شهر رمضان ملك الملك الكامل مدينة حماة، وسبب ذلك ان الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر، وهو صاحب حماة توفي على ما نذكره، ولما حضرته الوفاة حلف الجند، وأكابر البلد لولده الأكبر، ويلقب بالملك المظفَّر، وكان قد سيّره ابوه الى الملك الكامل صاحب مصر لأنه كان قد تزوج بابنته، وكان

لمحمد ولد آخر اسمه قلج أرسلان، ولقبه صلاح الدين، وهو بدمشق، فحضر إلى مدينة حماة فسلمت إليه واستولى على المدينة وعلى قلعتها، فأرسل الملك الكامل يأمره ان يسلم البلد إلى أخيه الأكبر، فإن أباه أوصى له به، فلم يفعل، وترددت الرسل في ذلك الى الملك المعظم صاحب دمشق، فلم تقع الاجابة. فلما توفي المعظم وخرج الكامل الى الشام، وملك دمشق سيَّر جيشا الى حماة، فحصرها ثالث شهر رمضان، وكان المقدم على هذا الجيش أسد الدين شيركوه صاحب حمص، وأمير كبير من عسكره يقال له: فخر الدين عثمان، ومعهما ولد محمد تقي الدين الذي كان عند الكامل، فبقي الحصار على البلد عدة أيام، وكان الملك الكامل قد سار عن دمشق، ونزل على سلمية يريد العبور الى البلاد الجزرية حران وغيرها، فلما نازلها قصده صاحب حماة صلاح الدين، ونزل اليه من قلعته، ولم يكن لذلك سبب إلا أمر الله تعالى. فإن صلاح الدين قال لأصحابه: أريد النزول الى الملك الكامل، فقالوا له: ليس بالشام احصن من قلعتك، وقد جمعت من الذخائر ما لا حد له، فلأي شيء تنزل اليه ليس هذا برأي، فأصر على النزول واصروا على منعه، فقال في آخر الأمر: اتركوني انزل، وإلا القيت نفسي من القلعة، فحينئذ سكتوا عنه، فنزل في نفر يسير، ووصل الى الكامل، فاعتقله الى ان سلّم مدينة حماة وقلعتها الى اخيه الاكبر الملك المظفر، وبقي بيده قلعة بارين حسب، فإنها كانت له. وكان هو كالباحث بظلفه على حتفه.

ذكر حصر جلال الدين خلاط وملكها

وفي هذه السنة اوائل شوال حصر جلال الدين خوارزمشاه مدينة خلاط، وهي للملك الأشرف، وبها عسكره، فامتنعوا بها، وأعانهم اهل البلد خوفاً من جلال الدين لسوء سيرته، وأسرفوا في الشتم والسفه، فأخذه اللجاج معهم، وأقام عليهم جميع الشتاء محاصراً، وفرق كثيرا من عساكره في القرى والبلاد القريبة من شدة البرد، وكثرة الثلج، فإن خلاط من اشدِّ البلاد برداً واكثرها ثلجاً، وأبان جلال الدين عن عزم قويٍّ وصبر تحار العقول منه، ونَصَبَ عليها عدَّة منجنيقات، ولم يزل يرميها بالحجارة حتى خرب بعض سورها، فأعاد اهل البلد عمارته، ولم يزل مصايرهم وملازمهم الى اواخر جمادى الأولى من سنة سبع وعشرين، فزحف اليها زحفا متتابعا، وملكها عنوة وقهراً يوم الأحد الثامن والعشرين من جمادى الأولى، سلَّمها اليه بعض الأمراء غدراً، فلما ملك

البلد صعد من فيه من الأمراء الى القلعة التي لها، وامتنعوا بها، وهو منازلهم، ووضع السيف في أهل البلد، وقتل من وجد به منهم، وكانوا قد قلّوا فإن بعضهم فارقوه خوفا، وبعضهم خرج منه من شدَّة الجوع، وبعضهم مات من القبلة، وعدم القوت، فإن الناس في خلّاط اكلوا الغنم، ثم البقر، ثم الجواميس، ثم الخيل، ثم الحمير، ثم البغال والكلاب والسنانير، وسمعنا أنهم كانوا يصطادون الفار ويأكلونه، وصبروا صبراً لم يلحقهم فيه احد، ولم يملك من بلاد خلاط وغيرها وما سواها من البلاد لم يكونوا ملكوه، وخربوا خلاط، وأكثروا القتل فيها، ومن سلم هرب في البلاد، وسبوا الحريم، واسترقوا الأولاد، وباعوا الجميع، فتمزقوا كل ممزق، وتفرقوا في البلاد، ونهبوا الأموال، وجرى على اهلها ما لم يسمع بمثله، لا جرم لم يمهله الله تعالى، وجرى عليه من الهزيمة بين المسلمين والتتر ـ ما نذكره ان شاء الله تعالى.

ذكر عدة حوادث

في اواخر هذه السنة قصد الفرنج حصن بارين بالشام، ونهبوا بلاده واعماله، وأسروا وسبوا، ومن جملة من ظفروا به طائفة من التركمان كانوا نازلين في ولاية بارين، فأخذوا الجميع، ولم يسلم منهم إلا النادر الشاذ والله أعلم.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة

ذكر انهزام جلال الدين من كيقباذ والأشرف

في هذه السنة يوم السبت الثامن والعشرين من رمضان انهزم جلال الدين خوارزمشاه، من علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج ارسلان، صاحب بلاد الروم قونية واقصرا وسيواس وملطية وغيرها، ومن الملك الأشرف صاحب دمشق وديار الجزيرة وخلاط، وسبب ذلك ان جلال الدين كان قد اطاعه صاحب ارزن الروم، وهو ابن عم علاء الدين ملك الروم، وبينه وبين علاء الذين عداوة مستحكمة، وحضر صاحب ارزن الروم عند جلال الدين على خلاط، واعانه على حصرها فخافهما علاء الدين، فأرسل الى الملك الكامل، وهو حينئذ بحران يطلب منه ان يحضر اخاه الأشرف من دمشق، فإنه كان مقيما بها بعد ان ملكها، وتابع علاء الدين الرسل بذلك خوفا من جلال الدين، فأحضر الملك الكامل أخاه الأشرف من دمشق، فحضر عنده، ورسل علاء الدين اليهما متتابعة، يحثّ الأشرف على المجيء اليه، والاجتماع به حتى قيل: إنه في يوم واحد وصل إلى الكامل والأشرف من علاء الدين خمسة رسل، ويطلب من الجميع وصول الأشرف إليه، ولو وحده، فجمع عساكر الجزيرة والشام، وسار إلى علاء الدين، فاجتمعا بسيواس، وسارا نحو خلاط، فسمع جلال الدين بهما، فسار اليهما مجدّا في السير، فوصل اليهما بمكان يعرف بباسي حمار، وهو من اعمال ارزنجان، فالتقوا هناك، وكان مع علاء الدين خلق كثير قيل: كانوا عشرين الف فارس، وكان مع الأشرف نحو خمسة آلاف إلا انهم من العساكر الجيدة الشجعان لهم السلاح الكثير والدواب الفارهة من العربيات، وكل منهم قد جرب الحرب، وكان المقدم عليهم امير من أمراء عساكر حلب يقال له: عز الدين عمر بن علي، وهو من الأكراد الهكارية، ومن الشجاعة في الدرجة العليا، وله الأوصاف الجميلة، والأخلاق الكريمة،

فلما التقوا بهت جلال الدين لما رأى من كثرة العساكر، لا سيما لما رأى عسكر الشام، فإنه شاهد من تجملهم وسلاحهم ودوابهم ما ملأ صدره رعبا، فأنشب عز الدين بن علي القتال، ومعه عسكر حلب، فلم يقم لهم جلال الدين، ولا صبر ومضى منهزما هو وعسكره لا يلوي الأخ علي أخيه، وتفرّقت اصحابه، وتمزقوا كل ممزق وعاد الى خلاط فاستصحبوا معهم من فيها من اصحابهم، وعادوا الى اذربيجان، فنزلوا عند مدينة خوى، ولم يكونوا قد استولوا على شيء من اعمال خلاط سوى خلاط، ووصل الملك الأشرف الى خلاط، فرآها خاوية على عروشها خالية من الأهل والسكان قد جرى عليهم ما ذكرناه قبل.

ذكر ملك علاء الدين ارزن الروم

قد ذكرنا ان صاحب ارزن الروم كان مع جلال الدين على خلاط، ولم يزل معه، وشهد معه المصاف المذكور، فلما انهزم جلال الدين أخذ صاحب أرزن الروم أسيراً، فأحضر عند علاء الدين كيقباذ ابن عمه، فأخذه وقصد ارزن الروم، فسلمها صاحبها اليه، هي وما يتبعها من القلاع والخزائن وغيرها، فكان كما قيل (خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين)، وهكذا هذا المسكين جاء الى جلال الدين يطلب الزيادة، فوعده بشيء من بلاد علاء الدين، فأخذ ماله وما بيديه من البلاد، وبقي اسيرا، فسبحان من لا يزول ملكه.

ذكر الصلح بين الأشرف وعلاء الدين وبين جلال الدين

لما عاد الأشرف الى خلاط ومضى جلال الدين منهزما الى خوى ترددت الرسل بينهما فاصطلحوا كل منهم على ما بيده، واستقرت القواعد على ذلك، وتحالفوا فلما استقرَّ الصلح وجرت الأيمان عاد الأشرف الى سنجار، وسار منها الى دمشق، فأقام جلال الدين ببلاده من اذربيجان الى ان خرج عليه التتر على ما نذكره ان شاء الله تعالى.

ذكر ملك شهاب الدين غازي مدينة ارزن

كان حسام الدين صاحب مدينة ارزن من ديار بكر لم يزل مصاحبا للملك الأشرف مناصحا له مشاهدا جميع حروبه وحوادثه، وينفق اموال في طاعته، ويبذل نفسه وعساكره في مساعدته، فهو يعادي اعداءه، ويوالي اولياءه، ومن جملة موافقته، انه كان

في خلّاط لما حصرها جلال الدين، ولقي من الشدة والخوف ما لقيه بها، وصبر الى ان ملكها جلال الدين، فأسره جلال الدين، وأراد ان يأخذ منه مدينة ارزن، فقيل له: ان هذا من بيت قديم عريق في الملك، وانه ورث هذه أرزن من اسلافه، وكان لهم سواها من البلاد، فخرج الجميع من أيديهم، فعطف عليه ورق له، وأبقى عليه مدينته، وأخذ عليه العهود والمواثيق انه لا يقاتله، فعاد الى بلده، وأقام به، فلما جاء الملك الأشرف وعلاء الدين محاربين لجلال الدين سار شهاب الدين غازي بن الملك العادل، وهو اخو الأشرف، وله مدينة ميافارقين، ومدينة حانى، وهو بمدينة ارزن، فحصره بها ثم ملكها صلحاً، وعوضه عنها بمدينة حاني من ديار بكر وحسام الدين، هذا نعم الرجل حسن السيرة كريم جواد، لا يخلو بابه من جماعة يريدون اليه يستمنحونه، وسيرته جميلة في ولايته ورعيته، وهو من بيت قديم يقال له: بيت طغان أرسلان، كان لهم من أرزن بدليس ووسطان وغيرهما، ويقال لهم: بيت الأحدب، وهذه البلاد معهم من أيام ملكشاه بن الب ارسلان السلجوقي فأخذ بكتمر صاحب خلاط منهم بدليس، اخذها من عمّ حسام الدين هذا لأنه كان موافقا لصلاح الدين يوسف بن أيوب، فقصده بكتمر لذلك، وبقيت ارزن بيد هذا الى الان، فأخذت منه، ولكل أول آخر، فسبحان من لا أول له ولا آخر لبقائه.

ذكر ملك صونج قشيالوا قلعة روينذر

وفي هذه السنة ظهر أمير من أمراء التركمان، اسمه صونج، ولقبه شمس الدين واسم قبيلته قشيالوا وقوي امره، وقطع الطريق، وكثر جمعه، وكان بين إربل وهمذان، وهو ومن معه يقطعون الطريق، ويفسدون في الأرض، ثم انه تعدّى الى قلعة منيعة اسمها سارو، وهي لمظفّر الدين، وقتل عندها اميرا كبيرا من امراء مظفّر الدين، يعرف بعزّ الدين الحميدي، فجمع مظفَّر الدين، وأراد استعادتها منه، فلم يمكنه لحصانتها، ولكثرة الجموع مع هذا الرجل، فاصطلحا على ترك القلعة بيده. وكان عسكر لجلال الدين خوارزمشاه يحصرون قلعة رويندز، وهي من قلاع أذربيجان من احصن القلاع، وامنعها لا يوجد مثلها، وقد طال الحصار على من بها، فأذعنوا بالتسليم، فأرسل جلال الدين بعض خواص اصحابه، وثقاته ليتسلمها، وأرسل معه الخلع والمال لمن بها، فلما صعد ذلك القاصد الى القلعة، وتسلمها اعطى بعض من بالقلعة، ولم يعط

البعض، واستذلهم، وطمع فيهم حيث استولى على الحصن، فلما رأى من لم يأخذ شيئاً من الخلع والمال ما فعل بهم ارسلوا الى صونج يطلبونه ليسلموا اليه القلعة، فسار اليهم في اصحابه، فسلموها اليه، فسبحان من اذا أراد أمرا سهله، هذه قلعةروينذر ، لم تزل تتقاصر عنها قدرة أكابر الملـوك وعظمائهم من قديم الزمان وحديثه، وتضرب الأمثال بحصانتها لما اراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ان يملكها هذا الرجل الضعيف، سهّل له الأمور، فملكها بغير قتال، ولا تعب، وازال عنها اصحاب مثل جلال الدين الذي كل ملوك الأرض تهابه وتخافه، وكان اصحاب جلال الدين كما قيل: رب ساع لقاعد، فلما ملكها صونج طمع في غيرها، لا سيما مع اشتغال جلال الدين بما اصابه من الهزيمة ومجيء التتر، فنزل من القلعـة الى مراغة، وهي قريب منها فحصرها، فأتاه سهم غرب فقتله، فلما قتل ملك روينذز أخوه ، ثم إن هذا الأخ الثاني نزل من القلعة، وقصد أعمال تبريز ونهبها، وعاد إلى القلعة ليجعل فيها من ذلك النهب والغنيمة ذخيرة خوفاً من التتر ، وكانوا قد خرجوا فصادفه طائفة من التتر، فقتلوه وأخذوا ما معه من النهب ، ولما قتل ملك القلعة ابن اخت له، وكان هذا جميعه في مدّة سنتين، فأفٍّ لدنيا لا تزال تتبع فرحة بترحة ، وكل حسنة بسيئة .

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة

ذكر خروج التتر الى اذربيجان وما كان منهم

في اول هذه السنة وصل التتر من بلاد ما وراء النهر الى اذربيجان وقد ذكرنا قبل كيف ملكوا ما وراء النهر، وما صنعوه بخراسان، وغيرها من البلاد من النهب، والتخريب والقتل، واستقر ملكهم بما وراء النهر، وعادت بلاد ما وراء النهر انعمرت، وعمروا مدينة تقارب مدينة خوارزم عظيمة، وبقيت مدن خراسان خرابا لا يجسر احد من المسلمين يسكنها، وأما التتر، فكانوا تغير كل قليل طائفة منهم ينهبون ما يرونه بها، فالبلاد خاوية على عروشها، فلم يزالوا كذلك، الى ان ظهر منهم طائفة سنة خمس وعشرين، فكان بينهم وبين جلال الدين ما ذكرناه، وبقوا كذلك، فلما كان الآن، وانهزم جلال الدين من علاء الدين كيقباذ، ومن الأشرف ـ كما ذكرناه ـ سنة سبع وعشرين أرسل مقدم الاسماعيلية الملاحدة الى التتر يعرفهم ضعف جلال الدين بالهزيمة الكائنة عليه، ويحثهم على قصده، عقيب الضعف، ويضمن لهم الظفر به، للوهن الذي صاروا إليه، وكان جلال الدين سيء السيرة، قبيح التدبير لملكه، لم يترك احدا من الملوك المجاورين له الا عاداه، ونازعه الملك، وأساء مجاورته، فمن ذلك انه اول ما ظهر في اصفهان، وجمع العساكر قصد خوزستان، فحصر مدينة ششتر وهي للخليفة فحصرها، وسار الى دقوقا فنهبها، وقتل فيها فأكثر وهي خليفة ايضا، ثم ملك اذربيجان، وهي لأوزبك، فملكها، وقصد الكرج وهزمهم، وعاداهم، ثم عادى الملك الأشرف، صاحب خلاط، ثم عادى علاء الدين صاحب بلاد الروم، وعادى الاسماعيلية، ونهب بلادهم وقتل فيهم، فأكثر وقرر عليهم وظيفة من المال كل سنة، وكذلك غيرهم، فكل من الملوك تخلّى عنه، ولم يأخذ بيده، فلما وصلت كتب مقدم الإسماعيلية الى التتر يستدعيهم الى قصد جلال الدين، بادر طائفة منهم فدخلوا بلاده،

واستولوا على الري، وهمذان وما بينهما من البلاد، ثم قصدوا اذربيجان، فخربوا ونهبوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها، وجلال الدين لا يقدم على أن يلقاهم، ولا يقدر على منعهم عن البلاد، قد ملىء رعباً وخوفاً، وانضاف الى ذلك ان عسكره اختلفوا عليه، وخرج وزيره عن طاعته في طائفة كثيرة من العسكر، وكان السبب ان غريبا اظهر من قلّة عقل جلال الدين ما لم يسمع بمثله، وذلك أنه كان له خادم خصي، وكان جلال الدين يهواه واسمه قلج، فاتفق ان الخادم مات فأظهر من الهلع والجزع عليه ما لم يسمع بمثله، ولا لمجنون ليلى، وأمر الجند والأمراء ان يمشوا في جنازته رجالة، وكان موته بموضع بينه وبين تبريز عدّة فراسخ، فمشى الناس رجالة ومشى بعض الطريق راجلا، فألزمه امراؤه ووزيره بالركوب، فلما وصل الى تبريز ارسل الى اهل البلد، فأمرهم بالخروج عن البلد لتلقي تابوت الخادم، ففعلوا، فأنكر عليهم حيث لم يبعدوا، ولم يظهروا من الحزن والبكاء اكثر مما فعلوا، وأراد معاقبتهم على ذلك، فشفع فيهم امراؤه، فتركهم، ثم لم يدفن ذلك الخصي، وإنما كان يستصحبه معه اين ساروا، وهو يلطم ويبكي، فامتنع من الأكل والشراب، وكان اذا قدم له طعام يقول احملوا من هذا الى قلج، ولا يتجاسر احد يقول انه مات، فانه قيل له مرة: إنه مات فقتل القائل له ذلك، إنما كانوا يحملون اليه الطعام ويعودون، يقولون: إنه يقبل الأرض، ويقول: إنني اصلح مما كنت، فلحق امراءه من الغيظ والأنفة من هذه الحالة ما حملهم على مفارقة طاعته، والانحياز عنه مع وزيره، فبقي حيران لا يدري ما يصنع لا سيما لما خرج التتر، فحينئذ دفن الغلام الخصي، وراسل الوزير واستماله وخدعه الى ان حضر عنده، فلما وصل اليه بقي أياما وقتله جلال الدين، وهذه نادرة غريبة لم يسمع بمثلها.

ذكر ملك التتر مراغة

وفي هذه السنة حصر التتر مراغة من اذربيجان، فامتنع اهلها، ثم اذعن اهلها بالتسليم على امان طلبوه، فبذلوا لهم الأمان وتسلموا البلد، وقتلوا فيه إلا انهم لم يكثروا القتل، وجعلوا في البلد شحنة، وعظم حينئذ شأن التتر، واشتد خوف الناس منهم بأذربيجان، فالله تعالى ينصر الإسلام والمسلمين نصرا من عنده، فما نرى في ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد، ولا في نصرة الدين بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته، وهذا اخوف عندي من العدو، وقال الله تعالى ﴿اتقوا فتنة لا تصيبن

الذين ظلموا منكم خاصة﴾.

ذكر وصول جلال الدين إلى آمد وانهزامه عندها وما كان منه

لمّا رأى جلال الدين ما يفعله التتر في بلاد أذربيجان، وانهم مقيمون بها يقتلون وينهبون، ويخربون السواد، ويجبـون الأموال، وهم عازمون على قصده، ورأى ما هو عليه من الوهن والضعف فارق اذربيجان الى بلاد خلاط، وأرسل الى النائب بها عن الملك الأشرف، يقول له: ما جئنا للحرب، ولا للأذى، انما خوف هذا العدو حملنا على قصد بلادكم، وكان عازما على ان يقصد ديار بكر والجزيرة، ويقصد باب الخليفة يستنجده، وجميع الملوك على التتر، ويطلب منهم المساعدة على دفعهم، ويحذرهم عاقبة اهمالهم، فوصل الى خلاط، فبلغه ان التتر يطلبونه، وهم مجدون في أثره، فسار الى آمد، وجعل اليزك في عدة مواضع خـوفا من البيـات، فجاءت طـائفة من التتـر يقصدون أثره، فوصلوا اليه على غير الطريق الذي فيه اليزك، فأوقعوا به ليلاً وهو بظاهر مدينة آمد، فمضى منهزما على وجهه وتفرق من معه من العسكر في كل وجه فقصد طائفة من عسكره حرّان فأوقع بهم الأمير صواب مقدم الملك الكامـل بحران ومعـه العسكر فأخذوا ما معهم من مال وسلاح ودواب، وقصد طائفة منهم نصيبين والموصل وسنجار واربل وغير ذلك من البلاد، فتخطفهم الملوك والرعايا، وطمع فيهم كل احد حتى الفلاح والكردي والبدوي وغيرهم، وانتقم منهم وجازاهم على سوء صنيعهم، وقبيح فعلهم في خـلاط وغيرهـا، وبمـا سعـوا في الأرض فســادا، والله لا يحب المفسدين، فازداد جلال الدين ضعفاً الى ضعفـه ووهنا الى وهنه، بمن تفـرّق من عسكره، وبما جرى عليهم، فلما فعل التتر بهم ذلك، ومضى منهزما منهم دخلوا ديار بكر في طلبه لأنهم لم يعلموا اين قصد، ولا اي طريق سلك، فسبحان من بدل امنهم خوفا، وعزّهم ذلا وكثرتهم قلة، فتبارك الله رب العالمين الفعّال لما يشاء.

ذكر دخول التتر ديار بكر والجزيرة وما فعلوه في البلاد من الفساد

لما انهزم جلال الدين من التتر على آمد نهب التتر سواد آمد وارزن وميافارقين، وقصدوا مدينة اسعرد، فقاتلهم أهلها، فبذل لهم التتر الأمان، فوثقوا منهم واستسلموا فلما تمكن التتر منهم بذلوا فيهم السيف وقتلوهم حتى كادوا يأتون عليهم، فلم يسلم منهم إلا من اختفى وقليل ما هم.

حكى لي بعض التجار، وكان قد وصل آمد انهم حزروا القتلى ما يزيد على خمسة عشر الف قتيل، وكان مع هذا التاجر جارية من اسعرد، فذكرت ان سيدها خرج ليقاتل، وكان له ام فمنعته، ولم يكن لها ولد سواه، فلم يصغ الى قولها، فمشت معه فقتلا جميعا، وورثها ابن الاخ للام، فباعها من هذا التاجر، وذكرت من كثرة القتلى أمرا عظيما، وان مدّة الحصار كانت خمسة أيام، ثم ساروا منها الى مدينة طنزة، ففعلوا فيها كذلك، وساروا من طنزة الى واد بالقرب من طنزة، يقال له: وادي القريشية فيه طائفة من الأكراد يقال لهم: القريشية، وفيه مياه جارية وبساتين كثيرة، والطريق اليه ضيق، فقاتلهم القريشية فمنعوهم عنه وامتنعوا عليهم، وقتل منهم كثير، فعاد التتر، ولم يبلغوا منهم غرضا، وساروا في البلاد لا مانع يمنعهم، ولا احد يقف بين أيديهم، فوصلوا الى ماردين، فنهبوا ما وجدوا من بلدها واحتمى صاحب ماردين وأهل دنيسر بقلعة ماردين، وغيرهم ممن جاور القلعة احتمى بها ايضا، ثم وصلوا الي نصيبين الجزيرة، فأقاموا عليها بعض نهار ونهبوا سوادها، وقتلوا من ظفروا به، وغلقت ابوابها، فعادوا عنها، ومضوا الى بلد سنجار، ووصلوا الى الجبال، من اعمال سنجار فنهبوها، ودخلوا الى الخابور، فوصلوا الى عرابان، فنهبوا، وقتلوا، وعادوا، ومضى طائفة منهم على طريق الموصل، فوصلوا الى قرية تسمى المؤنسة، وهي على مرحلة من نصيبين بينها وبين الموصل، فنهبوها واحتمى اهلها وغيرهم بخان فيها فقتلوا كل من فيه.

وحُكي لي عن رجل منهم انه قال: اخفيت منهم ببيت فيه تبن فلم يظفروا بي، وكنت اراهم من نافذة في البيت، فكانوا اذا ارادوا قتل انسان فيقول: لا بالله فيقتلونه، فلما فرغوا من القرية، ونهبوا ما فيها، وسبوا الحريم، رأيتهم وهم يلعبون على الخيل، ويضحكون ويغنون بلغتهم بقول: (لا بالله)ومضى طائفة منهم الى نصيبين الروم، وهي على الفرات، وهي من اعمال آمد، فنهبوها وقتلوا فيها، ثم عادوا إلى آمد، ثم إلى بلد بدليس، فتحصّن اهلها بالقلعة والجبال، فقتلوا فيها يسيرا واحرقوا المدينة.

وحكى انسان من اهلها، قال: لو كان عندنا خمسمائة فارس لم يسلم من التتر احد، لأن الطريق ضيق بين الجبال، والقليل يقدر على منع الكثير، ثم ساروا من بدليس الى خلاط، فحصروا مدينة من أعمال خلاط، يقال لها: باكري، وهي من أحصن البلاد، فملكوها عنوة، وقتلوا كل من بها، وقصدوا مدينة ارجيش من اعمال خلاط،

وهي مدينة كبيرة عظيمة، ففعلوا كذلك، وكان هذا في ذي الحجة، ولقد حُكِيَ لي عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذي القاه الله ـ سبحانه وتعالى ـ في قلوب الناس منهم، حتى قيل ان الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب، وبه جمع كثير من الناس، فلا يزال يقتلهم واحداً بعدواحد لا يتجاسر احد يمد يده الى ذلك الفارس، ولقد بلغني ان انسانا منهم اخذ رجلا، ولم يكن مع التتري ما يقتله به، فقال له: ضع رأسك على الأرض ولا تبرح، فوضع رأسه على الأرض، ومضى التتري احضر سيفاً فقتله به.

وحكى لي رجل قال: كنت انا ومعي سبعة عشر رجلا في طريق، فجاءنا فارس من التتر، وقال لنا: حتى يكتف بعضنا بعضا، فشرع اصحابي يفعلون ما أمرهم، فقلت لهم: هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب، فقالوا نخاف، فقلت: هذا يريد قتلكم الساعة، فنحن نقتله، فلعل الله يخلصنا فوالله ما جسر احد يفعل ذلك فأخذت سكينا وقتلته، وهربنا فنجونا وامثال هذا كثير.

ذكر وصول طائفة من التتر الى اربل ودقوقا

في هذه السنة في ذي الحجة وصل طائفة من التتر من اذربيجان الى اعمال اربل، فقتلوا من على طريقهم من التركمان الأيوائية، والأكراد والجوزقان، وغيرهم الى ان دخلوا بلد اربل فنهبوا القرى، وقتلوا من ظفروا به أهل تلك الأعمال، وعملوا الأعمال الشنيعة التي لم يسمع بمثلها من غيرهم، وبرز مظفر الدين صاحب اربل في عساكره واستمد عساكر الموصل، فساروا اليه، فلما بلغه عود التتر الى اذربيجان، اقام في بلاده، ولم يتبعهم، فوصلوا الى بلد الكرخيني، وبلد دقوقا، وغير ذلك وعادوا سالمين لم يذعرهم احد، ولا وقف في وجوههم فارس، وهذه مصائب وحوادث لم يرَ الناس من قديم الزمان وحديثه ما يقاربها ـ فالله سبحانه وتعالى ـ يلطف بالمسلمين ويرحمهم، ويرد هذا العدو عنهم، وخرجت هذه السنة، ولم نتحقق لجلال الدين خبرا، ولا نعلم هل قتل او اختفى لم يظهر نفسه خوفا من التتر، أو فارق البلاد الى غيرها ـ والله أعلم.

ذكر طاعة أهل أذربيجان للتتر

في أول هذه السنة أطاع أهل بلاد اذربيجان جميعها للتتر، وحملوا اليهم الأموال

والثياب الخطائي والخويي والعتابي، وغير ذلك ، وسبب طاعتهم أن جلال الدين لما انهزم على آمد من التتر، وتفرقت عساكره، وتمزقوا كل ممزّق، وتحفظهم الناس، وفعل التتر بديار بكر والجزيرة واربل وخلاط ما فعلوا، ولم يمنعهم احد، ولا وقف في وجوههم فارس، وملوك الإسلام منحجرون في الاثقاب، وانضاف الى هذا انقطاع اخبار جلال الدين، فإنه لم يظهر له خبر، ولا علموا له حالا سقط في أيديهم، واذعنوا للتتر بالطاعة، وحملوا اليهم ما طلبوا منهم من الأموال والثياب، من ذلك مدينة تبريز التي هي اصل بلاد أذربيجان، ومرجع الجميع اليها، والى من بها، فإن ملك التتر نزل في عساكره بالقرب منها، وأرسل الى اهلها يدعوهم الى طاعته، ويتهددهم ان امتنعوا عليه، فأرسلوا اليه المال الكثير والتحف من انواع الثياب الا بريسم وغيرها وكل شيء حتى الخمر، وبذلوا له الطاعة، فأعاد الجواب يشكرهم، ويطلب منهم ان يحضر مقدموهم عنده، فقصده قاضي البلد ورئيسه ، وجماعة من اعيان اهله، وتخلف عنهم شمس الدين الطغرائي ، وهو الذي يرجع الجميع اليه الا انه لا يظهر شيئا من ذلك، فلما حضروا عنده سألهم عن امتناع الطغرائي ، فقالوا : إنه رجل منقطع ما له بالملوك تعلق، ونحن الأصل ، فسكت، ثم طلب ان يحضروا عنده من صنّاع الثياب الخطائي وغيرها ليستعمل لملكهم الأعظم، فإن هذا هو من اتباع ذلك الملك، فاحضروا الصناع، فاستعملهم في الذي ارادوا ووزن اهل تبريز الثمن، وطلب منهم خركاة لملكهم ايضا، فعملوا له خركاة لم يعمل مثلها، وعملوا غشاءها من الأطلس الجيد المزركش، وعملوا من داخلها السمور والقندر، فجاءت عليهم بجملة كثيرة، وقرّر عليهم من المال كل سنة شيئا كثيرا، ومن الثياب كذلك، وترددت رسلهم الى ديوان الخلافة، وإلى جماعة من الملوك يطلبون منهم انهم لا ينصرون خوارزمشاه، ولقد وقفت على كتاب وصل من تاجر من اهل الري، كان قد انتقل الى الموصل، وأقام بها هو ورفقاء له، ثم سافر الى الري في العام الماضي قبل خروج التتر، فلما وصل التتر الى الري، وأطاعهم اهلها، وساروا الى اذربيجان سار هو معهم الى تبريز، فكتب الى اصحابه بالموصل يقول: إن الكافر ـ لعنه الله ـ ما نقدر نصفه، ولا كثرة جموعه حتى لا تنقطع قلوب المسلمين، فإن الأمر عظيم ولا تظنوا ان هذه الطائفة التي وصلت الى نصيبين والخابور والطائفة الأخرى التي وصلت الى اربل ودقوقا كان قصدهم النهب، إنما ارادوا ان يعلموا هل في البلاد من يردهم ام لا ، فلما عادوا اخبروا ملكهم بخلوّ البلاد من مانع ومدافع، وان البلاد

خالية من ملك وعساكر، فقوي طمعهم، وهم في الربيع يقصدونكم، وما يبقى عندكم مقام الا ان كان في بلد الغرب، فان عزمهم على قصد البلاد جميعها، فانظروا لأنفسكم هذا مضمون الكتاب، ـ فانا لله وإنا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ـ، وأما جلال الدين، فإلى آخر سنة ثمان وعشرين لم يظهر له خبر، وكذلك الى سلخ صفر سنة تسع لم نقف له على حال، والله المستعان.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قلَّت الأمطار بديار الجزيرة والشام، لا سيما حلب واعمالها، فإنها كانت قليلة بالمرة، وغلت الأسعار بالبلاد وكان اشدها غلاء حلب، الا انه لم يكن بالشديد مثل ما تقدَّم في السنين الماضية، فأخرج اتابك شهاب الدين، وهو والي الأمر بحلب والمرجع إلى امره ونهيه، وهو المدبر لدولة سلطانها الملك العزيز بن الملك الظاهر، والمربي له من المال والغلات كثيرا، وتصدق صدقات دارة، وساس البلاد سياسة حسنة، بحيث لم يظهر للغلاء اثر، فجزاه الله خيرا.

وفيها بنى أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة قلعة عند سلمية، وسماها سميس، وكان الملك الكامل لما خرج من مصر الى الشام قد خدمه اسد الدين ونصح له وله اثر عظيم في طاعته والمقاتلة بين يديه، فأقطعه مدينة سلمية، فبنى هذه القلعة بالقرب من سلمية، وهي على تل عال.

وفيها قصد الفرنج الذين بالشام مدينة جبلة، وهي بين جملة المدن المضافة الى حلب، ودخلوا اليها، وأخذوا منها غنيمة وأسرى، فسيَّر اتابك شهاب الدين اليهم العساكر مع امير كان اقطعها، فقاتل الفرنج، وقتل منهم كثيرا، واسترد الأسرى والغنيمة.

وفيها توفي القاضي ابن غنائم بن العديم الحلبي الشيخ الصالح، وكان من المجتهدين في العبادة والرياضة والعاملين بعلمهم، فلو قال قائل: انه لم يكن في زمانه اعبد منه لكان صادقا ـ فرضي الله عنه وارضاه ـ فإنه من جملة شيوخنا، سمعنا عليه الحديث وانتفعنا برؤيته وكلامه.

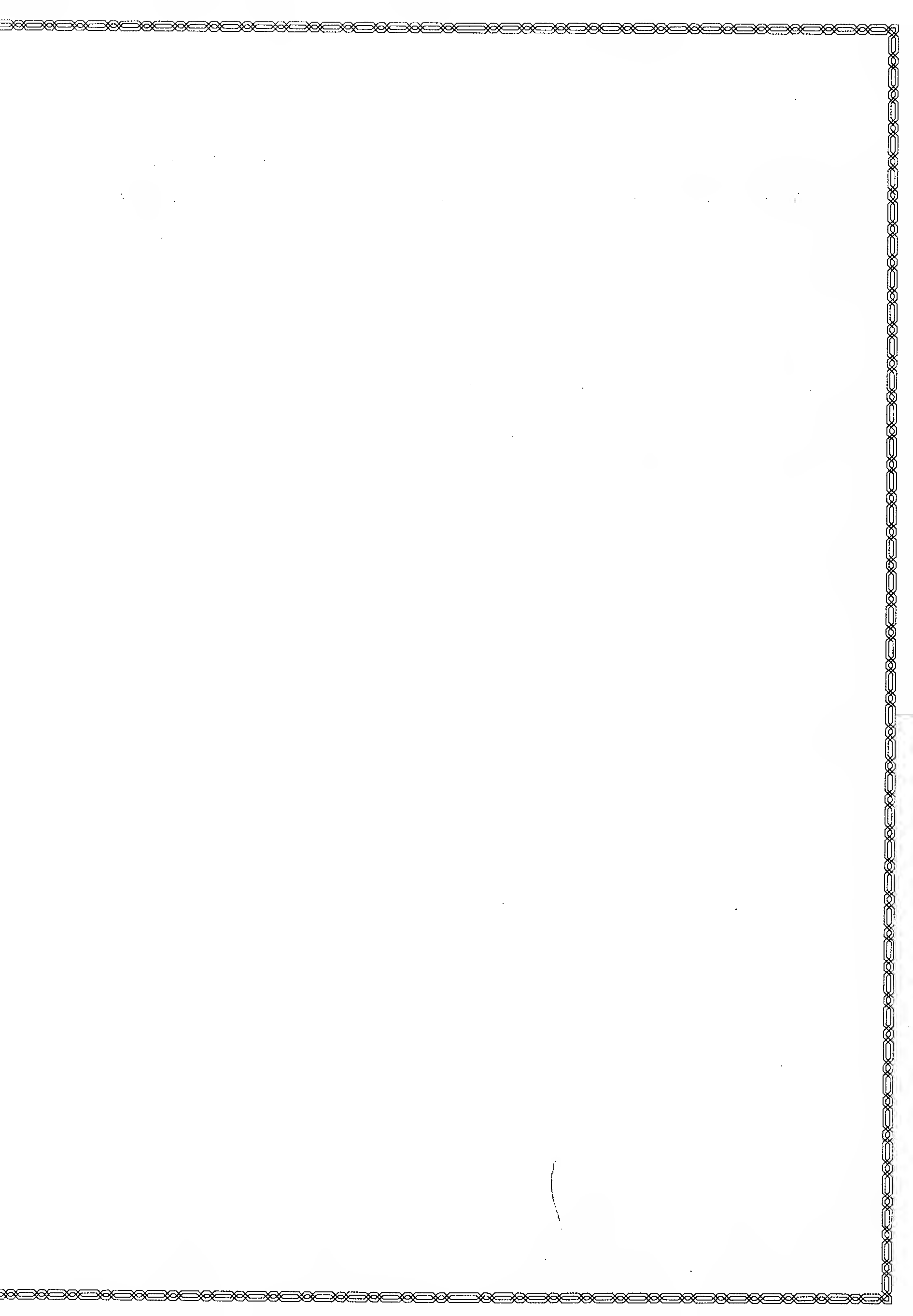
وفيها ايضا في الثاني عشر من ربيع الأول، توفي صديقنا ابو القاسم عبد المجيد بن العجمي الحلبي، وهو وأهل بيته مقدمو السنة بحلب وكان رجلا ذامروءة غزيرة، وخلق

حسن، وحلم وافر، ورياسة كثيرة، يحب اطعام الطعام، وأحب الناس اليه من يأكل طعامه، ويقبل بره، وكان يلقى اضيافه بوجه منبسط، ولا يقعد عن ايصال راحة، وقضاء حاجة، فرحمه الله رحمة واسعة

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة

(تم بعون الله تعالى كتاب الكامل في التاريخ)

والحمد لله أولاً وآخراً



الفهرس